

وفى علم الاصول يُقسَّمون العلم إلى : علم دراية ، وعلم رواية ، فعلم الرواية كالذى يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر ، ومع ذلك ربما لا يعرف تفسيره ؛ لأنَّ علمه بالقرآن علم رواية فحسب ، أما الذى تخصص فى تفسيره ومعرفة معانيه وأحكامه ، فهذا العلم يُعدُّ علم دراية ، فالدراية إذن علم بالتفصيل ، والرواية علم بالإجمال الكلى .

ومن حكمته تعالى أن يكون حفظ القرآن ليسوا من العلماء - إلا فيما ندر - لأن العالم إذا ما وقف حفظه عند كلمة معينة ربما دعاه علمه إلى التصريف فيها بلفظ آخر ، كما فى (فتبينوا ، فتثبتوا)^(١) مثلاً ، أما الذى حفظ القرآن رواية فحسب ، فإذا وقف أمام كلمة ناسياً لها ، فإنه لا يتجاوزها حتى يفتح الله عليه بما نسيه ، وبذلك حفظ الله كلامه .

ونلاحظ أن هذا الفعل جاء بصيغة المضارع ﴿وَمَا يُدْرِكُ .. (١٧)﴾ [الشورى] وجاء بصيغة الماضى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] ولكل منهما مدلول ، فساعة يقول سبحانه ﴿وَمَا يُدْرِكُ .. (١٧)﴾ [الشورى] يعنى : لا وسيلة إلى أن يُعلمك أحد بها أبداً ، لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال . أما ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] فتدل على أنه نفى أن يعلمه أحد قبل الآن ، ومن الممكن أن نعلمه نحن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرٌ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا نَعْرُ (٢٨)﴾ [المدثر]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ [المرسلات]

(١) يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا حُرِّمْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٥)﴾ [النساء] .

وقال : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أُدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعَدٍ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾

[الحاقة]

وقال : ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أُدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾

[القارعة]

وقال : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةُ (١١) وَمَا أُدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) ﴾

[البلد]

وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أُدْرَاكَ مَا هِيَةُ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾

[القارعة]

وقال : ﴿ وَمَا أُدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أُدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) ﴾

[الانتظار]

وقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أُدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) ﴾

[القدر]

وهكذا في كل (وَمَا أُدْرَاكَ) تعنى : أنك لم تكن تعرفه من قبل ، لكن سيخبرك الله به ، أما صيغة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (٦٢) ﴾ [الاحزاب] فتعنى أن هذا الشيء المبهم سيظل كذلك مبهماً لا يطلعك الله عليه . ومن هذه الأمور وقت قيام الساعة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الاحزاب]

ولم يخبر الحق سبحانه عن وقتها : لأن الإيهام قد يكون أوضح البيان . فانه تعالى أيهم عنا ساعة الموت ، فلا يدري أحد منا متى يموت ، وهذا الإيهام جعلك تنتظره في كل لحظة من لحظات حياتك ، فالحقيقة أنه بهذا الإيهام أوضحه كل الإيضاح .

كذلك أبهم الله مثلاً ليلة القدر في العشر الاواخر من رمضان :
لانه سبحانه لا يريدك مُتَعَبِداً ليلة واحدة ، إنما يريدك مُتَعَبِداً طوال
هذه العشر لتستزيد من الثواب وتحب العباداة لذاتها لا لمجرد الثواب
عليها .

وكذلك أخفى الله تعالى عنا وقت الساعة ، لكي تتوقعها في كل
وقت ، وننتظرها كل لحظة ، وهذا أدعى للاستقامة والخوف من
المعصية . ومن أدراك أن تقوم الساعة وأنت على معصية الله ، إذن :
الإبهام هنا عين البيان .

وهو مقصد من مقاصد الحق سبحانه : ليشيع الحكم في كل
زمان ، وإلا لو عرف الإنسان أجله لساو في الدنيا كما نقول (على
حلّ شعره) يُعْرَبِدُ فيها كما يشاء ، ثم يتوب قبل الموت : لذلك
لم يجعل الله تعالى للموت سبباً ، فحين لا ترى سبباً قُلْ مات لأنه
يموت ، وصدق مَنْ قال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ورحم الله شوقي حين قال في الموت :

في الموت ما أغيا وفي أسبابه كل أمرى رهمن بطي كتابه
أسد لعمرى من يموت بظفره عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنه فكل طب نافع أو لم يتم فالطب من أدنايه

وكثيراً ما ترى المريض يموت بسبب حقنة أعطاهها له الطبيب ،
أو عملية جراحية غير موفقة .

وصدق مَنْ قال :

سبحان من يرث الطبيب وطبه ويرى المريض مصارع الآسينا
لكن مع ذلك ، يجعل الله لها علامات لطفاً بنا ورحمة ، علامات

صغرى وعلامات كبرى ؛ لذلك يقول سبحانه عن الساعة : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ۖ ۝ (١٥) ﴾ [طه]

يعنى : قاربتُ أن أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى ، والعلامات الكبرى ، لأنها أصبحت قريبة . وقلنا : إن الهمزة فى (اخفيها) همزة إزالة يعنى : أزيل خفاءها ، مثل همزة (أعجم) تقول : أعجم الكتاب أى : أزال عجمته وإبهامه بوضع النقط على الحروف ، ومنه سُميت الكتب التى توضح معانى المفردات : معاجم .

وقد تكون الإزالة بالتضميف مثل (قشرت البرتقالة) يعنى : أزلت قشرتها .

فمعنى ﴿ وَمَا يَذْرُوكَ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [الشورى] أى : لا أحد سيخبرك بها ولا أنا ، وكما ضنَّ الحقُّ بعلمها على الخلق جميعاً فقد ضنَّ على نبيه وحبيبه محمد . ولو كان مخبراً بها لأخبر نبيه ، حتى ولو سراً بينه وبينه ، دون أن يُبلغ الناس بها ، لكن أبداً لا هذه ولا هذه ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله إذا سُئل عن الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۖ (٦٤)
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ (٦٥) ﴾

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

لعنهم يعني : طردهم من رحمته تعالى ، وأبعدهم أي : في الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤] يعني نارا تستعر وتتأجج وتتوهج ، وهذا في الآخرة في اليوم الذي قال الله فيه : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [٦٥]

وهذه النار المتأججة باقية دائمة لا تنتهي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ..﴾ [الأحزاب: ٦٥] وسمعنا بعض العلماء يقولون عن الأبدية أنها ذكرت في كل الآيات التي تحدثت عن نعيم الجنة ، لكنها لم تذكر في عذاب الكفار يوم القيامة .

وصاحب هذا القول لم يستقرئ كتاب الله جيدا ، فقد ذكر هذا اللفظ : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ..﴾ [الأحزاب: ٦٥] في موضعين : أحدهما هذا الذي نحن بصدد ، والآخر في سورة الجن في قوله سبحانه : ﴿وَمِنْ بَعْضِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٢]

وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يأتي لفظ التأييد في كل آيات الجنة ، ولا يأتي إلا في موضعين لأهل النار ، ذلك لأن رحمة الله سبقت غضبه ، فافتضى ذلك أن يبشّر المؤمنين بتأييد النعيم ودوامه .

أما في جزاء الكافرين ، فيقول : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ..﴾ [الأحزاب: ٦٥] ولا يذكر لفظ التأييد ، لعل ذلك يحثّ قلوب هؤلاء ، ويعطفهم إلى طريق الله الرحيم بهم .

ونذكر لفظ التأييد في هاتين الآيتين ليحقق المبدأ ويقرّره فحسب ، ومن رحمته تعالى أن تسبق رحمته في البشارة ، وتتلطف بالنزارة .
فهذه الحكمة الإلهية مقصودة ، وكانت تؤتي ثمارها المرجوة ،

فكانت باباً لإيمان الكثيرين من الكفار ، وسبق أن ذكرنا قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لما جاءه ضيف وطرق بابه ، فسأله عن دينه ، فلما علم أنه غير مؤمن أغلق الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، لكن سرعان ما عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم في ذلك وقال له : يا إبراهيم ، لقد وسعته طوال حياته في ملكي وهو كافر بي ، أتريد أن يغير دينه في ليلة تستضيفه فيها .

فهوول إبراهيم - عليه السلام - حتى لحق بالرجل ، وأعادته إلى ضيافته ، فقال الرجل : ألم تردني عن بابك منذ قليل ؟ قال : بلى . ولكن عاتبني ربي فيك ، فقال : نعم الربُّ ربُّ يعاتب أوليائه في أعدائه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

وهم في خلودهم في النار ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٥)
[الأحزاب] أي : مالكا يتولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٥) [الأحزاب] ينصرهم أو يدافع عنهم .

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا

أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٦)

بعد أن ذكر الحق سبحانه الأبدية التي ستكون للكفار في النار يذكر وصفا للحالة التي سيكونون عليها في النار ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ..﴾ (٦٦) [الأحزاب] التقلب معناه تغيير الأمر وتصريفه من حال إلى حال ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٢٦) متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد (١٢٧) [آل عمران]

يعنى : أسفارهم ونشاطهم في حركة التجارة بين الشام واليمن ، وما يترتب على هذه الحركة من أموال وشروات .

فبقوله : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ رُجُومُهُمْ فِي النَّارِ ..﴾ (٦٦) ﴿[الاحزاب] أى :
تُقَلَّبُهُم الملائكة ، فكلما نضج جانب قلوبهم على الجانب الآخر كما
تُقَلَّبُ نحن (سيخ الكباب) على النار لتستوعبه كله ، فيتم نُضْجُهُ .
وَحَصَّ الوجه ، لأنه سمة الإعلام بالشخص ، وأشرف أعضائه
وأكرمها ، ومنه أُخِذَتْ الوجاهة والوجيه ، وكلها تدل على الشرف ،
ونظراً لأنه أشرف الجوارح ، فالجوارح كلها تصميه وتدافع عنه ،
وسبق أن قلنا : لو أن سيارة أسرعت بمحرك ، ولطخت ثيابك
ووجهك بالوحل مثلاً ، ماذا تفعل ؟ أولاً : تنشغل بوجهك وتنزيل ما
أصابه من أذى ، ثم تلتفت إلى ثيابك .

ولتعلم أهمية الوجه ومنزلته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ
بُورْجَهُ سَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..﴾ (٢٤) ﴿[الزمر] فمن شدة العذاب يتقيه
بوجهه الذى هو أشرف أعضائه .

أو : أن معنى التقلب من عذاب إلى عذاب ، وقد أعطانا الحق
سبحانه صوراً متعددة لوجوه الكافرين في النار ، والعياذ بالله ، فقال
مرة : ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهَهُمْ سُودَةٌ ..﴾ (٦٠) ﴿[الزمر]
وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غِيبَةٌ^(١) (٤٠) تَرَهَقَهَا قُتْرَةٌ^(٢) (٤١) أُولَئِكَ
هُمْ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ^(٣) (٢١) تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ^(٤) (٢٥)﴾
[القيامة]

(١) الغيبة : ما دق من التراب ، قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غِيبَةٌ (٤٠)﴾ [عبس] أى : عليها
غبار و تراب كثاية عن النل والشقاء . [القاموس القويم ٤٧/٢]

(٢) القنطرة : شبه دخان يغطى الوجه من شدة الكرب ، [القاموس القويم ١٠٠/٢] ،
والقنطرة : غيرة يعلوها سواد كالنخاع ، [لسان العرب ٥ : مائة : قنر]

(٣) بيسر : أظهر العيوس ونظر بكرامة وكلح وتفتير ، وقوله تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢١)﴾
[القيامة] كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١٦٦/١] .

فألوجه هنا لا يأخذ صورة واحدة ، إنما يأخذ ألواناً متعددة وأحوالاً شتى ، تدلُّ على تنوع ما يتعرضون له من العذاب والإيلام ، والوجه هو الدليل الأول على صاحبه ، والمترجم عما بداخله ، فحين يتغير لك صاحبك مثلاً تلاحظ ذلك على وجهه ، فتقول : ما لك تغير وجهك من ناحيتي ؟ أو لماذا تقلب وجهك عني ؟

وهؤلاء حال تقلب وجوههم في النار ، يقولون : ﴿يَلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٦) [الأحزاب] وهم الذين كانوا بالأمس يؤذون الله ، ويؤذون الرسول ، ويؤذون المؤمنين .

كلمة ﴿يَلَيْتَنَا ..﴾ (٦٦) [الأحزاب] كلمة تمنُّ ، وهو لَوْنٌ من الطلب تتعلق به النفس وتريده ، لكن هيهات ، فهو عادةً يأتي في المحال ، وفي غير الممكن ، كما جاء في قول الشاعر :

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ
وقول الآخر :

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عَقُودَ مَدَحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي
فالشباب لا يعود ، والكواكب لا تدنو لأحد ، لكنها أمنية النفس ، كذلك هؤلاء يتمنون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ، لكن هيهات أن يجدي ذلك ، فقد فات الأوان .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ، فهم ما أطاعوا الله وما أطاعوا رسول الله ، لكن حجتهم :

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (٦٧)

رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعُفٌ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعَنًا كَبِيرًا﴾ (٦٨)

السادة : جمع السيد ، وهو الأمر المنقذ على غيره ، ولا يغير عليه أحد ، والكبراء : هم الذين يأخذون منازل في قومهم ، على قدر ما يؤدُّون لهم من خدمات ، فسيد القوم أو كبير القوم لا يتبوأ هذه المنزلة من فراغ ، إنما من مواهب وإمكانات تؤهله لهذه المنزلة : لذلك لا يجد غضاضة في أن يقول له الناس : يا سيدى . لأنه دفع ثمن هذه السيادة وهذا هو السيد الحقيقى .

وقد تُؤخذ السيادة بالقوة والجبروت والقهر ، دون أن يُقدَّم السيد شيئاً يسودُّ به قومه ، وهذا تلصُّص على السيادة يفضضه الناس ؛ لذلك فإن الشرع الإسلامى لم يغفل هذه السيادة الحقيقية ، ولم يغفل وجاهة الناس ومنزلتهم ، فقيم ذلك كله مالياً فى شركة سعاها شركة الوجوه^(١) ، فرأس مالى فى الشركة أموال ، ورأس مالك وجاهتك ومحبة الناس لك ومنزلتك فى المجتمع .

والناس يُحبُّون هذه السيادة الحقَّة التى أخذها صاحبها بحقها ؛ يحبونها لأنهم ينالون خيرها ، وينتفعون بها على خلاف السيادة المسروقة التى أخذها صاحبها عنوة ، فهم لا يستفيدون منها بشيء ، بل هى سيادة تضرُّهم ، وتاكل خيراتهم .

لذلك قلنا فى العبودية : إنها كلمة نكرها ، إن كانت عبودية بشر لبشر ؛ لأنها عبودية تعطى خير العبد لسيدِّه ، إنما العزُّ كله فى أن تكون العبودية لله تعالى ، حيث يأخذ العبد خير سيده .

وتأمل كيف كانت العبودية شرقاً وتكريماً لسيدنا رسول الله حينما

(١) شركة الوجوه : هى أن يشتري اثنان فأكثر من الناس دون أن يكون لهم رأس مال اعتداداً على جاههم وثقة التجار بهم ، على أن تكون الشركة بينهم فى الربح فهى شركة على الذم من غير صنعة ولا مال ، وهى جائزة عند الحنفية والحنابلة ؛ لأنها عمل من الأعمال ، وليطَّلها الشافعية والمالكية ؛ لأن الشركة إنما تتعلق بالمال أو العمل ، ومما هنا غير موجودين ، قاله الشيخ سيد سابق فى « فقه السَّاقِ » (٢٩٦/٣)

خاطبه ربه بقوله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. (١)﴾ [الإسراء] فعبودية محمد ﷺ هي التي أوصلته إلى هذه المنزلة التي لم يصل إليها بشر سواه .

وصدق الشاعر^(١) حين قال :

حَسْبُ نَفْسِي عِزًّا بَأْتَى عَبْدٌ يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدِ رَبِّ
هُوَ فِي قَدْسِهِ الْأَعَزِّ وَكُنْ أَنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أَحِبِّ

فإن أردت أن تقابل ربك ، فالأمر في يدك ، فأنت تعدد مكان المقابلة وزمانها وموضوعها ، في الشارع ، في البيت ، في العمل ، في المسجد مجرد أن تتوضأ وتقول : الله أكبر تصبح في حضرة ربك ، ثم أنت الذي تنتهي المقابلة إن شئت ، وربك عز وجل لا يمل حتى تملوا ، فأي عز فرق هذا ؟

في حين أنك إن أردت أن تقابل رئيساً مثلاً أو وزيراً فدون هذا اللقاء عقبات ومصاعب ، وليس لك من أمر هذا اللقاء شيء ، فهو الذي يحدد لك الزمان والمكان ، حتى ما تقوله ، وهو الذي ينهي المقابلة . أنت في عبوديتك لله تعالى ، ربك هو الذي يطلبك لحضرته ، ويغضب إن دعاك ولم تجب ، فتعزم الرب ربك ، ونعظمت العبودية عبوديتك له سبحانه .

وهنا يلقي الكفار باللائمة على ساداتهم وكبرائهم ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأُصْلَحْنَا بِالسَّيْلِ (٦٧)﴾ [الأحزاب] ويريدون الانتقام منهم ، وأن ينقسوا عن أنفسهم بأن يروهم في العذاب جزاء ما أوقعوهم في الشرك ، وزينوا لهم المعصية .

فيقولون : ﴿رَبَّنَا أَنِهِمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ .. (٦٨)﴾ [الأحزاب] أي :

(١) من شعر الشيخ رحمه الله

عذاب مصاعف ، لأن ضلالهم كان كذلك مُصَاعَفًا ، فقد صَلُّوا في أنفسهم ، وَأَضَلُّوا غيرهم .

وفي موضع آخر يحكى لنا القرآن قول الكافرين يوم القيامة ﴿رَبِّا أَرْنَا لِلَّذِينَ أُضِلُّوا مِنَ الْحَى وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٦) [قصص]

وفي آيات كثيرة يحكى لنا القرآن حوارات تدور بين الكافرين ، يُلقَى كل منهم التهمة على الآخر ، كما حكى عن إبليس قوله ﴿وَمَا كَادَ لِي عَلَيْكُم مِّنْ مُّطَافٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمُ هَاسِجِيْمٌ لِّي هَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَآ أَنفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنُسُ بِمُصْرِخِي أَنِي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

ولم يكتفوا بمصاعفة العذاب لسادتهم ، إنما طَبَّعُوا لَهُمُ الْعَنَ ، وَالْعَنُ الْكَبِيرُ ﴿وَالْعَنَهُمْ لَعْنٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٨) [الأحزاب] فاللعن لأنهم صَلُّوا في دوائهم ، وسدعى أن يكون كبيراً ، لأنهم أَضَلُّوا غيرهم

ونلاحظ هنا أن كل بداء للرب - سارَك وبعالى - يأتى دائماً بغير أداة البداء ، لماذا ؟ قالوا لأن البداء له أدوات تختلف باختلاف المسافة بينك وبين المبدأ ، والبداء طلب الإقبال ، فإن كان المبدى حوارك تقول - محمد افعل كذا فإن كان بعيداً عنك تقول - أمحمد والأبعد منه - يا محمد والأبعد أيا محمد ، وهذه الأدوات مبنية على مدِّ الصوب بحسب المسافة

إس ما تقول حين تدعى ربك وإن لم تكن أنت قريباً من الله ، فإنه عز رب منك ؟ لا تستخدم أداة استدعاء لا للقرىب ولا للبعيد ، لأنك ورد في القرآن لفظ (رب) مبدى في خمس وستين آية بدون أداة

نداء ، أولها قول سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
بَلَدًا آمِنًا ۖ ۞ (١٢٦) ﴾ [البقرة]

إلى قول نوح - عليه السلام - ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ
بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ ۞ (٢٨) ﴾ [نوح]

ويكفي في هذا القرب قول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ
مَا تُوسِّرُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۖ (١٦) ﴾ [ق]

بذلك لم سئل سيدنا رسول الله ﷺ "أقرب ربنا فنجابه ؟ أم
بعبيد فنجابه^(١) ؟ فأمر الله ﷻ ﴿ وَإِذَا مَلَكَتْ جَنَابِي فِئَانِي
قَرِيبًا ۖ ۞ (١٨٦) ﴾ [البقرة]

إذن فالله تعالى قريب منا بالفعل ، وإن حدث بعد فمك أدت ،
وأكثر ما يكون بعيداً من الله حين يكون مضطراً ، حتى إن كان
بعيداً عن الله قبل الاضطراب

وفي آيتين فقط من كتاب الله يُؤدى الربُّ - تبارك وتعالى -
بأداة النداء (يَا) الأولى ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٢٠) ﴾ [الفرقان]

والأخرى ، ﴿ وَقِيلَ يَرْبِّ ۖ (٨٨) ﴾ [الزخرف]

وهذان الموضعان حكيت عن كلام النبي ﷺ فلماذا لم تأب أداة
النداء إلا من محمد ﷺ في نداء ربه ؟

(١) أورده السيوطي في أسماط الدول (ص ٢٠) وعراه لاس حرير وابن أبي حاتم وس
مرويه وأبو الشيخ وغيرهم من طرق من حديث معاوية بن حيدة قال جاء أعرابي إلى
النبي ﷺ ، فقال "أقرب ربنا فنجابه أم بعيد فنجابه ؟ فسكت عنه ، فأمر الله ﷻ ﴿ وَإِذَا
مَلَكَتْ جَنَابِي فِئَانِي قَرِيبًا ۖ ۞ (١٨٦) ﴾ [البقرة]

قالوا لا نرى سيدنا رسول الله كان شديد الحرص على هداية قومه ونصرة دعوته ، حتى خاطبه ربه بقوله ﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) [الشعراء]

وقد مرّ رسول الله بمواقف صعبة بدرجة جعلته يستطلي نصر الله ، فانه تعالى انزل عليه ﴿ إِنَّا لَنَصُرُّ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ (٥١) [عامر] ومع ذلك زلزل رسول الله والذين آمنوا معه كما قال سبحانه ﴿ وَرَزَّلُوهُمُ حَتَّى يَقُولَ لِرُسُلِهِمُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ .. ﴾ (٦٤) [الغفر] فخاف ﷺ أن يكون بعد عن ربه وهذا البعد ما هو إلا مظنة من رسول الله ، أو اتهم للنفس .

فلما ذهب ﷺ يدعو ربه ويشتكى إليه أن قومه هكروا القرآن نادى ربه من منزلة البعد ، فقال (يا رب) وكأنه ﷺ طن في نفسه التقصير أو الفشل في مهمته ورأى أن ذلك يُبعده عن ربه . لكن أنصفه ربه وأكد نداءه ، بل وأقسم به ، فقال الحق سبحانه ﴿ وَقِيلَ لَهُ رَبِّ إِنَّا هَنَاءٌ قَرَمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨) فأصبح عنهم رقل ملام فسوف يعلمون (٨٩) [الزحرف]

أي أقسم بقولك يا محمد ﴿ يَرْبُ إِنَّا قَوْمِي نَخْدُوا هَذَا لِقْرَانٍ مَهْجُورٍ ﴾ (٩٠) [الفرقان] وأحق سبحانه يُقسم بما يشاء على ما يشاء . يُقسم بالملائكة والجناد يقسم بالنسب لكن الحق - سبحانه وتعالى - به يُقسم بأحد من الخلق إلا برسول الله في قوله تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٢) [الحجر]

أي - وتعميرك ، أو وحياتك يا محمد

وكما أقسم سبحانه بحياته عليه محمد قسم بقوله ، فقال سبحانه ﴿ وَقِيلَ لَهُ رَبِّ إِنَّا هَنَاءٌ قَرَمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨) [الزحرف]

ثم يحاطب الحق سبحانه عبده المؤمنين ، فيقول تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى
فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (٦٦)

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الذين آذوا الله ، وآذوا رسول الله ،
وآذوا المؤمنين دس على أن المسألة ليست تفصيلاً لمحمد ، إنما هذا
مبدأ سائد في كل رسل الله ، وليس معنى إيذاء محمد أن تؤذوا
غيره من إخوته لرسول فقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ (٦٦) [الأعراف]

وموسى عليه السلام كانت له في راحة دعوته علاقتان
علاقة مع الفراعنة وعلاقة مع بني إسرائيل ، ولم يكن موسى - عليه
السلام - رسولاً إلى الفراعنة إنما أرسل إلى بني إسرائيل ، بذلك
قال موسى وهرون لفرعون ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ مُرْسِلٌ مَعَا بِنِي إِسْرَآئِيلَ
وَلَا تُعَذِّبُهُمْ .. ﴾ (٤٧) [طه] فهدفه بخليص بني إسرائيل من استعمار
فرعون

أما دعوته لفرعون إلى الإيمان بالله وإصهار المعجزة أمامه لعله
يؤمن ، فجاءت على هامش دعوه الأساسية لبني إسرائيل ، ومع ذلك
لم يسلم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون فقال عنه ﴿ سَاحِرٌ
كَذَّابٌ ﴾ (٢٠) [غافر]

وقال ﴿ إِن رَّسُولَكُمْ ءَالِدِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمُجْنُونٌ ﴾ (٢) [اسعراء]

وقال ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ءَالِدِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَاذُ يَمِينٌ ﴾ (٥٢)

[مؤجر ف]

وطمعى أن يؤذى موسى عليه السلام من فرعون ، وقد جاء
ليطرد ألوهيته المزعومة لكن كيف يؤذى من بنى إسرائيل ، وهو
لذى جاء ليقدمهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من لعذب
والاستعداد ؟

قال انعماء إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا من بعثه
الله سبحانه وتعالى ، فقالوا له ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّا نَدْعُو اللَّهَ حُجْرَةً .. (١٥٢)﴾ [الانعام]
وفالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ وَهُمْ أَغْيَاءٌ .. (٨)﴾ [آل عمران]

وآذوا موسى حين قالوا معترضين على ما ررقهم الله من المن
والسَّلْوَى ، فقالوا ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعْمِ وَاحِدٍ فَادْعَ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا
تُبِتَ الْأَرْضُ مِنْ بَقِيَّتِهَا وَفُتَاتِهَا وَفُومَهَا وَعُذُسَهَا بِمَا يَكْفِي هُوَ
أَدْنَىٰ بِأَلَدِي هُوَ حَيْرٌ إِمَّا بَطْرًا مِمَّا فَاتَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ .. (٩١)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن المن هو سائل يشبه العسل ، يتساقط مثل الندى في
الصباح من الأشجار والسَّلْوَى طائر يشبه السَّعَان يسوقه الله إليهم
دون تعب منهم ، لكنهم قوم لا يؤمنون بالعيب ، ولا يرسون هذا
الطعام الجاهز ، فهم يريدون شيئاً محسوساً يزرعونه ويعدونه
بأنفسهم .

ثم آذوا موسى عليه السلام في شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه
هارون حين صنعوا التحيل ومات هارون هناك ، فقالوا إن موسى
حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة بحمر حسد هارون وتمز به

(١) هذا القول ماله على من أنى طائب فسمما أخرجته من أبي جاتم وذكره ابن كثير في تفسيره
(٢/٥٢٠) في تفسير الآية ، قال : صنع موسى وغدروا الجديل ، هناك هارون فقال
بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلته ، كان ألين لنا منك ، وأشد حيلة بأبوه من
ذلك فامر الله الملائكة فحمتهم فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف
موضع قبره إلا الرحم وإن الله جعله أصم أبكم .

على بنى إسرائيل وهو سليم لا جرح فيه وهذا معنى قوله تعالى
﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا..﴾ (٩٠)

وقال آخرون بل اتهموا موسى عليه السلام بمرض فى حسده ' لأنه عليه السلام كان شديد الحياء سنيراً ، يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه وعند قضاء حاجته ، فقالوا ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أن يستره

ومهم من قال به برص ومنهم من تجرأ واتهمه بعيب فى أعصابه التناسلية ، فشاء الله أن يبرئه مما قالوا ، فنزل دات يوم النهر ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فحرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول ثوبى حجر ، ثوبى حجر فأراه مبرأ من العيوب التى اتهموه بها^(١) .

أو أن قمارون لما حصلت الحصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها تهمنى موسى على مشهد من الناس ، فشاء الله أن يجمع الناس ويتنطق هي وتقول قمارون فعل كذا وكذا ، فبرأه الله بذلك^(٢)

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلاً حياً سنيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأباه من آداء من بنى إسرائيل . فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب جلده إما برص ، وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا بموسى ، فجلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ساجداً ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبراه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأمد ثوبه قلعه وطلق الحجر صريراً بصعاء ، فراه إلى بالحجر يدباً من أثر صبره ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله ﴿يسأله الذين آمنوا لا تكوبرا كالذين آذوا موسى..﴾ [الأحزاب] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦/٦)

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤٢٦/٦) وعمره لا يلى أبى شيبة عن المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أنهم اتهموه بالزنى وأذوا بالمرأة وقالوا بها ما نشهدين على موسى فقال لها موسى عليه السلام أشدك بالله إلا ما صبت قلت أما إذ نشدنى بالله فإنيهم دعوى وحلوا لى جعلاً على أن أقدمك بنفسى وأنا أشهد أنك برئى ، ونك رسول الله محمد موسى ساجداً يبكى

والحق سبحانه وتعالى يقول منا ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آدَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ..﴾ (٦٩) [الاحزاب] فسبى عنه العيب ، ثم يُثبت له الرجامة والشرف .

﴿وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (٦٩) [الاحزاب] وأى وجاهة بعد أن أظهر الله برأته ، وبشر كذب أعدائه ، فالوجهة هيئة تدل على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يحرق أحد أن يرميه بعيب بعد ذلك ، ولا أن يتهمه بذب لم يفعله لأنهم علموا أن لموسى رباً يحميه ، ويدافع عنه

ومن عدالته سبحانه وتعالى مع خلقه أن من يرمى بذب لم يفعله يُعُوض عنه بأن يسر عليه ذنباً فعله ، ولا يفضحه به ، فواحدة بواحدة ، إلا شيئاً واحداً كان مع موسى - عليه السلام - فحين لقي حواري الله ، فكأنه غره كرم ربه معه فقال يا رب ما دموا قالوا فى كذا ركدا ، أسألك ألا تُقال فى ما ليس فى ، فقال يا موسى ، أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعله لك ، والمعنى أنهم يقولون فى حق الله تعالى أكثر من ذلك .

إن أنقى الله الكفر ليطمش كل من أنكر حميه ، وكأنه يقول له لا محروها بالخالق ، وأنا انزرق ، ومع ذلك كفروا بى وأنكروا الحميل

﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠)
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَعْرِزْ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١)

سبق أن تكلمنا عن معنى التقوى ، وهي أن تجعل بينك وبين الله وقاية ، فالحق سبحانه له صفاتُ جمال ، وصفاتُ جلال صفاتُ اجمال العصر والرافة والمغفرة والغنى والنفى إله وصفات الجلال الجبار المستقم ذو البطش إله فالتقوى أن تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تفكك منها لأنك لست مطيقاً لبطش الله و انتقام

ومع ذلك يقول أحد العارفين احرص على معيتك مع الله ، نعم لأنك حين تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقترب من صفات الجمال .

أم إذا أشغبه عليك قوله تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ . (٢) ﴾ [المائدة] وقوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣٩) ﴾ [آل عمران] فاعلم أن النار جند من جنود غضب الله ، فمن يتقى الله يتقى النار ، فلا تعارض إذن ومعنى ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧) ﴾ [الاحزاب] أى قولاً صادقاً يؤمن للحق ، وكلمة سديد من سداد السهم ، حين يصيب هدفه ولا يخطئه ، وهدئك أن ننعم بدات الله هي الأحرة ، وأن تدفئ الأسباب التي في الدنيا ، وتعيش مع المسبب سبحانه .

فأنت في الدنيا حين تريد أن تأكل مثلاً اسطر إلى الطعام الذي أعد لك ، كم أحد من وقت ومكانت وأموال الخ ، أما في الأحرة ، فمحصرد أن يحصر الشيء على مالك تجده بين يديك ، إذن هذه معية يجب أن تحرص عليها كل الحرص

ثم يذكر لنا الحق سبحانه نتيجة القبول السديد ﴿ يَصْلَحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَعْمَرْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَمَنْ يَطْعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ قَارَ قَوْرًا عَظِيمًا (٨) ﴾ [الاحزاب] أى في الأحرة ، ووصف القور بأنه عظيم لأنك في

الدنيا نأخذ عطاء الله بأسباب الله ، أما في الآخرة فتأخذ عطاء الله من
دات الله ، وليس هناك أعظم من هذا
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا حَهُولًا ﴾ (٧٢)

العرض إدارة معروض على معروض عليه ، كما نرى مثلاً في
العرض العسكري ، حيث تمر نماذج من الجيوش والأسلحة أمام
القائد ، ومنه قوله تعالى في قصة سيدنا سيعس عليه سلام ﴿ إِذْ
عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافَاتُ الْجِبَادُ ﴾ (ص)

ومنه قولك عرضتُ على فلان الأمر يعنى أطلعتُه عليه ، ليرى
فيه رأيه يقبل أو لا يقبل ، فالعرض تخيير لا إلزام فيه

والحق سبحانه يقول عرضت الأمانة على خلقى كل خلقى ،
ومنه الإنس والحيوان والحيوانات لارى من منهم سيقبل
تحملها ومن سيرفض ، إذن معنى العرض أن هناك من سيقبل ،
وهناك من سيرفض

لذلك قلنا من الخطأ أن نقول : إن الأرض والسماء والجبال
لح مُسَيَّرَة مقهورة ، بل يجب أن نُعدَّ العبارة منقول هي مقهورة
باحتيارها ، لأن الله حين عرض عليهن الأمانة أبين أن يحملنها وأشفقن

(١) صفح الجواد قام على ثلاثة أرجح وثنى الرابعة وهذا يدل على كرمه [القاموس القويم
٢٧٩] وهو قول مجاهد ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٢ ١) وقال إبراهيم
النخعي كتاب عشرون مريب باب أجبة ، رواه ابن جرير

منها ، وقالت نخرج من باب الجمال فاختارت ألا تكون مختارة

ومعنى الامانة في عرفنا هي الممل ، أو الأشياء النفيسة التي
تخشى عليها اضياع ، فتودعها عند من تثمس فيه أنه يحافظ عليها
لحين حاجتك بها وليس لك أن تأخذ ممن تثمته صكاً ، ولا أن
تُحضر شهوداً ، وإلا ما أصبحت أمانة ، إذن ليس عليها إثبات إلا
أمانه من أحدها ، فإن شاء أقر بها وأداها ، وإن شاء أنكره

فالامانة إيعاد النفس بأن تكون مختارة في الفعل وغيره فإن
كانت مقهورة بصكاً ، أو مشهاده شهود لم تعد أمانة

والامانة التي عرضها الحق سبحانه على خلقه هي أمانة الاختيار
في أن يكون محسناً في أن يؤمر أو ينهى في أن يطع أو يعصى ،
فكل ما عدا لإنسان رفض التحمل ، لأنه لم تأخذه الحمية وقت
العرض والتحمل ، مخافة أن يأتي وقت الأداء فلا يجد له دمة

وفرق بين وقت التحمل ووقت الأداء ، فمن يلاحظ وقت التحمل
فقط يقدم عليها ويقبلها ، لكن من يلاحظ مع التحمل الأداء يرفض ،
فربما مع حسن لنية والرغبة في الأداء تتغير الظروف أو تتغير
الدمة ، أو يطرأ عليك ما يحوكم لها ، فتتمد إليها يدك هيأتى وقت
الأداء ، فلا تستطيع

كل أجناس لوجود ما عدا الإنسان أنواً ، أن يحملوا الامانة
واحترروا انقهر والتسيير للحالق عز وجل لأن الإنسان كما وصفه
ربه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) [الاحزاب]

كنك وصل عباد الله الصالحين إلى مرحلة العبودية لله حين وجَّهوا اختيارهم حسبَ مراد ربِّهم ، فأنه أعطاهم الاختيار في الإيمان أو الكفر فآمنوا ، وأعطاهم الاختيار في الطاعة وفي المعصية فأطاعوا ، فوجَّهوا اختيارهم إلى ما أحبَّ ربهم ، فصاروا من عباده المقربين

فكانت إذن تذليلت عن اختيار نفسك في حرية الحركة ، فصرت كالسَّمَوَاتِ والأرض والحبال حين تباركن عن اختيارهن لاختيار ربهن ووصلت - مع أنك مختار - إلى أن لا تختار إلا ما وضعه الله لك منهجاً

هنا محل للنقص أن يقول كيف عُرضت الأمانة على السموات والأرض والحبال ، وهي جمادات وكيف لها أن تأتي ؟ الخ يقول أنت أدخلت نفسك في متاهة ، وهل كان العرض منك أنت حتى لا تفهمك الجمادات ؟ أم كان العرض من ربها وخالفها ؟

سأعه ترى فعلاً يحدث منك ويحدث من الله ، إنك أنْ يعزل الحدث عن فاعله ، والله يقول ﴿ لَا يَعْلَمُ مَنْ حَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤) [الملك]

فهو سبحانه خالقها ، وهو الذي يخاطبها ، ولم تنكر ذلك ، وقد علَّم الله بعض رسله مثلاً سعة الطير فعرَّفها وبفاهم معها ، كما قال سبحانه عن نبيه سليمان أنه قال ﴿ عَلَّمْنَا مَطَقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِيَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ ۞ (١٦) ﴾ [النمل]

وقال ﴿ فَتَبَيَّنَ صَاحِبُكُمْ مِنْ قَوْلِهَا ۖ ۞ (١٩) ﴾ [النمل]

وقال عن تسييح الحبال مع سيدنا داود عليه السلام ﴿ يَنْجِيَا أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرُ (١) ۖ ﴾ [سبا] فالجبال ، نعم تُسَنِّح في كل حال ،

لكن الذي امتاز به سيدنا داود أن يوافق تسبيحه تسبيح الملائكة ،
وكانهم جميعاً فرقة يشدون نشيداً واحداً

إذن الخالق سبحانه هو ائدى يخاطب ما يشاء من خلقه
ولو علمك أن تخاطب الجمادات لخاطبتها ، وتأمل مثلاً قصة الهمد
رسيدنا سليمان حين ذهب إلى أهل سبأ ، ووجدهم يعبدون الشمس
من دون الله ، وكيف أنه كن على فقه تام بقصة اتوحيد

فأرح نفسك وأنسب الفعل إلى فاعله وأنت تستريح ولك في
نصرته حياتك أسوة فانت مثلاً لو دخر عيك ولدك ممرق الثياب ،
يسيل منه الدم ، قبل أن تسأله عن شيء نسأله من فعر بك هذا ؟

لا بد أن تحدد الفاعل أولاً ، فعليه سننني حكمك وقرارك ، فإن
كان الفاعل ابن الجيران مثلاً تقيم الدنيا ولا تقعد لها وإن قال لك
عمي فلان ضربني تهذا أعصاك ، وتقول للولد لا بد أنك فعلت
شيئاً استحق العقاب ولو ذهبت إلى عمه لعرفت فعلاً أن الولد ارتكب
خطأ ، إن الفعل الواحد يمكن أن يكون سيئاً ، ويمكن أن يكون
حسناً ، المهم من الفاعل "

وآيات القرآن يساند بعضها بعضاً ، وتسعفنا في هذه المسألة ،
فالذي قال ﴿ إِنَّا عَرَضَ الْأَمَنةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ .. ﴾ (٧٢)
[الاحزاب] قال ﴿ وَإِذْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . ﴾ (٤٤) [الإسراء]

فكل شيء في الوجود كله مسبح ، فدل هذا على أن الموحوبات
لها دلالة عن ربها وسبب أن يسبح عما في مرادها ، يعجب من
بعض العلماء حين يقول : هذه دلالة حال ، لا دلالة مقال ، وهذا
انقول برده قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَا نَعْقِبُهُمْ تَسْبِيحُهُمْ .. ﴾ (١١) [الإسراء]

ونحن نفهم تسبيح الدلالة ، ونره في انسجام جزئيات انكون
ونظامه اسديع ، والحق يقرر أننا لن نفهم هذا اسديع إذن هو
تسييح مقال على الحقيقة لا يعرفه إلا من عرّفه الله ولم نستيع
نسييح لكائنات ، ونحن نرى لبعض الطوائف والمهر (شفرات)
وإشارات لا يفهمها غيرهم ، وفي اللغة الواحدة يمكن أن تسمع كلمات
لا تعرف معناها ، فضلاً عن اختلاف اللغات بين الجنسيات المختلفة

وإذا كنت لا تعرف بعض المعاني في لغتك وإذا كنت لا تعرف
لغات الآخرين وهم من بني جنسك فلماذا تنكر أن يكون للأجناس
الأخرى في لوجود لغات يتعارفون عليها ، ويُعبّرون بها ؟

ثم أكل اللغات ووسائل المهم منطوقة ؟ أليست هناك مثلاً لغة
الإشارة ، يعارف عليها البعض ، ويفهم بها ؟ ومع ذلك هناك قدر
مشترك ومنطق في الدلالة يتفق عليه الجميع في كل اللغات ويتفاهمون
به كما يتفاهم الحرس مثلاً ، كما أن هناك أشياء تتفق فيها كل
انطباع كالضحك والبكاء ، فليس هناك ضحك عربي ، ولا بكاء فرنسي
مثلاً .

ومعنى حمل لأمانة أي القيام بها وتطبيقها كما جاء في قوله
تعالى في معنى الحمر ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ﴾ (٥) [البقرة]

فقد حمّلوها كمنهج وحفظوا ما فيها لكن لم يحملوها بمعنى
لم يطبقوا هذا المنهج ، فصار مثّهم عند الله كمثّل الحمار الذي يحمل
الكتب ، وهو لا يستفيد مما فيها ، وهذا في حد ذاته ليس ذمّاً
للحمر ، وليس اتهاماً له بالعباء كما يدعى البعض ، فالحمار ليس
شعله الفهم إنما الحمل فحسب فمن حمل منهجاً دون أن يستفيد

به فهو شبه الحمار في هذه المسألة ، وهذه خصوصية للحمار - أنه يحمل ما لا يفهم .

والحمار في أمور أخرى يفهم ويؤدي مهمته على الوجه الذي ربما عجز عنه الإنسان ، فمن المعروف عن الحمار أنه إذا ذهب إلى مكان فإنه لا ينسأه ولا يضل عنه ولو بعد فترة . وربما يصل الإنسان طريقه الذي سار فيه منذ فترة ، أما الحمار فلو تركت له حرية الحركة لذهب بك إلى نفس المكان . إذن : من الغبي ؟

بذلك فالبعض يسأل : إذن لماذا يهتمون الحمار بالغباء ؟ قالوا : لانهم كلّفوه بما لم يُكَلّفه الله به ، فالحمار حُلِقَ للحمل ، وأنت تريد على درجة من الفهم ربما تفقدتها في الإنسان العاقل

وسبق أن قلنا : إنك إذا أردت من الحمار أن يقفز فوق قناة مثلاً أسرع من إمكاناته ، فإنه لا يطاوعك أبداً فمعهما ضربته لا يقدم على القفز ، فإن كانت في مقدوره نظر إليها وكأنه يُقدر اتساعها بالضبط ، ثم يقفز دون أن تجبره ، وهذا التصرف تصرف من يحسب العواقب جيداً ، ويفهم ما يفعل

بدن الشيء لا ينفصل عن مهمته ، ولا يطلب منه فوق ما هيئ له . ومثلنا لذلك بعور الحديد ترى حماله في استقامته ، فإن أردته حطاماً مثلاً فحماله وأداؤه لمهمته لا يتم إلا بعوجه ، وساعتها لا نستطيع أن نقول عنه به معوج ، لأن هذا لعوج هو عين الاستقامة لمهمته

بذلك فلما في قوله تعالى ﴿إِنْ أُنْكِرَ لَأَصْوَاتُ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) [يقع] ليس ذماً لصوت لحمار لأن صوت الحمار جعله الله عالياً هكذا ، لأنه يعيش في بادية ، وعالياً ما يستتر خلف مرتفع

أو حجر أو شجرة أو يبتعد مسافة طويلة عن صاحبه ، فحاء صوت بهذه الهيئة ليبدل عليه ويرشد صاحبه إلى مكانه
إذن فالصوت العالي يكون مُسكراً إذا لم يكن له مهمة ، وإذا استُعمل في غير موضعه ، والشئ قد يكون مختلفاً ، لكن مهمته تكون متحدة .

مثلاً ، الدم الذي به حياة الإنسان إذا تجلط داخل أوعيته يؤدي إلى شلل العضو ، ويحتاج إلى أدوية تعبد له سيولته ، وفي المقابل إذا زادت سيولة الدم أدى ذلك إلى نزيف ، وإذا حدث جُرح مثلاً لا يندمل ، لأن الدم لا يتجلط ولا يسدّ أماكن حروجه ، إذن نتجلط الدم مطلوب خارج الأوعية ، وسيولة الدم مطلوبة داخل الأوعية
إذن - لكل منهما حكمة في مكانه

ومعنى ﴿وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا ..﴾ (٧٢) ﴿[الاحزاب] أى خَفِرَ وقت التحمل محافة أن يأتي وقت الأداء فلا يؤدي ﴿وَحَمَلَهَا لِلْإِنْسَانِ ..﴾ (٧٢) ﴿[الاحزاب] لم عنده من فكر واختيار ومحاولة ، لكن قد يأتي فكره بالصرر

وقلنا إن الإنسان يأكل مثلاً حتى يشبع ، ثم يُعرض عليه الحلوى والورد ، فتتملىء بطنه حتى التسخمة وحتى المرض ، في حين أن الحمار أو الحاموسة مثلاً لا تأكل عوداً واحداً فوق الشُّبع ، لأنها محكومة بالعريضة التي لا تعرف التصرف في الأشياء ، وميزة الميوان في هذه العريضة وفي عدم تصرفه

بذلك وصف الإنسان هنا بأنه ﴿كَانَ ظُلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) ﴿[الاحزاب] وهذه صيغة فعول اندالة على المبالغة في الظلم والمبالغة في الحقد وقد يُعقر الظلم للغير ، لأن الظالم يظن أنه يستفيد منه ، أما أن يظلم المرء

نفسه بأمر يمنعها خيراً ، أو يجلب لها ضرراً ، فهذا ما لا يُعقل ودليل العباء

فحين يتكاسل عن الطاعة لشهوة نفس مرقوتة يمنعها خيراً باقياً .
ومتعة لا حدود لها ، فهو عدو نفسه ، لذلك قال العلماء إن نفس الإنسان هي أعدى أعدائه ، لأن العدو إن كان من خارجك تستطيع أن تراه ، وأن تحتاح له ، أما إن كان من داخلك فأمره شاق

وقد بين الحق سبحانه أن أعظم الظلم الشرك بالله ، فقال سبحانه ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنعام] وهذا الظلم أيضاً لا يعود صرره على الله تعالى ، إنما يعود على المشرك بالله ، لذلك وصف الإنسان بعد الظلم بأنه جهول ، لأنه يظلم نفسه ، وهذا يدل على الجهول وعدم العلم والجهول هو الذي يقع في الخطأ ويعدل عن الحق عن جهل ، فالوصف هنا يدل على الحكمة الأدائية ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الاحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [٧٢]

أولاً يلفت أنصارنا أن الآية السابقة ذُكرت بقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [٧٢] ، وذكُرت هذه الآية بقوله سبحانه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [٧٣] ، فكأن وصف (ظُومًا) قبله (غُورًا) ، و (جَهُولًا) قبله (رَحِيمًا)

فالحق سبحانه غفور لمن ظلم ، ورحيم لمن جهل فالسق

القرآنى مظهر من مظاهر رحمة الله ، والله سبحانه وتعالى علم عنه
ممن آمن به أنه غفور رحيم ، لكن لا ينبغي أن تغرك صفات الجمال
فى ربك - عر وجر - فتقديم على الدس وتظلم ، اعتماداً على أن ربك
سيفر وسيرحم .

لذلك قالوا فى قوله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا لِلْإِنْسَانِ مَا عَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمِ ﴾
(٦) [الاعطى] أن الذى عر الإنسان بربه بعصاه أو ككر به اعتماده
على أن بربه كريم ، فصفة الكرم فى الله هى التى أغرت بعصائه

وكان الحق سبحانه لقن الإنسان الحواب عن هذه المسألة ، فإن
سئل ما عرك ربك ؟ يقول كرمه ، وعندنا فى الفلاحين يسأل
أحدهم الآخر لماذا لا تطمئن فى صلاتك ، وتقرأها هكذا أرايت لو
كان عليك (شلر) لواحد من يصلح أن يعطيه (شلنا ممسوحاً) ؟
فرد عليه الرجل . والله لو كان كريماً لقبه

وفى الآية دقيقة أخرى فى قوله تعالى ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ .. ﴾ (٧٣) [الأحراب] فمر كان عرص الأمانة والتكليف للناس
ليعذبهم ؟ هل التعذيب مقصود الله فى الحكم ؟

قالوا لا ، لأن اللام هى ﴿ لِيُعَذِّبَ .. ﴾ (٧٣) [الأحراب] لام
العاقبة ، فالحق سبحانه جعل التكليف ليتيمه الناس ولا يعذبون ،
فاللام دلت على النتيجة كما فى قوله تعالى ﴿ فَالْنُّقْطَةُ آلُ فِرْعَوْنَ
لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (٨) [الفصم]

فساعة انقطة آل فرعون التقطوه عليه لسلام يكون قرّة عين
لهم ، لا يكون عدواً لكن الذى حدث أنه صار عدواً وحزناً ، فاللام
ليست لتعويل (لما لام النتيجة والعاقبة) وهى أن تفعل الشيء لمراد
عندك ، ثم تأتى العاقبة لتدل على عاء الذى فعل

وقوله ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ .. (٧٣) ﴿[الأحزاب] سبق أن عرفنا النفاق ، وقلنا إن النفاق أشد من الكفر ، لأن الكافر كان منطعياً مع نفسه ، لأنه كفر بقلبه وبلسانه يعني وفق لسانه ما في قلبه ما المفاق فغير منطقي مع نفسه ، لأنه اعتقد شيئاً وناطق بخلافه أخفى الكفر وأظهر الإيمان فهو مُشْتَبَّه لفكر ، لذلك استحق أن يكون أعدى الأعداء وأن يكون في الدرك الأسفل من النار ، ويكفى ما فيه من خداع وتمويه ، فهو بخاتمته معك ، وفي حقيقته هو عبوك .

ولنلاحظ أيضاً في هذه الآية أن الحق سبحانه أراد أن يفصل فصلاً تاماً بين حزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وبين جزاء المؤمنين والمؤمنات ، فالأسلوب البشري يقتضي أن يقول بعدما ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ .. (٧٣) ﴿[الأحزاب] ويتوب على المؤمنين والمؤمنات

لكن لسياق إقرآني هنا لم يعطف التوبة على العذاب وفصل الفعسين بتكرار الفاعل الصريح ، وهو لفظ الحلالة فقر ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ﴾ .. (٧٣) ﴿[الأحزاب] وقال ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ .. (٧٣) ﴿[الأحزاب] ليفصل هذا عن هذا ، ويعزله بحكم خاص به ، لأن الله تعالى كما ذكرنا - صفات جلال ، تختص بالكافرين والمنافقين ، وصفات جمار تحتص بالمؤمنين ، ولكل من النوعين سياق خاص مستقر

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة سبأ)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ . (١)﴾ [سب] جمعه قائلها الحق سبحانه ، فهل قالها
لنفسه أم قالها ليعلمنا نحن أن نقولها ، قالها ليعلمنا والحمد أن
تأتي بناء على مستحق إنشاء بالصفات الجميلة ومفعله الممدح ،
وهو أن تأتي لمستحق الممدح بالصفات القبيحة ، وتنسبها إليه

وانت قد تحمد شيئاً لا علاقة لك به لمجرد أنه أعجبك ما فيه
من صفات . فاستحق في نظرك أن يُحمد ، كان تحمد الصانع على
صنعة أتقنها مثلاً ، وإن لم تكن لك علاقة بها .

(١) سورة سبأ هي السورة رقم (٢٤) في ترتيب المصحف الشريف بعد آياتها ٢٤ أنه
يوسف بعد سورة لقمان وقيل سورة نوح ، وهي السورة رقم ٥٧ في ترتيب البكرول ، قال
القرطبي في تفسيره (٥٢٢٧) ، مكنه في قول الجميع ، إلا أنه واحد اختلف فيه
وهي قوله تعالى « ويرى الذي أوبى العمى » [سبأ] عقلت مرة على مكنه والمراد
المؤمنون أصحاب النبي ﷺ قاله ابن عباس ومثلت قرعة هي مكنه ، والمراد بالمؤمنين
من استسلم بالمدينة ، كعبد الله بن سلام وغيره قاتله مقاتل »

بذن فالحمد مرة يكون لأن المحمود فيه صفات تستحق الحمد ، وإن لم تصل إليك فكيف إذا كانت صفات التمجيد والتمجيد والتعظيم أثرها واصل إليك ؟ لا شك أن الحمد هنا أوجب

بذلك نقول كل حمد ولو توحه لبشر عند في الحقيقة إلى الله تعالى ، لأنك حين تحمد إنساناً إنما تحمده على صفة وهبها الله له ، فالحمد على إطلاقه ولو لمخلوق حمد لله ،

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴾ (١) [سبا] وردت في القرآن ثمان وثلاثون مرة ، وحُصِّتْ منها في فواتح السور خمس مرات في الفاتحة ، والأنعم ، والكهف ، وسبا ، وماطر ،

والحق سبحانه بدأ بالحمد ، لأنه بدأ خلّقه من عدم فله علينا نعمة الخلق من عدم ، ثم أمدنا بمقومات الحياة فوقنا لنا الأقوات التي بها سبقاء الحياة ، ثم لتناس الذي به سبقاء النوع ، هذا كيان لإنس المادي ، لكن الإنسان مطوب منه حركة الحياة ، وهو يعيش مع احريز فلا بُدَّ أن تتساند حركاتهم لا تتعاضد ، لا بُدَّ أن تنسجم الحركات وإلا لتفدى الخلق

وهذا التساند لا يتأتى إلا بمنهج يُحدّد الحركات ، ويحكم الأهواء ، وإلا لجاء واحد ينسى وآخر يهدم هذا في اندبيب ، أما في الحياة الآخرة فسوف نُعدّها لها إعداداً خراً ، ويعيدنا إلى خير مما كنا فيه لأب نعيش في الدنيا بالأسباب العطوكة لله تعالى ، أما في الآخرة فنعيش مع المسبّب سبحانه مع ذات الحق

نص في الديب مزرع وبحصد وبطح وبحر وبغزل إلخ هذه أسباب لا بُدَّ من مراولها ، لكنك في الآخرة نعشر بكراً من المسبّب في الدنيا تحبب ن يعونك بنعم و تقوته أنت ، أما في الآخرة

فنعيمها باق لا يزول ولا يحول ، في لدنيا تتمتع على قَدْر إمكاناتك ،
أما في الآخرة فستمتع على قَدْر إمكانات ربك

فالحق سبحانه أوحى من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، ووضع لنا
المهج الذي يحفظ القيم ويُنظّم حركة الحياة قبل أن تُرحد الحياة .
فقبل أن يخلقك خلقك كالصانع الذي يُحدّد مهمة صنعته قبل
صناعتها ، وهل رأيتم صاعاً صعب شيئاً ، ثم قال انظروا في أي
شيء يمكن أن يستخدم ؟

لذلك قال تعالى ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣)
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] فالمنهج المتمثل في القرآن رُصِّع أولاً ليحدد
لك مهمتك وقانون حياتك قبل أن تُوجد أبها الإنسان

والمتمأس لآيات الحمد في سايات السور الخمس يحد أبها تتداول
هذه لمو حل كلها ، ففي أول الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ لَظُلُمَاتٍ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ﴾ [الأنعام]
تكلم الحق سبحانه عن بدء الخلق ، ثم قال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
مِنْ طِينٍ ۖ﴾ [الأنعام] وهذا هو الإيجاد الأول

ثم في أول الكهف يذكر مسألة وصنع المهج والقيم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١)﴾ [الكهف]

هذا هو القانون الذي يحكم الأهواء ، ويُنظّم حركة الحياة لتستند
ولا تستند

وفي أول سورة سبأ التي نحن بصددتها يذكر الحمد في الآخرة
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ [سبأ] وحين تنظر إلى الحمد في الآخرة تحده حمداً
الآخرة (١) [سبأ] وحين تنظر إلى الحمد في الآخرة تحده حمداً

مركباً مضاعفاً ، لأنك في الدين تحمد الله على خلق الأشياء التي
تفاعل بها للعيش بالأسباب ، لكن في الآخرة لا توجد أسباب ، إنما
المسبب هو الله سبحانه ، والحمد في الآخرة أكبر حمداً يناسب عيشك
مع ذات ربك سبحانه .

وفي أول فاطر ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ
رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ ۝ ﴾ [فاطر]

نحمد الله على اقيم ، وعلى المهيج الذي وضعه لنا الحق سبحانه
بواسطة الملائكة ، والملائكة هم رسل الله إلى الخلق ، ومنهم الصفوة ،
ومنهم المنبريات أمراً لتي تدر شئون الخلق ، ومنهم من أسجدهم الله لك

ثم جاءت أم الكتاب ، فجمعت هذا كله في ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [الفاتحة] والرب هو الخالق ائمه ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾
مالك يوم الدين ﴿ ۝ ﴾ [الفاتحة] أي في الآخرة ثم ذكرت وحرب السير
على المهيج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ۚ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾
صراط الدين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿ ۝ ﴾ [الفاتحة]

ولأنها جمعت البداية والنهاية ، والدنيا والآخرة سُميت فاتحة
الكتاب ، وسُميت المثاني ، وسُميت أم القرآن

فقوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۝ ﴾ [سبا] علماً الله تعالى أن
يقولها ، لأن الناس مختلفون في المراتب وفي الملكات ، وفي حسن
الآداء ، وفي صباغة الشاء ، فلا يستوى في الحمد وإنشاء الأدب
والأمر الذي لا يجيد الكلام ، بذلك قال له لـ أرحوا أنفسكم من
هذه المسألة ، وسوف أعلمكم صيغة يستوى فيها الأدب الفيلسوف
مع راعي الشاة ، وسوف تكون هذه الصيغة هي أحب صيغة الحمد
إلي ، هذه الصيغة هي ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۝ ﴾ [سبا]

لذلك جاء في الحديث قول سيدنا رسول الله في حمد ربه ،
والثناء عليه « سبحانك لا تحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على
نفسك » ، فحين أقول خطبة طويلة في حمد الله والثناء عليه ، وتقول
أنت الحمد لله لا أقول لك قصرت في حمد ربك وكأن هذه الصيغة
وتعظيمها لنا نعمة أخرى تستحق الحمد ، لأنها سوت الجميع ،
ولم تجعل لأحد فضلاً على أحد في مقام حمد الله والثناء عليه

وحيث تحمد الله على أن علمك هذه الصيغة ، بماذا تصمده ،
تحمده بأن تقول الحمد لله إذن هي سلسلة متوالية من الحمد
لا تنتهي ، الحمد لله على الحمد لله ، ومعنى ذلك أن نظل دائماً حامداً
لله ، وأن يظل الله تعالى دائماً وأبداً محموداً .

كما قلنا إن اختلاف المرافقة في الأرض واحتمال المشارق
والمغارب إنما جعلت لتستمر عبادة الله لا تنقطع أبداً في كل جزئيات
الزمان ، ففي كل لحظة صلاة وفي كل لحظة الله أكبر . وفي كل
لحظة أشهد ألا إله إلا الله ، وفي كل لحظة أشهد أن محمداً رسول
الله . إلح لتظل هذه الألفاظ وهذه العبادات دائرة طوال الوقت ، بالكون
كله يلهج بذكر الله وعبادة الله في منظومه بديعة ، المهم من يحسن
استقبالها ، المهم صفاء جهاز الاستقبال عندك

وقوله سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۖ ﴾ [سبا] بيّناً أن
الحمد في الآخرة أكبر وأعظم من الحمد في الدنيا ، لأنك في الدنيا
تعيش بالأسباب أما في الآخرة فتعيش مع ذات المسبب سبحانه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/٦ ، ٦٢) ومسلم في صحيحه (٤٨٦) عن حديث
عائشة رضي الله عنها قالت : عرفت رسول الله ﷺ ليلة من العراش ، فالتصفته فوقعته يدو
على منقذ قدسيه وهو في المسجد وعبد مسجودتان وهو يقول : اللهم اعمد برضائك من
سجودك ، وبصغافتك من عيوبك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت
على نفسك

فى الدنيا نعيم موقوت ، وفى الآخرة نعيم باق ، فى الدنيا عناء ، وفى
لآخرة بقاء ، لذلك هل سبحانه عن الآخرة ﴿ وَأَحْرُ دَعْوَاهُمْ أَبِ الْحَمْدِ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس]

وقال سبحانه حكاية عن المؤمنين فى الآخرة ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ تَبَوَّأْنَا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر]

وقالوا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا سَاهِدِينَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا
اللَّهُ لَلْآبِثِينَ فِي الْآخِرَةِ ﴾ [الأعراف]

فإن قلت فما وجه الحمد فى أن الله تعالى يملك السموات
والأرض يقول قَرُّوْا نِيرَ أَنْ يَخْدَمَكَ فِى الْكُوْنِ مَا لَا تَمْلِكُ وَبِئْسَ
أَنْ يَخْدَمَكَ مَا تَمْلِكُ ، فالعظمة هنا أنك تتفجع هنا بما لا تملك
فالسماوات والأرض ملك لله ، ومع ذلك هى فى خدمتك أنت ، وليست
العظمة من أن يخدمك ما تملكه

لذلك قالوا لأحد الناس لصدا لا تشتري بك سيارة قال والله
الإخوان كثيرون ، وكلهم عندهم سيارات ، وكل يوم أركب سياره
وحد منهم ، ولا يفرمنى هذا شيئاً إذن استفعل بما يملك العسير
أعظم من انتفاعك بما يملك أنت ، وملك الله جعل لصالحك نحن وهذه
مسنحو الحمد ، فاليهم لا تحرمنا نعمك

ملحظ آخر أن الحق سبحانه يريد أن يطمئن العباد ، فملك
السموات والأرض لله وحده ، وبو كانت لغیره لمعنا منها فكان ربك
يقول لك اطمئن فهذا ملكى وأنا ربك ولن أتعلّى عنك أبداً ، وليس
لى شريك يبارئى ، فيمنع عنك خيراتى وأنا اعترفُ بالملك
والاستعاضة

لذلك ، فالحق سبحانه حين يقول للشيء ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤٧) ﴿ [ال عمران] ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألا يكون ، والدليل قوله تعالى عن الارض ﴿ وَذُكِّرَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (٢) ﴿ [الاشقاق] أى أصغت السمع ، وحق لها ذلك مما قال سبحانه لشيء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره .

لذلك سبق أن قلنا : إن الحق سبحانه حين طلب منا أن نشهد أنه لا إله إلا هو شهد بها لنفسه أولاً ، فقال ﴿ شَهِدْ لِلَّهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٨) ﴿ [ال عمران] وهذه شهادة الدات للذات ، ولذلك تصرف سبحانه في امك تصرف من لا شريك له ، فلم يقل شيئاً أو يحكم حكماً ، ثم حاف أن يقصه أحد أو يعدله

ثم شهدت بذلك الملائكة ، ثم شهد بذلك أولو العلم من عباده ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. ﴾ (١٨) ﴿ [ال عمران]

عشادة الله شهادة الدات للذات ، وشهادة الملائكة شهادة المشهد ، وشهادة أولي العلم شهادة العلم والدليل

ونحط ايضاً أن الحق سبحانه قال ﴿ أَنَدَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [س] فكرر لاسم الموصول (ما) ولم يقل له ما في السموات والارض ، كما جاء في قوله سبحانه في التيسيع مرة ﴿ يَسْبِغْ لَكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢٠) ﴿ [الجمعة] ومرة ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٢٤) ﴿ [الحشر]

وفرق بين التعبيرين لأن مدح خلقاً مشركاً بين السماء والارض ، وهناك خلق خاص بالسماء ، وخلق آخر خاص بالارض ،

فَإِنْ أَرَادَ الْكَلَّ قَالَ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [المشر] ،
وإنَّ أَرَادَ الْإِحْتِلَافَ كَلَّا فِي جِهَةٍ ، قَالَ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ .. (١)﴾ [سبا]

واسموات ولأرض ظرف لهما فيهما من حيرت والذى يملك
الظرف والمكان يملك لمطروف فيه . فالحيز هنا مشغول
ثم يقول سبحانه تذييلاً لهذه الآية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ (١)﴾
[سبا] الحكيم هو الذى يضع الشيء فى مكانه وموضعه المناسب ،
ولا يتأتى هذا إلا لحبير يعلم الشيء ويعلم موضعه الذى يناسبه .
لذلك قال سبحانه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ (١)﴾ [سبا] الذى لديه حفره
بديقائى الأشياء وبواطنها

ثم أراد سبحانه أن يعطى نموذجاً لهذه الحكمة ولهذه الحسرة ،
فقال سبحانه

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ (٢)﴾

معنى ﴿يَلِجُ .. (٢)﴾ [سبا] يدخل . ومنه قوله تعالى ﴿يُولِجُ
الَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ (٣)﴾ [مطر] يعنى يدخل كلاً
منهما فى الآخر ، فزيادة الليل تنقص من النهار ، وزيادة النهار تنقص
من الليل ، لذلك ترى اختلاف المواقيت

لكن ، ما الذى يدخل فى الأرض - فى حدود ما نراه أنظرنا - ؟
هناك أشياء تدخل فى الأرض لا تدخل بها كماء المطر مثلاً حين
ينزل من السماء ، بأحد مه حاجاتنا ويتسرب منه جزء فى باطن
الأرض كما قال تعالى ﴿فَلْيَكْفُرْ بِالْأَرْضِ (٢٠)﴾ [الزمر]

ويدخر في الأرض الحبة التي تررعها ، فينشأ عنها الاقتيات ابدى
يصمن لنا بقاء الحياة ، وهذا الاقتيات يأتي من مصاعفة الحبة إلى
أضعاف كثيرة ، كذلك يدخل في الأرض الميب الذي نستودعه الأرض
بعد أن يموت ، ولك أن تلحظ وجه الشبه بين الحبة تررعها ، والميت
تدفنه في ضوء قوله تعالى ﴿ مَهَا خَلْقًا كُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٥٥) ﴿

فكما أن الحبة أنتجت سبع سبائل ، في كل سبيلة مائة حبة ،
كذلك يجب أن نقيس المتواليات الدهنية فنقول كذلك حين أدخل
أو أخرج من الأرض بعد الموت أخرج حياة أخرى أكثر بقاءً من
حياتي في الدنيا ، وأكثر خيراً فضلاً عما سترته الأرض من سوءاتي

وقوه سبحانه ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (٦) ﴿ [سبا] ما الذي
ينزل من السماء ، ينزل منها المطر لاستدعاء الحياة ، وبالماء حياة كل
شيء حي ، هذا هي مادة تكوينك ، أما هي حياتك الروحية فتتزل
الملائكة بالرحم وبالمهيج الذي به نحيا الأرواح والقلوب وتزل
الملائكة المدمرات أمراً التي تدمر شئون الحلائق ، والذي قال الله
فيها ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ ﴾ مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..
(٦) ﴿ [الرعد]

واسعز لا يفهم معنى الآية فيقول كيف تحفظه الملائكة من
أمر الله ؟ يريدون أن أمر الله يسعى أن يُعبد ، فكيف يحفظونه منه ؟

(٦) سمعنا ملائكة علي والنهار ، لأنهم يتعقبون فكل ملائكة النهار يحفظونهم من
جاء الليل جاء معه ملائكة الليل وصعد ملائكة النهار ، فإذا قيل نهار عاد من صعد ،
وصعد ملائكة الليل كأنهم جعلوا حطيم عقاباً يوبأ [لسان العرب - هازد - عقب]

والمعنى يحفظونه حفظاً صادراً من أمر الله ، ليس تطوعاً من عندهم

ولحق سبحانه يُرينا قدرته في إنزال المطر حينما تُجرى عملية تقطير الماء في المعاصر والأجراحات ، انظر كم يتكلف كسوب الماء المقطر وكم يأخذ من الوقت والجهد ، أما المطر فتقطره بك قدرة الله دون أن تشعر أبداً به ، فحرارة الشمس تُبخر الماء الذي يُكوّن لسحب ، ثم تسوقه ارياح إلى حيث شاء الله له أن يهز ، ومن حكمته تعالى أن جعل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماءً لتتسع مساحة البحر ، فيكفي لمطر حاجة الأحياء .

ومتكلف لهذه الظاهرة يكوب الماء الذي تتركه لمدة شهر ، فلا ينقص إلا عدة سنتيمترات ، أما إن سكّبه في أرض الحجرة فإنه يجفّ قدر أن تعدّهما ، لماذا ؟ لأنّ وسعت المساحة التي ينحدر منها الماء

وماء المطر هو الماء العذب الزلال الذي شرب منه الإنسان والحيون والطيور ونسقى منه لورع ومشرب الأرض وما تنقى يسلكه الله في جوف الأرض لحين الحاجة إليه ، فالمطر ية مريات الله الدالة على قدرته تعالى

ثم يقول سبحانه ﴿ وَمَا يَعْزُجُ فِيهَا ﴾ (٢) ﴿ [سنا] أي - يصعد وقد أشير إقراراً إلى هذه المسألة في قوله تعالى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ . [ناصر] يصعد تار الكلف لمنهي من الله تعالى

١ عن ابن عباس ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله - أخرجه أبو الشيخ وعنه ابن عبد الله - أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وعن سعيد بن جبير - حفظهم الله - ناصر الله - أخرجه ابن جرير وذكر هذه الآثار السيوطي في الدر المنثور (١) ، ٦٦٣



لكن لاحظ في أسلوب ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾ (٢) ﴿[سب] استخدام حرف الجر (في) ولم يُقْلُ يعرج إليها ، نعم أن الحرف يدل على معنى في ذاته لكن هذا المعنى لا يُدْهِ من ضميمته شيء إليه ، ليعطى معنى يفهم ، فالحرف (في) يدل على الصرفية كما تقول ماء في الكوب ، أما لو قلت (في) مستقلة بداتها ، فإنها لا تدلُّ على شيء .

والعلماء حينما استقبلوا كثيراً من الأساليب وحدوا بها حروماً ضحوا أنها رائدة ، أو أنها بمعنى حرف آخر ، كما قالوا في معنى ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾ (٢) ﴿[سب] أن (في) هذا بمعنى (إلى) ، لكن لمادة عمل الأسلوب عن (إلى) (إلى) (في) " إذن لا تدُّ أنها بحسب معنى الطريقة

والتوضيح بذكر ما قلنا في قوله تعالى ﴿وَأَصْلَبَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ (٧١) ﴿[م] النحل قال أي على جذوع النحل ، وهذا فهم غير دقيق عن الله ، لأن (في) هذا تعصبي المعنيين معنى (على) ومعنى (في)

فالنصب صلب شيء على شيء وهذا المعنى يؤيده (على) ، لكن فيه قصور ، فإن أردت (على) فحسب فيبقى أن تقول لأصليكم على جذوع النحل تصلياً قوياً بحيث تدخل أحزاء المصنوب في المصلوب عليه [س] المعنى الكامل لتصليب لا يؤيده إلا (في)

حذ مثلاً عود كبريت وضعه على يدك ، أو على أصبعك ، والقف عليه حيث حلف في هذه الحالة يحسب فقط يشب العود أم إذا

شَدَّتْ عَلَيْهِ اخِيطُ بَقْرَةٍ ، فَإِنْ الْعُودُ يَدْخُلُ فِي الْجِلْدِ حَتَّى يَكَادُ
يَخْتَفِي بِدَاخِلِهِ ، هَذَا هُوَ التَّصْيِيبُ الْمُرَادُ أَنْ تَشُدَّ الْمَصْلُوبُ عَلَى
الْمَصْلُوبِ عَلَيْهِ بِقَرَّةٍ بِالسَّامِيرِ أَوْ الْحَبَالِ أَوْ فَحْوِهِ .

لِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ . (٧١) ﴾ [صه] وَلَمْ يَقُلْ
عَلَى جُدُوعِ النَّحْلِ ، لِأَنَّ (فِي) أَذَتْ مَعْنَى الْإِسْتِعْلَاءِ وَالظَّرْفِيَّةِ مَعًا
كَذَلِكَ فِي ﴿ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا . . (١٤) ﴾ [سبا] وَلَمْ يَقُلْ وَمَا يَخْرُجُ
إِلَيْهَا ، لِأَنَّ إِنْ لَا تَوْدِي الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ ، فَـ (إِلَى) تَدُلُّ عَلَى
الْعَايَةِ ، كَمَا تَقُولُ سَافَرْتُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَالسَّمَاءُ
لَيْسَتْ هِيَ غَايَةُ صُعُودِ لَكُمْ الطَّيِّبِ ، إِنَّمَا غَايَتُهُ وَمَبْدَاهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ وَمَا السَّمَاءُ إِلَّا طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَى امْتِنَهِى لِأَعْلَى ، وَسَبَقَ أَنْ
قُلْنَا : إِنْ لَسَاءَ هِيَ كُلُّ مَا عَلَكَ

وَهَذَا الْمَعْنَى لِحَرْفِ الْجَرِّ وَاصْبَحَ كَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى
﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ . . (١٣٤) ﴾ [آل عمران] فَاسْتَخْدَمَ (إِلَى)
لِأَنَّ الْمَغْفِرَةَ هِيَ عَايَةُ مَا يَسْعَى إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ وَيَسَارِعُ
وَقَالَ : ﴿ أَوَلَمْ تَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ . (٦٩) ﴾ [المؤمنون]
وَلَمْ يَقُلْ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، لِأَنَّ الْخَيْرَاتِ لَيْسَتْ هِيَ الْغَايَةُ ، إِنَّمَا هِيَ
مَرَاتِبٌ يَتَرَقَّى فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَيَتَعَالَى كُلَّمَا وَصَلَ إِلَى خَيْرٍ تَطَلَّعَ إِلَى
أَخْيَرٍ مِنْهُ ، فَكَأَنَّ الْخَيْرَاتِ ظَرْفٌ يَسِيرُ فِيهِ لَا إِلَيْهِ

كَذَلِكَ لَمَّا تَكَلَّمَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنِ الدِّينِ كَذَّبُوا الرِّسْلَ فَقَالَ
﴿ فَرُدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ . (١) ﴾ [إبراهيم]

الْمَعْصُومُ يَقُولُ أَيْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ ، لَا لِأَنَّ (فِي) تَحْمِلُ مَعْنَى
الْمَصَابِغَةِ فِي رَدِّ الْمَنْهَجِ إِلَى حَاجَةِ الرِّسْلِ ، فَالْمَعْنَى أَنَّ الرِّسْلَ حِينَئِذٍ

حاءوا بالمهيج لم يقله المكذبون وقالو لهم وفرو عليكم كلامكم .
يعنى لن يجدى معنا شيئاً ، وحفلوا أيديهم داخل الأفواه ، وعصوا
عليها من الغيظ مما سمعوا من الرسل ، وهذا المعنى لا تؤديه لفظة
إلى أقواهم .

ثم هو سبحانه ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ (٢) [سبا] صفة الرحيم
أى الذى يمنح وقروح الصرُ بدايةً ، كما قال سبحانه ﴿وَنَزَلَ مِنَ
الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَاءَ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ..﴾ (٨٢) [الإسراء]

كلمة ﴿شَاءَ ..﴾ (٨٢) [الإسراء] تعنى أنه أصيب مرض شأ من
العفة ، فشاء القرآن ليدُرك ويُنَبِّهك ويشفى نفسك من هذه العفة ،
فإن لم توجد العفة كان القرآن رحمة تصع حدوث الداء من البداية
و (رحيم) صيغة مبالغة من الرحمة .

كذلك ﴿الْعَفُورُ﴾ (٢) [سبا] صيغة مبالغة من المغفرة ، والحق
سبحانه كثيراً ما يؤكد على هذه الصفة ، لأنه سبحانه خلق الإنسان ،
ويعلم أنه لن يسير دائماً على الصراط المستقيم ، ولا بد أن يحرف
يوماً ما عن المسجى القويم ، لذلك قال ﴿يَسْئَلُكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تَحْمِلُونَ
مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ..﴾ (١٥) [المائدة]

وقلنا إنه نولا صفة الرحمة والتوبة والمغفرة لتمادى المذنب فى
الذنوب ، ويئس أن يعود إلى الطريق المستقيم وهذا الذى سمعناه
(فافد) وبه شفى المحتمم كله ، لكن إن عرف أن له رباً يعفو
أدب ويقبل التوبة ، فإنه يقبل عليها ويتوب ولم لا ، وقد تكفل الله به
معصرة دنوبه إن تاب وأذنب .

يس . شرع الله أنسويه لرحم الحق كلهم ، ويقدم لهم حملاً .

فحين يتوب على الذنب يرحم المجتمع من شره ، ويرحمه هو من آثار دنونه ، لذلك يقول تعالى ﴿ ثُمَّ ذَابَ عَلَيْهِمْ مَا تَوُوبُوا .. ﴾ (١١٨) [التوبة] أى شرع بهم التوبة بفتح لهم مجال لتراجع وطريق العودة إلى الله ، حتى لا يكون هناك شراسة وتصاد على الشر ، ولا ينقلب المنتب إلى طاغوت .

وحين سأل قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. ﴾ (٣٤) [إبراهيم] نجد صدر الآية ورد بنفس اللفظ في موضعين ، لكن اعجز مختلف ، ففى ية ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣١) [إبراهيم] وفى الأخرى ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا يَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَمُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) [الحل]

عندما وقف بعضهم عند هذه الآية اعترضوا ، فقالوا : كيف تعدُّ انعمة وهى واحدة ؟ ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. ﴾ (٣٤) [إبراهيم] والرد أن النعمة التى تراها واحدة فى ظاهرها فى طيها بعم شتى وقد رشح لنا هذا بعد أن تقدمت العلوم وطهر علم عناصر الأشياء ، فالتفاحة مثلاً تراها فى ظاهرها نعمة واحدة ، لكن علم عناصر يُبين لنا أن بها بعم شتى ، وعناصر وعوائد مختلفة ، فهى نعمة فى طيها بعم

والنعمة تعضى نعمة ، ومُنعماً ، ومُنعماً عليه ، فالنعمة هى دابها من الكثرة بحيث لا تُعد ولا تُحصى ، بذلك سخدم كلمة (أن) لدالة على اشك ولم يقل مثلاً إذا عدتكم بعم هه ، لأن هذا محال لا يطمع فيه أحد ، ونعم الله ليست سطنة الإحصاء

لذلك لم يقدم أحد على محاولة عدّ نعم الله حتى بعد أن وُحِدَت حامعات وكليات متخصصة فى الإحصاء حاولت إحصاء كل شيء إلا

هذه المسألة ١ لأن الإقبال على الغد والإحصاء يعنى إمكانية الوصول إلى إحصاء المعدود .

أما من حيث المستنعم عليه وهو الإنسان ، فهو ظلوم كفار ، ظلوم لنفسه ولغيره ، كافر بالنعمة ، ولو أخذنا يدك لحرمته هذه النعمة ، والذي حماه من هذا الحرمان أن المنعم عليه غفور ورحيم وهذا إذا نظرنا إلى المنعم سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَا السَّاعَةَ ^٢ قُلْ لِي وَرَبِّي لَتَأْتِيَ كُمْ عَلِيمٌ الْعِيبُ لَا يَغْرِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْعَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

هنا أيضاً يحدث عن الساعة ، ففي آخر الأحزاب ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب] وهذا ينكرونها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَا السَّاعَةَ .. ﴿٣﴾ ﴾ [سبا] أي القيامة

فلماذا ينكرونها ؟ نعم ينكرونها ١ لأنهم أسرفوا على أنفسهم ، وتمادوا في عيبتهم ، وبس تكون العقاب في صالحهم بذلك بهربون منها بالإلكار والتكذيب . حتى إحدون هؤلاء المكذبين ممن يحبون أن يسدروكو على كلام الله يقولون إما كان الله قد قدر كل شيء على العبد فقدّر الساعة ، وقدّر المعصية ، فلماذا يعذبه على المعصية ٢

والملاحظ ، أنه لم يقل أحد منهم في المقابل ولماذا يشبهه على

الطاعة ؟ مما يدل على أن هذه الوقفة خاصة وغير منطقية ، وأنهم يخافون العقاب ، وصاحب هذه المقولة ما قالها إلا لأنه واثق من كثرة سيئاته ، ومن مصلحته أن يُكذَّب بالقيامة وينكرها ، كالذي قل ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُبْقًى﴾ (٣٦) [الكهف]

فكثرة سؤالهم عن الساعة وإنكارهم لها يدل على خوفهم منها ، بل هم مرعوبون من مجرد تصديقها ، لأنهم يعلمون جيداً أنهم إن استتروا عن الناس قلن يستتروا من الله ، وإن غموا على قصاء الأرض قلن يُغموا على قصاء السماء ، ولن تنفعهم في اقيامة حجة ولا لباقة معطى ، ولا تزييف للحقائق

لذلك قال ﷺ : « إنما أنا بشر ، وإني تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، ولعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَّ بحجته فأقضى له ، فمن قصيتُ له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار »

والقاصي يحكم بالحجة وبالبيان ، ويمكن للمتكم أن يُصل العاصي ، وأن يأخذ حق الآخرين ظلماً ، كما يفعل بعض المحامين الآن ، هذا في الدنيا ، ما في الآخرة فانت في محكمة قاصيها الحق سبحانه وتعالى

(١) ألحن بحجته ، أي أقطع لها وأجدل . وقال ابن الأثير : اللحن الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح المنطق [لسان العرب - مادة : لحن]
(٢) حديث مطبق عليه أخرجه البزار في صحيحه (٢٤٥٨ ، ٢٦٨) . وكذا مسلم في صحيحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها بهذا اللفظ ، وفيه بظ آخر أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، وإنه ينبغي الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض فليدع . أي أنه من فاقصى له بذلك فمن قصيت به يعني مسهم فإنما هي قطعة من النار فسادها أو سركها »

إذن هؤلاء ينكرون القيامة ، لأنها اللفز الذي يُحيرهم ، والحقيقة التي تقضُ مصابيحهم وتُرعبهم ، الحقيقة التي تزلزل جباههم ، وتقضى على سيادتهم . وإن آمنوا في الدين لما لهم من حاء وسيطرة ، ففي العامة سبأون كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُكُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ ﴾ (٩١) [الأنعام]

وكثرة سؤالهم عن الساعة له نظير في العالم الحديث وفي عالم الاقتصاد ، فمثلاً ترى الرجل كلما جلس مع عالم سألته عن رأى الدين في فوائد البنوك ، حتى إنه ليسأل في ذلك ألفَ عالم ، فلماذا لا يكتفى بقول واحد منهم ، لأنه يريد أن يسمع رأياً على هواه يقول له إن فوائد البنوك حلال ، فهذه مسألة شائكة تشغل الكثيرين ، لكن ما دامت قد حاكت في الصدر ، فهي من العاقل انذى قال عنه سيدنا رسول الله « والإثم ما حاك في الصدر ، وخشيت أن يطغى عليه الناس »

ثم يرد الحق سبحانه على إنكارهم للساعة ، فيقول محاسناً نبي ﷺ ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَكُمُ ۖ ۖ ﴾ (٢) [سبا] يعنى : قُلْ بملء فيك (بلى) وبلى نفسى للنفى السابق في قولهم ﴿ لَا تَأْتِيَا السَّاعَةَ ۖ ﴾ (٣) [سبا] وحين ينقض النفى ، فإنما نشأت المقابلة له ، فمعنى (بلى) أى أنها سأتى

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه الفصحة بالفسم ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَكُمُ ۖ ۖ ﴾ (٣) [سبا] فالحق سبحانه يُعلم رسوله أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٣/٤) وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٥٢) كتب البر والصلة من حديث البراء بن سميان قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم . فقال « البر حسن الحق والإثم ما حاك في صدوركم - وكرهت أن يطغى عليه الناس »

يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنها ستأتيهم ، والحق سبحانه لا تُفَرِّقُ رسوله يميناً كاذباً ، والحق سبحانه صادق دون حلف ، مما بالك حين يحلف لك ؟

وقوله تعالى بعدها ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ . (٢)﴾ [سنا] فيه إشارة إلى أننا لا نخسر بالساعة ولا نحلف على إتيانها من فراغ . إنما بما عندنا من علم الغيب ، فهي لا بُدَّ آتية ، ليس هذا فحسب ، إنما سنوافيكم فيها بإحصاء كامل للدنوب ، كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وخبئها ، فعالم الغيب لا يحفى عليه شيء مهما استتر . ومهما كنت بارعاً في إخفائه عن الناس

﴿عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣)﴾ [سنا] لا يعزب لا يغيب عن علمه

والحق سبحانه في جمهرة الآيات يصرب المثل لصغر الأشياء بالذرة ، وهي الهدية التي نراها في شعاع الشمس ولا نراها في النظر لصغر حجمها ، إن كَوْنَتْ لا ترى الشيء لا معنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ، لكن ليست لديك آلة البصر الدقيقة التي تستطيع رؤيته بها ، والعين المحررة لا ترى كل الأشياء ، لكن حزمة أضواء القوية تساعد على رؤية الأشياء الدقيقة . بذلك قالوا إن أضواء والذر أحكم مقاييس الكون

لذلك يستخدم المهندسون هذه الظاهرة مثلاً في استلام المعاني ، والأكيد من دقة تعييدها ، فالجائط الذي يدر لك مستويًا مستقيماً لو تركته عدة أيام لكشف لك العبار عما فيه من ثنوءات وعدم استواء . لأن العبار والذرات تتساقط عمودياً . كذلك الضوء حين

تُسَلِّطُهُ عَلَى حَائِطٍ يَكْشِفُ لَكَ مَا فِيهِ مِنْ عَيُوبٍ مَهْمَا كَانَتْ نَقِيقَةً
لَا تَرَاهَا بِالْعَيْنِ الْمَحْرُودَةِ .

وَلَا يَرِ الذَّرَّةُ كَانَتْ أَصْغَرَ مَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسَانُ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (١) [النساء]

لَكِنْ ، هَلْ ظَلَّتْ الذَّرَّةُ هِيَ أَصْغَرَ مَا فِي الْكَوْنِ ، حِينَمَا انْهَزَمَتْ
الْمَدَنِيَّةُ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَةِ الْأُولَى بِمِ نَقْبِ الْهَرِمَةِ ، وَانْتِ أَنْ تَكُونَ
مَقْلُوبَةً فَصَمَمَتْ عَلَى أَنَّهَا تَتَأَرَّ بِنَفْسِهَا ، فَاشْتَغَلَ كُلُّ فَرْدٍ فِيهَا فِي
اجْتِنَاصِهَا ، وَكَانَ مِمَّا أَمَحُزَّوَهُ عَمَلِيَّةُ تَحْطِيمِ الْحَوَاهِرِ الْفَرْدِ أَى
تَحْطِيمِ الْجَزْءِ الْإِنْدَى لَا بِتَحَرٍّ ، وَهَذِهِ أَوَّلُ فِكْرَةٍ هِيَ تَفْتِيحُ الذَّرَّةُ يَعْرِفُهَا
الْعَالَمُ

وَهَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ شَاهِدُهَا بَحْنٌ هِيَ عَصَارُهُ الْقَصَبِ مِثْلًا ، وَهِيَ أَنْ
تُدْخَلَ عَمُودُ الْقَصَبِ بَيْنَ أُسْطُوَانَتَيْنِ فَكَلَّمَا صَاقَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ
الْأُسْطُوَانَتَيْنِ رَادَتْ عَمَلِيَّةُ الْعَصْرِ وَتَفْتِيحُ الْعَرْدِ كَذَلِكَ عَمِلَتْ أَلْمَانِيَا
أُسْطُوَانَةُ تَحْطِيمِ الْحَوَاهِرِ الْفَرْدِ

وَعِنْدَهَا قَدْ الدِّينُ يَحْصُرُ أَنْ يَسْتَدْرِكُوا عَلَى كَلَامِ اللَّهِ ذَكَرَ الْقُرْآنُ
أَنْ الذَّرَّةُ هِيَ أَصْغَرَ مَا فِي الْكَوْنِ ، وَهِيَ بَحْنٌ فَسَبَّ الدَّرَّةُ إِلَى أَحْرَاءٍ ،
وَلَوْ أَلَمْ هُوَلَاءُ بِكُلِّ الْقُرْآنِ وَقَرَأُوا هَذِهِ آيَةَ ﴿ عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يَعْرِبُ
عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ لَا
فِي كِتَابٍ مِيزِينَ ﴾ (٣) [سجدة] لَعَرَفُوا أَنَّ الْقُرْآنَ احْتَدَاهُ لَمَّا سَيَّأَتِي بِهِ الْعِلْمُ
مِنْ تَفْتِيحِ الذَّرَّةِ ، وَأَنَّ فِي كَلَامِ اللَّهِ رَصِيدًا لِكُلِّ نَقْدٍ عِلْمِيٍّ .

وَتَأَمَّلْ لِدَقَّةِ الْأَدَاتِيَّةِ هُنَا ، فَقَدْ ذَكَرَ الذَّرَّةَ ، وَهِيَ أَصْغَرَ شَيْءٍ
عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ تَمَّ ذِكْرُ الصَّغِيرِ عَنْهَا ، وَأَصْغَرَ بَحْنٍ مَهْمٌ ، فَصَبَّ فِي
بَعْتِيحِ الذَّرَّةِ بَحْنٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ رَصِيدًا لَمَّا سَبَّحَ إِلَيْهِ

وقال . ﴿ لَا يَغْرُبُ .. ﴾ [سبا] لا يغيب ﴿ عَنْهُ مَقَالُ . ﴾ [سبا] مقدار ﴿ دُرَّةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ [سبا] لشمول كل ما في الكون ﴿ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ .. ﴾ [سبا] أى أصغر من الذرة ﴿ وَلَا أَكْبَرُ .. ﴾ [سبا] من الذرة .

ولقائل أن يقول إذا كان الحق سبحانه يمتن علينا بمعرفة انذرة ، وما ذق من الأشياء ، فما الميزة في أنه سبحانه يعلم الاكبر منها ؟

قالوا هذه بقية من دقائق الأسلوب القرآنى ، فاشيء يحفى عليك ، إما لأنه مُتَنَاهٍ فى الصَّغَرِ ، بحيث لا تدركه أدواتك . أو لأنه كبير بحيث لا يبلغه إدراكك ، فهو أكبر من أن تحيط به لكبره ، إذن فالحق سبحانه مُسَلِّطٌ على أصغر شيء ، وعلى أكبر شيء لا يغيب عنه صغير أصغره ، ولا كبير لكبره

والحق سبحانه لا يحيط علمه بما فى كونه فحسب ، بل ويُسَجِّلُهُ فى كتاب مُعْجَزٍ خَالِدٍ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الإِحْبَارِ بِالْعِلْمِ قَوْلًا وَبَيْنَ سَحْلِهِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْعِلْمُ مُسَجَّلًا فَلَكَ أَنْ تَقُولَ مَا تَشَاءُ ، لَكِنْ حِينَ يَسْجَمُ يَصِيرُ حُجَّةٌ عَلَيْكَ

لذلك يرى الحق سبحانه حين يعطينا قضية فى الكون يحفظها مع القرآن ، وأنت لا تحفظ إلا ما هى صالحك ، وما دام الحق سبحانه يحفظها فهذا يعنى أنها واقعة لا محالة ، وإلا ما سحَّلها الحق سبحانه وحفظها ، فهو سبحانه يعلم تمام العلم أنه لا يكون فى ملكه إلا ما علم ، إِنْ كُتِبَ لَهُ عِلْمٌ ، وَلَيْسَ عِلْمٌ لَهُ كُتِبَ وَمَنْ الدِّى مَرَّ بَكَلَمَتِهِ ؟ علمه سبحانه إذن فالعلم أسبق

لكن ، لماذا عندما سألوا عن اسساعة أو أنكروها ذكّرهم الله بعلمه لكل صغيرة وكبيرة ، فقال ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سج]

قالوا ذكر لهم الحق سبحانه إحاطة علمه بكل شيء ، يليههم
عن التفكير في أمر الساعة ، ويشغلهم بدنومهم ، وأنها محسوبة عليهم
لا يخفى على الله منها شيء ، وعندما سيقبضون : ليتنا ما سألنا ،
كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا سَأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ
تَسْأَلُكُمْ ۖ ﴾ (١٠١)

إِذْ سَأَلُوا عَنْ السَّاعَةِ ، فَأَحْذَرَهُمْ إِلَى سَاحَةِ أُخْرَى تَزَعِجُهُمْ
وَنَزَلْزَلَهُمْ كُلَّمَا عَلِمُوا أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى يَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ
وَفِي الْأَرْضِ .

فالمسألة ليست مجرد (فتنوية) علم ، إنما سيترتب على هذا
لعلم جراء وحساب ، فقال سبحانه

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ هُم مَعَهُم مَّعْمَرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٠﴾

عجيب أن يُوصف الرزق ذاته بأنه كريم فالكريم صفة الماروق
الذى يهبك الرزق ، فعما لك إن كان الرزق نفسه كريماً يذهب إليك
ويعرف مكانك ، كما قال الشاعر^(١)

ثُمَّ إِلَى الرَّزْقِ أَسْتَأْذِنُهُ
وَأَنْتَ تَحْجِزُ عَنْهُ
وَلَا تَشْعُرُ بِعَدَدِ مَالِكَ
وَرِزْقِكَ يَعْرِفُ عُنَاكَ

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزِ الْبَاسِ ۝﴾

السعى هو المشى لحيث وقطع المسافة ، فما معنى ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ..﴾ [س] ألم تسمع قولهم سعى فلان بفلان عند استيطان مثلاً ؟ والمراد أنه نقر إلى استيطان ما بُغِصَ به وما يُحْمَزَنه من هذا الشخص ، وهذه التي تسميها في العامية وبين الموظفين (ضربه رُتنة) هي هنا بتفس هذا المعنى

﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ۝﴾ [س] يعني ضربوا فيها (رُتَب) وألوا الناس عليها ليزهد فيها من كان مُقْبِلاً عليها ، وبحرح منها من كان عيباً ويتملص منها ، سَعَوْا في آيات الله وهي لقرآن ليبتلوه وليصرفوا الناس عنه لماذا ؟ لأنهم واثقون من أثر القرآن في الغلوب ، فلو أعطاه الناس أدانهم لابد وأن يؤثر فيهم ويجديهم إلى ساحة الإيمان ، فتتعمل به قلوبهم . وتلهج به ألسنتهم .

وهؤلاء هم الذين قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَنُكُمْ تَعْلُونَ﴾ [فصلت] ولو كان لقرآن كلاماً عادياً عبر دى أثر لما بهوا عن سماعه ، ولما شوشوا عليه ، وخافوا من سماعه

ومعنى ﴿مُعْجِرِينَ ..﴾ [س] مفرد معاجر اسم دعس من عاجر مثل قاتل ومقاتل وعاجر مثل باعس والمباغسة لأصغر فيها التسابق في استحقاق ، وقد روى أن سعد بن عمر وسعد بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مرأ ببحيرة ، فقال عمر هيا بنا نتنافس يعني

نغطس تحت الماء ، لندري أينما أطول نفساً من الآخر ، ومعروف أن طول فترة العطس تدل على قوة التنفس وسلامة الرئة ، وأنها تحترق مخروناً أكبر من الهواء ، ثم أطلقت المنافسة على كل مسابقة

ومثل نافس عَاجِزٌ يَعْنِي حاور كُلُّ من الطرفين إثبات عجز الآخر تقول عاجزى يعنى جعلنى أفل فعلاً أعجز عنه ، فكأنهم يريدون سعيهم فى آيات الله أن يُثبتوا عجزها ، وأن يُعجزوا الدعوة أن تبلغ مساها ، ويُعجزوا رسول الله أن ينعم رسالته ، ويُعجزوا منهج الله أن يصل إلى خلق الله

لكن نعاجزون من " يُعاجزون الله " كيف وهو سبحانه الذى أرسل الرسل وتكفل بنصرتهم وعدم التخلّى عنهم ، وما كانت الحروب والقتال بين الرسل والمكذّبين إلا سبباً يأتى من خلاله بصر الله ، كما قال سبحانه ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِمَهُمْ وَيُصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُخْشِفُ صُورَهُمْ قَوْمٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ (١٤)

وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعَٰمِلِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿ ١٦ ﴾ وَإِنْ جَدَدَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴾ (١٧٣)

إذن من سيعاجزون ؟ ربما يقبل أن يُعاجزوا رسول الله ﷺ أو يُعاجزو المؤمنين أما الحق سبحانه فهو الغالب القادر ، ومن يستطيع أحد أن يُعجز الله وينغى عليه سبحانه ، فيضعه عاجزاً وهو سبحانه القادر الغالب ؟

فمعنى ﴿ سَعَوْا لِي آيَاتِي ۖ ﴾ (٥) [سأى] وصعوا المكاد والعراقرير فى طريقها ليمسدا أمر الدعوة وحتى يردوها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى قالها ﴿ معاجزين ، (٥) ﴾ [سأى] حالة كونهم

معاجزين ، يعنى يسرون مع خالقهم فى مصمار واحد الله يريد
أن يُعجزهم ، وهم يريدون أن تُعجزوا الله ، وأن يكونوا فى مكان
القدرة الإلهية العليا ، ليشتوا أن الدعوة باطلة

ثم يبين سبحانه جزاء هؤلاء لمعاجزين ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ
رَّجْرٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [سبا] الرُّجْر والرُّجَز هو الحمل الثقيل ، وأصله الذنب ،
وما يترتب عليه من عقوبة ، بذلك يقول تعالى ﴿وَالرُّجْرُ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾
[المدثر] أى الذنب الكبير ، أو العقوبة المترتبة عليه ، والمعنى لا تفعل
الذنب ، ولا ما يؤدى للعقوبة ، وإذا هجرت الذنب لا تأتى العقوبة

وقد وُصف العذاب هنا بأنه ﴿عَذَابٌ مِّنْ رَّجْرٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [سبا]
والعذاب يُوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم .
وهى أوصاف تدل على معانٍ مختلفة لحال واحدة ، فهو أليم أى
يؤلم صاحبه ، فإن كان حُلْدًا يدعى التحملُ فله عذاب مهين يُهينه ،
ويحطُّ من كرامته ، وهو الذى يتعالى أو يظنُّ نفسه عظيماً

والعذاب المهين ليس بالضرورة أن يكون مؤلماً ، فمن الناس مَنْ
يؤلمه التوبيخ والتفريع ، فإن أردت ضخامة العذاب من حيث القدر ،
فهو عذاب عظيم

إذى إن أردت الإيلاء فهو عذاب أليم ، وإن كان قليلاً من قدره ،
وإن أردت التحقير والإهانة فهو عذاب مهين ، وإن أردت ضخامة
العذاب فهو عذاب عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَيَرَىٰ لَدِينَهُمُ الْأَعْلَمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

هنا تثبت لسيدنا رسول الله ﷺ ، فكان ربه - عز وجل - يقول له يا محمد لا تياس من هؤلاء الذين سَعَوْا في آياتنا معاجزين ولا تهتم ، فإن الذي جعل من الكفرة مَنْ يسعون بالفساد ويُعاجزون خالقهم جعل أيضاً لك مَنْ ينصر دعوتك ويؤيدك من الذين يؤمنون بآيات الله ، وعلمون أنها الحق ، وأن ما يقوله هؤلاء هو الهراء ، وهو الباطل

فكما أثبت لهم سعيًا في الباطل ومعاصرة أثبت للمؤمنين العلم بآيات الله وتصديقها والاعتراف بأنها الحق ، وطمأن رسول الله أن هؤلاء من يفسدوا عليك أمرك ، ولن يُطفئوا نور الله كما قال سبحانه ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفَرُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) ﴿

وقال ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٢) ﴿

فقوله تعالى ﴿وَيُرِي الدِّينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ۖ﴾ (٦) ﴿ [س] أي يشهدون لك بأنك على الحق وأنك جنتهم منهج هو الحق ، ويهدي إلى صراط مستقيم إذن فضح هؤلاء قبالة الذين سَعَوْا في آياتنا معاجزين واعقد مقارنة بين هؤلاء وهؤلاء

فالكفار الذين سَعَوْا في آياتنا بالفساد مُجرّدون عن معونة القدرة ، من إن القدرة ضدهم ولهم بالمرصاد أما الذين أُوتوا العلم وشهدوا لرسول الله ، فهم مُؤيدون للقدرة الإلهية ، والقدرة معهم تسامدهم ، فأى الكفتين أرجح ؟

ومعنى ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبا] الذين أوتوا العلم من المؤمنين محمد ﷺ الذين صدّقوه وصدقوا معجزته ورسالته أو الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب اليهود أو النصارى ، فالمنصفون منهم يعلمون صدق رسول الله ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم وهم الذين ذهبوا إلى يثرب قبل بعثة رسول الله ينتظرون بعثته ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا يقولون لقد أظلم رمى نبي جديد يتبعه ويقتلكم به قتل عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (٨٩) [البقرة]

لذلك يقول القرآن في حلال الكافرين ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ ..﴾ (٤٣) [الرعد] أى ربأ عليهم ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ (٤٣) [الرعد] أى الله الذى أرسلنى بالمعزة ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ (٤٣) [الرعد] أى : من اليهود والنصارى ، أهل التوراة والإنجيل

والعلم هو كل قصية محروم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، وغير ذلك لا يعتبر علماً ، فالقصية إن لم يكن محروماً بها فلا تدخس فى العلم ، إنما هى فى الشك ، أو فى الظن ، أو فى لوهم ، فإن كانت انقصية محروماً بها ، لكن ليس لها واقع ، فهذا هو الجهل

لذلك سبق أن قلنا ليس الجاهل هو الذى لا يعلم ، إنما الجاهل الذى يعلم قصية منافية للواقع ، أما الذى لا يعلم فهو الأملى حالى

() فى أوائل الدين أوتوا العلم هذا قولان
 هم أصحاب محمد ﷺ قاله قتادة فيما ذكره السيوطى من الدر المنثور (٦٧٤/٦)
 وقاله ابن عباس فيما ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٥٢٠/٨)
 هم المؤمنون من أهل الكتاب قاله مقاتل فيما ذكره للقرطبى ، وقاله الصحاك فيما ذكره القرطبى

الدُّمْنُ تماماً ، لذلك يقبل منك ما تقول ، على خلاف الحاحل الذي
يسعى عليك أن تثبت له خطأ قصيته أولاً ، ثم تقنعه بما تريد .

فإن كانت القضية محزوماً بها ولها واقع ، لكن لا تستطيع أن
تُدلّل عليها ، فهي تقيد كالبولد الذي نالسه مثلاً ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝
اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ﴿٢﴾ [الإحلام] فيحفظها كما هي ، لكن لا يستطيع أن يقيم
الدليل عليها ، فهو إذن مُقلد لمن يثق فيه وفي إخلاصه له ، كأبيه
أو معلمه ، فإن وصل البولد إلى مرحلة يستطيع فيها أن يُدلل على
صديق هذه القضية فقد وصل إلى مرتبة العلم

والعلم وإن كان أنواعاً كثيرة ، إلا أنه يمكن حصره في العلم
الشرعي والعلم الكوني العلم الشرعي أو علم الشرع ، ومصدره
السماء يُبلّغه رسول معجزة ، ولا دخل لأحد فيه ، وليس للبشر في
علم الشرع إلا النقل والرواية ، وللبلاغ من الرسول ، وهذا العلم هو
لدى يُحدّد لنا الحلال والحرام ، وقد جاء العلم الشرعي لا لتدخل في
العلم الكوني إنما جاء ليضبط الأهواء المختلفة ، لذلك يختلف الناس
في هذا العلم

أما العلم الكوني فهو العلم الذي يبحث في اجناس لوجود كلها
في الحمار وفي السمات وفي الحيوان ، وفي الإنسان ، فهذا العلم
يقوم على نشاط العقل ، ولا يختلف الناس فيه ، لأنه مادي يعتمد على
البحث والتجربة والملاحظة ، لذلك يتنافس فيه الناس ، وربما سرفوه
بعضهم من بعض

وبهذا العلم الكوني يُرَفّي لإنسان حياته فاحلق عر وحر أعطاك
كل مَقُومَات الحياة وضرورتها ، وعليك إن أردت رفاهية الحياة أن
تعمل عقلك وفكرت في معطيات الكون من حولك لتكشف ما الله تعالى

فى كونه من أسرار وآيات تُرقى بها حياتك

ففى الماضى ، كان الإنسان مثلاً إذا أراد الماء يذهب إلى السهر أو إلى النئر ، فإن عَرَّ عليه الماء طيب السُّقْيَا من الله ، وتوجه إليه بالدعاء ولا شىء آخر ، فلما تطورت الوسائل وتوصل الإنسان إلى خوص الماء واستطرقه من أعلى إلى أسفل ، واستحدث الخزانات والمواسير ، وصار يستقبل الماء فى بيته بمحرد فتح صنوبر المياه أصبح إذا انقطعت عنه المياه لا يقول يا رب أسقنى إنما يبحث عن سبب انقطاعها أهو فى (ماسوره) كُسرَت ؟ أم أن الكهرباء انقطعت فعطلت موتور الرفع ؟ أم أن محطة المياه تعطلت ؟ إلخ

إذن كلما تقدمت الحضارة ووسائل المدية بعدت اتصلات بيننا وبين الله .

وهذا العلم الكونى الذى يقوم على الفكر وعمال العقل لا دخل للسماء فيه ويستوى فيه المؤمن والكافر ، فمن سعى إليه وأخذ بأسبابه أعطته الأسباب ، لذلك وجدنا معظم الاختراعات والاكتشافات جاء بها علماء كفرة لا يؤمنون بالله ، كالكهرباء والتليفون والتلغراف وغيرها

فمعنى ﴿ وَيُرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . ﴾ [سینا] أى العلم الشرعى ، وهم الذين آمنوا بك وصدقوك بالمعجزة على أيدى رسول الله ، وأن ما حدثت به هو الحق ﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْيَهُودَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ۖ ﴾ [سینا]

وكذلك الذين أوتوا العلم الكونى لهم دور فى تصديق الرسل وتأيدهم بمأ أوتوا من العلم الكونى يدل على الله وإذا كان القرآن كتاب لله

المقروء ، فالكون بأجناسه المختلفة كتاب الله المشاهد المنظور

واقراً إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. ﴾ (٢٧) [فاطر] هذا هو النبات ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٢٧) [فاطر] وهذا هو الجمد ﴿ وَمِنَ النَّاسِ .. ﴾ (٢٨) [فاطر] الإنسان ﴿ وَالذَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ .. ﴾ (٢٨) [فاطر] أى الحيوان ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .. ﴾ (٢٨) [فاطر]

ثم يختم الحق سبحانه بقوله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴾ (٢٨) [فاطر] أى علماء ؟ علماء الكون انذير يبحثون فى أجناسه المختلفة وقوانينه العلمية والاجتماعية والصحية إلخ .

وهؤلاء لعلماء يخشون الله لأهم يشاهدون أسرارهم فى كونه ويطلعون الناس عليها ، فهم جُدد من حنود الدعوة إن آمنوا يؤيدون قدرة الله ، بن ويستشهد علماء الشرع بكلامهم وتُطهرون قدرة الله فى الكون من خلال نظرياتهم العلمية ، إذن للنعم الكونى مهمة كبرى فى مجال الدعوة إلى الله

لكن ، من الذى يرى من هؤلاء - علماء الشرع ، و علماء الكون - أن الذى جاء به محمد هو الحق ؟

نُ قلنا علماء الشرع فقد شهدوا لرسول الله وصدقوه ، سوء من المؤمنى برسائره أم من علماء أهل الكتاب ، وإن قلنا علماء الكون

(١) الجدد من الشيء - الجراء منه يقالق لونه نور سائره - ونهى الآية أى من الجبال جراء ذات ألوان مختلفة [القاموس ، ج ١ ، ١٢٨]

(٢) غرابيب شديد السواد رجمعه غرابيب ، ووصف الغرابيب - بأنها سود للتركيب [القاموس العويم ٢ / ٥]

فقد شهدوا هم أيضاً لرسول الله وأيدوه بما لديهم من أسرار قدرة الله ، والدليل أننا قد تحدث في قوله تعالى ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢) [سبا]

قُلْنَا إن الذرة هي الهباء المتناهية في الصغر ، والتي لا تُرى بالعين المجردة إلا في شعاع الشمس ، هذا هو كلام الحق سبحانه . فأعطى من العلم الكوني ما يثبت هذا الكلام ، وما يقنعى بأن الله تعالى يعلم كل شيء ، ولا يحفى عليه حتى الذرة في السموات ولا في الأرض

يقول من الذي خلق السموات والأرض وما فيهن ؟ لا أحد يستطيع أن يقول غير الله كما قال سبحانه ﴿وَلَسَّ سَأَتُهُمْ..﴾ (٢٥) [نصار] أى انكار ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ..﴾ (٢٥) [نصار] . وقال تبارك وتعالى ﴿وَلَسَّ سَأَتُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُوَفِّكُونُ﴾ (٨٧) [الزخرف]

لا أحد يجرو أن يقول غير هذا ، مع أن الكفر والملاحدة كثيرون ، لكن لم يدع أحد أنه حقيق شيئاً ككف والناس يقفون عند أفعه الأشياء فيؤرّحون لها ويحدثون اسم صانعها أو محرّعها ، لو سالت تلميذ الابتدائية من اكتشف انكهرباء ؟ يقول لك أديسون . من أول من صعد إلى القمر ؟ يقول لك كذا وكذا .

كيف تعرف هؤلاء ومصنع لهم التماثيل ويكرمهم . ولا نسأل أنفسنا من خلق الشمس من خلق القمر من حرى الهواء الخ . وهذه مقومات الحياة وأساسياتها ، وليست ثروماً كالأخرى

(١) يعرب . مسب . فلا يعرب عن علمه سبحانه شيء | سباى العرب . عاده . عرب |

إِذْ تَضِيءُ لَخَلْقِ هَذِهِ سَاعَةً تُعْرَضُ لَا يَدُّ أَنْ يَنْمِثَلَ لَكَ قَوْلُهُ
تَعَالَى ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ .. (٢٥٨) ﴿[القرء] يعنى لا يملك إلا أن
يقول : الله .

تذكرون أننا قمنا إذا قال الحق قولاً وقار البشر قولاً يجب أن
يطمس قول البشر أمام قول الله ، لأن البشر حين يُقَنَّنُونَ يُقَنَّنُونَ
حسب ما يرى من أحداث ، ولا يحسب حساباً لما سيطراً ،
وما يُستجد ، لذلك تأتي قوايين الشر عاجزة قاصرة تحتاح دائماً
إلى تعديل .

كذلك ، فى مسألة الإضاءة نرى البشر يضئ كل منهم بيته مثلاً
حسب إمكاناته وقدراته ، فإذا جاء نور الله أطفئت كل الأنوار ، ومن
هذه المسألة نأخذ الدليل على مسألة الذرة التى تحاول أن تُثبت علم
الله لها من خلال العلم الكونى

فحين الآن فى المسجد ، والمسجد مُضاء ، وبرى كل شيء فهل
ترون الآن غباراً فى حو المسجد ، لا ، مع أننا فى النور ، لكن ماذا
لو جلست بجوار شباك مثلاً يدخل منه شعاع الشمس ، لا شك أنك
سترى هذا الغبار المتطاير فى الجو

إذن ، هذا الغبار لا تراه إلا فى ضوء الشمس ، فنور البشر
لا يكشف الغيب ، إنما يكشفه نور الله المتمثل فى ضوء الشمس ، فإذا
كانت الشمس المخلوقة لله تعالى بحيث لا ما حفى عنها أعجز خالق
الشمس سبحانه أن يعلم ما غاب عنها ؟

هذه إذن رسالة العلم الكونى أن يُثبت لنا ما يؤيد الدعوة ، وأن
ما جاء به الرسول حو

مسألة أخرى توضح مكانه اعلم انكونى ومنزلته فى الدعوة ، هذه
امسألة نجدها فى قوله تعالى عن عذاب الكفار يوم القيامة ﴿كُلَّمَا
بُصِغَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء]

هكذا قال الله تعالى ، وهكذا نقلها القرآن لما لم يحسبوا شيئا عن
مراكز الألم والإحساس ، وكذا لا نعلم شيئا عنها ، حتى جاء علماء
وتخصصوا فى وظائف الأعصاب ، وبعد بحوث وتجارب توصلوا إلى
أن الجلد هو المسئول عن الإحساس ، فقد لاحظ لالمان أن المريض
حين نعصه حفة مثلا لا يشعر بالألم إلا بمقدار ما تنفذ الإبرة من
طبقة الجلد ، فأحدوا من ذلك أن الجلد هو محل الإحساس وليس
العنق أو لفخاع الشوكى كما قال البعض .

أخذ علماء الشرع هذه القضية ، وجعلوها دليلا على قول الحق
سبحانه ﴿كُلَّمَا بُصِغَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا .. (٥٦)﴾ [النساء]
لعادى يا رب ، ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء] والجلد محل
الإدافة ، وهكذا ساعدنى العلم الكورى فى إثبات صدق القرآن الكريم ،
وأنه حق

كذلك سمعنا العلم الكورى فى إثبات كروية الأرض ، وأنها تدور
حول الشمس ، فالحق سبحانه أحسبنا أن الليل والنهار خلقة أى
يحلف كل منهما الآخر ، وهذا وأصح لنا الآن فى تعقب الليل والنهار .
لكن عابا كان أول الخلق هو أن النهار خلق أولا يعنى ، خلقت الشمس
مواجبة للأرض ثم عاب ، فجاء الليل ، فالنهار فى هذه الحالة ليس
خلقة لليل لأن النهار جاء أولا لم يسبقه ليل فليس خلقة

وعليه فلا بد أن تكون الأرض خلقت على هيئة كروية ، ما قابى
الشمس منها يكون النهار فيه وما لم يقابل لشمس يكون الليل

فيه ، فهما معاً في وقت واحد فلما دارب الشمس تعاقب الليل والنهار ، وخلف كل منهما الآخر ، فلا تتأتى هذه الخلفة إلا بكرويه الأرض .

بقوله تعالى ﴿ وَيُرَى الدِّينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . ﴾ [٦] [سا] أى العلم الشرعى المنزل من أعلى ، أو العلم لكونى القائم على البحث والمشاهدة وبقوله ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴾ [٦] [سا] سوء كان علماً شرعياً ، أو علماً كونياً يدل على أن العلم يتأى ، وليس هال عالم مداته ، إنما اعلم إيتاء من الله حتى فى علم لكونيات لدك لم يقل علموا ، إنما ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴾ [٦] [سا]

لذلك قالوا إن كان العلم نعمة من الله ، فكذلك النسيان قد يكون نعمة ، وجدياً يخدم الإنسان ، فبحسب معرف مثلاً (الحميرة) التى تخمر العيش ، إذا وجدت رفيف العيش (مبلط) يعنى وجهه ملتصق بطهره ترده للذئع وتطلب الرفيف (ابقاب) هذا ما تفعله (الحميرة) فى رفيف العيش لجعل الهواء يدخل بين ذرات العجين ، فحين تُدخه النار يمدد هذا الهواء فيحدث فاصلاً بين وجه الرفيف وطهره

وهذه الحميرة هى التى نعصر للعيش طعمه المميز فهل نعرف من أين جاءت هذه الفكرة ؟ جاءت بتيحة نسيان ، فيروى فى هذه المسألة أن امرأة عصت العجين ثم اشعلت عن خمره بعض لوقت ونسيتة فلما تذكرت جاءت إليه وحبره كما هو ، فوجدت هذا الفرق بين لعجين حين يُحبر سرباً وحين يُترب حتى يجتمى وكانت هذه بذاته فكرة الحميرة ، وكأن كل قطعة حميرة نأكلها الآن هى الحقيقة جزء من حميرة هذه المرأة

كذلك يقال فى سبب شواء اللحم أن الإنسان أولاً كان يأكل اللحم

بيئاً ، وقد ذبح رجل شاة بالليل ، وأوقد ناراً يستدفئ بها ، فجاء
دث يارعه الشاة ، فدخل معه في معركة ، فوقع فتحة لحم في
النار ، فلما حلص من الدث شم رائحة الشواء فأعجسته ، ومن هنا
عرف الإنسان كيف يشوى اللحم

إذن الحق سبحانه يهدي خلفه ولو بالإنسان ، ولو بالمصادفة ،
فلعلم حتى الكوني منه إيتاء من الله ، وكل قصية كونية لا يعطيك الله علمها
مباشرة ، يعطيك المقدمات التي توصل إليها ، وتؤدي إلى معرفتها

وكنا ونحن نتعلم الهندسة ندرس كتاباً اسمه (هول وديت) نتعلم
كيف يبرهن على صحة النظرية ، فمثلاً النظرية المائة يبرهن عليها بما
ثبت في النظرية السبعة والسبعين وهكذا فحين تسلسل هذه المسألة
نصل إلى النظرية ، رقم واحد كيف يبرهن على صحتها ؟

قلوا البرهان عليها بدهية في الكون ، فكان كل علم وصل إلينا
صله بدهية مخلوقة لله تعالى ، إذن فلعلم سواء أكان شرعياً
أو كونياً إيتاء من الله ذلك قال سبحانه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ كُمْ
اللَّهُ ﴾ [البقرة] يعنى بلهكمم وبرشدكم إلى الأشياء ولو
بالمصادفة ، وسبق أن قلنا إن نكل سر في انكون ميلاً ، إما أن
يأتى نتيجة بحث الإنسان فإن لم يبحث الإنسان فيه كشفه الله له
ولو بالمصادفة ، كما اكتشف لإنسان مثلاً التنسليين

لذلك يقول سبحانه في العلم الكوسى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
الْمَيِّتَ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي
يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ
عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة] أى يأذن سبحانه بعيلاد

هذا شيء . فإن شاء سبحانه أعطاك علمه نتيجة بحثك وأنت تبحث
وإن لم تكن هناك نَحَتْ أعطاك العلم مصارفة

أما العلم الذي استأثر الله به فهو غيب لا يحيط به أحد . كما قل
سبحانه ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا﴾ (٢٦) إلا من أَرَصَى من
رُسُولٍ . ﴿(٢٧)﴾ [الر] هذا هو العلم الذي لا دُخْرَ لأحد فيه . أما العلم
الكومي فله زمن ، وله ميلاد يُؤَلَّد فيه

ولنحظ في أسلوب الآية أن المفعول الثاني للفعل (يرى) جاء
على صورة الصمير المنفصل ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُرِلَ
لَيْتَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ..﴾ (٦) [سنا] ولم يقل الحق فقط إنما ﴿هو
لَحَقٌ .﴾ (٦) [سنا] وهذا الصمير المنفصل يعنى أن غيره ليس حقا
فالحق هو الذي أنزل على رسول ، وما عداه ليس حقا ، وكأنه
خاصية لم تُعط إلا له ﷻ

ومثلها فوه تعانى حكاية عن سيدنا إبراهيم ﴿لدى خلقى فهو
يهْدِين﴾ (٧٥) [الشعراء] فلم يقل الذى حققتى يهدينى ، لأنها تحتمل أن
يهديك غيره ، إنما ﴿هو يهدي﴾ (٧٥) [الشعراء] قصرت إهداية عليه
سبحانه وبعالى ، ومثلها ﴿ولدى هو يطعمنى ويسقي﴾ (٧٩) وإذا مرصت
فهو يشفين (٨٠) [الشعراء] فقصر الإطعام والسقيا والشفاء على الله
سبحانه وتعالى ؛ لأنك قد تظن أن بك هو الذى تطعمك ويسقيك
وهو مجرد سبب ومأول عن الله

وكذلك قد تظن أن اشفاء بيد الطبيب . وما الطبيب إلا معالج
والشفاء من الله ، بكر نام حين تكلم سبحانه بعدفا عن الموت
وحياة قال ﴿والذى يميتنى ثم نحس﴾ (٨٠) [شعراء] ولم تأب
منضمير المنفصل ها . لماذا ؟ لأن الموت والحياة لم يدعها أحد غير

الله ، فليست صفة المشاركة ، والكلام هنا عن الموت لا عن القتل ،
وهناك فرق بينهما سبق أن أوضحناه .

إذن قوله تعالى ﴿هُوَ الْحَقُّ ۖ﴾ (٦) [سبأ] دليل على أن الحق
واحد ، هو ما أنزل الله ، وما عداه باطل ، ولا يجمع حقان هي مسأله
واحدة ، إلا إذا كانت الجهة صفة كأن تقول مثلاً والله أب وسعت
ملايا اليوم في المطر وسافر إلى كذا ، فيقول آخر بل لم يسافر
وأب رأيت اليوم في بيته ، وعندها ينهم كل واحد منكم الآخر بالكذب
فأسرع إلى التليفون واتصل بهذا الرجل ، فقال لك نعم لم أسافر
فقد طرأ لي طارئ ، فخرجت من المطار إذن فالجبران صدقان ،
لكن الجهة صفة .

والحق هو الشيء الثالث الذي لا يغير ولا يُحكر ، وكيف تنكر
الحق وأب حين تريد أن تؤيد نفسك في شيء تقول هذا حقي يعني
لي ولا يمارعني فيه أحد ، قالوا عوى التي تقبمها أن هذا حقتك

والحق إلى حد ما أنه أمر ثابت فهو يصفك فيه إذن مبرتان
أو حجتان إلا أن الحق الثابت وغيره باطل والأخرى أنه يعود
عليك بضعه ذلك عن معالي بعدها ﴿وبهت إلى صراط العرير الحميد
(٦)﴾ [سبأ] ، هذا لم تقبل الحق لديه وسعصب له ، فعلم بما يعود
عليك من بضعه ، فهذان الأمران هما من حثيات التمسك بالحق

ومعنى ﴿العرير﴾ (٦) [سبأ] هو الذي لا يُعَلَب ولا يُفهر ، منه
قوله عز على كذ يعني لم أقدر عليه وفلان عرير يعني لا يقهره
حد ، فصفاه أعز صفاه ترهيب فحين تعرض عن هذا الحق فاعلم
بك تعصى عريراً لا يُقهر ، يغلب ولا يُعَلَب

ثم تتبعها سبحانه بصفه من صفات الترغيب ﴿الحميد﴾ (٦) ﴿

[سبأ] بمعنى محمود عني ما يُعطى من نعم ، فهي تُرْعَى في المزيد
من نعم الله

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبْسِكُمْ إِذَا
مُرِقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ حَدِيدٍ ﴾ (٧)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٧) [سبأ] معنوم أن الفول
بحسب الحاجة إلى قاتل وإلى مَقُول له ، الفائت هم الذين كفروا قالوا
لنر ، قالوا بمعصهم بعض وهم يتسامرون ، أو قال المتسرع سبهم
بتابعه الذي بقلده أم قوبهم فهو ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبْسِكُمْ إِذَا
مُرِقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ حَدِيدٍ ﴾ (٧) [سبأ]

وبلغت أبطارها في هذا الفول أنهم وصفوا سيديا رسول الله ﷺ
بكلمة (رجل) وهي ككرة قصيدوا بها الاستهزاء والاستنكار والتقليل
من شأنه ﷺ .

وهذا في حد ذاته يدل على عبائهم وتصفيلهم ، فهم أنفسمهم الذين
وصفوه بأنه رسول الله حين قالوا كما حكى القرآن عنهم ﴿ لَا تَقْفُوا
عَلَىٰ مَن عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴾ (١٠) [مصدق] فدل ذلك على عبائهم

وهم أيضاً الذين قالوا : لما فنر الوحي عن رسول الله ﷺ إلى رب
محمد قلاه ، وهذا عجيب منهم بعد المحنة والسوء يعترفون أن
بمحمد رباً

(١٠) عن صدر بن عبد الله المجلي أنه قال أنطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال انشدكم

بمحمد رباً وردة من كبر في تفسيره (٥٢٢)

وقولهم ﴿يُبْئُكُمْ ..﴾ (٧) ﴿سبأ﴾ من النبا ، ولا يُطلق إلا على
الخبر البهام وليس مطلق لخبر ، فمثلاً حين أقول لك أكلت اليوم كذا
وكذا ، وذهبت إلى مكان كذا لا يُعدُّ هذا نبأ ، لأنه خبر عادي ، أما
النبأ فخير عقيب وهام وعظيم ، كما جاء في قول الله تعالى ﴿عَمَّ
يَسَاءَلُونَ﴾ عن النبا العظيم (٧) ﴿[سبأ]﴾

ومعنى ﴿إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقٍ﴾ (٧) ﴿[سبأ] التمزيق إحلال لكل
عن 'جزائه' ، وإيعاب الأجزاء بعضها عن بعض ، فمثلاً أنا أحلس الآن
على كرسي هذا الكرسي كلُّ مكوِّن من أجزاء خشب ومسامير
وغراء وقصن وقماش إلخ ، فتمزيق هذا الكل أن أقصر هذه الأجزاء
عن بعضها ، فينهدم هذا الكل إلى أجزاء

وينبغي هنا أن تُعرِّق بين الكل والكلّي انكل مكوِّن من شيء
كثير ، لكنه يختلف في الحقيقة ، فبالخشب غير المسمار غير الغراء
غير القماش ، فكل جزء له تكوينه الخاص .

أما الكلّي فيُطلق على أشياء كثيرة متفصلة ، إلا أنها متفقة في
الحقيقة كما نقول مثلاً إنسان بالنسبة للأفراد شيء كلي ، لأن
الإنسان يُطلق على كل المجموع ، بحيث يُقال عز كل فرد إنسان ،
إنما في الكل لا أقول الخشب كرسي .

هذا هو التمزيق ، مماذا أصاب ﴿كُلَّ مِرْقٍ﴾ (٧) ﴿[سبأ]﴾

أي : تمزيقاً شديداً يُمزَّق الكل ، ويمزَّق الجزء ، إذن التمزيق له
مراحل وصور ، فمعنى ﴿مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقٍ﴾ (٧) ﴿[سبأ] استقصاء
لأصغر شيء يصل إليه الممزَّق ، وهذا التمزيق يشاهده في نحر
الميت وتفكُّل أجزائه وعناصره حتى نذهب في الأرض ، لا يبقى لها
أثر

ومن ذلك قولهم ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَمُفْقَرُونَ﴾
جديد.. (١) ﴿

[السجدة]

معنى ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) [السجدة] أى ذهبت فيها وغبت
فى مذهبها

والتمريق له سبب متعددة ، فمن يموت ويدفن تمرقه الأرض
ومن يموت محروقاً تمرقه النار . وربما تذرؤه الرياح وتتمعر ذراته
ومن تأكله لحيوانات والطير .. إلخ

ومع هذا التمريق ولتفتيت والعثرة تستطيع قدرة الله أن تعيد
للإنسان من جديد . واقرأ ﴿ق وَالْفُرَادِ لَمَجِيدٌ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ
جَاءَهُمْ مُبَشِّرٌ مِنْهُمْ فَقَالِ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَتَذْكُرُونَ
أَنَّا مَتَّ وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق] يستعدون البعث فيرد القرآن عليهم ﴿قَدْ
عَلِمْنَا مَا تُنْقِصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ .. (٤)﴾ [ق] يعنى لا تستعجبوا فكل
درة يستعرت بعلمها . ويعلم مكانها . ونقدر على إعادتها ﴿وَعِنْدَنَا
كِتَابٌ حَافِظٌ (٥)﴾ [ق] يعنى ليس مجرد علم . إنما علم مسجل
محفوظ ، لا يذله تغيير ولا تبدل

وقوله ﴿وَكُنَّا لَمُفْقَرُونَ﴾ أى خلق جديد (٧) ﴿رَسْنَا الْخَلْقَ الْجَدِيدَ أَنْ يُعَادَ
الشَّيْءَ إِلَى أَمْسٍ تَكْوِينِهِ كَأَنَّهُ يَنْفَخُ الْبَدَلَةَ مِثْلًا فَتُصِيرُ جَدِيدَةً ،
لَمَادًا ° لأنه أعد تكويناها من جديد
ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَدًّا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَأَصْلَالٍ لِّلْعِيدِ (٨)﴾

هذا لقول كسانه يحتاج الى قتل ومقور به ويصح أن يكون

قَاتِلُهُ هُوَ الْقَاتِلُ لِأَوَّلِ الدِّي قَالَ ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْكُمُ .. ﴾ (٧) ﴿
[سبأ] وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْآخِرُ الَّذِي سَمِعَ الْقَاتِلُ الْأَوَّلَ فَرَدَّ عَلَيْهِ
﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِفَّةٌ ﴾ (٨) [سبأ]

مَعْنَى ﴿ أَفْتَرَى .. ﴾ (٨) [سبأ] مِنَ الْإِفْتِرَاءِ ، وَهُوَ تَعَمُّدُ الْكَذِبِ ﴿ أَمْ
بِهِ حِفَّةٌ ﴾ (٨) [سبأ] أَيْ جَنُونٌ يَعْنِي كَلَامُهُ هَرَاءٌ لَا وَزَرَ لَهُ
وَلَا يُقَالُ لَهُ صَدَقَ وَلَا كَذَبَ لَكِنْ لَمَّا نَادَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ بِأَنْ يَهْجُوهُ
بَعْدَ أَنْ اتَّهَمُوهُ بِالْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ ٩

قَالُوا لَا هَذَا إِبْهَامٌ كَذِبٌ ، وَالْكَادِبُ مَنْ نَحَافَ أَنْ يُفْتَصِّحَ
أَمْرُهُ ، وَيُكْشَفَ كَذِبُهُ ، لَدُنْكَ يَحَاولُ أَنْ يَجْعَلَ لِنَفْسِهِ مَخْرَجًا حِينَ
يُثْبِتُ كَذِبَهُ ، فَقَالُوا ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِفَّةٌ .. ﴾ (٨) [سبأ] فَيُثْبِتُ
مَا ثَبَتَ صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ كَاذِبًا وَلَا مُفْتَرِيًا وَجَدَ لِمَتَّهِمْ لَهُ
مَخْرَجًا فَقَالَ وَاللَّهِ أَنِّي لَا أَدْرِي أَهْوَى مُفْتَرٍ أَمْ بِهِ حِفَّةٌ ، وَمَا دَامَ ثُبُتُ
صَدَقَهُ ، فَهُوَ بِهِ حِفَّةٌ

وَعَجِيبٌ أَنْ يَصِفَ كَهَازِ مَكَّةَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ
وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، مَا عَرَفُوا عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ وَمَا حَرَّوْا
عَبْدَ كَذِبًا قَطُّ وَمَا رَأَوْهُ يَوْمًا حَظِيئًا وَلَا شَاعِرًا وَهُمْ أَهْلُ الْفَصَاحَةِ
وَفَرَسَانُ الْكَلِمَةِ ، لَا يَحْفَى عَلَيْهِمْ بِدَوِّقِ اللَّعَةِ وَفَهْمِ الْأَسَاسِ الْعَرَبِيَّةِ ،
فَكُنْ عَلَيْهِمْ أَنْ مَعَقَلُوا أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يُؤْخِهُوا بِرَسُولِ اللَّهِ هَذَا الْإِتْهَامَ

ثُمَّ ، هَلْ تَأْتِي الْبِسْلَاغَةُ ٩ وَهَلْ يَأْتِي الدِّيُوعُ بَعْدَ سَنِّ الْأَرْبَعِينَ ٩
مَعْلُومٌ أَنَّ الدِّيُوعَ يَأْتِي فِي أَوَاخِرِ الْعَقْدِ الثَّانِي أَوْ أَوَائِلِ الْعَقْدِ الثَّالِثِ مِنَ
الْعُمُرِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَبِثَ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يُبْلَعَهُمْ عَنْ اللَّهِ
كَلِمَةً وَاحِدَةً

لذلك يحاصبهم انقرار . ويحاديهم بالحجة ، فيقول على لسان
سيدنا رسول الله ، ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ لَكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) ﴿
[يوسر] يعنى تدبروا الأمر واعقلوه ، ماأنتم أمر البلاعة واللسان
الفصيح ومنكم الحصباء ولشعراء ملأوا الدنيا كلاماً ، فهل رأيتم
منى شيئاً من هذا ؟

إذن الذى قال ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۚ ۝ ﴾ (٨) ﴿ [سنا] حطاط لنفسه . فحين
يظهر صدق رسول الله تعالى هو أنا قلت إنه بما كاذب ، وإما
مجنون

ثم يرد الحق على هؤلاء ﴿ نَبِلَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ
وَالصَّلَاةِ لَبِيعِدَ ﴾ (٨) ﴿ [سنا] كلمة (بر) تفجيد الإضراب عما قبلها
وبعده وروصه ، ثم إثبات ما بعدها ، وهى تنفى أن يكون رسول الله
مفترياً وتنفى أن يكون مجنوناً لأن رسول الله ما جرئتم عليه كذباً
من قبل ، وما رأيتم عليه علامة من علامات المجنون لأن المحنور
لا يُحمد على فعل ولا يُدَم على فعل ، ولا يُوصف بصدق ولا كذب ،
وقد سبق أن مدحتم رسول الله فقلتُم عنه « الصادق الأمين »

لذلك يقول الحق سبحانه ﴿ وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) ما أنت
بتعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجراً غير ممنون (٣) وإنك على خلق
عظيم (٤) ﴿ [انتم] وهى يُوصف المجنون بأنه على خلق عظيم ، هل
يُوصف المحنور بالآذ أو الرفاء أو عسيرها من حصول الحلق
الحميد ؟

فكيف إذن تصعبون رسول الله بالمجنون ، وقد شهدتم له سيده
الحصول الحميدة هى النفس البشرية وهى الأمانة وكنتم تسمونه

على أشيائكم ، وتصعونها عنده ، ذلك خلف رسول الله الإمام علياً وراءه بعد أن هاجر ببرد الودائع والأمانات إلى أهلها

وبعد أن أطر الحق سبحانه كذبهم على رسول الله يقرر ما يستحقونه على ذلك من العذاب ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ (٨) [سنا] في العذاب لأنهم اتهموا رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، ورسول الله لم يكذب ، ولم يفتّر على الله ، وهم في الضلال البعيد ، لأنهم وصفوا رسول الله بالجنون ، وهو شيء محل بتكوينه بما لم يكذب الله العذاب مقابل الاتهام بالافتراء على الله ، والضلال البعيد مقابل اتهامهم بالجنون
ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا يَبَيِّنُ آيَاتِهِمْ
وَمَا ظَلَمَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ
لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾

اهمرة هنا للاستعظام والمعنى كيف يقولون هذا ويفعلون عن

(١) قال ابن إسحاق لم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وال علي بن أبي بكر أما على بن رسول الله ﷺ فممن بلغني خبره بخروجه وأمره أن يحلف بعده بعه ، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بعه أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وصعه عنده بما أعلم من صيقه وملكته ﷺ [سيره ابن هشام ٢/ ٤٨٥]

(٢) الكسفة القطعة وجمعها كسف وكسف السحاب قطعه [لسان العرب مادة كسف]

آيات الله في كونه ، وهي ظاهرة لهم غير مضموسة عليهم ، لأنهم يعيشون في بادية سماؤه مكشوفة لهم ، ليست دات عمائر تحجب عنهم آيات الله كأهل المدن مثلاً ، قنما يروون الشمس أو لقمر ، وإذا حدث كسوف أو خسوف لا يدرون به إلا من أحيار الصحف

أما أهل البادية فيعيشون في صحراء شاسعة ، وتبدو لهم صفحة السماء ، أبيضهم الشمس بالنهار ، والقمر والنجوم بالليل ، وهم ينظرون إلى هذه الآيات ويتأملونها ، لذلك قل الرجل لعربي وهو يتأمل تكون من حوله وهو على الفطرة سماء دات أبراج ، وأرض دات مجاج^١ ، وبحار دات أمواج ، القدم تدن على المسير والبعرة تدل على البعير ، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن كيف وآيات الحق واضحة أمامكم - بنهمون رسول الله وتغفلون عن آيات الله ﴿ قُلْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾ (٦) [سبا] معنى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ۖ ﴾ (٦) [سبا] أمامهم ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ ﴾ (٩) [سبا] وراءهم ، ويمكنك أن تزيد يمينهم وشمالهم ، لأنك أبصرت في هذه الانبعاثات قلن تحد إلا السماء ، حتى لو قلت تحتهم وحاولت أن تحترق الأرض فلا بد أن تصل إلى النهاية إلى سماء في الجهة الأخرى ، لكنه لم يقل تحتهم لأن الإنسان لا يستطيع أن يحترق الأرض إلى نهبتها

(١) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن سبي إباد ، أحد حكماء عرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية ، كان أسقف بحران كس بقدر على قبضه الروم راثراً فسكرمه ويعظمه طالت حياته - وأمره النبي ﷺ بمل النبوة ورأه في عكاظ ورسل عنه بعد ذلك فقال يوحى أمة وحيه [الأعلام للزركلي ٥ ١٩٦]

(٢) نفع الطريق الواضح الواسع ، رجمه مجاج - قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا مَجَاجَ سَبِيلٍ ﴾ (الأنبياء) أي طرقاً واسعة واضحة [القاموس القويم ٧٢/٢]

ثم أي عظمة في خلق السماء بهذا الاسراع وهي بلا عمد ؕ إنك لا تستطيع إقامة حيمة مساحتها عدة أمتار إلا بأن تثبتنها بالحبال والأوتاد وترفعها بالأعمدة ، ولو هبت عليها الريح انقلعت أو بدمها وأعمدتها وهدمها على من فيها ، فكيف تمر على آيات الله في اسماء وفي الأرض دون أن تتأملها ؟

ثم يقول سبحانه ﴿ إِنْ تَنْشَأْ بِحُسْفَ يَهُمُ الْأَرْضِ .. ﴾ [سب] كما حسفها بقارون ﴿ أَوْ نَسْفُطْ عَلَيْهِمْ كَسْفاً مِنَ السَّمَاءِ .. ﴾ [سب] كما نزلت الصاعقة من قبل على المكذبين بلرسل و (كسفاً) جمع كسفة أي قطعة ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّسِبٍ ﴾ [سب] آية يعني . عبرة وعظة لكل عبد يحاول أن يرجع لربه .

فكان الحق سبحانه جعل في كونه هذه الايات لتذكّر كل غافل ، وتردّ كل كافر ، ونعطفه إلى أن يرجع إلى ربه ولو رجع الكافر إلى ربه لقلبه

إس الحق سبحانه خلق الخلق ، ويريد أن يسعدهم ، لكن لا بد أن نحتر من يستحق السعادة ، وأن نميز من أطاع منهج الله ومن عصاه

لذلك يقول النبي ﷺ « مثلي ومثلكم كمرجل أوقد ناراً فأحد الدياب والفراتر يتهاافت عنها ، فأنا اخذ بحجزكم عن النار وأبسم تفلّتون مني »

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٥) من حديث جابر بن عبد الله ، وبقوله عليه السلام ، من صحبه (٦٤٨٢) ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، معنى : من أحببكم (أي أحد بمعاهد اركم وسراويلكم) الحجرة هي معبد النار ، ومن سمرهون برضه العكة

فالحق سبحانه يفتح لعباده - حتى الكافرين منهم - باب الأمل ليعودوا إلى ساحتهم ، وقد ورد عن رسول الله أنه قل « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بغيره وقد ضلَّه في فلاة » ففتح بالتوبة وبالإتابة باب الرجوع إليه ، وخاصة إذا اكتملت للإنسان الوسائل الداعية للتوبة من تقدم السن أو المرض .. إلخ

مما يعد الإنسان عن حظِّ الشهوات ويدعوه لأنَّ يقول على الله ويصلح ما فسد من علاقته بربه وخالقه ، حتى إذا ما عاد إليه يوم القيامة عاد ظاهراً من ذنوبه ؛ ذلك لأنَّ الخلق خلقه ، وصنَّعته ، والصانع يزيد لصنَّعته الخير والسعادة

وسبق أنَّ ذكرنا الحديث الذي يوضح أنَّ السماء والأرض والحدال والبحار تمرَّدت على ابن آدم واستأذنت ربها - ببارك وتعالى - أن تهتك به فقالت السماء يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شُكْرُك إلخ ، فمادام أنَّ الحق سبحانه لها قال دعوني وما خلقت ، لو خلقتهم برحمتهم ، رُتابوا إلى فأننا حبیبهم ، وإن لم يتوبوا فأننا طیبهم^(١)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يعود إليه من أحدكم كان على رحمة يرحم فلاة ، فاعلمت منه ، وعسى طعامه وشرابه مايس منها مني شجرة منسجج من حبها قد ايس من راحلته فيتما هو كذلك إذا هو بها قسعه عنده فأحد بحظائها ثم قال من شدة الفرح اللهم أبت عدي وأنا ربك تحط من شدة الفرح

(٢) أورده العراقي في إحياء علوم الدين (٢٢/١) من قول بعض السلف ولطمة « ما من عبد بعضي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يضيف به وسائر سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً فيقول الله تعالى للأرض والسماء كنما عبيدي وسعلا فياكنم ثم يحفاد ، ولو خلقتموه لرحمتهماد وبك يوب إلى فاعفر له ، وبك يسبيل سالحا فادبه به حسنة »

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ أَنبَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ
وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ۖ أَنِ اعْمَلْ مَنِغَتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ^(٦)
وَأَعْمَلُوا صَلَاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾

بعد ان فتح الحق سبحانه باب التوبة لعباده ، وأعطاهم الأمل
حتى الكافرين منهم ، وبعد أن فعلوا برسول الله ما فعلوا ، وسعوا في
أنات الله معجرب ما يراى الحق سبحانه رحيماً بهم ، حريصاً عليهم ،
فبلغت أنظارهم إلى واسع رحمته .

وكانه سبحانه يقول لهم لا تستكثروا أفعالكم وذنوبكم أمام
رحمة الله ، ولا تصدُّكم هذه الذنوب عن التوبة والعودة إلى الله وإن
كنتم أدبتم فمن الرسل من حدثت هفوه من عصمهم مع أنهم
أنبياء ، فكأن الحق سبحانه مع هذا كله يلتبس لهم عذراً

لذلك ذكر بعدها حكاية سيدنا داود ﴿وَهُدًى أَنبَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا..
(١)﴾ [سبا] وفي موضع آخر بيِّن ما كان من أمر سيد داود
﴿وَوَهَبْنَا دَاوُدَ أَنبَا هَمَّاهُ فَاسْتَعْمَرَ رَبَّهُ رَاحِثًا وَأَمَّا (٢)﴾ [ص]

إذن لا تحجلوا أن تُسيبوا إلى الله : لأن سيديكم الذى أعطيته

(٦) أوبى معه أى رددى الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام [القاسوس القوس
٤٧/١] وقال ابن كثير فى تفسيره : «التاريخ فى اللغة هو التراجع ، فاستمرت الجبال
والطير أن تُرجع منه بأصواتها»
(٧) السرد : مسح حلمات الدرع وإحكام صنعها قال ابن كثير فى تفسيره (٥٢٧/٢)
« لا تدق السمارة (أى لا تحطه رعباً) بمقل فى الحلقة ، ولا تعطفه منقصها
واحده قدر »

وأعطاه المنهج وزاده نعمه أخرى خاصة به ، وهي أنه ألان به الحديد ، كما قال سبحانه ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ .. ﴾ (١١) ﴿ [سنا]

وكلمة ﴿ مِنْأ .. ﴾ [سنا] دلت على أن النعمة ليست من داتك ، إنما من الله ، فتقديم الحار والمجروح هنا أفاد قصر النعمة على المبعم سبحانه ومثلها الجار والمجروح في قوله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي .. ﴾ (٢٩) ﴿ [منا]

كأن الحق سبحانه يقول لسيه موسى عليه السلام لقد أخذك آل فرعون ، وانتقصوك من اليم في وقت كانوا يقتلون فيه لأطفال ، وقد جنتهم في صورة تدعو لى الشك ، لكنهم حبوك وراوا غيك فرة عين لهم ، وأنت وقتها أسحر الملون كبير الألف جعد لشعر يعنى ليس فيك ما يلعب البخر ، لكن تدكر أنى ألقى عليك محبة منى أن ، فأحبوك

ولفضل من لله بأتى لخاص حمعاً ، لكن أرسل لهم نعم متميرة ، وعصل أعظم في صورة معجرات ، ويُسَيَّرُ الحق سبحانه فضبه على بيه داود بقوه ﴿ يَنْجَالُ وَيُى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١) ﴾ [سنا]

(يا جبال ، بدء ، فالله يبادى أنجبال لأنها تسمع وتعى هذا البدء ﴿ أَوْبَى (١) ﴾ [سنا] معنى رحى معه ما يقول وما يقرأ من الرمور أو من الذكر ، وهذا دليل على أنه يفهم قول لحيال ، وأنها تفهم قوه ، رُتِدَّدَ خلفه ابن للحيال منطوق ولعه أوفهمها الله بته داود

وقد تناول مسألة تسبيح الحمامات بما عرصنا لقوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ لَا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . ﴾ (١٠١) ﴿ [إسراء] وردنا قول من قال إنه تسبيح لحيال لا تسبيح الحمامات ، لأن

الله قال ﴿وَلَنْكُنَّ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ۞﴾ [الإسراء] وما دام قد

حكم سبحانه أننا لا نفقه تسبيحهم ، فهو تسبيح بالقول

والمدين قالو يتسبح الدلالة استعظموا أن يكون للحبل كلام ولغة

وتفاهم ، لكن هل للجبر كلام معك أنت ؟ لجبل كلام مع ربه وحالقه

أدى قال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۚ﴾ [البقرة]

دن . ما تخلك أنت في هذه المسألة ؟ ولماذا تنكرها ؟

وتأمر قوله سبحانه ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ

حيثه ۚ ۞﴾ [الرعد] فجمع بين تسبيح الرعد وهو جماد وتسبيح

الملائكة ، وهم أعلى أجناس المخلوقات ، وأين وجه الدلالة في تسبيح

الملائكة ؟ فلماذا العجب ، وقد ثبت أن لكل شيء لغة تناسبه ، وقد

رأينا لغة للدهد ، ولغة للنمل ، إلخ .

فعظمة سيدنا داود أنه فهم لغة الجبال ، وسمع تسبيحها ، ووافق

سببها تسبيحه ، كذلك ﴿وَالطَّيْرُ ۚ﴾ [سبا] يعنى يا طير أوب

مع داود ، ويريد معه التسبيح

﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ۚ﴾ [سبا] وهذه معجزة أخرى لسيدنا داود ،

وإننا قال الله عية أشياء ، ثم حدث في الواقع أنه صدق في واحدة

الآخرى ؟

فبما قال سبحانه ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ۚ﴾ [سبا] فلا تأن نصدق

بذلك ، وأن يعتفد أن الحديد صار في يد سيدنا داود مثل طير

الصلصال الذى يشكله الاطعال كيفما أرادوا لأن البعض يرى أن

﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ۚ﴾ [سبا] يعنى علمه الله أن لنار تدب الحديد

(١) اخرج عبد الرزاق ومحمد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿وَأَنَّا لَهُ

الحديد ۚ﴾ [سبا] قال يبر الله له الحديد فكان يسره حثف منه بعض به كما يعمل

بالطين من غير أن يذبح النار لا يصوبه بطرقه ، ورواه السجستاني في الدر المنثور

ولم أن الأمر كذلك فليس فيه معجزة ، ولا ميزة على غيره من الناس
وبالحديد ميزات عدة ، وأنواع مختلفة ، وتتوقف مدى أهميته على
مدى صلاته ، ولأهميته أنزله الله من عل كما أنزل الكتب ، لذلك نكلم
سبحانه في سورة الحديد عن الرسل مثل موسى وعيسى - عليهما
السلام - وتكلم عن إزال الكتب ، وقال عن الحديد ﴿ وَأَرْسَلْنَا الْحَدِيدَ
فِيهِ يَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٣٥)

ومعلوم أن الإنزال يأتي من جهة العلو ، فالحق سبحانه أنزل
الكتب ينطق بها الرسل بهداية المهتدى الذي يسمع ، وأنزل الحديد
لردع لعاصي وزجره ، ففي الحديد نأس شديد في وقت الحرب ،
ومنافع للناس في وقت السلم

لذلك قال تعالى بعدما ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُ رِيسَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ
اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٤٠) [الحديد] ينصره في أي شيء ؟ ينصره في
الحديد ، وفي استخدامه رقب الحروب وسيدت داود - عليه السلام -
آتاه الله وأنزل عليه هذا وهذا الكتاب للهداية والحديد للحرب

لذلك قال له ﴿ أَدِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ [سبا] بمعنى دروعاً
واسعة ، وهي عدة الحرب يلبسها الحديد على مطر العتاك وخاصة
على الصدر ، لأن يدخله القلب والرئتين ، ولم يقل له اعمل نأساً
ولا محراثاً مثلاً ، لأن هذه لمنافع لأرض الله يريد ما يحمي المنهج
ويحرر العاصي .

وكانت الدروع قبله تُصنع منسجاً يتحرك عيناها السيف ويتزلق ،
وربما أصاب منطقة أخرى من الجسم ، وكانت تُصنع على قدر
ما يحمي الصدر ، فعلمه الله أن تكون واسعة لتحمي أكبر قدر ممكن
من الجسم ، فقال ﴿ أَدِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ (٤١) [سبا]

وعلمه كذلك أن تكون على شكل حلق متداخلة ﴿وقدر في السرد ..

﴿١﴾ [سا] بمعنى أحكم تداخل هذه الحلق بعضها في بعض ، حتى إذا ما نزل عليها السيف ثبت على إحداها ولم يتحرك

وكان برع الإمام على - كرم الله وجهه ورضي الله عنه - ليس لها ظهر ، مقالوا له ألا تتخذ لدرعك ظهراً ؟ فقال تكلفتني أمي ، إن مكنت عدوي من ظهري^(١)

فتأمل أن الله تعالى لم يُعلم سبه داود أولاً وسائل السلم ، إنما علمه أولاً وسائل الحرب وإعداد العدة لمن نقض كلمة الله ، وحاد عن منهجه ، علمه أن يُعد له ما استطاع من قوة

ومعنى ﴿وقدر في السرد . ﴿١﴾﴾ [سا] جعلها بتقدير دقيق وإحكام في السج قال العلماء السرد الحلق الذي يتكون منها الدرع ، وبها خروق تُوضع فيها المسامير التي تثبت الحلق بعضها إلى بعض

فمعنى ﴿وقدر في السرد ﴿١﴾﴾ [سا] بمعنى لا تجعل لحرق واسعاً ، لا يثبت فيه المسمار ، لا تحعه صميغاً فيغلق بالمسمار الحلفة ، وقل آخرون ﴿وقدر في السرد .. ﴿١﴾﴾ [سا] بمعنى اعمل منها على قدر ما تحتاج ، ولهذا المعنى قصة

يُروى أن سيدنا داود عليه السلام - كان يكل من بيت مال

(١) أورده عبد الحبر ابن قسيبة الديوري في كتابه «عيون الأحيار» (١٣١/١) ، قال كان درع على - رضي الله عنه - مسدداً لا ظهر له ، فقول له في ذلك ، فقال إذا استمض عدوي من ظهري فلا ينق

للمؤمنين ، لأنه المتولى لأمرهم ، فأنزل الله ملكاً في صورة رجل ، وحمل الناس سألوه كيف يعيش داود ؟ فقال فيه كثير من خصل الحير ، إلا أنه يأكل من بيت لعل ، فلما بلغ هذه الكلمة داود عصب وتألم لها وبكى ، ثم قال يا رب لم جعلت في هذه لمسألة ؟ فعلمه الله صناعة الدروع لعبش منها^(١)

فكان يصنع الدرع بأربعة آلاف^(٢) بعش منها حتى تنهد ، فصنع درعاً آخر وهكذا . فلما أمره الله بصناعة الدروع قال ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّيِّدِ مِنْ دُونِ النَّاسِ أَنْ يَمْلِكَ عَلَى الْكَلْبِ مَا يَمْلِكُ عَلَى الْبَشَى ۚ سَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ وَكَانَ مِنَ الْمُقَدَّرِينَ ۚ ﴾ .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٣) [سبا] كن الحق سبحانه يقول بنبيه داود تدكر حين تعمل ما طلب منك أنى يصير بعملك مطلع عليه وهذه التذكيرة بنبي سامعون على التصرف ، فما بالك بنا نحن ؟

إننا نلاحظ العامل يتقر عمله طالما يراد صاحب العمل ، فإن غاب عنه أهمل العمل وغشيه ، فانه يحذرننا من هذه المسألة

هكذا ورد أمر سيدنا داود في هذا الموضع مختصراً ، وإن كانت له قصص في موضع آخر

(١) ذكره الصاقل ابن عساکر في ترجمه داود عليه السلام من طريق إسحاق بن بشر عن أبي عباس عن وهب بن عتبة قال ابن كثير في تفسيره (٢٧٧/٣) بعد إيراد الأثر : « إسحاق بن بشر في كلام »

(٢) قاله ابن شؤد سما أخرج الحكيم القزويني في موارد الاصرار وابن أبي حاتم قال كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بسنة آلاف درهم ألفين له ولأهله وأربعة آلاف بطعم بها من إسرائيل الحبر الموارى (في الحبر المصنوع من النقيع الأبيض) [اورد السيويني في الدر المنثور ٦٧٦/٦]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَسَلِمَنَّ الرَّيْحُ عُدُوَهَا شَهْرًا وَوَأَحْيَا شَهْرًا
وَأَرْسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ
رَبِّهِ وَمَنْ يَرْغَبُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِ بَالِذِقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢)

يعنى - كما آتينا داود مَنَّا قِصْلًا ، وكان من هذا الفصل أن أَوْتَتْ
معه الجبال ، وَأَلْنَا لَهُ الحديد ، كذلك كان من فضل الله على ولده
سليمان أن صَوَّعْنَا لَهُ الريح ، وحملناها تاتمر بأمره

وسبق أن مبينا أن كلمة الريح إن وردت مفردة ، فهي فى الشر
والعذاب ، وإن جاءت جمعا دُتْ على الخير والرحمة ، وقرأ قوله
تعالى ﴿وَهِيَ عَادٌ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) ما ندر من شيء أتت
عليه **لَا حَکَّتْ كَالرَّمِيمِ** (٤٢) ﴿الدَّابَّةِ﴾ وقال ﴿قُلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ
رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) [الأحقاف]

وفى الرياح **قَالَ** - ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ (٢٥) [الحجر]
وبين ذلك ، أن الريح إن كانت مفردة تُعد ربحاً مدمرة ، لأنها تأتي
من ناحية واحدة ، والذى يقم الأشياء ويحفظ بوا. بها أن الرياح تحيط
بها من كل جانب فتسحقها ، والذى يدعم باطحات السحاب مثلاً الهواء
الذى يحيط بها ، فإن أفرغت الهواء من ناحيته منها انهارت نحو هذه

(١) القطر النحاس - قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن
جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦ ٦٧٧)
وقال عكرمة أسأل الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يمسين كما يسيل السماء أخرجه ابن
السدر

الباحية ، لذلك كنت لربح الواحدة من جنس العذاب ، والرياح من جنس الرحمة ، ألا ترى الأعاصير تدمر ، لأنها تأتي من جهة واحدة ؟

لكن هل سخر الله تعالى لسليمان الرياح ، أم سخر به الريح ؟ قالوا لم تُسخر لسليمان الرياح كلها ، إنما ريحاً مخصوصة وطُفِّعَها له وطوَّعَها لأمره . وهذه الريح أعطت سليمان عليه السلام عزه ومنعة ، بحيث لا يقوى أحد على مواجهته أو التصدي له

لذلك كان هو - عليه السلام - النسي والملك الذي لم يحاربه أحد ، ولم يجروا أحد على مدبرته ملكه ولا دبرته كيف وفي يده من انقوة ما لم يتوعمر لغيره ، فسلطانه سلطان قهر إن أراد شيئاً أدمع الجميع لإرادته

أما نبينا محمد ﷺ فجاءت دعوته لاستمالة القلوب لا لإرغام القوالب ، لذلك خاطبه ربه بقوله ﴿ إِن نَّشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (١) [الشعراء]

ومعنى ﴿ عُدُوَّهَا شَهْرٌ رَّزَّاحُهَا شَهْرٌ ۖ ۞ ﴾ (٢) [سبا] الغدو السير أول النهار ، والرياح العوة آخر النهار ﴿ وَأَسْلَمَا لَهُ عَيْنُ الْقَطْرِ ﴾ (٣) [سبا] أى أدبنا له البحاس كب الثا لاسه الحديد ، فهذه واحدة من الأقسام التى خص الله بها سيدنا سليمان ، تذكرون قصة السب الذى بناه ذو القربين فلما انتهى من بنائه قال ﴿ أَتَوْنِي أَفْرَعٌ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴾ (٤) [الكهف] يعنى نحاساً مذاباً ، بحيث لا يستطيع أحد أن ينقبه

ثم يذكر الحق سبحانه أمراً آخر مما خص به سليمان عليه السلام ﴿ وَمِنَ الْجِبِ مِّنْ يَّعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَادُّنْ رَبَّهُ ﴾ (٥) [سبا] ومعنى ﴿ يَادُّنْ رَبَّهُ ﴾ (٦) [سبا] أن المسألة كلها تسحر من الله لبنيه سليمان ، وليس أمراً ذاتياً من عبده

لذلك قال . ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [سج] أى يميل
أو يحرف عنه ، أو يعصاه ﴿يُدْفَعُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سج] فأمرو
سليمان للجن من باطن أمر الله ومن يعص أمره كأه عصي أمرها
ثم يقول الحق سبحانه

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَافٍ
كَالْجُحَافِ وَقَدُورٍ رَاسِيَتٍ أَغْمَمُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ
مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾

المحاريب . جمع محراب ، ويُطلق على المقصر الفخم لواسع .
وعلى المكان الذى يتخذ الناس للعبادة ومنه قوله تعالى ﴿كَمَا
دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [٣٧] [آل عمران]
والتماثيل جمع تمثال ، وهو ما يُنحَب من الحجر مثلاً ، أو
يُصَوَّر على هيئة إنسان ، أو حيوان ، أو طائر إلخ وهى مسألة
التمثيل بالذات يصر سؤال أيمتن الله على نبيه سليمان بأل الجبر
تصنع له التماثيل مع ما عُرِف عنها من أنها رمز للإشراك بالله ، وقد
حطمتها الأنبياء وبهواً عن عبادتها من دون الله ؟

قالوا حُطِّمَتِ التَّمَاثِيلُ لَمَّا اتَّحَدَهَا النَّاسُ لِلْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ ،
وكانت من قبل لا تنحط للعبادة ، بل للخدمة ، وللدلالة على الإلهية

(١) على ذكر الخدمة هـ لا بد أن أورد ما أخرجه الحكم الترمذى فى موارد الأصول عن ابن
عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وتماثيل) قال اتخذ سليمان عليه السلام تماثيل
من نحاس فعال يا رب ، أنتج فيها الروح فإثاب أقوى على الخدمة ، فنطق الله فيها
الروح ، فكانت لخدمته وكان أسفديير من بقاياهم [ذكره السيوطى فى الدر المنثور

والإذلال ، ألم در في لآثار القديمة كرسياً أو مائتة تقوم على هيئة مصنوعة من الأسود مثلاً ؟

وحتى الآن توجد قصور تقوم شرفاتها على هيئة رجل مَنحَنٍ يحمل الشرفة بدلاً من الحرساية التي يصنعها حجر الآن . إن كنت التمثيل تدل على الإذلال والإهانة ، فلم عُبِدَتْ أُمُرياً بتعطيلها وتحريمها

وقوله ﴿ وَحَافٍ كَالْجَوَابِ ۖ ﴾ (١٣) [سبأ] الجفار جمع حفنة ، وهي القصعة المعروفة ﴿ كَالْجَوَابِ ۖ ۞ ﴾ [سبأ] كالحوص الواسع الكبير . وهذا كناية عن كرمه وكثره إطفامه الطعام ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ۖ ﴾ (١٤) [سبأ] أي قدور ثابتة لكرها ، فهي لا تُرْفَع ولا تُحْرَك من مكان لآخر لحظها .

لذلك حَدَّثَنَا في سيرة سيدت رسول الله ﷺ عن ابن مطعم قال كان لرسول الله ﷺ جفنه (قصعة طعام) كنت أستظل بها في اليوم القاطط في مكة ، وهذا دليل على سعيها وكثرها وكثره من يُطْعَمُونَ منها

ولما بنى الملك عبد العزيز آل سعود الرياض جعل بها قُدُوراً للطعام وكان القدر يسع الحمل يقف بداخله وأذكر أنسى أول ما ذهبت إلى مكة دحيت المبرة ، فوجدت بها قُدُوراً واسعة فوقفت في إحداها فوسعتني .

ومعنى ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ۖ ﴾ (٢١) [سبأ] أي شُكْرًا لله

(١) مما ورد في هذا ما أخرجه أبو داود في سننه (٢٤٨٠) من حديث عبد الله بن مسعود قال كان لنبي ﷺ قصعة يقال بها العراء يسمونها أرمعة رجاء . وأخرجه أيضاً أبو الشيخ الأصبهاني (حديث ٦١٤) طبعه دار المصرية اللبنانية

(٢) مبرة ودارة الأوقاف المصرية بخدمة الفقراء وكانتا اثنين واحدة في مكة والآخرى في المدينة المنورة ، كما كان هناك سبيل في مصر

على نعمه ، لا لتقوتوا أنفسكم بحسب إذن فربك يُعلمك لا تعلم على قدر حاجتك بحسب ، لأن في محنتك من لا يقدر على العسر ، فاعمل أنت أيها القادر على قدر طاقتك ، وحدّ لنفسك ما يكفيك وتصدق بما فاض عنك لغير القادرين ، ومعلوم أن شكر النعمة يفيدها أي يديمها بل ويزيدها ، كما قال سبحانه ﴿ شُكْرُكُمْ لَا يَبْدِيكُمْ .. ﴾ (٦) [إبراهيم]

أو المعنى ﴿ اَعْمَلُوا آي دَاوُودَ شُكْرًا .. ﴾ (١٢) [سبا] أن أقدركم على العمل حتى تعملوا من لا يقدر على العمل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ ﴾ (١٣) [سبا] يعني : قليل من الناس من يقابل نعمة الله بالشكر .

لذلك روى أن سيدنا عمر - رضي الله عنه - سمع في الطريق رجلاً يقول اللهم اجعلني من القسير ، فتعجب عمر من دعوة الرجل ، ولم يفهم معناه ، فسأله عنها ، فقال الرجل ، سمعت الله يقول ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ ﴾ (٢) [سبا] وأنا أرحو أن أكون منهم فقال عمر متعجباً كل الناس أعلم منك يا عمر^(١)

فمن الناس من عبده ملكه انتقاط المعاني وتوضيفها ، من ذلك ما سُحكي من أن رجلاً كان يسير في سوق النطج في بغداد وهو صائم في يوم حار ، فمرّ بـرجل يبيع شراياً مثل العرقسوس مثلاً ، وسأله غفر الله لمن شرب مني ، فقال إليه وقال له اسقي ، فقال له صاحبه تذكر أنت صائم فقال والله لقد رحوبُ دعوتك ،

رجل آخر كان يسعى بين الصفا والمروة ، والمسعى رمالاً أتم لم نروته - كان عباده عن شارع به دكاكين وبيع وشراء وحركة فـ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي ، وقد ورد في البيهقي في الدر المنثور (٦٨٢ ٦) ، والقرطبي في تفسيره ، ٨ / ٥٥٤٦ غير مفرغ

أَنْ يُطَوَّرَ بِهَذَا الشَّكْلِ الْحَالِي . وَكَانَ مِنْ رَجُلٍ يَبِيعُ الْحَيَرَ وَيُنَادِي
الْعَشْرَةَ بِرِيَالٍ بِأَحْيَارٍ ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ يَسْعَى ، فَقَالَ مُتَعَجِبًا إِذَا كَانَ
الْحَيَارُ الْعَشْرَةُ بِرِيَالٍ ، فَبِكُمْ يَكُونُ الْأَشْرَارُ ١٩

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَلَمَّا قُصِبَتْ عَلَيْهِ الْأُمُوتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِمْ إِلَّا دَابَّةٌ
الْأَرْضِ تَآكُلُ مِنْسَآتِهِمْ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّتَ الْجُرُثُ أَنْ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ٢٠ ﴾

فلما إن من الأشياء التي سخرها الله لسليمان ليحقق له ملكاً
لا ينزعى لأحد من بعده أن سحر له أربع وسحر به الحن يعملون له
ما يشاء من محارِبٍ وتماثيل ، إلخ .

وتسحير الحن يعني أن الله سبحانه وبغالي سحر له أحمقُ الخلق
حركة وأحمقها وهم الحن لأن لحن طبيعة مخصوصة ، لذلك قال الله
عندهم ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . ﴾ (٣٧) [الأعراف]

ولهم أيضاً حفة في مراولة الأعمال بأن يتصوروا زمناً وأن
يكثرُوا حميها ، والدليل على ذلك ر سيمس - عليه السلام - حينما
طلب عرش بلقيس . وكان في سبأ قال لجلأسه ﴿ أَبُكُمُ يَأْتِي بِعَرْشِهَا
قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ مُسَلِّمِينَ ﴾ (٣٨) [همز] فلم يتكلم أحد من الإس ، لأن

(١) العساة العسا الغسطة قال الفرء هي العصا العظيمة التي تكون مع نواعي يقال لها
العساة ، أحدث من شاة البعير أي رجسته ليرفاد سيره [لسان العرب] مائة
سماً

(٢) القس الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون [القاموس القويم ٩٨/٢]

سليمان قيّد الإثنيّن بزمّن فوق مدرّة البشر ، وقد طلب سليمان اعرش بعد أن علم أن قوم سبأ قد خرجوا وهم على الطريق إليه ويريد من يحضر عرش بلقيس قبل أن يصلوا إليه

حتى احس لم يعرض لهذه المهمة حتى عاصي ، إنه عفریت من الجن ﴿ قال عفریت من الجن أيا آتيت به قبل أن تقوم من مقامك .. ﴾ [النور]

وكلمة (عفریت) تعنى أنه الماهر من الجن ، اسطر الذي يأتي بما لا يأتي به غيره من منى جسده ، وهذا يدل على أن الجن منهم العفریت الماهر ومنهم (اللحية) يعنى مثلنا تماماً وما زلنا في لغتنا العمية نقول فلان عفریت يعنى ماهر جيد ما لا يجيده الآخرون .

لكن ، كان على مجلس سليمان من هو أاهر من ايعفریت وأكثر منه خبره وحفّة ، إنه الذي أوصى قدراً من العلم ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أيا آتيت به قبل أن يرتد إليك طرفك .. ﴾ [النور]

فلان كان لعفریت سياى بعرش بلقيس من أن يقوم سليمان من مقامه وربما أقام سليمان في مقامه هذا ساعة أو عدة ساعات ، لكن الذي عنده علم من الكتاب تعهد بأن يأتي به ﴿ قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ [النور] وارتداد الطرف لا يحتاج إلى زمن طويل فالطرف يطرف في الدقيقة الواحدة عدة مرات

بذلك صور الحق سبحانه سرعة الاستجابة لهذا الأمر ، فعلى

١- سطر : عفر : العفر ، يطرف على العين ، على البصر . قوله تعالى : « أيا آتيت به قبل أن يرتد إليك طرفك » [النور] أي : يصيبك في مقدار لمحظة العين ومخاضها

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَسَدًا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي عَمِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٤) [البقر]

وَمِنْ يَتَعَرَّضُ السِّيَاقُ لَتَفَاصِيلِ الْإِتْيَانِ بِالْعَرْشِ وَلَمْ يَذْكُرْ حَتَّى أَنْ سَلِمَانَ أَمْرَهُ بِالْإِتْيَانِ بِهِ ، بَلْ ﴿أَنْ أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرِيدَ إِلَيْكَ طَرَفُكَ فَلَمَّا رَأَوْهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ .. ﴾ (٥) [السر] هَكَذَا مَبَاشَرَةً ، لِأَنَّ الْفِعْلَ بِنَفْسِهِ لَمْ يَسْتَعْرِقْ وَقْتًا ، وَكَذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ سَرِيعًا مَبَاشَرًا

وَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّ كَانُوا يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ بَعْثِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَمَّا بَعْدُ بَعْثُهُ ﷺ فَقَدْ مَنَعَهُمُ اللَّهُ مِنْ اسْتِزْوَاجِ السَّمْعِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ نَهَابًا رَصْدًا﴾ (٦) [الح]

وَهَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنْ مِيزَاتِ رِسَالَتِهِ ﷺ ، فَقَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَبِيحِ السَّمَاءِ حُلُّهُ وَبَعْدَهُ ﷺ صَبِيحِ سَرِّ السَّمَاءِ كَسْلُهُ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ كَرُّ الْحَسَنِ نَصْعَدُونَ فِي السَّمَاءِ بِسِرْقَتِهِ السَّمْعِ ، وَيَلْتَقِطُونَ بَعْضُ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ ثُمَّ يُوَحِّوهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (٧) [الأنعام]

(٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِذَا نَصَبِي اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ صَرَفَتْ الْمَلَائِكَةُ مَا جِئَتْهَا حُصْعَانًا لِقَوْلِهِ كَانَهُ يَسْتَسْهِ عَلَى صَفْوَةٍ قَبَارِ فَرَجَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَمِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مَسْرُوقُ السَّمْعِ وَتَسْتَرْقُ نَسْمَعُ هَكَذَا بَعْضُهُ قَوْلَ بَعْضٍ ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَقْبِضُهَا فِي مِزْنِ تَحْتِهَا ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مِزْنِ تَحْتِهَا فَحُصِي بِلِقَائِهَا عَلَى لِسَانِ مَنْ أَحْبَرَ أَوْ نَكَبِي غَوِيماً أَمْرُكَ الشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا وَبِمَا أَتَّفَقَ عَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ مَكْتُوبَ سَمْعِهَا مَلَكَةً كَثِيرَةً ، فَيَقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا رَكْبًا مَبْصُوقٌ حَتَّى الْكَلِمَةُ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٨/ ٢٨) ٥٣٧ يشرح ابن حجر وابن ماجه في سننه (٦٩/١) والترمذي بمصنوع (٢٦٢) وقال حسن صحيح

ثم يحبرون لدس بما علموا ويدعون أنهم معلمون العيب
وفعلأ بأى الأحداث كما أحبروا ، فسعششون الناس ويحذعوبهم
ويفتنوبهم ذلك اراد الحق سبحانه أن يوضح الجس عى هده
المسألة ، فقال

﴿ فَلَمَّا قُصِيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتُ . (١٤) ﴾ [سـ] أى عى سليمان ،
وكلمة (قصيْنَا) معى أن لموت قصاء لا مدوحه عه
ولا يترتب عى سب من مرض أو كبر أو غيره ، وكما قلنا ، والموت
من دون أسباب هو السبب ، يعى مات لأنه يموت

لذلك يحاطب الحق سبحانه الأحياء ، بما فيهم سيدنا رسول الله
بقوله ﴿ بَلْكَ مَيِّتٌ وَبِهِمْ مَيِّتُونَ (١٥) ﴾ [المر] ويحاطبه هو ﷺ أولاً
قبل أن يحاطب أمته بهذه الحقة

ومعنى (مَيِّتٌ) أى تؤول إلى الموت ، فبحر وبحر أحياء
ميتون أى سيموت أما الذى مات بالفعل فيسمى (مَيِّتٌ) سكون
لباء ، كما قال الشاعر

* وما الميِّتُ إلا ما إلى القبر نُحْمِلُ

لذلك ، فإن العلماء أما أعطونا صورة حسية للموت قابوا مع
حباتك التى بدأت انطلق معها سهم الموت إلب وعمرك بمقدار
رصوله إلك ، فبحر - وإن كنا أحياء - ميتون

وقوله يعلى ﴿ مَا ذَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ (١٦) ﴾ [سـ] أى بل البحر
فصمير العنبر عى (ذَلَّهُمْ) يعور عى معوم من استساق الاء عى
﴿ وَمِنَ الْبَحْرِ مَن يَمَسُّ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ (١٧) ﴾ [سـ]

قلوا عى قصه سيدنا سليمان عليه السلام أنه كن يعبد الله

ويشكره بمقدار ما أنعم عليه وما أعطاه من سملك ، فمع كل هذه النعم كان يقضي الأسبوع والشهر لا يأكل إلا الحشكار^(١) وفي (الردة) التي نعرفها ، وهي آخر درجة في الدقيق والتي تسميها في الفلاحين السس ، وهو طعام الفقراء والعبيد أما السادة والأغنياء فيأكلون الدقيق الفاخر أو (ثمرة واحد) ،

وسبحان الله ، أظهر العلم الحديث أن الفائدة على هذا السن الذي يأكله الفقراء ، لدرجة أنه أصبح يُوصف كدواء ، ويجعلونه الآن على هيئة أقراص كعلاج لبعض الأمراض ، حتى أن أهل الرفاهية الذين عاشوا على لدقيق الفاخر وتعذُّوا طوال حياتهم على الحبر السباحي والقطايف ، إلخ يأتي الواحد منهم في أواخر حياته مسحرم عليه انطرب كل هذه الأنواع ولا يجد له دواء إلا في السس وفي ابردة التي ما دافها طوال حياته وكأنها معادلة لا تُدُّ أن تتم بين الأغنياء والفقراء .

وهذه الدحوث التي أظهرت لنا أهمية (الردة) تلقتنا وتُفهمنا معنى قول الله سبحانه وتعالى وقسمه ﴿ وَالْحَبُّ ذُرٌّ الْعَصْفُ وَالرَّيْحَانُ ۝١٦ ﴾ [نرحس]

كذلك كان سيدنا سيمان يعبد الله واقفاً لا على هيئة مريجة ، فكان مشق على نفسه شكراً لله ، ويقف عبداً له حتى يتعب ، فيروح بين قدميه ثم يسرع بالعصا بتكيء عنقه من شدة تعبته

(١) وردت هذه الكلمة في نساخ العرب (الحشار والحساره) يقطن الحشارة والحشار من سعير نالاه به ر . ه أي القرد) و جشار مصاب بربوة من كل شيء [

وقد قصى الله عليه الموت ، وهو على هذه الهيئة ، فلم يكتشف الجن صوته وظلوا يعملون بين يديه ويحسدهون خرفاً منه عليه السلام^(١)

وأراد الحق سبحانه أن ينهى بموت سليمان مسألة شغلت الجن والإنس ، هي قضية علم الحزن للغيب ، أراد سبحانه أن يفصح الحزن ، وأن يظهر عجزهم عن علم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

مات سليمان واقفاً منكثاً على عصاه وصل على هذه الحالة حتى سلط الله على عصاه دابة الأرض ، كما قال سبحانه ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مَا لَهُمْ .. ﴾ (١٤) [سبأ]

البعض يفهم أن ﴿ دَابَّةُ الْأَرْضِ . ﴾ (١٤) [سبأ] الأرض التي تقابل السماء لكن المراد الدابة التي تقرص كم بقول قرص اشأركذا وكذا ، وفعلها قرض يقرض قرضاً مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وهذه الدابة هي العتة التي تصيب الخشب وتأكله

هذه الدابة أو العتة ظلت تنحر في العصا حتى احتل توازن سليمان عليه السلام ، وسقط على الأرض ﴿ فَلَمَّا حَرَّتْ تِبْءَ الْحَرِّ أَنْ تُلَاقُوا يَكُونُوا يَكْمُلُونَ الْعِيبَ مَا لِكُلِّ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١٥) [سبأ] أي ما مكثوا وما طلوا في العذاب المهين ومعنى حرّ خرف سقط بلا نظام ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ فحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ (٢٠) [الحجر]

ماحزور اتهايار بلا نظام وبلا ترتيب ، وعندها فقط عم الحزن

(١) أخرج عبد بن حميد عن قتادة : كان الجن نحير الإس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما في الد . فاجتوا بموت سليمان عليه السلام ، فمات فبث صوته على عصاه وهم لا يسمعون بصوته وهم مستحزون تلك السنة ، ويعطون دأشيين [أوربه السبوطي في الدر المنثور ٦ ٦١٤]

صوت سليمان ، وكذلك الإنس ، وعلموا أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب لاكتشفوا موته ، وما لبثوا في العمل ، وفي التعب والعذاب صوان هذه المدة ، بعدها انكشف أمرهم ، وعلم كذبهم وادعائهم معرفة الغيب .

وقوله تعالى ﴿ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سج] يدل على أن الحزن يتعب من العمل ويطرأ عليه ما يطرأ على كل حي من تعب وإجهاد .

والمُتَسَاءة هي العصا من العمل نساء بمعنى آخر ، وسُمِّيَتْ الْعَصَا مَسَاءً ، لأن الإنسان يرحل بها الهوام والحيوانات الصاربية لتي تؤدبه ويؤخرها عنه ويبعدها ويردعها ، لذلك سميت مَسَاءة

وسيدنا موسى عليه السلام قال في عصاه لما سأل ربه ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَى (٥) ﴾ قال هي عصاى أتركأ عنيها وأهشأ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (٦٨) ﴿ [طه]

وقد أطلال موسى الحديث مع الله لأن الله تعالى أنسه أن يصيل حين قال له ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَى (٥) ﴾ [طه] ولم يقل له مثلاً ما حدث ، ثم من الذى يحاطه ربه ولا يصير الحديث معه سبحانه وتعالى ، ومع ذلك تدارت موسى أمره فكان محملاً ﴿ وَلِي فِيهَا مآرب أخرى (٦٨) ﴾ [طه]

ونفهم من قوله تعالى ﴿ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سج]

(١) أخرج سعيد بن منصور رحمه الله عن حماد بن زيد عن ابن عباس قال سئل سليمان عليه السلام على عصاه حولا بعدما مات ثم حو على رأس الحول ، فأحدث الإنس عصب مثل عصاه ودابة مثل دابته فاستوفوا عليها ففككتهم في سنة (للدر المنثور ٦ ٦٨٢)

أَنْ الْعَمَلُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ كَانَ عَمَلًا شَامًا وَفِيهِ إِهَانَةٌ لَهُمْ ، لِأَنَّ الْجَنَّ يَظُنُّونَ أَنَّ لَهُمْ خَيْرِيَّةً عَلَى الْإِنْسَانِ ، وَأَيُّهُمْ جَنْسٌ تَسَامَى عَلَى الْبَشَرِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِ أَبِيهِمْ مِنْ قَبْلِ ﴿ أَنْ حَبْرَ مِنْهُ حَلَفْتَنِي مِنْ نَارٍ وَحَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٦) [الاعراب]

فَمَنْ الْإِهَانَةُ لَهُمْ ، وَمَنْ الْعَذَابُ أَنْ يُسَخَّرُوا لِوَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَيَعْمَلُونَ لَهُ وَيَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ ، فَالْعَمَلُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَهُ لِسُلَيْمَانَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَرَهَقًا لَهُمْ بِدُنْيَا هُوَ مَرَهَقٌ بِنَفْسِيَّاءٍ ، وَلَمْ يَلَمْ وَقَدْ سَخَّرَهُمْ مَنْ هُوَ أَدْنَى مِنْهُمْ - عَلَى حَسَبِ ظَنِّهِمْ

وَلِسَائِلُ أَنْ يُسْأَلَ كَيْفَ يَكُونُ فِي الْعَذَابِ لِمُهَيِّئٍ مَنْ يَحْدُمُ بَيْتًا وَيُعَاشِرُهُ ، يَقُولُ هَذِهِ الشَّيْئَةُ جَاءَتْ مِنْ كَلِمَةِ الْجِنِّ ، فَقَهْمَا أَنَّ الْجَنَّ كُلَّهُمْ كَانُوا مُسَخَّرِينَ لِسُلَيْمَانَ ، وَاحْتِيقًا أَنَّ الْجِنَّ سُمِّيَ كَذَلِكَ ، لِأَنَّهُ مُسْتَوْرٍ الْفِعْلُ لَا تَرَاهُ وَإِنِّي سَخَّرَ مِنَ الْجِنِّ هُمُ الشَّيَاطِينُ ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ ﴿ وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَاءٌ وَعَرَاءُ ﴾ (٣٧) [ص]

وَقَالَ ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ .. ﴾ (٨٢) [الاسماء] وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَصْحَابُ الْعَذَابِ الْمُهِينِ أَمَّا مُؤْمِدُو الْحَرِّ فَلَمْ يَكُونُوا مُسَخَّرِينَ

وَكَلِمَةُ (حَرٌّ) مُعْنَى سَقَطَ تَوَحَّى أَنَّ كِرَامَةَ الْإِنْسَانِ فِي رُوحِهِ ، وَفِي السِّرِّ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ فِيهِ هَذَا سَيِّمَانِ بَيْتِ اللَّهِ بِجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ يَقُولُ عَنْهُ ﴿ فَمَا حَرٌّ ﴾ (٨٤) [سأ] وَكَأَنَّهُ جَمَادٌ سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ ، لِأَنَّ الرُّوحَ حَيِّمَا تَهَارِقُ لِحَسَدٍ يَصِيرُ كَالْحَمَادِ ، كَالْعَصَا وَكَالْحَجَرِ

وَسَبَقَ أَنْ قُلْنَا إِنَّ الرُّوحَ سَاعَةً تُسَلَبُ مِنَ الْحَسَدِ أَوَّلَ مَا يَسِي يَسِي اسْمُهُ مَهْمَا كَانَ عَظِيمًا ، وَيَقُولُونَ الْجَنَّةُ ثُمَّ إِذَا مَا وَضِعَتْ فِي النَّعْشِ يَقُولُونَ الْحَشْبَةُ .

سبحان الله ، لم يُعد لهذه المادة أية صفة ، بل ويسارع الأهل والأحبة إلى الخلاص منها ودفنها بأسرع ما يمكن ، ولو بقيت عندهم لا يتحملها أحد منهم ، بما يطرأ عليها من تغير ورائحة يتأذى منها أقرب الأقارب ثم يُحدثنا الحق سبحانه عن سبأ وأهلها ، فيقول تعالى

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

ينقبا الحق - تبارك وتعالى - من قصة سليمان عليه السلام إلى أهل سبأ ، فما العلاقة بينهما ؟ المتأمل في سور القرآن وآياته يجد بينها ترابطاً واسجماً ، والمناسبة هنا أن سيدنا سليمان كانت له أبرز قصة في الإيمانيات والعقائد مع بلقيس ملكة سبأ ، فبينهما إذن علاقة ، وهذه النقلة لها مناسبتها .

وقصة سليمان والهدد وبلقيس قصة مشهورة ، وبها دلالات إيمانية عظيمة في العقيدة وفي بيان أن الحيوان عنده براءة بالعقيدة ، وبأسرار الله في كونه .

و (سَبَأٌ) عَمَّ عَلَى رَجُلٍ اسْمُهُ عَمْرُو بْنُ عَمْرٍ ، وَيُقْنُونَهُ بِمَزِيْقَاءَ وَأَبْنَاهُ (ماء السماء) وَقَدْ سَأَلَ كُرَّةً بَيْنَ نَسِيكِ^(١) رَضِيَ اللَّهُ

(١) صوابه : قُرَّةٌ بِنْتُ مُسَيْكٍ الْمَوْدِيِّ ، لَهُ صَحْبَةٌ يَدُ فِي الْكُوفِيِّينَ رَأْسَهُ مِنَ الْيَمَنِ يَكْنَى أَبَا سَبْرَةَ ، وَقَدْ عَلِيَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا سَمِعَهُ عَلَى مَرَادٍ وَمَدْحٍ وَرَبِيدٍ وَكَانَتْ وَمَادَتُهُ هَذِهِ عَامَ تِسْعٍ أَوْ عَشْرِ الْهَجْرَةِ وَاسْتَعْمَلَهُ عَمْرُو عَلَى صَدَقَاتٍ مَدْحَجٍ ، ثُمَّ سَكَنَ الْكُومَةَ وَكَانَ مِنْ وَجْهِهِ قَوْمُهُ [بِإِحْتِصَارٍ مِنَ الْأَصَابَةِ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ لِابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ تَرْجُمَةُ رَقْمِ ٦٩٧٥ ، وَذَكَرَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ سَبَأٍ]

عنه سيد رسول الله عن سبا فقال (كذ وكذا) وكان له عشرة أولاد هم أرد ، وكنة ، ومنحج ، وأشعريون ، وأنمار ، وغسان ، وعاملة ، ولخم ، وجذام ، وخثعم

وقد كَوَّن كل واحد منهم قبيلة كبيرة سنة من هؤلاء ذهبوا إلى اليمن ، وأربعة ذهبوا إلى الشام ، الذين ذهبوا إلى اليمن عاشوا في خيرهم الوفير ، فيروى أن بلقيس لما رأت ماء المطر يسبح في ابوديان وبشربه لأرض ، فلا يستفيدون به ، فكُت في بناء سد بين جبلين يحجز ماء المطر ، وجعلت به عيونا كالتى عندما فى القناطر الخيرية مثلاً ، تفتح عند الحاجة وتعصى الماء بقدر ، لذلك زاد الخير والماء فى اليمن حتى سُمِّت اليمن الحصبب واليمن السعيد

إلا أن عرافة عندهم أو امرأة حكيمة ذات رأى قالت لسبا هذا إن السد سيخرب ويُغرق ماؤه اليمن فاخرج منها ، وبعلاً خرج سبا إلى الحجاز والشام ، حيث ذهب انغساسة إلى الشام ، والعنادرة إلى العراق ، وأنمار إلى المدينة ، وأرد إلى عمان فى الأردن واسم سبا بعد أن كان علماً على شخص تعدى إلى أن صار اسماً لقبيلة ، ثم اسماً للمكان الذى يسكنونه .

وقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَا فِي مَسْكُهُمْ ۖ ۝١٥﴾ [سبا] أى المكان الذى يسكنونه ، والمكان الذى يعيش فيه الإنسان يُسمى (سكن) أو (بيت) أو (منزل) ، وكل منها معنى والسكن هو المكان الذى يتخذ الإنسان ليسكن إليه ولعظم فيه ، ويرتاح من حركة الحياة والعمل ، والإنسان لا يسكن إلا فى مكان تتوفر فيه

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٢٢٢) وأبو داود فى سننه مختصراً (٩٢٨٨) كتاب الصروف والفرارات من حديث مروة بن مسك رضى الله عنه

مَقُومَاتُ الْحَيَاةِ وَالْأَمْنِ

لذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لما وضع زوجته وولده عند البيت دعا ربه . ﴿وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ..﴾ (٢٧) [إبراهيم]

فقد كان هذا المكان جذبا لا زرع فيه ولا ماء . ولا مَقُومٌ من مقومات الحياة إلا الهواء ومعنى ﴿أَسْكَنْتُ ..﴾ (٢٧) [إبراهيم] أى وطنتهم فى هذا المكان

أما المنزل فهو المكان تنزل فيه مرة أو عدة مرات ، ثم ترحل عنه لا تقيم فيه إقامة دائمة . فهو كالاستراحات التى تجعل للطوارئ ، ولا يقيم فيها أهلها إلا عدة أيام فى السنة كلها .

ومن ذلك ما روى أن سيدنا رسول الله ﷺ لما نزل صدر سألته الصحابي الجليل الحبيب بن المنذر^(١) يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله ؟ أم هو الراى والحرب والمكيدة ؟ قال : « هو الراى والحرب والمكيدة » قال : إذن لا أراه لك بمنزل . فبهض بالناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فنحله ثم نَعُورَ (نطس) ما وراءه من القُلُب . ثم نيسى عليه حوضاً فمسيؤه ماء . ثم بقاتل القوم فشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالراى »^(٢) .

(١) هو الحبيب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخرجي ، شهد بدرًا وكان يكنى أبا عمر قال ابن سعد : مات فى حِلَامَةِ عَمْرٍو وقد رآه على الخمسين [الإصابة لابن حجر ترجمه رقم ١٥٤٧] وذكر له أسناناً من الشعر

(٢) أورده ابن هشيم فى السيرة النبوية (٢/ ٢٥٩ ، ٢٦٠) وعزاه لاس إسحاق أنه حدث عن رجال من بني سعدة

إِنَّ السَّكْنَ فِيهِ دَوَامٌ وَاسْتَعْرَارٌ ، أَمَا الْمَرْزَلُ هُوَ اسْتِرَاحَةٌ ، إِنَّ شَيْئًا نَزَلَتْ بِهِ ، وَإِنْ شِئْتَ رَحَلْتَ عَنْهُ ،

أَمَا الْبَيْتُ فَيُلاحِظُ فِيهِ الْبَيْتُوتَةُ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَنَامُ نَوْمًا مَرِيحًا إِلَّا فِي مَكَانٍ يَأْمَنُ فِيهِ عَنِ نَفْسِهِ وَعَلَى مَالِهِ ، فَإِنَّ الْحَمَائِفَ وَكَسَلَكَ الْجُوعَانَ لَا يَنَامُ

وَمَنْ اسْكَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَقُلْنَا مِنْ نَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُونُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الْإِسْرَاءُ]

أَخَذَ أَحَدَ الْمُسْتَشْرِقِينَ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَجَعَلَهَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا مُنَاحَةٌ لِلْيَهُودِ ، كَيْفَ وَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَأَنْبَ حِينَ تَرِيدُ هَذَا الْأَمْرَ نَقُولُ اسْكَنْ الْقَاهِرَةَ ، اسْكَنْ طَبْطَبًا مَثَلًا ، فَتَعْبِيرُ بِي مَكَانًا ، لَكِنْ ﴿اسْكُونُوا الْأَرْضَ﴾ [الْإِسْرَاءُ] لَهَا مَعْنَى أُخْرَى هُوَ التَّقْطِيعُ الَّذِي قَالَهُ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ .. (٦٨) [الْأَعْرَابُ]

يَعْنِي لَيْسَ بِهِمْ وَطَنٌ مُحْصُوصٌ ، وَسَوْفَ يَسَاحِرُونَ فِي السِّيَا كُلِّهَا ، وَلَنْ يَتِمَّ أَحَدٌ مِنْ صَرْبِهِمْ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ التَّفْصِيعِ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَيَجْمَعُهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَعِنْدَهَا سَيَسْهَلُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِمْ

وَمَعْنَى كَلِمَةِ ﴿آيَةً﴾ .. (١٥) [سَبَأٌ] نَقُولُ فَلَانِ آيَةٍ فِي الْكُرَمِ ، وَفَلَانِ آيَةٍ فِي الْأَدَبِ إلخ . وَالْمُرَادُ شَيْءٌ عَجِيبٌ نَادِرٌ الْوُجُودِ ، وَانْحَقَ سَبْحَانَهُ حَدَّثَنَا عَنْ أَنْوَاعِ ثَلَاثَةِ مِنَ الْآيَاتِ بَيِّنَاتٍ كُونِيَّةٍ مِثْلُ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ .. (٣٧) [فَصَلَبٌ] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ .. (٣٩) [فَصَلَبٌ]

وَأَيَّاتٌ بِمَعْنَى مَعْجَزَاتٍ وَخَوَارِقُ لِلْعَادَةِ تَأْتِي عَلَى أَيْدِي الرُّسُلِ

لَتُؤَيِّدَهُمْ وَتَثْبِتَ صِدْقَهُمْ فِي الْبَلَاغِ عَنْ اللَّهِ ، كَمَا فِي قَوْهِ تَعَالَى ﴿اسْأَلْكَ يَدْلُكَ فِي حَيْثُ تَخْرُجُ يَهْمَاءٌ مِنْ غَيْرِ مَوْءٍ ۝ (٣٢)﴾ [القصص]
ثم تُطْلَقُ آيَاتُ عَلَى آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَامِلَةِ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا - سَوَاءٌ كَانَتْ آيَاتٍ كُتُبِيَّةٍ ، أَوْ مَعْرَاتٍ ، أَوْ آيَاتِ الْفُرْقَانِ كُلِّهَا عَجَائِبُ ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْعَجَائِبُ وَاضِحَةً فِي آيَاتِ الْكُتُبِ وَفِي الْمَعْجَزَاتِ ، فَهِيَ أَيْضًا وَاضِحَةٌ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ، فَالْقُرْآنُ عَجِيبٌ فِي تَنْطِيمِ حَيَاةِ النَّاسِ بِدِينِ أَنْ الْكَافِرَ بِهِ سَيُضْطَرُّ إِلَى الْإِخْذِ بِأَحْكَامِهِ وَالْإِنْصِياعِ لِقَوَائِمِهِ ، لَا عَلَى أَمْرٍ دِينٍ ، وَلَكِنْ عَلَى أَمْرٍ قَوْنِيٍّ حَيَاةٍ

وَسَبَقَ أَنْ مَنَّا لَدُنْكَ بِأَحْكَامِ الطَّلَاقِ الَّتِي ظَالَمْنَا تَقْدُومًا وَهَاجَمًا ، وَاتَّهَمُوا دِينَ اللَّهِ - ظُلْمًا وَحَقْلًا - بِالْقَسْوَةِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَرَّاهُمْ يَلْجِئُونَ إِلَيْهِ ، وَلَا يَحْدُونَ حَقْلًا لِيُعْصِرَ مَشْكَالَتَهُمْ إِلَّا فِي الطَّلَاقِ وَفِي الرَّجُوعِ إِلَى أَحْكَامِ اللَّهِ مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَهَذَا مَتْنُهُ الْغَلْبَةُ لَدِينِ اللَّهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ الْكَافِرُ بِهِ إِنَّهَا غَلْبَةُ الْحَقِّ وَغَلْبَةُ الْحَقَّةِ .

وَسَبَقَ أَنْ قُلْنَا إِنْ أَحَدُ الْمُسْتَشْرِقِينَ سَأَلَ فِي سَارِ فَرَانْسِيَّيْكَو قَارَ فِي الْقُرْآنِ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصفا]

وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَوْلًا مِنَ الزَّمَانِ مَا رَأَى فِي الدِّينِ الْهُدَى وَمَسِيحِيَّةٍ وَبُؤْسِيَّةٍ الْخ . وَهَذَا الْكَلَامُ يَدْرُ عَلَى عَدَمِ فَهْمٍ لِمَعْنَى آيَاتٍ ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۝ (٩)﴾ [الصفا] أَنْ يَصْبِحَ النَّاسُ جَمِيعًا مُؤْمِنِينَ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصفا]

إن فادير سيظهر ظهور حجة وظهور غلبة على تقبيباتهم ، وسوف يطرأ عليهم من مشكلات الحياة ما لا يجدون به حلاً إلا في شرع الله ، وهذا هو الظهور المراد في الآية .

ثم يوضح الحق - تبارك وتعالى - ماهية الآية التي كانت لسبباً في مسكنهم ، فيقول سبحانه ﴿ حَتَّانَ عَنِ يَمِينٍ وَشَمَالٍ .. ﴾ (١٥) [سنا] وما دام الله تعالى وصف هاتين لجننتين بأيهما آية ، فلا بد أن فيهما عجائب ، وأيهما يختلفان عن الجنان التي نعرفها

وقد حدثنا العلماء عن هذه اعجائب فقالوا عن هاتين الحسنين لا تجد فيهما عقرباً ، ولا حية ، ولا ذباباً ، ولا يرغوثن الخ ، فإن طراً عليهما طارئ ، وفي جسمه قمل فإنه يموت بمجرد أن يدخل إحدى هاتين الجننتين ، وهذه كلها عجائب في الجننتين

ونلاحظ هنا أن الآية مفرد والعجائب كثيرة ، لأن كلمة آية تُطلق على الجمع أيضاً ، ومن ذلك قوله تعالى في سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. ﴾ (٥٠) [المؤمنين] ومن نقل آيتين ، قلوا لأن الأمر العجيب الذي جمعهما واحد ، فعيسى عليه السلام ولد من لا ذكورة ، وأمه حست وولدت كذلك من لا ذكورة ، فالآيتان آية واحدة

ومعنى ﴿ حَتَّانَ عَنِ يَمِينٍ وَشَمَالٍ .. ﴾ (١٥) [سنا] يحتمل أن يكون لكل واحد منهم جنتان ، واحدة عن اليمين ، ولأخرى عن الشمال ،

(١) خرج ابن أبي حاتم عن أبي زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ لَقَدْ كَانَ لَنَا فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ [سنا] قال لم يكن يرى في قمرتهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا يرغوثن ولا عقرب ، ولا حية ، وإن لركب مائتين في ثيابهم القمل والدواب ، فما هو إلا أن ينظروا إلى بيوتها قتموت تلك الدواب وإن كان الإنسان ليبحث الجنتين فيمسك الذبابة على رأسه ، ويخرج حتى يخرج وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الذبابة ، ولم يذوق منها شيئاً بيده [أورد السيوطي في الدر المنثور (٦ ٦٨٧)]

وبيته في الوسط ، ويحتص أن تكون الختان لأهل سبأ جميعاً ،
بمعنى أنها حدر موصولة عن اليمين ، وحصار موصولة عن الشمال
وَصَلًا لَا يُمَيِّزُ بِسُورٍ وَلَا حَائِطٍ ، مما يدل على أن الأمر كان مستتباً
بينهم ، وقد شاهدت مثل هذا في أمريكا ، حيث الحقول والمزارع
ممتدة متصلة لا يفصلها إلا مجرد سلك مسيط

وقوله سبحانه ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ..﴾ (١٥) [سبأ]
كيف نفهم ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ..﴾ (١٥) [سبأ] والداس جميعاً يأكلون
من رزق الله ؟ قالوا الناس يأكلون من رزق الله بالأسباب ، إنما هذا
رزق الله مباشرة بلا أسباب ، لذلك يقول تعالى في موضع آخر
﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ..﴾ (٩) [طه]

فليس كل الرزق طيباً للأكل ، إنما هنا ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ..﴾
(١٥) [سبأ] أى كله طيب ، وكله حلو ، فإفأكها في هاتين الجنتين
لا يصيبها عطب ، ولا يطرأ على ثمارها ما يطرأ على الثمار من فساد ،
لذلك يقول سبحانه في آخر الآية ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ (١٦) [سبأ]

ونعرف أن العساكين مؤوبة الخدمة فيها قليلة ؛ لذلك يرى الفلاح
حين يصيق بوزارة الأرض وأجور العمالة يلجأ إلى زراعة لحداثق
والساتين المثمرة ، لأنها أقل تكلفة ، ولا تحتاج إلى رعاية كثيرة إلا
وقت الإثمار

() ورد في العنيتين عدة أموال ، منها

أى الجنتين كانتا بين جبلين باليمن قاله قتادة

إحدى الجنتين عن اليمن الوادى والأخرى عن شماله قال سعيد

لم يرد جنين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة فباله القشيري أورد

القرطبي في تفسيره (٥٥٥٣) وقال أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار

سائر الناس مظلالت

والحق سبحانه يقول في غير هذا الموضع ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) أَلَمْ تَزُرَّعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً وحرثاً ، إنما المسألة هنا في هاتين الجنتين ، فهي عطاء من الله بلا عمل وبلا أسباب ، والله سبحانه هو الزارع ، وقد خصّها بالجود اللطيف ، لا حرّاً ولا قرّاً ولا سامة ، ولا مخافة ، ولا زهد في نعمة من النعم لتكرارها

إذن لا عمل بهم في حداثتهم ينتج ما يستمتعون به إنما عملهم أن يشكروا المنعم سبحانه ليريدهم من الخيرات ، وشكر النعمة هو حكمة العبد مع مولاه . لذلك قال سبحانه عن لقمان ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ..﴾ (٦٦) [لقمان] ما هذه الحكمة ؟ ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ ..﴾ (٦٦) [لقمان] لأن شكر النعمة يريد بها .

وقوله سبحانه ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ ..﴾ (٦٥) [إسراء] يعنى تعطيك طيب لأشياء بدون منقصات فيها ، لأن هناك أشياء تعطيك طيباً تهنا به ، لكنها تتبعك وتنفصك فيما بعد

أما هذه البدة فما فيها طيب تأكله هنيئاً مريئاً ، لأنها رزق الله بدون أسباب من العباد ، لكن حين يتدخل العباد في عطاء الله تظهر في النعم متاعب ومنقصات ، وهذا ما يعانى منه الآن بسبب التدخل في المزرعات بالمواد الكيماوية ولמידات الحشرية ، التى أفسدت علينا حياتنا ، وحاء ضررها أكثر من نفعها حتى أصبحنا نعزو كل الأمراض إلى تدخلنا في عطاء الله ، ولو تركنا الأرض تُروى بماء السماء كما كان في البداية لدُقنا الخير بلا منقصات ، فمن الصرورى أن نتأدب مع الله في عطاك

لذلك تجد كثيراً من المترفين والمتعفين وأهل العزم والفلاسفة

يحبون الخروج من ضوضاء المدن وتلوث هوائها ومياهها وما فيها من صحب وبحرجون إلى الريف أو المزارى ، يهربون من الآثار الضارة للمصارة الحديثة إلى الحلاء ، حيث يعيش راعى الأغنام ، حيث الطبيعة كما خلقها الله ، وحيث لعطرة السليمة التي لم يتدخل فيها البشر .

تذكرون فى الماضى ، كما يقاوم دودة القطن مقاومة يدوية طبيعية ، فلما تقدمت العلوم جاءوا بمادة (دى دى تى) للقضاء على دودة القطن ، لكن هذه المادة السامة أضافت كل شيء فى الحقول ، قصت على الأسماك فى الترع والمصارف ، وقضت على (أبى قردان) صديق الفلاح ، ولوثت الماء والمرورعات .. إلخ . أما دودة القطن فهي الوحيدة التى أخذت مناعة ، وأصبحت كما قسا (كيفه) دى دى تى أما سدا فكانت ﴿ بِلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ۚ ۞ ﴾ [سج] بكل ما فيها من طيب الماء والهواء وانتربة لم يُصنّف تلوث من أى نوع ، وإذا كانت البندة نفسها طيبة ، فما بالك بم عليها ؟

وفى الآية طليان ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ ۞ ﴾ [سج] وفيها تحذير إياك أن تعثر بالنعمة ، وتظن أنها أصبحت منكاً لك ، وتنسى الميعم بها عليك ، إياك أن تكون كالذى قال الله فيه ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ ۞ ﴾ [العلق]

إياك أن تظن أنك أصبر فى هذه لمسألة ، وطلّ دانتاً على دكر بأن الميعم هو الله ، وأن ما أنت فيه هو من عطاء الله ، ثم بعد ذلك عليك أن تشكره سبحانه ، لأن الشكر قيد النعم

وفى موضع آخر ، تكلم الحق سبحانه عن شكر النعمة فقال ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِ الشُّكُورِ ۚ ۞ ﴾ [سج] والحمد لله أنه سبحانه لم يقر

وقليل من عبادي الشاكر ، وتعلمون أن الشكور صيغة مبالغة من الشكر ، أو الشكور هو الذي يشكر على انعمة ، ثم يشكر الله على أن ألهمه أن يشكر على النعمة ، فكانه قدّم الشكر مرتين

ثم لم يقصر النعمة على أهل سبأ في الدنيا وحسب ، إنما تعدت نعمته عليهم إلى الآخرة ، ففي الدنيا ﴿بَشْرًا طَيِّبًا .. (١٥)﴾ [سبأ] وفي الآخرة ﴿وَرَبُّ عَرْشٍ عَظِيمٍ (١٦)﴾ [سبأ] يعني يتجاوز عنكم إن حدثت منكم زلزلة أو هفوة

ثم يبين لحق سبحانه النتيجة وردّ معلّمهم ، فيقول

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)
ذَلِكَ جَزَاءُ يَكْفُرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)﴾

قوله تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا .. (١٦)﴾ [سبأ] أي عن المأمور به ، وهو ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَشْكُرُوا لَهُ .. (٥)﴾ [سبأ] فلم ياكلوا من رزق الله ، إنما أكلوا من سعيهم ومهارتهم - على حدّ زعمهم - وهذه أول الحية ثم لم يشكروا الله على هذه النعم ، لأن النعم أترفهم ففسدوا شكرها

وفرق بين ترف وأترف ، نقول ترف فلان أي تنعم لكن أترف

(١) العرم السيل الشديد أو المطر الشديد أو السدّ يعتري ماء الوادي ، أو أنه اسم وادٍ بعينه [القاموس القويم ١٧/٢]

(٢) الخَمْط كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النقص والأثل شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأعمصان أوراقه دقيقة وثمره حب أحمر مر لا يؤكل والسدر شجر المبق وهو شجر ذو أشواك ، له ثمر فيه حلاوة قليلة

فلان ، أى غرته النعمة ، لذلك قال تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ۖ ﴾ (٦) [الإسراء]

فلا بأس أن تقتنع ، لكن المصيبة أن تُطغيك النعمة ، وتغرك ، وأول طغيان بالنعمة أن تنسها إلى نفسك فتقول بمجهودى وشطارتى كالذى قال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ ﴾ (٧٨) [التقصير] ثم أن تنسى المصنع ، فلا تشكره على النعمة

وفى موضع آخر لحصر لنا الحق سبحانه هذه القصص في قوله سبحانه ﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَةً مُمِيتَةً بِأَنْبِيَائِهَا وَرِيقَهَا وَكَانَ كُلُّ مَكَّانٍ فَقُورًا ۖ يُذِيقُهُمُ اللَّهُ فَاذَاقُهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْعَوْنَ ﴾ (١١٢) [البلع]

وقال في قوم سيدنا نوح عليه السلام ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ (٦٦) [الحجر]

إذن صيانة النعمة بشكرها ولاعتراف بها كلها متسوبة إلى المنعم سبحانه ، وحتى يحصر على مستوى البشر نقول فلان هذا حافظ للحميل ، فزنده ولا يحل عليه تحميل آخر وآخر ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى ؟

وكلمة الإعراض تُعطى شيئاً فوق الإهمال وفوق النسيان ، لأن الإعراض أن تنصرف عن مُحَدِّثِكَ وتعطيه جسابيك كما تقول لمن لا يعحبك حديثه (اعطني عرض كتفاك) .

إس الإعراض ترك متعمد بلا مبالاة ، أما لسهو أو النسيان أو الخطأ أو عند النوم ، فهذه كلها أمور مُعْفَى عنها ، قد رفعها الله عنا رحمه بنا ، فربك عر وجل لا يعاملك إلا على اليقظة والانتباه وتعمد الغف

واقراً إن شئت قول ربك ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً
صَكَاً وَسَخِرُوهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَهْمَى﴾ (١٢٤) [طه]

لماذا ؟ لأن الإعراض فيه شبهة عدم اعتناء بالآمر ، فالنكية فيه
أشدُّ على خلاف أن تكون معتنياً بالآمر ، وبعد ذلك قتلتهم نفسك لاي
سبب آخر

ويقول تعالى أيضاً في الإعراض ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
وَمَا يَنْجَاهِي ..﴾ (٥١) [مصلح] وسوف يأتي الجزء على قدر الإعراض ،
كما بين الحق سبحانه في قوله ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤) يوم يحصى عليها في نار
جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم ..
(٣٥) [النوبة]

كما نقول أنت ربيت من سيقطك فيما بعد ، كذاب هؤلاء كنزوا
الأموال ليتمتعوا بها قليلاً في دنيا فانية ، ثم يلاقون تبعه ذلك يوم
القيامة ، در تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم حتى يتمنى الواحد
منهم - والعياذ بالله - لو أنه قُلر منها حتى يُقلل من موضع الكي

وتأم هذا الترتيب جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فسوف تجده
نفس ترتيب الإعراض عن المحتاج الذي سأل صاحب المال في الدنيا ،
هاول ما يراه بشبح عه بوحهه ، ثم يعطيه جاتبه ، ثم يدير إليه
ظهره ، فيأتي الجزء من جنس العمل ونفس تفاصيله

فماذا كانت نتيجة هذا الإعراض ؟ يقول تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
سَيْلَ الْعَرْمِ﴾ (١٦) [سأ] أي بعد أن انهار سد العرم فسال ماؤه ،
وأغرقهم ، ومن العجيب أن الله تعالى جعل من أسماء كل شيء حي ،

لكن إذا أرادته سبحانه وسيلة هلاك أهلك ، وبه أهلك الله فرم نوح ،
وبه أهلك فرعون وجنوده ، وهذا من طلاقه قدرة الله ، حيث يوحه
الشيء للحياة فيحيى ، والهلاك فيهلك .

وبعد أن أفرعهم سيل العرم لم أرادوا الإقامة بعد ذلك أقاموا في
أماكن لا ماء فيها ، وهذا أرادوا الماء جلبوه من الآبار بالقرب ، وكان
الماء أحدث لديهم (عقده)

وهذه القصة القديمة لها عندنا قصة حديثة كنا ونحن في
الأزهر نليس (القفاطين) و (الكواكيل) . وكان لنا زميل حالته
رقيقة وكان لا يمكنه إلا (كاكولة) واحدة لبسها حتى يلبث
وتمرقت ، فكان يمد يده من وقت لآخر إلى مكان القطع ويحاول أن
يدربه ، حتى صارت عاده عنده ، ثم ررقه الله باخ له توظيف
واشترى له (كاكولة) حديدية ، فلما لبسها صارت يده تمتد إلى
نفس الموضع ، وتحاول ستر القطع انخير موجود في الجديدة ، فقال
له أحد الرملاء . ما لك ؟ فقال : القديمة رعباى

والسيل أن يسيل الماء على وجه الأرض بعد أن تشربت منه
قدر حاجتها ، فما فاص عليها سال من مكان لآخر ، والحق سبحانه
يعطى قبل أن يبحث عن مصدر الماء لا بد أن يبحث عن مصارفه
حتى لا يفرقنا ، واقرأ ﴿وقيل يئارض ابلعي ماءك ويسماء اقلعي .
(٤٤)﴾ [هود]

فالامر الاول للأرض أن تلع الماء وتتشربه ، ثم يا سماء امسكى
ماءك ، لذلك إذا تشبعت لأرض بالماء نقول الأرض (عست) يعنى
امتلات بالمياه الحوقية فإن كانت أرضاً زراعية لا تخرج ررعا ، وإن
كانت فى المدن أضرب بالمباني ، وفاضت فى الشوارع وكسرت

المواسير إلح ، ويعرف أهمية الصرف من يتعاملون مع الأرض

وسيل العرم منسوب إلى العرم . وله إطلاقات متعددة ، فالعرم هي الحجارة التي تُبنى بها السدود ، أو هو الجُرء (العار) الذي نقب السد ، وأحدث به فتحة نفذ منها الماء ، فوسّعها وجعلها عيناً

وقد رأينا ما فعله الماء في تحطيم حديد بارليف . حيث هدى الله أحد مهندسيها حذاه الله حيراً إلى فكرة استخدام ضخ الماء بقوة لإزالة الساتر الترابي الذي كان عقبة في طريقنا للاستيلاء على هذا الخط المبع وتحطيمه ، ومعللاً كانت فكرة أدهشت العالم كله

والعرم جمع مفردة عرمة مثل لبن ولبنة لكن اللبن هو الطوب (النى) أو لطين ، أما العرم فهو الطوب المتحجر .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ۖ ۞ (١٦) ﴾ [سبا] من صفتيهما انهما ﴿ دَوَاتِي أَكْلٍ خَمَطٍ ۖ ۞ (١٦) ﴾ [سبا] يعنى أبدلهم الله بالحسير السابق وصفهما بحسب أخريش ، لكن ثمارهما ﴿ أَكْلٍ خَمَطٍ ۖ ۞ (١٦) ﴾ [سبا] يعنى ثمر عرّ تفقه الدهس ، وأشجارهما ﴿ وَأَثَرٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۖ ۞ (١٦) ﴾ [سبا]

والأثر هو شجر الصفاء ، وهو قليل النفع لا ثمر له ، واسدر هو شجر البق المعروف ، وهو شجر قليل لفائدة فكيف يُسمى هذا حنة ؟ قالوا سماها الحق جنة على سبيل التهكم ، وإلا فليس هي الجنة مثل هذا الشجر . ولاحظ أن الحق سبحانه رحيم بهم حتى هي العقاب ، فلم يجعلها حاوية لا شيء فيها .

ثم يقرر الحق تبارك وتعالى أن ما من بهم ليس ظلماً لهم ، بما

(١) قاله الزجاج وابن الأعرابي . وقال مجاهد وابن جريح العرم ماء أجمر أوسيه الله تعالى في السد فشقّه وهدمه . وعن ابن عباس أيضاً العرم العطر الشديد . [تفسير القرطبي

جاء ما فعلوا ﴿ذلك.. (١٧)﴾ [سبا] يعنى ما سبق بذكره من
الاكل الخمط والأثل والسدر ﴿جربانهم.. (٧)﴾ [سبا] أى جزء لهم
﴿بما كفروا.. (١٧)﴾ [سبا] والكفر ستر لعمه ، وهؤلاء استروا نعمة
الله حين ظنوا أنهم يأكلون من جهنهم وسعيهم وملكهم ، وسترُوا
نعمة الله حين لم يلتفتوا إلى المنعم سبحانه ولم يشكروه ، فما أطاعوا
مى ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ (١٥) [سبا] وما أطاعوا فى ﴿واشكروا
له.. (١٥)﴾ [سبا]

ثم يُنزه الحق سبحانه نفسه بهذا الاستفهام التقريرى ﴿وهل
نُجَارَى إِلَّا الْكُفُور﴾ (١٧) [سبا] وحاء بالكفور وهى صيغة مبالغة ، ولم
يقر سبحانه الكافر ، وهذا من رحمته سبحانه بعباده فهو سبحانه
لا يجارى منهم إِلَّا الكفور أى المصير على الكفر استمادى فيه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي نَرَكُنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٨)

هذه نعمة أخرى يمتن الله بها على أهل سبا . معنى ﴿وجعلنا
بينهم.. (١٨)﴾ [سبا] بين أهل سبا ﴿وبين القرى التى باركنا فيها..
(٨)﴾ [سبا] والمراد بلاد الشام التى قال الله فيها فى قصة الإسراء
﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (٨) [الإسراء]

والقرى جمع قرية . وهى اسم لمكان مواضع البناء به مقومات
الحياة الضرورية ، فإذا تزلته وجدت به قرى يعنى طعاماً وشراباً

ونعلم أن أهل اليمن كانوا أهل تجارة بين اليمن والشام ، فحرص الله لهم على طريق تجارتهم ﴿قُرِئَ ظَاهِرَةً ۖ ۝ (١٨)﴾ [سبأ] يعنى متقاربة متواصلة كانت بمثابة استراحات فى الطريق مثل (الرست) وذلك لبعُد المسافة بين اليمن والشام فى رحلتى الشتاء والصيف ، فأراد الحق سبحانه أن يُيسر لهم تلك الرحلات ، وأن يقطعوها بلا مشقة

﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۝ (١٨)﴾ [سبأ] يعنى جعلنا سيرهم على مسافات متقاربة فالقرى الظاهرة لهم فى سيرهم والقريسة منهم بحيث يَمرون بها ويرونها على طرفهم بلا مشقة ، قرى مُرَّعة على مسافات اطريق ، بحيث كلما ساروا مسافة وجدوا قرية على سائلة الطريق

وهذا يعنى أنهم سيأمنون ، لا يخيمهم شيء ، وأنهم لا يحتاجون حِمْرَ راء ، فالقرى التى يَمرون بها تكفيهم مؤنة الطريق ، ويحدون بها حاجتهم ، وهذا أيضاً يعنى أنهم لن يحتاجوا إلى دواب كثيرة للحمل ،

والسير أى فى الصباح ونقال كذلك للغدوة والروحة ، ثم يؤنسهم الحق سبحانه بهذا الأمر ﴿سِيرُوا فِيهَا يَالِىَ رَأْيَا أَمِينٍ ۝ (١٨)﴾ [سبأ] بحيث يسير فى العدو إلى مكان يقبل فيه ، ويسير فى الروح إلى مكان يبت فيه يعنى محطة للقبولة ومحطة للبيتوتة وهذا السير فى ظل أمن وأمان ضَمِنه لهم الحق سبحانه ، فلا يروعهم شيء لا من اناس ، ولا من الوحوش

وحين نقارن بين قوله تعالى هنا ﴿أَمِينٍ ۝ (١٨)﴾ [سبأ] وبين قوله تعالى عن قريش ﴿الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝ (٤)﴾ [برش] نجد أن الأمن يتوفر بالإطعام والأمان من الخوف ، وهذا قال

﴿ آمين ﴾ [سبا] ولم يقر من خوف ، لأن معنى ﴿ آمين ﴾ [سبا] أى الأمن اتّام آمين من الخوف ، وآمين من الجوع ، لأنه لم يذكر مع ﴿ آمين ﴾ [سبا] متعلق .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فقل لو أريتنا بين أسفارنا وظلموا أنفسهم
فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآية
لكل صبور شكور ﴾ [سبا]

تأمل هذا التعت وهذا لبطل لنعمة الله ، حيث لم يعجبهم أن قارب الله لهم بين القرى ، فطيبوا ﴿ ربنا بأعد بين أسفارنا .. ﴾ [سبا] يعنى أقصر بين هذه القرى بصحار شاسعة ، بحيث لا يستطيع السفر فيها إلا الأغنياء والقادرون الذين يملكون امطايا اقوية الفادرة على الحمل^(١) .

إذن بطرتهم فى هذه المسألة نظرة اقتصادية كلها حشع وطمع فهم يريدون أن يحرّموا الفقراء وغير القادرين من السفر للتجارة معهم ، فحين نتقارب القرى وتكثر الاستراحات على طول الطريق ، فلا يكاد المسافر يتجاوز قرية إلا بدت له الأخرى من بعيد ،

(١) وذلك مثل قلوب بني إسرائيل عندما بطروا معمة الله بهيرال المن والسوى عليهم دون مجهود منهم فقالوا ﴿ لى نقيم على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا ما تنبت الأرض من غلبه وقتنا ، وفومها رعدسها وبصلها قال أنسلون الذى هو الذى بالذى هو خير ﴾ [البقرة] فكان عقابهم ﴿ وصرب عليهم الذلة والمسكنة وباءر بعضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [البقرة]

فهذا يُسهّل السفر على الفقراء الذين يركبون الدواب الضعيفة ،
هو سائل الامتطاء تختلف حسب قدرات الناس ، فواحد على جواد ،
وواحد على ناقة ، وواحد على حمار ،

وَقُرْبُ المسافات بين القرى شجّع الفقراء على السفر لرحلة
اشمّام ؛ لذلك طلب هؤلاء أَنْ يباعد الله بين هذه القرى فهو مطلب
حشع خافى ، لذلك قال تعالى بعدما ﴿وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . (٩)﴾
[سبأ] نعم ظلموا أنفسهم لأنهم حرموها من الراحة التي جعلها الله
لهم ، وظلموا أنفسهم لأنهم أرادوا أَنْ يحتكروا هذه البضاعة ، والأ
يخرج إليها غيرهم من الفقراء ، أو ظلموا أنفسهم لأنهم أثبتوا بها عدم
اكتمال الإيمان ، لأن الإيمان لا يكتمل للمؤمن حتى يحب لأحبيه
ما يحب لنفسه ، وهؤلاء يحبون أَنْ يستأثروا بالمعاملة لأنفسهم ،
ويحرموا منها غيرهم .

لكن ، كيف تكون لمعاملة التي طلبوها في طريق تجارتهم؟ عرفنا
من علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ،
فاستقامة الطريق تُيسّر الحركة فيه ، وتقلل الوقت والجهد
والمباعدة لا تكون إلا بتعطيل بعض هذه القرى لتبعد المسافة بينها
أو بأن يلتوى الطريق ، أو يدور هنا وهناك

فكانت نتيجة هذا الحشع والبطر ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْثَاهُمْ كُلَّ
مَرْثٍ . . (٩)﴾ [سبأ] أى أحذوثة يتحدث بها الناس أو (حدوثة) تُحكى ،
كما هو وقع مجرم في أيدي رجال الشرطة ، فحفلوه عثره لغيره حتى
تحاكى الناس به ، كذلك أهل سبأ جعلهم الله عيرة بغيرهم حتى صارت
سيرهم مثلاً يُضرب ، يقولون في لمثل العربى الدل على التفرق تفرقوا
أيدي سبأ ، يعنى تفرقوا بعد اجتماعكم تفرقوا أهل سبأ

ومعنى ﴿وَمَرْقَنَاهُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ﴾ .. (١٩) ﴿[سبا] أى التمزيق والتفريق بكل أنواعه وطرقه ، بحيث يناول التمزيق كل الأجزاء مهم صغرت﴾ **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾** .. (١٩) ﴿[سبا] يعنى فيها عبر وعظمت يستفيد منها العاقل فى حياته

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٩) ﴿[سبا] صبار وشكور من صبيغ المبالغة ، صَبَّارٌ مبالغة من الصبر ، لأن هؤلاء ظلموا الفقراء واصطهدوهم ، وأرادوا أن يقطعوا عليهم سبيل النعمة ، وأن يستأثروا به لأنفسهم وقد تكرر منهم ذلك ، لذلك لم يقل لكل صابر ، لأنهم تحملوا من الأذى ما يحتاج إلى صبر كثير ،

وسبق أن قلنا لو علم الظالم ما أعدّه الله للمظلوم لصنّ عليه بالظلم ، ويكفى المظلوم أن الله تعالى سيكون فى حابه يوم القيامة

ومن الغناء أن لظالم حين ينتنه إلى ظلمه وتهدأ شره وعصبيته يريد أن يُكفّر عن ظلمه ، فيسعى فى أبواب الخير ، ويبى مسجداً مثلاً أو مدرسة إلخ يظن أن له ثوبه ، والحقيقة أن الثواب لمن ظلمهم وأخذ أموالهم لأن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿وكفى بما حاسِبِينَ﴾ (١٧) [الاسياء]

وقال أيضاً ﴿شُكُورٍ﴾ (١٩) ﴿[سبا] يعنى كثير الشكر لله أن أقدره على أن يصبر ، لذلك قالوا ، ما صدرت وإنما صبرناك ،

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا

فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠)

معنى ﴿ وَلَهُدَّ ۖ ۙ ﴾ (٦٠) ﴿ [سبأ] تؤكد باللام مرة وقد أخرى ﴾ صدق .
 ﴿ ۖ ﴾ [سبأ] حقق وأكد ﴿ عَلَيْهِمْ ۖ ۙ ﴾ (٦١) ﴿ [سبأ] على أهل سبأ وأمثالهم
 ممن اتبعوه ﴾ إبليس ظه ۖ ۙ ﴿ [سبأ] ما طر إبليس ۖ ظه أن شهوات
 الشر ستمكنه من إغوائهم ، ونحن تعلم قصته لما أمره الله بالسجود لآدم
 فأبى وقال مهديا ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦٢) ﴿
 [الاعراف] وقال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) ﴿ [ص] وكان لا يزال فيه
 بقية من حيء ، فقال ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٣) ﴿ [الحجر]

فظن إبليس أنه قال لقد أغويت أباهم وقدرت عليه حين أغويته ،
 فأكل من لشجرة مع أنه كان أول اسخلق وأقواهم ، وقد كلفه الله
 مباشرة وكلفه بشيء واحد ، وهو أن يأكل من كل ثمار الجنة عدا
 هذه الشجرة ، ومع ذلك قدرت عليه إذن فدا أقدر على ذريته ،
 لأنهم أقل منه قوة وقد كلفهم الله تكليفا غير مباشر ، وكلفهم
 بتكاليف متعددة فانا أقدر عليهم من قدرتي على أبيهم

وهذا الظن من إبليس ليس علما للغيب ، إنما هو قياس قاس ذرية
 آدم على أبيهم ، فإذا كان آدم هو المحلول الأول الذي خلقه الله سده ،
 وأسجد له ملائكته وكلفه مباشرة ولم يكلفه إلا بأمر واحد ومع ذلك
 قدرت عليه فانا على ذريته أقدر ، هذا قياس لم يصل إليه إبليس
 ولأنه ولا كرامة ، لذلك سماه طغا .

فلما قدر إبليس على ذرية آدم وأغواهم بالفعل قال طغنى جاء في
 محله ، لأنهم بالفعل اتبعوه ﴿ وَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ۖ ۙ ﴾
 ﴿ ۖ ﴾ [سبأ] ثم يأتي هذا الاستثناء ﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤) ﴿ [سبأ]
 فجاء هذا الاستثناء مطابقا للاستثناء الأول ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
 الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٣) ﴿ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَمَا كَادَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوْثِرُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (٢١)

لما أعمى إبليس بنى آدم هل لهم عذر في هذا الإغواء ؟ وهل انذوب هنا ذنب إبليس ؟ الحق سبحانه يخبر عنه وعنهم هذا الخبر في سياق قصة ساء ﴿ وما كان له عليهم من سلطان .. ﴾ (٢١) [سأ] وقد التقط إبليس هذه العبارة وجعلها حجة له يوم القيامة ، فإذا قال له البشر يوم القيامة أنت سبب صلالنا وغرايتنا قال ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم .. ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

يعنى لا تلوموني ولا تظلموني ، فقد كنتم (على تشويره) منى ، وليس لي عليكم من سلطان لا سلطان قوة قهركم بها وأجبركم على طاعتي ، ولا سلطان حجة أقنعكم به ، والفرق بين سلطان القهر وسلطان الحجة أنك تفعل مع الأول وأنت غير راض فأنت مكره أما مع سلطان الحجة والمصطوف فإنك تفعل ما يطلب منك عن رضا واقتناع

وربما عر وجل حذرا من إبليس ووسوسته وبرغه ، وعلمنا أننا لن نفهره إلا بالله خصوصا بهذه (الرشقة) التي قال الله فيها ﴿ وإما يرعل من الشيطان برع فسعد بالله . ﴾ (٣٠) [قصص]

مجرد أن تذكره بالله بحس ويهرب وبراح فهو يقدر عليك

وحدك ، فإن لحأت إلى ربك خاف وفر لأنه لا قدرة له ، ولا كيد مع ذكر الله ، لذلك قال بعض العارفين قل هذه الكلمة بقوة وكأنك تراه وتصرفه .

فماذا نفعل إن جاء لأحد وهو يقرأ القرآن ؟ قالوا ينصع قراءته . ويقول بصوت أعلى وبأسلوب مغاير بقراءته أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد حاولنا أن نقرب هذا المعنى لأذهن الدشنة بقائنا لو أن أحد الأغبياء مثلاً يحس في (الشرفة) ليلاً ، فرأى صاعاً يحاول دخول بيته ، فقام من مكانه ، وقال (إحم) ماذا يصنع اللص ؟ يهرب ، فبأن قال في نفسه لعلها مصادفة ، ثم عاد في الليلة لتي بعدها ، ففتنه له صاحب البيت ، وقال (إحم) عندها يعرف بلا عودة ، فصاحب البيت متنبه غير عامل .

كذلك ، قول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يفرع الشيطان ويطرده فإن عاد إليك مرة ومرة فقل كلما شعرت بوسوسته ووزعته أعوذ بالله من الشيطان الرجيم عندها سيعلم أنك (فقسته) . وأنه لا مدخلك له إليك .

وقد عرف الشيطان حين جادل ربه من أين يسجل على ابن آدم فقال ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف] فهو كما ذكرنا ، لا يقعد في حسمارة مثلاً ، إنما يقعد في المسجد ، فهو يعلم أنك في عبادة ، وكل مناه أن يفسد عليك عبادتك ، ألا تراه يذكرك في الصلاة ما بسيت من مهمات الحياة ، وعلى المؤمن أن يقدر موقفه بين يدي الله ، وألا ينشغل بأي شيء وهو في حضرة ربه .

فالصلاة هي الصراط المستقيم الذي سيفقدك الشيطان عليه ، لذلك علمت عقهاؤنا - رحمهم الله ورضي الله عنهم - أن تعيد

اشيطان ، فإذا وسوس لك في الصلاة بحيث لا تدري ، أصليت ركعتين أم ثلاثاً ، فاعتبرها ركعتين وابن على الأقل ، كذلك في ابوضوء وأمثاله من العبادات ، لتعظله وتُنسسه منك

وظاهرة السهو في الصلاة في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، فلا تُمرص نفسك بها وكُنْ قوياً لإيمان وتشجع على هذا العدو وَقُلْ لَهُ لَنْ أُعْطِيكَ الفرصة لتفسد على لقائي مع ربي ، قل هذا (واشخط شحطة إيمان) عليك تحرقه ، وإن عاد فعُدْ ، وأعلم أن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (٧٦) [النساء] فلا قدرة له عليك ما دُمْتُ في معية الله ، وما دُمْتُ ذاكراً لله ، عندك تنه إيماني ، وتنه عقدي .

وسبق أن حكيت قصة الإمام أبي حنيفة لما جاءه رجل يستفتيه ويقول يا إمام ، لقد كنتُ أحفستُ مالا في مكان في الصحراء ، وعلمته بحجر ، فجاء السنين فطمسه حتى ضللتُ مكانه ، فصحك الإمام وقال للرجل بما لديه من حيرة وتمرس ومَلَكَة في الفتنة يا بني ليس هي هذا علم لكني سأحتل لك ، اذهب بعد أن تصلي العشاء . فتروصاً وضوءاً جديداً نية أن يهديك الله إلى ضالتك وصلَّ الله ركعتين ، ثم أخبرني ماذا حدث .

فصر الرجل ما أوصاه به الإمام ، فجاءه إبليس ليفسد عليه صلاته وفار له إن المال في مكان كذا وكذا مراح فوجد المال ، ثم عاد إلى الإمام فسأخبره فقال والله لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك بُقْمَ ليلتك مع ربك .

إس فتق بكلمة (أعود بالله من الشيطان الرجيم) وقُلْها بقوة

إيمان . أنقول الله قَوْلُهُ يَأْتِي واقع الحياة من المؤمن به ليكذبها ؟
وجربها أنت بنفسك

وقوه تعالى ﴿إِلَّا نَعْلَمُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .
(٢١)﴾ [سبا] ما دام أنه ليس لإبليس سلطان على بنى آدم ، وما دام
أنهم على (تشويكة) منه فلا بُدَّ أن يمانهم غير راسخ . ومهم
سُورًا حكمًا من أحكام الله . لأنه سبحانه حذرهم منه ووصف بهم
طريقة التغلب عليه فلم يفعلوا .

فكانت غواية إبليس لهم ﴿نَعْنَمُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي
شَكٍّ .. (٢١)﴾ [سبا] أي علم وقرع ، وإلا فالحق سبحانه يعلم
ما ستكون منهم أرباباً ، لكن لا بُدَّ أن يحدث منهم الفعل لتقوم الحجة
عليهم كالمعلم الذي يرى على تلميذه علامات الفشل فيحذره ، حين
يدخل الامتحان ويرسب فيه يأتي يعاقب استناده أنه بشره بالرسوب
فيقول المعلم وهل أمسكتُ بيدك ومنعتك من الإجابة ، لقد حكمتُ
عليك من خلال المقدمات التي رأيتها منك .

ومع ذلك كان من الممكن أن يعيش هذا التلميذ في الامتحان
ويجح رغم ما قاله المعلم ، لأن علمه علم ناقص ، أما علم الحق
سبحانه فعلم تام . إذن معلم الوقوع ألزم للحجة .

ثم يقول سبحانه ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ (٢١)﴾ [سبا] حفظ
صيغة مبالغة من الحفظ . فانه تعالى حفيظ على الكون وعلى الارزاق
وعلى العدم وعلى كل شيء ، كما قال سبحانه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
عِنْدَنَا حِزْبُهُ وَمَا نُرِيهِ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر] وما دم الله تعالى
هو الحفيظ ، فلا أحد يستطيع أن يخل بهذه القضية

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا
مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (٢٢)

ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عامة ، هي قضية هؤلاء القوم
الذين يعبدون غير الله ويجادلهم ، ليظهر لهم قسائد مسلكهم وبطلان
عبادتهم دون الله ، وقد رد هؤلاء فقالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى
اللَّهِ زُلْفَى .. ﴾ (٢٣)

ويقول أولاً ما هي العبادة ؟ العبادة أن يطيع العابد أمر معبوده
ونهيهِ ، فإذا كان الكفار يعبدون اشمس أو القمر أو الاصنام إلخ
بماذا أمرتهم هذه الآلهة ؟ وعن أي شيء نهتهم ؟ ماذا أعدت هذه
الآلهة لمن عندها من لثواب ؟ وماذا أعدت لمن كفر بها من عقاب ؟

إن أنتم كادبون في كلمه يعبدوهم ، وإذا كنتم تعبدونهم
ليقربوكم إلى الله رُفَى ، فلماذا لا تترحبون بالعبادة إلى الله مباشرة ؟
كيف تعبدون آلهة بلا منهج ولا عمل لها فيمن عندها ، ولا عمل لها
فيمن كفر بعبادتها ؟

وهذه المخلوقات التي يعبدونها من دون الله مخلوقة لله مُسْحَرَةٌ له
سبحانه مُسْمُحَةٌ ، وهي بريئة من هذا الشرب ولا ترضاه ، بل هي
أعيب الله منهم ، لذلك نطق الأحجار على لسان هذا الشاعر^(١) وقالت

(١) الشيخ رضي الله عنه من قصيدة في الهجرة النبوية

عَبِدُونَا وَتَحْسُرُ اعْبُدُ اللَّهَ مِنْ الْقَائِمِينَ فِي الْأَسْحَارِ
تَخَذُوا صَحْفًا عَلَيْنَا دَلِيلًا فَغَدَرُوا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ
قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلًا كَمَا قَدْ تَجَنَّنَا عَلَى بَنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارَى
لِلْمَعَالَى جَزَاءُوهُ وَالْعَفَالَى فِيهِ تُنَجِّيه رَحْمَةُ الْعَفَّارِ
فَالْحَقَّ سُبْحَانَهُ يَبَاقِشُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [سبا] ادعوا هذه الالهة المدَّعاة . لكنهم لم
يدعُوا . لعلمهم أن الهتهم المزعومة لن تحبب لذلك أكمل الله لهم
رأطهر لهم النتيجة لو دعوتهم هذه الالهة ، فبنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْ قُلُوبِ
دُرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. (٢٢)﴾ [سبا]
فعلام إذن تعدونهم ، وهم لا يملكون شيئاً . ولم يصنعوا لكم
معروفاً ، ولا قدّموا لكم خدمة ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا﴾ (٢٢) ﴿[سبا] أي
في السموات والأرض ﴿مِنْ شَرِكٍ﴾ (٢٢) [سبا] يعنى مع الله ، أى
ليس لهم مع الله شركة فى مسألة الخلق ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهَرَ﴾ (٢٢) ﴿[سبا]
يعنى لم يعاونوا الله حين خلق السموات والأرض ، والظهير
هو المعين القوى ، ومنه قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَالْعَمَلُ الثَّكُورُ﴾
ذلك ظهير (٤) ﴿[التحرير]

والظهير من الظهر ، وهو أقوى الأعضاء فى الحمل وفى ادفع
فالظهير : الذى يعاونك ويساندك بكل قوته
والذين يدعون من دُونِ اللَّهِ يُحَاجُّونَ بِأَشْيَاءٍ مُتَعَدَّةٍ أَوَّلًا
لحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وجعله خليفة له فى الأرض
وخلق له مَقُومَاتَ حَيَاتِهِ قَسْرَ أَنْ يَحْلُقَهُ . وتركه يرتع فى معبه
ولم يُكَلِّفْهُ شَيْئاً حَتَّى سِرُّ الْبُلُوغِ وَانْصِجَ وَيَبْلُغَ لِإِنْسَانٍ سِرُّ لِنَضِجِ

حين يصبح قادراً على إنجاب مثله

وسبق أن سُئِنَا ذلك بالثمرة ، فهي لا تنضج ، ولا يحلو طعمها
فى مذاق الإنسان ، إلا إذا استوتُ بدرتها ، بحيث إذا رُعِيتُ أبيت
مثلاً ، وهذا من لُطْفِ الله بنا ، وإلا لو حَلَّتْ الثمرة قبل نضج بدرتها
لأكلنا أشجار مرة واحدة ، ونقطع نوعها بعد ذلك .

ويشاء الخالق سبحانه أن يجعل للتكاثر لنسلى فى الإنسان تكاثراً
نسلياً أعظم منه فى الحشرات بما يمثل احتياطاً واسعاً يؤمّرُ حاجة
الإنسان ، فحبة لبطيح الواحدة تنتج شجرة بها عدة ثمار بها مئات
الذور ، لأنها تزرع بعضها وتسلى (بقرقرة) الكثير منها

والحق سبحانه أخذ علينا ميثاق الذرِّ ، والشجر جميعاً فى ظهر آدم
عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم قبل أن تتأنى لهم شهوات النفس
المعارضة بسبح الله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (٧٧) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً
مِنْ بَعْدِهِمْ .. ﴿ ١٧٣ ﴾ [الاعراف]

وهذا العهد قَطَرِيٌّ فى النفس الإنسانية وما جاءت الأديان إلا
لتفرض عن هذه الفطرة عبا العقل وغبار الشهوات ، ذلك لم يأت
الرسول لتأسيس دين ، إنما للتذكير بهذا العهد القديم ﴿ هَذَا ذِكْرُ إِبْرَاهِيمَ
إِذْ مَكَرَ ﴾ (٢١) [الأنبياء]

لذلك ، فالإنسان منا حين تتدبّر الأحداث ، وتعرّز عليه الأسباب
ولا يرى مُنْقِداً ، نرده هذه الفطرة إلى القوة الحفية التى ستستقده ،
فتجده يقول مستنجداً ومستغيثاً يا هره يعى يا هو ، وهو صمير
غيبه ، إنما أشد إعلاماً من الاسم الطاهر لماذا ، لأنك حين تقويها

لا تنصرف إلا لغائب عن عينك واحد هو الله

لذلك قل سبحانه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإحلام] وبم يقل
 قُلْ الله حد ، لأنه لا يخطر ببالك حين تقولها إلا الله خصوصاً في
 لشدة ، وحين تعز عليك الأسباب ، فلا يسعفك إلا ربك كما قال
 سبحانه ﴿مَلْئَمٌ مِّن تَلْعَمُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ ..﴾ (٦٧) [الاسراء]

وفي الشدة والصيق لا يكذب الإنسان على نفسه ولا يحدسها ،
 فمرى حتى الكفار عند الشدة يقولون يا رب ، وتردبهم القطرة إلى
 الله الحق .

لكن ما دام الإيمان الفطري بهذه القوة ، ما الذي يطمسه في
 النفس الإنسانية ؟ قالوا تطمسه الشهوات حين تتحرك في اتحاده
 مسخالف لمهيج الله ، فاصهيج يهدف إلى تهذيب الشهوات والعرائر
 والحد من عفوانها ، ولا نعد هذا بعداً عنها ، وإلا فلماذا خلقها ؟

لا ند أن لها مهمة ، فالغريزة الجنسية مثلاً جعلت لبقاء النوع ،
 ولم تجعل للشراسة والعوردة في أعراض الآخرين ، كذلك جعل الله
 الغضب غريزة ولها مهمة فالحق أباح لك أن تغضب حين
 تُسبب

لذلك قالوا من استغضب ولم يفضب فهو حمار ، ومع ذلك
 يأمرنا ربنا بالحلم ، ويقول سبحانه ﴿وَلَا يَحْرَمَكُمُ شَأْنُ قَوْمٍ عَلَى
 الْإِعْتِدَالِ﴾ (٨) [البقرة] يعني لا يخرجك الغضب عن حد
 الاعتدال ، ولا يدعوك إلى الظلم ، فالحق سبحانه لا يكتف فيك هذا

(١) لا يحرمكم شئ قوم أى لا يمانكم بفم قوم على عدم العدل أى يحرموا العدل
 حتى مع من يكرهونهم ، أى اعدوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى { القاسوس القوم

الشعور ، لكن يقيدته حتى لا نطفي بسببه .

وقصة سيدنا عمر في هذا الموضوع وضعت لنا المبدأ ، فيُروى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - رأى قاتل أخيه زيد بن الخطاب في المعركة ، فانصرف عنه ، فدُكره هذا قاتل أخيك ، فقال وماذا أفعل به ، وقد هداه الله للإسلام فكان الإسلام برؤ ناز أشار في نفسه ، والإسلام كما علمنا يجبُ ما قبله^(١) .

كذلك الإسلام يجبُ الغضب - فلما وجه عمر قاتل أخيه قال له يا هذا أدرك وحك عني ، قلبي لا أحبك - فلما عمر بما عنده من غريزة الغضب - فقال الرجل أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقى قال لا ، قال إنما يبكي على الحب النساء^(٢) ، يعنى لا بهمنى تحب أم تكره ، المهم أن حفي محفوظ .

كذلك حب الاستطلاع غريزة جعلها الله في الإنسان ليكشف بها أسرره في الكون ، فلا تجعلها تلصصاً على أعراض أساس وأسرارهم

إذن ما جاء الدين ليكبت الغريزة أو ليقضي عليها ، إنما جاء ليعلو بها ويهذبها ، ويقف بها عند حدّ الاعتدال والمهمة التي خلقت

(١) عن عمرو بن العاصي أنه حين جاء ليمسح قال يا رسول الله إني أبيعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ولا أنكر وما تاجر ، فقال رسول الله ﷺ يا عمرو ، بايع فبين الإسلام يجبُ ما كان قبله وإن الهجرة يجبُ ما كان بعدها ، قال فباعتته ثم انصرف أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥)

(٢) قد ورد في هذا المعنى عنه رواية ، فيها ما قاله عمر بن الخطاب لطلحة لاسدى قتلت عكشة بن مسعود لا يحبك قلبي قال طلحة بمعاذرة جميلة يا أمير المؤمنين ، فإن الناس يقعشرون على البغضاء [عيون الأحيار لابن قتيبة ٩/٢] ونقل ابن قتيبة (١١/٣) أن بعض الخلفاء قال لرجل إني لا بغضك ، قال يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب المرأة ، ولكن عدل وإنصاف

من أجلها ، لذلك قلنا : إن الإسلام يجمع للمؤمن في بعض المواقف بين الشيء ومقابلته كما في قوله سبحانه ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَلَدَيْهِ مَعَهُ أَشَدُّ عَلَى الْكَافِرِ رُحْمًا مِنْهُمْ .. ﴾ (٢٨) [المح]

ورحم الله الإمام طياً - رضى الله عنه - حين قال^(١)

لَنْ كُنْتُ مُحْتَاجاً إِلَى الْحِلْمِ ، نَبَى إِلَى الْحَقِّ فِي بَعْضِ الْآخِيزِ أَخْرَجَ
وَبَى فَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مَلْجَمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَحٌ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيْمِي فَأَنْتَى مَقْوَمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيْجِي فَأَنْتَى مُعْزَجٌ

فالشدة مطلوبة ولها موضعها ، والدلة مطلوبة ولها موضعها ،
إذن الموقف الإيماني هو الذي يصنعك والمنهج إنما جعله الله
لتستقيم به أمور الحياة فإذا كلَّفَكَ الله بشيء يصادم شهوة في
نفسك ، فلا تقلُ إن الشرع صادم شهوتي ، بل خذها من باب الكرم
الواسع ، وقلْ وصادم شهوات الآخرين من أجلِّي ، فالشرع حين قال
لك لا تسرو وأنت واحد قال للملايين ألا يسرقوا منك

وحين تصطدم لفطرة السُّوية والتدبير الطبيعي بشهوات النفس
يبحث الإنسان عن تدبير يُرْصِي شهواته وَيُشْعِ غَرَائِزَهُ ، فهو يريد أن
يكون متديباً ، وفي الوقت ذاته يريد ألا تُقَيِّدْ شهواته ، فماذا يفعل ؟
يلجأ إلى عبادة آلهة بلا صهج وبلا تكاليف ، ومن هنا عبد الناس غير
الله ودَعَا مَنْ عَبَدُوا الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ ، وتأمل الذين عبدوا
الملائكة مثلاً ، هل أمرتهم شيء أو نهتهم عن شيء ؟

لذلك احق سبحانه يقول ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) أورده هذه الأبيات ابن قتيبة الديوري في كتابه « عيون الأخبار » (٢٨٩/١) ولكن عراباً
لمحمد بن وهب وليس بالإمام علي

(٢٦) ﴿[سأ] ولو بحثنا مسألة الشركاء بالعقل لظهر بطلانها وكذبها ، فإذا كان الله تعالى شركاء ، ومعه سبحانه الهة أخرى ، فأين هم ؟ أدروا بأن الله تعالى استبَدَّ بالالوهية ، وشهد بها لنفسه ، وأعلنها صراحة من دونهم ؟ إن كانوا على دراية بذلك ، فلماذا نركوه سبحانه يستبد بالالوهية ؟ وإن كنوا لم يدروا بذلك فهم آلهة بياض ، وفي كلتا الحالتين لا يستحقون هذه الالوهية

لذلك الحق سبحانه يمسُّ هذه القضية مساً حميلاً ، فيقول ﴿قُلْ لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذا لأتبعنَّها إلى ذى العرش سبيلاً﴾ (الإسراء) [يعنى لو كان صحيحاً وجود آلهة مع الله لأذهبوا إليه ليناقشوه ، لماذا استبدَّ بالالوهية من دونهم ، أو لذهبوا إليه ليتقوه ، وليتقربوا إليه

وأرقى ما يعبد المشركون يعبدون الملائكة ، وكان عبادتهم أصبحت قريبة من عبادة الله ، والله يقول عن الملائكة ﴿يَلْ عباد مكرمون﴾ (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴿٢٧﴾ [الأنبياء] ويردُّ القرآن عليهم ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي يَدْعُونَ يَتَّخِذُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوسيلةَ أَيْهِمْ أَقْرَبَ ويرحون رحمته ويحاورون عذابه ..﴾ (٤٧) [الإسراء]

فهؤلاء الملائكة الذين تعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يتقربون إلى الله ويدوسلون إليه ، الأقرب منهم يتوسل إلى الله ، ويجب أن يكون أكثر قرباً إذا كان الأقرب هو الذى يبتغى الوسيلة والقرب ، فما بالك بالقريب ؟ وما بالك بالبعيد والأبعد ؟

إذن أنتم أعبياء بعبادتكم الملائكة وهل تظنون أن خلقاً من خلق الله كالملائكة يرضى أن تعبدوه من دون الله ، أو يقل أن يشفع لك عند الله ، هذا سقفة فى التفكير .

فالحق سبحانه وصيغ شروطاً للشفاعة ، فقال ﴿يَوْمَذِ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) ﴿صه﴾

ويقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١١٣)

قال العلماء ، يُشترط للشفاعة شرط في المشفوع به أن يكون من أهل التوحيد ، وشرط في الشافع أن يؤذن له بالشفاعة ، كما قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ . (١١٣) [النفرة] فلا يقوم الشافع فيشفع مباشرة ، إنما ينظر أن يؤذن له بها وهذا بصطرب المشفوع له ويفزع ، ويكون قلقاً يا ترى أيؤذن للشافع ؟ أم تُرد شفاعته ؟

لذلك يقول تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ (١١٣) [سبا] يعني أربل عنها الفرع فالتصعيف في (فزع) أفاد إزلة الحدث الماخوذ منه الفعل ، كما يقول (مرصه) يعني أزال مرصه و (قشر البرتقالة) يعني أزال قشرتها إلخ

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ (١١٣) [سبا] أي قال القوم الحق ، وأذن بالشفاعة لمن ارتضى

وقال تعالى ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ . (١١٣) [سبا] ولم يقر ثقل الشفاعة ، لأن هدف الشافع أن تنفع الشفاعة المشفوع له ، فإذا ما ذهب ليشفع له قال له المشفوع عنده أما لا رضى أن تشفع

للمشفوع به ، فالذى انتهى بفع الشفاعة لا قبولها ، ففرق بين أن
يوجد شفاعة ، وبين أن تنفع الشفاعة

وفى سورة البقرة آيتان فى لشفاعة صدرهما واحد ، لكن العجز
مختلف ، وفى الاولى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ [البقرة]
والاخرى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُ شَفَاعَةُ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ [البقرة]

وهاتان آيتان من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون ،
وطبوا فيها مأخذاً على كلام الله ، فالمعنى واحد حتى اللفظ هو هو ،
لكى فى الاولى قدم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة] وفى
الاحرى قدم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة] وفى الاولى قال
﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة]

وهذا الاعتراض منهم نتيجة عدم الفهم عن الله ، فالآيتان تتحدثان
فى الشفاعة عن نفسين الاولى انفس الشفاعة والاخرى النفس
المشفوع لها ، اشافع له موقف مع الله ، ولمشفوع له ، له موقف
قبل ذلك ، لانه لم تأت بالشافع إلا لانه لم يقدر على إنهاء المسألة
بنفسه فالضمير يعود فى الآية الاولى على الشافع ، وفى الاخرى
على المشفوع له ، كيف ؟

المعنى هذا لا تجرى نفس شفاعة عن نفس مشفوع لها لنفس
الشافعه هى التى يُقبل منها الشفاعة ، والنفس المشفوع لها هى التى
تنفعها الشفاعة ، اذ الآية الاولى تحصر الشافع ، لانه يذهب ليشفع

فلا يُقبل منه ، فيعرض أن يدفع هو العدل ، ويكون كفيلاً فيما على
المشفوع له ، فلا يُقبل منه أيضاً

أما الآية الأخرى فهي في المشفوع له ، لأنه يعرض أن يدفع
ما عليه أولاً فلا يُقبل منه عدل ، فيبحث عن من يشفع له

وسُميت شعاعة ، لأن الشُّفْعَ يعادل الوتر ، وصاحب الحاجة الذي
يطب لشعاعة واحد ، فإذا انضم إليه الشامع هما اثنان يعني
شفع

ثم يقول سبحانه في حتام الآية ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سم]
على أن يُدَقِّش في أي قرار يتخذه ، وكبير يعني أكبر من الشافع ،
وأكثر من المشفوع به فالحق سبحانه قال الحق ويطوق به ، وهذا
يعني أنه وقف بجانب الحق ، فلم يعبأ بشامع مهما كانت منزلته ، ولا
مشفوع له مهما كانت ذلته ورقته ؛ لأنه سبحانه هو العليُّ الكبير .
وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى صاقشة المسألة مذقشة عقلية ،

فيقول

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ
وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤١)

أي قُلْ لهم يا محمد مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لكن
إذا كان محمد هو المستفهم منهم ، فمن يجب ، بالطبع هم لن
يجيبوا ، لذلك أحاط الله (قل الله) فهذه حقيقة لا يستطيعون
محابتها ، ولو اعترفوا بها قلنا لهم إذن لماذا لم تؤمنوا بالله وهو
رازقكم ؟

أُليق بكم أن تكفروا به وهو الرازق ، وتؤمنوا باللهة أخرى
لا تنفعكم ولا تضركم ، فاعترفوا بهذه الحقيقة يلزمهم الحجة ،
ويقيم عليهم الدليل على سقته تفكيرهم . وكان الحق سبحانه أراد أن
يُعفيهم من هذا الصرح ، فأجاب بدلاً منهم

والحق سبحانه يسألهم هذا السؤال : لأن الإجابة لن تكون إلا
على وفق مراده سبحانه وتعالى كما لو اشتريت مثلاً (بدة)
لشخص ما وفي موقف من الموقف أنك جميعك ، فتقول له من
الذي اشترى لك هذه (لبدة) ؟ أنت لا تسأل هذا السؤال إلا وأنت
واثق أن الإجابة ستكون في صالحك ، وأنه لا يستطيع الإيثار ، فلو
أنكر ستقول له تعال إلى الفاجر الذي اشتريتها منه لنرى من الذي
اشتراها ، فأنت إذن تمك إقامة الدليل عليه إن أنكر .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ لَعَلَّ هُمْ يَهْتَدُوا﴾
[سبا]

الهدى هو الدلالة على الخير والطريق إليه ، والضلال أن تصل
عن الخير والدلالة إليه ، ومنه قوله تعالى ﴿وَرَجَدُكَ صَالًا فَهْدَىٰ﴾
[الضحى]

والهدى والضلال من المتناقضات هي الدين . ومتناقضان
لا يجتمعان أساساً ، فلا بد أن يكون واحد على الهدى والآخر على ضلال
كثيرون لا يفهمون الفرق بين الصد ولتقيص ، الضد شيء يصد
شيئاً ، لكن لا يبقيه كما تقول مثلاً الشيء بقلبي أحمر أم
أحضر ؟ فيقول لك لا أحمر ولا أحضر إنما أبصر ، إن الضدان
لا يجتمعان وقد يرتفعان معاً ، لا هد ولا هدا ، بل شيء آخر أما
التقيصان فهن ارتفع واحد ثبت الآخر ، كما هنا في الهدى والضلال

فمعنى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) [سبا] إن كان أحدهما على الهدى فلا بُدَّ أن يكون الآخر في الضلال ، ولا ثالث لهما ، والحديث هنا عن مسهب حير في جانب الإيمان ، ومنهج شر في حاسب الكفر فرسول الله يقول لهم نحن وأنتم على طرفي بقيص ، نحن نقول لا إله إلا الله ويدعو إلى الخير ، وأنتم تكفرون بالله وتدعرون إلى الشر ، ومع ذلك لا أحكم لي بالهدى ولا عليكم بالضلال ، بل أقول ، أنا وأنتم على لتقيص ، إن كنن أحدهما على الهدى فالآخر في الضلال .

والله عليكم ، هل رأيتم حجاجاً أرق من هذا الحجج ؟ فرسول الله لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدى رغم وضوحه في حانتهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه في حابيتهم ، ومثار ذلك ، لو حلف رجلان على شيء واحد أمام رجل أعمى أيقول لواحد أنت صادق ، وللآخر أنت كاذب ، لا ، ين يقول واحد منكما صادق ، والآخر كاذب ، فهذا حكم أولى لا يكزم أحداً

لكن حين تبحث القضية يتضح لك من على هدى ومن في ضلال ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٥) [سبا] كلمة ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ (٢٤) [سبا] على تفيد الاستعلاء كأن الهدى لا يستعلى عليك ، وإنما تستعلى أنت على الهدى وتكون موقه ، كأنه مطية توصلك للخير المطلوب ولطريق المستقيم فساعة تقرأ (على) فاعلم أن هناك مكاناً عادياً ، وهناك ما هو دون هذا

وتأمل مثلاً قوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَبَدُءٌ مُّعْزِفٌ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظَنِّهِمْ﴾ .. (٢٠) [الاعد] فالمعفرة تعلو الظلم ، لأن الظلم يقتضي أن تعاقب ، فبأنى المعفرة تستعلو عليه وتمحو أثره ، وبعض المفسرين يرى أن

(على) هنا بمعنى (مع) أى مع ظلمهم^(١) واسعة لا تستقيم هنا ، لأنها تسوى بين الظلم والمغفرة ونجعلهما سواء ، فكيف تتغلب المغفرة على الظلم بهذا المعنى ، إذن لا بد أن تكون المغفرة على الظلم ، لا مع الظلم

كذلك فى قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۖ ۞ ﴾ [إبراهيم] فقال ﴿ عَلَى الْكِبَرِ ۖ ﴾ [٣٩] ﴿ [إبراهيم] لأن الكبر كان يمنعه أن ينحب ، فالحق سبحانه خرق له هذه القاعدة وأعطاه إسماعيل وإسحاق على كبره^(٢) ، ولذا إن الكبر هو أقوى الأحداث التى يتعرض لها الإنسان ، لذلك قال سيدنا زكريا عليه السلام ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتًى ۝ ﴾ [مريم]

والعتى يعنى الجبروت والقوة ، أما الكبر مضعف وهزل وعدم قدرة على أبسط الأشياء مهما قومه بالغذاء وبالفيتاميدات ، فلا شىء يقوى عليه أى يمنعه ، لذلك إذا تعددت الداءات فى الجسم فلا مرجع لها إلا لكبر ، والإنسان بعد سن السبعين والثمانين يشتكى كل شىء فى جسمه ، لذلك يسمونها أمراض الشيخوخة يعنى لا سبب لها إلا كبر السن

إذن نقول ﴿ لَعَلِّي هُدًى ۖ ۞ ﴾ [سبا] أى أن لهدى سيكون مطيتك ابنتى توصلك إلى الحنة وإلى السليم ، أما الضلال فقال ﴿ هِىَ ضَلَالٌ ۖ ۞ ﴾ [سبا] وكأنها ظلمة تحيط بالصالح وهو منحصر فيها .

(١) ذكره جمال الدين بن هشام الأصبهاني فى كتبه . معنى السبب = (١٢٦/٦) أن على نأى حرفاً بمعنى : العاصبة كمع نحو ﴿ وَأَنَّى الْمَدَنُ عَلَى حَبِّهِ ﴾ [١٢٧] ﴿ [المقرة] ﴿ وَوَيْلٌ لِّكَ لَدُوْهُ مَضْرُوبَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ۖ ۞ ﴾ [الزُّمَر] .

(٢) نزل ابن عباس كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ولد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن حاته وانتهى عمره سنة [تفسير القرطبي ٢٧١٣/٥] حين إسماعيل وإسحاق ١٢ عاماً

لا يدري أين يذهب ، ومعنى ﴿مِثْنِ (٢٤)﴾ [سا] واضح بَيِّن .

﴿قَدْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمُوا
وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥)

هذا تُلطف آخر وارتقاء في حجاج الكفار يُطهر مدى حرص سيدنا رسول الله ﷺ علي أن يُسأل الضغينة من نفوس الكفار ، وتأمل ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمُوا .. (٢٥)﴾ [سا] فيجعل رسول الله الإحرام في جانيه هو ولم يُسأَل هذه المرة بين الطرفين ، كما قال هناك ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ . (٢٤)﴾ [سا] إنما وصف فعله بالإحرام وقال عن الكفار ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سا] ولم يُقَلْ تحرمون

وفي الآية سقيقة أخرى هي ورود (أُجْرِمُوا) بصيغة الماضي . كان الإحرام حدث بالمر . أما هم مورد الفعل (تَعْمَلُونَ) بصيغة المضارع ، ليبدل على أنه لم يحدث منهم بعد ، وهذا تُلطف آخر وارتقاء في العاش ، وتودد إلى الخصم علّه يرجع فيفرح الله بتوبته وعودته إلى رحابه

وهذا الأسلوب الجدلي في الآيتين لا يتأني إلا من المجادل القوي الحجة اندى لا ننزله عنها رلة سابقة من حصنه ومثل ذلك قويا في المناقشة سلمنا جدلاً كذا وكذا ، ونرصى لأنفسنا بالآقل ، لماذا ؟ لأنك تعلم أنك على الحق وقوة احدل لديك تجعلك على ثقة بأن البحث في المسألة سيمتلي لصالحك ،

لكن ، مع ذلك كيف يأمر الحق سبحانه سيه ﷺ أن يسب الإحرام إلى نفسه ؟ هنا لأن الحرّم يختلف باختلاف المخاطب به ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين

ثم ينتهي الآيات إلى خلاصة هذه القصيدة في قوله تعالى

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٦)

المعنى ان نطيل معكم النقاش والحجة ، لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالحلاصة معكم أن يفصل الله بيننا وبينكم في محكمته الإلهية ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ..﴾ (٢٦) ﴿[سبا] أى يوم القيامة﴾ ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ..﴾ (٢٦) ﴿[سبا] أى يحكم ويفضي ، وفي بعض بلاد حتى الآن يقولون للفاضي افتاح﴾ ﴿وهو الفاتح العليم﴾ (٢٦) ﴿[سبا] أى الذى يحكم عن علم كامل ، ولا تخفى عليه خافية

وسمى الحكم فتحاً ، لأنه يفتح شيئاً عن شيء ويحدث فرجه بينهم فكأنهما كانا متشابكين ، بحيث يلتصق الحق بالباطل ، وكأنها معركة ، هيأى الحكم ففصل ههنا الشبكات ، وفصل الاشتباك هذا هو الفتح ، ولا يفتح بين الحق والباطل إلا الله

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ ادَّعَوْتُمْ مَعَكُمْ إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَبِّهِ أَتَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٧)

الحق سبحانه يأمر نبيه ﷺ قُلْ لَهُمُ أَرُونِي الَّذِينَ أَشْرَكْتُمْ مَعَ اللَّهِ وهو ﷺ يراهم بالفعل ، يرى أصنامهم التي يعبدونها من دون الله ، فما فائدة ﴿أَرُونِي ..﴾ (٢٧) ﴿[سبا] أى لانه حين يطلب منهم هذا لمطلب يعلم أنهم يستحون أن يشيروا إليها ، ولا يجردوا على ذلك ، لأنهم يعلمون أنها أحصار سماء ، لا تضر ولا تنفع

ومعنى ﴿أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ .. (٢٧) ﴿[سبا] من الإلحاق ، وهو أن تأتي بشيء حديد تُلحقه بشيء ثالث فكان ألوهية الله هي الألوهية الحق الثابتة ، وألهمت جديدة طارئة عليها ، ليست أصيلة ، فالإيمان ثابت وأصيل وفطري في انفس الإنسانية أما هذه الآلهة فمُحدثة طارئة باطلة ، لذلك ينعيها بقوله ﴿كَلَّا﴾ .. (١٧) ﴿[سبا] ثم يَصْرِبُ عن هذا الكلام السابق ليثبت الألوهية لله وحده ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧) ﴿[سبا] و (بل) تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم بما بعدها ، فدلالة الحق هو الله وفي موضع آخر ، يناقشهم الحق سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ .. (٢٢) ﴿[الاسباب] ونعلم من دراستنا الحوية أن (إِلَّا) أداة استثناء ، تفيد إخراج ما بعدها عن حكم ما قبلها ، وأن المستثنى بعدها منصوب ، كما نقول : حضر الطلاب إلا محمداً ، ملو طبقنا هذه القاعدة على هذه الآية لكان المعنى لو كان فيهما آلهة خارج منها الله لفسدتا ، لكن لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تفسدا ، هكذا ينطق الآية إذا أخذت (إِلَّا) على أنها أداة استثناء للإخراج ، إنما (الا) هنا ليست حرف استثناء بل هي اسم بمعنى (غير) ، بدليل أن ما بعدها وهو فقط الحلالة مرفوع وليس منصوباً على الاستثناء ، فالمعنى لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا . وقوله ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ .. (٢٧) ﴿[سبا] جاء هنا أيضاً بصمير العيبة (هو) ومعلوم أن صمير الغيبة لا تأتي إلا إذا سبقه مرجح تقول جاءني علي فأكرمته ، لا مع الله سبحانه وتعالى فإن هو يسبق المرجح ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ .. (٢٧) ﴿[سبا] لماذا ؟ ولما لأنه صمير لا ينصرف إلا لغائب واحد هو الموجود الأعلى سبحانه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلَّذِينَ بُشِّرْنَا وَنَكْذِرًا
وَلَنِكَرَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

معنى ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ (٢٨) [سبأ] أى جعلناك رسولاً ﴿إِلَّا كَافَّةً
لِّلنَّاسِ﴾ (٢٨) [سبأ] كلمة كافه تبين منزلة الرسول الخاتم ، فقبل
بعثة سيدنا رسول الله كان الرسل يُبعث لقوم مخصوصين ، كما قال
سبحانه وتعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ سَيِّدِ إِسْرَٰئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ
رَّبِّكُمْ﴾ (٤٩) [آل عمران]

ذلك ، لأن البشر لما تكاثروا كما قال سبحانه ﴿وَبِثُّ مَهُمَّا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (١) [النساء] تفرقوا في أنحاء الأرض هنا
وهناك ، والعام لا يزال في طفولة قصره ، ليس فيه ارتقاءات للقاء
بين هذه الجماعات ، فكانت جماعات منعزلة ، لا اتصال بينها ولكل
بيئة منها داءاتها هؤلاء يُطْفَعُونَ الكيل والميرور وهؤلاء يعددون
الأصنام إلح غيأتى الرسول إلى قوم مخصوصين ليعالج داءهم لا
علاقة له بغيرهم

أما سيدنا رسول الله ، فكان هو الرسول الخاتم المبعوث للناس
كافّة ، لأن الله تعالى علم أولاً أنه سيأتى على التقاء مع الدنيا كلها
وعلى اتصال بين الجماعات التى كانت مُعْرِقَةً ، وها نحن الآن نعيش
عالم القرية الواحدة وما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه
فى وقته ، وما دام العالم التفت محتتمعاته وقاراته ، فالدواء واحدة
بذلك جاء رسول واحد للعلاج كل الداءات فى كل المجتمعات ، هد

معنى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ..﴾ (٢٨) [س]

ومعنى أنه ﷺ خاتم الرسل أنه مشهود له وليس شاهداً لغيره ،
فقد أخذ الله تعالى العهد على الرسل ، أنه إذا جاء محمد يشهدون له
فشهدوا له جميعاً ، أما هو ﷺ فلم يشهد لأحد ، لأنه لم يأت بعده
رسول .

قال العلماء في كلمة ﴿كَافَّةً﴾ . (٢٨) [س] يعنى للناس جميعاً ،
قضى موضع آخر يقول تعالى ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعاً ..﴾ (٦٥٨) [الأعراف]

يعنى لم تعد هناك خصوصية ، لا زمانية ولا مكانية وحين
تتأمل كلمة ﴿كَافَّةً﴾ .. (٢٨) [س] نجد لها مناسبة هي واقع لغتنا ،
استقر على السنة العامة شاهد الحياض مثلاً حين يحيط ثوباً يعمل
المقص في القماش ، فيقطعه إلى لحمة وسدة لكن تخرج خيوط
الثوب من حلال أطرافه كما يقول القماش (بيسل) فيجمع الحياض
هذه الأطراف بعضها إلى بعض ، بحيث تكون طراف لقماش إلى
الداخل ، وهذه العملية سميها (ككففة) القماش ، أو نسميها لأن
(السرقطة) .

ومن ذلك كلمة (كافّة) يعنى جمع شتات الناس هي كل رماح
ومكان ، بحيث لا يخرج منهم حس ولا جماعة ، ولا يشد عن منهجه
أحد

وعند في لفلاحين بيت يدمو على خوف القبوات اسمه انجيز ،
وهو غير الحشيش المعروف ، ولنجيل لا يرتفع عن سطح الأرض ،
وتتشابك عيدياته وجدوره بحيث يمنع هذه الموائف أن تنهر ،
أو يسقط منها الردم فيسد القناة فكس انجيز أدى مهمة هي كف

الردم ومنعه أن ينهار يعنى كف جنساً أن يشرود عن مهمته

وكلمه ﴿كَافَّةً .. (٢٨)﴾ [سبأ] من كف الشيء يكفّه ، فهو كافٌ ،
وريدت تاء التأنيث للمبالغة . كف في عالم وعَلام وعَلامَةٌ . بذلك يقول
ربنا عن نفسه سبحانه ﴿عَلامُ الْغُيُوبِ (٢٨)﴾ [التوبة] فَإِنْ قُنْتَ بِمَاذَا
بِم يَقُلْ عَلامَةٌ ، نقول لأن علم الله تعالى لا يترقى بلاعة وقلة

فمعنى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨)﴾ [سبأ] يعنى تكفهم
وتصنعهم عن كل شر يفسد الصلاح في الأرض . وهذه هي مهمة
المنهج الذي جاء به سيدنا رسول الله ، لذلك قال سبحانه ﴿وَلَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٥٦)﴾ [الاعراف]

إذن كلمة ﴿كَافَّةً .. (٢٨)﴾ [سبأ] إمّا بِصَفٍّ للناس بمعنى
جميعاً ، وإمّا وَصَفٍّ لرسول الله بمعنى كافٌ للناس عن الشر ، والتاء
للمبالغة

ومعنى ﴿شَيْراً وَبَدِيراً .. (٢٨)﴾ [سبأ] من البشارة ، وهى أن
حذر بحير لم يأت أوانه بعد وبقابلها الدارة وهى أن تحذر بشرٌ
بم يأت أوانه بعد . فمِيزة البشارة أنها تحبرك بأخير القادم لك لتأخذ
بأسبابه وتقرر عليه وتحتهد في سبيله ، وأنت مشناق إليه ، كذلك
لندارة تحذرك من الخطر المفير لتتصرف عن أسبابه وتدفعه عنك

ومثال ذلك المعلم الذى يُشَرُّ التلميذ المحبهد بالسحاح والتفوق
وينثر المهمل بالهشمل والرسوب . لماذا ؟ لأنه يريد من المجتهد أن
يريد في اجتهاده ومن لكسول المهمل أن يترك الكسل والإهمال
ستفوق هو الآخر .

وقوله سبحانه ﴿وَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [سبأ] أى



لا يعلمون أنك لرسول الخاتم ، أو الرسول لدى جاء ليصنع الشر عن
لعمرية كلها ويصلح حركتها وما دام أكثر الناس لا يعلمون ،
فصعبى ذلك أن اقله هي التي تعلم ، وهذه القلة العالمة هي حميرة
لحير في الوجوه ، لذلك ندبى الناس مهم بالعوا في الإلحاد ، وفي
لخروج عن منهج الحق لا بد أن تخرج من بينهم هذه القلة التي
تتمسك بالحق وتسعى إليه وتنادى به ، فهي موحودة في كل زمان
ومكان وإن قُتِلَتْ

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ « الحير فيّ وفي أمّتي إلى يوم
القيامة »^(١)

إذن لا بد أن ننقى قبا هذه القلة كمادج وخليّات للخير ،
ولاستبقائه بين الناس مهما اظلمت الدنيا من حولهم
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَيَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٢)
﴿ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْقِدُونَ ﴾^(٣)

المتأمن في كتاب الله يجد الحق - سبحانه وتعالى - لم يجعل
القرآن أبواناً مفصلة ، هد للصلاة ، وهذا للركاء ، وهذا للزنا ، إلخ
إنما يخطط هذه الأحكام في سق رائع ومريج مشوّق ، يراوح بين
الأساليب ، فلا يملّ عنه قارئه ، ولا يزهّد فيه

القرآن ليس كتاب قانون ، يفرد فصلاً لكل جريمة إنما يتناول

(١) قال ابن حجر العسقلاني لا أعرفه ولكن معناه صحيح ذكره القاري في « الأسرار
المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطي في « الدرر المنتثرة » (٢٠) - والعمدوني في كشف
الحق (٤٧٦ ، ١)

الحريمة بأسوب فريد ، فيذكر الجريمة ويُفطعها ويبين أثرها ، حتى إذا ما قرر العقوبة عليها تجد هذه العقوبة طبيعية تتقبلها لنفوس ، لأن صاحب العقوبة يستحقها

يقول تعالى حكاية من الكافرين : ﴿ رِيقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ .. ﴾ [سبا] والوعد لا يكون إلا بالخير ، ولوعد يكون بالشر ، وعصب أن نسمى لكفر العقامة وعداً فكان ينبغي أن يقولوا متى هذا الوعد . أو أن الله تعالى لوى السببهم ليقولوا كلمة الحق ، فهو بالفعل وعد حق من الله ، وإن كان في حقهم وعيداً .

والوعد من الله فيه أشياء كثيرة خاتمة البعث والحساب ، ثم الحنة أو النار لكن هل وعد الله لا يتحقق إلا في الآخرة ؟ قالوا لا بل يروى شيئاً منه في الدنيا ، وإلا لو تركهم الله سالمين إلى أن يعاقبهم في الآخرة لاستشرى فسادهم ، ولعربد غير المؤمنين موت رادع لهم .

لذلك من حكمته تعالى أن يُعجلَ لهم شيئاً من وعده ، فيروونه في الدنيا . كما قال تعالى ﴿ سَهْزَمَ الْجَمْعَ وَيُوَلُّونَ الدِّبْرَ ﴾ [الفر] وفعلاً ، جاء يوم بدر وهرمهم الله وقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، فكما صدقت عليهم المقدمات ، فسوف تصدق المتوليات في الآخرة

لذلك يخاطب الحق ببه ﷺ بقوله ﴿ فَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي بَعْدَهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَأَلْبِنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر]

فمن لم يتحقق فيه وعد الله في الدنيا وتشهد به عينين فهو وعده الآخرة . وإلا فهناك من الكفار من مات قبل بدر ، وهم يشهدوا انتصارات المسلمين وفتوحاتهم ، وهم ينتلهم شيء من عقاب الدنيا

وقولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ (٢٩) ﴿[سبأ] استبطاء للعذاب

ثم يأمر الله تعالى نبيه أن يرد عليهم ﴿قُلْ لَكُمْ ميعادُ يومٍ لا تسأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ (٣٠) ﴿[سبأ] هو يوم لنصر عليهم كما هي يوم بدر ، حيث أضافهم الله الدله والهوان والموت ، وقصى على جبروتهم ، أو هو يوم القيمة .

والذى ضرب لكم هذا الميعاد هو القادر على إيفائه وليست هناك قوة تمنعه سبحانه أن يفي بما وعد أو حتى يؤخره لحظة واحدة ، وهو سبحانه لعليم بأن الآيات الكونية لا تشذ عما أراد سبحانه

وسبق أن بينا أن البشر حين يعدون لا يملكون أسباب الرفاء موعودهم ، لذلك علمنا ربنا - عز وجل - أن احتياط لذلك فقار سبحانه ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ [الكهف]

لأن الله يحب عبده أن يكون صادقاً محين يعلق فعله على مشيئة الله يعفى نفسه من الكذب وإخلاف الوعد حين عدم الوفاء خاصة ، وهو لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، إذن طرح المسألة على من يملك كل هذه لعناصر ، لذلك تسمى الوعد من انفس وَعْدًا ومن الله الوعد الحق يعنى - الذى لا يحلف أبداً

ومعنى ﴿لَا تَسْأَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٠) ﴿[سبأ] أنه ميعاد مضبوط ، وكان الحق سبحانه يريد بذلك أن يستقبل الإنسان كل المعطيات التى محه الله ، وأن تظل دائماً فى دمه لا يغفل عنها وجاء (يوم) نكرة مهمة ، والإبهام هنا هو عين السان - كما

سبق أن أوضحنا ، فحين يبهيم الله مثلاً أحل الإنسان يظل دائماً
مندكراً له ، ينتظره في أى وقت ، ويتوقعه في كل نفس ، وفي كل
لحظة دون أن يربطه بمرض أو غيره فالعوت من دون أسباب هو
السبب

ثم يقول الحق سبحانه (١)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَ تُؤْمِنُ بِهِدَا الْقُرْآنِ وَلَا
بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ
أَسْخَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أُنْتُمْ لَكُم مَّؤْمِنِينَ ﴾ (٢١)

قولهم ﴿ لِمَ تُؤْمِنُ بِهِدَا الْقُرْآنِ ﴾ (٢١) [سيا] يدل على لاجلهم
ففي موضع آخر حكى القرآن عنهم قوبهم ﴿ لَوْلَا بَرَأَ هَذَا الْقُرْآنُ
عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِيِّينَ عَظِيمٍ ﴾ (٢) [الحرع] ومعنى هذا أن القرآن لا
عُبار عليه ولا اعتراض الا عراض على من مرل عليه القرآن ، كذلك
من الغناء قولهم ﴿ إِنْ شِعَ الْهَدَى مَعَكَ تَحْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴾ (٥٧)
[القصر] فاعترفوا أنه حاء بالهدى .

ومثله قوبهم ﴿ لَا تُعْقُوا عَلَى مِنْ عَبْدِ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴾ (٧) [الماعقون]

(١) يريد كفار قريش وقال ابن جرير لماثل ذلك هو أبو جهل بن هشام ذكره القرطبي في
تفسيره (٥٥٧١، ٨)
(٢) قال القرطبي في تفسير الأما (٥٥٧١، ٨) : قيل إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفه
محمد في كتابه لمسهوه فلف سألوه فوفل هل الكتاب قال المشركون إن نؤمن بهذا
القر ، ولا بالذي سراً قبله من أنشور والإمجيل بن مكر باجمع وكبوا قبل ذلك يدعون
أهل الكتاب وسحبون قوبهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلة عنهم

صحيح ، الباطل بجلج ، يتخط هذا وهناك في تفكير مشوش ليس له سبيل واحد وهذا النحيط يكشف ما هم عليه من الباطل ، وقلنا إن المحقق الماهر هو الذي يصل إلى حقيقة من خلال مناقشة لمتهم مناقشة توفعه دور أن يدري ، ذلك لأن امتكلم بالحق يحكى واقعاً على هيئة وحدة فمهما أعدت عليه السؤال يجب إجابته واحدة

أما لكاذب فلا يحكى واسعاً ، إنما يحكى كذباً وأخلاقاً لا بد أن ينتهي بتضارب في أقواله ، كالكذاب الذي جاء يحكى للناس يقول رحعت من (البندر) ليلة لعيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ظهر) وقديماً ، قال العربي إن كنت كاذباً مكن دكوراً يعني تذكر ما سبق أن قلته ، ذلك لأنه لا يستند إلى واقع ،

ومعنى ﴿ ولا بالذى بين يديه .. ﴾ (٣١) [سأ] يعني الكتب السابقة على القرآن كالطورا والإجيل

بعد أن قالوا هذا الكلام أراد الحق سبحانه أن يقطع الرد عليهم فقال ﴿ رلوا برى . ﴾ (٣٢) [سأ] يعني يا محمد ﴿ إا الضالمون موقوفون عند ربهم .. ﴾ (٣١) [سأ] يعني بين يدي الله ينتظرون الفصل والحساب ،

تعلمون أن (لو) أداة شرط تحتاج إلى جواب هذا الجواب حذف من سبيلو الآلة ليدل على التهرب واستطيع وتقديره ولو ترى إا الضالمون موقوفون عند ربهم لرأيت امراً عظيماً ، وهذا الأسلوب تذهب فيه النفس كل مذهب وتتصور ألوان إعداب وأسلة التي يعانها الكفار في هذا الموقف بين يدي الله عز وجل ، فحذف الجواب هنا أبلغ من ذكره .

كما نرى (رمان) الرجل الظالم أو المتجبر أو (الباطي) الذي يجلس طوال النهار على القهوة ، والناس تخدمه ، ونقصى له حاجه اتقاء شره ، لكن ساعة يقع فى ايدى العداة وتاحده لشرطة ، وأنتم تعلمون ما تفعله الشرطه بالمجرمين ، ساعتها يفرح الناس فيه ويتندرون به لو رأيتم ما حدث لفلان * يعنى حدث له أمر عظيم يناقص جبروته الذى كان يمارسه على الناس ويكسر شوكرته

إذن حُدف الجواب لناخذُه نحن على المحمل المخيف ، لأنه لو حكى واقعاً لجاء على لون واحد وهيئة واحدة

لذلك وقف المستشرقون مستترضين على قوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم ﴿ طُلُعْهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٤] يقولون نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رؤوس الشياطين ، فكيف يُشبه القرآن مجهولاً بمجهول ؟

نعم ، ينبغى فى التشبيه أن تُشبه المصهور بالمعلوم ، والحصى بالحلى ، لكن هؤلاء يحاولون تصيدُ أخطاء أو مآخذ على كتاب الله ، وهيئات لهم ذلك ، وكل عنراضاتهم على كلام الله نأتى من عدم فهمُ للآيات وعدم وحود الملكة العربية وعدم الإلمام بلغة القرآن وأساليب العرب ، فهذا اسهب فى التشبيه نهجه العربى لقديم حين قال^(١)

(١) **طلع** دور المحنة الذى هو أصل ثماره ويكون صغير الحجم أبصر مضطرب مبصراً [قاموس القديم (٤٠٥/١)] قال ابن كثير فى تفسيره (١٠/٤) : هذا يشيع لها وتكره لذكرها قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قشعه إلى السماء ، وإنما شبهها برؤوس الشياطين لأن قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبسة المنظر .

(٢) هو مرو تقيس من حجرين الحارث الكندي : شعر حافى أشهر شعراء العرب يدعى الأصمى مولده بعد عام ١٣٠ ق هـ . كان أبوه ملك لفسد وعطافان ، قال الشعر وهو غلام جعل شبيب ويدهو ويعاشر صفالك العرب فأبغضه أبوه إلى حضرموت وهو فى نحو العشرين من عمره ، طام قبائل العرب بعد أن طلبه المنذر ملك العراق ، حتى ولاء قيس الروم إمارة فلسطين ، فرحل إليها ، ولما كان بأبغره ظهرت فى جسمه قروح فأقام فيها إلى أن مات عام ٨٠ ق هـ ع ٥٠٠ عام [الموسوعة الشعرية المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD]

أَيَقْتُلْنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُصَاحِبِي وَمُسْتَوْدَعُ رُؤُوسِ كَأْسَابِ أَعْوَالٍ^(١)

هكذا رأى العربي القديم أن أسنة الإرماع كأياب الأعيال فهل رأى أحد الغول ؟ إذن القرآن عربي وحاطب العرب بأساليبهم ، فكفى بتشيع الصررة أن تحاول أتت أن تتخيل صورة الغول أو صورة أشيطان تذهب نفسك في شاعتها مذاهب شتى مخيفه مُفْرَعَة ، بدليل أننا إذا قلنا لرسامي الكاريكاتير في العالم كله ارسموا لنا صورة اشيطان ، فسوف يرسمها كل واحد منهم حسب رؤيته هو ، وستأتي صور مختلفه بعضها عن بعض ، لأن أحدا منهم لم يرَ الشيطان ، إنما تخيله

تُرى لو حدد القرآن شكل شجرة الزقوم وقال لك إنها مثل كذا أو كذا ، أعطيك هذا التشبيه بشاعة أكثر مما أعطتك رؤوس الشياطين ؟ هكذا ربّ الحق سبحانه هذا المعنى .

ثم تستمر الآية في وصف موقف هؤلاء الصالحين بين يد الله تعالى ، ويا ينتها تنتهي عند الذلة والانتكسار إما ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلِ ﴾^(٢) [إسا] يعنى يتجادلون ويتناقشون ، يرمى كل منهم باللائمة على الآخر ، ومعنى (يرجع) من المراجعة ، فواحد يقول ، والآخر يرد كلامه وينكره ، وفي القرآن موضع كثيرة تحكى هذه المرحلة بين الاتباع والمتبوعين ، وهذا نموذج منها

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْضَعُفُوا ﴾^(٣) [سبأ] يعنى الضعفاء والمقبدين ﴿لَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾^(٤) [إسا] وهم السادة الكبار المتوعدون ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُرْمِينَ ﴾^(٥) [إسا] فكفى من عصمة القيامة أن يقف المستضعف

(١) قبيل من بحر النويل ذكره له ابن سلام المسمى في - طبعات محول الشعراء

وياقوت الحموى في - معجم الأراء ،

أمام القوى ويراحه ويواحه - مع أن كلاهما حائبي خسر ذلك
لأن الصعف كان في الدنيا والاستكبار والتبعية 'ما الآن وحي
ساحة الحساب فقد تساوت الرؤوس ، وها هم الصعفاء يقولون
لأسيدهم ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُّزْمِنِينَ﴾ (٣١) [سبأ]

وما دامت المسألة مراجعة ، كُلُّ يُرْجَع إِلَى الْآخِرِ قَوْلُهُ ، فَلَا بُدَّ
أَنْ يَرِدَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ، وَأَنْ يَرَاخُوا الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا
ثم يقول الحق سبحانه

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَمْ نَحْنُ صُكَّدٌ لَكُمْ
عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِبَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢)

يرد الدين استكبروا ﴿أَمْ نَحْنُ صُكَّدٌ لَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِبَلْ كُنتُمْ
مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) [سبأ] يعنى ما منعناكم عن الهدى ، وما حَلَّنا بينكم
وبين الإصرار ﴿بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) [سبأ] يعنى بطيئيتكم ، فقد
وجدتم طريقا سهلا ، وعسانا لا تكليف فيها ولا مسئولية ، ليس
فيها صوم ولا صلاة ولا زكاة ، ولو فكرتم وأعملتم عقولكم ما
تبعتموها .

وهذا هو نفسه منطق الشيطان حين يناقش أوليائه يوم القيامة ،
ويقول بهم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
تَلُومُونِي وَلَوْعَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنْ يَصْرَحَكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ (٣٢) [إبراهيم]

العمل أصرخ يصرح فهو مُصْرَح اسم فاعل للذى بصرح
ويستحير بغيره لينقذه من أمر فوق طاقته وإمكاناته ، فإن أنقذه

نُقال أصرحه يعنى أزال صراخه والمفعول منه مُصرَح به ،
والمعنى فى قول الشيطان إنى لا أستطيع أن أزيل صراخكم وأنتم
لا تستطيعون أن تزيلوا صراخى ، فالمسألة انتهت ، ولا ينفع أحداً
ولا يقدره إلا عمله الصالح

ثم يردُّ الدين استصعِفوا ويُرجِعون القول إلى الدين استكبروا مرة
أخرى ، يقولون

﴿وَقَالَ الَّذِينَ

أَسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَغْنَايَ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يُحَرِّونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا استمرار فى المراجعة والحوار ، كُلُّ يلغى بالمستولية على
الأحرار بلما اتهموهم بالإحرام ، وأنهم اساقوا حلهم طمعاً فى تدين
خفيف لا تكاليف فيه ، ولا منهج يقيد شهواتهم ردَّ المستضعفون
﴿بل مكر الليل والنهار﴾ [سب] يعنى المكر الذى ينشأ فى الليل ،
والمكر الذى ينشأ فى النهار ، حيث قصيم الليل والنهار تلحون علينا
وتلعنون فى أداننا حتى أتبعنكم

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٥٧٣/٨) « أسروا الندامة أى أظهروها وسر من
الأصناد مكن بعض الإخفاء والإنداء وقيل أى ثبتت الندامة فى أسرار وجوههم
وقيل الندامة لا تظهر ، وإنما تكون فى القلب ، وإنما يظهر ما سرى عنها

﴿ذُتَامُرُونَ أَنْ يَكْفُرَ بِاللَّهِ وَيَجْعَلَ لَهُ إِندَادًا﴾ [سبأ] يعصى
 شركاء ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ] فالتدامة تعتصرهم ،
 ومع ذلك لا يجهرون بها ولا يُبدونها حتى لا يشمت بهم الآخرون ،
 وفُتِرُقَ مير أن يندم الإنسان وسين أن نُكْحِتَه الظروف لأن يعلى
 الدم +

ثم يقول سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ] الاغلال القيود ، ومعنى ﴿هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ] تنبيه للمؤمنين الذين يسمعون هذا الكلام وهذا
 الجزاء إياكم أن تأخذكم بهؤلاء رقة على حالهم في الآخرة ، وانظروا
 إلى م فعلوه في الدنيا من إجرام ، لتعلموا أن الله تعالى عادل لا يظلم
 الناس ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون

ومثال ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
 يَصْحَكُونَ﴾ (٢٩) [المطعفين] إلى أن قال سبحانه ﴿هَلْ تُؤْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ﴾ (٣٦) [المطعفين]

ذلك لأن الجريمة حين ينتهى وقتها وتهدأ آثاره يسي الناس
 بشاعنها ، ولا يذكرون إلا مشاعة العقاب عليها ، أو برق المجرم فلوب
 لذين لم يشهدوا حريمته ، لذلك يُدْكَرُما الحق سبحانه بعدله ، وأن هـ
 لجزاء جزاء وعاق ، فلا تأخذكم بالمجرمين راعة ، ولا ترجموهم في
 هذا الموقف المحررى الذليل ، وصَعَوْا عقوبتهم أمام حرمتهم يوم
 كَذَّبُوا الرسل

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٤)

نلاحظ في هذه الآية أنها ذكرت النذارة ، ولم تذكر البشارة ،
لماذا ؟ قالوا لأن الحديث عن قرية استشرى فيها الفساد بحيث لم
يُعد لها إلا لنذارة فهؤلاء قوم كذبوا الرسر ، ووقعوا من الدعوة
موقف العداء والمكابرة أما البشارة فتكون في عموم لدعوة ،
والحديث هنا عن دعوة خاصة بهؤلاء المكذبين .

ومعنى ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ (٣٤) [سبا] أى في أهل قرية ، والقرية اسم
لمكان ، أو أن الله سبحانه جاء بالمكان وإن كان يريد المكين ، لأن
المكان كمجماد مُسْنَج لله ، فيفرح بالمؤمن المسبَّح فيه ، ويحزن
ويصيق بالكافر الذى يقيم فيه ، لذلك يقول العربى القديم فلان لنا
به المكان يعنى المكان كرهه ، ولما قالوا لرجل حكيم أدريت أن
فلاناً باع أرضه ؟ قال بل باعته أرضه

وقوله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ (٣٤) [سبا] جمع مُتْرَفٍ وترف تترف أى
تنعم أما أترف فعنى أن السعرة أطفته وفتنته ، فالحق سبحانه
لم يمنع عنه أن يتمتع بنعمه ، المهم ألا تُطغيه النعمة

وقد يكون الترف واستنعم استندراجاً من الله لعبه ، وملاء له ،
ومدك له فى النعمة حتى يطغى بها ، وتأمل مثلاً قول الله تعالى

(١) قال قتادة متترفوه هم جباريهم ورووسهم وأشراهم وقادهم فى الشر ، أخرجه
عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور
(٧٠٤/٦)

﴿ فَلَمَّا سَأَلْنَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَحَتَّنَا عَلَيْهِمْ ﴾ (٤٤) [الاعمال] ولم يقل لهم يعنى ليس هذا الفتح من صالحهم مع انه فى طاهره نعمة ﴿ أَوْبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ (٤٥) [الاعمال] وتعودوا النعمة وألقوها ﴿ أَحَدُهُمْ بَعَثَ ﴾ (٤٦) [الاعمال]

لذلك ، ليس من الصواب قولك لأخيك فتح الله عليك والصواب فتح الله لك واقرأ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح] ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ بِهَا .. ﴾ (٢) [فاطر]

وحكوا لد عن سياسى كبير كن له حصم فهو حثوا بأنه أصدر قراراً بترقية هذا الحصم إلى منصب كبير فتعجبوا كيف يرقى خصمه ؟ فقال أرفعه إلى منزلة عالية ، حتى إذا سقط منها كان لسقوط مؤلماً ، وسبق أن قلد إذا أردت أن تُوقع عدوك لا توقعه من فوق الحصيرة مثلاً .

ومن الاستدراج بالنعمة والترغى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً مَرْبًى مَتْرَفِيهَا فَهَشَرْنَا فِيهَا فَخْرًا عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فَنَدِمُوا ﴾ (١٦) [الأنعام] البعض يخطيء فهم هذه الآية ويقول ﴿ أَمْرًا مَتْرَفِيهَا فَهَشَرْنَا فِيهَا ﴾ (١٧) [الأنعام] أن الفسق مترتب على الأمر والله سبحانه لا يأمر بالفسق ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعبادة ، كما قال سبحانه ﴿ وَمَا أَمُرُّوهُ إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (٢٠) [البقرة] وقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (١٩) [البقرة] فالمعنى أمراً مَتْرَفِيهَا بما يأمر الله به مما كان منهم إلا أن فسقوا فيها أى فسقوا فى الأمر ، إذن الفسق ليس مترتباً على الأمر ، وإنما على مخالفة الأمر

الحق سبحانه وتعالى حين يعرض قصيدة لترغى والإتلاف يقول 'نا أبعثت على عبادى نعمةً سيعمرون بها ، إنما كنت أرید رُ

يستقبلوا هذه النعم بالشكر ، وأن يُعدوا العمة إلى غير المعتمين ليحصل في لمجتمع المسلم التكافل الاجتماعي المطلوب ، لينزع هذا التكافل الغل والحقد من قلوب الفقراء على الأغنياء

فالعقير إذا رأى الغنى ينتفع بآثار النعمة ، ويتمتع بها دونه يحقد عليه ويتمنى زوال نعمته ، فإن ناله منها شيء أحب الغنى ، وسأل الله له المزيد ، هذا من ناحية الفقير

أما من ناحية الغنى فالحق سبحانه يعلم أن الإنسان عمة مطروح على النفع لذاته وحب الخير لها ، لذلك عمله الحق سبحانه بهذا المطلق ، مطلق النفع حين يعطيه جزاء ما أنفق ، ويثيبه على ما يقدر من الخير ، قال له الحسنة عشر أمثالها ، غص طرفه عن المحارم في الدنيا أمتعك بالخور العين يوم القيامة الخ

لذلك يقولون إن التدين نفعية عالية ، فأت مثلاً ما أثرت الفقير على نفسك ، وما أعطيت ما هي حبيبتك إلا لأنك تريد من الله تعالى أصعاف ما أعطيت إذن أنت حتى في تجارتك مع الله تحب النفع لنفسك

والحق سبحانه يعطى الغنى وصاحب الهمة العاليه الذى يكدر ويتعب ويكور الثروة ، يعطيه حقه ، ويحترم جهده وعرقه ، ويحترم مشاعره النفعية ، فحين يسأله يسأله جزءاً من ماله ، لا ماله كله واقراً قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَرْمِثُوا وَتَتَّقُوا يَرْزُقْكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ (٢١) إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِيهَا فَيَكْثُمْ تَحَلُّوا بِهِمْ حَتَّى يُخْرِجَ أَصْفَانَكُمْ ﴾ (٣٧) [محمد]

(١) يحثكم يلح عليكم ويكثر ويلج في الطلب والسؤال وقال قتادة علم الله في مسألة أموال حروج الأصفار ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر فسأله أورده سيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٥٠)

وَيُحِبُّهُمْ فِي الْإِنْفَاقِ نَفْسُ هَذَا الْمَبْطُوقِ ﴿هَآأَنُكُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ
تُتَفَقَّهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّكُمْ مَنْ يَحِلُّ وَمَنْ يَحِلُّ فَإِنَّمَا يَحِلُّ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ
الْعَنَى وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ۖ﴾ (٣٨) [مصدر]

إذن مسألة الإنفاق هذه تُخرج ضيق الغنى، كما أخرجت صغر
الفقر، فهي تحدث استطرافاً إيمانياً، واستطرافاً اقتصادياً في
المجتمع، فصاحب المال يحمّد الله على النعمة ولا ييحل بها على
الفقر، والفقر يحمّد الله أن جعل النعمة في يد من يحود بها عليه،
وهكذا يحدث التوازن في المجتمع

يُحَدِّثُ لِي مَا كُنَّا بِصَدَدِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ
نَّذِيرٍ إِلَّا فَإِذَا مَثَرُوا بِهَا إِنَّا بِنَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٩) [سبأ] لماذا أنتم
كافرون بما جاء به الرسل ؟

الحق تبارك وتعالى - يريد من العباد ألا يستعنى قوى على
ضعيف، وألا يستعنى على على فقير، وألا يستعنى عالم على
جاهل، إنما يريد أن يعمّ الخير، فمن كانت عنده حصيلة من حاصل
الخير عبأها إلى غيره

أما هؤلاء فقد احتاروا الكفر، واطمانوا إليه لأن النعمة أطمعهم
واترفعتهم، مماثروا إلى البديع وإلى استئصالهم حتى عشتوا هذا كله، فلما
جاء الدين ليُعدّل من سنوكتهم صادموه، وحاولوا طمسه وانقصاء على
دعوتهم، لأنهم ألقوا السبادة وألقوا الصعيان، ولا يريدون أن تُسلب
منهم هذه السيادة وإلا لو أن العالم كان مستقيماً متوازناً ما كانت
هناك حاجة للرسل، إذن ما جاء رسول إلا بعد أن عمّ الفساد وطمّ

(١) الصُّعْنُ الحقد والعداوة والبغضاء والجمع الصُّعْنُ وكذلك الصُّعْبُ وجميع الضعائ
(لسان العرب مادة صغن)

وسبق أن قلنا إن الحق سبحانه خلق في النفس الإنسانية مناعة
بماية بتيحة الفطرة الأوية ، لكن الشهوات وتقليد الظالمين تطمس
هذه الفطرة ، فتحتاج إلى مُدَكِّر يعيدها إلى طبيعتها وافطرة التي
خلقها الله ، لذلك قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُدَكِّرٌ ﴾ [العنكبوت] يعني
ليس نادئاً

والحق سبحانه يُبين أن الناس عام الخير والشر أنواع ثلاثة ،
فقال الحق سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ دِينَكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ ﴾ [مائدة]

فالظالم لنفسه هو الذي يفعل السيئة ولا يلزم نفسه ، ولا يندم
على سيئته ، ولا يتوب منها ، فهو يظلم نفسه ، لأنه يحرمها الجزاء
والبعيم الأبدى والمقتصد هو الذي يردد بين الحسنة والسيئة ، فإن
فعل سيئة تذكر ولا م بعنه وثاب ، ثم يفعل احسنة لتكفر السيئة ،
وهؤلاء قال الله فيهم

﴿ حَاطُوا أَعْمَالًا صَالِحًا وَأَخْرَسْنَا عَنْهُمْ أَلْسِنَهُمْ لِيُظْهَرُ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ سُبُلٍ خَلْقَةٍ
عُتُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنبياء]

وقوله سبحانه ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الأنبياء]
[ماطر] يُراد به أمة محمد ﷺ لأن الميراث يعنى أن الموروث يستقل
من اسبق إلى اللاحق فامة محمد ورثت ابرسل جميعاً في كل
أمورهم الخيرية ، وتكفلت بأن تردع الشر في كل نواحيه ، وبذلك
ورثوا الرسالات كلها ، لانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،
كما قال سبحانه ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُلُ عَلَيْكُمْ شُهَدَاءً﴾ (١٣٣) [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلغكم ، وأنتم تشهدون أنكم بلغتم من بعكم ،
رسولكم فوضه الله في أن يشرع لكم ، وموصكم باسم في أن تحموا
منه من بعده ، لذلك انقطعت الرسالات بعده ﷺ ، لأن أمته ستقوم
بمهمة الرسالة وهذا دليل على أنها أمة الحيرية فيها ناقية إلى قيام
الساعة

وقولهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (١٣٤) [سبا] بم أرسل الرسل
أرسلوا أولاً بفصحه لتوحيد وأنه لا إله إلا الله ، أرسلوا بالإنقاذ عن
الله ، أرسلوا بمعجزات ، أرسلوا بأحكام ومناهج تحكم حركة الحياة
هؤلاء كفروا بهذا كله لأنهم يريدون أن يعيشوا في ترفهم وظلمهم ،
وأن يستندوا كما يشاقون

لكن قوبهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ (١٣٥) [سبا] دل على عبثهم لأنهم لم
يقولوا مثلاً بما جئتم به أو ما ادعيتموه إنما ما أرسلتم به ، فهم
يعترفون بأنهم مرسلون ، فهذه كلمة الحق ساقها الله على ألسنتهم ،
كما ساقه على ألسنتهم في قولهم ﴿لَا تَقْفُوا عَلَى مَنْ عَدَّ رَسُولَ اللَّهِ
(١٣٦)﴾ [الأنعام] وقولهم لما عثر الرحي عن رسول الله إن رب محمد
قلاه

إس هم يعترفون لرسول الله بالرسالة ، والمرسل لا يرسل من
مثله ، إنما من جهة أعلى ، فالرسالة ليست من عند محمد ﷺ قل لو
شاء الله ما تلوثه عليكم ولا أدراككم به فعد لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون

(١) عن جليل من عند الله البجلي أنه قال أيضاً حمزول على رسول الله ﷺ فقال المشركون
ودع محمداً رباً ، أورده ابن كثير في تفسيره (١/٢٢٢)

(١٦) ﴿يُوسَى﴾ لَكِنْ ، مَا عِلَّةُ هَذَا الْكُفْرِ ؟

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٥)

قننا إِنْ ائْتَيْنَا بِإِنْمَاءٍ لِيُحَدِّثَ تَوَارِثًا فِي الْمَجْتَمَعِ وَاسْتَطْرَاقًا
عَقْدًا وَقَتَصَادًا وَاحْتِمَاعًا ، فَمِنْ صَوْنِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالرَّسْلِ أَنَّهُمْ
لَيْسُوا فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذَا كُلِّهِ فَعِنْدَهُمُ الْمَالُ وَالْأَوْلَادُ ، وَعِنْدَهُمْ كُلُّ
مَنْحِ الْحَيَاةِ .

﴿وَقَالُوا﴾ (٣٥) ﴿[سَيَا] أَيْ فِي حَيَاثَاتِ كُفْرِهِمْ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا
وَأَوْلَادًا﴾ (٣٥) ﴿[سَيَا] بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ يَأْخُذُهُمْ غُرُورُهُمْ إِلَى أَنْ يَقُولُوا
﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٥) [سَيَا] لِمَاذَا ؟ يَقُولُونَ لِأَنَّ اللَّهَ مَا كَانَ
لِيُعْطِيَنَا هَذَا الْعَلِيمَ فِي الدُّنْيَا ، وَيَصْنَعُ عَلَيْنَا فِي الْآخِرَةِ

لَكِنْ نَقُولُ لَهُمْ أَنْتُمْ وَأَمْمُورُكُمْ فَفَرَّقْ بَيْنَ عَطَاءِ الْإِلَهِيةِ وَعَطَاءِ
الرَّبُّوبِيَةِ اللَّهُ نَعَالِي أَعْطَاكُمْ مَعْطَاءَ الرَّبُّوبِيَةِ الَّتِي يَشْمَلُ الْحَمِيمُ الْمُؤْمِنُ
وَالْكَافِرُ وَالطَّائِعُ وَالْعَاصِي ، أَمَّا عَطَاءُ الْإِلَهِيةِ فَمُتَكَلِّفٌ ، فَاللَّهُ يُعْطِيكُمْ
فِي الدُّنْيَا مَعْطَاءَ الرَّبُّوبِيَةِ ، وَيُعَاقِبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِمَقْتَضَى الْإِلَهِيةِ

وَعِنْدَهُ الْحَشِيَّةُ مِنْهُمْ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ (٣٥) ﴿[سَيَا] حُجَّةُ
عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ ، فَهَلْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا لَحِيرٌ ؟ ثُمَّ إِنَّ كَثْرَةَ الْأَمْوَالِ كَانَتْ
يَجِبُ أَنْ تُحْمَلَكُمْ عَلَى نَوَاحِي لَحِيرٍ وَكَثْرَةُ الْأَوْلَادِ كَانَتْ تَنْبَغِي أَنْ
تُحْمَلُوا مِنْهُمْ (عُرْوَةٌ) نَكْمٌ عَلَى الْحَقِّ إِذْ كَفَرْتُمْ بِعَدَدِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ
بَلِيلٌ عَلَى أَنْكُمْ اسْتَعْدَمْتُمُوهَا فِي أَسَاطِيرِ وَمِي لَظْمٍ وَالضَّعْيَالِ

وَمَا تُشَبِّهُ قَوْلَهُمْ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٥) ﴿[سَيَا] نَقُولُ صَاحِبُ

الجنة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ نَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُقَبَّلًا﴾ [الكهف: ٢٦] وهذا ينظر بنعمة الله وغرور بها ، فليس بين الله تعالى وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب ، لينعم في الدنيا وينعم في الآخرة بلا عمل ، فهؤلاء فتنهم المال ، وفتنتهم الدنية ، لذلك يقول سبحانه محذراً ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَرْوَاجُكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]

والحمد لله أنه قال (من) ، فهي تفيد التبعيض ، يعني ما يزال في بعض الأرواح وفي بعض الأولاد عنصر الحير موحود ثم يقول الحق سبحانه

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سج: ٣٦]

أي (قُلْ) رباً عليهم في أعبارهم بكثرة الأموال والأولاد ﴿إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سج: ٣٦] يسبسط يوسع الرزق بكرمه ، ويقدر يعني مصيقه على من يشاء بحكمته تعالى والرزق لارمة من لوازم الربوبية التي خلقت ، والتي استدعت الإنسان لوجوده ، فلا بد أن تضمن له مقومات حياته

لكن الرزق سبحانه لا يرزق الناس جميعاً (بمستورة) يعني بالتساوي ، لأن الله تعالى يريد أن تكون المجتمعات متعاونة متكافلة ، ولو أن كل إنسان كان عنده ما يكفيه ما احتاج أحد إلى أحد ، وما حدث في المجتمع هذا الرابط وهذا الاتصال الجماعي وسبق أن أوضحنا أن نوايط المجتمع لا بد أن يكون برابط

حاجة ، لا تراطِبْ تَعْضُرُ ، فلو عرِصَبْ أُنَا حَمِيعًا تَحْرُحُنَا فِي الْحَامِيعَةِ ،
أَوْ أَحَدُنَا السَّكُتُورَةَ ، فَمَنْ (يَكْسُ) الشَّوَارِعَ ، وَمَنْ يَمَسِّحُ الْأَحَدِيَّةَ ،
لَوْ جَعَلْنَا هَذِهِ الْأَعْمَالَ تَفَضُّلاً مِنْ بَعْضِنَا مَا قَبِلَهَا أَحَدٌ

وَقُلْنَا إِنْ الرَّجُلَ الْمُتَعَجِّزُ أَوْ الْمُتَكَبِّرُ أَوْ الْبَاشَا لَوْ عَدَّ إِلَى بَيْتِهِ
فَوَحْدَهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً فَسَالُ فَقَالُوا اإِمْجَارِي بِهَا كَذَا وَكَذَا لَا شَكَّ
أَنَّهُ لَنْ يَهْدَأَ بِهِ نَالٌ حَتَّى يَنْسَهِيَ هَذِهِ الْمَشْكَلَةَ وَرَبَّمَا رَكِبَ سَيَرَتَهُ ،
وَذَهَبَ بِنَفْسِهِ إِلَى السَّيَالِ لِيُخْلَصَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ

بِقَوْلِ قِي هَذِهِ الْحَالَةَ إِنْ السَّيَالُ فَاضِلٌ عَلَى الْبَاشَا فِي هَذَا
الْوَقْتِ ، لِأَنَّهُ أَعْطَاهُ فَدْرَةَ عَلَى نَفْسِهِ لَا يَمْلِكُهَا الْبَاشَا أَوْ حَامِسُ
الدَّكْتُورَةِ وَهَذَا السَّيَالُ مَا تَحْمِلُ مِثْلَ هَذَا الْعَمَلِ إِلَّا لِحَاحِيهِ إِيَّاهُ وَإِلَّا
مَا قَبِلَهُ

لِذَلِكَ أَحْسَنَ الشَّاعِرُ^(١) حِينَ قَالَ

إِنْسَاسٌ لِلنَّاسِ مِنْ بَذْوٍ وَحَاصِرَةٍ

بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا حَدمٌ^(٢)

وهذه الخدمة تقوم على التداول ، فالحق سبحانه لم يجعل ذرية
كلها حادمة ، وذرية محدومة ، إنما أتى خدام في شيء ومخدوم في
شيء آخر ، وهكذا كلما خدام ، وكلهم محدوم ، ليعلم الإنسان أيًا كان

(١) الشاعر هو أبو العلاء المعري ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التتويحي ، شاعر

وبيلسوف ولد عام (٣٦٣ هـ) ومات عام (٤٤٩ هـ) في معرة النعمان عن ٨٦ عاماً

عمى في السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو بين إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام

الحبوب ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة أشهر كتبه : رسالة العفران ،

[الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافي ٢٠٠٢ CD] - العصر العاطفي

(٢) لفظ النيت كما هي الموسوعة الشعرية

والنبي مالدس من حصر ويأديه بعض لينص وإن لم يشعروا حدم

والقصيدة من بحر السند

أنه ابن أخير ، وأن سيادته ليست ذاتية فيه ، فإن كان هو الأعلى عليه أن يُقدَّر هذا العلو ويعمل له ليظل على علوه ، فإن رأى لأدنى منه فلا يحقره ، بل يُقدَّر له مهمته في خدمته وأنه سيحتاج إليه في يوم ما في عمل لا يقدر هو عليه .

بذلك يقول تعالى ﴿ وَلِلَّهِ فَصْلُ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ (٧) [الفجر] كثيرون يظنون أن الرزق هو المال ، إنما الرزق كلمة عامة يُراد بها كل ما ينتفع به الإنسان ، والحق سبحانه فصل بعضنا على بعض في هذه الأشياء ، لكن أيُّ بعض فضل ؟ وأيُّ بعض فصل عليه ؟ أنت مُفصل فيما لك فيه موهبة ، ومفصل عليه فيما لا موهبة لك فيه ، وهكذا يتكاتف المجتمع ويتكامل ، ويرتبط ارتباطاً حادة لا ارتباطاً بفصل

وتأمل قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ (١٥) [الفجر] وشكراً ، وكبَّره الله خيرك أن تست الإكرام لربك ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (١٦) [الفجر] فيقول الحق (كلاً) يعنى أنت كذاب في هذا القول ، لأنَّ سخط لردق ليس دليلاً على التكرم ، ولا تصحيقه دليل إهانة وإلا كيف يكون سخط الرزق دليل التكرم ، والبأس فيما يُرزقون لا يكرمون به اليتيم ولا المسكين ، وياكلون التراث أكلاً لما

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ (١٧) ولا تعاضون على طعام لمسكين (١٨) وتأكلون التراث أكلاً لما (١٩) ونحوون المال جناً جما (٢٠) [الفجر]

إس على الإنسان أن يتأدب مع الله فبما صنع ، لأن الله يعلم كيف يرضى وهو سبحانه يريد أن يجعل من الناس أسوة طيِّباً ، فالعنى الذي اعتزى بعاله يُعفيه الله حتى يرى فيه الفقير المُعتزى

عليه ، يرى فيه عقاب الله ليعلم أن الله تعالى أبوهية ، والله تعالى
قيومية ، لا يفلت الظالم من عقابها في الدنيا قبل الآخرة وهذا
المعنى خاطب الله به نبيه فقال ﴿إِنَّمَا تُرِيدُ بِغَضَبٍ أَوْ
تَرْفِقٍ فَإِنَّا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

ثم إن مسألة الرزق لا يتوقف على مهاره ، أو شطاره ، أو علم ،
فهناك من سعى للرزق وررع واجتهد ، لكن عند الحصاد جاءته
جائحة اجتاحت زرعه فأهلكته ، وكان الحق سبحانه يقول لنا إياك
أن تفتن إلى ألومية الأسباب وتغفل أبوهية المسبب

والرزق مقسوم لصاحبه وإن حصه غيره ، فالجنين في بطن أمه
غداؤه من تكوينها ومن دمها ، لكن هذا الدم وإن حملته الأم ليس
رزقها ، بدليل أنه إذا حدث الحصر توافر هذا الدم لغذاء الجنين ، فإن
لم يحدث الحمل نزل منها هذا الدم في عملية الحيض ، ولم تنتفع به
الأم ، لماذا ؟ لأنه ليس رزقها هي ، وهذا يساعدنا في فهم قوله
تعالى ﴿يَحْيِ رِزْقَهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٣)﴾ [الاسراء]

لذلك قالوا ليس كل ما يملك رزقاً لك ، إنما رزقك ما انتفعت به ،
فالشيء يكون في ملكك وفي حوزتك تظن أنه لك ، ثم يصيب منك ،
أو يسرق أو يؤم أو تُصيبه جائحة إنخ بل أكثر من ذلك قد يكون
طعاماً وتأكله بالفعل ، ويمثل في حسمك دماً يجري في عروقك ، ثم
يسيل منك بسحب جرح ، أو عملية جراحه مثلاً إذن هذه الدم ليس
رزقاً لك

فالمؤمن يسعى أن يطمئن إلى عملية الرزق ويعلم أنها
بقيومية الله التي ترزق المؤمن والكافر ، وأن الرزق مقسوم لب ،
مُسَمًى باسمك ، فلا يأخذه غيرك مهما كان ، فإن نُسب لك فاحرص

الله ، وإن قُدِّرَ وصِّقَ عليهِ فاعلم أنها بحكمة الله ، وإفرا
﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (٢٧) [الحجر]
ثم تحتم الآية بقوله تعالى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٣٦)
[سبا] فبالكثرة لا يعلمون حكمة الله في تفاوت الأرزق ، وهذا يعنى
أن قلة منهم هم الذين يعلمون ، فاللهم اجعلنا من هذه الأقلية
ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا
مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ لِّصَّغِيرٍ بِمَا عَمِلُوا
وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (٣٧)

الكلام هنا موجه إلى الكفار الذين ظلموا بأموالهم وأولادهم
فمثل هذا المال ، ومثل هؤلاء الأولاد لا يكونون أسداً رلفى ، ولا قريبى
إلى الله ، لكن من استغل هذا في مرصاة الله وفي سبيل الله وفي
أرباب الخير فهو من أعظم القربات

الصال يتفق منه في نواحي الخير ، والأولاد يربون التربية
الصالحة ليكونوا أسوة خير في مجتمعهم لذلك ستثنى الله تعالى
فقال ﴿إلا من ءامن وعمل صالح﴾ (٣٧) [سبا] أى فيما أعطاه الله من
نعمة المال ومن نعمة الأولاد

﴿فأرسلت لهم جزاء اصغف بما عملوا﴾ (٣٧) [سبا] وهكذا فتح الله
الباب لنعمة حين تُسغل في مرصاة الله ، فليس كل الأموال ولا كل
الأولاد نعمة ، فالمال قد يجر صاحبه إلى الهلاك ، ويبقى به في النار ،
والأولاد الذين طنت أبهم بك عروه وقوه قد يغلب هذه العروة عليهِ

ورأينا كثيراً من الذين يبحثون عن هذه العروة في الباطل ، لكن يريد الله أن يدلهم بما هتوا ، يذهب الرجل مثلاً فيخطف لولده بنت أحد الأعيان ، أو الأغنياء ، أو أحد أصحاب المناصب ويفرح بهذا السبب ويقتصر به ، يكن أصمت أنك سترصي هذه البنت ، وأنتك لن تختلف معها في يوم من الأيام ، بذلك كثيراً ما تنقلب هذه العروة وهذا الحاد على صاحبنا فيدله الله من حيث طر هو العره والكرامه

وقوله تعالى ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ حِرَاءُ الضَّعْفِ ﴾ [سبا] لا يأتي الضعف إلا في حراء الحسنة ، أما لسنة فلا نُضعف إنما يكون الجراء بمثلها ، وهذا من رحمة الله تعالى بنا ، وقال ﴿ الضَّعْفِ ﴾ (٣٧) [سبا] ولم يقل الأصعاف ؛ لأن (الضعف) اسم حسن يصلح للقليل والكثير ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَالْعَصْرُ ﴾ (٦) إن الإسناد لفي خسر (٤) ؛ لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات (٣) ﴿ [العصر] مستثنى (الذين) وهي جمع من المفرد (الإنسان) لأنه اسم حسن

واضعف أي مصاعفة لحسنة أو مصاعفة اصدقة ، ومن معاني الضعف أنك إذا ورثت الأصل الذي أنفقته وحدته ضعفاً بالنسبة لما أخذت عليه من الجراء

ولست المصاعفة هي نهاية العطاء عند الله ، لأن الحديث النبوي الشريف أكمل هذه المسألة ، فقال ﷺ ، لحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف (١)

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الصيام - باب فصل الصيام) حديث رقم ١٦ وكذا ابن ماجه في سننه (١٦٢٨) . وحسنه من مسنده ، ٤٤٤ . ٥١٦ من حديث أبي هريره رضي الله عنه قال قال ﷺ : كل عمل منكم بمصاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما شاء الله .

فإنه تعالى يُضَاعَف لمن يشاء على قدر البيت في العطاء والبذل ،
فواحد يعطى وفي نفسه أنه أعطى وبدل من ماله ومن جهده ، وآخر
يعطى ويؤمن أنه مجرد مُنَاوِل عن الله ، فالمال عنده ما ل الله ، ولعطاء
من الله .

ومن صور العطاء ما تعلّمناه من لسيدة غاطمة ، فرُوى أن سيدنا
رسول الله دخل عليها فوجدتها تجلو درهما لها ، فسألها رسول الله
عنه فقالت : لأنى نويت أن أتصدق به ، وأنا أعلم أنه يقع في يد الله
قبل أن يقع في يد الفقير .

ثم إن المتمصدق بمجرد أن يُخرج الصدقة من يده تخرج قيمتها
من قلبه ، ولا يتتبعها ، ولا تتعلق نفسه بها ، أما حين يُقرض
قرضاً ، فإن نفسه لا تنساه ويتعلق به ، وكلما تحركت نفسه لطلب
لقرض صبر عليه ، فكان به الثواب على قرضه كلما صبر عليه

لذلك أثار المستشرقون صجة حول مسألة احراء على الصدقة
وعلى القرض ، وادعوا تصارب الآية والحديث في هذه المسألة ، ففي
الحديث قال ﷺ « مكنوب على باب الحنة الحسنة عشر أمثالها ،
والقرض بثمانية عشر »^(١)

والحق سبحانه يقول ﴿ من ذا الذي يقرض لله قرضاً حسناً فيضاعفه له
أضعافاً كثيرة ۖ ﴾ (٢٤) .

وبالجمع بين الاثنين يكون انقراض حين تضاعف بعشرين لا بثمانية
عشر ، والحمد لله فتح الله لنا ما أعلق من هذه المسألة بقلنا

(١) عن أبي أمامة صدى بن عجلان روى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « دخل رجل الجنة
يرأى مكتوباً على بابها الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبراني
والبيهقي كلاهما من رواية هبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمعدي ٣ / ٢٤)

لو أن رجلاً تصدّق بدينار مثلاً ، فأنه يجاريه الحسنة بعشر أمثالها ، لكن هل أعاد إليه الدينار الذي دفعه ؟ لا ، إنما ذهب الدينار مقابل العشرة ، إذن أحد في الواقع تسعة فحين تُضعف تساوي ثمانية عشر

يعود إلى قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبا] في مواضع كثيرة من كتاب الله يجمع الله بين الإيمان والعمل الصالح ، لماذا ؟ لأنهما جناحان لا يتم العنصر إلا بهما معاً ، فالعمل الصالح بلا إيمان هباء لا قيمة له كأعمال الكفار الخيرية التي يأخذون الحزاء عليها في الدنيا شهرةً وتكريماً وتخليداً لهم ، لكن لا نصيب لهم في ثواب الآخرة ، كذلك لا قيمة للإيمان إن لم تُترجم إلى عمل صالح

﴿فَأَوْثَنَكَ﴾ [سبا] أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ مُودَّ﴾ [سبا] الغرفات جمع غرفة ، وهي المكان الذي يُبنى عادةً أعلى البيت ، وتكون خاصة للاستقرار الدائمي ، لذلك مرى حتى الآن في بناء القبيلات مثلاً يجعلون الدور الأرضي للاستقلال العام وللطعام ، فإن أراد صاحب البيت أن يرتاح يصعد إلى الدور العلوي الذي جعل للاستقلالية والخصوصية

والإنسان خصوصيت ، حتى داخل بيته وبين أولاده ، فإذا كان صاحب البيت مثلاً في غرفته نومه فله الحرية أن يلبس ما يشاء ، أو حتى يجلس فيها عرياناً ، فإن أراد أن يخرج إلى الصلاة بهباً لها واربدي ملابس التي تناسبها ، فإن أراد أن يخرج إلى الشارع تهباً أيضاً له بما يناسبه من ملابس ، كذلك النادي ، أو مكان اجتماع القوم ، لكل زى خاص وسمت خاص

ولهذه الاستقلالية والخصوصية جعل الناس الآن غرفة للنسب ، وغرفة للبنات فإن لم تكن هناك سعة في المكان جعلوا سريراً للولد ، وسريراً للفتاة

فالحق سبحانه يحفظ لعبده قدره ، ويحفظ به هذه الخصوصية
وهي خصوصية أمة لا ينقص أمها فرع ﴿ وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ أُمُودٌ ﴾ (٣٧) ﴿
[سبا]

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي أَسْنِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ ﴾ (٣٨)

تقول سعى فلان بفلان عند السلطان ، يعني بوشاية
وبفساد وهؤلاء ساعدوا في آيات الله ليصروا الناس عنها ،
ويشغلهم عن سماعها

ومعنى ﴿ مُعْجِزِينَ ﴾ (٣٨) ﴿ [سبا] مفرد ما مُعْجِز ، والمعاجزة مفاعلة
يعنى واحد يعاجز الآخر أى يريد أن يُعجزه ، إس المعاجزة
معركة . يكن إياكم أن تطبوا أنها بين مؤمنين وكافرين أو بين
الرسول والمكذبين بهم ، لا إنما هي معركة عالية ، فاسين يعاجزون
يعاجزون الله في آياته بيسطوف ، ولصعدوا العقبات في طريقها ،
ومهما كان كيدهم قلن يعجزو الله ، ولن يُفتوا منه سبحانه ، كما قال
تعالى ﴿ رَلَوْ بَرَى إِدْفِرْعَوِا فِلَاقُوتِ وَأَعْدُوْا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (٤٠) ﴿ [سبا]

وهنا يقول ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ ﴾ (٣٨) ﴿ [سبا] ومعنى
مُخَصَّرُونَ أنهم يحضرون رغماً عنهم ، فهي اسم مفعول من حصر ،
فهم يُحْرُونَ وَيُشَدُّونَ كالمفصوص عليهم ومنها كلمة (مُخَصَّر) وهو
الذى يُحَصِّرُ المتهم رَغماً عنه

(١) المعجز من يحول أن يعجز غيره وأعجزه جعله عاجزاً عن نيته وأقلت منه فلم يقدر
عليه [القاموس القويم ٧/٢ هـ

ثم يقول سبحانه

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩)

قلنا بسط يعنى يُوسِّع ويعذر يعنى يُضيق ، وقد ورد هذا
المعنى قبل عدة آيات ، لكن هنا يضيف لفظة جديدة فيقول سبحانه
بعدها مباشرة ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩)
[سب] وكان الحق سبحانه يلغى أبطارنا إلى أن الحق حاسماً خَلَفَهُ
وعبادَه وهو قادر سبحانه أن يعطى الجميع وأن يُوسِّع على
الجميع ، لكن يريد أن يتحابَّ الخلق ، وأن يتكافل الناس لذلك وسع
على بعضهم ، وصَيَّقَ على بعضهم ، ثم أشار لمن وسَّع عليه ولَوْح
له بحرَاء الإيفاق ، لينفق على أخيه الذى ضَيَّقَ عليه .

وهذه الآية تعطينا محصاً لاقتصاد العالم كله ، لأن معنى
الاقتصاد مواءمة المصروفات بالواردات ، فالمصروفات لمصروف به ،
والواردات لوارد عليه إذن لا نُدَّ أن يكون فى المكان الواحد مثله
تعطى وفئة تأخذ ، لا نُدَّ أن يكون فيها فقراء وأغنياء ، لذلك الحق
سبحانه لم يترك بسطة المعنى هكذا حرة ، كذلك لم يترك فقير الفقير ،
بل جعل لهذا مَدَدًا ، ولهذا مصدراً

بعد أن أحسن سبحانه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ (٣٩) [سب] حكمها عقال ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ
(٣٩)﴾ [سب] فالحق سبحانه يرعى مدد النفقة لصاحب المال ويرعى

حب الاعتناء للمال ، لذلك يطمئنهم على أموالهم ، ويؤكدُ هو سبحانه بأنَّ يخلقها لهم .

والحق سبحانه بسط الرزق للأغنياء وهم يحبون المال ولكنه يقوِّر لهم إما أَحَلَّتْ على غنى فاتع ، يعنى إنَّ كان لك دينٌ عند فقير فأحالك بدينك إلى غنى قادر على السداد فتحوِّ ، لأنك لا تضمن متى سيؤسِّع الله على الفقير ليُسدِّد ما عليه

وهكذا طمأن الله الاعتناء بأنَّ أموالهم من تنقص بالإنفاق ، لأنها أُحيلت إلى الله وتكفل هو بالسداد

لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « يس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فألبست ، أو تصدقت فأفقت »

ولما أُهديت لرسول الله ﷺ شاة تصدقت بها السيدة عائشة . وأبقت لرسول الله كتفها ، لأنها تعلم أنه يحب الكتف ، فلم عاد رسول الله سألها ماذا صنعت بالشاة يا عائشة ؟ قالت ذهبت كلها إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيت كلها إلا كتفها »

لماذا ؟ لأنه مال تحول إلى ذمة الله وقد تعهد الله بأنَّ يُحلله . وما بالك رُ كان الإحلاف من الله القائل ﴿ وَرَدَّ حَبِيبُكُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَبُّوْهُ بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا ﴾ (٨٦) ﴿

١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/ ٢٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) كتاب الزهد ، والترمذي في سننه (٢٣٤٢) ومسنده . ولفظ الحديث عند مسلم : يقول ابن آدم مالي ، مالي ، قال وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفسدت ، أو لبست فأفنت ، أو تصدقت فأفنت .

٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/ ٦) والترمذي في سننه (٢٤٧) من حديث عائشة قال الترمذي حديث صحيح . ولفظ أحمد أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ يا رسول الله ما معنى إلا كتفها قال : « كلها قد بقي إلا كتفها »

وَأَنْتَ حَيِّتَ اللَّهُ فِي الْفَقِيرِ بِتَحِيَّةٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَرُدَّهَا لَكَ بِأَحْسَنِ
مِنْهَا ، بَلْ وَيُضَاعَفُهَا لَكَ أَصْعَافًا كَثِيرَةً بِمَا يَعُوقُ الْحَصْرَ وَالْعَدَّ ،
وَمَثَلًا لَدُنْكَ بِأَحَبِّةٍ يَزْرَعُهَا الْعِلَاحُ ، مَتَّعْطَى سَبْعِ سَنَابِلٍ ، فِي كُلِّ
سَبْعَةِ مِائَةِ حَبَّةٍ فَإِذَا كَانَ هَذَا عَطَاءَ الْأَرْضِ الْمَخْلُوقَةِ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَمَا
بِالْكَ بِعَطَاءِ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ ؟

فَقُوْبِهِ تَعَالَى ﴿فَهُوَ يُخَفِّفُهُ﴾ (٢٩) ﴿[سبَا] يَرِيدُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُطْمِئِنَّ
الْعَنَى بِأَنْ مَالَهُ لَنْ يَنْقُصَ وَيُطْمِئِنَّ لِفَقِيرٍ بِأَنَّهُ لَنْ يَنْحَطِّيَ عَنْهُ ، وَلَنْ
يَبْرُكَهُ لِلْفَقْرِ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ اقْتَرَضَ مِنْ أَجَلِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَرْضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (٣٠) ﴿[البقرة] فَإِنَّهُ يَقْتَرِضُ مِنَ الْخَلْقِ
لِلْخَلْقِ ، وَهُوَ قَادِرٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوسِّعَ عَلَى الْجَمِيعِ ، إِمَّا الْهَدَفُ أَنْ
يَتَعَاشَى النَّاسُ بِوَدَادٍ لِمَعُونَةٍ وَأَنْ يُحِبَّ الْغَنَى الْفَقِيرَ ، وَلَا يَحْقِدَ
الْفَقِيرُ عَلَى الْغَنَى

لَدُنْكَ تُحْمِلُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣١) ﴿[سبَا] قَالَ
سُبْحَانَهُ حَيْرُ الرَّازِقِينَ ، لِأَنَّ الرَّازِقَ كُلُّ مَنْ يَمُدُّ لَكَ يَدَهُ بِمَا تَنْتَفِعُ بِهِ ،
وَعَلَيْهِ فَأَنْتَكَ بِالسَّمَةِ لَكَ رَازِقٌ وَاسِدَى يَعُولُ وَيَتَكَلَّمُ بِرَازِقٍ ،
كَذَلِكَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ رَازِقٌ لَكَ فَرَقَ بَيْنَهُمَا مَأْنُوكَ رَازِقٌ ، لِأَنَّهُ نَاسِي
لَكَ بِالرِّزْقِ لَكِنْ إِنْ سَأَلْتَهُ مِنْ أَيْنَ هَذَا الرِّزْقُ يَقُولُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ،
فَهُوَ سَبَبٌ وَمَبَادٍ أَمَّا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ خَالِقُ الرِّزْقِ ، لَدُنْكَ قَالَ
﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٢) ﴿[سبَا]

وَسَبَقَ أَنْ وَصَحْتُ بِذَا رَأَيْتَ صِفَةً مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ
وَعَلِمَ أَنَّ الْجِهَةَ مُنْفَكَّةً فَلِكُلِّ مَا يَنْسَبُ بِهِ إِذْ فِي حَيْثِيَةِ الْحَيْرِيَةِ هِيَ أَنَّهُ
تَعَالَى هُوَ الرَّازِقُ ، وَهُوَ خَالِقُ الرِّزْقِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسِّرُ لَكَ أَسْبَابَهُ
حَتَّى يَصِلَ إِلَيْكَ

وقالوا حيرة الله في لوزق دشت من ثلاث مسائل الأولى أنه سبحانه لا يُؤجّر الرزق لوقت الحاجة إليه ، إنما حقه بك قبل أن يخلقك ، وأعد لك مقومات الحياة قبل أن يستدعيك إليها الثانية أنه لا يحاسبك على ما رزقك الثالثة لا يطلب منك ثواباً على ما وهبك

لهذا كله كان الحق سبحانه وما يراى حير الرارقين ، وتأمل مثلاً هرعون لما رأى موسى عليه السلام امتز عليه ، فقال ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فَمَا وَلِيَدًا وَلَيْسَتَ فِيهَا مِنْ عَمْرٍأَ سِنِينَ ﴾ (٨) [الشعراء]

والمعنى كان يسعى عليك يا موسى أن تُحاملنا ، وتحفظ حملنا عليك ، وألاً تصادمتا هذا الصدام

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ حَيٌّ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٦) [يونس]

وفوه تعالى ﴿ فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٤) [المؤمنون]

في هذه الايات كلها - الحق - تبارك وتعالى - راعى مواهب الخلق وفسر حركتهم الإيجابية في احياة ، لذلك أثبت لهم صفة من صفاته وهى الخلق ومعنى الخلق إيجاد شيء لم يكن موجوداً فبالإنسان بُعداً حالفاً حير يصنع من لزم (الكريستان) مثلاً ، والحق سبحانه لا يصر عليه فسميه حالفاً بكر إن كان الإنسان حالفاً ، فالحق سبحانه وتعالى - أحسن الخالقين ، لماذا ؟

قالوا حشوات هذه الحيرة فى عملية الخلق من عدة وجوه منها أولاً من الإنسان بحلق من مادة موجودة ، اما الخلق سبحانه فيخلق من لا شيء من العدم فانياً : صنعة الإنسان تظن على حالة واحده فلا يسمو ولا ينكثر اما خلق الله ففيه حياة ، فهو يتعدى وسمو وينكثر الح

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مَنْ دُونَهُمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِبَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾﴾

المعنى : واذكر يوم يحشرهم جميعا ، واليوم ظرف للحشر وللجمع يوم القيامة يكن لعادا يذكر رسول الله هذا اليوم ، قالوا هذا إشارة لسيدنا رسول الله ﷺ أن الله لم يتَّسه وما بركه ، ولا تحى عنه ، بدليل أنه سيقوم له من أعدائه ومُكذِّبيه في هذا اليوم ، وكان لله يقول له ستري ماذا ستفعل بهم ، كما قال سبحانه في آخر المطففين ﴿هَلْ ثَوَابَ الْكَفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين]

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١﴾﴾ [سبا] معلوم أن الكفر عندوا آلهة كثيرة ، فلماذا حصَّ الملائكة هنا بهذا السؤال ، قالوا لأنهم أعلى الأحناس أسمى عُدَّتْ من دون الله وأقربهم إلى الله ، لذلك قالوا عنهم سمات الله ، فهم بطون أن الملائكة لهم كلمة عند الله ، ويمكن أن يشفعوا لهم أو يدافعوا عنهم إن عبدوهم لسبب من هذه الملائكة ، ومن سكر الشجر والحجر أبدى عند من دونه سبحانه

لكن ، لماذا وَحَّ السؤال للملائكة المعبودين ولم يُوحَّ سعاديين الذين شاركوا ، لماذا لم يُوحَّهم الله ويُعَّهم على عبادتهم دون الله ، قالوا لأن الحق سبحانه أراد أن يسمع لمشركين من الملائكة أنفسهم الرد ، لتكون لحة عليهم أبلغ

يقول سبحانه للملائكة ﴿اهْزِلْهُمْ﴾ [سبا] المشركون ﴿إِيَّاكُمْ
كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبا] فأول ردهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ [سبا] يعنى
تذريه لك يا رب أن يُعبد سواك ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ [سبا]
يعنى نحن فى دَلَّة عبوديتنا لك يا رب أعزُّ وأكرم من كُوبهم
يعبدون ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبا] يعنى ما عبدونا ، إنما
عبدو الجن ﴿أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا] فماذا عبدوا الجن ؟
ولماذا كان أكثرهم يؤمن بالجن ؟

الجن هو الجنس الذى يقبل الإنس ، وسُمى الجن ؛ لأنه مستور
عنَّا ، يرأى ونحن لا نراه ، كما قال تعالى ﴿إِنَّهُ بِرَأْيِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٢٧) [الأعراف]

والدين عبدوا الجن لم يعبدوهم جميعاً ، إنما عبدوا الشياطين
منهم ، وعبدوهم لأنهم يطيعونهم وأكثرهم كانوا بالجن مؤمنين
لماذا ؟ لأن الجن كانوا يسترقون السمع ، فيلتقطون بعض الأحبار
والحقائق ، ثم يُوحونها إلى أوليائهم من شياطين الإنس فبأحدها
هؤلاء ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون العيب ، إلا أنهم
كانوا بدسوس فى هذه الحقائق الكثير من الباطل ، ثم تأتى بعض
الاحداث موافقه لما أحبروا به ، فيقنن أناس بهم ، ويطبون أنهم
يعلمون العيب

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره (٥٥٧٩/٨) « أن حياً يقال لهم هو شبح من حراة كفو
يعبدون الجن ، ويرغمون أن الجن يقرءى بهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله ، ولكن
أورد أبو يحيى زكريا الأنصارى سؤالاً فى كتابه « فتح الرحمن يكشف ما يلبس فى
القرآن » (ص ٢١٥) « أن قلت كيف قالت الملائكة فى حق المشركين ذلك ، مع أنه لم
يُنقل عن أحد منهم أنه عبد الجن ؟ » ثم قال « معناه أنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما
يسروهم به من عبادة غير الله تعالى فالمراد بالجن الشياطين ، على أن الكرماتى جرم
بأنهم عبدوا الجن أيضاً ،

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٦)

قوله سبحانه ﴿وَالْيَوْمَ (٤٦)﴾ [سبا] أى يوم القيامة ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ (٤٧)﴾ [سبا] أى الملائكة ومن عدوهم من المشركين ﴿نَفَعًا وَلَا ضَرًّا (٤٧)﴾ [سبا] فإن كانوا يظنون أنهم الملائكة ، وأنهم عباد مُكْرَمُونَ ، وأن لهم منزلة عند الله ، لذلك سيشفعون لهم فأقهموهم أنكم لا تشفعون إلا لمن ارتضى ولا تشفعون ابتداءً ، بل تنتظرون أن يؤذن لكم فى الشفاعة ، ثم أنتم أيها الملائكة تستحون أن تكونوا شفعاء لمن عند غير الله ، لأن إخلاصكم فى عبوديتكم لله تعالى سمعكم أن تعاصروا هؤلاء أو تشفعوا لهم

ومثل هذا الموقف شاهداه مع سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث كان الدين آمنوا بالله وكفروا برسالاته مُقَدِّمُونَ عنده على من كفروا بالله معصية محمد ﷺ لرب أكثر من عصيته لنفسه

وقوله تعالى ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٧)﴾ [سبا] هذه الآية من المواضع التى وقف أمامها المستشعرون يظنون أن بها مأجداً على كلام الله ، قالوا القرآن يقول على سبا ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٧)﴾ سبا ويقولون فى السجدة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٧)﴾ [السجدة]

مهل كذب الكفار بالنار ، أم كذبوا بالعذاب ؟ ويقول منهم من كان يكذب بوجود النار أصلاً ، وهؤلاء قال الله لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

التي كُتِبَ بها تُكْذِبُونَ ﴿٤٦﴾ [سب] لَأَن تَكْسِبَهُمْ مُّصِيبٌ عَلَى الْبَارِ ،
والاسم الموصول (التي) يعود إلى النار

أما الذين آمنوا بوجوب النار ، يكن يذكرون أن يُعَذِّبُوا بها قال الله
لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴾ [السجدة] لَأَن تَكْسِبَهُمْ
للعذاب لا النار لذلك جاء الاسم الموصول ، الذي (العائد إلى
العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَإِذَا نُنَادِيهِمْ آيَتُنَا يَنْتَبِهُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آرَاجٌ يُرِيدُ أَن
يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ بَعْدَ آبَائِكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا فُكٌّ مُّفْتَرًى وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْخَرٌ مِّمَّنْ ﴾ [٤٧]

معنى ﴿ يَصُدَّكُمْ ﴾ [٤٧] [سب] أى يصرفكم ﴿ عَمَّا كَانْتُمْ بَعْدَ آبَائِكُمْ ﴾
[٤٦] [سب] وهذا سبيل على أن عبادتهم ما دون الله كان مجرد تقليد
للآباء ، وهم يقولهم هذا لم يأتوا بحديد ، فقد أحضر الله عنهم بهذا ،
وهم ما يزالون على عالم الدر يوم أحد عليهم العهد والمنطق

﴿ وَإِذَا حُدِّثُوا بِآيَاتِنَا يُذَكِّرُ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ بِآيَاتِهِمْ وَيُشْهِدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ سَبِيلٍ سَاءٍ لِّمَا هُم بِعَاذِلِينَ ﴾ [٤٨] [سب] لَأَن تَكْسِبَهُمْ
للعذاب لا النار لذلك جاء الاسم الموصول ، الذي (العائد إلى
العذاب .

بعد أن قالوا في رسول الله قالوا في القرآن ﴿ مَا هَذَا إِلَّا فُكٌّ
مُّفْتَرًى ﴾ [٤٦] [سب] لَأَن تَكْسِبَهُمْ مُّصِيبٌ عَلَى الْبَارِ ،
والاسم الموصول (التي) يعود إلى النار

الواقع ، والصدق رُ نقول قضية يؤيدها الواقع ، فمحير تقلب الحقيقة
فإنك تُحير الواقع

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَالْمُزْتَمِكَةُ أَهْوَىٰ ﴾ [سجم] والمزتمكة
هي العري التي قلبها الله ، وجعل عاليها سافلها ، ومنه أيضاً قوله
تعالى ﴿ فَأَيُّ تَوَفَّكُونَ ﴾ [الاسم] بمعنى كيف تُصرون عن الحق
وتقلبونه إلى الباطل

وَلْيَتَّخِذُوا فِي رَصْفِ الْقُرْآنِ حَنْدَ الْوَصْفِ إِنَّمَا رَأَوُا
﴿ مُفْتَرًى ﴾ [سا] أى : متعمد

ثم يقول تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ ﴾ [سا] معنى ﴿ نَ هَذَا ﴾ [سا] ما هذا السدى جاء به
محمد ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [سا] وعجيب رُ يصفوا ما جاء به محمد
بالسحر ، لأن السحر تخيل لأعين الناس وليس ما يفعله الساحر
حقيقة إنما هو توهم ، لذلك قلنا هناك فرق بين السحر لدى جاء
به السحرة وعصا موسى عليه السلام

كان سحرهم كما قال تعالى ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ [الأعراف]
وقال ﴿ بِحِيلٍ إِلَيْهِمْ سَحَرَهُمْ أَنْهَا تَسْعَى ﴾ [طه] مجرد تحبيلات
لا حقيقة بما لم ألقِ موسى عصاه صارت حيلة حقيقية ولو
لم تنقلب حيلة حقيقية ما خاف منها موسى كما قال تعالى
﴿ فَارْجِعْ فِي نَفْسِهِ حَيْثُ مَوْسَى ﴾ [طه]

ولو لم نذكر حيلة حقيقية ما امر لموسى كذب السحرة فالقرآن
يحكى عنهم بهم بمجرد رؤيتهم لها قالوا ﴿ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا
يَعْنَى الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ مِنْ مُّوسَى ، إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ

إِنْ فَأَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنَ السَّحَرِ ؟ وَإِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ سَاحِرًا

سحر المؤمنين به كما تقولون . فلماذا لم يسحركم أيضاً وتنتهى هذه
المسألة ؟ ومعلوم أنه لا خير للمسحور مع الساحر إذن هذا
القول منهم كذب على سيدنا رسول الله وعناد ومكابرة لعدم قبول
الحق الذى جاء به .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ (٤٤)

كان الحق سبحانه يسأل من أين جاءوا بهذا الكلام . وبهذه
الاتهامات ، هل آتياهم كتباً يدرسونها ، ويعلمون منها ذلك ؟
ويحسب سبحانه ﴿ وما آتياهم من كتب يدرسونها ﴾ (٤٤) [سبا] كذلك
﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ (٤٤) [سبا] يعنى رسول يحبرهم بهذا
إذن من أين جاءوا به ؟
يقول سبحانه

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَعُوا مِثْرَ مَاءٍ آتَيْنَهُمْ
فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٤٥)

لمعنى أن ما قالوه فى رسول الله ، ولما جاء به من الهدى
تكذيب كما كذب السابقون فهو سعة متبعة وطبعة فى المرسى إليهم
حين يأتى نذير جديد ليخرجهم عن صفيهم واستبدادهم ويقصى على
سيادتهم واستعبادهم للناس ، لذلك لا بُدَّ أن يصادموه الذين ويكذبوا
المرسل ، لتظل لهم وسائل الطعين ووسائل الفساد

فمعنى ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٢٤) ﴿[سأ] الأمم السابقة الذين كذبوا إخوانك لرسل السابقين . فليست يا محمد بدعاً في ذلك ﴿وَمَا يُلْعَوْا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ (٢٥) ﴿[سأ] يعني الأمم السابقة التي كذبت رسلها ما بدعت في الرسالة وفي لمهيج والحجة والبينة معشور ما آتيناك ذلك لأن سيدت رسول الله ﷺ جاء بالدين الوافي والصبهج الكامل الذي لا يمكن الاستتراف عليه

و . أن المعنى ﴿وَمَا يُلْعَوْا﴾ (٢٥) ﴿[سأ] أي كفر مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ ﴿مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ (٢٥) ﴿[سأ] يعني ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، فالذين كذبوا لرسل من الأمم السابقة كانوا أكثر قوة وأكثر نفوذاً ، وأكثر حضارة من كفار مكة ، رأينهم من عاد وثمود وفرعون ؟ واقرأ قوله تعالى

﴿أَلَمْ يَرَكَيْفَ هَلْ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (٦) ﴿يَوْمَ هَاتِ الْعِمَادِ﴾ (٧) ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (٨) ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الضَّحْرَ﴾ (٩) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ (١١) ﴿[انجر]

عأين قوة كفار قريش من قوة هؤلاء الذين يضرب بهم المثل في القوة ، ولطش ، واجبروت ، وأطعان ؟ ومع ذلك أصابهم من بأس الله ما أصابهم

والمعشور أكثر من العشير ، والعشير أكثر من العشر ، فإذا ردت العشرات تقول عشر ، وإذا أردت المئات تقول عشير ، وإذا ردت الآلاف تقول معشور^(١)

(١) مقصد فضيلة الإمام - رحمه الله - أن العشر جزء من عشرة ، أما المضير فهو جزء من مئة ، أما المعشور فهو جزء من الألف . فمراد الآية ﴿وَمَا يُلْعَوْا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ (٢٥) ﴿[سأ] أي ما يلحوا جزء من ألف جزء مما أعطاهم وآتياه للأمم السابقة ، فالمراد به المبالغ في التقليل ، وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبي في تفسيره (٥٥٨١/٨) ونقله عن الدوري [عاصم أبو النعاطي]

وقوله تعالى ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾ [سبا] يعنى انظر كيف كان
أُحْدَى الْمَكَايِدِ فلم أتركهم دون عقاب ، إنما أخذتهم أخذَ عَرِيرٍ
مفتدر ، ومعنى ﴿نَكِيرِ (٤٥)﴾ [سبا] يعنى إنكارى عليهم بالتدمير
والعقاب ، وإنكارى عليهم على قَدْرِ ما كانوا هم منكبين

ثم بقول الحق سبحانه

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُقِرْدَى
ثُمَّ تَفْكَرُوا مَا يَصْحَحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ
بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾

بعد أن أعطاهم الحق سبحانه درساً وعبرة بمن سبقهم من
المكدين يعود ليخاطبهم من جديد ، فيقول لنبيه ﷺ ﴿قُلْ﴾
يعنى لهم ﴿إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبا] الوعط ليس إنشاء حكم ،
إنما هو تذكير بحكم سبق ونسبه الناس ، فالوَعْظ يُنْشَأُ لِلنَّاسِ أُمُورًا
بِعَرَفِهَا ، وَيُؤْمَرُونَ بِهَا مِنَ الدِّينِ ، لَكِنْ أَسْتَهْمُ الشَّهَوَاتِ وَانْغِلَاظَ هَذِهِ
الْأُمُورِ ، فَهُوَ مُدَكَّرٌ بِهَا وَاعِظَةٌ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مُحِبٍّ لَكَ حَرِيصٍ
على مصلحتك

بذلك فالحق ببارك وتعالى يعطينا نموذجاً للوعظ فى قصة
لعمرى حين يعظ ولده ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَسْمِعُ لَا تُشْرِكْ
بِاللَّهِ (٥٣)﴾ [لقمان]

ومعنى ﴿بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبا] يعنى موعظة واحدة فيها كل
الآحاد ، واستخدم السياق ﴿إِنَّمَا (٤٦)﴾ [سبا] الدلة على العصر يعنى
لا أعطكم إلا بواحدة ما هى ؟ ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ (٤٦)﴾ [سبا] يعنى إياك

أَنْ يَقُومَ شَهْوَةً بِفَسْكَ ، أَوْ سَيِّدَةً تَحَافِظُ عَلَيْهَا ، إِيَّاكَ أَنْ تَقُومَ وَأَنْتَ
تُرِيدُ الِاسْتِعْلَاءَ عَلَى هَذَا النَّبِيِّ إِمَّا يَكُونُ قِيَامُكَ لَهُ ، يَعْنَى تَتَجَرَّدُ
عَنْ هَوَاكَ ، وَتَتَجَرَّدُ عَنْ شَهَوَاتِكَ وَعَنْ تَحْصُّكَ

وَمَا دُمْتَ تَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا اللَّهُ فَلَا تُدَّ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى مَكَانَهُ
فِي قُلُوبِهِمْ ، وَهُوَ سَيَحْبَابُ فِي بَابِهِمْ بِدَلِيلٍ ﴿وَلَسَّ سَأَلُهُمْ مِنْ خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيُقُولَ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٧٥)﴾ [القدر]

﴿وَلَسَّ سَأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيُقُولَ اللَّهُ (٨٧)﴾ [الحرث]

إِذِنْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُهُمْ ، وَهُوَ خَالِقُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنَ الْوَصُوحِ بَحِثٌ لَا يَكْرَهُهَا
مَنْكَرٌ . مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ ، لِمَاذَا ؟

لِأَنَّ مَسْأَلَةَ الْخَلْقِ لَمْ يَدْعُهَا أَحَدٌ لِنَفْسِهِ ، لِأَنَّ الدَّعْوَى إِذَا تَكُونُ
عِنْدَ وَقْعٍ لَيْسَ بِمُسْطَلٍّ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ رَوَاجٌ لَكِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ
وَاضِحَةٌ ، لَا نَفْسَ فِيهَا ، وَمَهْمَا بَحِثُوا فَلَمْ يَحْدُوا خَالِقًا لَهُمْ وَلَكِنْ
مِنْ حَوْلِهِمْ إِلَّا اللَّهَ لِذَلِكَ يَحْدِثُهُمْ بِاصْطِقَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَيَقُولُ
أَنْتُمْ أَمَامَ أَمْرٍ . إِمَّا أَنْكُمْ خَلَقْتُمْ هَذَا الْخَلْقَ ، أَوْ أَنْكُمْ خُلِقْتُمْ مِنْ غَيْرِ
خَالِقٍ

فَالْأَوَّلَى مُرَدُّوهُ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَدَّعِ الْحَقَّ وَالْآخِرَى مُرَدُّوهُ
لِأَنَّ أَتَقَفَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَأَتَقَفَ مِنَ الْإِنْسَانِ لَا تُدَّ لَهُ مِنْ صَانِعٍ
يَصْنَعُهُ ، فَالْحَدَاءُ ابْدَى تَلْبَسُهُ فِي قَدَمَيْكَ أَلَيْسَ بِهِ صَانِعٌ ؟

أَبْنِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْإِنْسَانِ لَا تُدَّ أَنْ لَهُمْ صَانِعًا عَلَى قَدَرِ
عَظَمَتِهِمْ ، وَكَيْفَ يَكُونُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِعَظَمَتِهِمْ لِنَعْصِ
بِاسْطِ الْأُمُورِ ، وَيَعْرِفُونَ صَانِعَهَا وَيَعْبَرُونَ بِهِ ، فَقُلْ كَأَنَّ يَدَ
الْبَدَنِ وَفُلَانٍ كَأَنَّ عِنْدَهُ حَفِيَّةٌ طَعَامُ مَأْكَلٍ مِنْهَا كَذَا وَكَذَا مِنْ

الضَّيَّامَ ، وفلان كان أشجع العرب . إلخ وكثُر في شعرهم قولهم
أنا ابن فلان ، وأبنا ابن فلان

إلى مسألة الخلق هذه لا يجرؤ أحد منهم على أن يكرها ،
وما داموا يعترفون لله تعالى بالخلق ، فعليهم أن يقوموا لهذا الإله
الذى أقرأ له بالخلق ، وأن يخلصوا في قيامهم له ، فلا يكون في
بالهم أحد سواه . وعندها ثَقُوا تماماً أنكم ستمننون بهذا القيام إلى
الحق ، لأنه لا يُضَيَّبُ الحق في عقول الباحثين فيه إلا هوى النفس .
كما قال سبحانه

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ (٢١) [المؤمنون]

والقيام امراء هنا لا يشترط فيه الجماعة ولا الجماهيرية ، لأنه
قيم لتفكر ، فيسبغى أن يكون ﴿ مثنى وفردى ﴾ (٢١) [سب] مثنى
يعنى اثنين اثنين ، وفردى واحداً واحداً بحيث يحظى كل مع
نفسه ليفكر في أمر محمد بواقعة وتحد كيف كان بسكم ، وكيف
كانت سيرته وأخلاقه ، وهل جربتم عليه كدياً ، أو سحراً ، أو كهانة ،
وهل سبق به أن ادعى ما ليس له ، هل رأيتم عليه قبل معثته علامة
من علامات الجنون ؟ ﴿ ثُمَّ تَمَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَةٍ ﴾ (٢٢) [سب]

وهذا التفكر في حال رسول الله يحتاج إلى موضوعية ، لذلك
احتر أن يفردوا به إما مثنى مثنى ، وإما فردى ، هالإنسان حين
يكون بمفرده ، فلا يوجد له نظير يهزم أمامه ، ولا نظير يهيجه على
غير الحق ، فرائيه في هذه الحالة يكون أقرب للصواب

والمفرد إن تفكر وصل إلى الحق ، لأنه لن يغش نفسه ، ولن
يحدثها ، ولن يستكبر أن يعود لحق ، أما إن كانوا جماعة فلا أن
يحاور كل منهم أن يثبت حجته ولو اضطرب بالكذب والحداد كما

نراهم في مثل هذه المواقف ، كُلُّ يحلف أنه على الحق وغيره على الباطل

فكان الحق بهذه الطريقة في التفكير يحمينا ويعصمنا من عوائية الجماهيرية في الحكم ، هذه العوائية التي يشاهدها مثلاً في المظاهرات ، حيث يهتف كُلُّ بما يريد ، فتحتلط الأصوات ، وتتداخل الهنافات ، فلا تستطيع أن تميزها .

لذلك لما تكلم شوقي رحمه الله عن موقعة (اكتيوم) بين كليوباترا وحصومها وقد هُزمت فيها ، لا أن أبواقهم صوّرت الهزيمة على أنها نصر ، وأخذت الجماهير العوائية تُردد ما يقولون ، فقال شوقي

اسْمِعِ الشَّعْبَ دُيُونُ كَنَفَ يُوْحُسُونِ إِلَيْهِ
مَلَأَ الْجَوَّ هَتَافاً ، حَيَّائِي قَاتِلِيهِ
أَثَرُ الْبَهْتَانِ قَبِيهِ وَاَنْطَلَى الزُّورُ عَيْبُهُ
يَا لَهُ مِنْ بَغْيَاءٍ ، عَقْلُهُ فِي أَدْنِيهِ

فالحق نُعلم كيفية الفكر مشى أو مرادى ، ويحمينا من العوائية

وهذه المسألة تأخذنا إلى اعتراض المسشرقين على قوله تعالى

﴿ يَعْلَمُ الْغَيْبُ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ (١) [الأنعام]

ورجحه اعتراضهم إذا كان الله تعالى سَمِعَ علينا يعلم ما نكتم مما الميرة في علم الحهر ، وكلنا يعلم الحهر ، ويقول الخطاب هو للجماعة فالحق سبحانه يعلم ما تكتُمون جميعاً وما تعلنون ، أن تحتلط أصواتكم وتدخلت فهو يعلمها ، ويرد كل صوت إلى

صاحبه وعلم الجهر المختلط أعظم من علم المكتوم ، لأن المكتوم يمكن أن تكون به أمارات تدل عليه ، أما علم الجهر المختلط ، فيصعب أن تميز بعضه من بعض

كذلك إن كانوا مثني مثني ، فالأثني كما يقول الرأي والرأي الآخر ، ولو انهزم أحدهم أمام الآخر فهزيمته مستورة لذلك دائماً ما نسمع من يقول لخصمه أريد أن أحلّس أنا وأنت على نفراد لأنكم طرفاً المسألة ولا يوجد طرف ثالث يُسبب بوجد منكم إحراجاً أو إدلالاً يتسبب في تغيير مسلكك أمامه

ومعنى ﴿ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ [س] تدبر القيام الذي يقابله القعود ، إنما من قام بالأمر يعنى فعله وأدّاه ، وإن كان قائماً ومن ذلك يقول فلان يقوم بأمر فلان ، أو فلان يؤدي وظيفته فلان أي يقوم بها

ومعنى ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ ﴾ (٤٦) [س] يعنى : رسول الله ﷺ ﴿ مَنْ حَقَّ ﴾ (٤٧) [س] جنون ، لأنهم قالوا على رسول الله أنه مسحور وعجيب منهم وهم أعرف بأساس به أن يصفوه بالجنون ، وهم لم يروا عليه علامة من علامات الجنون ، ولم يصنع شيئاً مخالفاً لمحتمعه الذي عاش فيه ، بل كانوا قد تبعته يقولون عنه الصادق الأمين فكما ظهر كذبهم في قولهم (ساحر) ، كذلك ظهر كذبهم في قولهم (مسحور)

ولو خلا لواحد منهم إلى نفسه ، ثم تفكر في شخص رسول الله لوصف نفسه إلى الحق ولو أدار في عقله هذه الاتهامات لوحد أن رسول الله ﷺ يرى منها ، وما دام منفرداً على هذا التفكر ، فلن بخجل أبداً أن يعود إلى الحق ، لأنه لن يهزم أمام أحد

وقد تناول القراء انكريم كل اهتراءاتهم على رسول الله وأظهر مطالعها فقال تعالى ﴿إِنَّ لِقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤)﴾ وهو يقول شاعر قليل ما تؤمنون (٤) ولا يقول كهي قليلاً ما تدكرون (٥) ﴿[الحاقة]

وقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْسِكُون﴾ [التكوير]

والحق - سبحانه وتعالى هذا لم يذكر لنا نتيجة الفكر والبحث
مثنى وفردى لانه معلوم وواضح ، إلا انه قال عنه ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا
بَدِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦) [سبا]

شيء آخر هو أن الناس كلهم يرسلون الله بعد أن سمعوا منه قرآنًا مُعْجَزًا لنقول إن القرآن هو المعجزة التي تثبت صدق الرسول بقول لا ، إنما منهم من لم يؤمن بعد أن سمع القرآن ، ومنهم من آمن قبل نزول القرآن ، وبمجرد أن قال محمد إني رسول الله وأولهم السيدة خديجة ، والصديق أبو بكر ، مما حيثية إيمانهم برسول الله ، وما المعجزة التي عرفوا بها صدقه ، حيثية ومعجزة عند هؤلاء سيرته ﷺ فيهم أولاً ، فهي كافية لأن يؤمنوا به إن قال أن رسول الله إليكم ، أما القرآن فهو معجزة وتحد لمن حدد

لذلك ثرى سيدنا رسول الله يُذَكِّرُ قومه بهذه السيرة بينهم ويتخذها حجة له ، فلما نُعِثَ صعد إلى الصفا ، ونادى قى القوم ، فما اجتمعوا حوله قل : « أرايتم لو حدثتكم أن حملاً وراء هذ الوادى جاء لتعبر عليكم ، أكنتم مُصَدِّقِي ؟ » قالوا : ما جربنا عليك من كذب ، فقال : « أنا رسول الله إليكم » فقالوا لنؤمنم أنت كذاب نبي لك ، أنها جمعنا »

١٦ عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ وأظفر عيونك الاقرب : ١) ﴿ [الشعراء] جرح رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا [جبل بمكة] فاجتمعوا إليه قال ارايتم لو اخبركم ان حبيلاً تخرج بسفح هذا الجبل كنتم مسندى ؟ قالوا : ما جرت عليك كذبا قال هاى يدبر لكم بين يدي عذاب شديد قال ابو لهب : تبا لك أما جمعت إلا بهذا ؟ هزلت هذه السورة : ﴿ تبت يدا ابي لهب وثب ٢) ﴿ [المسد] أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/١) ، ومسلم في صحيحه (٣٥٥) كتاب الايمان ، والبخاري في صحيحه (٧٢٨/٨) [فتح الباري]

وَرَوَى فِي إِسْلَامٍ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ، وَكَانَ أَحَدُ أَحْبَابِ
الْيَهُودِ أَنَّهُ لَمَّا أَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ لِلْإِيمَانِ بَعْدَ مَا رَى مِنْ أَوْصَافِ رَسُولِ اللَّهِ
أَتَى ذُكْرَتٍ فِي كُنُسِهِمْ ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ذَهَبَ إِلَيْهِ وَقَالَ
يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي بِالْإِيمَانِ وَتَعَلَّمَ بِرَسُولِ اللَّهِ أَنَّ
الْيَهُودَ هُمُ الْبُتُّ ، فَإِذَا أَسْلَمْتُ قَالُوا فَيُ مَا لَسَ فِيَّ ، فَادْعُهُمْ
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَاسْأَلْهُمْ عَنِّي ، وَصَرَفَ أَعْلَنَ إِسْلَامِي أَمَامَهُمْ بَعْدَ أَنْ
تَسْمَعَ رَأْيَهُمْ فِيَّ وَفَعَلًا دَعَاكُمْ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ وَاسْأَلَهُمْ
مَا يَقُولُونَ فِي ابْنِ سَلَامٍ ؟ قَالُوا سَجَدْنَا وَابْنُ سَدِيدٍ ، وَحَبَرْنَا وَابْنُ
حَبَرْنَا ، وَجَمَعُوا لَهُ كُلَّ أَوْصَافِ الْمَدْحِ ، عِنْدَهَا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ أَمَّا
وَقَدْ قَالُوا فِيَّ مَا قَالُوا أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالُوا بَلْ أَنْتَ شَرُّنَا
وَابْنُ شَرُّنَا^(١) .

مَقَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّهُمْ قَوْمُ بُتٍّ ؟

وَتَلَحَّظْ أَنَّ الَّذِينَ صَادَمُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ الْبَعْثَةِ ، وَالَّذِينَ
اتَّهَمُوهُ بِالْكَذِبِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَعَمَّهُ هُوَ الَّذِي قَالَ بِهِ
تَبَأُكَ الْهَدَا جَمَعْتِ ؟ وَهَذَا مَوْطَرُ حِكْمَةٍ وَحِجَّةٍ فِي بَعْثَةِ سَيِّدِنَا
رَسُولِ اللَّهِ ، جَعَلَهَا اللَّهُ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ مَكَاتَةَ قَرِيْشٍ وَسَيَادَتَهَا فِي
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ تَكُنْ هِيَ الَّتِي صَنَعَتْ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ لِيَسُودُوا بِهَا
الْعَالَمَ ، فَاعْدَى أَعْدَاؤُهُ قَالُوا مِنْ قَرِيْشٍ ، وَلَمْ يَجِدْ رَسُولُ اللَّهِ نُصْرَةَ
فِي مَكَّةَ ، إِنَّمَا كَانَتْ نُصْرَتُهُ فِي يَثْرِبَ

لَدُنْكَ سَبَقَ أَنَّ قُلْنَا إِنَّ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْعَصَبِيَّةَ

(١) أَخْرَجَهُ السَّخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (١٦٥/٨ - فَتَحُ الْبَارِي) وَاسْتَهْفَى فِي دَلَالِ السُّوهِ
(٥٣٧/٢ - ٥٣٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَنِي مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِي بَعْضِ النُّسخِ الْمُدَّثِ أَنَّهُمْ
قَالُوا أَوَّلًا : « ذَاكَ سَيِّدُنَا وَأَبْنُ سَيِّدِنَا ، وَاعْمَدْتَ وَأَبْنُ أَعْلَمْنَا » وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : « حَبَرْنَا وَابْنُ
حَبَرْنَا وَابْنُ سَدِيدٍ وَأَبْنُ سَجِيدٍ »

لمحمد ، لا أن العصبية لمحمد هي التي خلقت الإيمان به ﷺ

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤٧)

الأجر هو الجُعل مقبل عمل وهذه العبارة قالها كل الرسل ، فقد علمهم الله أن يقول الواحد منهم بقومه ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء) كأنه في طي هذا لاسلوب انه لو كن هناك تقيييم مصف لكت أستحق أجراً على رسالتي ودعوى ، لاسى اجلب لكم بالهداية نفعاً كبيراً ، لانه ليس صفقة في هذه الدنيا الدنية ، إنما نفعاً باقياً في حياة حاله باقية

لكن الواقع أسى لا أحد أخرى منكم إنما أخذه من الله ، لأن العمل الذي أقوم به أكبر من أن تقوموه بثمان ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذي يقوم عمى وأما واثق أنه سبحانه سيعطينى ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (٤٧) ﴿ [سبا]

ومعنى ﴿ فهو لكم ﴾ (٤٧) ﴿ [سبا] يعنى إِنْ كُنْتُ أَخَذْتُ مِنْكُمْ أَجْراً فسوف أعمل لكم بهذا الأجر ، أو سيعود جراؤه عليكم

وسبق أن قلنا إن كل الرسل قالوا هذه العبارة إلا رسولين اثنين لم تأت هذه العبارة في سياق كلامهما هم سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، مما يدل على أن هذه المسألة منية بحكمة كبيرة عابيه ، فمأدا إبراهيم وموسى بالذات من بين كل الرسل

قالوا لار سيدنا ابراهيم عليه السلام اول ما واحه ابحالفين
واجههم في عمه^١ فلما صادمه عمه ، ورفض دعوته عتزله ،
واكتفى بأن يدعو له ، ويس من المعقول أن ينتظر أحراً من عمه ؛
لذلك لم تأت في كلامه مسألة الأجر هذه

كذلك موسى عليه السلام - كانت أول دعوته لفرعون ، الذي
قال له ﴿ أَلَمْ يَرْثِكْ فَيَا وَيَدَا وَلَيْسَتْ فَيَا مِنْ عَمْرٍكَ سِين (أ) ﴾ [اشعراء]
يعنى إن كان يستحق أجراً على دعوته لفرعون فسوف يستحق أن
يطلب منه الأجر ، وقد ترمى في بيته ، وفي رعايته

وكلمة ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ (٤٧) ﴾ [سبا] تحتل معنيين أننى
أخذتُ أحراً وأعطيتُه لكم ، أو أنا من الأصل لم أسألكم أحراً ، ثم
تختم الآية بقوله تعالى ﴿ رَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) ﴾ [سبا] يعنى
شاهد علينا جميعاً ويعلم ما قسيتُه فى سبين دعوتكم إلى الحق ،
ويعلم ما فعلتموه معى من عناد وتعنُّت ، وهو سبحانه سيغلى أجري
على قدر معاناتي وما حملته فى سبيل هدايتكم ، والأحد بأيديكم إلى
ساحته .

وإذا كان الإنسان إن عمل عملاً لا يُدُّ أن يكون له حظُّ منه ومثم
ومنفعة ، فرسول الله لم يسألكم حتى الآخر على العمل ، فبأيُّ شيء
تتهمونه بعد ذلك ؟

(١) يذهب فضيلة الشيخ رحمه الله إلى أن آزر هو عم إبراهيم عليه السلام وليس أباه . وقد
اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالساجور والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم
قال « تارخ » وبعضهم قال بهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان لقبوب عليه
السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل إن آزر هو
اسم الصم الذى كانوا يعبدونه انظر تفسير القرطبي (٢ / ٢٥٤٢) وابن كثير على
تفسيره (٢ / ١٤٩) . وقصص الانبياء لابن كثير (من ٤) - رسل العرب (حادة آزر) ،
وقصص الانبياء لعبد الوهاب الجار (من ٩٢ - ٩٦)

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أن يوضح لنا أمراً يتعلق بالحق الذي جاء به رسول الله ، فالكفار كانوا يعترضون على شخص رسول الله ، بدليل قلوبهم ﴿ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۖ ۞ ﴾ [ص] وقالوا ﴿ بُولَا نُرْل هَمْدَ الْفُرْدُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِينِ عَظِيمِ ﴾ [الرحف]

فهم يعترفون بانقرآن وعلمون أنه ذكّر ، وأنه لا غدار عليه ، المشكلة أنه نزل على هذا لرجل بالذات ، ولم يقل على واحد منهم من عظماء القوم ، لذلك أراد الحق سبحانه أن يقول إن [مرال مذهب الله للأرض لا نُدُّ أَنْ تَنَزَّلَ عَلَى مُصْطَفَىٰ يَصْطَفِيهِ اللَّهُ ، لَا مُصْطَفَىٰ يَصْطَفِيهِ الْخَلْقُ ، فلا معنى لقولهم ﴿ بُولَا نُرْل هَمْدَ الْفُرْدُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِينِ عَظِيمِ ﴾ [الزخرف]

بذلك يرد الحق سبحانه عليهم بالرحمة ﴿ أَنْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرِغْمًا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ فَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف]

وقار سبحانه ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام]

ورحمة الله هي ما ينتفع به الناس ، إما في الدنيا ، وهذه رحمة شمس المؤمن والكافر ، وإما رحمة في الآخرة ، وهذه لمؤمن دون الكافر ، وهذه الرحمة الأخرى دائمة باقية هي نعم لا يفوتك ولا نفوته ، فإذا كنت أقسم بكم أراقكم ومعيشتكم في الحياة الدنيا فكيف أكل إيمانكم احتسار من يرحمكم في الآخرة ؟ هن أقسم لكم الرحمة الموقوتة ، وأترك لكم الرحمة الباقية ؟

ثم ينحو القرآن معهم حتى آخر بعد أن وعظهم وتودد إليهم ، فيقول سبحانه

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰنِ الْغُيُوبِ﴾ ﴿٤٨﴾ قَدْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يَبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ ﴿٤٩﴾

لك أن تلاحظ هنا حدة الأسلوب ، خلافاً للآيات السابقة التي كانت تعظمهم وتتوعد إليهم وكان الحق سبحانه يقول لهم لا تطغوا أننا سننزل بثود إليكم أو أنكم الذين ستسيرون المراكب ، فالذين سيظهره الله رغم عنادكم ، والحق سيعلو رغم كفركم .

فقل سبحانه ﴿قُلْ﴾ أي رداً عليهم ﴿إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ ﴿٤٨﴾ [سيا] فبعد أن أعطاكم الفرصة ، وبعد أن طال تمردكم ، فالآن ربّي سيقذف بالحق ، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الاسراء]

والقذف الرمي بشدة ، وهي كلمة تُوحى بالعنف ولقوة ، إن جاءت من البشر ، فما بالك إن كان القذف من الله ، والمقذوف من الله هو الحق ، والحق كما قلنا هو الشيء الثابت الذي لا يتغير

والقذف لا بد أن له غرضاً وغاية ، وعن أراد أن يقذف شيئاً عليه أن يحدد المسافة لقريب أم لبعيد ، فإن كان لقريب فقلماً يحطىء لقاذف المقذوف ، وإن كان القذف لهدف بعيد فاحتمال الخطأ أكثر وهكذا كلما بعدت المسافة ، لأن معنى القذف تحديد موضع لتصل لقذيفة إليه ، وتصيب الغاية المقصودة منها

وعندما يكون الموضع قريباً ، والتغيرات التي ستطرأ عليه قليلة لأن زمن وصول القذيفة إليه قصير ، على خلاف الهدف إن كان بعيداً فهو عرضة لأن يتغير فتحتمل مثلاً زاييته بسبب الريح ،

أو الأعاصير أو حلاله ، لذلك نحتاج في هذه الحالة إلى أجهزة
وحسابات دقيقة تحسب بُعد الهدف وقوة المقذوف ، وقوة الريح أي
تصادم معه وغير ذلك من حسابات السرعة والزمن ، كالذي يرمى
الطير مثلاً وهو في الهواء لا بُدُّ أن يغير نقطة التنشيق لتناسب
حركة واتجاه الطائر

ولا أقدر على هذه العملية من علام الغيوب سبحانه ، الذي
لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، لذلك جاء
الحق سبحانه بالصفة التي تناسب الدقة في هذه العملية ، فقال ﴿قُلْ
إِنْ رُبِّي بِقَذْفٍ بِالْحَقِّ عَلَامُ الْغُيُوبِ (١٨)﴾ [سج] فهو سبحانه أولاً يقذف
بالحق ، وقذيفته سبحانه لا تحطى هدفاً ، لأنه تعالى علام الغيوب

والحق الذي يقذف الله به هو المنهج الذي أنزله من السماء يقذفه
لغاية وهي الرسالة كما قال سبحانه ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ عَمَّا يَجْعَلُ
رِسَالَهُ (١٦٤)﴾ [الأنعام]

إذن القاذف هو الله ، والمقذوف الحق وهو الشيء الثابت الذي
لا يتغير ، والغاية المقصودة هي وصول الرسالة إلى من اختاره الله
لها ، وهذه العمدة لا تحطى ، لأن القاذف عالم بكل غيب يؤثر على
مسار المقذوف ، فالحق لا بُدُّ أن يصير إلى صاحبه المختار له
والمصطفى لحمله ، لا إني سواه

لذلك هذه الآية تردُّ على هؤلاء الذين يقولون إن الرسالة
أو الوحي أخطأ فزل على محمد بدل أن ينزل على فلان ، فهذا
بحسب لا سند له .

(١) من هؤلاء طائفة من طوائف الشيعة ، وهم أصحاب العباء بن ذراع الدوسي ، وكار بنصير
عليه السلام ، ورغم أن محمداً بُعث لدعوة إلى الله تعالى نفسه (الملك والسر)
للشهرستاني ٢ ، ١٧٥ .

وكلمة ﴿الغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿سبأ﴾ هذا يدل على كثرة المؤثرات التي يمكن أن تعترض القذيفه ، فتحور بينها وبين هدمها ، وهذه المؤثرات لا يعلمها إلا الله .

فإن قلت : العن يقذف جاء في صيغة المصارع الدال على الحال والاستقبال . يعني أن لحق سبحانه عمه أنه يقذف بالحق إلى إرسال ، فهل قدمه إلى رسول الله ؟

تأتي الإجابة في قوله تعالى في الآية بعدها

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ (٩٠) ﴿سبأ﴾ يعني قذفه بالفعل في صورة القرآن الذي نزل على محمد الذي اختاره الله للرسالة وبحم منحه إلى خلقه لينظم به حركة حياتهم . وإذا كان الحق الواضح الثابت قد جاء وظهر ، والذي قذفه علام الغيوب ، فما موقف الباطل المقابل له ؟ لا بد أنه يتراجع ، ولا يستطيع الصمود أمام قوة الحق .

﴿وَمَا يُدْعِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٩١) ﴿سبأ﴾ فلا يدعى في الأولى ، ولا يعيد في الأخرى . يعنى كما نقول لا في لعير ولا في البقير (لا يهش ولا ينش) ، هذا إما كان للباطل وجود أو ثبات ، إما للباطل ما هو إلا خيال بعيد في أذهان أصحابه لا وجود له

والحق سبحانه وتعالى يعطى صورة حسنة للحق والباطل ، فيقول سبحانه ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (٩٢) ﴿الرعد﴾ يعنى كل واد يحوى من الماء على قدر اتساعه ﴿فاحتل السيل رُءُوسَ رَبَابٍ﴾ (٩٣) ﴿الرعد﴾

والرعد هو الفش والفتات الذي يحمله الماء ، وهو تافه لا نفع فيه ، يأتي الهواء فيزيجه هنا وهناك . وتبقى صفحة الماء بقية لبسفع الناس به

ومعنى راسياً طافياً على السطح ، ومى هذا إشارة إلى أن ، باطل
لا يقع فيه ، ولا بقاء له مهما علا ، وأن وجوده كوجود هذا الغناء ،
الذي لا قيمة له ولا فائدة منه
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ
فَمَا يُؤْخِذُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ ٥٠

نلاحظ أنه ﷺ سبب الضلال إن حدث إلى النفس ، ولكنه ﷺ
سبب الهداية إلى الله وإلى الوحي المنبسط عليه ، لأن الله إذا أرسل
مهجاً هادياً لإنسان محتر ، ومجال الاختيار أن توجد بدائل يختار
العقل منها ، لأن العقل لا مهمة له في الأمر الواحد الذي ليس له
بدل ، فمثلاً تقول تريد أن أسافر إلى القيوم ، فلا أحد ، لا طريقاً
واحداً ، فلا عمل للعقل والاختيار هنا ، لكن تقول أريد أن أسافر إلى
الإسكندرية ، فتحدد طريقين الزراعي وصعته كذا وكذا ومميزته كذا
وكذا ، والصحراوي وصفته كذا ومميزاته كذا ،

والله تعالى خلق كونه كله مختاراً إلا في الأمور القصائية
القدرية ، فقد جعلها الله قهرية لا اختيار للإنسان فيها ، لأن تدخله
فيها يفسدها ،

ولا تخزن لك وحدك مختار في الكون ، فكل ما حولك من السماء
والأرض مختار أيضاً ، إلا أن السماء والأرض والجمال اختاروا مرة
واحدة ، ثم سحبوا اختيارهم الكلي على كل الحريات التي تأتي بعد ،
واقراً في ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَابُيْسَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَالْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا ﴿٢٢﴾ ﴿[الاحزاب]

فالحجرات احتارت من لبداية أن تكون مقهورة لله عز وجل ،
وأبث تحمل هذه الأمانة ، أما الإنسان فتحملها وقال استطيع بعقلي
أن أختار بين البدائل ، وقائه أنه أدرك وقت التحمل ، ولم يدرك وقت
الآداء وما يطرا عليه من عوارض وشهوات ووسوسة شيطان
إلخ ، لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه كان ظلوما جهولا يعني
ظنوما لنفسه ، جهولا بالعواقب

والمهجع الذي وصفه الحق سبحانه منهج عام ، وُضع للمؤمن
وللكافر ، فالله هدى ودل الجميع إلى طريق الخير ، وترك الجميع
صحارا ، فمنهم من اختار شهوات نفسه في الدنيا ، ورأى أن يتمتع
بها ، ويحدث ما يحدث بعد ذلك ، ومنهم من تأمل هذا المنهج ،
فوجده من مطاع بمعجزة ، وهذه المعجزة خرقت نواميس الكون ،
هو - نذر - منهج من عليم قادر وإله أعلى ، اختار هذا المنهج
لصالح الخلق .

والإنسان عموما يحب الخير بنفسه ، لكن يختلف الناس في
فهمهم للخير ، ذلك يقول سبحانه ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ
وَكَانَ لِنَاسٍ عَاجِلًا﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿[الإسراء]

ويقول سبحانه ﴿سَأَرْيَكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿[الانباء]

وكان الحق سبحانه يقول للإنسان لا تعجل في دعائك ، وارض
بما احببته لك ، لأن حكمتك وفهمك للخير على قدر علمك بالخير ، لكن
أن أعلم منك به وأعلم منك باستقبالك لهذا الخير وأثره فيك

لذلك قلنا إننا نسمع كثيراً من يقول أنا أصلي وأسير على منهج الله ، ومع ذلك دعوتُ فلم يُسْجِب لي ، يقول لأنك دعوتُ بالخير يفهمك أنت للخير ، لكن ربك أعلم منك بالخير لك ، لذلك هم يُجِبُ دعاءك

وكثيراً أيضاً ما نسمع أمّا تدعو على ولدها ابوحيد في ساعة غصب تقول (إلهي أشرب دارك ، إلهي يحييني حروب) بالله ، لو أن الله أحاب دعاءها ، ماذا كنت تقول هي ربها ؟ إذن عدم إجابة الله لك فيما تدعو أحياناً هو عين الحير لك ، لأنه يعلم حقيق دعائك ، وهو رب لا يرضى بك مآثر هذا الحق ، لذلك يُعَسِّرُ لك ما أحطاب فيه

أمر آخر في هذه المسألة ، فقد يكون الدعاء بخير حقيقي ، لكن جاء هذا الدعاء من غير مضطر ، إنما جاء كما يقول (بغدّة) ، والحق تبارك وتعالى وعد بإحابه المضطر إذا دعاه ، فقال سبحانه ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [الزلزال] ﴿لَوْ كُنْتَ مُضْطَرًا لِأَجَابِكَ ، لِأَنَّ الْمُضْطَرَّ اسْتَفِدَّ كُلَّ الْأَسْبَابِ الْمَوْجُوبَةِ لَهُ مِنْ اللَّهِ ، وَعَجَزَتْ قُوَّتُهُ ، فَلَحَا إِلَى اللَّهِ الْمُسْتَبِيبِ سُبْحَانَهُ ، وَأَعْلَمْنَا يَدْعُو اللَّهَ عَنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ إِذْ هُوَ حَيٌّ لَا يُحَاطُ بِدَعَاؤِهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ دَعَاءٌ شَرٌّ تَطْلُبُهُ أَنْتَ حَيْرًا ، وَالْخَيْرُ هُوَ أَلَّا يَجِيبَكَ اللَّهُ ، وَ أَنَّ دَعَاءَكَ عَنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ

نعود إلى كلامنا عن المنهج لدى وضعه الله لهدايه الناس جميعاً ، ويقول الذي آمن به المنهج واهتدى به يعييه الله ويزيده هداية ، كما قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادْهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد] والذي انصرف عنه وصرف كذاك يريده الله من الصلوات وسجود على قلبه ، بحيث لا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه كفر ذلك لأنه تعالى رب يعين عبده على ما أحب ، ويزيده مما يريد

إنَّ طالما هناك اختيار في قبول المنهج فلا بُدَّ أن توجد هدية ،
ويوجد ضلال ، الهداية تحلب الحير والثواب ، والصلاة يجلب الشر
ويعقاب ، هنا الحق سبحانه يوضح لنا أن الصلاة يُسبب إلى النفس ،
أما الهداية فتُسبب إلى الله وإلى منهجه ، وقد قال سبحانه في موضع
آخر ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ مُبْنَةٍ فَمِنْ
نَفْسِكَ ﴾ (٧٩) ﴿ [النساء]

وقال سبحانه قبها ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (٧٨) ﴿ [النساء] لماذا ؟ لأنه
سبحانه جعل الطريقين ودل الجميع ، فإن نظرت إلى الفعل فإنه هو
الذي أمرك ، كما قال سبحانه ﴿ كَلَّا بُدْ مِنْهُ إِذْ يَمْلَأُ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ
وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا ﴾ (٦٠) ﴿ [الإسراء]

فإن أعطاك مثلاً اللسان يتعلق به كلمة التوحيد ، أو تنطق به كلمة
الكفر والعبد بالله ، فاللسان لم نُعصك ، لا في هذه ولا في تلك ،
فمن لذي أعطاك حرية الاختيار ؟ الله ، لذلك قد لم يكفر كافر قهراً
عن الله ، أما عدم رضاك عنه ، فهذا موضوع آخر .

لذلك قلنا الرجل الذي أعطى لابنه جنياً مثلاً - وهو قوة
شرائية - وقال له اذهب إلى السوق واشتر به ما تريد ، لكن
يُرضيني أن تنفقه في شيء نافع ، فإلى أعطاه القوة اشتراكية أبوه ،
والذي ترك له الخيار أبوه ، وهو قادر أن يحجر عليه ويسلبه هذه
القوة ، وهذا هو الاختيار .

كذلك الحق تبارك وتعالى يريد أن يذهب الإنسان إليه وهو
مختار ، وهو قادر ألا يذهب ، يريد أن يذهب العباد إليه عن حب ،
وعن رغبة ، وعن إيمان ، لا عن قهر وجبروت ؛ لأنه سبحانه كما
سبق أن قلنا يريد قلوباً تخشع ، لا قلوباً تخضع

مقوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ [سيا] يعني أما وأنتم سواء في هذه المسألة ، لأن الضلال نتيجة لسببنا التي تقترفها النفس ، فهي سبب الضلال ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَهْلُ عَلَى نَفْسِي﴾ [سيا] أما لهداية من الله ، لأنها بسبب منهج الله ﴿وَإِنْ أَهْدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [سيا]

لكن النبي ﷺ متفق وأمته في سبب الضلال إلى النفس ، لكن يختلف عنهم في الهداية ﴿وَإِنْ أَهْدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [سيا] فالهداية جاءت ﷺ من الله مباشرة قبل أن يبعث له رسولا بالرسالة وقبل أن ينزل عليه وحى السماء ، أما هداية الأمة فبواسطة الرسول الذي يبلغ منهج الله ويأتي بالمعجزة

فهذا رسول الله كانت بداية لما اختاره الله رسولا على هذا لوضع من الهداية ، ثم أنزل عليه المنهج لهداية الأمة وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سيا] سميع أى يعرف مطلوبى ، ويسمع منى كل نفس ، وهو سبحانه مع سمعه قريب منى لا يبطئ على فى الإحابة ، لأن الفعل من الله تعالى لا يحتاج إلى علاج ومراولة ، إنما الفعل من الله كن .

ثم يرجع الحق سبحانه إلى رسوله ﷺ لیسئله

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ
وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾

قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ [سيا] أسلوب شرط ورد عدة مرات في القرآن الكريم ، وتلاحظ أن السياق لم يذكر له جوابا ، وانرا

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [سبا]

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ بُرْدٌ وَلَا يُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنا ..

﴾ [٢٧] [الانعام]

فالجواب هنا محذوف ، لأنه معلوم من السياق فالتقدير هنا ولو ترى يا محمد إذ فزعوا يوم القيامة لرأيت شيئاً عظيماً وأمرأ عجيباً يربح قلبك ، ويستفهم بك جراء ما كذبوك وعابذك ، وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى ﴿ هَلْ تُؤِثِرُ الْكُفَّارُ مَكَايَاهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٣١] [المطففين]

والدين طغوا وتجبروا في الدنيا ، وصادموا كلمة الحق ، وكانوا عناة وعراصة نراهم في الآخرة حين يصيبهم فزعها (ساسة) قطعاً وأرانب

ومعنى ﴿ فَلَا لَوْت ﴾ [٤١] [سبا] لا مهرب ولا نجاة لهم ، لأن الإنسان قد يفزع ويخاف من شيء ، لكن يستطيع الهرب منه ، أو ربما ينفذه أحد ، أما هؤلاء فسوف يفزعون دون منقذ ودون مهرب ولا مفر ، وهذا يشفي صدرك وصدور المؤمنين الذين أودوا معك في سبيل بشر دعوة الحق

فكما وقفوا في وجه دعوة الله سيقفون يوم القيامة موقف الدلة والعهانة ، وتأمّن ﴿ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [٣١] [سبا] ﴿ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ ﴾ [٢٧] [الانعام] ﴿ رُفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ [٢] [الانعام] يعنى ينتظرون أن يؤذن لهم ليروا ماذا سيقول شفعاؤهم الذين عندوهم من دون الله لكن يُعَاثَرُونَ بَأْسَ شَفَعَاءِهِمْ وَكِرَاءِهِمْ يَسْبِقُونَهُمْ إِلَى النَّارِ ، ويتقدمونهم إلى اعداب كما تقدموهم في الضلال

لذلك يقول سبحانه ﴿ثُمَّ لَنُرَعهنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْلَهُمْ شَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (١٩)﴾ [مريم] وقال عن فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَفِى السَّيْرِ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [مؤ.]

وهكذا يُبَيِّنُهم الله من النجاة ، لأنهم كانوا يستطرون هؤلاء الشفعاء وهؤلاء الرؤساء ليدفعوا عنهم ، فإذا بهم يتقدمونهم إلى العذاب وهذه لوقفات التي ذكرناها لكفار يوم القيامة ، كل وقفة منها لها ذمة ، وكل وقفة لها فرعة ، وكل وقفة عذاب فى حد ذاتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لئن لو رأيت وقفاتهم وفرعهم لشفى عليك ، ولعلمت أننا استطعنا أن نجازيهم بما يستحقون

وسبق أن مثلنا لهذا الموقف بواحد (فتوة) أو (فاقد) يذل أهل بلده ويحيمهم فاكل يخافه ويجامله ويتقى شره وفى إحدى المرات قضض عليه الشرطة وساقوه فى السلاسل ، فترى أهل البلدة فرحين يتعالمزون به ، ويسمع معلأ فى مثل هذا الموقف من يقول (لو شفت اللى حصل لفلان) . ولمعنى رأيت أمراً عجيباً لا يُحِيل فى الذهن

ومعنى ﴿رَأَوْاهُ (٢٠)﴾ [سنا] أمْلَكُوا ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٢١)﴾ [سنا] هو موقف القيامة ومكان الحساب يعنى لم يدرك لهم الحق سبحانه بحبوحه ، إنما أخذهم من الحساب إلى الدار ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ

مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾

سبحان الله ، فبعد رُ فعلو برسول الله وأتباعه ما فعلوا ، وبعد
 أَنْ فَرَّعُوا وحق بهم العذاب يعلمون الإيمان ويقولون ﴿ اٰمَنَّا بِهِ (٥٢) ﴾
 [سبا] ، وما أشبه هذا بإيمان فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ مَتَّ أَنَّهُ لَا
 إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَٰئِيلَ رَأٰنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٥١) ﴾ [يونس] فردُّ الله
 عليه ﴿ الْآلَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] يعنى . هذا
 وقت لا ينفذ فيه إيمان

وهنا يردُّ الحق عليهم إيمانهم فيقول ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّوَّٰشُ (٥٢) ﴾
 [سبا] أى تناول الإيمان ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾ [سبا] كلمة (أنى)
 يعنى كيف لهم الإيمان الآن ، وهم فى موقف الموت أو البعث ، فقد
 كان الإيمان قريباً منهم فى الدنيا أم الآن فهو أبعد ما يكون عنهم

لذلك استخدم السباو أداة الاستفهام (أنى) ولها معبران بمعنى
 كيف الدالة على التعجب يعنى هذا أمر غريب وعجيب منهم ، وتأتى
 (أنى) بمعنى من أين كما جاء فى قول سيدنا زكريا للسيدة مريم
 ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الصُّرَابُ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَحْرِيمُ أَنَّى لَكَ
 هٰذَا (٣٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى من أين لك هذا الرزق ؟ لذلك ينبغى لولى الأمر أن يتعلَّم
 من هذه الآية إذا رأى عند أهله شيئاً لم يأت لهم به أن يسألهم من
 أين جاءوا به ، وكيف وصل إلى بيته وهذا احتياط واجب ، لأن هذا
 الشيء قد يكون تسليلاً أو استمالة إلى معصية .

وتورد السيدة مريم على هذا السؤال ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ

(١) تواسش التناول من قرب والمعنى كيف يستطيعون تناول الإيمان وهم قد أخذوا
 للعذاب أخذاً لا موت منه ولا مهرب ، وبذلك صاروا فى مكان بعيد جداً عن الإيمان وعن
 قبول الاعتذار ، وقد بعد وقت التواش فلا أمل فى تناول أى خير لهم [القاموس
 المبرم ٢/ ٢٩٢]

لله ﴿٣٧﴾ [آل عمران] ثم تذكر حيثية ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣٨﴾ [آل عمران] يعنى - إياك أن تحسب المسائل بقدرتك ، تقول من أين أتت فاكهة الصيف في الشتاء أو فاكهة الشتاء في الصيف ؟ لأن هذا عطاء الله وقدرته

وكان هذا القول من السيدة مريم قد نبه سيدنا زكريا إلى قصية غفل عنها ، فهدته هذه الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣٧﴾ [آل عمران]

عندها قال في نفسه إذن لماذا لا أدعو الله أن يرزقني الولد بعد أن بلغت من الكبر عتياً وامراتي عاقر . معطاء الله لا يخضع للأسباب ﴿هَذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ [آل عمران]

وهكذا استفاد سيدنا زكريا من هذه القصية العفوية التي تدعو لها لسيدة مريم ، وفعل استجاب الله له وأعطاه وداً بل أكد ذلك بأن سمّاه له ﴿هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ وَهِيَ أَقْبَرُ بِصَلَاتِي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِمَخْفِي مَصَدَقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ [آل عمران]

وهذا تسجيل للبشرى وتأكيد لها ، ومن ذلك ما روي عن سيدت أبي بكر ، فقيل أن بموت أوصى السيدة عائشة بحصوص الميراث من بعده ، فقال لها إنما هما أحتساك وأخواك في وقت لم يكرها إلا أخوان هما : عبد الرحمن ومحمد ، وأخت وحدة هي السيدة أسماء ، بكر بعد موب الصديق ولد روحته بنت خارجة^(١) بنتاً فصدت وصية

(١) هي حبيبة بنت خارجة بن زيد العذرجية . زوج أبي بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التي ماتت أبو بكر وهي حامل بها فقال ذو بطر بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك ترويت إسلاف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبي بكر [انظر الإصابة في تمييز الصحابة (٤٨٨)]

أَصْدِيُو . وهو - رضى الله عنه - لم يَكُنْ علم الغيب ، إنما عِلْمٌ ،
وأطلقه الله بذلك . لأنه لا يعلم ما فى الأرحام لا الله ، فلا أحد يعلم
ما فى الأرحام بذاته ، إنما يُعَلِّم من الله

وقد ورد عن سيدنا رسول الله أنه قال لأهل المدينة « المحيا
مُحْيَاكُمْ ، والممات مَمَاتُكُمْ » فَنَبِّئُ أَنَّهُ سَيَمُوتُ فى المدينة ، والله
تعالى يقول ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (٣٤) [لفعال]

فرسول الله ﷺ لم يَكُنْ يعلم عيباً ، إنما عِلْمُ العيب من علَامِ
الغيوب سبحانه ، لذلك لا نقول فلان عالم غيب ، إنما مُعَلِّمُ غيب

لذلك كثيراً ما نرى بعض أهل الصلاح أو ائدين كشف الله عنهم
الحجاب يرى السيدة الحامل فيقول لها سم هذا الولد محمداً ، وفعلأ
تلد رداً ، وتسميه محمداً . هذا تسحين للبشرى وإيهام من الله وتعليم
لمن احتارهم الله لهذا العلم .

والدس حين يُسمون يختارون الاسم الذى يُتفاءل به فيقولون
سعيد ، دكى إلخ تفاؤلاً أن يكون الولد بالفعل سعيداً أو ذكياً . لكن
أتملك أن يكون الاسم على مُسماه ؟ لا لا أحد يملك أن يكون ولده كما
يريد ، لكن إذا كان المسمى هو الله سبحانه فهو وحده القادر على
تحقيق المسمى

لذلك لما وهب لسيدنا ذكريا الولد وسماه (يحيى) لم بعض
الناس إلى هذه التسمية وأنها من الله تعنى أن هذا الولد مسيحياً
ولا يموت ، فأنه سماه يحيى ليحيى وفى هذه السعية إشارة إلى أنه
سيموب شهيداً ، فيتصل حياة النيب بحياة الشهادة وبو ططر قاتله
إلى هذا المعنى ما قتلوه .

١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب « الجهاد والسير » أنه قال
للأصغر فى حديث حزين « أنا محمد عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله ربكم فالمحيا
مضاكم والممات ممانكم »

لذلك لم ذهباً لريارة قبر سيدنا حمزة قلنا هناك

أَحْمَرَةٌ عَمَّ المصطفى أنت سيدٌ عَلَى شُهَدَاءِ الأَرْضِ أجمعهم طُراً
وحسبك من تلك الشهادة عصمةً من الموتِ في وصلِ الحياتين بالأحرى
وهذه القضية العقدية التي استفاد منها سيدنا زكريا فطلب من الله
ابولده ، استفادت منها السيدة مريم بعد ذلك حين حملت بلا ذكورة ،
فتذكرت ﴿بِاللّهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ال عمران] فاطمأن
قلوبها

مكلمة (أنى) فى قوله تعالى ﴿وَأَنى لَهُمُ التَّوَّابُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾
[سبأ] هى بمعنى كيف ، مثلها قول السندى مريم لما سُئِرَتْ
بعيسى ﴿أَنى يَكُونُ لى عَلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنى بَشْرٌ﴾ [٢٠] [مريم]
ومثل قوله تعالى ﴿أَنى يُحْيى هَذهِ الأَولُوهَا﴾ [٢٥٩] [البقرة]
فالسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، وهى مسألة لا تُقارَ إنما تُشاهد ، ألم
نقرأ قول سيدنا إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنى كَيفَ تُحْيى المَوْتى قُلْ أُولَئِكَ تُزَمُّونَ قُلْ
بِى وَلَكن لِيُطَمِّنُ قُلُوبى﴾ [٢١٠]

وللمستشرقين اعتراض على هذه الآية . يقولون كيف يخاطب الله
أما الأسيء إبراهيم ويقول له ﴿أُولَئِكَ تُزَمُّونَ﴾ [البقرة] ويقول هو ﴿بلى
ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة] ، وهو الإيمان إلا اطمئنان قلب إلى
عقيدة ما ؟

ويقول الإيمان خلاف الاطمئنان هنا فالإيمان بأن الله يحيى
أموتى موجود عند إبراهيم ، فهو لم يسأل أيجاد إحياء للموتى من
الله أم لا يوجد لأنه يؤمن بقدره الله على إحياء الموتى ، إنما يسأل
عن كيفية ذلك فالاطمئنان المقصود على الكفنة تدبير أن الله تعالى

أظهر له آية عملية وتحرية حسنة في مسألة دبح الصير لأن الكيفية كما قلنا لا تقال إخباراً، إنما تُشاهد

فالحق سبحانه ينكر على الكفار تناولهم للإيمان في هذا الوقت ﴿وَأَنَّى لَهُمُ النَّوْشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ] التناوش تناول الشيء بيسر وهم يريدون تناول الإيمان في آخر لحظة ، وبعد فوات أوانه وضياع فرصته ، يريدون إيماناً بلا تكاليف ، وأنى لهم ذلك ، وهم أنعد ما يكوبون عن الإيمان ، لأن محل الإيمان في الدنيا ، فهذا القوم منهم أشبه بقوم أصحابهم الذين قالوا ﴿رَبَّنَا خُرجْنا بعملُ صالحاً غيرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (٤٧)

[ماطر]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ

بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣)

يعنى عرض عليهم الإيمان وهم في بصبوحة الدنيا وسعتها ، فكفروا به ، وأدنى من محل الإيمان ومحل التكاليف والأوامر والنواهي ، فلما وقفوا موقف الموت أو البعث تمنوا الإيمان وقالوا أما وهم في هذا ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ] يعنى يتكلمون بالظن فيما لا علم لهم به يريدون أن يصبوا لى غرضهم وهو أن ينجوا من العذاب ، لكن يأتى هذا القذف بالظن أيضاً من مكان بعيد ، يعنى في غير محله ، وفي غير وقته ، والقرآن هنا أثبت لهم قذفاً ، كما أثبت للحق سبحانه قذفاً ﴿قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْدِرُ بِالْحَقِّ﴾ [سبأ] . يكن شتان بين الاثنين

قذف هؤلاء من مكان بعيد ، والقذف من بعيد قذف لا يصيب الهدف . وهم في قذفهم لا يعلمون الغيب ولا يعلمون المؤثرات التي تؤثر على المقذوف ، أما الحق سبحانه فيقذف وهو سبحانه علام الغيوب الذي لا يغيب عن علمه شيء .

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾ (٥١)

نقول حلت بين الخصمين يعنى فصلت بينهما . وجعلت بينهما حائلاً ومانعاً من الاشتراك حتى لا يبلغ كل منهم أشده في المعركة ، أو ينال مراده من خصمه فالحق - سبحانه وتعالى جعل حائلاً ومانعاً بين هؤلاء وبين ما يشتهون

والاشتناء طلب شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذي كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهون أن يطمسوا دعوة الحق ، فلم يُمكنهم الله من طمسها ، كما قال سبحانه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنفُسِهِمْ وَبِأَيْدِي اللَّهِ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢٢) [التوبة]

وقال سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩) [الصف]

وهم يشتهون انطماس الدعوة ، لتبقى لهم سيادتهم التي تهووا على حسب الصعفاء ، ولتظل لهم المكانة والتصرف ، كذلك يشتهون انطماس الدعوة حتى لا تعف مزاهاج الله عفة أمام شهوات نفوسهم

ومعلوم أن الإنسان تحاربه نفسه قبل أن يحاربه الشيطان ، لذلك قال النبي ﷺ « إنا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ،

وَعَلَّقَتْ أَبْوَابَ النَّارِ ، وَصَفَّدَتْ الشَّيَاطِينَ » ومع ذلك تحدث في رمضان ذنوب وجرائم إذن هذه الذنوب وهذه الجرائم ليست عن طريق الشيطان ، إنما من طريق النفس ، كأن الله تعالى يريد أن يفضح العاصين الذين يتهمون لشيطان ، ويُلْقُونَ عَنِيهِ تَبْعَةً كُلِّ ذَنْبِهِمْ إذن ليس الشيطان وحده هو وسيلة الضلال والغواية ، إنما هناك النفس الأمارة بالسوء .

وسبق أن أوضحنا كيفية التفريق بين المعصية من طريق الشيطان والمعصية من طريق النفس ، وهنا إذا وقعت أمام معصية فعليه لا تتحول عنها مهما عَزَّتْ عليك أسبابها ، فاعلم أنها من شهوات النفس ، لأن النفس تريد شيئاً معيناً أما لشيطان فإن عَزَّتْ عليك معصية أحذرك إلى أخرى ، المهم أن تعصى الله على أي وجه ، وبإتقان طريقة

فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَحِيلَ بِهِمْ وَيس ما يَشْتَهُونَ (٥٥) ﴾ [سبا] دلٌّ على أن المسألة بالنسبة لهم كانت شهوة نفس ، لا مدخل للشيطان فيها لماذا ؟ لأنهم كفروا بالله وفرغ الشيطان منهم وإلا ماذا يريد منهم بعد ذلك ، فلم تبقَ إلا شهوات النفس فاشتبهوا أن يطمسوا الدعوة وأن يذلوا مَنْ آمَنَ ويحعنوه عِرةً لِمَن يَفْكر في الإيمان ، لكن حال الله بينهم وبين ما أحبوا وسرت الدعوة على خلاف ما اشتبهوا ، فمن دُلَّ وضُرِبَ وأُهيئَ من المؤمنين ثُبَّتَ على إيمانه ، ومن كان يفكر في الإيمان لم يَرْتَفِعْهُمْ ولم يخف من معلوه بإخوانه المؤمنين

(١) صغبت أي شئت واثقت بالأعلال ، والاصفاد هي الأعلال وقيل القيود [سبان العرب - مادة صغد]

(٢) حرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٧/٢) ، ومسلم في صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

فَإِنْ قُلْتُ كَيْفَ أَسْلَمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلَ لِأَنْ يُعَذِّبَهُمُ الْكَافِرَ ،
وَأَنْ يُهَيِّنُوهُمْ وَيُخْرِجُوهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ ؟ نَقُولُ كَانَ هَذَا لِحِكْمَةٍ عَالِيَةٍ
أَرَادَهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ، وَهِيَ أَنَّ يُحْصِيَ إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِينَ ، بِحَيْثُ
لَا تَثْبُتُ عَلَى إِيْمَانِهِ إِلَّا قَوَى الْعَرِيْمَةِ الَّذِي يَصْبِرُ عَلَى تَحْمِلِ الشَّدَائِدِ ،
فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ سَيَحْمِلُونَ مِنْهُجَ أَسْمَاءٍ وَدَعْوَةَ الْحَقِّ إِلَى الْعَالَمِ
أَجْمَعٍ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا صَعُودَ تَحْتَارِ دِيْنِ اللَّهِ وَتَصْحَى فِي سَبِيلِهِ
بِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيْسٍ

لِذَلِكَ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ تَتَرَلَزَلَ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي بُدَايَتِهَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ
وَأَنْ يَرَى نَعَصَ الْفَسَنِ الَّتِي تُعْرِضُ النَّاسَ ، وَتُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ فِي
جَانِبٍ ، وَالْمُتَأَفِّقِينَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ . وَهَذَا مَا حَدَّثَ بِأَلْفَعْلٍ فِي
مَسْأَلَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ مَثَلًا . وَفِي رَحْلَةِ الطَّائِفِ ، كُلِّهَا فَتَنٌ تُحْصَرُ
الْمُؤْمِنِينَ

لَقَدْ ضَيَّقَ الْكَفَّارُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْخُنَاقَ ، حَتَّى جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ
يُفَكِّرُ فِي 'مَرِّهِمْ وَيَفْتَنُ فِي رَقْعَةِ الْأَرْضِ الْمَعَاصِرَةِ لَهُ ، أَيْهَا تَنَاسَبَ
أَصْحَابَهُ ، وَبَاسْمُونَ قَبْلِهَا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَعَلَى دِيْنِهِمْ . فَلَمْ يَحْدِ إِلَّاهُ إِلَّا
الْحَبِشَةَ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ « اذْهَبُوا إِلَى الْحَبِشَةِ ، فَإِنَّ بِهَا مَلَكًا
لَا يُطْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ »

وَمَعْلًا كَانَ النُّجَاشِيُّ عِنْدَ ظَنِّ رَسُولِ اللَّهِ ، فَأَكْرَمَ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَفَضَ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَى وَفْدِ قُرَيْشٍ ، لِذَلِكَ كَافَاهُ رَسُولُ اللَّهِ بَأْنَ وَكَاهُ

(١) عَنْ مَسْلَعَةِ أَيْهَا قَالَتْ : « لَمَّا صَافَقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةَ وَتَوَدَّى صَحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهَمُّو
وَرَأَوْا مَا يَصِيْبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِيْنِهِمْ ، وَلِئِنْ رَسُولُ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ مَعَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي مَجْعَةٍ مِنْ قَبُومِهِ وَمِنْ مَجْعَةٍ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِنْهَا بِإِذْنِ
أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « بَيْنَ بَارِضِ الْحَبِشَةِ مَكَّةَ لَا يُطْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ، فَالْحَقُّو
مَلَأَهُ حَتَّى يَجْعَلَ إِلَيْكُمْ هَرَجًا وَمُفْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهَا » حَدِيثٌ طَوِيلٌ أَخْرَجَهُ الْمُبَاهِقِيُّ فِي
دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ (٢ / ٣٠٦) . وَابْنُ هَشْمٍ فِي السِّيَرَةِ بِخَوَرِهِ (١ / ٣٢١)

في أن يُزوجه من أم حبيبة^(١) وكانت لهذه الزيجة حكمة ، فالسيدة أم حبيبة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه تنصّر هناك ، وظلّت أم حبيبة على إيمانها ، فدلّ ذلك على صدق إيمانها ، وأنها ما هاجرت لأجل زوجها إنما هاجرت لله ورسوله ، فكافأها رسول الله هذه المكافأة .

فالكفار اشتبهوا بإدعاء رسول الله وإيذاء المؤمنين مجاهرة فلم يصلوا من ذلك إلى شيء ، فاشتبهوا بالتآمر على رسول الله وقتله ، وديروا له مؤامرة لقتله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنعام] فضيّب الله سعيهم ، وخرج رسول الله من بين شبابهم ونشأهم ، وهو يحثو التراب على وحرهم ، ويقول « شأنت الوجوه»^(٢)

والله يقول ﴿لَا غَشْيَاهُمْ لَهُمْ لَا يُصْرُونَ﴾ [يس]

وهكذا حالّ الله بينهم وبين ما يشتهون من المجاهرة ومن المؤامرة ، فحاولوا أن يسحرو رسول الله ، بأن يكيدوا له بطريقة خفية فسحّره لبيد بن الأعصم^(٣) ، واستعانوا في ذلك بأخوانهم من شياطين الجن ، كما قال سبحانه ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ

(١) في رمله بنت أبي سفيان ، صحابية ، من أرواح النبي ﷺ وهي أخت معاوية ، كانت من مصنفات قرش ، ومن دوات الرأي والحصافة مروجها رسول الله بعد أن نصّرت زوجها وهما في الحبشة عام ٧ هجرة . توفيت بالمدينة عام ٤٤ هـ عن ٦٩ عاماً بعد ٣٤ عاماً من وفاة الرسول [الأعلام للزركلي ٢/ ٢٢٢]

(٢) ورد قول رسول الله عدا في حديث نهجرة عن ابن عباس بعد أحمد في المسند (١/ ٢٦٨) . وكذلك في بحرّة حثين في صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إيس بن سلمة عن أبيه . وأبعد في مسنده (١/ ٢٨٦) والدارمي في سننه (٢/ ٢١١) من حديث أبي عبد الرحمن الفهري

(٣) بيده بن الأعصم يهودي من بني زريق ، وكان قد أسلم نطقاً ، وقد كلّ سحراً ، وقد جاءه اليهود فقالوا له يا أبا الأعصم أنت أسحري . وقد سحراً معماً فلم يصنع شيئاً ، وبحر جعل بك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً نكره ، فحضرنا به ثلاثة دسائر ، انظر فتح الباري لأبي جابر المقدسي (١٠ - ٢٢٦)

لِيُجَادِلُوكُمْ ﴿١٢﴾ [الانعام] بكن حَيِّبَ الله مُسْعَاهُمْ فِي السَّحَرِ أَيْضًا ،
ولم ينالوا من رسول الله ، ولا من مبعث الله ، وكان الله تعالى يقول
لهم وَقُرُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرَسُولُ اللَّهِ مُعَصُومٌ مِنَ اللَّهِ ، كَمَا حَاطَهُ
سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿٩٧﴾ [المائدة]

وقوله سُبْحَانَهُ ﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ ﴿٥٤﴾ [سبا] يعنى هذه
القضية ليست خاصة بكفار مكة ، إنما هى سمة مُتَبِعَةٍ فى الأمم
السابقة ، ومعنى ﴿بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ ﴿٥٤﴾ [سبا] بأمثالهم من الكفار فى الأمم
السابقة

والأشياء جمع شيعة ، وهم الجماعة المجتمعة على رأى
يقتنعون به ، ويدافعون عنه ، سواء أكن حقاً أم كان باطلاً ، فقوله
تعالى هَذَا ﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ ﴿٥٤﴾ [سبا] دلُّ على أنهم كانوا
على باطل ، أما قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٨٣﴾ [الصافات]
فهذه على الحق

والمعنى أنهم أُخِذُوا كَمَا أُخِذَ أَمْثَالُهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ مع الفارق
بين الحالتين ، فقبل رسول الله كانت السماء تتدخل مباشرة لتدفع عن
دين الله وعن نبي الله ، لذلك حدثت فيهم الزلازل والحسُف والصيحة
والمسح .. إلخ .

فالأمم السابقة لم تُكْرَ مَأْمُومَةٌ عَلَى أَنْ تُدْفَعَ عَنْ دِينِ اللَّهِ بِسِيفِهَا ،
أما أمة محمد ﷺ فقد استأمنها الله على هذه المهمة ، فحملتُ السيف
ودافعتُ عن دينها ، لذلك أكرم الله هذه الأمة ، فلم يحدث فيها حُسُفٌ ،
ولا مُسُخٌ ولا إعراق . مما حدث لسابقيهم ،

لذلك لما ينس نوح عليه السلام من هداية قومه دعا عنهم

﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُطْلُوا عِبَادَكَ
وَلَا يَلْدُوهُ إِلَّا فَجْرًا كَثِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴿[نوح]

أما سيدنا رسول الله فجاءه انملك بعرض عليه الانتقام من كفر
قومه ، فيقول لا ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا
الله وفعلاً آمن منهم كثيرون أمثال خالد بن الوليد ، عمرو بن
الخاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وكما كانوا ألد أعداء الإسلام صاروا
قاداته الفاتحين ،

وقد تألم المسلمون كثيراً لأن هؤلاء نجوا من القتل ، وهم
لا يدرون أن الله تعالى كان يدخرهم للإسلام ، فصار خالد سيف الله
المسلول ، وعمرو أعظم القادة الفاتحين ، ويكفي شهادة لعكرمة أنه
ابن أبي جهل ، وأنه لما ضرب ضربة قوية في موقعة اليرموك
احتصنه خالد وهو يعاني سكرات الموت ، فقل يا خالد هذه مية
فرصى على الله ورسوله ؟

حتى الذين ظلوا على كفرهم من قوم رسول الله كانوا في صالح
الإسلام ، فمثلاً أبو لهب وهو عم رسول الله ، وهو الذي قتل له نبياً
ث ، أبها جمعنا وهو الذي قال عن رسول الله لما مات ولده

(١) يقال ما جالداو ذيار أي ما بها لحد والداري الملام نذاره لا يبرح ولا يطلب
معاشاً [سان العرب مادة نور]

(٢) هو عكرمة بن أبي جهل بن هشام المحرومي القرشي ، من حبيبي قريش في الجاهلية
والإسلام كان هو وابوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة
وحسن إسلامه ، قسمهذ الوقائع وولى الاعمال لأبي بكر ، واستشهد في اليرموك عام
١٢ هـ وكان عمره ٦٢ سنة [الأعلام للزركلي ٤ : ٢٤٤] وذكر ابن سعد في
طبقاته (٤ / ٨) : « قتل يوم أجنادين شهيداً » .

إبه أنتر بعى مقطوع الذرية لأن أولاد النبت يُنسبون إلى آبائهم
كما قال اشاعر^(١)

فإنما أمهت لقوم أو عيئة مستودعات وللأحساب آباء^(٢)

ومن العجيب أن أبا لهب قَدَّم للإسلام كما قَدَّم حاند وعمرو وربما
أكثر ، كيف ؟ لأن الله جعله حجة على صدق كلام الله ، وعلى صدق
رسول الله فيما بَلَّغ عن ربه ، فمما قال لرسول الله تبارك : ألهذا
جمعتنا ؟

ردَّ الله عليه ﴿ نَسْتُيْدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبِ ﴾ (١) ما أغنى عنه ماله وما
كسب (٢) سيصلى نارا ذات لهب (٣) وأمرأته حمالة الحطب (٤) في جهنم
حبل من منسج (٥) [المسد]

فحكم الله عليه وهو ما يزال في سنَّه الدنيا ، وما يزال محساراً
حرّاً قادراً على إعلان إيمانه ولو نفاقاً ، ومع ذلك لم يحرق أن ينطق
بكلمة استوحيد ، ولو نطق بها لكان له أن يقول : إن القرآن كاذب ،

(١) قال عطاء بن نوه نعالى « إن فاسد هو لابت (٣) » [الكوير] مرَّ في أبي لهب وذلك
حين مات ابن رسول الله فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : يقر محمد الليلة (ابن كثير
١٠٥٩ ، ١) وليس هذا إلا هو إبراهيم بن إبراهيم ولد لرسول الله من مدنية بالمدينة
المنورة وليس بمكة والاقرب أنه القاسم

(٢) هو محمد بن فاروق الرشيد العباسي يلقب بالأمين العباسي ، حليفه عباسي ، ولد في
رمضان بقصد عام ١٧٠ هـ ، بويج بالخلافة بعد وفاة نبيه (١٩٢ هـ) بعهد منه ، خلفه
نحوه الصامون بعد عيسى . كان شجاعاً نبياً رقيق الشعر كثيراً من انغراق الأموال سره
التجيز يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة النساء مات عام ١٩٨ هـ [الموسوعة
الشعرية]

(٣) النبت من قصبة للأمين العباسي ، من بحر البسيط ينون ليهما
لا تجف من امرأ من أن تكبر له لم من الروم أو سوداء عجماء
فما أسهت القوم أو عيئة مستودعات وللأحساب آباء
مدى مقربه بعبد بمجمله وريب أنجت لمفل سوداء

وها أنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وهكذا أقام الله من هذا الكافر المعاند دليلاً على صدق كلامه ، وصدق رسوله

ثم تُختم السورة بقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ﴾ (٥١) [سنا] كانوا في شك من أمر رسول الله ، وبُصِّرَ به عيهم ، وعدم تخلي ربه عنه مع أنهم كانوا على اتصال بأهل الكتاب وأهل الكتب يقرأون كتبهم على هؤلاء الكفار ويستفتحون بها عليهم ، وقد علموا منها أن عاقبة الصراع بين الرس وأقوامهم على مرّ موكب الرسالة كاتب للرسول ، لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً ثم يُسلمه أو يتخلى عنه .

وهذه قصية ذكرت في الكتب السابقة كما ذكرت في القرآن في أكثر من موضع ، وإن كانت الكتب السابقة قد ضاعت أو حُرِّفت فالقرآن هو كتاب الله لباقي الذي تكفل الله بحفظه ، فهو يُتلى كما أُمر إلى يوم القيامة ، وفيه يقول الله تعالى ﴿إِنَّا لَنَصُرُّنَّكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٥١) [عاهر]

وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمًا لِّعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (٧٢) وَإِنْ حُدِّثُوا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٢٢) [التصافات]

لذلك سبق أن قلنا إن هُرم الإسلام في معركة مع غيره فاعلم أن شرط الجندية الإيمانية قد احتلّ ، ولو نصرهم الله مع ختلان شرط الجندية فيهم ما قامت للإسلام قائمة بعدها ، وهذا الدرس تعلمناه في أحد نما خالف الرماه أمر رسول الله ويزلوا من على الحبل يريدون الغنائم ، مع أن رسول الله ﷺ حذرهم من هذا ، وقال

لهم لا تتركوا أماكنكم مهما حدث ، فما تركوا أماكنهم اتلف عليهم الكفار ، وكادوا يهزمونهم .

وإن كان التحقيق أن الكفار لم ينتصروا في أحد ، لأن المعركة (ماعت) ، وبو انتصر المسلمون مع هذه المخالفة لهنّ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك وقالوا لقد حالقنا أمره في أحد وانتصرتنا ، إذن : نقول ، انذى هزم في أحد هو من نخذل عن جندية الإيمان ، أما الإسلام في حد ذاته فقد انتصر

إذن كانوا في شك من العية التي ينتهي إليها رسول الله ، والشك هنا في رسول الله لأن لديهم قضية عقدية هي الإيمان بوجود الله ، وأنه سبحانه الخالق لكل شيء ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٨٧) [الرحم]

والشك يعنى عدم الجزم وعدم اليقين . وبيئنا ذلك بأن نسب الكلام في اكون ست ، لكل ثلاث منها اتجاه ، فالكلام بداية علم الله سبحانه آدم الاسماء كلها ليتفاهم بها مع غيره ، فالكلام يقتضى متكلماً ومحاطباً ، ولا بد أن يكون لمخاطب على علم بمدلول الكلام ، بدليل أن العربى لا يفهم الإنجليزى ، ولا الإنجليزى يفهم العربى ، لا بد من علم بالتواضع في اللغة ليفهم كل منهما عن الآخر

والكلام المفيد هو الجملة التي يحسّ السكوت عليها بأن يعطى

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٢ - ١) ، أن رسول الله ﷺ أمر على الرماة عبد الله ابن جبير ، والرماة خمسون رجلاً فقال له : الضح الحبل (انقهم ص) يالين لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا مائت مراكب لا تؤذين من قبلك ، ولكنهم حالقوا أمر رسول الله عندما رأوا كفار قريش يهربون فمروا لجمعهم بنعائم والأسلاب وفرض حالق ابن الوليد لهذا ، وقد كان كافراً في جيش الكفار فأمار على المسلمين وأعين فيهم المعص أمراً من قبل الرماة

معنى معيذاً . فلو قُلْتُ مثلاً (محمد) فهي مفردة من معربات اللغة لا تعطى معنى إلا بنسبة . فتَقُولُ محمد كريم ، فاستدت لكريم إلى محمد ، وهذا معنى تام ، يحسُن السكوت عليه

وإسناد الكرم لمحمد هو مُعتقد المتكلم به . فإن كان لهذا الكلام وجود بالفعل بأن رُجِدَ شخص سمى محمد . وصعته لكريم . فهذا الكلام المعتقد حارم بالحكم والحكم واقع ، فإن كان المتكلم غير جازم بالحكم . متردداً فيه وهذا شك ، فالشك فيه مسة مباحة بين البقى والإثبات بحيث تتساوى الكفتان فإن رجحت واحدة فهي ظن ، والاخرى المرجوحة وهم

إذن كم نسبة للكلام غير المجزوم به ؟ ثلاث الشك والظن والوهم أما الكلام المجزوم به فإن كان له واقع . وتستطيع أن تدلل عليه فهو علم . وإن لم تستطع أن تدلل عليه فهو تقييد وإن حرمت به وليس له واقع فهذا جهل وهذه الثلاث نسب الكلام المجزوم به علم ، وتقليد ، وجهل

إذن لكفار حرموا معتقدون في أن الله هو الخالق لكنهم شاكّون في مسألة الملاح عن الله . وأنها جاءت على لسان محمد ﷺ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ﴾ (٢٤) [سبب] الشك بأنه يُوقع في الارتباك والقلق

سُورَةُ قَطِيبٍ

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ
رُسُلًا أُولَىٰ أَجْهِمَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾

تعرضنا لمسور التي بُدئت بالحمد لله ، وهي الأنعام ، والكهف
وسنا ، وهما في فاطر ، والحمد في كل منها له معنى وله مناسبة
لأن الإنسان يحتاج إلى إيجاد من عدم ثم وسائل إبقاء في الحياة
الدنيا ثم احتاج إلى إيجاد بعد الموت ، وأيضا وسائل إبقاء في
الأخرة

، فسورة الكهف تعرضت لحمد الله على المدهج ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ

(١) سورة ماهر سورة مكه في قول الحميم قاله القرطبي في تفسيره ٨ / ٥٥٩ ، وهي
السورة رقم (٢٥) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٤٥) آية ، مرتب بعد سورة
الفرقان وقبل سورة مريم ، هي السورة رقم (٤٢) في ترتيب المزل ، وتسمى أيضا
سورة العلائكة يكرهم فيها

(٢) الفطر الخالق والفطر الشق عن الشيء والفطر الابتداء والاحتراف قال ابن عباس
كند لا أدري ما فطر السموات والأرض (٤٢) [نظر] حتى أتاني أعراسان محصمان في
بئر ، فقال أحدهما أما فطرنها أي أن ابتدأتها [تفسير القرطبي ٨ / ٥٥٩]

على عبده الكتاب . ﴿٦﴾ [الكه] ، لأن المنهج هو وسيلة الاستبقاء للإنسان ، فلولا أن المنهج يُبين للناس الحق والباطل لنعاسي الخلق ، وما استقامت لهم الحياة ، أما سورة سبأ فتعرضت لحمد الله على نعمه في الدنيا وفي الآخرة

وهذا في فاطر ﴿٦﴾ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رُسلًا ﴿٦﴾ [صمر] ، فذكرت الحمد على وسائل الإبقاء كلها المادي منها المتمثل في مقومات الحياة المادية ، والمعنوي منها المتمثل في صبح الله .

والحمد على إطلاقه لله تعالى ، حتى إن توجه للبشر فمردّه إلى الله ، لأنك حين تحمد لبشر تحمده على شيء قدّمه لك . هذا الشيء ليس من ملكه في الحقيقة ، ولا من ذاته ، نعم هو من فيض الله عليه ، فهو مبادل عن الله ، وإن قدّم لك عملاً إنما يقدره بالطاقة التي خلقها الله فيه ، وبالجوارح التي انفعلت بخلق الله فيه إذن فالحمد بكل صيغة راجع إلى الله تعالى

ثم يأتي بحيثية من حيثيات حمّد الله . فيقول ﴿٦﴾ فاطر السموات والأرض ﴿٦﴾ [مطر] ومعنى فاطر السموات والأرض خالقها ومبدعها على غير مثال سابق يُحدى به ، وهذه مسأله تستحق الحمد ، لأن الله يعاسي كرم الإنسان الخليفة في الأرض ، فسوّده على سائر لأجناس وكرمه بالعقل الذي يختار بين السائل ،

وبعد ذلك بيّن سبحانه إن كان خلق الإنسان معجزاً ، وإن كان هو السيد المحدث من جميع الأحسن ، فإن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وأعظم ، لذلك لما تكلم سبحانه عن حمد الله ذكر أكبر المخلوقات وأعظمها ، وهي السموات والأرض

والسمااء هى كل ما علاك ، لذلك تُطلق على السحاب ، فهو السمااء التى ينزل منها المطر . كما قال سبحانه ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمااءِ بِماءٍ مُّتَهَمٍ﴾ [القمـر] ، ويعست هذه هى السمااء المقابلة للأرض

والله تعالى يقول فى خلق السموات السبع ﴿الذى خلق سبعَ سَمَواتٍ طَباقاً﴾ [المـ] يعنى ليس بها فتوق أو شقوق ، فكيف إن تنزل الملائكة ومسكنهم السمااء ، كيف ينزلون إلى الأرض ؟ قال لحق سبحانه وتعالى ﴿تَرَوُا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيها بِأَبْصارِهِمْ مَّنْ كُلِّ آمَرٍ﴾ [القـدـر]

الحق سبحانه يُقَرِّبُ لنا وطيفه الملائكة وأنها حاصة بالسمااء صعوداً وهبوطاً ، فقال فى آية فاطر ﴿جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِيْ أَخْصِيَّةٍ﴾ [البـار] فعملهم إنس فى السمااء ، لكن كيف ينفذون من السمااء ، وليس بها فتوق ولا شقوق ، قلوا ينفذون ، لأن طبيعتهم الملائكية الشفافة تسمح لهم بذلك . فالإنسان مثلاً خلق من طين ، والطين له جرم ومادة لا يمكنه أن ينفذ من شىء .

أما الحن فقد خلقه الله من النار . وللبار أيضاً جرم ومادة ، لكن أطف وأشف من لطين ، لذلك ينفذ الجرس من الأشياء المادية . بديل أنك لو جعلت مثلاً تفاحة خلف جدار فإنك لا ترى شكلها ، ولا تحس طعمها ولا رائحتها لكن لو أوقدت ناراً خلف هذا الجدار فإنك بعد قليل تحس بحرارتها فى لجهة الأخرى ، وهكذا ينفذ الجرس كما تنفذ الحرارة

أما الملائكة فهى أرانى لأجاس وأعلاها خلقها الله من نور ، وهو أطف وأشف من الطين ومن النار ، لذلك لا يحتاج النور إلى منفذ أرايتم مثلاً الأشعة التى تحترق الجسم وتعطيا صورة كاملة

لما بداخله كالقلب أو غيره ، هكذا الملائكة تنفذ لا يحجزها شيء
 وقوله سبحانه ﴿حَاجِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [ص] الملائكة حنّس من
 المخلوقات ، قال الله عنهم ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
 وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) [الأنبياء] والملائكة أقسام فمنهم العالون ،
 وهم المهيّمون في الله ولا عمل لهم إلا عبادته سبحانه ، وهؤلاء
 لا يدرون شيئاً عن هذا الكون ولا صلة لهم به ، لذلك لما أبى
 إبليس أن يسجد لأدم كما أمره الله ، قال الله له ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ
 مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٥) [ص]

ومن الملائكة قسم له علاقة بالإنسان ، وهؤلاء هم الذين أمروا
 بالسجود لأدم ، وكان الله تعالى يقول لهم هذا المخلوق هو الذي
 ستكونون في خدمته ومنهم المعقّبات ، كما قال سبحانه ﴿لَهُ
 مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ﴾ (١٦) [الرعد] يعني
 يحفظونه حفظاً صادراً من أمر الله ، وإلا فالملائكة لا تمتنع عن
 الإنسان أمراً قضاءه الله عليه

إذن حفظهم لنا حفظ من باطن حفظ الله لنا ، لذلك يقولون مثلاً
 (لعين عليها حارس) ، وفري مثلاً من يسقط من الطابق الثالث
 أو الرابع ولا يصيبه مكروه ، لأن الله سبّب له أسباب النجاة ،
 وحفظته الحفظة

ومن هؤلاء المدبرات أمراً ، لذين قال الله عنهم ﴿فَالْمُدَبِّرَاتُ أَعْمَارُ﴾
 (٥) [التارعات] وهم الذين يُدَبِّرُونَ أمور الخلق بأمر الله ، ومنهم لكدة
 الذين يكتبون الأعمال ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (١٠) [الأنعام]

هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﴿رُسُلًا﴾ [ناصر] إما إلى الرسل من
 البشر يحملون إليهم منهج الله ، وإما رسلاً منه سبحانه لمهامهم التي

سُورَةُ فَطْرٍ

١٢٤.٩

تتعلق بهذا الكائن الإنساني ثم وصفهم فقال ﴿أُولَئِكَ﴾ [مطر] أصحاب ﴿أَجْنَحَةٍ مَّتًى وَثَلَاثَ رُبَاعٍ﴾ [ناصر] وهذا الوصف دلٌّ على صلة الملائكة بالجو والسماء ، ومهمة الصعود والهبوط ، وهذه الأجنحة ليس لها نظام ثابت بل منهم مَنْ له مثنى ، وَمَنْ له ثلاث ، وَمَنْ له رُبَاع ، بل ويزيد الله في ذلك ما يشاء ﴿يُرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [ناصر]

وكان الخالق سبحانه يقول لنا إِنَّ كُنْتُمْ لَمْ تَرَوْا إِلَّا حَنَاحِينَ لِلطَّائِرِ ، فَلَا تَتَعَجَّبُوا وَلَا تَتَكَبَّرُوا أَنْ يَكُونَ لِلْمَلِكِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، لَأنَّه خَلَقَ الله الذي يريد في الخلق ما يشاء ، والذي له سبحانه طلاقة القدرة ، فخلق الله ليس عملية ميكانيكية أو قوالب تُصبُّ على شكل واحد ، وخلق الله ليس مخبراً آلياً يُخرج لك الأربعة متساوية

وتتجلى طلاقة القدرة في الخلق منذ خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام فإن كانت مسألة التناسل تقوم على وجود ذكر وأنثى ، ومن هذه جاءت حمهره الناس ، فطلاقة القدرة تحرق هذه القاعدة في كل مراحل القسمة العقلية لها ، فخلق آدم عليه السلام من لا أب ولا أم ، وخلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب ،

فم دَامَ أَنْ الَّذِي يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ هُوَ اللهُ ، فَلَا تَتَعَجَّبُ وَلَا تُكْذِّبُ حِينَ تَسْمَعُ الْحَدِيثَ النَّوِي ، قَالَ ﷺ ، « رَأَيْتُ حَمْرِيْلَ وَلَهُ سَفْمَانَةُ جَنَاحٌ » ^(١) صدِّقْ ، لَأنَّكَ سَتِ مَسْئُولًا عَنِ الْكِيفِيَّةِ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُرْتَقِ

(١) أخرجه حمد في مسنده (٤١٣/١ ، ٤٦٠) من حديث ابن مسعود في تفسير قوله تعالى ﴿ وَهَذَا رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ عبد سدره المصبي (١) ﴿ [انسجم] قال قال رسول الله ﷺ ، « رَأَيْتُ جَبْرِيْلَ وَلَهُ سَفْمَانَةُ جَنَاحٌ يَبْشُرُ مِنْ رِيْشَةِ الْفَهْرِيْلِ وَالِدَرِ وَالْمَقْوَبِ » وقد قوى ابن كثير إسناده في تفسيره (٤٠٤)

الكلام صدر من الله أو لم يصدر ، صح عن رسول الله أو لم يصح ، كُرَّ كالصديق لما حدثوه عن الإسراء والمعراج وقالوا إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقار الصديق « إن كان قال فقد صدق »^١

لذلك ، فالذين يبحثون في علل الأحكام عليهم أن يدعوا البحث فيها ، ويكفي أن يؤثقوا مصدرها ، فإن كانت من الله فعلى أن أفعل لمجرد أن الله أمرني بذلك ، فحالة الحكم أن الله أمر به ، فهتت حكمته أو لم أفهم

ونرى بعض العلماء يحرصون على استنباط الحكم من كل عبادة من العبادات ، فيقولون مثلاً : شرع الله الصوم ليدرك الغنى ألم الحوج ، فنعطف على الفقير ، وهذا يعني أن الفقير لا يصوم ، فالأقرب أن تقول : أصوم ؛ لأن الله أمرني بالصوم .

فأنت مثلاً لا تسأل الطبيب لماذا كتب لك دواء كذا وكذا ، بل تترك له هذه المهمة ، وما عليك إلا أن تتناول الدواء ، ولا يسأل الطبيب ، ولا يناقشه في هذه المسألة إلا طبيب مثله . لكن هل هناك مُسْأَلُ الله فبساله : لماذا قُرض علينا كذا أو كذا ؟

فقوله سبحانه ﴿يُرِيدُ فِي الْحَقِّ مَا يَشَاءُ﴾ [طه: ٢٠] ليس على طلاقة القدرة التي لا يعجزها شيء ، ومن طلاقة القدرة أن ترى تطويل والتقصير ، ولا تكاد تُفرِّق بين قامات الناس وهم جلوس ، لأن منطق الصدر والبطن متقاربة الطول إنما تُفرِّق بينهم حال الوقوف ، لأن

(١) أنكره القرطبي في تفسيره (٤٠١٢/٥) وبما أنه قيل له : أنصفه قبل أن تسمع منه ؟

فقال : أين عيوبكم ؟ أنا أنصفه بحر السماء ، فكيف لا أنصفه بحر بيت المقدس ،

والسماء أبعد منها بكثير

معظم الطول في اسيقان والأوراك ، لذلك تنظر إلى رجلين وهما
جالسان ترى طوبهما واحداً ، فإن قاما ظهر انفارق وهذا يسموه
(الحبتر)^(١)

من طلاقة القدرة اختلاف الخلق في الشكل ، وفي اللون ، وفي
الطباع ، وفي الذكاء ، لذلك من وقت لآخر ترى طعلاً برأسين ،
أو بيد فيها ستة أصابع ، أو ذابة محمسة أرجل ، من طلاقة لقدرة
أن ترى هذا وسيماً معتدل الصورة ، متناسق الأعضاء ، كهؤلاء الذين
تنطبق عليهم شروط القبول مثلاً في الكليات لعسكرية أو البوليس ،
ونرى آخر حبهته بصف وجهه ، أو ألفه كذا وكذا إلخ هذا جرىء
القلب ، وهذا رعديد حبان هذا فصيح اللسان ، وهذا عبي لا يكاد
يسطق ، لذلك يقول سبحانه ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف
الستكم ولوانكم ﴾ (٢٢) [الروم]

من طلاقة القدرة أنه سبحانه ﴿ يهب لمن يشاء إماماً ويهب لمن يشاء
الدُّكُور ﴾ (٢٦) أو يزوجهم ذكراً وإماتاً ويجعل من يشاء عقيماً (٢٧) [الشورى]

من طلاقة القدرة أن يؤلف الله سبحانه بين الأحناس المتساعدة
تألف مصلحة وارتفاع ، وفي السوداء مثلاً بيئته تعيش فيها
التماسيح ، ورغم ما عرفناه من شرستها إلا أن الله ألف بينها وبين
الطيور ، فجمعهم مصالح مشتركة التماسيح يخرج أسى أسيراً ثم يفتح
فاه ، فيأتي الطائر ويخضع فم التماسيح ، ويختلف له أسنانه ويتغذى
على بقايا طعام التماسيح ويخلصه من الفضلات ، فإذا أحسن الطائر

(١) الحبتر القصير وكذلك النُحْر والحبتر من أسماء التعذيب أسس العرب مادة
حبر [

بقدم الصياد صوت ليحذر التمساح ، فتسرع إلى الماء ، سبحان الله
الذي خلق فسوًى ، والذي قدّر فهدى

إنت تتعجب من طلاقة القدرة حين ترى عنق الرافعة أو الحمل ،
وعنق الدب مثلاً ، مكلٌ له ما يناسبه .

تذكرون أنه عندما تكلم العلماء عن الحواس ، قالوا الحواس
الخمسة واحتاطوا للأمر وللزيادة فقالوا الخمس المعروفة ،
وبالفعل عرفنا بعدها حواسٌ أخرى ، كحاسة البصيرة التي نعرف بها
مثلاً سُمْك القماش ، وعرفنا حاسة العسل التي نعرف بها نَقْص
الأشياء

كما أن أعضاء الإنسان وحراسه تؤدي مهمتها مع اختلافها من
شخص لآخر ، فنحن جميعاً نرى بالعين ، ونسمع بالأذن ، ونشمُّ
بالأنف وهكذا ، لكن ألم نسمع ، فلان هذا يسمع دبة النملة ، وروى
لنا القاريخ عن شخصيات كانت ترى لمسافات بعيدة على غير
المعتاد^(١) ، هذا كله زيادة في الخلق ، يختص الله بها مَنْ يشاء
بذلك يقول الشاعر

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُطُوفَ فَلَا عَنَابَ وَلَا مَلَامَه

أَعْمَى وَأَعْمَى نُسَمُّ ذُو بَصَرٍ وَرِقَاءَ اليمامة

ورقاء اليمامة يُصْرَب بها المثل في حدة البصر ، فيقولون
أبصر من رقاء اليمامة .

(١) هي الرقاء ، من بني جديس ، من أهل اليمامة ، مضرب المثل في حدة النظر وجودة
البصر قالوا إنها كانت تبصر الأشياء من مسيرة ثلاثة أيام ، وذكروا من خسارها أن
حسن من تبع الحميري لما أقبلت جموعه تزيد غرر جديس ، رأتهم الرقاء ، وأدبرت
جديساً فلم يصدقوا ، فموتاهم حسن [الأعلام للزركلي ٤٤/٢]

ويُخَصَّ الشاعر "قصة فتاة منحها الله هذه الزيادة في البصر ، فقال
وَأَحْكَمْ كَحْكَمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ تَنْظَرَتْ إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَأَرَدَ التَّمَدُّ^(١)
قَالَتْ أَلَا بَيْتَا هَذَا الْحَمَامِ بِنَا إِلَى حَمَامَتِنَا أَوْ نَصْفَهُ فَقَدْ
وَكَانَ عِنْدَهَا حَمَامَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَتَمَنَّتْ أَنْ يَنْضُمَ هَذَا السَّرْبُ وَيَصِفَهُ
إِلَى حَمَامَتِهَا ، وَبِذَلِكَ سَيَكُونُ عِنْدَهَا مِائَةٌ
فَعَدَّوْهُ فَالْفَوْهُ كَمَا حَكَمْتُ سِتًّا وَسِتِّينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ^(٢)
فَتَأْمَلْ هَذِهِ الْفَتَاةُ تَنْظُرُ إِلَى سَرْبِ الْحَمَامِ وَتَعْلَهُ ، وَيَصِفُ إِلَيْهِ
نَصْفَهُ ثُمَّ تَضِيفُ حَمَامَتِهَا ، فَيَكُونُ لَدَيْهَا مِائَةٌ حَمَامَةً ، هَذِهِ قُوَّةُ فِي
الْبَصَرِ ، وَقُوَّةُ فِي الْمِلَاحَظَةِ .

كذلك حاسة الشم هيها عجائب مما يزيد الله في هذه الحاسة عند
مَنْ شَاءَ أَنْ يَرِيدَهُ ، والمثال الواضح لحاسة الشم وتمييز الروائح عند
كلب البوليس مثلاً ، وحاسة الشم قوية أيضاً عند النمل يسبحون
الروائح والعطور ، فأنت تقول رائحة طيبة لكن قليل من يميز بين
هذه الروائح ، أما بائع الروائح فرغم امتلاء أنفه بهذه الروائح الطيبة
إلا أنه يستطيع أن يُمَيِّزَهَا فيقول لك هذه رائحة ورد ، وهذه رائحة

(١) الشاعر هو الشاعر الديلمي ريان مغاربة بن ضبيب الديلمي الغطفاني المصري
ابن أمية ، شاعر جامعي ، من العبقة الأولى ، من أهل الحجاز ، كانت تُصَرَّبُ لَهُ قَبَّةٌ مِنْ
جِلْدِ أَحْمَرَ يَسُوقُ عِكَازَ فِقْصِ الشَّعْرِ ، فَتُغْرَسُ عَلَيْهِ أَشْعَارُهُمْ ، كَانَ حَقِيْقاً عِنْدَ الْعَمَمِ مِنْ
الْعَمْرِ ، عَاشَ عِزّاً طَوِيلاً ، تَوَفَّى عَامَ ١٨ ق هـ [الموسوعة الشعرية].

(٢) النيد من قصيدته للمادة الديلمي من بحر بسيط ، عدد أبيات حمسون بيتاً مطعها
يا دار فيه ماعلياء فالسيد وه التمد هو الماء القليل الذي لا ملا له وقيل هو الذي
يظهر في الشتاء وينهب في الصيف

(٣) لفظ هذا البيت كذا في كتاب " أدب الكتاب " لأبي بكر الصولي (توفي عام ٣٣٥ هـ)
فحميـوه فالقـوه كما رعت تصفاً وتسمعين لم تنقص ولم يرد
مكمت مائة فيها حمامتها وأسبرعت حسبة في ذلك العبد

فل وهذه كذا ، وهذه كذا ، فإن خلط له عدة أنواع يقول بك هذا مخلوط .

أما سيدنا يعقوب عليه السلام فقد تميز في هذه الحاسة بصورة عجيبة ، وتعلمون أنه ابتلى بفقد ولده يوسف - عليه السلام - حين رماه إخوانه في البئر ، ونتهى الأمر به إلى أن صار على خزان مصر كلها ، وجاءه أخوته يطلبون الميرة ، إلى أن أعطاهم قميصه ليحسوه على وجه أبيه فيرتد له بصره ، العجيب هنا أنه لما فصلت العير يعني خرجت من مصر وعن حيزها السكاني لأن المنطقة السكانية تكثر الروائح فيها وتختلط ، فلم يخرجوا قميص يوسف خارج المدينة ، قال يعقوب عليه السلام وهو آنذاك نازح فلسطين ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ [يوسف] لأن في قميص يوسف شيئاً من رائحته .

ومع تقدم العلم عرف أن الرائحة هي أقوى الآثار الدالة على الإنسان ، وأن للرائحة بصمة كبصمة اليد أو بصمة الصوت ، لذلك حتى هي لغيا العامة نقول (مشح أخلى لفلان ريحه) ، وكان الرائحة هي آخر أثر يمكن أن تبقى للإنسان في المكان

كذلك يريد الله في الحلق ما يشاء في حاسة الدوق ، وبعض الناس حرفته وعمله أنه دواءه بدوق الطعام ، ويزيد الله في الحلق ما يشاء في حاسة اللمس وكلنا رأينا اصراف في البك بمجرد أن تلمس أصابعه لعمته يعرف جيبها من رائحتها

كل هذه المعاني يفهمها من قوله تعالى ﴿يريد في الحق ما يشاء﴾

(١) العيرة الطعام يناد (يجلبه) الإنسان مال أو شيء العيرة جيب الطعام والبيار جالب الطعام [لسان العرب - مادة مير]

(ب) [مسر] ثم تختتم الآية بما يُطمئن القلوب إلى هذه الطلاقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [مسر] هذه هي العلة ، يعنى لا تتعجب ، فهي قدرة الله لئلا يُعجزها شيء ، وشيء هذه تعد جنس الأجناس ، لأنها تشمل من اندرة إلى المحررة ، وهو سبحانه يقول للشيء كُنْ فيكون ، فكانه موحود في علم الغيب ينتظر الأمر بأن يظهر

وبعضهم قال (يريد في الخلق) بالحاء ، وامراد جمال وعدونه الصوب ، لأن الصوت وسيلة بنقل خواص المتكلم إلى السامع وهذه يكفى لها أى صوت ، فإن كان الصوت جميلاً عدواً ، فهذه ريادة وفصل من الله

ومن أعرب ما رواه لب تاريخ العرب^١ ويُعدُّ دليلاً على الريادة في الخلق ، والمواهب التي يختص الله بها من شاء ما روى عن بزار ابن معد بن عدنان ، وقد ررقه الله أربعة من الأولاد هم مُصَرِّح ومن قبيلته جاء سيدنا رسول الله ﷺ ، وربيعه ، وإيد ، وأنمار ،

(١) بم ألف على هذه القراءة ، ولكن قال الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) (٢٢٨/٤) المعنى أنه يريد في خلق الملائكة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واحتاره الفراء والرجحان وقيل إن هذه الريادة في الحق عبر حاصه بالملائكة ، فقال الدهري وابن خريج إنها حسن الصوت وقال قتادة الصلاة في العيين والحسن في الأنف والحلاوة في العم وقيل الوجه الحسن وقيل الحظ الحسن وقيل الشعر الحعد وقيل العقل والسمير وقيل الطوم والصنم ، ولا وجه يقصر ذلك على نوع خاص ، بل يشمل كل رياده .

(٢) قال الدهري وابن خريج يعنى حسن الصوت وقال قتادة في معنى الآية الملائكة في العيين ، والحسن في الأنف والحلاوة في الفم [تفسير القرطبي ٨ ٥٥٩٦] وقاله أيضاً ابن عباس فيما أشرجه عنه ابن المبرد [الدر المنثور للسيوطي ٧ ٤] والاصح هو أنه يريد في خلق الملائكة ما يشاء من أجبجه وعبرها

(٣) ذكر هذه القصة بطولها الإمام ابن الجوزي في كتابه « الأدب » (ص ١٧٤) ، وابن حجة الحموي في « ثمر الأبرار في المحاضرات » (٢٤٩ ١)

فلما أحسُّ نزار ندُّوُ أحله جمع أولاده الأربعة وقال لهم أريد أنْ
أرلُكم على تركتكم منى قبل أنْ أموت القبة احمرء لمضر ، والفرس
الأسود والخمء الأسود لربيعة والشمطاء لإياد ، ومجلس انقوم
وتنْيه لانمار . وإنْ اختلستم فادهبوا إلى لأفعى الجرهمى بنجران
يُفسر لكم كلامى

فلما مات نزار اختلف أولاده ، فذهبوا إلى الأفعى انجرهمى ،
وهم فى طريقهم إلى نجران وكانت من أرض اليمن رأى مُصر
فى ناحية الصريق مرعى رعتُ فيه إبل وقى الجانب الآخر مرعى
أحسن منه لم يُمس ، فقال ابن الجمل الذى رعى هنا أعور فقال
ربيعة وهو أرور يعنى أعرج وقال أنمار هذا الجمل أنتر يعنى
مقطوع الذيل ، وقال إياد : وإنه لشرود

وبينما هم على هذه الحار قابلهم رجل يشدُّ بعيره يقول هل
رأبتم بعيراً شرود مى ؟ فقال مضر أهو أعور ؟ قال نعم ، قال
وأرور؟ قال نعم ، قال وأبتر ؟ قل نعم ، قال وشرود ؟ قال
نعم ، هو شرود رأبتم أحدثموه ، فاحتكموا إلى الأفعى الحرهمى ،
لأنهم كانوا على مقربة من نجران ، فلما سألهم قالوا ما أحذا
الجمل

فقال إذن كيف وصفتموه لصاحبه هذ الوصف ؟ قال مُصر
لما رأيتُ رعى جانباً دون الآخر عرفتُ أنه أعور ، وقال ربيعة لما
رأيتُ أثر خَفِّه على الأرض وحدث اليمى سيمة النصمة على الرمال ،
والأحرى غير ذلك ، فعرفتُ نه أرور وقال إياد رأيت بعْره فى
مكان واحد ، فعرفت أنه أبتر ، ولو كان له ذيل يفرق بعْره هما
وهناك فقال أنمار بما رأيتُه يأكل من أماكن متفرقة عرفتُ أنه

شُرود فقال الأعمى الحرهمي حطو سبيلهم ، فقلت لمراسة يهبها الله لمن يشاء .

ثم سألتهم من أنتم ؟ فقالوا نحن أولاد نزار بن معد بن عدنان وقد أوصانا أبونا إذا اختلفنا أن نجتكم إليك ثم قصوا عليه مقالة أبيهم ، فقال القبة الحمراء التي لمضر أعطوه كل شيء أحمر كالدنانير والنوق الحمر ، لذلك سميت مضر لحمراء بعد أن صر مضر علماً على القبيلة .

وقال والفرس الأدهم^(١) والحبيء^(٢) الأسود لربيعة يعني أعطوه كل شيء فيه سواد ، والشعطاء لإياد أعطوه رذال^(٣) المال (و المدعبلات) من الغنم أما أمار فه الفصة البيضاء والمجلس

ربعد أن فسر لهم وصية أبيهم أراد أن بكرمهم ، فامر كهرمانه أن يبيع لهم دسحة ، ويعد لهم طعاماً وشرباً ، وعلى مائدة الطعام جلسوا يتحدثون وهو يتأمل فراستهم فقال ربيعة ما رأيت طيب من هذا اللحم ، لولا أن أمه عذيت بلبن كلفة ، فلما شربوا من الشراب قال مضر شراب طيب لولا أن كرمه زرعت على قبر ، ثم قال أمار هذا الرجل من سراة القوم وهو سيد ، إلا أنه ليس ابن جبه فقال إننا والله ما رأينا كلاماً أحسن من كلامنا بعضنا مع بعض

(١) الدهمة السوداء والأدهم الأسود ، يكون في الخيل ولابل وغيرهم إسن العرب مائة دهم [

(٢) الحبياء من وير أو صوف ، وهو من بيوت الأعراب ، دون المظلة ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وقد يستعمل في المنازل والمساكن ، ومنه الحديث : به أتى خباء قاطمة وهي في المدينة يريد ضربها [قاله ابن منظور في سنن العرب - مادة حبا]

(٣) رذال هو الرديء من كل شيء ، رذال ما انتقى جيده وبقي رديئه ، والأردس من كل شيء الرديء منه [سنن العرب - مادة رذل]

ثم قام الأفعى الحرهمى واستدعى الراعى لدى ذبح لهم الشاة ،
وسأله ما هذه الشاة التى ذبحتها لما ؟ فقار به ماتت أمها بعد
ولادتها ، ولم يكرُ عندنا شاة مرصعة ، فأرصعُها من كلبة ، ثم
سأل كهرمانه عن الشراب فقال هو من لعنة التى زرعتها على قبر
أبيك ، فلم يثق إلا أن يسأل عن سببه إلى أبيه ، فذهب إلى مه وقال
لها يا أمى ، أحسرى من أن ؟ ومرُ أنى ؟ فأحسستُ الأم أنه سمع
شيئاً فقالت له لقد كان أبوك ملكاً مطاعاً ، وما بعمة ومال ، إلا أنه
لم ينبج ، محشيتُ أن يذهب هذا الملك وهذا المال إلى غيره ، فحدث
ما حدث .

عندها عاد إلى صيفه وقال لهم لم تعودوا فى حاجة إلى ،
وإنما يصبح الناس جميعاً فى حاجة إليكم فإن سألت الآن وكيف
عرف هؤلاء ما عرفوا ؟ يقول إنها فراسه وقوة ملاحظة تدخل تحب
هذه الآلة ﴿ يريد فى الحق ما يشاء ﴾ [مصدر]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ مَا يَتَجَنَّ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا مُمْسِكَ
فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ تَعَدٍّ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

ما دام أنه سبحانه وتعالى هو الخالق ، فمقتضى الخلق رُ
يوفر الله للمخلوق ما يصلحه ، فهو أولاً يحتاج إلى رحمة فى نفاء
حياته ، لذلك تُدرر سبحانه المطر فحيى الأرض بالنبات ليروع
الإنسان ويكل ويشرب ، وقد قوام حياته المادية ، ثم يوفر له أيضاً
قوام حياته الروحية المعنوية فيُدرر عليه ما يحفظ قومه ، وما يُنظم

حياته بأدب مع غيره ، وهذا هو المنهج الذي قال الله فيه ﴿أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (٣٦) [الزحرف]

وهذه الرحمة إن أرادها الله بعدد ، فلا أحد يمنعها عنه ﴿ما يمح (١)﴾ [مطر] يعنى يعطى ويمنح ﴿فَلَا يُمْسِكُ﴾ (٢) ﴿[مطر] فلا مانع ولا حابس لها﴾ ﴿وَمَا يُنْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ﴾ (٣) ﴿[مطر] لا معطى﴾ ﴿لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (٤) [مطر] أى . من بعد الله

وبأمل الأسلوب القرآنى فى ﴿ما يفتح﴾ (٥) [مطر] مقابلها يخلق ، اكى لحق سبحانه لم يقل وما يخلق نما ﴿وَمَا يُنْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (٦) [مطر] لماذا ؟ قالوا لأن لمخلق ربما تمكّن أحد من فتحه بالحبلة أو بالقوة ، أما ﴿وَمَا يُنْسِكُ﴾ (٧) [مطر] فلا أحد يستطيع أن يبال شيئاً أمسكه الله

ومن معانى هذا افتتح وهذه الرحمة الرسالة التى خصّ الله بها سيدنا رسول الله ، لذلك قال الكفار ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٨) [الزحرف]

وقالوا ﴿أَنْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ (٩) [مطر] فردّ الله عليهم ﴿أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ بَعْضُ قِسْمِ بَيْنِهِمْ تَعِيشَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١٠) [الزحرف]

معنى نادبوا مع الله ، فهو الذى قسم لكم أمور أدب وأمور المعاش ، أترك لكم ولاهوائكم أن تُقسّموا الوحي ، وأن تجعلوه يزل على من تهوون °

والفتح إزالة حاجر بين شيئين وصه حسى كما يفتح الباب

أو الشبهة مثلاً ، كما ورد في القرآن ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِمِصْرِهِمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ (٦٥) ﴿يوسف﴾

وقد يكون الفتح أمراً معنوياً كالفتح بالخير ، أو بالرحمة كالرحي الذي اختصر الله به سيدنا رسول الله ﷺ ومنه قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا لَهُمْ مِنْ فَتْحِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (٧٦) ﴿البقرة﴾ يعني من الوحي الموجود في التوراة من صفة النسي ﷺ ، هذا فتح معنوي بالخير وبالبركة

ومن معاني الفتح الفصل وقض الأشكال بين الخصوم ، كما في قوله سبحانه ﴿رَبَّنَا افْضَحْ بَيْنَ بَيْنِ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ حَكِيمٌ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩) ﴿الأعراف﴾

وعلة قوله تعالى ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ بِهَا﴾ (٩٤) ﴿إبراهيم﴾ ، لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، لا إله غيره ، فلو كن معه إله آخر لكان به رأي آخر ، أمّا الحق سبحانه وحده فيتصرف في ملكه تصرف من لا شريك به ، وإلا فكيف يثق بأنه حين يقول شيء كُنْ فيكون أن الشيء يصيغه ؟

فإنه يقول هذا الأمر ، وهو يعلم أن الشيء سيطيع ، فلا أحد يستطيع أن يقول له لا نطع ، لذلك أول من شهد بالالوهية ولوحديّة الواحد هو الله سبحانه ، شهد بها لنفسه سبحانه ، فقال ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (٨٤) ﴿آل عمران﴾ وهذه شهادة الداب للذات ، لذلك أقس على الأشياء كُنْ فكانت ، وسمعت ، وأطاعت ، وفقدت

واقراً ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) وأدب لربها وحسب (٢) ﴿الانشقاق﴾ يعني سمعت بوعي وحق لها أن تسمع ، و نطيع ، لأنه ليس لها إله آخر يعارضها إن أطاعت

وبعد أن شهد الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات شهدت
بذلك الملائكة شهادة المشاهدة ، ثم شهد أولو العلم شهادة التدليل
﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ (١٨) [ال عمران]
ثم تذييل الآية بقوله تعالى ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ (٢) [فاطر] نعم ،
مادام أن تعالي له واحد لا شريك له ، يرسل رحمته لمن يشاء ،
ويعسك عنّ يشاء فهو عزيز والعزيز هو الذي لا يغلب ولا يصع ،
لكن هذه العزة وهذه العلية ليست صادرة عن بطش أو ظلم
أو جبروت ، إنما صادرة عن حكمة ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ (٢) [فاطر]
فهو سبحانه حكيم في عطاءه ، حكيم في منعه ، والحكمة - كما
قلنا - هي وضع الشيء في موضعه المناسب

ثم يقول الحق سبحانه

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ
عِزُّ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَآلِفٌ يُؤْفِكُوكَ﴾ (٢)

الحق سبحانه يمتنّ على عباده ويذكرهم بنعمه عليهم ، ويذكر
أول هذه النعم وهي نعمه الخلق من عدم ، وأراد سبحانه أن يبرز
لهم هذه المسألة إمراراً يشركه سبحانه وتعالى فيه ، فلم يأت
الاسلوب في صورة الحبر أنا خلقتكم ، بما جاء في صورة
لاستعظام ليقولوا هم ويقدروا ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء
والأرض﴾ (٣) [فاطر]

ومعلوم أن الخير عُرْضَةٌ لَأَنْ يُكْذَبَ ، أمّا الاستفهام فلا تستصيح
أن تكذبه ، وأنت لا تسلفهم عن شيء فعلته إلا إذا كنت واثقاً أن
الإجابة ستأتى على وفق مرادك ، فحين ينكر شخصُ حميتك لا تقول
له فعلتُ لك كذا وكذا ، لأنه ربما كذبت ، إنما تقول ألم أقدم لك
كذا يوم كذا ؟ حينئذ لا يستطيع إلا أن يُقرَّ بحميتك ، فإن يحد إجابة
عن سؤالك إلا الإقرار

كذلك الحق سبحانه يُقرُّهم بنعمه ليكون الإقرار حجة عليهم
ويسانهم ، وهو سبحانه أعلم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِكٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ ﴾ [طه] ثم يذكر هو سبحانه النتيجة ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [طه] ولم يقلوه
هم لأنهم (مريبون) وكان المطلق ما دام هو سبحانه الخالق
البارق عليهم أن يؤمنوا به ، وقالها سبحانه بصيغة العائب ﴿ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ ﴾ [طه] ولم يقل إلا أنا ، كأنه سبحانه هو الشاهد في هذه
المسألة ، كأنه يتكلم عن العيب .

وقوله ﴿ فَأَمَّا تَوَفَّكُونَ ﴾ [طه] بمعنى كيف تعب هذا تصرعون
عن توحيدهم وعن الإيمان به ، وتوَفَّكُونَ من الإمك وهو قلب الشيء
عن موضعه وصرفه عن محبه ومن ذلك المؤتفكة ، وهي اقترى
التي أهكها الله ، فجعل عاليها سافلها ، وقلبها على وجهها

والإفك أنصاً بمعنى الكذب ، لأنه يفسد لحقيقته فكان الحق
سبحانه يقول لهم كيف تقلبون لحقائق ؟ وكيف تصرعون خلق الله
ورزق الله إلى غيره سبحانه ؟ بمعنى قولوا لما علة ذلك

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن الوحدانية والالوهية أراة أن يتكلم
سبحانه عن مُرْسَلٍ لالوهية إلى الخلق

﴿وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وَالْيَاسِينَ

هذه تسلية لسيدا رسول الله ، كما خاطبه ربه بقوله ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَاعِيَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف] لست أول رسول يكذبه قومه ، فمن قبلك كذبوا ، وهذا أمر طبيعي ، لأن السماء لا ترسل رسولا إلا حين يعم الفساد ، ويقتفد الناس الوازع والراعي ، لا من النفس للنفس ولا من المجتمع

وقلت إن الخلق سبحانه جعل في النفس الإنسانية رادعا ذاتيا يردعها حين تخرج عن منهج ربها ، وهو النفس اللوامة ، فإن توارت هذه النفس وعلبت عيها النفس الأمارة بالسوء جاء دور المجتمع الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإن قصد المجتمع فلا يد أن يأتي رسول جديد بمعجزة جديدة ليحدد للناس ما غفلوا عنه من دين الله

وكون رسالة محمد هي الخاتمة ، فلا رسول بعده ، هذه شهادة لأمته أنها سيطر فيها الخير ، وستظل مأمومة على دين الله وقوله تعالى ﴿وَالْيَاسِينَ﴾ [طه] ﴿وَالْيَاسِينَ﴾ [طه] في الآخرة فمن كذبك من قومك إما أن يأخذ الله في الدنيا كما أخذ المكذبين من الأمم السابقة ، وإما أن يؤخر له العذاب في الآخرة

بعد ذلك نكلم الحق سبحانه عن الأصل الثالث من أصول التشريع بعد أن تحدث عن الأصولية والوحدانية وتحدث عن الرسول فنحدث عن المسألة الثالثة التي اختلفوا فيها ، وهي المعصية والحشر والحساب

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾

يعنى وعده حق في أنكم ستُردُّون إلى الله في الآخرة ،
عجاسكم ويُحازيكم ، المحسن بحسنه والمسيء بإساءته ، وهذا
مبدأ معروف ومعمول به في كل المجتمعات حتى البدائية منها .
وحتى الملاحدة يعملون بهذا المبدأ . فيعطى المُحْدُ ويعاقب المقصُرُ ،
بل بعض هؤلاء يصنعون قوانين للثواب والعقاب أصرم وأشدَّ من
قوانين الله مثل قوانين الإعدام والشق ومصادرة الأموال إلخ

والمجتمع لا يستقيم أمره إلا بهذا المبدأ ، فإن اختل تطبيقه فسد
المجتمع وأحبط الأفراد وعمت الفوضى ، ولم لا والمحسن
لا يأخذ ثمرة إحسانه والمحرم لا يُعاقب على حريمه ، إنَّ لا بُدَّ
أن يرمى في الناس وازع لرغبة في الخير والرهبة من الشر ،
بزيادة المحسن في إحسانه ويرعوى المسيء عن إساءته

وكيف لا يُقبل هذا المبدأ في عالم مليء بالمطام والتعدييات والبطش
والتعديوت ، ثم لا تأتي الوقت الذي ينال فيه كل ما سبَّحه ؟

لذلك كثيراً ما أذكر ما دار بينا وبين الشيوعيين الذين ينكرون
مسانه البعث والحساب ، فكتُ أقول لهم لقد أحسنتم أعداءكم
وقتلتموهم ، وصادرتم أموالهم ، وسلبتم بهم لافاعيل ، لأنهم في
نظركم غيروا مقاييس لعماء ، مما بال من فعلوا هذا وظنوا ، لكنهم
أفتوا منكم ، ولم تظنهم أيديكم بعقاب ؟

وما بال الظالمين قتلتم وبعدم ؟ أليس من لصواب القول بموعده

بجمع هؤلاء جميعاً لحساب ، حيث ينال كل منهم حراة ٩ أييس هذا
الجزاء يسعدكم ويُنلج صدوركم حين تروون الظالم يُؤخذ بطمعه

إن كان عليكم أن تؤمنوا بهذا اليوم ، لا أن تنكروه وتكفروا
به ، وهو يقوم على نفس المبدأ الذي تنادون به أنتم

لذلك تلحظ أن البدء هنا لكل الناس ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِذْ رَعَدَ اللَّهُ حَقُّ
(٥)﴾ [مصدر] أي وعده بالقيامة والبعث ولحساب ، وهذه مسألة
يُخاطب بها كل الناس ، ووعد الله حقاً لأن الوعد بأحد حقيقي من
الواعد ، ومن قدرته على إتمام وعده ، ومن أقدر من الله ؟

ذن : ينبغي أن نتق في الوعد إن جاء من الله سبحانه ، ولا نتق
في وعد من لا قدرة له في ذاته ،

وسبق أن بينا أن الإنسان يعد وينوي الوفاء وقت الوعد ، لكنه
لا يملك أسباب الوفاء ، فربما طرأ عليه طارئ أو تغيرت الظروف ،
فحالت بيه وبين الوفاء بوعده ، لذلك يعلمنا ربنا أدباً عالياً في هذه
المسألة في سورة الكهف ، فيقول سبحانه ﴿لَا تَقُولُوا لشيءٍ إني فاعلٌ
دلت عداً (٢٣)﴾ إلا أن يشاء الله (٢٤) [الكهف] تعليق فَعَلْكَ على مشيئة
ربك يُعْطِيكَ من الكذب إن عجزت عن الوفاء ، فلك أن تقول نويت
الوفاء ، لكن الله لم يشأ

لذلك لا يُوصف وعد بالحقية إلا وعد الله ، لأنه سبحانه وحده
الذي يملك كل أسباب الوفاء بوعده ولا يعوقه عن الوفاء شيء ،
ولا يمانعه أحد ،

وما رام أن وعد الله حقاً ﴿فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٠)﴾ [مصدر]
لا تحذعنكم لأن الناس طنائع ، منهم من يعتز بشيء أسس عليه .

ومنهم من يفتتر في ذاته ، وهذا هو الذي تفره الحياة الدنيا
شبهاتها ، فيعيش فيها بلا تكاليف وبلا استقامات ، كما فعل الكفر
حين عبوا الحجارة ، لأنها آلهة بلا تكاليف ،

لذلك يحذروا ربنا لا تخذعنكم الدنيا عن شيء آخر أعلى منها
هو الآخرة ، ويكفي نماً لهذه الحياة أن الله تعالى سماها دنياً ،
والمقابل للدنيا حياة عليا هي الآخرة ، فالمعنى لا تخذعنكم الدنيا
عن مطلوب الله الذي يؤهلكم لحياة أخرى عليا ،

وسبق أن بينا أن لدنيا بالنسبة للإنسان هي مدة بقائه فيها ،
لا عمر الدنيا كله وعمره في الدنيا رغم قصره هو عمر مظلون ،
ونعيمك فيها على قدر حركتك فيها ، أما عمره في الآخرة فمعتيقن ،
ومعكم فيها على قدر إمكانيات الله وأنت مهما بلغت من نعيم الدنيا
يُنْفِصه عليك أن يروى ، إما أن تتركه أنت وتموت ، أو يتركك هو
فيظل في الدنيا رغم عراك ونعيمك بها مؤزناً مشغول البال خائفاً
من هزات النعمة أما في الآخرة فالنعمة باقية دائمة ، لا مقطوعة
ولا ممنوعة إذن ، إن افتررت بالدنيا فأحر هذه المقارنة .

لذلك ، لما تكلم الحق سبحانه عن هذه الحياة وصفها بأنها دنيا ،
ولما تكلم عن الآخرة قل ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾
[المكوت] فمعنى الحيوان أي الحياة الحقيقية الدائمة التي
لا يهددها موت ولا فناء يجب - إذن - أن نعيشه ، وأن نتحارب
ابديل الأرجح والافعل لك ، لذلك نقول للذين اعتمدوا على الله وعاشوا
في كنف الله وعلى منهج الله بقول إنهم عرفوا كيف يسوسون
حياتهم فأخذوها من قصر الطرق ، وبصف هؤلاء بأسكر وأصرار
المكر العالي المكر الحسن

وفي موضع آخر يُبين الحق سبحانه لنا حائل الدنيا ووسائل

غرورها . فيقول سبحانه ﴿ رُبُّنَا لِنَاسٍ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ
وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْهَضْبَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ ۚ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَحْرَثِ ذَلِكَ
مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَاللَّهُ عَذَابُ حَسْبِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [آل عمران]

وقوله سبحانه ﴿ وَلَا يَغُرِّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [ماطر] أي
الشیطان ، فالخداع والغرور إما أن يكون من النفس ذاتها بدون مؤثر
خارجي ، وإما أن يوحد شیطان سوء یغُرِّك ويوسوس لك ، إذن ،
أنت أمام عدوين ، إما الدنيا بشهواتها ، وإما الشیطان بهمزه وشره ،
وقد حذرتنا ربنا منه فقال ﴿ وَإِنَّمَا يَرْعَى مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الاعراف]

تعني تنبه لهذا العدو ، وكُنْ منه على حذر ، فعداوته لك مُسْبِقَةٌ
مند أميك آدم ، وكُتِرَ له لك واصحُّ مُعْتَلًى ، فينبغي أن يكون لك معه
موقف ، لذلك يقول تعالى بعدها

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو
حَرَبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

ما دام أنه عدو لك مُعلنُ العداء ، فلا يحوز لك أن تهدأته
أو تستكبر له ونطيعه ، لأنك حين تطيعه يسمري عداوته صدك ،
إذ لا بُدَّ أن تعاديه وأن تُوقِفَه عند حدّه ، كيف ، أضعف الإيمان
أن لا تطيعه فإن أردت أن تكون أقوى منه فاستقم معه وغلظه بأن

(١) الحين المسمومة أي المرملة للرعي أو المظلم بعلامات [القاموس الموم ٢٢٧/١]
وقال ابن عباس المسموم الراعي والمطبعة الحسان وقال مكحول المسمومة الغرة
والتعميل والعظم من الحيل الحسن التام كل شيء منه على حدته فهو بارع للجمال
[قال ابن منظور في لسان العرب - مادة ظم]

تتجه إلى مقابل ما يطلب منك ، فهو يأمر بالسوء ، فافعل أنت الحسن
ياأمرك بالشر ، فاجتهد في الخير ، وكأنك تسخر منه وتلقنه درساً
لا يملك بعده إلا أن يصرف عنه ، لأنك وظفت عداوته لصالحك
وانتفعت بها ، وهذا ما يغيظه .

وتستطيع أن تأخذ بهذا المبدأ مع أيّ عدو آخر سواء أكان من
شياطين الإنس أو شياطين الجن ، تستطيع أن تجعل من عداوته لك
حافزاً على الخير وعسى عشق كل ما هو حميم ، فالعقل من استقام
من عدوه أكثر من استفادته من صديقه

وصدق القائل^(١)

عدائي لهم فصر على ومئة قلا أذهب الرحمن عني الأعدا
هموا محترا عن زلتي فاجتنتها وهم باقسوني فاكتسبت المعاليا
بامؤمن الحق مستطيع أن يستفيد من عداوة أعدائه في نواح
كثيرة ، فهو مثلاً يعمل ويحتهد لتفوق على عدوه ، لا أن يكاسل
حتى يكون دونه منزلة ومرتبته يجتنب المعايب وأفعال السوء حتى
لا يعطى لعدوه فرصة أن يشمت فيه ، إلخ

كذلك نقول إن بعض الصفات المذمومة في لباس فيها جوانب
خير لو تأملناها ، فالحيل مثلاً مكروه من الجميع ، لكن حين تتأمل
وصعه تجده هو الذي يُعين الكريم على كرمه كدفء رأساً كثيراً
في القرى هذا النموذج رجل كريم لا يساعده دحله على القيام

(١) القائل هو أبو حيان الأندلسي وهو محمد بن يوسف بن عبيد ، ولد ٦٥٤ هـ ، سمع
الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو ٤٥ شيخاً ، كان صدوقاً
حجة سالم العقيدة من البدع ، تولى بالقاهرة عام ٧٤٥ هـ عن ٩٠ عاماً والبيتان من
معية له في ديوانه وهو سمي إلى العصر المملوكي

بممتلكات هذا الكرم وتنعماته من السمحة والعدو والعطاء والمجاملة
الخ ، فكان كل فترة يبيع قطعة أرض ليقف منها فلم يبيع الكريم
أرضه إذا لم يكن هنالك البحيل الممسك * فكان البحيل يعين الكريم
على كرمه

وإذا كان الكريم يأسر بكرمه وتدان له بجميله فليس للبخل
جميل عليك ، ولست أسيراً له في شيء ، لذلك عثر الشاعر عن هذا
المعنى ، فقال

جُرئِ البخلِ على صالحة مني لحقته على طهرى

يعنى - ليس له جميل عدوى يجعلنى عدواً لإحسانه .

ومعنى ﴿فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا﴾ [طه] أن تشخص كل طائفتك وكل
مواهنك لتربى فيك الصبغة اللازمة ضد إغرائاته ووسوسته لك
بالسوء ، فإن أردت الارتقاء في مناهضته مراد من الحسنات التي
يكرهها فإن حياءك في الصلاة ليفسدها عليك فغطه بأن تخشع
فيها ، وتزبد في تحسبها .

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [نمل] يعنى أصبح
له حزب وجماعه بدور أن يكثروا ، لذلك قال تعالى في موضع آخر
﴿اسْحَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاَشَاهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَن لَّكَ حَرْبٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حَرْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنعام]

ومعنى حزب جماعة تعصبوا لفكرة يعملون من أجلها في مقابل
جماعة أخرى لهم مناهضات ، ويعملون هم أيضاً لفكرة تخدمهم
والعلة في أنه يدعو حزبه ليكونوا كثرة فيكثر المتخبطون في مهبج
الله واستأرجوز عنه في مقاس حزب الإيمان والصاعة ، هذه هي العلة

أما قوله تعالى ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الْعِبرِ﴾ [طه] فاللام هنا لام العاقبة ومعناها أنك تريد الشيء لعله ، لكن تنتهي إلى علة أخرى صد مطلوبك .

وقوله ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْعِبرِ﴾ [طه] دل على أن بينهم وبين البار ألفة ، وأنها تريد لهم وتعشفهم حتى صارت سبهما مصالحة ثم بقول الحق سبحانه

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه حرب اشیطان يذكر لحكم عليه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (٧) [طه] رمى المقابل ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ (٨) [طه] ثم بقول الحق سبحانه

﴿أَمَنْ زَيْنٌ لِمُسُوَّةٍ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُصَلِّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعَوْنَ﴾

الأسلوب في ﴿أَمَنْ زَيْنٌ لِمُسُوَّةٍ عَمَلِهِ﴾ [طه] أسلوب استيفهم لكن لم يذكر المقابل له ، وتقديره هل يستوى ومن لم يُرير له سوء عمله ؟

والحق سبحانه لم يذكر جواباً لأنه معلوم ، ولا يملك أحد إلا أن يقول لا يستويان ، لأن الناس منهم من يعمل السيئة ، ويعلم أنها سيئة ، ويكتفى بها لا يتعديها ، ومنهم من يتعدى يفعل السيئة ويدعى أنها حسنة ، وهذا مصيبتة أعظم لأنه ارتكب جريمة حين فعل السيئة وارتكب جريمة أخرى حين ادعى أنها حسنة ، هذا معنى

﴿فَرَاهُ حَسَنًا﴾ (٨) [مطر] ، وهذا احتلال في الرؤية وضلال

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُصَلِّ مِنْ شَاءَ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

(٨)﴾ [مطر] وهذه الآية وقف عنده كثيرون ، يقولون إن كان الله هو الذي يهدي ، وهو الذي يصل فلماذا يحاسب الإنسان ؟ ولا بد لتوضيح هذه المسألة أن تُبين معنى يهدي ويُصل . يهدي يعني

يدله على طريق الخير ويرشده إليه ، وهذا الإرشاد من الله لكل الناس ، فمن سمع هذا الإرشاد وسار على هُداه وصل إلى طريق الخير ، فكان له من الله العون وريادة الهدى ، كما قال سبحانه

﴿وَابْتَدِئَ اعْتَدُوا رَأْدَهُمْ هَدَىٰ رَأْيَهُمْ تَقَرَّاهُمْ﴾ (١٧) [محمد]

أما الذي أغلق سمعه فلم يسمع ولم يهتد فصل الطريق وانحرف عن الجادة فأعابه الله أيضاً على عايته ، وزاده ضلالاً ، وختم على قلبه ليكون له ما يريد ، فلا يسجل قلبه إيماناً ، ولا يخرج منه كفر ، ومولاء قال الله فيهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (١٠) [البقرة]

لذلك يقول تعالى عن قوم ثمود ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ

عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (١٧) [قصص]

فمعنى ﴿هَدَيْنَاهُمْ﴾ يعني سلطاهم وأرشدناهم بطريق الخير ،

ولكنهم رفضوا هذه الدلالة وعارضوا الله فضّلوا فأصمهم الله يعني رادهم صلاً .

وسبق أن أوضحنا هذه القضية وقبلاً هب أنك تريد أن تذهب إلى مكان ما ، ووقفت عند مفترق الطرق لا تدري أيهما يوصاك إلى غايته فذهبت إلى رجل المرور تسأله أين الطريق ، فأك عليه فشكرته وعرفت له حميله ، فلما رآك مضيقاً له ، شاكرًا لفصله قال الله لكن أمامك في هذا الطريق عقبة سأسير معك حتى تتجاوزها ، هكذا يعامل الحق سبحانه المهتدين ﴿ وَلَذِينَ آمَنُوا رَادَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد]

وقد خاطب الحق سبحانه بيده ﷺ بقوله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [قصص] وخاطبه بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى] فأثبت له ﷺ الهداية بمعنى الإرشاد والدلالة ، لكن نفي هي حقه الهداية بمعنى المعونة على الهدى ، فالله يهدي من يشاء

ثم إن الحق سبحانه لم يترك هذه المسألة هكذا ، إنما بيّن من يهديه ومن يضلّه ، فقال سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] وقال ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف] وأى هداية للإتيسار بعد أن كفر بالله ، وقسّق عن منهجه ، وأفسد في أبلاد ، وظلم العباد ؟

وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [طه] يعني لا تهك نفسك حسرة على عدم إيمانهم ، وهذا المعنى شرحه الحق سبحانه في قوله ﴿ فَلَمَّا جَاءَ نَفْسُكَ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُوا هُدًى سَبِّحْهُمْ نَافٍ ﴾ [الكهف]

سُورَةُ طه

﴿١٢٤٣٣﴾

فرسول الله ﷺ كان حريصاً على هداية قومه ، يالماً أشدّ الألم حين يشرّد أحد منهم عن طريق الإيمان ، بذلك قال تعالى عن نبيه محمد ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) [التوبة]

ثم يقول سبحانه مُسْلِماً رسوله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْعُونَ﴾ (٨) [ماطر] يعنى لا تحصى عليه حافسة من أفعالهم ، وسوف يجازيهم ما يستحقون من عقاب على قدر ما بدر منهم من إعراس ، فاطمئن ولا تحزن ،

بعد ذلك يتقننا الحق سبحانه إلى بعض الآيات الكونية الخاصة بسعمه سبحانه على الخلق ، فيفوق تعالى :

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى الْبَلَدِ مَمِيتٍ
فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ (٩)

معنى يرسل لرياح يعنى يحركها ، ويحرك الرياح يتم استيعاب خير الوجود كله ألا ترى ن الرياح إذا سكنت يتصايق الإنسان ويحاول تحريكها بعفسه بيده أو بالمروحة مثلاً ، لأن حيّزك فى النفس لا يتم إلا بتحريك الهواء ، وتغيير ثانى أكسيد الكربون ليحس محله الأكسوجين ، ولا تتم هذه العملية إلا بتحريك الهواء ، لذلك يقولون إذا لم يمر عليك الهواء فمَرَّ أنت عليه يعنى حرّكه أنت

وبنحة حركة الرياح إشارة السحب ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ (٩) [ماطر] يعنى تُهَيِّج وتُحَرِّك من أمكنه ، بحيث يذهب بعد تجمعهُ إلى حيث أراد الله أن ينزل امطر ، إنس حركة اسحاب ليسب ذاتية ، وإنما

تابعة لحركة الرياح . وهذه المسألة تساعدنا في فهم قوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْجِبَالُ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (٨٨) [النمر]

فالجبال التي نحسبها ثابتة هي في الحقيقة تمر وتتحول كحركة السحاب ، وكما أن لسحاب لا يمر بدانه ، إنما بحركة الرياح ، كذلك الجبال لا تمر بذاتها ، إنما بحركة الأرض والجبال ثابتة على الأرض كما لاوتاد ، لذلك تتحرك بحركتها ﴿ صَبَّحَهُ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٨٨) [الفل]

المعنى لم يفلح إلى حركة الأرض التي تنتعها حركة الجبال فقال في قوله تعالى ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (٨٨) [النمل] أن هذا في الآخرة ، لكن أين هي الجبال في الآخرة والله يقول عنها ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (٩٠) [المعارج] ثم ، كيف يمتد الله عليها ويحتج سديع صنعه في حركة الجبال في الآخرة ، حيث لا تكليف ، ولا موضع لتحسين القلوب وعطفها إلى الإيمان

هذا عن حركة الرياح ، أما عن سكونها فيقول تعالى ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلُ رَوَاكِدَهَا ﴾ (٩٣) [الشورى] وامرأه السفن التي تُسَيَّرُ الرياح حين قُلْتُ فهل يظل لهذه الآية هذا المعنى بعد التطور الذي طرأ على السفن ، وبعد أن تلاشت القلاع وحرر محلها الآلات التي تُسَيَّرُ السفن دون حاجة إلى حركة الهواء ؟

١) العهد الصوب المصنوع بأى لون أو الألوان مختلفة قال تعالى ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (٩٣) [المعارج] كالصوف ذي الألوان المختلفة [القاموس القويم ١ ، ٤]

(٢) ركبت السماء والرياح هنا وسكن وركبت السطحية ههنا بعد اضطرابها أو سكنت

حركاتها لسكون الرياح التي تُسَيَّرُها [القاموس القويم ١/٢٧٤]

نقول نعم ستظل لاية تحمل هذا المعنى إلى ما شاء الله .
لأن الاختراعات المديثة لم تفاجيء خالقها عر وجل ومن قال
إن الريح هو الهواء " الريح هو القوه أيا كانت ، وافرأ قوله
تعالى ﴿وَلَا تَارْعُوا فَمَ تَأْلَوْا تَذْهَبُ رِيحُكُمْ﴾ (٤) [الاسعاع] يعنى
قوتكم أيا كانت قوه هواء ، أو قوه كهرياء ، أو قوه بخار
ومحركت .. الخ

ونلاحظ فى أسلوب هذه الآية أن الفعل ﴿أَرْسَلَ﴾ (٩) [فاطر] جاء فى
صيغة الماضى ، لكن (تثير) فى صيغة المضارع ، ولم يقل سبحانه
فأثرب سحاباً قال أرسل يعنى أمر أن ترسل ، فهذه مسألة
انتهت وفرع منها ، أما إثارة السحاب وتحريكه فمسألة متجددة
مستمرة فى كل لحظة ، فاسمها المضارع الدال على الحال
والاستقبال .

أو أن المعنى ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ (٩) [فاطر] جاء
فى الماضى ، لأن الكلام عن العيب ، والاسم الظاهر عيب وهو لفظ
الجلالة ، ثم انتقل من الغيب فى ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ (٩) [فاطر] إلى مقام
المتكلم ، فقال ﴿فَسُقَاهُ﴾ (٩) [فاطر] كان الله يلفك بالعمة لى غيب هو
الله تعالى فحين نستحضر أنه الله الذى فعل أصبحنا أهلاً لمكالمة
الله لك

ومثال ذلك ما قلنا فى سورة الفاتحة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
(١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) يَوْمَ لَدُنْهِ
(٤) [العمة] هذا كله غيب إلى ﴿يَاكَ نُعِذُّ وَيَاكَ نُسَعِى﴾ (٥) [الفاتحة]

وَمِمَّنْ يَقُولُ إِيَّاهُ نَجِدُ لِبَيْتِكَ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى الْخَطَابِ الْمُبَاشِرِ مَعَهُ
سُبْحَانَهُ ، لَأَنَّكَ أَصْبَحْتَ أَهْلًا لَأَنَّ تَخَاطُبَهُ وَيَخَاطُبُكَ بَعْدَ أَنْ أَمِنْتَ
بِالْحَبِيثِيَّاتِ الْأُولَى فِي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٧)
مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ (٨) ﴿[المائدة]

وَمَعْنَى ﴿لَقَدْ أَقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ نَزِيٍّ﴾ (٩) [ناظر] يَعْنِي سَقْنَا السَّحَابَ ،
أَوْ سَقْنَا الْمَاءَ بَعْدَ نَزْوَالِهِ فِي حُدُودِ وَأَسْهُرِ إِسَى الْأَرْضِ الَّتِي لَا نَبْتَ
فِيهَا ، رَأَيْتِي يُمْكِنُ أَنْ تَتَفَتَّحَ بِهِ ، وَهَذَا أَدْرَأُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ ، وَتَأْمَلْ
مِثْلًا مَاءَ النَّيْلِ لَدَى يَرْوَى السَّوْدَانِ وَمِصْرَ آيِنِ نَزَلَ ؟ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى
أَنْ رِزْقَكَ سَيَاتِيكَ مَهْمَا بَعْدَ عَنْكَ مَصْدَرُهُ

فَإِذَا مَا اسْتَقَرَّ الْمَاءُ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ النَتِيجَةُ ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا﴾ (٩) [ناظر] يَعْنِي أَحْيَيْنَاهَا بِالنَّاتِ ، ثُمَّ يَجْعَلُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ
مِنْ نَعَمٍ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ دَلِيلًا عَلَى نِعْمَةٍ أُخْرَى مَوْصُولَةٌ فِي
الْآخِرَةِ ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿كَذَلِكَ الشُّرُورُ﴾ (١٠) [ناظر] يَعْنِي الْبَعْثُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِحْيَاءُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ

فَحَدُّ مَا تَشَاهَدُ مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَا غَابَ
عَنْكَ ، وَكَمَا أَنَّ الْمَاءَ يَدْرُلُّ عَلَى الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ فَيُحْيِيهَا ، كَذَلِكَ حِينَ
تَنْزِلُ الرُّوحُ عَلَى مَادَّةِ الْإِنْسَانِ الْمَعْقُودَةِ فِي الْأَرْضِ يَحْدُثُ لَهَا الشُّورُ
وَالْبَعْثُ ، وَتَدْبُ فِيهَا الْحَيَاةُ

وَسَبَقَ أَنْ نَبَّأَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَمَّا حَلَّلُوا جِسْمَ الْإِنْسَانِ وَحُدُودَهُ مُكُونًا
مِنْ سِتَّةِ عَشَرَ عِنَصَرًا أَوْهَا الْأَكْسُوجِينِ ، وَأَحْرَاهَا الْمَحْبِرُ
وَهِيَ نَفْسُهَا عِنَاصِرُ لَتْرَةِ الَّتِي يَنْمُو فِيهَا النَّبَاتُ

ثم يقول الحق سبحانه

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُأُولِكَ هُوَ يُسَوِّرُ﴾

التأني على الرسالات تأت على أن يكون المؤمن الذي يكلف بتكليفات نبعاً لرأى غيره وطوح أمره ، والرسول ما جاء إلا ليقول لنا (فعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وبعض أساس يرى في هذه الطاعة خدشاً لكرامته وعزته ، فهو يريد أن يكون الأعلى الذي لا يامره أحد ولا ينهاه ، وهؤلاء الذين تحدث عنهم الآية يريدون أن تكون لهم العزة في نفوسهم .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُصَحِّح لهم معنى العزة ويبيِّن غيأهم ، فيقول سبحانه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ [ينظر أى العزة الحقيقية لا المدعاة] ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [ينظر] فالعزة الحقيقية ألا تكون مغلوباً ولا مقهوراً لأحد ، وهذه العزة لا وجود لها إلا في رحاب الله ، فمهما بلغ الإنسان في الدنيا من القوَّة ولحيروت لا تدُّ أن يُعلَب ، ولا بدُّ أن يقهره الموت ، فإن كنت مغرماً بعزة لا تزور ، فهي في حنب الله .

بذلك فانه تعالى يُعَلِّمُنَا الحكمة ، فيقول ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [القدران] يعنى أب علم بك وأعلم بصعوك ، وأند في حاجة إلى من تتوكل عليه ليقتضى لك الأمور التي فوق طاقتك فإياك أن تلجأ إلى غيرى ، فانا الباقى الذى لا يموت فإن توكلت على

ضعيف مثلك ، فربما مات قبل أن يقضى لك حاجتك ، كذلك من أراد العرة فلنكن في حضر الله يعتز بعزته ، ويتقوى بقوته ، ومن كان في حضر الله يخلع الله عليه من صفاته ويفيض عليه

لذلك سيدنا رسول الله يعطينا هذا الدرس ، وهو في الغار ، ومعه الصديق رضى الله عنه فيقول الصديق يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآه ، فيقول سيد رسول الله وهو واثق بربه « يا أبا بكر ما بالك تائبن الله ثالثهما »^(١) وحكى عنه القرآن قوله ﴿ لَا يَحْزَنُ إِنْ لَأَلَّهٖ مَعَاذٌ ﴾ [التوبة]

فهذه الطمينة التي ملأت قلب رسول الله مشيها معية الله له ولصاحبه ، وهذه المعية تقتضى أن يخلع الله عليهما من صفاته سبحانه إذا كان الله تعالى لا يرى ممر كان في مسعته كذلك لا يرى

ومعنى ﴿الْعَرَّةُ حَمِيحًا﴾ (ط) [ط] يعنى كل ألوان العرة وهذه المسألة من المسائل التي تكلم فيها المستشرقون ، يلتبسون فيها مأخذا على كلام الله ، يقولون إن الله يقول ﴿لِلَّهِ الْعَرَّةُ حَمِيحًا﴾ (ط) [ط] وفى آية أخرى ﴿وَلِلَّهِ الْعَرَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) [الماعون]

ولا تعارض بين الآيتين ، لأن العزة في الأصل الله ، وعرة الرسول من النحامة بالعرب ، وعرة المؤمنين من التحامهم بعرب العرب ، فهي عزة موصولة من الله تعالى بمن اعتر به وأول من اعتر بالله رسوله ، ثم المؤمنون به

(١) حديث موقوف عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٢٨١) من حديث أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ينفذ « يا أبا بكر ما بالك تائبن الله ثالثهما »

ثم يقول سبحانه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [مطر] دائماً مخاطب الله على جهة العلو ، مع أنه سبحانه في كل مكان ، وليس له مكان ، بذلك يحتج البعض على هذه المسألة فيقول كيف أن الله ليس له مكان ، وسيدنا رسول الله لما أراد الله أن يكلمه أصغده إلى السماء الساعة ؟

نقول كان الصعود لمكان الرائي لا لمكان المرئي فالرائي لا يرى إلا من هذا المكان ، فمثلاً لو أنك سمعنا الآن ضجة خارج المسجد ، وهذه الدفلة التي تطل على هذه الصخرة العالية ، فمادام نعمل إن أردت أن تعرف ما يدور بالخارج ، لا بد لك أن تصعد هذا العلو نرى ما يحدث ، فالأحداث هي هي ، لكن مكان الرئي يختلف

ومعنى ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [مطر] هذا وصف عام لكل كلام يدل على منهج خير وقد أعطانا القرآن مثلاً لذلك في قوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حَبِيرٍ يَدْرُ رِيحُهَا . ﴿٢٥﴾ [إبراهيم]

وعد حاول العلماء تحديد هذه الكلمة فقالوا هي كلمة لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولكن هذا التحديد يُصَيِّرُ المعنى الواسع لدى راده الله تعالى منها ، والأصوب أن نقول الكلمة الطيبة كل كلام يؤدي إلى خير .

وقوله تعالى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (١) [مطر] بعد أن تكلم سبحانه عن صعود الكلم الطيب يتكلم عن رفع العمل الصالح ، لأن الإنسان قد يتكلم بالكلمة الطيبة دون أن يؤدي مطلوبها ، ودور أن يترجمها إلى عمل وربما قالها بفاقاً مثلاً ، كائين قالوا لا إله إلا الله

نفاقاً وفراراً من القتل ، ومع ذلك تصعد إلى الله ، فيقول الله أحموه بهذه الكلمة دنيه ، ولا تتعرضوا له ما دام يطق بها ، إنما ليس له عليها جزاء في الآخرة ، لأن اجراء يتأتى من العزم الذى يحدم مدلول الكلمة فالعبرة إذن بالعمل والعمل الصالح ، فهو الذى يُرفع إلى الله ، ويحميك فى الدنيا ، ويحميك فى الآخرة ، ويجمع لك الخيرين

ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى المقابل ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾ [فاطر] الفعل مكر يتعدى بحرف الجر نقول مكر بفلاں ومكره يعنى حذمه ويتعدى بنفسه كما فى ﴿يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [فاطر] وأصلها يمكرون المكآت السيئات ، فهى وصف لمصدر مأخوذ من مادة الفعل مثل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء] أى الأعمال لصاحبات أو مكر فعل مكرأ ، فيكون المعنى ، والذين عملوا السيئات

ثم يبين سبحانه جراء لمكر السيء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأنك حين تمكر ، كأنك تريد أن تسرق شيئاً من الله ، وبطل أنه لن يدري بك ، وغفلت أنك تُبيّت المكر سرّاً ، وهو سبحانه يعلم السرّ والمجرى ، وأنت حين تمكر وحين تُبيّت تُبيّت على قدر إمكانياتك ، وربك عز وجل كذلك يمكر ويُبيّب على قدر إمكانياته ، وقدرته تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال]

لذلك بسوء هذا المكر بالحسرة واليوار ، كما قال سبحانه ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾ [فاطر] فهو مكر باثر ، كالأرض اليوار التى لا تدبت ولا تحتج ، ومنه قوله سبحانه ﴿أَلَمْ يَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

كُفْرًا وَأَعَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٧٨﴾ [إبراهيم]

فهنا المكر الذي ظنّه صاحبه ينفعه ، ويرفعه على خصمه ،
ويجعل نفسه عالية عليه ، إذا به يبور ، ولا يؤتى ثماره ، ولئنه يبور
وتنتهي المسألة ، إنما ينقلب عليه ويجرّ على صاحبه العذاب الشديد.

ومعنى ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [مدر] اللام تفيد الملكية ، فهنا قلب
يعنى لهم عذاب أى استحقوه وكان العذاب يحرص عليهم كما
يحرص للإنسان على ما يملك ، فهو عذاب ملازم لهم لا ينف عنهم

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا
وَمَا تَحْسِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ
وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

تعرّصت هذه الآية لقصة الخلق الأول للإنسان احليفه ، وهذا
الخلق كان له مراحل ، فالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خلق
خلقاً أولاً من مادة الأرض ، وهى التراب لدى يُخلط ببلغماء ، فصار
طيناً ، هذا الطين مرّ بأطوار عدة ، فالطين إن تركته حتى يعطس
وتكون به رائحة فهو الحمأ المسنون ، وإن تركته حتى يجفّ
ويتمسك فهو الصلصال ، فهذه إذن أطوار للعانة الواحدة التى
صوّر الله منها آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهذا هو الخلق الأول
الذى أخذ الله منه حواء ، ومنهما يتمّ التناسل والنزوة

وقبل أن يتكلم الحق سبحانه عن خلق الإنسان تكلم عمّا خلقه الله
للإنسان قبل أن يُوحد ، فتكلم سبحانه عن خلق السموات والأرض
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [طه] ثم تكلم عن الملائكة

الذين ينزلون بالوحي إلى الرسل من البشر ، ثم أنزل من السماء ماءً به تنبت الأرض

هذه كلها مقومات حياة الإنسان ، أوجدها الله له قبل أن يوحده هو ، وضمن له مقومات حياته المادية والمعنوية الروحية لمادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواءً ، وروحية بالمنهج والقرآن ، لذلك قال سبحانه ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝﴾ [الرحمن]

فالإنسان خلق لغاية ، كالصانع يحدد غاية الشيء المصنوع قبل أن يبدأ فيه ، وقلنا ر الذي صنع (التليفزيون) أو الدلاجة لم يصنعها ثم قال انظروا قيم تستخدم هذه الآلة ، إما قدر غايتها ، وحدد هدفها قبل صناعتها ، كذلك الحق سبحانه قبل أن يخلق الإنسان قدر حركته في الحياة وما يسعد فيها فوضع به منهج القرآن قبل أن يخلق ، ثم جاء خلق المادة بعد وضع المنهج

والحق سبحانه حينما يتكلم عن خلق الإنسان ، يقول ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [طه] فحاء الأسلوب كأنه يتحدث عن غائب ، ولم يقل سبحانه أنا خلقتكم ، فكسا نقول الله خلق لإنسان من تراب ، ذلك لأن وسائل الخطاب بين متكلم ومخاطب تأتي على ثلاث صور ضمير المتكلم أنا ، أو ضمير المخاطب أنت ، أو ضمير الغائب هو

فالمتكلم حين يتكلم يقول أنا فعلت من الجائر أن يكذب ، فحين خطب أنت فعلت من الحاسر أن يندفق ، لكن إذا جاء الأسلوب بصيغة الغائب هو فعل ، فقد برزنا من الادعاء في المتكلم ومن الدفاق في المخاطب

وحيث نقول هو حق يعني ليس هناك غيره وسبق أن قلنا

إن صمير الغائب (هو) لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى
 وإذا استقرأت آيات الخلق في القرآن الكريم تجدها بأسلوب العيبة
 في مائة وسبع آيات ، بداية من قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ هو
 الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [البقرة] وآخره سورة الفلق ﴿ قل
 أعوذُ بربِّ الفلق ﴾ من شرِّ ما خلق ﴿ الفلق ﴾ وبأسلوب المتكلم في ست
 وسبعين آية ، مثل ﴿ . إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى . ﴾ [الحجرات]
 وبأسلوب المحاطب في أربعة مواضع هي ﴿ ربنا ما خلقت هذا
 باطلاً سبحانه ﴾ [الأنعام]

وقوله ﴿ خلقتني من نارٍ وخلقته من طين ﴾ [الأعراف]
 وقوله ﴿ أأسعدُ لمن خلقت طيناً ﴾ [الإسراء]

فأسلوب الغيبة هو أكثر هذه الأساليب لأن الحديث عن غائب
 يخلو من دعاء ، ويطلق من نفق المواجهة أو نفاق الخطاب
 لكن ، ما معنى الخلق ؟ قال العلماء الخلق إيجاد من عدم لحكمة
 أو لعاية مُستعفاة لا مجرد الإيجاد من عدم ، كيف ؟ أنت إذا حدث
 قطعة كبيرة من طين جاف ورميتها على الأرض ، فإنها تنفتت قطعاً
 مختلفة الأشكال ، وربما وحدث منها على شكل هلال ، وأخرى على
 شكل نجمة ، وأخرى على شكل وجه إنسان أو حيوان

هذا يُعد إيجاداً ، لكن لا يُعد خلقاً ، لأن الخلق إيجاد مقصود
 لغاية مقصودة وحكمة مرادة ، وهذه مهمة الخالق وحده سبحانه

فإن قلت كيف والله تعالى يثبت ما خلقاً في قومه تعالى
 ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون]

قلنا إن الخالق سبحانه يُقدّر مجهودات ابشر ، ولا ييأسهم حقوقهم . لذلك يثبت لهم المشاركة في الخلق مع الفارق الواضح بين خلق الله وخلق غيره ، فإما وُصف الإنسان بأنه خالق ، فإله أحسن الخالقين ، لأنه سبحانه خلق من عدم ، وأنت تخلق من موجود وخلقك يثبت على حالة واحدة ، ويجمد عليها ، أما خلق الله فيتطور وتنب في الحياة فيتقذى وينمو ويتناسل إلخ

ومثلت ذلك بصانع الزجاج يأخذ مثلاً الرمل المخلوق لله ، ثم يعالجه بطريقة معينة ، ويحوّله إلى زجاج ، نعم أنت خلقت شيئاً ، لأن هذا الكوب لم يكن موحواً فأوحدته ، لكن من مادة موحودة مخلوقة لله ، وعقل فكر هو من محطرات الله ، وبار صهرت هي من خلق الله

ثم إنك لا تستطيع أن تمنح هذا لكرب صفة الحياة ، فينمو مثلاً ، أو يتكاثر ، بل إن أشد الله لك خلقاً فهو سبحانه أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [ماطر] وبى مواضع أخرى قال ﴿ مِنْ طَيْرٍ ﴾ [الأنعام] وقال ﴿ مِنْ حَمَأٍ مَرْوٍ ﴾ [الاحمر] وقال ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْمِخَارِ ﴾ [الاحمر] ولا تعارض بين هذه الأقوال ، لأنها أطوار لمادة الواحد كما بيأ كالثوب الذي تلبسه تقول هذا الثوب من القطن و من الغزل ، أو من لسيج . فهي مراحل تمر بها المادة الواحدة

فليس في هذا تناقض في المراحل ، إنما التناقص في أن يكون اشياء مرتبة واحدة ، ثم تجعل مراتب إنما هذه أمسألة مراحل للمرحلة الواحدة ، كالطفر يصير غلاماً ثم شاباً ، ثم رجلاً ، ثم

كهلًا.. إلخ كلها مراحل لإنسان واحد

الحق سبحانه حكم في كونه بأشياء ، ونهى العقل أن يفكر في أشياء ، قال أنا خلقت لك الكون والمادة وصممت لك مقومات حياتك ، فلن أردت أن تُرقى نفسك فأعمل عقلك في المادة المخلوقة لله ، واستنبط منها على قدر إمكاناتك ، لكن لا تشغل بالك بأمرين لا جدوى من التفكير فيهما ، هذان الأمران هما خلق السموات والأرض وخلق الناس ، لأن الله تعالى يقول ﴿مَا شَهِدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَخْدُومًا لَهُمْ﴾ [الكهف]

فخلق السموات والأرض وخلق الإنسان مسألة لم يشهدوا أحد منكم ولم يكن مع الله سبحانه معاون يحرككم بما حدث ، لكن احذروا سيأتي في المستقبل مصلون يضلونكم في هذه المسألة ، يقولون لكم - كما يقول المصلون الآن - إن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة متجهة ، وحدث لها كد ، وكذا ، أو أن الإنسان أصله الأول قرد تطور إلى إنسان ، احذروا هؤلاء ولا تأخذوا معوماتكم إلا ممن شهدوا ويعلمها وهو الحق سبحانه وتعالى

لكن الحق سبحانه خلق العقل آلة للتفكير ، وجعل له مفاصل يصل من خلالها إلى الحقيقة ، والاستدلال بما رآه على ما غاب عنه ، فعلى لعقل أن يتأمل ما يراه ويستدس به على ما لا يراه ،

نحن لم نشهد عملية الخلق ، لكن شهدنا عملية الموت ، والموت نقص للخلق ، كما أن الهدم نقص للبهاء

فهذه قضية فلسفية للعقل فيها دور ، فأنت حين تريد بناء عمارة مثلاً من عشرة أدوار تبدأ ببناء الدور الأول ، لكن إن أردت هدمها

تبدأ بالدور العاشر ، فالهدم على عكس البناء ، كذلك الموت بغير
الحياة

فاندى لم نشاهده من عملية اخلق اخبرنا الله به فى كتابه
فما حلفتكم من تراب صار صفاً ، ثم صار الطين حملاً مسبوهاً
وصار الجسم المسنون صلصالاً كالخضار ، تشكّل على صورة
الإنسان ، ثم نفخ فيه الله الروح فدبّ فيه الحياة .

ونحن شاهدنا الموت ورأيناه يأتى على عكس عملية الحق ، ما
شئ فى الموت أن يفارو الروح الجسد ، فيتصلّب حتى يكون
كالبحار ، ثم يرم ، وتتغير رائحته كأنها الحما المسبون ، ثم تمتص
الأرض ما فيه من مائية ليعود إلى تراب وفئات يحتلط بتراب الأرض ،
ويعود إلى أمه التى جاء منها .

إذن حُ ما شاهدت دليلاً على صدق ما أخبر الله به مما لم
تشاهده

الحق سبحانه وتعالى : حسبما نكلم عن الحق نكلم عن مرحلتين
الأولى خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام من طين ، ولكى يتم
التكاثر لعمارة الأرض كالب المرحلة الثانية بأن خلق له روحه ، فقال
﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا رُوحَهُ ﴾ [الأعراف]

والطير يتسع فى هذه المسألة ، فيصح أنه سبحانه أخذ قطعة من
آدم وخلق منها حواء ، ويصح أن تكون هذه القطعة كذلك كانت من
الطين ، بكر اكفى بالمشروع الأول للرحل ، ومن آدم وحواء أنشأ
النسل ، وتم الاستخلاف فى الأرض

ولكى نحرج من المتاهة فى هذه المسألة نقول قوله تعالى

﴿وخلق منها زوجها﴾ [النساء] یعنی من جنسها ، من جنس
 خلقها كما قال سبحانه ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ [التوبة]
 یعنی من جنسکم

لكن ، أَيْخَلَقَ اللهُ هَذَا الْخَلْقَ ، وَيَسْخَلِفُ خَلِيفَهُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ دُونَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَنْهَجِ الَّذِي حَكَمَ حَرَكَةَ حَيَاتِهِ ، لَا ، لَا بُدَّ أَنْ يَبْرُزَ لَهُ الْمَنْهَجُ ، لِأَنَّ مَعْنَى الْخَلَاةِ تَقْتَضِي أَنْ يُوجَدَ هَذَا الْمَنْهَجُ وَالْحَقُّ سَمْعَانَهُ حِينَ يُمَلِّكَ خَلِيفَتَهُ أَشْيَاءَ تَأْتُرُ بِأَمْرِهِ رَبْعًا غَرَّهُ ذَلِكَ الْمَلِكُ فَقَالَ لَهُ : اذْكُرْ أَنَّكَ لَسْتَ أَصِيلًا ، وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ، وَطَالَمَا تَعَذَّرَ أَنْتَ حَسِيفَةً عَلَى نَطْعِي ، إِيْمَا الَّذِي نَطَعْتَ أَنْ تَنْظُرَ أَنَّكَ أَصِيلٌ فِي الْكُونِ ، وَالْأَصِيلُ فِي الْكُونِ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ مَا وَهَبَ لَهُ هُوَ الَّذِي لَا يَمْرُضُ وَلَا يَمُوتُ ، وَلَا يُوْجَدُ مَعَهُ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ إِنْ تَذَكَّرَ أَنَّكَ مُسْتَخْلِفٌ ، وَمَا دُمْتَ مُسْتَخْلِفًا فَعَلَيْكَ أَنْ تَنْفُذَ أَوْامِرَ مَنْ اسْتَحْفَكَ

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الخلق لأول من تراب وخلق
الروح ، يُحدثنا عن الخلق لعدم ابدى سياقى منه البشر جميعاً بعد
آدم وحواء ، وبالسراج يتم الخلق عن طريق النطفة ، فيقول سبحانه

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [١]

[فاطر]

وهي موضع آخر فصل مراحل النطفة ، فقال : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا لَبِثْتُمْ إِبْرَأًا خَلْقًاكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِقَّةٍ ثُمَّ مِنْ مُصْغَةٍ مُحَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُحَلَّقَةٍ (٥)﴾ [الحج]

وأول زواج تم بين أولاد آدم ثم بالتتابع ، فابن هذه البطن يتزوج أخته من بطر أخرى ، وهكذا كان التتابع بحسب زيادة السبل قدر المستطاع . ومسألة التتابع هذه هي التي أدت إلى أول جريمة

قَتْلُ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ فَصِيلٌ وَهَبِيلٌ فَلَمَّا أَسْعَتْ الدُّنْيَا
وَكَثُرَ النَّاسُ مَنَعَ زَوَاجَ الْأَخْتِ وَالْخَالَةِ وَالْعَمَةِ.

وقد أثبت العلم أهمية التباعد في الزواج ، وأن زواج الأقارب يثمر
نسلاً أضعف من زواج الأبعد ، حتى في الرعاة اثبتوا أن زراعة
الحبوب المستخرجة في نفس أرضها يعطي محصولاً أقل ، لذلك
لحقوا في الزراعة إلى عملية التجهيز .

وانبى ﷺ بحثاً على هذا الباعد ، فيقول « اغتربوا
لا تضربوا » ، يعني لا تتزوج شديدة القرابة منك ، لأن الأقارب
خصائص وجودهم واحدة والدم واحد أما في الاعتراق ،
فالخصائص مختلفة والدم مختلف ، بذلك يأتي النسل أقوى ، لذلك
فطن الشاعر العربي إلى هذه المسألة ، فقال^(١)

أَمْدُرُ مَنْ كَانَ بَعِيدَ الْهَمِّ ثَرْوِيحُ أَوْلَادِ بَنَاتِ الْعَمِّ
فَنَيْسَ بَنَاجٍ مِنْ ضَمَوِي وَسَقَمٍ بِأَبَى إِنْ أَطْعَمْتَهُ لَا يَنْبِي
رَقْدَ لَاحَطُوا ضَعْفَ النِّسْرِ فِي الْأَسْرِ الَّتِي تَزُوجُ أَوْلَادَهَا مِنْ
الْأَقَارِبِ ، وَمَدَحُوا الْإِغْتِرَابَ ، فَقَالَ الشَّاعِرُ

(١) ضَمَوِي بِضَوِي هُوَ الْوَلَدُ يَخْرُجُ ضَعِيفاً وَرَجُلٌ ضَاوٍ إِذَا كَانَ ضَعِيفاً وَمَعْنَى لَا تَضُورُوا
أَيَّ لَا مَاتُوا بِأَوْلَادِ ضَاوِينَ [نَسَبُ الْعَرَبِ مَادَّةٌ ضَاوٍ]

(٢) حماد ورد في هذا ، ذكره أبو حامد الغزالي في إحيائه (٤ / ١١) ، لا فتكحوا القرابة
القرينة ، من الولد يُحَقِّقُ ضَاوياً ، قال الطائفة العراقية في تحريجه لأحاديث الإحياء
، قال ابن الصلاح لم أجد له أصلاً معتمداً قلت إنما يُعْرَفُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو أَنَّهُ قَالَ
لَأَلِ السَّائِبِ ، قَدْ أَضْرَبْتُمْ ، فَانْكِحُوا فِي الدَّوَابِعِ ، رَوَاهُ إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ
نَالِ الشُّوْكَانِيِّ فِي (الْفَرَاغِ الْمَجْمُوعَةِ ص ١٢٦) ، لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ ،

(٣) ذكرهما أبو جبر التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤسس ، ولم يذكرهما لأحد ، وانظر أيضاً
، محاضرات الأدباء ، للزَّعْبِ الْأَصْغَهَانِيِّ

فتى لم يلدته بنت عم قرية فيصوى وقد يصوى سليل الأقارب
وآخر يتعد عن بنت عمه في الزواج رعم حنه لها ، ويقول
تَحَارَزْتُ بِنْتَ الْعَمِّ وَهِيَ حَبِيبَةٌ مَخَافَةَ أَنْ يَصْوَى عَلَى سَلِيلِهَا
ثم يقول تعالى ﴿ وَمَا نَحْمَلُ مِنْ شَيْءٍ وَلَا نَصْعُ لَا يَعْلَمُهُ ﴾ [ناط
عملية حمل الأنثى تتم نتيجة الالتقاء بين الذكر والأنثى تحت مظلة
الشرع ومنهج الله ، وللعلماء كلام طويل في مسألة حمل المرأة ، أهى
المسئولة عنه أم الرجل ، وأخيراً سمعنا من التحاليل التى أجروها أن
الرجل هو المسئول عن ميكروب الذكورة أو الأنوثة ، أم المرأة
فتحمل البويضة التى تستقبل هذا أو ذاك

وعجيب أن تظن المرأة العربية القديمة إلى نتائج اعلم الحديث
الآن ، وأن يكون لديها إلمام وفهم بهذه المسألة ، فالمرأة البدوية
التي كست لا تتحب إلا العنات ، فغصب عليها زوجها ، وذهب فتزوج
بأخرى لتنج له الولد ، وهجر الأولى ، فأشدت وقالت

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَا غَضْبَانُ الْأَنْلِدِ الْهِنِينَا
تَاللَّهِ مَا ذَاكَ فِي أَيْدِينَا وَنَحْنُ كَالْأَرْضِ بَقَارِيسِنَا
* نُعْطِي لَهُمْ مَثْلَ الَّذِي أُعْطِينَا *

وعجيب أن تتكلم أندوية بما توصل إليه العلم الحديث في القرن
العشرين ، وكان الحق سبحانه يريد أن يثبت لنا أن الفطرة السليمة
البعيدة عن الهوى قد تصل إلى حقائق الكون ، عساد الرأي لا يجمع

(١) هذا البيت للنايضة الديباني ، ونكس بلفظه يختلف عما أورده الشيخ رحمه الله
فتى لم يلدته بنت أم قرية فيصوى وقد يصوى رويد الأقارب
ولد ذكره الخالدان في ، الأشباه والنظائر ، وعرواه إلى أعرابى مذكر اسم بلفظ الشيخ لا
قوله ، الأقارب ، فهو عديفاً لقرايب
(٢) ذكر هذه البيت مع اختلاف في اللفظ ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد - باب
قوتهم في الموارد والبلح

لأبي حمزة لا يأتيها يظن في البيت البهي بيتا
غضببان أن لا يلد البهي وإنما نأخذ ما أعطى

وهوى النفس ، لذلك قالوا آفة لراى الهوى ومن ذلك ما روى عن سيدنا عمر من أن القرآن كان ينزل على وفق ما يراه ، وما ذاك إلا لسلامة فطرته

وقوله ﴿وَلَا تَضَعُ الْأَيْدِيَّ﴾ [ماطر] هذه مراحل تمر بها المرأة ، أولاً ، تزوجت ثم حملت ثم وصغت حملها ، وهذه كلها مراحل السلامة ، ولم يذكر سبحانه وتعالى - ما يطرأ على الحمل من عطب ، فقد تحمل الأم ويسقط جنينها ولا تضع

والإعجاز الذى يصاحب عممية الحمل أن الدم الذى ينزل من المرأة خلال الدورة الشهرية يتحول عندما تحمّل إلى غذاء للجنين ، فكان هذا الدم ليس ررقاً لها ، بل روى ولدها إن قُدّر بها الحمل ، وإن لم يُقدّر لها حمل نزل منها دون أن تستفيد منه بشيء

والعجيب أن هذا الدم يكفى الجنين الواحد ويكفى الاثنين والثلاثة ، والأكثر من ذلك ، وأخيراً سمعنا عن المرأة التى ولدت سبعة ، ومع ذلك كانت بحالة جيدة بمعنى لم ينقص من وزنها شيء ، وكبد الخالق عز وجل بذكرنا قتل أن يحملوا همّ القسوت والأرزق انضروا ما فعل الله بكم وأنتم فى بطون أمهاتكم ، فكلّ منكم رزق لا يتعداه ولا يُخطئه

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وصعام الاثنين يكفى الثلاثة »^(١)

ومع تقدّم العلم الآن لم يستطيعوا تحديد موعد الولادة بشكل قاطع ، وستبقى هذه اللحظة فى علم الله ﴿وَلَا تَضَعُ الْأَيْدِيَّ﴾ [ماطر]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٧/٢) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٩) كتاب الأثربة ، وابن ماجه فى سننه (٢٢٥٤) من حديث جابر بن عبد الله

بما « لانت تعرف نعم مدة الحمل ، لكن لا تعرف على وجه التحديد متى انتصق (الزيجوت) في الرحم ، لذلك فمن اطباء الولادة دائماً ما يقولون سنضع الحامل بين كذا وكذا من الايام

إس لحظة الولادة أشبه ما تكون في خفائها بحظة الموت لا يعلمها إلا الله ، ومعنى يعلمها يعنى يعلمها بكل ما يحيط بها من ملايسات وأحداث .

وبعد أن تصع المرأة حملها تتحول إلى مرضعة وحاضنة فيجربها الخالق سبحانه برقي ولدها لترصعه دور أن يأخذ من رزقها شيئاً ، لا إمداد الله لها مستمر ، ولشيء ينقص إن أحد منه دون إمداد

ثم يقول سبحانه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ مَّعْمَرٌ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ [نصر] يُعْمَرُ يعنى يمد الله في عمره ، وعندنا في اللغة أفعال ملازمة للبناء لمجهول ، فمثلاً نقول زُكِمَ فلان لأنه لم يحلب بنفسه ابركاهم كذلك نقول فلا عُمر هو لم يُعْمَر نفسه ، إنما عمره الله ، لذلك جاء بصيغة اسم المفعول مُعْمَرٌ ، ولمُعْمَرٍ يعنى طوبى العمر ،

وهذا من المواضع التي وقف عندها المستشرقون معترضين كالعادة ، بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبيها ، قالوا كيف يُعْمَرُ بالفعل ، فيعيش مائة سنة مثلاً ثم ينقص من عمره ؟ نقول هم معذرون ، لأنهم لا يعلمون أن في اللغة ضميراً ومرجعاً للضمير

فنقول مثلاً قابلتُ فلاناً فأكرمته ، قالها في أكرمه تعود على فلان هذا ، وتقول تصدقتُ ب درهم ونصفه فهل يعنى هذا أنك تصدقتُ ب درهم ثم أعدته ثانية ونصفتَه ؟ لا إسم المعنى تصدقت ب درهم ونصف درهم مثله ، فمرة يعود الضمير على ذات واحده ،

ومره يعود على واحد من مثله ، كما مى تصدقت بدرهم ونصفه
والإنسان له ذات وله صفات ، ذاته هى قوام تكوينه ، وصفاته
م يطرأ على الذات من أوصاف ، فكونه معمرًا يعنى بلغ سنًا كبيرة ،
وكما يعود الضمير على مثل الأول أو على بعض مثله ، كذلك يعود
على بعض ذاته فالمعمر ذاتٌ ثبت لها التعمير فعلام يعود الضمير
فى ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ (١١) [باطر] صحيح حينما يصل إلى مائة سنة
لا نستطيع أن نُميته فى سنِّ العشرين مثلاً .

إذن أعد الضمير على الذات دون الصفة وما يُعمر من مُعمر ،
ولا ينقص من ذاته فالذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله
فبصير المعنى مثل : تصدَّقتُ بدرهم ونصفه .

والحق سبحانه حدثنا عن التعمير عندما تكلم عن اليهود ﴿وَقَالُوا
لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (١٠) [البقرة]

وقالوا ﴿لَنْ تَمَسَّ السَّارَةَ إِلَّا بَأْسًا مَعْدُودَةً﴾ (٨) [البقرة]

فردَّ الله عليهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ ضَمَنْتُمْ اجْتَنَاءَ رَأْنَهُ لَا يَأْخُذُكُمْ مِنْكُمْ
أَحَدٌ ، فَمِمَّا أَلْمَزْتُمْ يَوْمَ يَوْمِكُمْ إِلَيْهَا﴾ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ
عَدَالَةً فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُضِلِّينَ﴾ (٩) [البقرة]

ثم حكم الله عليهم ﴿وَلَنْ يَتِمَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾
(١٠) ﴿وَلَسَوْفَ يَكُونُ النَّاسُ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ يُرْمَوْهُمْ بِأَوْسَادٍ كَالصُّبْرِ
فَيُدْخِلُهُمْ قُلُوبُهُمْ حُزْنَ إِنَّهُمْ لَخَسِرَوا وَلَاسِيَرَةً﴾ (١١) [البقرة]

فمعنى ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ (١١) [باطر] يعنى من عمر ذات لم
يثبت لها التعمير إلا بإذن الله

سُورَةُ قَطَرٍ

○ ١٢٤٥٣ ○

وقوه ﴿الْأَفَى كِتَابٍ﴾ [قطر] أى فى اللوح المحفوظ ، فكل ما يحدث فى الأعمار وفى فترات الحمل ولوصع من الإيقاص أو الزيادة ، كله مُسَطَّر معلوم فى اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [قاهر] فإن كان صعباً عليكم وعلى مهمكم فهو يسيراً وسهلاً على الله سبحانه.

ألا ترى لسيدنا ركباً عليه السلام وهو يدعو الله أن يرزقه الولد الصالح الذى يرث النبوة من بعده ، مع أنه بلغ من الكبر عتياً وامراته عاقر ، وأى ذرية بعد هذا السر خاصة إن كانت الزوجة عاقراً ، لكن ، إن كانت بقوانين الله ، فالأمر سهل ميسور

واقراً ﴿وَإِنِّي خِمْتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رِجْلاً﴾ (٥) يرثي ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً (٦) ينركريباً إن يشرك بعلام اسمي يحيى لم نجعل له من قبل سمياً (٧) قال رب أنى يكون لى غلام وكأنت امرأتى عاقراً وقد بعثت من الكبر عتياً (٨) قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً (٩) ﴿[مريم]

[ذر] لا تقسّر المسألة على قدرتك وقانونك ، لأن الفعل يُنسب إلى الله ، لا إلى بشر .

كذلك سيدنا موسى - عليه السلام - لما تبعه فرعون بحبوه حتى حاصره وضيق عليه الخناق حتى قال أتباع موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١) [شعراء] ولم لا وليجر من أمامهم وحنود فرعون من خلفهم فقال موسى قوله الواثق برمه وقدرته لئى لا حدود لها ﴿قُلْ كَلَّا﴾ (٦٢) [شعراء] يعنى لن يدركوها ، قالها بما لديه من رصيد الشقة بالله ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ (٦٣) [الشعراء] فحاءه الفرج لتوّه ﴿أَنْ أَضْرَبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاصْلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٤) [الشعراء]

داى موسى طريقاً ناساً شقواً اسحر ، فعبر هو وقومه إلى أن

أصبح في الحاسب الآخر ، فأراد أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى
سبيلته فلا يعبره فرعون ، لكن نهاء ربه ، فالمعجزة لم تنته بعد ،
وما زال بها بقية ، والله تعالى قادر على أن يُنَجِّى ويُهْلِكَ بالشئ
الواحد ، وظل الطريق اليابس على ييوسبه حتى اغترَّ به فرعون ،
فعبده ليلحق بموسى ، ولما فرل آجر جندى من جنود فرعون أطبق الله
عليهم الماء ، وأعادته إلى سيولته ، فأغرق فرعون وجنوده ، هذه طلاقة
القدرة التي لا تحدُّها حدود ، ولا تحصع للأسباب

كذلك تأمل مسألة الخلق وانتكاث تحدُّ جمهرة الناس جاءوا من
ذكر وأنثى ، وهذه هي القاعدة ، لكن قدرة الله لا يعجزها أن تأتي
بالحق في كل مراحل القسمة العقلية المنطقية في هذه المسألة ،
فالحق سبحانه خلق آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق حواء من أب بلا
أم ، وخلق عيسى من أم بلا أب إذن نقول الأمر هين يسير على
الله ، وإن ظننته أنت صعباً

ثم يقول لحق سبحانه

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا
مِلْحٌ أَحَامٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ تَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

(١) الفرات عذب شقوله تعالى ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ [فاطر] فدرات بلوكيد وهو
عذب عذوبة بالغة [القاموس القويم ٧٤/٢]
(٢) الأجاج الصبح الشديد المنوحة أجاج الماء اشتدت منوحته وتوله تعالى ﴿ وهذا ملح
أجاج ﴾ [فاطر] تأكيد لشدة ملوحته [القاموس القويم ٧/١]

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يُقَرَّبَ لنا القصيدة العقلية القيمة فيعرضها لت في صورة حسية مُشاهدة ﴿وما يستوى البحران (١٢)﴾ [مطر] وكان الله يقرب لنا كما أن هناك أشياء حسية لا تستوى في الحسن ، كذلك في لقيم أشده لا تستوى ،

معنى ﴿البحران (١٢)﴾ [مطر] اسبحر معروف ، وهو المنسجم الذي يحوى الماء المالح وسُمى النهر أيضاً بحرّاً على سبيل التغليب ، والنهر يحوى الماء العذب ، فهما مختلفان لا يستويان ﴿هذا عذب فرات (١٣)﴾ [مطر] ﴿وهذا ملح أجاج (١٤)﴾ [مطر] إنن هما وماء لشيء واحد هو الماء ، فهما وإن اشتركا في الشيء الواحد وهو الماء فهما مختلفان في النوع

هذا عذب وهذا مالح ، العذب وُصف بأنه ﴿عذب فرات (١٣)﴾ [مطر] أى شديد العذوبة ﴿سالح شرابه (١٤)﴾ [مطر] سهل المرور في الحلق هنيئاً ، ووصف المالح بأنه ﴿ملح أجاج (١٤)﴾ [مطر] شديد الملوحة

وبين العذب والمالح عجائب في التكوين ، ففيهما مثلاً تعيش الأسماك ومأكلاها ، فلا تغرق بين سمك الماء المالح وسمك الماء العذب ، لأن الله أعد لكاش الحى ليأخذ من الماء مسقومات حياته وينفى ما لا يريد مثل الشجرة تزرعها ، فتأخذ من لأرض العناصر اللازمة لها وتطرد ما لا تحتاج إليه

ففى التربة الواحدة تزرع مثلاً شجرة (شطة) وعود القصب ، فتعدي الشجرتان بدفيس العناصر ، وتُسقى بفس الماء ، لكن يخرج الطعم مختلفاً تماماً ، كما قل سبحانه ﴿وفي الأرض قطعاً متجاورات

رَجَاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ وَرَزْغٍ وَبَخِيلٍ صَوَائِدٍ وَغَيْرُ صَوَائِدٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُصْلٍ
بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ (٤) ﴿

[الوعد]

وهذه فطره وغريبه جعلها الله في كل الكائنات الحية ، أن تأخذ
من الغذاء ما تحتاج إليه فقط ، ولما أراد العلماء أن يُقَرَّبُوا لنا عملية
التغذية في النبات قالوا إنها تعتمد على خاصية الأنابيب الشعرية .
فاشعيراب الجدرية تمتص الماء والغذاء من التربة وتوصله بهذه
الخاصية إلى الساق والأوراق ، لكن فأتهم أن الأنابيب الشعرية
تمتص الماء دون تفرقة ودون تمييز لعنصر دون عنصر ودون
استخاب لعادة دون أخرى . إن ليست هي الخاصية الشعرية ، إنما
هي العريزة والإلهة التي أودعها الله في الكائن الحي

والإنسان تطراً عليه مسائل عريرية ، ومسائل عاطفية ، ومسائل
عقلية فالمسائل العاطفية مثل الحب أو البغض لا تدخل للنشرع
فيها ، لأن الإنسان لا يملك التحكم فيها فأحبب من شئت وكره
من شئت ، لكن شريطة ألا يُخرجك الحب أو الكره عن حد الاعتدال
إلى الظلم والتعدي ، كما قال سبحانه ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَاؤُكُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ
تَعَدُّوا أَعْدَاءُكُمْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (٨) ﴿

[المدة]

كذلك المسائل العريزية لا يتدخل فيها الشرع ، فالجوع والعطش
مثلاً غرائز يعرفها المرء بنفسه وبالبحرمة ، هانت لا تُعلم ولدت
الجوع أو العطش ، بل هو يعرفه بنفسه حين يحوع وحين يعطش
بذلك عحيب الآن أن نسمع من بعاى بتعليم الأولاد والعباى فى

(١) أى لا يجهلهم بعض قوم على عدم العدل أى التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم
أى اعدلوا دائماً بالعدل أقرب للتقوى [القاموس القويم ١/١٢١] والشأن البعض
والكره

المدرس الأمور الجنسية ، ويريدون مادة جديدة تسمى (التريبة الجنسية) يتعلمها الأطفال منذ الصغر ، ونقول سبحان الله من يسمح للصغار يتعلم الغرائز ، الغرائز لا تعلم بل يعرفها الإنس في وقتها المناسب .

ومن عجائب الخلق أن الماء العذب لا يحتلط بالماء المالح ، كما قال سبحانه ﴿ يَنْهَاهُ بَرْحٌ لَّا يُغَيِّكُ ﴾ [رحمن] وهذا دليل إعجاز ، فالماء المالح في البحار والمحيطات اكبيرة دائماً ما تجد منسوب المياه فيها أقل من منسوب مياه الأنهار ، ولو كان العكس لطمس الماء المالح على الأنهار وعلى اليابسة

ومعنى ذلك أن تموت الممروعات وتفسد التربة ، لذلك شاءت حكمة الخالق سبحانه أن يكون منسوب الأنهار أعلى ، وأن يكون لها مصبات تنتهي إلى البحار لتفرغ فيها الماء الرائد عن الحاجة

وللخالق سبحانه حكمه في الماء العذب ليكون صابحاً للشرب وسقى الزرع ويروى العطش ، أما المالح فالله يحفظه بنسبة الملوحة فيه حتى لا يفسد ويعطر لأن البحار والمحيطات هي محازن لماء العذب فمنها ينحدر ماء لمطر الذي تجرى به الأنهار ، وتلاحظ أن درجة الملوحة تختلف حسب طبيعة المكان ، فمثلاً تجد الماء في بحر البلطيق أقل ملوحة ، لأنه مصب لعدة أنهار ، ويقع في مصبة كثيرة المطر ، وهذا كله يقلل من ملوخته

أما اببحر الميت مثلاً فهو أكثر اببحار ملوحة ، لدرجة أن الأسماك لا تعيش فيه ، ونسب أنه لا توجد أنهار نصب فيه ويقع في منطقة حارة ، قليلة لمطر ، فيكثر تسحر الماء منه أما بفسه المياه الملتقية في البحار والمحيطات فتكاد ميوحتها تكون وحدة

وسبق أن ذكرنا احكمة من اتساع مساحة الماء امالح في البحار والمحيطات ، وقلنا إن اتساع سطح لاء يزيد في نسبة النخر ليتوفر الماء العذب الصالح للرئ ولشرب ، ومثلنا لهذه العملية بكوب الماء تتركه على المكتب لمدة شهر وتعود فتجده كما هو تقريباً ، أما إن سكنته على أرض الحجرة فإنه يجف قبل أن تغادرها ، معاذ لأنك وسعت مساحة التبخر .

إذن وسع الله سطح الماء امالح ليعطينا المطر الكافي لاستمرار الحياة ، إذن لا يذم الماء المالح إن قوبل بالعذب ، لأنه أصل وجوده

لذلك قال الشاعر^(١) في المدح

أهدى مجلسي الكريم وإنما أهدى له ما حُرِّت من نعمائه

كأنبحر يُمطره السحاب وما له فصلٌ عليه لأنه من مائه

ومعلوم أن الماء في الكون له دورة معروفة ، قال الله فيها

﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرُوءًا ۖ فَالْعَامِلَاتُ قُرُوءًا ۖ فَالْجَارِيَاتُ يُسْرًا ۖ﴾ [الذاريات]

فالماء الذي خلقه الله في الكون هو هو لا يزيد ولا ينقص ، فم يستهلكه الإنسان مثلاً من الماء يُخرجه على شكل فضلات وبور وعرق إلخ وما تبقى في جسمه من نسبة المائية وهي ٩٠ في المائة من وزنه تمتصها الأرض بعد موته ، كذلك الزرع والحيوان ، فهي إذن دورة معروفة مشاهدة ، كذلك فالحياة دورة فحين نقول لك إن

(١) مدح السيد من قول هبة الله الاسطرلاي وقد ذكرها له ابن معصوم في كتابه : سلاى العصر في محاسن المشهوراء بكل مصر ،

الله قارب على إعادتها فَنَحْنُ من المُشاهِد دليلاً على صدق ما عاب

وقوله سبحانه ﴿وَمَنْ كُلَّ﴾ (١٦) [ماطر] أى من الماءين العذب والمالح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (٢) [ماطر] والمراد السمك ، وهو فى الماء العذب كما فى اماء المالح ، والطَّعْم واحد ، ولم تجد مثلاً أسماك الماء المالح مألحة كالفسيخ مثلاً أو السريدن ، ذلك لأن لكائنين احى يمتص ما يحتاج إليه ، ويترك العناصر الأخرى .

وكلمة ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (١٧) [ماطر] إشارة إلى أن السمك ينبغى أن يؤكل طرياً طازجاً ، فإن يبس وخرج عن طراوته فلا تاكله ، وقد اشتهر عن العرب اللحم القديد ، حيث كانوا يجففون لحم الأبعام فى حر الشمس ويقددونه ليعيش فترة أطول ، فهى طريقة من طرق حفظ اللحوم تناسب لحوم الأبعام ، أما لحوم الأسماك فتفسد إن خرجت عن هذا الوصف ﴿لَحْمًا طَرِيًّا..﴾ (١٧) [ماطر]

ثم يذكر الحق سبحانه نعمة أخرى من نعم البحر ﴿وَنَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُوهَا﴾ (١٨) [ماطر] ولحلية ما يُتَرَبَّصُ به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر ، وهذه رينة عامة للرجال والنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال ، فلو جل أن يتحلَّى بما يشاء من حلية البحر ، فلا نهى عن شئ منها ، وحلى حلية الذهب للنساء ، فإن المرأة تتحلَّى بها لمن ؟ للزوج

﴿وَتَرَى الْقُلُكُ فِيهِ مَوَاحِرَ﴾ (١٩) [ماطر] أى السفن فى البحر ﴿مَوَاحِرَ﴾ (٢٠) [ماطر] يعنى تشقُّ البحر شقاً فى رحلات الصيد أو رحلات السفر ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فالخطاب فى القرآن أول مُخَاطَبٍ به سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم مخاطب أمه من باطن خطابها ، ورسول الله ﷺ لم يركب لبحر ولا رآه

فحين يقول القرآن على لسانه : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] يعني كالجبال اشمامحه بقول ومتى ظهرت
السفن العملاقة التي توصف بهذا الرصف ؟ إنها لم تظهر إلا في
العصر الحديث ، وكانت قبلُ سفناً عادية بدائية ، فمن الذي أحضر
سيدنا رسول الله بهذا التقدم الجارى الآن في صناعه السفن ، حتى
إنه ليُخيل لك أنها مدينة متحركة على أمواج البحر

وقوله ﴿لَبِثَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ (١١)﴾ [فاطر] تطلبوا رزق الله وفضل الله
في حركة السفن ، سواء كانت للصيد أو للسفر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(١٢)﴾ [فاطر] كلمة لعل كما نعلم تدل على الرجاء ، والمعنى لعلكم
بعد كل هذه النعم تقابلون بالشكر ، وفي هذا إشارة إلى قلبه من
يشكر

بعد ذلك ينتقل بنا السياق إلى ظاهرة أخرى وآية من آيات الكون

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رُتِكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ (١٣)﴾

صحيح أن الليل والنهار يتساويان في بعض الأحيان ، لكن
بصول الليل في الشتاء فيأخذ جزءاً من النهار ، وبطول النهار في
الصيف فيأخذ جزءاً من الليل ، إذن طول أحدهما نقص من الآخر ،
هذا معنى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١٣)﴾ [فاطر] بمعنى
يدخل هذا في هذا

وضاهرة إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل ناشئة من
مير المحور ، فالحق سبحانه كم وزّع الماء وحفظه في البحر
الواسع ، كذلك وزّع الحرارة ، فالشمس لولا وجود المحور لمثل
لاحتزقت الجهة لمقابلة للشمس وتحمدت الجهة الأخرى .

ومن عجائب الخلق أن الإنسان الذي يعيش عند القطب الشمالي
أو القطب الجنوبي حرارته ٣٧° مثل الذي يعيش عند خط الاستواء .
لأن الجسم البشري مبني على هندسة خاصة تحفظ له حرارته
المناسبة أيًا كان ، بل تحفظ لكل عضو فيه حرارته التي تناسبه مع
أن الأعضاء كلها في جسم واحد ، والحرارة تُشع وتستطرق في
المكان كله

عجيب أن الكبد مثلاً لا يؤدي وظيفته الطبيعية إلا في درجة
حرارة ٤٠° ، والعين لا تريد حرارتها عن ٧° ، فمن يمنع حرارة الكبد
أن تستطرق في الجسم كله وتصل إلى العين مثلاً ؟ إنه الخالق
﴿الذي خلق فسوى ﴿٣﴾ والذي قدر فهدى ﴿٤﴾﴾ [الاعلى]

وقوله سبحانه ﴿وسخر الشمس والقمر ﴿١٣﴾﴾ [القمر] يعني ذللهما
للإنسان ، وجعلهم في خدمته دون قدره له عليهما ، ودون إرادته
منه فالشمس والقمر آيتان في الهيكل العام للكون لا دخل للإنسان
فيهما ، ولو كان له دخل لقسم أمرهما وما استقام ، وصدق الله
﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

فلأن قلت إفساد الإنسان في الأرض أمر ممكن ، فكيف يكون
إفساده للسماء ؟ قالوا ألم يتم قوم أن تسقط السماء عليهم ،
فقالوا ﴿أو يسقط السماء كما رعمت عليها كسفا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء] فلو اتبع

الحق أهواء هؤلاء لخرئت الدنيا .

وهذه مسألة تكلمت فيها امدرسة الفلسفة في اسمايا امام مدرسة اخرى . وكان لهما رايان مباحضان ، وهما في عصر واحد وكل منهما تتخذ من رايها دليلاً على الإلحاد وقولاً بعدم وجود إله . وهذا عجيب

هو حدة تقول لا شذوذ في العالم . فهو يسير على قوانين مستقيمة أشبه ما تكون (باسيكانيكا) . ولو كن لهذا الكون إله خالق لختلف لخلق وحدث فيه شذوذ .

والأخرى تقول إن الكون لا يسير على نظم ثابت بل يحدث فيه شذوذ في لخلق ، بدليل أن البعض يؤك مثلاً مُعبراً . ولو كان للعالم إله خالق لكان الخلق واحداً مستوياً لا اختلاف فيه سبحانه الله مهم يريدون الإلحاد على أي وجه . فمراحهم أن يحدوا .

ونقول لهؤلاء تعالوا نردكم إلى الصواب وإلى كلمة سواء يا مَنْ تريد شذوذ الأشياء دليلاً على وجود إله قادر الدليل موجود . ويا مَنْ تريد ثبات الأشياء دليلاً على وجود إله حكيم الدليل موجود . لكن لجهة مَنفكة كيف ؟

لنظام الثابت الذي لا شذوذ فيه موجود في الكون العلوي الذي يسير على رتابة ونظام لا يتخلف بحركة الشمس واقمر وانكواكب والافلاك تسير كلها على نظام واحد لا يختل أبداً . والآن استطلعنا مثلاً تحديد لحظة الكسوف والحسوف فعلاً نشاهده في وقته بالصبط .

بذن إن أردت الثبات دليلاً فخذ من الأملاك العليا . لأنها لا بد

أَنْ تُبْنَى عَلَى نِظَامٍ ثَابِتٍ لَا شُدُورَ فِيهِ وَإِلَّا لَاحْتَلَّتْ الْكُورُ كُلُّهَا
فَإِنَّ كِبَرَ مَرِيدِ الشُّدُورِ فَشَاهِدُهُ فِي الْجَزْئِيَّاتِ ، لِأَنَّ شُدُورَ
الْجَزْئِيَّاتِ لَا يُؤْثِرُ عَلَى النِّظَامِ الْعَمَمِ لِلْكُورِ ، بَلْكَ تَرَى هَذَا سِمْعًا ،
وَهَذَا أَعْمَى ، وَهَذَا أَعُورٌ ، إلخ . ذَنْ الثَّبَاتِ هِيَ مَوْصِعُهُ لِحِكْمَةِ
وَالشُّدُورِ هِيَ مَوْصِعُهُ بِحِكْمَةٍ ، وَهَذَا وَدَاكُ دَلِيلَانِ عَلَى وَجُودِ الْإِلَهِ
الْخَالِقِ الْقَادِرِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فطر] أَيْ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ يَجْرِي كُلُّ مَنَّهُمَا إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ يَتِمُّ فِيهِ مَنُؤُهُمَا وَنَهَايَتُهُمَا
﴿ ذَلِكَكُمْ ﴾ [فطر] أَيْ لَدَى فِعْرِ هَذَا وَقَدَّرَهُ ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ ﴾ [بقر] أَيْ الْعَالَمُ الْمَحْصَنُ الْمَشَاهِدُ لَكَ ، أَمَّا الَّذِي لَا تَرَاهُ
مَنْ مَلِكُ اللَّهِ فَهُوَ عَالَمُ الْمَلَكُوتِ ، وَهُوَ مَا غَابَ عَنْكَ ، وَلَا تَدْرِكُهُ
حَوَاسُّكَ

لِذَلِكَ لَمَّا نَجَّحَ سَيِّدُنَا بِرَاهِمٍ فِي الْإِسْلَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِذْ
أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقر] أَعْطَاهُ اللَّهُ مَنَزَلَةً عَظِيمَةً ،
وَأَطْلَعَهُ عَلَى الْمَلَكُوتِ الَّذِي غَابَ عَنْ عَيْنِهِ ، فَقَدْ سَبَّحَانَهُ ﴿ وَكَذَلِكَ
رَبَّى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام] وَمَا يَتَرْتَّبُ مِنْ عَالَمٍ
لِمَلِكٍ الْمَشَاهِدِ لَنَا نَاشِئٌ عَنْ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ الَّذِي لَا نَدْرِكُهُ

وَالْحَقُّ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يَشِيرُ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ - عَالَمِ الْمَلَكُوتِ - فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنعام]
كَيْفَ وَبِحَسْنِ مَا اتَّقَيْتَ اللَّهَ إِلَّا بِالْفُرْقَانِ أَيْ بِالْفَرَقِ ، فَمَا مَعْنَى
﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنعام] ؟ قَالُوا الْفَرَقُ هَذَا أَنْ يُرِيكَ اللَّهُ
مَلَكُوتَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ

وقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) [فاطر] يعنى إن كان الإله الحق خلق لكم كذا وكذا وسخر لكم الشمس والقمر ، فإن آلهتكم المدعاة المزعومة ﴿ما يملكون من قطمير﴾ (١٣) [فاطر] فما لقطمير ؟

المتأمل فى القرآن الكريم يحده يولى اهتماماً كبيراً بالنخلة ، وأول ما حطب خاطب العرب ، وهم أول من ووجهوا بالإسلام ودعوا إليه ، فخاطبهم القرآن بما يناسبهم ، وذكر لهم أمثلة من بيئتهم ، والنخلة مشهورة فى الديانة العربية ، ولها فى ديننا صفة ، حتى أنه نسب إلى سيدنا رسول الله أنه قال « أكرموا عماتكم النخلة »

وهذا القول وإن لم يصح عن رسول الله إلا أن الذى فاهه لم يقفه من فراغ ، ولا بد أن لهذا القول أصلاً ، وأن هناك صلة بين الإنسان والنخلة .

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »^(١)

فما سمع عبد الله بن عمر هذا قال لأبيه لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، لأنها لا يسقط ورقها ، وهى أشبه بالمؤمن ، فكل ما فيها نافع فيذكر عمر إلى رسول الله ﷺ ، وقال يا رسول الله ،

(١) عدم الحديث « فيها خلق من نخلة طنة أنبكم آدم » أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ١٠٧) حديث (٩٧) وعزاه لأبى يعلى وأبى نعيم عن ابن عباس وقال ضعيف قال ابن القيم فى زاد المعاد (٣ ١٩٤) « فى إسناده نظر » وانظر أيضاً (كشف المعاد ١٩٥/١)

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١) ، وبعده « وإنما مثل المسلم ، فعدّوسى ما فى فروع الناس فى شجر البوائى قال عبد الله بن عمر وقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال هى النخلة .

سُورَةُ قَصَصٍ

١٢٤٦٥

إلى أبى عبد الله قال عن الشجرة التى ذكرت أنها النحلة فقال
صدق ، وقال عمر - والله ما يسرنى أن يكون لى بها حُمر النعم ،
يعنى : فرح أن يفهم الله^(١) مقالة رسول الله .

وقد حاول العلماء تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان وإثبات السبب
بين الإنسان والنحلة ، وأنها ربما تكون قد خُلِقَتْ من بقية طينة
سيدنا آدم - فقالوا : إن رائحة طلع النحلة الذى يتم به التلقيح هى
نفس رائحة المني عند الإنسان ، وهذا يرحم صدق قول من قال إنها
عممتنا

وفى خَلْق النحلة على هذه الصورة عجائب وأسرار ، ويكفى أن
كل ما فيها نافع ولا يُرمى منها شيء ، وقد جعلها الله مرصفاً
للمثل وأبعده ، فلما حدثت العرب عن لَهلال ، قال ﴿وَالْقَمَرُ قَدَرَهُ
مَنَارٌ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٢٦)

والعرجون هو السُّنَّاطة التى تحمل البلح حين تيبس تلتوى
وتتقوس ، فقرب لهم الأعلى يذكر الأدنى المعروف بهم .

خُذْ مثلاً نواة التمره وهى أهرى ما يكون ، لا أن الله تعالى
كرّمها حين ذكر منها ثلاثة أجزاء جعلها أمثالا توضيحية ذكر
القطمير لذى معنا فى هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
ظُلْمٍ﴾ (٢٧) [ناصر] وهو العشاء الشفاف الذى يحيط بالنواة ، وبعد
مثله بين بيض البيضة وقشرتها

وذكر انتقير فى قوله سبحانه ﴿وَأُولَئِكَ يَدْعُونَ الْجِنَّ وَلَا يُظْلَمُونَ

(١) أخرج هذه الرواية البخارى فى صحيحه (١٢١) ، وعنده أن ابن عمر قال محدث سى بها
وقم فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلها أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا

نقيرا (٦٤) [الساء] والبقير بجوف صغير ، أو نقرة هي ظهر النواة
ونذكر القليل في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ
اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٦٥) [الساء] والقتيل خيط أبيض تجده في بطن
النواة ، وهذه الثلاث القصير والنقير والقتيل تُصرب مثلاً لشيء
اليسير المتناهي في القلة .

ثم يقول لحق سبحانه

﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ
بِشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٦٦)

قوله ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ (٦٦) [فاطر] الدعاء هنا معناه العبادة ، فقد كان
الواحد منهم يقف أمام صنمه يدعوهُ ويتوسل إليه ويكلمه الخ .
لكن مبهات فهذا حجر لا يسمع فدعاؤه غباء فضلاً عن كونه كفراً ،
ومعنى ﴿ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ (٦٦) [فاطر] أى : الآلهة التي لا تعقد
ولا تسمع ، كالشجر والحجر وغيره

لكن ، لماذا عبيد الكفار الأصنام مثلاً ، وهم يعملون أنها حجارة
تحتوي بأبديةهم ، ويرون أن مبة الريح تُوقع معبودهم ، وتلقيه على
الأرض ، وينكسر ذراعه ، فيحتاج إلى من يصلحها ، شيء عجيب أن
تُعبد الأصنام من دون الله ، لكن السبب هو فطرة التدين في النفس
البشرية

فكل إنسان بطبعه يحب التدين ، وفئة لتدين أن له مطلوبات ، فما

سُورَةُ فَطْرٍ

١٢١٦٧

المانع أن يذهب الإنسان إلى تدين يرضى هذه اسطرة ، ومع ذلك لا مطلوبات له ، من هنا عُبِدَت لأصنام ، وعُبِدَت الكواكب والأشجار وجُعِلَت آلهة .

ومعنى العبادة أن يطيع العابد أمر معبوده وينتهي عن نهيه ، فإذا لم يكن هناك أمر ولا نهى ، فالعبادة ساقطة باطلة لأنك تعد إليها بلا منهج ، وإلا فبماذا أمرتهم هذه لآلهة وعمّ نهتهم ؟ ماذا أعدت من عنده ؟ وماذا أعدت لمن كفر بها ؟

وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ [فاطر] أي على فرض أنهم عبدوا بشراً يسمعهم ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ [فاطر] يعني ما وافقوا على عبادتكم لهم ، ولرفضوا أن يكونوا آلهة ومثال ذلك الذين صدوا عيسى عليه السلام من دون الله

وقد تناول الشاعر هذه المسألة حين تخير أن غار ثور يغار من غار حراء ، لأن النبی ﷺ جعله مكاناً للخلوة وللتعبّد ، وفيه برز عليه أول الوحي ، فلما نزل النبي ﷺ في مجرته بغار ثور مرج ثور ، ورأى أن الرؤوس قد تساوت ، فحراء لبعثة رسول الله ، وثور لهجرته ، التي كانت منطقاً لل دعوة .

بقول اشاعر^(١) ،

الرُّوحُ أَمِينًا يَغْدُوكَ بِالْأَنْوَارِ	كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى
بِهِمَا اشْفَعُ لَأُمَّةِ الْأَحْجَارِ	فَحِرَاءٌ وَثُورٌ صَارَا سَوَاءَ
مِنَ الْفَائِضِينَ بِالْأَسْحَارِ	عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْنَدُ

(١) من شعر الشيخ رضي الله عنه

تُخَذُوا صَمْتًا عَلَيْنَا دَلِيلًا فَخَسِبْنَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ
 قَدْ نَجَّيْنَا جَهْلًا كَمَا قَدْ تَجَنَّوْهُ عَلَى أَبِي مَرْيَمَ وَالْحَوَارِي
 لِلْمَغَالِي حَرَاؤُهُ وَالْمَغَالِي فِيهِ تُنَجِّبُهُ رَحْمَةُ الْغَفَّارِ
 وَالْحَجَرِ نَاهِ يَأْنِي أَنْ يُعْبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَيَعْلَمُ فِي حَقِّهِ
 قَضِيَّةَ التَّوْحِيدِ ، وَيُخْرِجُ اللَّهَ مُسَبِّحًا ، فَمَا بَالُكَ بِالْبُشْرِ ؟

لذلك سنرى في موقف القيامة العجب من المعارك والمناقشات
 بين العابد والمعبود ، والتدع والمتبوع ، يقول تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٦٦) وقال
 حكاية عن الذين صلُّوا ﴿رَبَّنَا أَرِ الْاَلْدَيْنِ اَصْلَانَا مِنَ الْجَنِّ وَالْاِنْسِ جَعَلَهُمَا
 نَحْتًا اَفْدَانَا لِيَكُونَا مِنَ الْاَسْفَلِينَ﴾ (٢٩) [فصلت]

وهنا يقول سبحانه ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ (١١) [ماطر]
 أى هؤلاء الذين توجهتم إليهم بالعبادة واتحدتموهم آلهة سيتبرأون
 منكم ومن شرككم ﴿وَلَا يَسْئَلُكَ عَنْ خَيْرٍ﴾ (١١) [ماطر] أى عالم ببواطن
 الأمور وكفى الله تعالى يقول لك أنا أخذك بما سيكون في
 المستقبل فخذ من صدقي فيما مضى دليلاً على صدقي فيما هو آتٍ ،
 ومن صدقي فيما تشاهد دليلاً على صدقي فيما غاب عنك

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمُوا الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ﴾ (١٥) **إِنْ يَشَاءُ يُهْبِكُمْ** وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
 جَدِيدٍ (١٦) **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** (١٧) ﴿

النداء في ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [ماطر] نداء عام للناس جميعاً ،
المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ﴿أَنْتُمْ تُقْرَأُونَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ
الْعَنَى الْحَمِيدُ﴾ [مصر] هذه حقيقة يُذِلُّ الله بها كافرين الذين تابوا
على الإيمان بالله وتمردوا على منهج الله ، وكان الله تعالى يقول
لهم ما دُمْتُمْ قَدْ أَفْتُمُ التَّمَرُّدَ فَتَمَرَّدُوا أَيْضاً عَلَى الْعَقْرِ إِنَّ أَفْقَرَكُمْ ،
وعلى المرض إن نزل بكم ، تمردوا على الموت إن حار أجلكم ،
إن : أنتم مقهورون لربوبية الله ، لا تنفكون عنها

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْعَنَى الْحَمِيدُ﴾ [ماطر] أى الغنى المطلق ، ومعنى
﴿الْحَمِيدُ﴾ [ماطر] أى المحمود كثيراً ، والغنى لا يُحمد إلا إن
أعطى ، وكان عطاؤه سابغاً ، فالغنى لممسك لا يُحمد بل يُذم

ثم يُذَكِّرهم الحق سبحانه بحقيقة أخرى غابت عنهم ﴿وَيَسِّرْ
بُدْهِكُمْ رِبَاتَ بَحَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [مصر] كما قال فى موضع آخر ﴿وَإِنْ
تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَرْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [معد] ومعنى خلق
جديد الشيء الجديد هو قريب العهد بالعمل فيه مثل الثوب لجديد
يعنى الذى فُرِغَ مِنْ خِيَاطَتِهِ وَلَمْ يُلْبَسْ بَعْدَ

وإعاده الخلق أو الإتيان بخلق جديد أمر هين على الله ﴿وَمَا ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [ماطر] يعنى ليس صعباً ، لكن الحق سبحانه يريد
أن يأتى له الخلق طواعية ، ويؤمنون به سبحانه ، وهم قادرون على
الكفر ولهم مطلق لاختيار ، وهذا الاختيار سوطن العظمة فى دين
الله

وسبق أن مثلنا هذه القضية بأنه لو أن لك عبيد أمسكت الأول

إليك بسلسلة ، وتركت الآخر حراً ، وإن ناديت على أحدهما بئى
وأجاب ، فإنهم بعد الأطوع لك كذلك الحق سبحانه يريدنا طائعين
عن رضا وعن اختيار ، لا عن قهر وكرهية ، فإنه سبحانه كما قلنا
لا يريد قوالب تخضع ، إنما يريد قلوباً تخضع .

والإتيان بحلق جديد أمر هين يسير على الله تعالى ، لأن الله
تعالى لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكره فيكون ، وهذا من الله تعالى
لا يحتاج إلى زمن

ولو أردت أن تستقصى هذا المعنى في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا
أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) [يس] تحد أن الشيء في الحقيقة
موجود بالفعل ، لكن في عالم الغيب ولأمر ، له أن يظهر لنا في عالم
أواقع ، لذلك لما سئل أحد العارفين قال أمور يديها ، ولا يندبها

وتلحظ في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر] ذكر
صمير الفصل (هو) فلم يقل الحق سبحانه والله الغنى ، وهذا
الصمير أفاد تأكيد الخبر وقصر الغنى على الله سبحانه وتعالى ،
لذلك قلنا إن هذا الصمير لا يأتي إلا في المواضع التي تحتمل
شبهة المشاركة كما في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨)
وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) [الشعراء]

مجاهاً هنا بصمير لغائب (هو) لأن الهداية والإصعاب والسقيا
والشفاء من المرض كلها مظنة أن يشاركه فيها أحد من الخلق ، أما
في الحديث عن الموت فقال ﴿وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء]
ولم يأت هنا بصمير لغائب لأن الموت والإحياء لله وحده ولا

شبهة فيهما ، ولم يدعها أحد لنفسه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۚ﴾ (١٨)

معنى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ (١) [فاصل] لا تحمل نفس أثمة ﴿وَزِرَ أُخْرَىٰ﴾ (٢) [مطهر] حمل نفس أخرى ، لأنها هي الأخرى مُثْقَلَةٌ بحملها ، والوزر هو الحمل الثقيل الذي لا يطيقه الظاهر ، ومنه قوله تعالى في مسألة الوحي ﴿وَرَضِعَا مِنْكَ وَرْكَ﴾ (٣) الذي انقض ظهره ﴿٣﴾ [الشرح] يعني أتعبك نتيجة لتقاء الملائكية بالبشرية .

لذلك كان ﷺ يتفصد جيبه عرقاً من لقاء حبريل ، وهو الذي قال مُصَوِّراً هذا اللقاء « ضَمْنِي حَتَّى يُلَاحِظَ عَنِّي الْحُجْرَةَ » (١) وعاد إلى أهله يقول رملوني زملوني ، دشروني دشروني ومع هذا كله لم فطر الوحي اشتاق إله وتمناه أن يجيء ، لأنه داق حلاوته ، وحلاوة الشيء تنسيك ما تلاقيه من المتاعب في سبيله

(١) حرجه البحاري في صحيحه ٢١ كتاب بدء الوحي من حديث عائشة رضي الله عنها في حديث طويل . والفط حيس النفس وفي رواية الطبري ، ففتني ، كانه أراد ضمني وعصوني ، قاله ابن حجر في فتح الباري (٢٤/١)

والمعنى لا تحمض وزر وصب نفس أخرى مُثْقَلَةٌ بالدنوب والآثام وقد شرح الحق لنا هذا المعنى في قوله سبحانه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴿[عبس] فكل مشغول بنفسه ، مُرْتَهِنٌ بعمله ، لا وقت للمجاملة ، لذلك يقول الوالد لولده يا منى حملى ثقیل على وحدنى شيئا منه ، فيقول الولد حسبى حملى يا أبى .

كذلك هنا ﴿وإن تدع مُثْقَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ (٨) ﴿[مصر] أى نفسى مُثْقَلَةٌ بالآثام يطلب من يحمل عنها شيئا من دنوبها ولكن هيهات ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (١٨) ﴿[مطر] أى لرب كان هذا النداء لأقرب الناس إليها ما أجاب وما حمل عنها ، وكيف تحمض نفس وزر نفس أخرى ، وهى مشغولة بحملها مثقلة به ؟

لذلك يُكذِّبُ لحق سبحانه قول الذين كفروا حين نتعرضون لحمل خطاب أتباعهم ، فيقول سبحانه

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٦) وَيَحْمِلُونِ أَثْقَالَهُمْ وَانْقِلَابًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّالُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣) ﴿[العنكبوت]

إذن هذه مسألة واضحة ، فكل مشغول بنفسه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ (٢٨) ﴿[المدثر]

فالإنسان فى الدنيا مرتبط بما بقرابة لها حقوق عليه ، وإما بإخوان وأصدقاء ، وإما بمفقد يستنجد به ، وإن لم يكن قريباً ولا صديقاً لكن يوم القيامة ستحل كل هذه العزى ، لأن الموقف لا يحتمل المجاملات ولا التصحيات .

لذلك لما سمعتُ السيدة عائشة رضي الله عنها سيدي رسول الله وهو يُحدثهم عن القيامة ، ويذكر أن الشمس تدنو من الرؤوس والخلق يقفون عرايا ، استاءتُ وسألت رسول الله كيف يقف الناس عرايا يطر بعضهم إلى عورة معصٍ ، فأجابها رسول الله أن كل امرئ مشغور بنفسه ، وأن الأمر أعظم من أن يبصر أحد لعوره أحد في هذا الموقف^(١)

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿ إِنَّمَا تُدْرِكُ الْبُيُوتَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ (٨) ﴾ [فصير] يعني إنذارك يا محمد وتحذيرك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ، أما الآخرون فقد ظلموا أنفسهم حين حرموه لحير الكثير الذي أراد الله لهم ، ظلموها حين غرتهم الدنيا بنعيمها الفاني ، وشغلتهم عن نعيم الآخرة الباقي الدائم

والإنذار التخويف من شرٍّ قبل 'و'ه يتتوقأه ، والفرصة سامحة قبل أن يذاهمك ، فأنت مثلاً حين تريد أن تحدث ولدك على اممذاكره وتحذره من الإهمال الذي يؤدي إلى العشل لا تقول له هذا ليلة الامتحان ، إنما قبله بوقت كافٍ ببتدارك أمره ، ويصحح ما عنده من قصور أو إهمال

والإنذار والتخويف لا يجدي لا مع من يؤمن بما نُخوِّفه به فحين يذر رسول الله بعذاب الآخرة لا ينتفع بهذا الإنذار إلا من يؤمن بالله ويؤمن بالقيامة

ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم (٨) ﴾ [فاطر] الخشية هي الحوف ، لكن بحب

(١) أخرجه حماد في مسنده (٢ ٣٠٠) من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال : إنكم تجلسون يوم القيامة حفاة عرمة غرلاً قالت عائشة يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض قال يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهتمهم ذلك

وتوقير ، لا خوف بكراهية ، فانت تخاف مثلاً من بطش جبار ظالم ، لكن تحافه وانت كاره له ، فما خَوْفك من الله خَوْف ناتج عن حب وتوقير ، لذلك يصحب هذا لخوف رجاء وطمع في رحمة تعالى ، فأنت تسير في رحلة حياتك بجناحين خوف من العذاب ، ورجاء في الرحمة

والإنسان ينبغي ألا ينظر إلى الفعل في ذاته ، بل ينظر إلى الفعل وإلى قابل . فقد يكون الفعل واحداً لكن يختلف مستقبل الفعل ، فالقرآن مثلاً سمعه قوم^(١) عند رسول الله ، فحكى الله عنهم ﴿رَمَهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنَذَا﴾ (١٦) [محمد]

في حين سمعه آخر^(٢) فقال والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة^(٣) وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمعتق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه .

وسمعه عمر فلا قلب له ورق فاسلم ، فالقرآن واحد ، لكن

(١) المقصود بهم المنافقون ذكره السيوطي في سناب الدول للسيوطي (ص ١٥٤) وابن كثير في تفسيره (١٧٧/٤)

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع إليه نفر من قريش ليحدثوا وصفاً للقرآن فيجتمع رأيهم في رأي واحد حتى لا يختلفوا أمام الناس الوافدين عليهم في موسم الحج فقال بعضهم هو كامن فقال الوليد ما هو بكامن لقد رأينا الكهان فما هو بزمرة الكاهن ولا سجع وقال بعضهم مجنون ، فقال الوليد لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بسقذ ولا تخالجه ولا وسوسته ، وقال بعضهم شاعر فقال الوليد ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجده وهرجه وقريشه ومقبوسه فما هو بالشعر ، ثم قال والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغرق وإن لمعه لحياة ذكره ابن هشام في السيرة النبوية [٢٨٣/١ ٢٨٤]

(٣) الطلاوة الرونق والحسن ، [لسان العرب - مادة طلى]

فَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يَسْمَعُهُ وَهُوَ لَهُ كَارِهِ ، فَيَعْلُقُ عَلَيْهِ وَيُبَيِّنُ مَنْ يَسْتَقْبِلُهُ
بِقَلْبٍ وَأَعِ مَفْتُوحٍ لِإِشْرَاقَاتِ الْقُرْآنِ وَتَجَلُّيَاتِهِ

أَلَا تَرَى أَنَّ الْحَدِيدَ يَسْتَجِيبُ لَكَ حِينَ تُطْرَقُهُ وَهُوَ سَاخِنٌ ،
فَيَصِيرُ كَالْعَجِيَّةِ فِي يَدِكَ ، أَمَّا إِنْ طَرَقْتَهُ وَهُوَ بَارِدٌ فَلَهُ لَا يَتَفَاعَلُ
مَعَكَ ، كَذَلِكَ قَلْبُنَا مِثْلًا إِنَّكَ فِي الْيَوْمِ الْبَارِدِ تَنْفَخُ فِي يَدِكَ لِتَشْمَعَ
بِالدَّفْعِ ، وَتَنْفَخُ أَيْضًا فِي كُوبِ الشَّيْءِ مِثْلًا لِتَبْرِدَهُ ، فَكَيْفَ تَجْتَمِعُ
هَذِهِ الْمُنْصَادَاتُ لِفِعْلٍ وَاحِدٍ ؟ يَقُولُ : لِأَنَّ الْفَاعِلَ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا إِلَّا
أَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ لِفِعْلٍ مُخْتَلَفٍ

كَذَلِكَ إِندَارُهُ ﷺ إِندَارَ وَاحِدٍ ، لَكِنْ اسْتَقْبَلَهُ قَوْمٌ بِحُضُوعٍ وَرَغْبَةٍ
فِي الْهَدَايَةِ فَأَمَرُوا وَاسْتَقْبَلَهُ قَوْمٌ بِعِنَادٍ وَإِحْسَارٍ فَلَمْ يَسْتَقْبِلُوهُ مِنْهُ
وَلَمْ يَسْتَفْعُوا بِثَمَرَتِهِ .

وَقَوْله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ (١٥) ﴾ [فاطر] دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ
اِكْتِمَالٌ فِي نَفُوسٍ هَؤُلَاءِ اِكْتِمَالًا يَسْتَوِي بَيْنَهُ شَهِيدُ احْكَمَ بِغَيْبِهِ وَمَنْ
ذَلِكَ قَوْلُ الْإِمَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَوْ انْكَشَفَ عَنِ الْحُجَابِ مَا
ازْدَدْتُ يَقِينًا .

وَلَمَّا سَأَلَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَا ذَرُ ، « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ »
قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا ، قَالَ : « فَإِنْ لَكَ حَقٌّ حَقِيقُهُ ، فَمَا حَقِيقَةُ
إِيمَانِكَ ؟ » قَالَ : عَزَقْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ، حَتَّى اسْتَوَى عَمْدِي ذِمَّتُهَا
وَمَدَرَهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْحَنَةِ يُعْطَمُونَ ، وَإِلَى أَهْلِ النَّارِ
فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : « عَرَفْتَ فَالْزِمِ^(١) »

(١) أَوْرَدَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الرُّوَاثِ (١ / ٥٧) وَغَرَاهُ لِنَظِيرَاتِهِ فِي مَعْجَمِهِ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ
الْحَارِثِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ وَبِهِمْ أَمَّا بَرٌّ : وَقَدْ عَرَّاهُ ابْنُ حَجَرٍ الْمَسْكُونُ الْحَدِيثَ لِابْنِ
الْعَبَّاسِ فِي الرَّغَدِ ، وَبِكَ فِي : الْإِسَابَةِ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ (١ / ٢٤٣)

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى للدين اسبجائوا لإنداد رسول الله وانتفعوا به ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ (١٨)﴾ [ناظر] فهم مع خشيتهم لله خشية أوصلتهم إلى إيمان يستوى فيه الغيب بالمشاهدة ، هم أيضاً يسمون الصلاة أى يؤدونها على أكمل وجه ، والصلاة كما ذكرت هي العبادة الوحيدة التي لا تسقط عن المكلف بحال ، فقد يطأ عليك ما يسقط الزكاة أو ما يسقط الصيام أو الحج فلم تنق إلا شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله وهذه يكفي أن تقولها ولو مرة واحدة

أما الصلاة فهي العبادة الوحيدة الملزمة للمسلم ، لأن الصلاة في حقيقتها استندة الولاء لله تعالى ، فربك يدعو إلى لقائه خمس مرات في اليوم واليلة يناديك لتعرض الصنعة على صانعها ، وما بالك بصنعة تعرض على صانعها خمس مرات في اليوم واليلة ؟ أليكون بها عطب بعد ذلك ؟

أما إذا أردت مقابلة عظيم من عظماء الدنيا فدونه أبواب وحراس ومواعيد وإجراءات صارمة ، ولا يملك أنت من عصر هذا اللقاء شيئاً ، بل يحدد لك الموعد والموضوع وحتى ما تقوله ، لك تستأذن في أوله ولا تملك الانصراف في آخره .

أما لقاءك بربك فخلاف ذلك ، ففي يدك أنت كل عناصر اللقاء فانت تبذره متى تحب ، وتنهيه كما تحب ، وتناجي ربك فيه مع تريد، تنه شكواك ، وتعرض عليه حاجتك ، فيسمع ويجيب

وبعد أن ذكر الحق سبحانه هذه العبرة الدائمة يقرر هذه الحقيقة ﴿وَمَنْ تَرَكْنِي فَإِنَّا بَتْرَكْنِي سَهْ (١٩)﴾ [ناظر] يعنى عادتك عاثدة إليك أنت لا ينتفع الله تعالى من شيء ، فهو سبحانه لا تدفعه طاعة الطائعين ، ولا يصره معصية العاصين .

فهو سبحانه على عتاً ، ونحن بعبادتنا لله لم نرده سبحانه صفة
كمال لم تكن له ، لأنه بصفة الكمال أوجدنا وبصفة الكمال كلّفنا
لذلك جاء في الحديث القدسي « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ،
ونسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد
منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم
وجنكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم
ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ذلك أسى جواد ماجد واجد ، عطائي
كلام ، وعذاسي كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردت أن أقول له كن
فيكون»^(١)

إذن نحن صنعة الله ، وما رأينا صنعة يعمد إلى صنعتها
فيحطمها أو يعيبها ، إنما يصلحها ويهذبها ويعتني بها ، حتى إن
أصابك عطب أو إيلام فاعلم أنه في النهاية لصالحك
﴿وَالِلّٰهِ الْمَصِيرُ﴾ (٨) [مصدر] يعني المرجع والمعتد يوم
القيامة لفصل بين الحصوم ، وليبالي كل ما يستحق ، فمَنْ أفلت من
العقاب في الدنيا فهناك مصير سبّرجع إليه
ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١١) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ
إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢)

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبي زر رضي الله عنه ، ومال حديث
حسن . وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٥ ، ١٥٤) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧)

هذه حقائق سفرها الحق سبحانه ، فالمنداقصان لا يستويان
لأن الأعمى لا يعرف مواقع الأشياء من حركته ، والبصير يعرف
مواقع الأشياء من حركته ، البصير يرى مواقع الأشياء ويتعاضد
الاحطار أما الأعمى فلا يد له من مرافق يتطوع بصداقة عبده
المليمة للعين لعانة لذلك يقول إن أعطى الأعمى للعمى حقه
صار مصراً كيف ؟ لأنه لا يتكبر أن يستعين بالمبصر ، حين
ينادي على من يأخذ بيده تتسابق إليه كل العيون من حوله لتساعده
أما إن تعالى فسرعان ما (يندب) على وجهه

والعمى والبصر حسنيان توضح المعنوي ، فالمراد لا يستوي
الجاهل والعالم لأن حركة الحياة تنقسم إلى حركة مادية تأنى
وتذهب ، تزرع وتقلع إلح وحركة قيمة معنوية ، وهي الروحانيات
والأخلاقيات العالية ، مثل معاني الإيمان ، الصدق ، لوفاء ، العدل ،
الرحمة .. الخ

وإذا كانت الحركة المادية الحسية تحتاج إلى نور حسي يهديك
حتى لا تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك
فتحطمه ، فكذلك الحركة القيمية المعنوية الروحية تحتاج إلى نور
معنوي يهدي حُضَاكَ كي لا تضل ، هذا النور المعنوي هو المنهج
الذي قال الله فيه

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ مَجِئَ
السَّلَامُ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٦) ﴾

[المائدة]

فالشمس هي أنوار الحسي والقرآن من النور المعنوي ، لذلك
قلنا في قوله تعالى . ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٣٥) [سور] أي
مُنُورِهِم بِالنُّورَيْنِ

الحق سبحانه سسوق أن ذكر لنا التقابيل بين الماءين العذب والمالح ، فقال سبحانه ﴿ وما يسوى الحران هذا عذب فراب سائغ شره وهذا منج أجاج ﴾ (١٢) [قاطر] نعم ، لا يستويين ، لكن العلاقة بينهما علامة تقاس كالليل والنهار ، لا علاقة تصاد كالأعمى والبصير ، بليل أن الله جمعهما معاً فقال ﴿ ومن كثر تأكلون لحمنا طرباً وتسخرجون حية تبسوها ﴾ (١٣) [قاطر] غير اختلاف المتقابلين ، فكل منهما مهمة يؤدها ، فهما متساندان لا متعاندان

وبعد أن ذكر الحق سبحانه عدم استواء الأعمى والبصير يقول ﴿ ولا الظلمات ولا النور ﴾ (١٤) [قاطر] ، لأن النور هو مصدر الإصدار فالبصير لا يرى شيئاً في الظلمة

هذا هو العمى والبصر الحسى أما لقيم والمعنويات فلها مقياس آخر ، لذلك يقول تعالى ﴿ فابها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (١٥) [الحج] ، فقد يكون الرجل مبصراً وهو عمى بصيرة والأعمى في المعنويات هو الذي يجهل الحكم لدى بهديه ، إلى منطقة الحق في كل القيم ، والبصير هو العالم بهذه الأحكام

وحين تتأمل أسنوب هاتين الايتين تجد فيهما ملحقاً من ملامح الإعجاز في كلام الله ، فالأولى ﴿ وما يسوى الأعمى والبصير ﴾ (١٦) [قاطر] قدرت بين الايتين باستخدام واو العطف ، أما الأخرى ﴿ ولا الظلمات ولا النور ﴾ (١٧) [قاطر] فذكرت (لا) الدامية الدنة على تأكيد عدم الاستواء ، فلم يقل الحق سبحانه كما في الأولى ولا الظلمات والنور ، لماذا ؟

قالوا : لأن العمى والبصر صفتان قد اجتماعان في شخص الواحد ، فقد يكون أعمى اليوم ويبصر غداً ، قد يكون جاهلاً ويتعلم ، أو كافرًا ويؤمن . فبطرُ عليه الوصفان . لذلك لم يؤكد معنى عدم الاستواء ، أما ابطلمات والنور فهما متقابلان لا اجتماع

كما تلحظ في دقة الأداء القرآني ، لأن الحق سبحانه هو امكلم . فقال ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ [مصدر] فالتظلمات جمع والنور مفرد . لأن مذاهب الضلال شتى فهذا يعبد النجوم ، وهذا يعبد لأصنام وهذا يعبد الملائكة الخ أما النور فواحد ، هو مهج الله المنزل في كتابه .

لذلك لما أراء سيدنا رسول الله ﷺ أن يُعلم أصحابه هذا الدرس خطَّ لهم خطاً مسقيماً ومن حوِّه خطوطاً مدعرجة ، ثم بلا ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الانعام] ثم يقول سبحانه ﴿ وَلَا الظُّلُمُ وَلَا الْحُرُورُ ﴾ [فاطر] وهما أيضاً متقابلان لا يجمعان ، كذلك ﴿ وَمَا يَسْئُرُ الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [مصدر] وتلحظ هنا أن الحق سبحانه عند ذكر الفسوق امتنع ﴿ وَمَا يَسْئُرُ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ [فاطر] لتأكيد عدم الاستواء بين الحي والميت

وكذلك ذكر (لا) النافية الدالة على التوكيد ، لأن كلمة الأحياء تعني المؤمنين الإيمن الحق ، الذين يستحقون حياة أبدية باسمية تتصل بحياتهم الدنيوية الفانية ، أما الأموات فهم الكفار الذين تأنوا على مهج الله أو أن الأحياء هم الذين عرفوا أن الحياة الحقة هي العيش بمتنهج ربهم الذي يؤدي بهم إلى حياة الحقيقية الناقبة التي قال الله عنها

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجرات]

وهذه هي الحياة امرادة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (٢٤) ﴿[لا تعال] كيف وهو يحاطبهم وهم أحياء بالفعل ؟ إسن المعنى يُحييكم الحياة الحقيقية التي لا تنتهي بموت ، ولا تُسلب منها نعمة .

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه . ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مُبْتَلًى فَالْحَيَاءُ رَجَعْنَا لَهُ بَورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَمْ يَلْحَظْ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (١٢٢) ﴿[لا تعال]

ومن المعاني التي نفهم من عدم استواء الأحياء والاموات أن الحي خلقه الله وأمدّه بأجهزة نفسية عقلًا ، وأعصابًا ، وعصلات ، وسمعًا وبصرًا الح وهذه لأعضاء لها قيمة ، ولها مهمة ، وعليه أن يستخدم هذه النعم استخداماً يجعلها وسائل لنعم أخرى ، ثم ليعلم أنه في رحلة حياته لا بد أنه سيموت لكن ربه عز وجل أبهم له أجله ليكون ذلك عين إيمان ، وببطل على ذكر له طوال الوقت ويستظره في كل لحظة ، فعمرك محسوب بعد تنازلي ، وسهم الموت أطلق في اتجاهك بالفعل ، وعمرك بقدر وصوله إليك

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الحال في التكاليف فقال لا يستوى الأعمى الجاهل بأصول دينه والبصير العالم بها ، ولا يستوى نور الإيمان والهداية مع ظلمات الضلال ، يتكلم سبحانه عن المائل فيقول ﴿وَلَا الظُّلُ وَلَا لُحُورٌ﴾ (٢١) ﴿[مطر] الظل كناية عن نعيم الجنة ، وفي موضع آخر قال ﴿طُلُؤُ ظِلِيلًا﴾ (٥٧) ﴿[نساء] والحرور كناية عن العذاب وشدة حره

ثم يقول سبحانه محاطاً بربه ﷻ ومُسَلِّياً له ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمَعٍ مِنْ فِي الْقُورِ﴾ (٢٢) ﴿[عامر] لنبي ﷺ جاء على كفر

وحالة من قومه فكانت دعوته أن يخرجهم من العمى والجهالة إلى ما ينير بصائرهم ويخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان

وقد كان ﷺ شديد الرص على هداية قومه يكاد يهلك نفسه في سبيل دعوته ، لذلك خاطبه ربه بقوله ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا لَأَحْدِثَ أَمْرًا ﴾ (٦) ﴿ [الكهف]

كذلك هنا يخاطبه بقوله ﴿ إِنْ أَلَّهَ يَسْمَعُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [فاطر] أي سماع هداية وإقبال ، وإلا فهم جميعاً يسمعون ، لكن هناك سماع إعراض وسماع إقبال ، منهم من يقبل ويؤمن ويتأثر بكلام الله ومنهم من يسمع ثم يعرض ويصرف عما سمع ، لذلك قال الله فيهم ﴿ وَلَوْ عَسَىٰ أَلَّهُ فِيهِمْ حَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ رَبُّهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمُسْمِعُونَ ﴾ (٢٣) ﴿ [الأنفال]

إس يا محمد ، لقد أديت ما عليّ نحوهم ، وحاطبتهم خطاب هداية ، وخطب تهديد ووعيد ، فلم يسمعوا ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر] يجعلهم الله لعدم سماعهم كلامات ، وإلا فرسول الله خاطب أهل قلب بدر من لكفار حين وقف عليهم وبأدهم بأسمائهم « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا ابن جهل اليس وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً »

فقال عمر اتكلمهم وقد حيّفوا ، قال ﷺ « والله ، ما أنتم بأسمع منهم ، ولكنهم لا يتكلمون »^(١)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧١) من حديث أس بن مالك رضي الله عنه ، وأنه أن عمر رضي الله عنه قال يا رسول الله ، كيف يسمعون وأني يجيبرون وقد حيّفوا ؟ فقال ﷺ « والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لهم أقوال منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » ثم أمر بهم فسحبوا ، قالوا في قلب بدر

فانمعى ما أنت بمسمع السماع المؤدى إلى الهداية ، كما أنك لا تسمع من فى القبور ، لأن زمن السماع وقبور الهداية انتهى بالموت .

لكن إذا كان رسول الله لا يسمع من فى القبور فما مهمته ؟ يقول سبحانه بعدما

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾

إن هنا معنى ما النافذة ما أنت إلا نذير أى مُحذّر من المعصية ومن العذاب ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يُخفف عن رسوله ، فيحدد له هذه المهمة وحسب ، وليس له أن يريد عليها بما شقّ عليه حتى يكاد يهلك نفسه ، فيقول له مهمتك فقط الإنذار ، أما الهداية فمن الله فأرح نفسك ، فلو أرادهم الله جميعاً مؤمنين لحاءوا طائعين مُسخرين كغيرهم من المخلوقات ﴿لَعَنَ بَاغِعُ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) إن نشأ نزل عليهم من السماء آية لظنّت أعقابهم لها خاضعين (٤) [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

الحق هو الشيء الناتج الذى لا يتغير ، والله تعالى يضرب لنا مثلاً حسياً لتوضيح الحق والباطل ، فيقول سبحانه : ﴿انزل من السماء ماء فبأنزلت أوديةً بقدرها فاحتمل السيل ريداً رابياً ومما يؤفكون عليه فى النار ابتغاء حلية أو مباح ريد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الرّيدُ فيذهب حقاً وأما

ما يسمع الناس فيمكث في الأرض كد لك يصرب الله الامثال (٧) ﴿ [الترجم]

وقد ترجمنا هذه العلاقة بين الحق والباطل ترجمة عصرية عقلا لا يصح إلا الصحيح ، نعم لأن الباطل وإن أخذ صورة انحق مرة بعض الوقت ، فهو كالزيت الذي سرعان ما تريحه الريح لتكشف وجه الحقيقة المصم والحق الواضح

وقوله تعالى لنبيه ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ [فاهد] يدل على به الرسول الحاتم الذي لا رسول ولا نبي بعده يغير شيئاً مما جاء به فالنبي جاء بالحق الثابت الذي لا يتغير أبداً ، ولا يستدرك عنه أحد بعده لذلك علم أن الله البشريه الآن أنها تحكم العصر وتطور الأوصاف في الحكم على المخالفات الشرعية محين نعرض لمخالفة نسمع من يقول إنه التطور الذي لا بد منه وهؤلاء هم دعاة (غصيرة) الدين ، نعى تطويع الدين للائم العصر

وهذا يعنى أن تطور العصر هو لمشروع ، فى حين أن المقروض أن العصر هو الذى يستقبل تشريع السماء ويبقى حركة حياته على هداه ونوره لأن الحركة التى تنبى على هدى السماء هى الحركة انعلما من الرب الأعلى الذى يعلم حقيقة الخير لك ولا يستدرك عنه ، أما إن شرع لك إنساناً مثلك فحتى هو لرد ذلك على الخير فهو خير من وجهة نظره وعلى قدر علمه ، فلا بد أن يكون فيه نقص وقصور ولا بد أن يأتى بعده من ينقصه ويستدرك عليه

لذلك رأينا حتى غير المسلمين تحدثهم أقضية الحياة إلى أن يأخذوا بحلول الإسلام للعلب على مشاكلهم ، وهم بالطبع لا يحدون أحكام الإسلام حفا فيه ، إنما لأنهم لم يجدوا حلاً فى غيره ومن هذه النقضايا قضية الطلاق التى طالما أثاروا حولها الشكوك وظنوها

مأخذاً على الإسلام ، والآن في إيطاليا يقررون اطلاق ، لا لأن الإسلام شرعاً ، إنما لأن مشاكلهم لا تُحل إلا به

ومذه المسألة توضح لنا معنى قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبه] ﴿٧٣﴾

لذلك سنُكَلِّمُ في بعض رجالنا القرآن يقول ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) [الصفا] وفي آية أخرى ﴿ وَاللَّهُ مَتِّعُ بَوْرِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨) [الصفا] فكيف تم نور الله ومع الإسلام ديدات أخرى كثيرة ، ما زالت موجودة وأغلبها أكثر من الإسلام عدداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى ﴿ مَتِّعُ بَوْرِهِ ﴾ (٨) [الصفا] أن يصير الناس جميعاً مسلمين ولو كان الأمر كذلك ما قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٩) [الصفا] ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨) [الصفا] إذن الحق سبحانه يقرر وجود الشرك والكفر مع لإسلام والمعنى أن الله مَتِّعُ بَوْرِهِ يعنى مع كفرهم ومع شركهم طوالت المدة إلا أنهم لن يهدروا على طفاء هذا البور ، فسوف يضل ، وسوف يتقلب على أحكامهم ويظهر عنهم ، بحيث لا يجدون حلاً لأنفسينهم إلا في هذا البور

وقوله تعالى ﴿ شَيْراً وَبَدِيراً ﴾ (٢) [طاهر] الشير الذي يُخْبِر بالخير قبل أوأته والمذير ، الذي يُحَذِّرُ من الشر قبل أوأته ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَّا فِيهَا بَدِيرٌ ﴾ (٢٤) [طاهر] إن لها بمعنى ما النافيه ، مثل ﴿ إِنْ أَبْطَأْ بَدِيرٌ ﴾ (٢٣) [طاهر] فامعنى ما من أمة إلا حلا فيها نذير معنى جاءها نذير ومصى .

والأمة الجماعة من الناس تجمعهم أرض واحدة ، أو جمعهم

سلوك واحد ، أو عقيدة واحدة ومن معانى كلمة أمة ما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (٢) [المحل] يعنى حاملاً وحده كل خصال الخير بحيث لو جمعت كل صفات الخير في أمة تحدثا في سيدنا إبراهيم عليه السلام

وإذا كانت الأمم السابقة موصى في كل منها تدير ، فرسور الله هو اسدير الأخير ، لماذا ؟ قانونا لأن واقع العالم في القديم كان بعيد التواجد منقطعاً بعصه عن بعض لصعوبة الاتصال فالحماعات تعيش مفصلة لا اتصال بها فمرى بكل سنة داءتها وغيوبها وبعاداتها فأتى الرسول ليعالج داءات قومه فحسب ، فسيدنا نوح عليه السلام جاء لسدين عبدوا وداً وسوأعاً ويعوث ويمسوق وسراً ، وسددت بوط عليه السلام جاء لمعالج داء الشذوذ في قومه الخ

أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد جاء على ميعاد مع التقاء لدنيا كلها ، حين تداخلت الحضارت والمجتمعات ، فصار أعيب في مه عيباً في كل الأمم ، وزاد هذا الالتقاء حتى أصبحنا ليوم نرى ونسمع ما تحدث في أقصى بلاد الدنيا في النور واللحظة كذلك نرى ونسمع سلبيت وغيوب الآخرين وكأنها في بلادنا إذن : ستتوحد الداءات ، وتتوحد العقائض ويصبح العالم كله بيئة واحدة بذلك كانت رسالة الإسلام رسالة عامية ، ونعت سيدنا رسول الله للناس كافة

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

يعنى يا محمد ، حذّك أسوة من إخوانك الرسل السابقين
فقد كذبوا جميعاً ، وهذه سنة مُنبغة . ولست أنت يا محمد مدّعاً من
الرسول . وقلنا إن الله تعالى لا يرسل رسوله إلا إذا غمّ الفساد وعمر
العلاج ، فلا وجود للنفس النلوامة التى تُردع صاحبها عن المعصية ،
ولا لمجتمع الأمر بالمعروف النافى عن المنكر ، يعنى لا مناعة فى
الدات ، ولا مناعة فى المجتمع ، فقد فسد هو الآخر واحتجم أهله
على الضلال ، عندها لا نُدّ أن يسجل لسماء برسول جديد يأتى
بمعجزة تناسب الزمن الذى جاء فيه

فقله تعالى ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [٢٣] ﴿ [فسر] لأن
الرسول ما جاء إلا ليواجه الفساد فى المجتمع ، وطبيعى أن يوجهه
الصالحون والظالمون والمتجبرون المستفيدون من هذا الفساد ، وأن
يُكذبوه . لذلك قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا
لِيُكْفَرُوا فِيهَا ﴾ [٢٤]

وقوله تعالى ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [٢٥] ﴿ [فسر] بالبيات يعنى
بالشئى الواضح الذى يُبين أن المتكلم صادق فى التعبير والبلاغ عن
ربه ، وهذه هى المعجزة ، إذن فالرسول جاء بالمعجزة لتكون دليلاً
على صدقه فى البلاغ عن ربه ، فبيست المعجزة هى هدف الرسالة ،
إنما هدف الرسالة تبليغ الأحكام والمصيح

ويعنى ﴿ وَبِالْزُّبُرِ ﴾ [٢٥] ﴿ [مطر] أى الكتب السماوية المنزلة مثل
صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، لكن خص هنا
الزبور والقرآن (الزبور والكتاب المنير) لأن الزبور الذى أرسل على
سيدنا داود امتاز بأنه مكتوب ، ومكتوب بحروف منقوشة بأرزة ،
بذلك كتاب ثابته ليس بممداد يُمحى مثلاً ، فهى أشبه بالنقوش

لحرية ، ويسمونها (الأويمة)^(١)

ولكتاب المير هو القرآن الكريم ، لأنه لنور المعنوي لدى سر
لناس طريق الحياة ويهدي حركتهم ، فإن كانت الشمس هي النور
الحسي الذي يهدي حركتك لحسابات ، فالقرآن هو الدور المعنوي
الذي يهدي من آمن به

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٥٦)

وهذه سنة الله في المرسلين أن يأخذ الكافرين بهم والمعاندين
لهم ، أرايتم نبياً أسلمه الله أو انهزم أمام قومه المعاندين ؟ لقد وعد
الله رسوله بالنصرة والتأييد ، فقال سبحانه ﴿ إِنَّا لَنَصُرُونَا فِي أَلْيَمِ
أَمْرٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٥١) [غافر]

وقال ﴿ وَإِنْ جُذِمَا لَهُمْ عَلَى أَيْمَانِهِمْ ﴾ (٦٧) ﴿ إِنَّا لَنَاقِصُونَ لَكَ
جُنُودًا لَّهِ لَاحِزُونَ فِي شَيْءٍ وَلَمْ يُلَاقَ أَنْ شَرَطًا مِنْ شُرُوطِ
الْجَدِيدَةِ تَحْلَفُ وَأَوَّلُ شَرَطٍ لِلْحَنْدِ فِي الْجَاعَةِ فَإِنْ خَافَ الْحَنْدِيُّ
أَوْامِرَ اللَّهِ عَلَا بُدُّ أَنْ يُهْرَمَ ، بذلك قلنا إن المسممين انتصروا على بدر
وهم فئة قليلة ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٦١) [البقرة]

ولم يفتقر على بدر ستة واحدة ، وحدثت أحد صحيح لم يهرم
المسلمون لكنهم أيضاً لم ينتصروا ، لأن المعركة (ماعب) تلك لأن
أمرهم حالقوا أمر رسول الله وحنوا عن ماكنهم وبنوا لجمع

(١) قال الزبيدي في « البصائر » : « منى كتاب داود روبراً ، لأنه مرل من السماء مسطوراً

وقيل هو اسم لكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية ، والكتاب بما

يتضمن الأحكام ، انظر كتاب « تاج العروس للزبيدي » مادة ريد

سُورَةُ قُلُوبٍ

١٢٤٨٩

العنائم ، وأرد الله تعالى تأديب عبده المخلصين فلا بُدَّ أن يهرُهم
هذه لَهْرَةٌ العنيفة ، ويرَوُّا هذه النتيجة ، لأنهم خالفوا

لذلك قلنا : إن الإسلام انتصر في أحد ، وإن كان المسلمون لم
ينتصروا ، لأنهم لو انتصروا مع محبفة أمر رسول الله نهايت على
المسلمين أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أوامره
وانتصربا في أحد إن كان لا بُدَّ من هذه النتيجة المائعة ليسلم
المسلمون أهمية الطاعة والأسوة برسول الله

كذلك في حين لما رى لصريق أبو بكر كثرة لمسلمين ، فقال
لن نُعَبِّ اليوم من قبة وكاموا عشرة آلاف مقاتل فأراد الله أن
يكسر هذ الغرور في المسلمين ، فكان التفوق للكفار في بداية
المعركة حتى أخرجوا المسلمين لكر تداركتهم رحمة الله وكان الله
أراد أن يُصَحِّح لهم الخطأ فحسب ، لا أن تنزل بهم الهزيمة

وحين سنأمل معنى ﴿ثم أحدث أديب كفروا﴾ (٢١) ﴿فاطر﴾ نجد أن
الأخذ يد على قوة الأخذ بقوة لحدب التي تستوعب كل أعصاء
الماخوذ ، فعلى مستوى البشر يقول أحد فلان يعنى سابه أو شدة
عن محم ثوبه ومكة بقبضه يده أما لو قُلْتُ أحده الله فأخذ الله
شديد ، أخذ عزيز مقتدر

نست بقول بعده ﴿فكيف كان كبر﴾ (٢٢) ﴿فاطر﴾ أى بكبرى
واعتراضى على ما فعلوا وليكبر هو الشيء الذى تستنكره وتغضب
منه وما بالك تقوم أنكرك الله مسلكهم وعصب عليهم ؟ لا بُدَّ أن
يأخذهم أخذاً يُرضى أوليائه ، ويُرضى المؤمنين به .

بقوله سبحانه ﴿فكيف كان كبر﴾ (٢٣) ﴿فاطر﴾ يعنى قرأ لى
يا محمد هل قدرت على محازتهم بما يستحقون ؟ وهذا المعنى

واصبح ايضاً في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ﴾ (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامرون (٣٠) وإذا مضوا إليهم أقبلوا فلا مباليهم (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦) ﴿المطالعين﴾

ثم يقول الحق سبحانه

﴿الَّذِينَ تَرَىٰ أَنَّهُ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَأَخْرَجَ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيبٌ مُّسَوَّدٌ﴾ (٢٧)

تلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يُدكّرنا ببعض بعمه علينا ، ثم يُتعم ذلك ببعض المطلوبات ، وهكذا يؤنس قلبك بالإحسان ليد تستجيب لمطلوباته . والحق سبحانه حين يُدكّر عباده بهذه الآية لكوسية ، آية إيراد الماء من السماء بعد أن بيّن سببه أخذ الشديد للكافرين ، كأنه سبحانه يقول لرسوله دعك من أمر هؤلاء الكافرين ، فانا قادر على معاقبتهم وتأمل في هذه الآية الكوسية ﴿أَمْ تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .﴾ (٢٧) ﴿ناصر﴾

وقوله ﴿الْمِر (٢٧)﴾ [ناصر] أي تشاهد ، لأن الجميع يرى

(١) الجدة من الشيء الجزء منه يحال لونه بون سائره ، ومعنى قوله تعالى ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيبٌ مُّسَوَّدٌ﴾ (٢٧) [ناصر] أي من الحال لجرء ذات بون مختلفة [القاموس القويم ١/ ١١١]

(٢) الغريب الشديد السواد ، وجمعه غرابيب [القاموس القويم ٢/ ٥٠]

الماء ، وهو ينزل من ناحية لعلو واسماء هي كل ما علاه فأطلك ،
وقد تأتي ﴿ أَلَمْ تَرَ ۚ ﴾ [العين] بمعنى ألم تعلم وهذا في الأشياء
التي لم يرها رسول الله كما في قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يرَ حادثة العيل ، لكن حاطبه ربه
بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ۚ ﴾ [العيل] ليدل على أن إخبار الله له أوثق وأصدق من
رؤية العين .

ومسألة إنزال الماء من اسماء أي من ناحيتها وإلا فالسماء
شيء آخر المطر إنما ينزل من السحاب القريب من الأرض نقول
مسألة إنزال الماء من ناحية السماء يبدو أمراً طبيعياً ، فبحار الماء
تتخذ في السماء على هيئة سُحُبٍ معتلثة بالماء ، والماء له ثقل ينزل
إلى أسفل بجاذبية الأرض لذلك يرتب الله على إنزال المصير إحراج
النبات ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَمْرَافًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ ﴾ [فاطر] قَبْلَ أَنْ تَنْزُولِ
الماء من السماء أمر طبيعي قد يشك فيه أنه من ضمن الطبيعة ، فهل
إحياء الأرض وإنبات النبات مختلف الثمرات والألوان أبصاً من فعل
الطبيعة ؟

وكلمة ﴿ أُنزِلَ ۚ ﴾ [فاطر] تفيد النُّزُلَ من المُنَزَّلِ والنُّزُولَ من المُنَزَّلِ
إليه ، حتى لو كان هذا الأمر معكوساً وأتى الإنزال من أسفل إلى
أعلى كما في قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعَعٌ لِلنَّاسِ
(٢٤) ﴾ [الحديد] والحديد في الواقع نُخْرَجَ من باطن الأرض ، لكن سماه
الله إنزالاً ، لأن المراد به الإنزال من أعلى لأسفل بصرف النظر عن

حجته أعلى أو أنقى

ونحن نشاهد عملية إزال الماء من السماء ، لكن لم نشاهد عملية البحر التي تتم على سطح الماء في الأرض ، ثم صعودها لى طبقات الجو العليا حيث تتكوّن السحب عن طريق التكثيف ، والإنسان لم يكن يعلم شيئاً عن هذه العمليات حتى تقسّم العلوم ، وعرفنا عملية تقصير الماء .

أما عملية إحراج النبات والثمرات المختلفة الألوان فهي واضحة مُشاهدة في أسسائين والحقول ، فكلنا يرى بدائع الألوان واختلاف الأشكال بحيث لا تتناهى حصرها لأن ألوان الطيف إن كانت هي الألوان الأصلية فيمكن أن يتوحد منها ما لا حصر له ، فاللون الاسود مثلاً لو أضيفَ إليه قطرة واحدة من اللون البنى مثلاً يعطيك لوناً آخر ، فإن أضيفت قطرتين يعطيك لوناً ثالثاً وهكذا لا تتناهى الألوان ، وهذه المسألة نشاهدها لأن في صناعة الأقمشة فقد تعددت ألوانها بدرجات مختلفة وزركشات لا حصر لها إذن نقول ، إن لألوان كائن لا يتناهى .

ولك أن تتأمل تدخل الألوان وتناسقها في رهرة أو وردة في الحديقة ، وسوف ترى في ألوانها الإعجاز المبهّر ، فالجبة واحدة ، والأرض واحدة ، والماء واحد ، لكن تؤد من هذا كله هذا الشكل البديع وهذه الألوان المتداخلة المناسقة لأن الحدث آثار المحدث ، فإذا كان المحدث محدود القدرة ظهرت آثاره كذلك محدودة القدرة ، وإذا كان المحدث فائق القدرة تأتى آثاره متقنة القدرة ، وما الحق سبحانه عليه طلاقة القدرة ؛ لذلك تأتى آثاره كذلك

وتلخص في سياق الآية أن الحق سبحانه لم يتكلم عن برال المطر من السماء قار ﴿أمره﴾ (٢٧) ﴿[مطر] بصيغة ضمير العائب ، لكن لما تكلم عن إخراج الثمرات قل ﴿فأخرجنا﴾ (٢٧) ﴿[مطر] فنقلنا إلى ضمير الجماعة المستكلمه الدان على التعظيم سماه ، لأن إبرال الماء من السماء ليس هدفاً في ذاته ، فليس هو المهم ، بديل أن الماء قد يبرل على الأرض السبغة فلا تستفيد به ، أما عملية إخراج الثمار فهي العملية المهمة التي أنزل الله الماء من أجلها ، لذلك ذكره ضمير الجمع الدان على التعظيم ، فالحق سبحانه يُعظم نفسه في الفعل كما في قوله سبحانه ﴿إنا نحن ربنا الذكر وإننا له نحافظون﴾ (٦) [الحجر]

وحن نعرف في عرفنا أن الحدث يختلف باختلاف المحدث ، فمن أحدثه فرد واحد أتى الحدث على مستوى قدره هذا الفرد ، فمن تكتفت فيه جماعة جاء على مستوى هذا التكتف ، بذلك نسمع عند سن القوانين لتي تحكم الشعوب يقوى الفائد أو لعل نحن رئيس الجمهورية ، أو نحن ملك مصر ، أو نحن سلطان كذا وكذا ، لأن مسألة سن القوانين ليست مسألة فردية يقررها الحاكم أو الملك ، ولا ينطق بها باسمه ، إنما يشاركه فيها رعيه ، وينطق باسمهم جميعاً

لذلك حدد الحق سبحانه وتعالى حين يُحدثنا عن فعل من أفعاله نُحدثنا بصير الجمع أم إن تكلم عن ذات سبحانه تكلم بصير المفرد مثل ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) [مكة]

وبرال الماء في صورته أمر واحد ، أم الإخراج ففيه ثلوث للمخرج ، فالماء المنزل من السماء واحد ، لكن آثار الماء متعددة ، فهذا أصفر وهذا أبيض ، وهذا أحمر الخ ، فهذه العملية تحتاج إلى تعظيم يناسبها .

لكن ، هل الإخراج لثمرات هكذا مباشرة ؟ أم الإخراج للنبات الذي

يعطى الثمرات ، الإخراج للبسات اندى يعطى الثمر ، فالحق سبحانه
يذكر فى الشيء نهاية المطلوب منه وهو الثمر ، وهذا الثمر يأتى
مختلفاً فى ألوانه ، مع أن السيئة واحدة ويُسقى بماء واحد ، وحين
تتأمل الألوان فى الثمار تجد فيها طلاقة انقدرة الله تعالى ، وهذه الألوان
لم تُعمل هكذا لمجرد اشكال والريفة إنما جعلت هكذا لحكمة أرادها
الخالق سبحانه ، منها أن هذه الألوان تجذب الحشرات المحببة

ولو تأملت هذه الألوان لوحدتها متعددة حتى فى اللون الواحد ،
ألا ترى أن بيض الثلج مثلاً غير بيض الثوب ، غير بياض الجير ،
لذلك يصفون الألوان فيقولون أبيض يقن ، وأصفر فاقع وأحمر
قان ، وأخضر مدّام

وبعد أن حدثنا الحق سبحانه عن آية مرآة فى آيات يحدثنا
عن الحمام ﴿ ومن الجبال جمدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وعرابٍ سودٌ ﴾
(٢٧) [ماطر] فعلى الحمامات أيضاً ألوانٌ شاهدها مثلاً حير شق
الصخر لاستخراج ما فى بطن الأرض ترى مثلاً الجرايب والرحام
والعقيق بألوان مختلفة كذلك

وكلمة ﴿ جمدٌ ﴾ (٢٧) [ماطر] جمع حدة وهى الخط الفاصل بين
شيئين ، رأيتم طبعاً الحمام الوحشى المحصط ومدى تناسب هذه
الخطوط ، ترى مثل هذا فى صفات الحصل ، وهى مختلفة أساس
ومختلفة الأحمر

ومعنى ﴿ وعرابٍ سودٌ ﴾ (٢٧) [ماطر] نقول أسود عرسب يعنى شدة
السود فالغريب أشدُّ درجات لسواد نسبة إلى الغراب لشدة سواده

بعد أن ذكر الحق سبحانه حسن البسات وحسن الحمام يذكر أن
هذا الاختلاف موجود أيضاً فى الإنسان وفى الحيوان وهذه هى
أجناس الوجود ، فيقول سبحانه

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَفٍ
الْوَنُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾
بِسْمِ اللَّهِ عَزِيزٍ غَفُورٍ ﴿٢٨﴾

من فالاختلاف في كل الأحاسيس ، لأن اسطق قائم على طلاقة
القدرة ، فالباس مع كثرتهم محتغون وهذا إعجاز بأن على طلاقة
القدرة فالخلق ليس على قالب واحد يُخرج نسخاً متطابقة ، إنك
تنصر إلى الرجل فتقول هو شبه فلان لكن إذا دفقت النظر لا تد أن
تري اختلافاً ، إنز طلاقة القدرة تقتضي اختلاف كل أحاس
الوجود : الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان

ومعنى لدون كل ما يدب على لأرض عدا لإنسان والانعام
التي هي البقر والغنم والإبل والماعز

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . ﴿٢٨﴾ [عاطر]

والخشية هي الخوف الممزوج بالرجاء ، وهذا من العلماء عمل من
أعمس اقلوب ، وأنت تحاف مثلاً من عدوك ، لكن لا رجاء لك فيه ،
إنما حين تحاف من الله تحافه سبحانه وأنت ترجوه وأنت تحبه
لذلك قالوا لا ملحاً من الله إلا إليه

والعلم إما علم شرعي وهو علم الأحكام الحلال والحرام
ولواجب والسنة الخ أو علم الكونيات ، وهذه الآية وردت في
سياق لحديث عن إياك كوثبة ولم يذكر قبلها شيء من أحكام
الشروع لذلك يقول إن المراد بالعلماء هه العلماء بالكونيات
والظواهر الطبيعية وينبغي أن يكون هؤلاء هم أحشى الناس لله
تعالى ، لأنهم أعلم بالآيات الكونية هي الجمادات ، والنبات ، وفي

الحيوان ، والإنسان ، وهم أقدر الناس على استنباط ما في هذه
الآيات من أسرار الله تعالى

وكويزات الوجود هي الدليل على واجب الوجود ، وهي المدخل
في الوصول إلى الخالق سبحانه وإلى الإيمان به ، لذلك كثيراً ما نجد
في القرآن

﴿رَمَّأَ آيَاتِهِ مَادُّكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ رَابِغَاؤُكُمْ مِنْ لَحْمِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ (٢٢)﴾ [الروم]

وإذا كان العلم قضية بقضية محروماً بها وعندها دليل ، فإن الحق
سبحانه وتعالى نرى بنا علم الشرع وحدد لنا حدوده ، فلا دخل لنا
فيه ، لذلك عصمه الله وأحكمه ، لأن الأهواء تختلف فيه ، والحق
سبحانه يقول ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ هَوَاءَهُمْ بَدَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ (٧)﴾
[المؤمنين] ما علم الكونيات فقد تركه الخالق سبحانه بلعقول تحت
فيه وتستنبط منه وتتنافس فيه ، بل وتسرقه بعض الدول من بعض

وآفة العصر الحديث أن يدخل علماء لشرع أئوفهم في الكويزات
أو أن يدخل علماء الكويزات أئوفهم في أحكام الشرع ، وقد ربما مثلاً
لما قلوا بأن الأرض كروية ، وأنها تدور حول الشمس ، أسرع بعض
علماء الشرع فاتهموا هؤلاء بالكفر ، وهذا خطأ فادح ، وكان عليهم أن
يأخذوا من الحق سبحانه ما عصم به الأهواء من أن تختلف ، لأن
شكل الأرض وحركتها مسألة كونية لا صلة فيها بالحلال والحرام

والحق سبحانه يقول ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
(١٣)﴾ [سورة فاطر] الذكور في العلوم لشرعية غير أهل الذكر في العلوم
الكونية ، ويجب أن يحترم كل منهما تخصص الآخر في محله ، ولا
يُنسَى علماء الشرع من علماء الكونيات هم الذين يكتشفون لنا أسرار
الله في الخلق ، وهم الذين يُرَوِّبُ في نفوسنا أدلة الإيمان بواجب

الوجود الذي تصدر عنه أحكام الحلال والحرام
والحق سبحانه وتعالى خلق الكون على هيئة الصلاح ، فلو دخلت
مثلاً عاية من العائات الأنف - يعنى التى لم يدخلها أحد ، وما زالب
على صبيعتها كما خلقها الله لا نجد فيها قدارة ولا رائحة كريهة ولا
قمامة ولا عُصناً مكسوراً الح ، بل ترها نضيفه متناسفه ،
بالفصالات به غذاء لحيوانات أخرى ، فنظافتها ذاتية

وأذكر أننا رأينا فى وادى فاطمة فى اسعدوية عين ماء تروى
الوادى من حولها ، وفى أحد الحدو رأينا أسماكاً صغيرة فى حجم
واحد مثل عُقْلة الأصيص فسألت صاحب البستان هل يكثر هذا
السماك ؟ قال لا بل بظل على هذه الصورة ، وهو ما جاء إلا بعد
أن ألقينا بعض فصلات الطعام فى الماء فظهر ليتغذى عليها ثم
يخفى ، وكان له مهمة محددة فى نظافة الماء ، ولما جئت إلى مصر
وجدت بها هذا السمك فى « متحف الأحياء لمائية » يقوم بنفس
هذه المهمة ، وهى تنظيف أحواض الأسماك من الفضلات

لذلك نقول لا يأتى الفساد فى الصبغة إلا حين يتدخل فيها
للإنسان ، بدليل أن المخلوقات التى لا تدخل للإنسان فيها تسير بنظام
محكم دقيق لا اختلاف فيه ، لذلك حين ترى فى الكون مثلاً أزمة فى
القوت ، فاعلم أنها نتيجة حركة خاطئة للإنسان أو نتيجة تكاسل
عن استنباط خيرات الأرض

إذن على عماء الشرع ألا يدخلوا أنفسهم فى الكوريات ، وقد
علمنا ذلك رسول الله ﷺ حين نههم عن بأير البجل معى تلقحه ،
فلم يثمر البحر فلما رأى رسول الله ذلك قبلها فى نفسه ومن
« أنتم أعلم بشئون دينكم » يعنى المسائل الكونية والعلمية

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٢٦٦) من حديث أنس بن مالك « أن النبي ﷺ مرّ بقرم
يلقحون فقال لو لم تغلوا لصبح قال فخرج شيخاً (النصر الرديء) فمر بهم
فقال ما لخنكم ؟ قالوا قلت كذا وكذا قال انتم أعلم بأمر دينكم »

والمعمية التحريية ، هذه أمور لا تدخل لأحكام الشرع فيها ، لكن آفة العلماء اليوم ألا يلتزم كل بما يخصه

لأنك حص الله هنا علماء الكونيات ، لأنهم الأقدر على التعمق في أسرار الله ، فالحق سبحانه ملا كونه بأسرار تتناسب مع تطور العصر ومُصن الرمز ، فالأسرار التي عرفها الإنسان في العصر الحثري مثلاً عبر التي عرفها في العصر لحديث ، وشاءت حكمة الله أن يجعل لكل سر من أسرارهِ ميلاداً يظهر فيه ، بحيث لا تظهر الأسرار في زمن واحد ويستقبل الإنسان ما في الزمن بدور جديد

وحين تتأمن هذه المسألة تجد أن الحق سبحانه أظهر للإنسان ما فيه مقومات حياته ، ثم ترك الأمور إبداعية التي يعرفها الناس ليترقوا فيها ، فالإنسان مثلاً استخدم بدهية أن الماء يساب من أعلى إلى أسفل ، ورقى هذه البدهية ، أصبح يستقبل الماء في بيته من الصنبور (الحفنة) بعد أن كان يقل الماء من الأنار والأنهار ، ويتحمل في سير ذلك المشاق ، فلما أعر عقله في بدهيات الكون ترقى وجنى ثمرة هذا الترقى

لذلك تجد أن أعقد النظريات العلمية والالكترونية ما حوذه في بدايتها من بدهيات وقنا في علم الهندسة إنك تبرهن على صدق النظرية امئة باستخدام النظرية التسعة والتسعين ، وهكذا حتى تصل إلى النظرية الأولى ، وهي قائمة على بدهية من بدهيات الكون لا تختلف فيها العقول

لذلك دائماً ندعونا الحق سبحانه إلى التفكير والتأمل والتدبر الع وما فوصل إليه البشر الآن من آلات ووسائل حديثة مثل العسال ، والثلاجة ، والتلفاز الح ما هي إلا ثمرة هذا الفكر الذي رقى البدهيات ، حتى وصل بها إلى ما وصل إليه الآن ومن أراد أن يقف على هذا الترقى ويرى قدرة الله في قوارب الصناعات وارتقاءها من

حلقة إلى حقة فليذهب إلى (ديترويت) ليرى هناك معرض (فورد) الذي يصم ارتقاءات الصاعات من إبرة الخياطة للصاروخ
إن الكون فيه أسرار يكتشفها الإنسان ولكل سرٍّ ميلاد يظهر فيه ، إما نتيجة بحث للإنسان أو حتى صدقه ، ومن لطف الله تعالى أن الملاحظة لما اكتشفوا بعض أسرار الكون قالوا اكتشفنا ، وبم يقل أحد منهم احترعنا وكان الله تعالى صريحهم والهمهم عن النطق بكلمة الاختراع ولوى أسنتهم حتى لا يجترثوا على الله ، فالحادثة مثلاً موجودة عند خلقت السموات والأرض ، ودور الإنسان أنه اكتشف هذا السر ، لذلك الذي يقول احترع بقول له هنا كذب والصواب أنك اكتشفت

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٧٨)﴾ [طاهر] عزيز لا يُغلب ، وغفور لكم إن بدر منكم سهر أو تقصير في استنباط أسرار الله في كونه ، مغفر لهم إن أخطأوا في تجربة من تحاربهم ، فسوف يأتي من بعدهم ويصححها .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنَّ الدِّينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ فَحَصَةً لَّنْ سُورَ (٧٩) لِيُوقِيَهُمْ
أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ
عَفُورٌ شَكُورٌ (٨٠)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه العلم الكوني وأنه وسيلة لحشية به
ومعرفة أسرار في كونه أراد سبحانه أن يلفت أنظارنا وأن يحذرننا إياكم
أن تُعْتَبُوا بالعلم الكوني فيسيكم مهمتكم في أن تَنْفُتُوا عن الله ما تُسعدكم
فَبَصَّتْ سبحانه عن المنهج ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ (٢٩) ﴿عَصْر﴾ وهذا هو

العلم الشرعي ولَذَكَّرَ الذي يعصم الناس من اختلاف الأهواء
ومعنى ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ (٣٥) ﴿مَاصِر﴾ أى فلهج به أسنتهم

وتعبه قلوبهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (٣٥) ﴿مَاصِر﴾ وهذه عبادة مشتركة عليها كل
الجوارح ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (٢٠) ﴿مَاصِر﴾ والإفاق يحص
الباحثة المالية فهو دليل على سماحه لنفسه بما تنفق وحبها للنفس
والعطاء في السر والعلانية ، وبالإفاق تكتمل لهذه النفس الصفات
الطيبة ويحتمل لها عمل القلب وعمل الجوارح في طاعة الله

وقوله ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ (٢٠) ﴿مَاصِر﴾ يعنى أن الإفاق ليس من مالك
الخاص ، إنما من مال الله الذي رزقك ، وجعلك مستحقاً فيه وما
تفقت إلا سبب ، والأسباب هي السبب ستر ليد الله في العطاء

وهؤلاء الذين ينفقون مما رزقهم الله سرًّا وعلانية ﴿يَرْجُونَ جَارَهُ
لِي تَبْرَأَ﴾ (٢١) ﴿مَاصِر﴾

والإفاق في سبيل الله تحارة مع الله ﴿لِي تَبْرَأَ﴾ (٢١) ﴿مَاصِر﴾ أى
من تكسر ، وست حين تنفق على المحابين ، وحين تطعم الجائع إنما
تُحِبُّ الله إلى خلقه أرأيت لو أ ملكاً من ملوك الدنيا له عبيد ، أليس
مكلفاً بإطعامهم وسد حاجتهم ، وهذه من سمات العظمة فيه . كذلك

الحق سبحانه هو حائق هؤلاء الفقراء وهو الذى استدعاهم للوجوب
وهو سبحانه المكلف باقتياتهم

إسن حين تطعمهم أنت فكانك تؤدي مهمة الله عز وجل ، وتُحِبُّ
خلق الله إلى الله . فالحق سبحانه حين يعطى مخلوقاً على مخلوق
يقول كإن عدى يعيننى على خلقى لأن الله تعالى استدعى لخلق

للأحواد ، ونكفل بأن نعبدهم ، فحين يأتى عبده الغنى ويكون فى عون الفقير يقول سبحانه كان عبدى فى عون أخيه بقرته فلا يد أن كور فى عونه بقدرتى ، فالعبد لا يكون أسأ أكرم من حالقه ، وكيف يعطف العبد وهو بم بحق شيئاً ، ولم يسدع أحداً للوحود ، ولا يعطف الحائق سبحانه ؟

فإن قلت ما دام الحق سبحانه قد استدعى الخلق للوحود ، فلماذا لم يصمم لهم الحياة الكريمة التى لا يحتاجون فيها لعطف أحد غيره ؟

نقول أراد الحق سبحانه أن يردع بدور المحبة والتعاطف بين خلقه ، أراد مجتمعاً مسلماً قائماً على المعصية وعلى التعاون وعلى التكافل ، ثم وعد سبحانه السخى المعطى بأن يعمل به بقدر سخائه وعطائه هو سبحانه

هذه هى التجارة مع الله الذى لا تنور والنور والوار أى الفساد وهو يصيب بتجارة من تحييتين إما فساد فى لرج كان تتفك التجارة ولا يربح ، أو فساد فى الربح وفى الأصل يعنى تخسر أصل التجارة ، ومعلوم أن الإنسان لا يتاجر إلا بقصد الربح لذلك قال أهل لمعرفة وأهل التجارة مع الله إن أردت الربح المحقق فتاجر مع كريم وهبك ما تحود به وبعد ذلك يجاريك عليه

لذلك كأن أحد الصالحين بهش فى وجه السائل ويبش : بقدر له مرحباً بمن جاء ليحمل عني رى إلى الأخرة بغير أجر

وسئل الإمام على رضى الله عنه - يا أما الحسن ، أريد أن أعرف نفسى ، أنا من أهل الدنيا ؟ أم من أهل الآخرة ؟ فقال إن كنت تهش لمن يعطيك أكثر مسأ يأخذ منك فانس من أهل الدنيا لأن الإنسان يحب من يعمره يحب

ورسول الله ﷺ قال له صحابي أنا أكره الموب فقال له الرسول « أنك مال ؟ » قال نعم ، قال « تتصدق به » قال لا ، قال « إن المال يحب صاحبه فإن كنت تحبه في الآخرة أحبب أن تموب للآخرة ، وإن كنت تحبه في الدنيا حسنت أن تظل معه في الدنيا »^(١)

واستخدام أداة النفي (لئ) هنا له ملحق ، فمن سقى الحار والاستقبال ، لأن الإنسان قد يموت قبل أن يدرك ثمرة الخير في هذا العناء ، وقيل أن يرى نتيجة صدقه ، لذلك يطمئنه ربه بأن هذه تجارة مع الله لن تبور ، وسوف ينتصره جراؤها في الآخرة وقوله تعالى ﴿ سِرَافِيَّةَ (٢٩) ﴾ [قصص] أي على أي حال أما نفقه السر ، فالحكمة منها أنها تبعد صاحبها عن الرياء أو المباهاة ، وهي أيضاً ستر لحياء الآخذ لذلك كان بعض لعارفين إذا أراد أن يعطى على فقير أو محتاج يحتال على ذلك بحيلة تحفظ للمحتاج ماء وجهه ، فيكلفه مثلاً بعمل بسيط ، ثم يعطيه المال على أنه أجره على العمل ، لا على أنه صدقة

والبعض يتنكب في هذه لمسألة فيعطى المحتاج على أنها قرص وفي سبته أنها صدقة ، وربما أكد هذا المعنى ، فقال بصاحبه ربنا يعينك على السداد ، لكن إياك (تاكله)

وبعضهم يعطى الصدقة على أنها أمانة ، لكن يقول للأخذ إذا تسر لك هذا الصنيع وأصبح غائباً عن حاجتك فاعطه محتاجاً إليه ،

(١) ذكره أبو حمزة الثعالبي في الإحياء (٢/٢٢٢) أن رجلاً قال يا رسول الله مالي لا أحب الموت ؟ فقال من معك من مال ؟ قال نعم يا رسول الله قال فأنم مالك ، فإن قلب المؤمن مع ماله إن قدمه أحب أن يلحقه ، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه ، قال الثعالبي العراقي لم أفهم عليه

وقل له يعطيه بدوره إلى من يحتاج إليه بعده . وهكذا تنامي
الصدقة . وتدور على ما شاء الله من المحتاجين إليها

هذا عن صدقة السر . أما لعلانية فالحكمة منها أنها تمثل دجراً
للواحد حتى لا يتخل ولا يضر بما عنده . كذلك تحمي صاحبها من ألسنة
الذس . وتحمي عرضه أن يخوض لناس في حقه فيقولون . يدل رغم
عده . كما أن الإنفاق علانية بعد نمو دحاً وأُسوة للغير في العطاء

وقار العلماء . يُراد بإسر الصدقة الزائدة على الفريضة . وهذه
يسعى فيها السني . ويُراد بالعلانية لركاة المفروضة . لأن الحشر في
العبادة مطلوب كما هو الحال في الصلاة مثلاً . ولما من يجد الركاة
وأي بالعلانية من الصلاة فمن اليسير إقامة الصلاة في أوقاتها
فما الركاة فقد تكون واحداً لكن تشج نفسك وتتخل بالعطاء

وبت حين تنفق تنفق على من . على محتاج غير قادر أو مسووب
القدرة . ومن الذي سلبه القدرة ؟ الله . لك كلفك الله أن تنفق على من
سلبه القدرة . وأن نعمته أولاً حتى لا يحقد عليك . وحتى يتمي لك
لمريد من الخير . لأن حيرت سيعود عليه . لذلك كت ترى أهل الريف مثلاً
يحربون ويسكون إن مات بقرة فلا أو حاموسة فلا . لماذا ؟ لأنها
كانت تسقى الفقراء من لبنها . وتحرب أرض المحتاج

ثانياً وهذه حكمة أسمى من الأولى . وهي أن النفقة على غير القادر
تجعله لا يعبر جواطره على ربه وخالفه وتحميه من الاعتراض على قدر
الله لدى مدعه وأعطى غيره . وصية عليه ووسع على الآخرين

النفقة على غير القادر تجعله يشعر أنه أخطأ حالاً من الغنى . ولم
لا وهو نساق به درسه دور لعب منه ودور عداء . ويأتيه الغنى إلى
ربه يعطيه حقه في مال الله . لذلك قال العلماء الفقير شرط في
إيمان الغنى . وليس الغنى شرطاً في إيمان الفقير

لذلك يعلمنا سيدنا رسول الله ﷺ ، فيقول : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شعاها ما تنفق يمينه »
والحو سبحانه وعالي لما تكلم عن لمحسنين الدين يكفون أنفسهم فوق ما كفهم الله ومن حسن ما كفهم الله ، يقول سبحانه ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٥) يخدعون ما آتاهم ربهم إيماناً كانوا قبل ذلك محسبين ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧) وبالأسحر هم يستعجلون ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٩) [الدرجات]

فالحق غير المعلوم هو الصدقة ، أما الزكاة المفروضة التي هي حق الفقير في مال العبي فقد وردت في صفات المؤمنين في سورة سأل فقال سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ (٢٥) للساائل وللمحرور ﴿ (٢٥) [المعارج]

لذلك ، فإبركاه لا تحصى ، بل تُؤدى علانية ، لأنك تؤدى حقاً عليك للفقير حتى أن بعض فقهاء الأندلس رضى الله عنهم قال : لو مكب بولاية أمر على المؤمنين ، فرأيت من يمدح الفقير حقاً بمقدار نصاب لأنته لأفصح بده ، عتأمل هذا الاجتهاد من العلماء ، وكيف ساووا بين منح الفقير حقاً والسرقة

وسواء أكان الإنفاق سرّاً أم جهراً وعلانية فلا نُدُّ أن يوهن له البتة لخاصة كما علمنا ربنا في الحديث القدسي (الإحلاص سر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٢١) من حديث أمي هرويرة رضى الله عنه ، صعد حديث « سبعة يظهم الله في خلقه يوم لا ظل إلا ظله الإمام الثعالبي ، وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تحم بسمه ما تنفق شماله ، ورجل بكر الله خالياً ففاضت عيناه ،

(٢) في سورة المعارج ، سميت بسورة سأل لأن أولها قوله تعالى ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِهَذِهِ وَاعِ ﴾ (٢١) للكافرين ليس له دافع ﴿ [المعارج]

من أسراري ، أودعته قلب من أحببت من عادي ، لا يطلع عليه ملك
فبكتبه ، ولا شيطان فيفسده ^(١)

وأنت في عطائك تتعامل مع الله ، والله واجد ماجد كريم ،
لا يبجسل حقل ، وتجارتك معه سبحانه لا تدُّ أن تكون راحة ، لذلك
قال بعدها - ﴿يَرْجُونَ فِتْرَةَ لِي يَوْمَ﴾ (٢٩) ﴿[عاطر]

كذلك يحذرنا سيدنا رسول الله ﷺ من الرياء الذي يحبط الأعمال،
ويفسدها ويحرم صاحبها من ثمرتها يوم القيامة ، حيث يقال له
فعلت ليقال وقد قيل

ويحذرنا سيدنا رسول الله ﷺ أن تكون أعمالنا كأعمال الكافرين الذين
قال الله فيهم - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْعُهُ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَوَّى اللَّهُ عَنْهُ فَوَفَاءٌ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) ﴿[المر]

ثم يقول سبحانه ﴿يُوفِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِمَا نَبِذَهُمْ مِنْ فَسْخِ﴾ (٤٠) ﴿[عاطر]

أي أنهم سيأخذون جراء أعمالهم وعطائهم بوفاء من الله ثم يربدهم
بعد ذلك من فضله تكملاً ، قالوا هذه الزيادة أن تقبل شفاعتهم فيمن
يحسون ، فإن شفّعوا لأحد من حبسهم قبل الله شفّع عنهم لصدا ، لأن
لهم أبادى سابقة على الفقراء والمحتاجين من عباد الله بكرمهم الله من
أجلها ، ويتفصل عليهم كما تفضلوا على عباده

﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٤٠) ﴿[عاطر]

ولت أن تسأل لماذا دُلت الآية باسم الله (العفور) ، مع أنها
تحدثت عن أعمال أخير من تلاوة كتاب الله وإقامة الصلاة ،
والإنفاق في سبيل الله ، فأى شيء من هذه يحتاج إلى المغفرة ؟

قالوا تكرر هنا المغفرة ، لأن العبد حين يضع شيئاً من هذا

(ذكره العراقي في احياء علوم الدين (٤ / ٣٧٦) من حديث الحسن بن علي بن فضال ص ١٦٥٠ الحافظ
العراقي والحافظ ابن حجر العسقلاني والشيخ الامام في السلسلة الضعيفة (٢ / ٦٣)

الخير قد يُداحله شيء من الغرور أو الإعجاب أو غيره مما يشوب العمل الصالح ، فيعفرف الله له ، ليلقى حراءه حالصاً ، لذلك ورد في حديث سيدنا رسول الله ﷺ : اللهم إني أعوذ بك من عمل أردتُ به وجهك فخالصني فيه ما ليس لك ،^(١)

وقوله ﴿شُكُورٌ﴾^(٢) [ماطر] صيغة مبالغة من شكر فكان الله تعالى يعظمته يشكر عبده ، بل ويبالغ في شكره ، لأن العبد في ظاهر الأمر عاجز عنه أي أن يبرق من كان مطلوباً من الله أن يرزقه ، لذلك يشكره الله ولا يحسه حقه مع أنه في واقع الأمر مَسْأُولٌ عن الله وأنت حين تقرؤها ﴿إِنَّهُ عَمُورٌ شُكُورٌ﴾^(٣) [ماطر] وتعلم أنه تعالى يشكر لا تملك إلا أن تشكره سبحانه ، وعندها يزيدك من النعمة ، إذن نحن أمام شكر دائم لا يقطع ، وعطاء لا يفد

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بَعِيدٌ عَنِ الْخَيْرِ بَصِيرٌ﴾^(٤)

الوحي في معناه العام كم قلنا إعلام بحفاء ، فإن كان جهرًا وعلاية فلا يُعدُّ وحيًا فانت مثلاً يدحر عليك جماعة من الصيوف فتتطر محرد نظرة إلى خادمك يفهم منها ما يريد دون أن يشعر أحد بك ، هذا يُعدُّ وحيًا كذلك الوحي الشرعي لا يأتي علانية ، إنما خفية بين الله تعالى ورسوله ﷺ ،

الوحي يختلف باختلاف الموحى ، والموحى إليه ، والموحى به

(١) أورد ابن رجب الحنبلي في كتابه ، جامع العلوم والحكم ، (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يدعو قائلاً اللهم إني أستغفرك بما نسب إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما رجعتُ لني أردت به وجهك ، فحاطب قلبي منه ما قد علمت ،

سُورَةُ طه

﴿١٢٥﴾

فَإِنَّ تَعَالَى يُوحَىٰ لِلْحَمَادِ ، كَمَا أَرْحَىٰ لِلْأَرْضِ ﴿١﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ
لَهَا ﴿٢﴾ [الزبور]

وَيُوحَىٰ لِلنَّحْلِ ﴿٣﴾ رَأْرَحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ تُحْدِيَ مِنَ الْعَبَانِ
بَيُوتًا .. ﴿٤﴾ [النحل]

وَأَوْحَىٰ لِلشَّعْرِ مِنْ غَيْرِ لِرَسُولٍ ﴿٥﴾ وَأَوْحَيْتَ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ
أَرْضِعِيهِ ﴿٦﴾ [القصص] وَأَوْحَىٰ لِلْحَوَارِيِّينَ ،

أَمَّا الْوَحْيُ إِشْرَعَى الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْوِينِ مُوْحَىٰ مِنْ اللَّهِ وَحُطَّابٌ
إِلَى الرُّسُلِ بِمَنْهَجٍ لِيُطْلِقَهُ عَنْ اللَّهِ ، وَلَيْسَ مُحَرَّرٌ خَاطِرٌ أَوْ إِلَهَامٌ
كَالْوَحْيِ أَسَاقٍ ، وَمِنْ لَوْحَى أَنْ يُوحَى الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ،
يَقُولُ أَحَقُّ سَيِّدِنَا ﴿٧﴾ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجَادِلُواكُمْ وَإِنْ
أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿٨﴾ [الأنعام]

قوله تعالى ﴿١﴾ وَالَّذِي وَحَّيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴿٢١﴾ ﴿٢﴾ [فاطر] أى من
القرآن أو من النوح المحفوظ ﴿٣﴾ هُوَ الْحَقُّ ﴿٤﴾ [طه] أى القرآن هو
عَيْنُ الْحَقِّ ، وَقَدْ عَرَفْنَا مِنْ دَرَسَاتِنَا الْحَقِيقَةِ أَنَّ الْمُبْتَدَأَ يَأْتِي دَائِمًا
مَعْرِفَةً ، لِأَنَّكَ سَتَحْكُمُ عَلَيْهِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَحْكُمَ عَلَىٰ مَجْهُولٍ فَتَقُولُ
مَثَلًا زَيْدٌ مُحْتَدٍ فَرِيدٌ مَعْرُوفٌ لَكَ حَكَمْتَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ دُونَ
الْمَجْهُولِ هُوَ الْحَبِيرُ ، لِذَلِكَ يَأْتِي نَكْرَةً دَائِمًا ، فَإِذَا قُلْتَ زَيْدٌ هُوَ
الْمُجْتَهِدُ ، فَإِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ بَلَغَ مِنَ الْإِحْسَادِ مَسْغًا بَحِثْ إِذَا أُطْلِقَ
الْإِحْسَادُ لَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا إِلَيْهِ

كَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿٥﴾ هُوَ الْحَقُّ ﴿٢١﴾ ﴿٦﴾ [فاطر] أى لَا يَتَصَرَّفُ الْحَقُّ
إِلَّا إِلَيْهِ ، وَهُوَ عَيْنُ الْحَقِّ ، وَمَعْنَى الْحَقِّ الشَّيْءُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ
وَلَا يَتَصَارَبُ ، وَحَتَّى لَا يَفْهَمُ أَحَدٌ أَنَّهُ مَا دَامَ الْقُرْآنُ هُوَ الْحَقُّ فَغَيْرُهُ
مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ بَاطِلٌ ، قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿٧﴾ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٢١﴾ [طه]

فَالْقُرْآنَ حَقًّا وَمُصَدِّقًا لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ ، فَهِيَ أَيْضًا حَقٌّ ، لَا يَلِي الْقُرْآنَ صَدِّقٌ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَأْتِ مُخَالَفًا لَهَا .

وهي موضع آخر ، قال تعالى ﴿ وَمَهَيَّا عَلَيْهِ ﴾ (٢٨) [المائدة]

فَكَأَنَّ الْحَقَّ سَبَّحَانَهُ يَعْنِي لِلْقُرْآنِ صِوْلَةُ الْخَاتَمِ النَّهَائِيِّ فِي الْإِكْمَالِ لِبَشَرِيٍّ ، فَإِنْ جَاءَ حَكْمٌ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ثُمَّ دُرِلَ حَكْمٌ آخَرٌ فِي الْقُرْآنِ فَسَأَخَذَ بِالْحَكْمِ الْآخِرِ لِأَنَّهُ سَجَّ الْأَوَّلَ بِمَصْلَحَةِ تَفْصِيلِهَا أَعَصَرَ وَطَبِيعَةَ التَّكَالُيفِ الَّتِي تَتَدَرَّجُ حَسَبَ حَالَاتِ الْأُمَمِ

مَكَانَ الْحَقِّ سَبَّحَانَهُ مَيَّزَ رَسُولَهُ ﷺ بِمِيزَةٍ لَمْ تَنُوقِرْ لغيره مِنَ الرِّسَالِ ، وَهِيَ أَنَّ الرِّسَالَ السَّابِقِينَ كَانُوا يُبْعَثُونَ مَبْنُوحِي الْإِلَهَمِ لِأَمَمِهِمْ ، لَكِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ لِرَسُولِهِ أَنْ يُبَلِّغَ عَنِ اللَّهِ وَهُوَ صَدِّقٌ أَنْ يُشْرَعَ لِقَوْمِهِ ؛ لَدَيْكَ قَالَ سَبَّحَانَهُ

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٧) [الحشر]

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَرَدَّدَتْ عَلَى لَدِينٍ يَقُولُونَ بِأَخْذِ الْقُرْآنِ دُونَ السُّنَّةِ ، هَذِهِ الْقَرْيَةُ الْقَدِيمَةُ الْحَدِيثَةُ الَّتِي نَسْمَعُ مَنْ يَتَنَادَى بِهَا مِنْ حَيْثُ لآخر ، وَهُمْ لَا يَعْبَهُونَ أَنْ تَنْصُرَ الْقُرْآنَ يُلْزِمُهُمُ بِالسُّنَّةِ وَاحْتِرَامِهَا وَالْأَحَدُ بِهَا ، لِأَنَّهَا مُوضَّحَةُ الْقُرْآنِ ، مُبَيِّنَةٌ لَهُ ، شَارِحَةٌ لِمَا أُحْمِلَ فِيهِ ، وَإِلَّا فَمَاذَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٧) [الحشر] ؟

وَلَوْ قُلْتُ لَكَ ، هَلْ فِي دَسْتُورِيَا مَادَّةٍ تَنْصُرُ عَلَى فَصْلِ الْمَوْطَفِ الَّذِي يَتَغَيَّبُ عَنْ عَمَلِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ؟ لَا تَوْحِدُ هَذِهِ الْمَادَّةُ فِي الدَسْتُورِ إِنَّمَا هِيَ قَانُونٌ وَصَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحْتَصِنِينَ الْمُقَوِّصِينَ فِي ذَلِكَ حَيْثُ يُؤَلَّفُ لِلْخَدَمِينَ فِي الْحُكُومَةِ وَالْعَامِلِينَ مَعَهَا لَجَنَةٌ تَصْعُ لَهُمُ اقْتَوَانِينَ بِالتَّقْوِيمِ كَذَلِكَ فَوَّضَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَنْ يُشْرَعَ لِأُمَّتِهِ ، وَأَنْ يُوضَّحَ لَهُمْ

سورة طه

١٢٥٠

ثم يقول سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [مائدة: ٢٧] الخبير هو الذي يعلم خبايا كل الأشياء على حقيقتها ، والبصير هو الذي لا يعيب عنه شيء . ولا يعزب عنه مثقال ذرة . فقد تعلم الشيء لكن لا تراه . ولحق سبحانه يجمع في القرآن كثيراً بين الخبير البصير كما هي هذه الآية ' ، أو بين اللطيف الخبير لأن الخبرة تحتاج إلى بصيرة وتحتاج إلى لطف واللطيف كما قلنا هو الذي يتدخل في الأشياء ولا يصبه مانع .

لذلك قلنا إن أعنف الأشياء فتكاً هي الحقيقة اللطيفة التي لا تُرى بالعين المجردة . وكنا (رمان) سمبها الميكروب ، والآل يظهر الفيروس ، أظن أنه لطف وأدق من الميكروب ، وأشد منه فتكاً

وقد أوضحنا هذه لمسألة بالذي يبني بيتاً مثلاً ، ويريد أن يحتاط للحيوانات والحشرات الضارة ، فيضع شبكة من الحديد مثلاً على لشبابيك ، لكن لا بد أن تتناسب هذه الشبكة مع دقة الشيء الذي تحاف منه . فالذي يمنع الذئب غير الذي يمنع الفئران غير

() وكذلك في قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبُهْرَوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَذَرُ مَا يُشَاءُ إِنَّهُ

بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى] وعوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قُرُونٍ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّنَا يَسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ مَهيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الإسراء]

(٢) ورد القدر اللطيف بالخبير في القرآن خمس مرات - ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأبصار] - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج] - ﴿يَسْبِي نَهْجَ إِنْ تَكُنْ مَقْدَلٌ مِمَّنْ فِي خُرْدٍ مَكَّنْ فِي صَمْرَةٍ أَوْ فِي السَّرَابِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا نَهْجٌ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [نمل] - ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك]

لدى يمنع الدياب والناموس . الخ

إن كلما دق الشيء عصف واحتاج إلى احتياط أكثر ، لأنه يتغلغل في أضيق شيء وسفد إليك دون أن تشعر به .

وتعهم من قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِبَادَهُ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣) [منظر] أن الله تعالى هو القادر وحده على أن يشرع لعباده ما يناسبهم في كل زمان ومكان ، لذلك تعددت لكتب السماوية لما اختلفت الداءت ، فلما لدقى العالم واتصل جاء القرآن مهيماً على كل هذه الكتب

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
يَاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٢)

الكتاب هو القرآن ، إذن هذا الميراث كان بعد سيدنا رسول الله ﷺ وهو دليل على أن المرحلة التي بعد رسول الله مرحلة ميراث للكتب والمنهج ، يرثه العلماء عن رسول الله لذلك جاء في الحديث « إن العلماء هم ورثة الأنبياء » وإن الأسياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه بحظ وافر «

فالنبي ﷺ كان هو المبلغ والمعلم حال حياته ، أما بعد وفاته فقد وكل الله هذه المهمة إلى العلماء ومعنى ﴿ أَوْرَثْنَا ﴾ (٣٢) [عاطر] يعنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٦/٥) ، وابن ماجه في سننه (٢٢٣) ، وأبو داود في سننه (٣٦٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه

طالبنا منهم أن يفعلوا فمسه فعن الوارث في المال ، لأن الوارث للمال
بوجهه وجهة النفع العام ، وهذه هي وجهة الرسالة أيضاً

سلك قار تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّكُتُبِنَا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١٣) [البقرة] فبحن ورثة محمد ، ومن عم
منا حكما فعليه أن يبلغه فالرسول شهيد على من بلغهم كذلك
أمة سيكونون شهداء على الناس الذين يبلغونهم

ومعنى ﴿ اصْطَفَيْنَا ﴾ (٣٦) [طه] أى احترنا وقضيتك على سائر
الامة ثم يُقسم لحق سبحانه هؤلاء إلى ثلاثة أصناف ﴿ فَهُمْ ظَالِمٌ
نَفْسِهِ ﴾ (٢٧) [طه] ظلمها بالتقصير في حق هذا الكتاب الذي ورثه
علم يعمر به كما ينبغي أن يعمل ، من قد يرتكب كبيره والعبد لله

وهذا الصنف ظلم نفسه ، لأنه حرّمها الثواب فكلّ تكليف يطلب
منك العمر السر ويعطيك عليه الحرء الوفير ، فحين نُقصر في
اليسير من العمل فإنك لا شك ظالم لنفسك

﴿ وَهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ (٣٦) [طه] معنى يعمل به في بعض الأوقات ،
فيخلط عملاً صالحاً بآخر سيء

﴿ وَهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ﴾ (٣٦) [طه]

اللهم اجعلنا منهم إن شاء الله ، وكلمة (سابق) تدل على أن
هذه سابقاً ومنافسة أي المتسابقين يصل أولاً إلى الغاية
اموصوعه للسباق وأمر هذا الصنف يتسابقون في الخيرات

وقوله تعالى ﴿ اصْطَفَيْنَا ﴾ (٣٦) [طه] دلت على أن كلمة التوحيد
لها ثمر ، ولإيمان برسول الله له ثمن والعمل بما جاء به رسول
الله له ثمر وإن كان من بين هؤلاء المصطفين من يظلم نفسه
بالتقصير بل وارتكاب المعاصي ، وهو مع هذا كله من المصطفين ،

لأنه قال لا إله إلا الله ، والحق سبحانه لا يُسَوَّى بغير مَنْ قال هذه الكلمة ومَنْ جحدّها « لا إله إلا الله حصّنى ، مَنْ قساها سحر حصّنى »^(١)

لذلك ذكر الحق سبحانه لهؤلاء المؤمنين الذين ورثوا الكتاب وصعبين ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢٧) ﴿ [وَمِنْ] فَوْصَعِهِمْ بِالْأَصْطِفَاءِ ، وَالْعِبُودِيَّةِ لَهُ سَبْحُهُ

بِذَنْ بَرَزَ الْكِتَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَوَرِثَتْ أُمَّةُ الْكِتَابِ مِنْ بَعْدِهِ ، فَهِيَ امْتِدَادُ لِرِسَالَتِهِ ، لِذَلِكَ أَمِنَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى أَنْ تَحْمَرَّ مِنْهُجَ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً إِلَى أَنْ تَقُومَ لِسَاعَةِ ، فَيُحِينَ لَمْ يَأْمَنْ غَيْرُهَا

رَقْدَ تَكْفُرِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ بِحِفْظِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَمْ يَكُلْ حِفْظُهُ إِلَى أَحَدٍ كَمَا حَدَّثَ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيهَا هُدًى وَبُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّائُونَ وَالْأَخْيَارُ مَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ الْإِنْسَ وَاحْشَوْنَ . ﴾ (٤) ﴿ [الْمَائِدَةُ]

وَمَعْنَى ﴿ اسْتَحْفَظُوا ﴾ (٤) ﴿ [سَائِدَةٌ] طُلُبَ مِنْهُمْ أَنْ يَحْفَظُوهُ ، لَكِنْهُمْ قَصُرُوا فَتَسَوَّاهُ بَعْضُ الْأَبْتِ وَحَرَقُوا بَعْضُهَا ، وَكَتَمُوا بَعْضُهَا مِنْهُمْ مَنْ كَرِهَ يَأْتِي بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِهِ وَيَقُولُ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَئِنْ الْفَرَنْ هُوَ الْكِتَابُ احْتَمَ حِفْظُهُ لَمْ يَفْضَحْ ، وَلَمْ يَأْمَنْ أَحَدٌ عَلَى حِفْظِهِ

فَبِنْ قُلْتُ كَيْفَ يَكُونُ الطَّالِمُ نَفْسَهُ مِنَ الْمُصْطَفِينَ ، وَهُوَ مُرْتَكِبٌ لِلذُّنُوبِ وَرَبِّهَا لِكِبَارِهِ ؟ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ يَقُولَ أَعِدَّ أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَهُوَ مُصْطَفِيٌّ ، اصْطَفَاهُ اللَّهُ عَلَى الْكَفَرِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَإِنْ حَدَّثَتْ مِنْهُ الْمَعْصِيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ

(١) لمرجى ابن عساكر فيما ذكرته موسوعة أعلام الحديث (٢/٨٢) تهذيب تاريخ دمشق

والحق سبحانه وتعالى حين يذكر الذنب ويُجرّمه ويضع له عقوبة فهذا إذنّ بأنه سبق ، فمثلاً جرّم الله السرقة ووضع لها حداً ، وجرّم الربا ووضع له حداً ، فكأنّ مثل هذه الأمور يحدث في مجتمع المسلمين ، أما الكذب مثلاً فلم يضع له حداً ولا عقوبة ، بذلك ورد في حديث سدينا رسول الله لما سُئل أليس المؤمن يا رسول الله ؟ قال نعم ، أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال نعم أيكذب المؤمن يا رسول الله ؟ قال لا^(١)

فكأنّ المؤمن يُتوقّع منه الربا والسرقة ، ولا يُتوقّع منه الكذب فهو أبعد الصفات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا لأن الكذب يحالف الواقع ويقلب الحقائق ، والمؤمن لا يكذب ، لأنه ينطق بلا إله إلا الله ، فإنّ كان كذاباً ما يدرينى أنه صديق في هذه الكلمة فكان للكذب يهدم الإيمان من أساسه لذلك لم يجعل الله له عقوبة لأنه لا يُتصوّر من المؤمن

والمقتصد هو الذي تساوت حسنته وسيئاته ، وخطأ عملاً صاحباً بأحر سىء ، وفي موضع آخر يقول تعالى في حق هذا النصف ﴿وَآخَرُونَ عَرَفُوا بِيَأْثَرِهِمْ حَلَقُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرُ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة]

يقول النحاة إن عسى تدل على الرجاء ، وأعب الرجاء استوقع واحتمال الحدوث على خلاف (ليت) التي وُصفت لئتمنى وانتمنى تكون لشيء بعد أو مسحيل الحدوث ، فهي لمجرد إظهار المحبوبة للشئ المتعمى فقط ، ولا تدل على رجاء

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص ٩٩) من حديث صفوان بن سليم مرسلأ

ومن ذلك قول الشاعر

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأَحْزَرُهُ بِمَا قَعَرَ الْمَشِيبُ^(١)

وسبق أن قلنا إن عسى وإن دلت على رجاء حدوث الفعل ، إلا أنها درجات بعضها أوثق من بعض ومراتب ، فمثلاً إن كان الرجاء في بشر مثلك كأن تقول عسى فلان أن يعطيني فهذا رجاء على درجة معينة من احتمال التحقق ، فإن قلت عسى أن أعطيت بصيغة لم تكلم ، فهي أقوى من الأولى وأوثق فإن قلت عسى أن يعطيني فهي أوثق لأنه رجاء في الله ، فإن قوله سبحانه ﴿عسى الله أن يورث عليهم﴾^(٢٦) [البقرة] فعسى هنا للرجاء المحقق ، إذن هذه من أرجى الآيات التي ينتظرها المقتصد المقتصر في حق ربه

أما السابق بالخيرات فهو انذى يعمل بالأمر ويستمع ويأتي به على أكمل أوجه ومن ذلك قوله تعالى ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾^(٢٦) [المصفيين]

وتأمل مثلاً قوله تعالى في سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾^(١٢٤) [البقرة]

يعني أتم ما أمر به أولاً بالقدرة لعادية ثم بالحيلة والقدرة العقلية ، قلنا أمره الله مثلاً بأن يرفع القواعد من البيت ﴿وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت ويسماعيل﴾^(٢٧) [البقرة] ماذا طلب منه ؟ وماذا فعل هو ؟

طلب منه أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفي في طاعة هذا الأمر

(١) أكثر المصادر على أن هذا البيت لأبي العنيمية ، نسجه به الجاحظ في « البيان والتبيين » .
(كتاب العصب) وكذلك أبو هلال العسكري في كتابه « ديوان النعماني » فقص الشبَابَ والشيب ، وكذلك الراغب الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » ولكن عره الزورني لحاتم طره في « حمامة الطرفة » باب الذكر والشعب

أَنْ يَبْنِي الْقَوَاعِدَ عَلَى فِئْرِ مَا تَطُولُهُ يَدُهُ مِنَ الارتفاعِ ، لَكِنَّهُ رَادٌّ عَلَى ذَلِكَ وَاسْتِخْدَامِ الْحِيلَةِ الْعَقْلِيَّةِ . فَبَعْدَ أَنْ وَقَّى الْأَمْرَ وَأَدَّاهُ أَرَادَ أَنْ يَزِيدَ شَيْئًا مِنْ عَمْدِهِ ، وَأَنْ يَحْسِنَ الْعَمَلَ فَوْقَ مَا طُلِبَ مِنْهُ فَكَانَ يَأْتِي بِالْحَجَرِ الصَّخْمِ وَيَصْصَعُهُ كَمَا (اسسقالة) ، وَيَقِفُ عَلَيْهِ لِيَرْفِعَ الْبِنَاءَ بِقَدْرِ ارتفاعِ الْحَجَرِ ، وَوَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ يَبْأُولُهُ

كَذَلِكَ لَمْ أَنْتَلِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِحْرَاقِ صَبْرًا وَوَثْقًا بِاللهِ ، فَبِمَا جَاءَهُ خَرْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْزِضُ عَلَيْهِ الْمُسَاعَدَةُ وَهُوَ الْوَاسِطَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَنِّي وَقَالَ أَمْ إِلَيْكَ فَلَا ، يَعْنِي أَنْتَ وَصَلْتَنِي بِاللهِ فَلَمْ يَعْذُ بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي وَاسِطَةً

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَجِيبَةٌ ، وَدَرَجَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ عَالِيَةٍ ، وَتَقِيَّةٌ بِاللهِ لَا يَتَصَرَّقُ إِلَيْهَا شَيْءٌ وَلَا ارْتِيَابٌ ، لَدَيْكَ أَنْقَذَهُ اللهُ وَحَرَّقَ لَهُ الْعَادَةَ وَأَبْطَلَ مِنْ أَحْلَى قَانُونِ النَّارِ وَالْإِحْرَاقِ فَقُلْ سُبْحَانَكَ لِلنَّارِ ﴿ ١٩ 〉 [الأنبياء] كَرَّمِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿ ٢٠ 〉

وَنَامِلٌ هَذَا الْاِحْتِيَاظُ مِنْ رَبِّ الْأَمْرِ ﴿ كَرَّمِي بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾ ﴿ ٢٠ 〉 [الأنبياء] لِذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ : بَوَّأَ الْأَمْرَ كَرَّمَ لِلنَّارِ كَرَّمِي بَرْدًا (وَهَقَطُ) لَتَحُولَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا قَاتِلًا رُبَّمَا أَشَدَّ مِنَ النَّارِ .

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْاِبْتِلَاءَ وَقَعَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ وَالْإِنْسَانُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ يَكُونُ كُلُّ حِطَّةٍ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنْ رُقِيَ الْوَلَدُ انْتَقَرَتْ حِطَّتُهُ إِلَى وَلَدِهِ فَحَبَّه كَثُرَ مِنْ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ ، وَيَتِمُّ أَنْ يُعَوِّضَ فِي وَلَدِهِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْهُ فِي نَفْسِهِ لِذَلِكَ يَقُولُونَ : إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْهُ إِلَّا وَلَدَهُ ، إِنَّ عَصِيَّةَ الْإِنْسَانِ فِي حُبِّهِ لَوْلَدِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَصِيَّتِهِ لِنَفْسِهِ

وَسَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ رَجَعَ فِي الْاِبْتِلَاءِ فِي النَّفْسِ اِبْتِلَاءَ اللهِ فِي الْوَلَدِ ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ رَفَعَهُ اللهُ بِالْوَلَدِ عَلَى كِبَرٍ وَبَعْدَ يَأْسٍ مِنَ الْإِنْجَابِ فَجَاءَ إِسْمَاعِيلُ عَلَى شَوْقٍ مِنَ

إبراهيم حتى إذا شبَّ الولد وبلغ مبلغ السعي مع أبيه يأتيه الأمر من السماء أن يذبحه ، وجاء هذا الأمر في صورة رؤيا ، والرؤيا تحتمل التأويل ، لكن إبراهيم عليه السلام لم يؤولها وأخذها على الحقيقة وهذا الابتلاء في الحقيقة يبطئ على ابتلاءات أربع الأول : أن يدع الولد الذي جاءه على كبر وبعد طول انتظار الثاني : ألا يذبحه شخص آخر فيكون عريماً لإبراهيم عليه السلام الثالث : أن يذبحه هو بنده الرابع : أن يشرب ولده معه في الابتلاء ولا يأخذه على غرة

ذلك أن إبراهيم عليه السلام لما همَّ بتنفيذ ما أمر به لم يرد أن يأخذ ولده عره لعدة أمور أولاً حتى لا يتهم بالقسوة والبعضه ثانياً : لكي لا تتغير خواطر الولد نحو والده فيتهمه بما لا يليق ثالثاً : لبشركه ربه معه في الابتلاء وفي الثواب ، وفي الرضا بقضاء الله ، ذلك قال له ﴿ يَنْبِئُ إِيَّاهُ فِي الْمَاءِ أَنِي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ (١٦) [الصافات]

فكانه يأخذ رأيه في الموضوع ﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ افْعَلْ مَا تَأْمُرُ ﴾ (١٧) [الصافات] ولم يقر مثلاً افعل ما تريد ، فالأمر اسصيع وحصول الأمر الله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِذَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٨) [الصافات] وهكذا اشتركت لاثنتان في الرضا ، وفي الصبر ، وفي الجراء وحطف إسماعيل انفور في الابتلاء في آخر الشوط ، لذلك قال تعالى ﴿ لَمَّا أَسْلَمَا ﴾ (١٩) [الصافات] الولد وأبوه ﴿ وَتِلْكَ لِّلْحَبِشِ ﴾ (٢٠) [الصافات] يعني : هم يذبحه ، أو كساد بعض ﴿ وَنَادِيَاهُ أَكْأَبُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٢١) قد صدقت

(١) تله ألقاه على وجهه على الأرض وقوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ لِّلْحَبِشِ ﴾ (٢٠) [الصافات] أي

القاه وجبيه ووجهه إلى الأرض [الفسوس القويم ١٠١/١]

سُورَةُ فَاطِمَةَ

○ ١٢٥١٧ ○

الرُّعَا يَا كَذَلِكَ بِجَرَى الْمُحْسِنِينَ (٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (٦) وَفَدِيَاهُ
بَدِيحٍ عَظِيمٍ (٧) ﴿[السافات]

وحين تتأمل هذه لقصة تجد أن الحق سبحانه قابل هذه
الابتلاءات الأربعة ، بعطاءات أربعة أقذف إسماعيل من الدبح ، وعنده
بدبح عظيم ثم بشر إبراهيم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ،
ثم جعلهم جميعاً من الأنبياء فصلاً من الله

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٧) ﴾ [عاطر] نعم ، الحق سبحانه يعاملنا
بافضل الكبير ، ويعاملنا مثلاً ليحببنا في الدين ، فالحسنة عنده
عشر أمثالها ، أو يريدنا إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ،
والسنة بعثها

ومن غلبت حسناته سيئاته يُرْجَى به الجنة ومن غلبت سيئاته
حسناته فهو مُرَحَّبٌ لِأَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ شَاءَ عَذِّهِ بَعْدَهُ وَمَا لَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ،
وإِنْ شَاءَ عَفَرَ لَهُ بِفَضْلِهِ ، فَإِنْ بَادَرَ بِالنُّبُوَّةِ النَّصُوحِ وَأَحْلَصَ بَدَلُ اللَّهِ
سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ

حتى أن بعض الظرفاء يقول بيتي كنت من أهل الكناثر وجاء
في دعاء العارفين اللهم عاملنا بالفصل لا بالعدل ، وعاملنا
بالإحسان لا بالميزان ، وعاملنا بالجبر لا بالحساب
يعامد ريب بالفصل بدليل أنه أدخل الظالم لنفسه ، وأدخل
المقصد في ساحة المصطفين من عباده ،

ثم يوضح لنا لحق سبحانه هذا الفصل الكبير فيقول

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

تلاحظ أن ﴿جَنَاتٍ﴾ (٣٣) [فاطر] جمع فهي جنات عدّة ، لا حنة واحدة وحسب (عدن) يعني إقامة دائمة لا تنتهي ، ووصف الجنات هنا باندوام لأن آدم عليه السلام سبق أن أُدخِر الحنة لكن حرج منها ، أما حنة الآخرة فدائمة باقية لا يحرج منها مرّ دُخِبا وقوله تعالى ﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُزْلُزًا﴾ (٣٣) [فاطر] تلاحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا استحبة والزينة قبل الضروريات ، وهذا يعني أن الضروريات جاهزة مقدّرة منها ، وهذه التحلية ستكون في الآخرة من الذهب ومن الحرير ، وهي من المحرّمات على الرجال في الدنيا ، أم في الآخرة فشيء آخر ،

وكلمة (أساور) جمع أسورة وأسورة جمع سوار مثل فؤاد وأقعدة ، فهي جمع لجمع ليد على كثرتها وأبك ستحلى ن شاء الله في الحنة بأساور كثيرة تملأ اندراع من المعصم إلى المعصم . ومعلوم أن السوار هو ما يحلى به المعصم وتلصقه لساء نظرية في الدنيا كلّ حسب إمكانياتها ، حتى أن بعض العبيات يلبسن أسورة عريضة في المعصم يسمونها (تملّك) لفرط عذابها

وعصب أن يرى بعض الرجال يعطّلون حنية الحنة لكن من غير طريقها ، فلبسوا الأساور ، وهو ما يُسمّى الآن (الأسياح) وذكر الحق سبحانه أساور الذهب في الجنة لأن الملوك قديماً كانوا يلبسوها ويتخلّون بها ، وكان لكسرى سواران بهما قصة في تاريخنا فلم أسلم سراقه بن مالك ، وكان تحلاً تشبه دراعاه

(١) هو سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي الكوفي ، أبو سفيان ، صحابي كان في الجاهلية قصصاً بالثر ، حُرّجه أبو سعيد لقنص أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى العار مع أبي بكر ، اسم بعد عروه الطائف عام ٨ هجرية به في كتب الحديث ١٩ حديث
نوفى عام ٢٤ هجرية [الإعلام للركلي ٢ / ٨]

دراعى الساعر ، وكان بعض الصحابة يسحرون منه ، فتهاهم عن ذلك سيد رسول الله ﷺ وقال قوله عرفوا معناه فيما بعد ، قال « كيف بهما يعنى نراعى سراقه - فى سواى كسرى » .

فلما فتح المسلمون بلاد فارس وعينوا قصور كسرى وأمواله حاء أسوارا من صميص سراقه عند توزيع الغنائم فلما رأها عمر بن الخطاب قال : صدق رسول الله ﷺ

وهذه الأساور من ذهب ولؤلؤا (٣٣) [فاطر] الذهب معلوم أنه من الجبال ، واللؤلؤ من حلية البحر

وتأمل دقة الأداء القرأى هنا فلما تكلم عن الأساور جاء بجمع الجمع ليدل على الكثرة بكن لما تكلم عن الثياب قال ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٣) [فاطر] بصيغته المفرد ، لماذا ؟ فانوا ، لأنك لا تحتاج إلى العديد من الثياب إلا لتبرد عن نفسك البرد أو الحر ، وليس فى الجنة شئ من هد

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾

إِن رَّبَّنَا أَحْسَنُ شُكْرًا ﴿٣٤﴾

(١) ذكر أبو عبد الله الحميرى فى كتابه « الروض المصنوع فى أحوال الأقطار » « أن سراقه كان رجلاً رب كثير شعر الساعدين » أشاء ذكره هذا الخبر

(٢) أخرجه أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢٢٥/٦) من حديث عمر بن الخطاب أنه أتى بقررة كسرى فوضعت بين يديه وفى القوم سراقه بن مالك بن جعشم قال قال لى كسرى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا مكبته فلما رأها فى يدي سراقه قال الحمد لله سوارى كسرى بن هرمز فى يد سراقه بن مالك بن جعشم قال الشافعى « إنما نسبهما سراقه لأن المسمى ﷺ قال سراقه ونظر لى دراعيه كانى بك قد سمعت سوارى كسرى

هذا قُرْلُ الْمُؤْمِنِينَ سَاعَةً يَتَمَتَّعُونَ بِعِيمِ الْحَيَّةِ ، فَمَنْ لَا يَسُورُ
الْمَنْعَمِ سَبْحَانَهُ ، فَيُحْمَدُونَهُ أَوَّلًا عَلَى أَنْ شَرَعَ لَهُمُ الْمَنْعَمَ الَّذِي
أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذِهِ النِّعَمِ ، وَيُحْمَدُونَهُ عَلَى أَنْ جَاءَهُمْ وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ
وَهَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ إِذَنْ : هَذَا حَمْدُ مَرْكَبِ .

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [فاطر] هي آخر ما يقويه الصَّغْمُورُ فِي
الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَأَحْمِرْ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
[يُوسُف]

وَمِنْ نُصَفِ اللَّهِ بَعْدَهُ وَغُظُّهُ عَلَيْهِمْ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يَحْمَدُونَهُ
سَبْحَانَهُ ، وَيُعَلِّمُهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْمَوْحِزَّةَ الْمَكُونَةَ مِنْ مَسْنَدٍ وَخَيْرِ
الْحَمْدِ لِلَّهِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفِينَ فِي اسْتِقْدَارِهِ عَلَى الْإِدَاءِ الْمُنَاسِ
وَالنَّبْعِ السَّالِمِ قَوْلًا دَلِيلًا قَادِرًا عَلَى صِبْغَةِ الْأَسْلُوبِ الْحَمْدِ
وَتَمْيِيقِ لِعِبَارَاتٍ ، وَآخِرُ لَا يَجِيذُ شَيْئًا مِنْ هَذَا لَذِكِ عَلَمْنَا اللَّهُ تَعَالَى
كَيْفَ نَحْمَدُهُ بِفِطْرَةِ سَهْلٍ مَيْسُورٍ يَتَسَاوَى فِيهِ الْجَمِيعُ

لِذَلِكَ جَاءَ فِي مَنَاجَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ
أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ »

وَقُلْنَا إِنْ كَلِمَةُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) تَسْتَوْجِبُ سَلْسَلَةً لَا تَنْتَهِي مِنَ
الْحَمْدِ ، فَحِينَ تَقُولُ عَلَى الْبِعْمَةِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي مَابِهَا
بَعْمَةٌ تَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ ، وَتَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ ، وَهَكَذَا يَطُرُ أَحَقُّ سَبْحَانَهُ
مَحْمُودًا ، وَيُظَالُّ الْعَبْدُ حَامِدًا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ

وَقُوَّةِ سَبْحَانِهِ ﴿ الَّذِي أَذْعَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ [فاطر] هَذِهِ بَعْمَةٌ ثَلَاثَةٌ

(١) أَحَدُ مَسْنَدِ فِي صَحِيحِهِ (٤٨٦) عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ قَالَتْ : بَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتًا مِنْ
الْفَرَاشِ ، بِالْبَيْتَةِ ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمِهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ مَمْنُونَتَانِ وَهُوَ
يَقُولُ : « إِلَهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِعَفَاكَ مِنْ عِقَابِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ
لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ »

سُورَةُ طه

﴿١٢٥﴾

تستحق الحمد ، فالحمد أولاً على لنعم وثانياً على أنك حمدت الله على نعمه ، وثالثاً تحمد الله الذي أنهدك عن الحزن ، واحزن كل ما يحزنك ، أو يغمك ، أو هو استدامة الحزن في الإسار فالإنسان يسعد بالنعيم في الدنيا ويسرُّ به ، لكن يُنقصه عليه محافة رواله ، فبعيش مهموماً حزيناً ، يحاف أن تقوته البعثة أو يفترتها هو بالموت ، أما في الآخرة فلا يفكر المرء في شيء من هذا أبداً فقد ذهب هذا الفكر مع دهاب الدنيا وأجرا في الآخرة باقٍ دائم ، لا يفوتك ولا تقوته

وقولهم ﴿إِنَّ رَبَّنَا غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [طه: ٢٠] فانظر كأنهم يتهمون أنفسهم بالتقصير وانهم ما أدوا حق الله كما ينبغي ، وأن ما هم فيه من النعيم ما هو إلا لأن ربهم غفور يتجاوز عن تقصيرهم ، وشكور يشكر لهم العمل الصالح بعد أن وقفهم له وأعدهم عليه ثم يسكر الحق سبحانه بقرارهم بما وهبهم الله من نعيم ، فيقول

﴿الَّذِي أَحَلَّ دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا نَمَسٌ فِيهَا الْغُوبُ﴾ [طه: ٢٥]

معنى ﴿أحلنا﴾ [طه: ٢٥] أدخلنا وجعلنا محلاً لنا ﴿دار المقامة﴾ [طه: ٢٥] الإقامة الدائمة ولعمري الجنة ، فالجنة دار إقامة دائمة أما الدنيا فما هي إلا معبر إلى الآخرة ، ولا تُسمى دار إقامة وهذه الجنة جعلها الله محلاً بهم ليس بأعمالهم ، إنما بفصل من الله وبكرمه ، حتى إن كان لك عمل صالح فهو راجع إلى تشريع الله لك ، إذن كله يعود إلى فضل الله

وقولهم ﴿وَلَا يَمَسُّ فِيهَا﴾ [طه: ٢٥] [مسر] أي في الجنة ﴿نَصَبٌ

(٣٥) ﴿عَاطِر﴾ أَيْ تَعِبَ وَمَشَقَّةٌ ﴿وَلَا يَمَسُّهَا الْعُوبُ﴾ (٣٦) ﴿عَاطِر﴾
يعنى إعناء وفتر ففحة لتعب من حركات الأجهزة والإنسان هذا
فى سعيه فى الدنيا يتعرض لكثير من المشاق ، حتى أننا نقول
بصرب فى الأرض يعنى يسعى فكأنها عمله مدهفه شاقة يعود
الإنسان منها متعباً منهكاً ، هذا هو العُوب إلى أن نرتاح منه
وتستجم ، وتعود لك قوتك ونشاطك للعمل من جديد

ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٧) ﴿و﴾
وقال بعضهم : النَّصَبُ تعب الجوارح والعُوب تعب
الصدر ، ويراد به الهم الذى يشمل مال الإنسان .

وهذا المعنى قل لله شوقى رحمه الله
لَيْسَ بِحَمَلٍ مَا أَطْلَقَ الظَّهْرُ مَا لَحْمٌ إِلَّا مَا وَعَاهُ لَصْدَرُ
والإمام عى رضى الله عنه لما سُئِلَ عَنْ أَشَدِّ جُنُودِ اللَّهِ فِي
الْأَرْضِ ، قَالَ الْهَمُّ هَبْنُ تَسْلُطَ عَلَى إِنْسَانٍ أَقْلَقَهُ وَأَقْصُرُ مَصْحَفَهُ ،
بِذَلِكَ قَالُوا وَالْهَمُّ يَعْصِبُ الْعُومَ ، فَكَانَ أَشَدَّ مِنْهُ ، وَمَنْ يَرِالِ الْهَمِّ
بِالْإِنْسَانِ حَتَّى يَصِيرَ نَحِيلاً بَعْدَ الْمَدَنَةِ ، كَمَا قَالَ الْمَتَنِيُّ (٣)

(١) الكوه أبو على القالى فى نيل الاسالى والنوادر (٣/ ١٩٢) أن على بن اسى طالب قال أشد
جود ربك عشرة الجمال الرواسى ، والتعبيد بقطع الجمال ، والتعب تدبب الحديد ، والماء
يطعمه النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والرياح تقطع السحاب ،
وليس آدم يقبب الريح يستقر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسكر بعد من دم
والنوم مطلب السكر ، والهم يقلب العوم ، فاشد جلى الله عز وجل الهم

(٢) السمسى هو أحمد بن السمسى بن الحسن الكندى أبو الطيب ، ولد بالكوفة ٢٢ هـ شاعر
حكيم ، نسب إلى كندة بالكوفة ومشأ بالشام ، مال الشعر صبيهاً ، رنباً فى يادية السمرة
لذلك سمى بالمتنبى ولكنه ناب ورجع عى دعواه ، مدح كاهور الإخشيدى بمصر ثم هجاء ،
ومدح محمد الدولة بن بويه فى شيراز - توفى قتيلاً عام ٢٥١ هـ

سُورَةُ قَطَارٍ

١٢٥٢٣

وَالْهَمُّ يَعْتَمِدُ الْحَسِيمَ حَاجَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرَمُ
بعد أنْ حَدَّثَنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمُصْطَفِينَ
مِنْ عِبَادِهِ وَعَنِ حَزَائِهِمْ فِي حُدُثِ عَدَنَ لَتَسْتَبِشِرَ النَّفْسُ ، وَتَتَفَتَّحَ
إِلَى بَشَارَاتٍ لِاتَّقِيَاءِ يَذْكُرُ سُبْحَانَهُ مَا يَقْبَلُ بِكَ مِنْ سَارَاتِ الْأَعْيَاءِ ،
وَذَكَرَ الْمُقَابِلَ يَرِيدُ الْمَعْنَى وَصَوْحًا ، وَهُوَ سَمِعَ مِنْ سَمَاتٍ لِاسْلُوبِ
الْقِرَاسَى ، كَمَا فِي قَوْنِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَهِيَ نَعِيمٌ (٣)﴾ وَإِنَّ الْفَخَارَ لَهِيَ
جَعِيمٌ (٤) ﴿
وَعَوْنَهُ سُبْحَانَهُ ﴿فَلْيَصْحَحْكُمْ أَقْلِيلاً وَلْيَكُونُوا كَثِيراً حَرّاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
(٥)﴾
[البقرة]

كذلك هنا يقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضِي عَنْهُمْ
فِيمَوْتُوا وَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ
نَجْزِي كُلَّ كَافٍ﴾ (٣٦)

اللام هي ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ (٣٦)﴾ [أسر] تفيد الملكية والاحتصاص
كما نقول فلان له كذا وكذا ، فكانت لهم يتعلّقون بها ، وهي تتعلّق بهم
تعلّق المالك بالملوك ، وسدعة يدخلونها والعباد داله يؤدّون الخلاص
منها ولو بالموت ، على جدّ قول الشاعر
كفى بك داء أن ترى الموت شديداً وحسب المني أن يكرأ أمسياً

(١) المصواب (والهم يحترم) كما في ديوان السبكي وهو من قصيدة له من بحر النكس
عدد أبياتها ٣٦ بيتاً وأشهر أبيات هذه القصيدة هو قول

هو العقل نشقى من النعيم ينقله وأحو المحالة من الشقارة ينعم

(٢) هذا البيت لمنتبى أيضاً وهو مطلع قصيدة له في سبوانه ، وهي من بحر الطويل ، عدد
أبياتها ٢٧ بيتاً

نعم يَتَمَنُّونَ الحَلاصَ وَوَقَّعُوا بِالمَوْتِ لَكِن هِيَّاهُ لَهِم ذَلِكَ ، وَهَذَا الْمَعْنَى وَأَصَحُّ عَلَى قُوَّةِ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿ وَمَا دُوا بِمَالِكَ لِيَقْصُرَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا اكْتُمُلُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ [الرحمة] فَاَلَمْ يَمُوتْ لَيْسَ عَذَابًا بَلْ هُوَ بِالنَّفْسِ لَهِم رَاحَةً مِنْ عَذَابٍ أَشَدَّ وَأَنْقَى

وَأَذْكَرُ أَنْ يَعْضَ الْمُسْتَشَارِينَ أَدْعَى أَنْ كِتَابَ اللَّهِ يَسْ قِيَهُ دَلِيلٌ عَلَى رَجْمِ الزَّانِيَةِ الْمُحْصَنَةِ وَاسْتَدَسَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْإِمَاءِ ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (٢٥) ﴿ [النساء]

عَلَى اعْتِنَاءِ أَنَّ الرِّجْمَ لَا يَتَحَرَّأُ لِيَكُونَ فِيهِ نِصْفُ رَجْمٍ ، وَمَا دَامَ الرِّجْمُ لَا يَتَحَرَّأُ فَلَا رَجْمَ إِذْ فَرِغْنَا مِنْ سُبْحَانِهِ وَتَعَالَى إِلَهُهُمْ وَقُلْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَيْنَا أَنْ نَحْصِدَ أَوَّلًا مِنَ الْعَذَابِ ، الْعَذَابِ إِبْلَامُ حُرِّ وَإِذَا مَا جَمَعْنَا آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي الْمَوْضُوعِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَصُحِّتْ لِقَاءُ الصُّورَةِ وَظَهَرَ الْمَعْنَى فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي قِصَّةِ هَذِهِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ لِأَعْدِيَّتِهِ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَدْبَحِهِ ﴾ (٢١) ﴿ [النساء] إِذْ لَمْ يَمُوتْ أَوْ الذَّبْحُ أَوْ الْقَتْلُ لَيْسَ عَذَابًا وَالرَّحْمَةُ إِمَامَةٌ وَالْإِمَامَةُ إِتِهَاءٌ لِلْعَذَابِ وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَ قَدْ هَذَا لِنَصِّ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَ لِنَبِيِّهِ ﷺ بَيَانًا بِهَذَا النَّصِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ حُكْمِ تَأْخُذِهِ بِالنَّصِّ وَحُكْمِ تَأْخُذِهِ بِالتَّطْبِيقِ الْفَعْلِيِّ مِنَ الْمَشْرُوعِ ﷺ لِأَنَّ النَّصَّ يُمْكِنُ لَكَ أَنْ تَتَوَبَّعَهُ ، أَمَّا التَّطْبِيقُ الْفَعْلِيُّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَلَا يَأْوِيهِ قَبْلَهُ ، وَهَذَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَجِمَ بِالْفِعْلِ

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا دَعَى الْمُسْتَشَارُ لَكُنَّتِ الْآيَةُ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ دُونَ أَنْ تَذْكَرَ الْعَذَابُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ مِنْ الْعَذَابِ ﴾ (٢٥) ﴿ [النساء] مَعْنَى لَا مِنْ غَيْرِهِ ، فَهُوَ بَيِّنٌ لِلنِّصْفِ ، نِصْفُ الْعَذَابِ ، وَالرَّحْمَةُ لَيْسَ عَذَابًا ، بَلْ إِبْهَاءٌ لِلْعَذَابِ

ثم يخبر سبحانه عن حال امر النار ﴿١﴾ ولا يحفف عنهم من عذابها ﴿٢﴾ [قاطر] أي - أنه عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتّر ، فالإنسان مثلاً في الدنيا قد يُعْتَلَى - والعباد بالله - بأن يُعْتَقَل ويُصْرَب مثلاً ليُقرّ بما حدث ، إلى أن يصير جسمه جسماً (أعرش) يعني لا يشعر بالألم بكثرة الصرب ، لذلك مثل هؤلاء يُصْرَب جَلْدَةً ، أو عدة جلدات ، ثم لا يشعر بعدها بشيء ، ويصدق فيه قول الشاعر

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحٍ مِثِّي إِيلَامٌ^١

أو قول الآخر

وكنْتُ إِذَا أَصَابْتَنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النُّصَالُ عَلَى النُّصَالِ^٢

إن عذاب الدنيا قد يُحَفَّف ، ولو بهذه العادة الرديئة ، وهي مقدار الإحساس بأعذاب حين يفقد الحاد اتصاله بالمح ، أما عذاب الآخرة فلا يُحَفَّف عنهم مهما طال بهم ، لذلك يقول تعالى في موضع آخر ﴿٣﴾ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَنَائِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٤) ﴿٥﴾ [النساء]

(١) هذا البيت للمتنبي أيضاً ، وهو من قصيدة مطلعها
لا ألتئم إلا لمن لا يصام نكرك أو مُصارب لا ينأم
وهي في ديوانه من بحر الجحف ، عدد أبياتها ٤٢ بيتاً

(٢) هذا البيت قاله عدة شعراء مع اختلاف في صدره واتحاد العجز
إبراهيم الطباطبائي قصرت إذا أصابته سهام
أحمد القروي قصرت إذا أصابني سهام
المتنبي قصرت إذا أصابتني سهام
جواموس قرحات قصرت إذا أصابتني سهام
حفي بأصف ولائت مثله الصعداب حفي
- عبد الرحمن الموصلي قصرت إذا أصابته سهام

وهو للمتنبي أيضاً من قصيدته في ديوانه من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤٥ بيتاً ، فهو السابق إلى هذا المعنى بهذا اللفظ

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ
النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٢٧)

معنى ﴿يَصْطَرِحُونَ﴾ (٢٧) ﴿[ماطر] أى بصرحون ويصرحون
مستغيثين طالبيين للنصرة والصراخ ستجاد بمن يخلصك من شدة
أو صائقة أو عذاب ، ومثل هذا الصوت نسمعه مثلاً حين يشبُّ حريق
لا قدر الله ، فيصرخ الناس طلباً للمساعدة

وهؤلاء يصرخون ﴿فيها﴾ (٢٧) ﴿[ماطر] أى فى النار يقولون فى
صراخهم ﴿ربنا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (٢٧) ﴿[ماطر] أولاً
عجيب منهم أن يقولوا الآن (ربنا) هذه الكلمة التى أنكروها فى
الدنيا وكفروا بها الآن بملقوبها لكن بعد قواب أوابها ثم أقروا
على أنفسهم بأن عملهم فى الدنيا لم يكن صالحاً وهذه حشة
تُحسب عليهم لا لهم ، وتريد من عذابهم لا تُخففه عنهم

ثم لو جابهم الله وهبوت بهم ذلك - هل سيعملون صالحاً كما
يقولون ؟ لقد علم الله كذبهم ، فقال سبحانه ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا
عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨)

إذن هذا صرح كلام حين انصائقة ولو رجعوا لعادوا لما
كدوا عليه ، لذلك يرد الله عليهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ -
(٢٧) ﴿[ماطر] يعنى مددنا لكم العمر فى الدنيا بما يكفى ستتذكر
وبلاعتار لمن أراد أن يتذكر أو يعتبر

﴿وجاءكم لدير﴾ (٢٧) ﴿[ماطر] الرسول الذى يبدركم ويحذرکم من

عاقبة أعمالكم ومع ذلك لم تعودوا إلى الجادة ولم ترجعوا
أنفسكم إلى أن فات الأوان .
﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ (٢٧) ﴿ [فاطر] أي ذوقوا عذاب ،
ومعنى ﴿ من نصير ﴾ (٢٧) ﴿ [مصر] أي معين وانصير هو الذي يدفع
عنه بقوة ، ويحل محل المعركة ، وفي موضع آخر يقول سبحانه
﴿ من ولي ولا نصير ﴾ (٣) ﴿ [شورى] والولى هو القرب الذي يدفع عنه
برجاء واستمالة ونحسب ، وهؤلاء لا لهم ولي ولا لهم نصير في
هذا الموقف .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَخُذُوا زِينَتَكُمْ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣٨)

حذت هذه الآية كتعليق لما قبلها ، فالحق سبحانه يعلم كل
ما عاب في السموات وفي الأرض ويعلم خفايا الصدور ومكنوناتها
وبواياها وما يعلو بها ، وقد علم سبحانه نوايا أهل النار وعلم أنهم
لو رجعوا إلى الدنيا لعادوا لما كانوا عليه ، فهدى بجرته لمن تنكر .
لذلك انتهى الله معهم هذا الموقف ، وحكم بعدم رجوعهم

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَيْفَ فِي الْأَرْضِ فَمنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ
وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسَارًا ﴾ (٣٩)

معنى ﴿حلائف﴾ [٣٩] ﴿ماطر﴾ خلفاء يخلف بعضهم بعضاً وفى آية أخرى ﴿إِنِّى جاعِلٌ فى الأرض حليمةً ..﴾ [٣٠] [البقرة] أى . حليقة لله فى أرضه . بذلك وهبنا الله صفات من صفاته سبحانه . لنبشّر بها مهمتنا فى الأرض . فإن وجدتْ فى قدرة على العمل هى من قدرة الله . وإن وجدتْ فى تصرفاتنا حكمة هى ميسر من حكمة الله وإن وجدتْ فى عزة هى من عزة الله الحق

هد هو معنى الخلافة . لأن لإنسان حين يتأمل ذاته يجد أن كل ما فيه موهوب له من خالقه سبحانه . ليس ذاتياً فيه

وسبق أن قلنا مثلاً إنك لمجرد إرادتك أن تقوم من مكانك تحب نفسك قد قُمْتَ دون أن تعرف ماذا حدث فى أعصابك وعضلاتك . وكيف صدرت الأوامر لهذه العضلات أن تتحرك . هذه هى الحقيقة صفة من صفات الحائق سبحانه وهبك شيئاً منه . ندليل أنه سبحانه إن سببك هذه القوة لا يستطيع القيام وقد سلّطها بالفعل من غيرك ليس لأنك أن فوقك ليست ذاته فيك . فلا تحتز بها

تلحظ مثلاً بعد تطور الصناعة أن العلماء استخدموا حركات البشر فى صناعة (الأوتاش والبلدورات) فتدعى لحركة الواحدة تحتاج إلى عدة حركات من الآلة . وتحتاج إلى أن يصعظ السائق على زر معين لهذه الحركة . أما أنت فلا تحتاج فى حركة أعصابك إلى شيء من هذا

فمجرد أن تريد الفعل تفعله وتتفاعل معك أعضاؤك وعصلاتك . وتؤدي لك ما تريد منها دون أن تشعر أنت بشيء . فإذا كنت أنت وأنت مخلوق لله تعالى حين تريد شيئاً تفعله دون أن تأمر عضواً من أعضائك . ولا عضلة من عضلات جسمك . فما بالك ياخالق سبحانه ؟

أنكر أنه سبحانه يقول للشيء كن فيكون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٢١] ﴿

أنت حيما تريد حركة لا تأمر شيئاً من أعضائك ، لأنك لا تعرف أيها تأمر ، فالأعضاء والعصلات والأعصاب أشياء متداخلة ، ولا تدري أنت ما يدور بداخلك لتؤدي هذه الحركة ، لذلك سواك الحائق سبحانه على صورة تفعل لب أعضائك بمجرد إرادتك ، أما لحال سبحانه فيأمر الأشياء ويقول لها كنْ لأنه سبحانه يعلم الآلة التي تتحرك .

وأيضاً الحائق سبحانه لم ينك بك أمراً على حوارحك ، إنما ذلّلها لك وصوّعها لإرادتك ، لأنك لا تصمم بأن أمرتها أن تطيعك وتستجيب لك ، أما الحائق سبحانه فإن أمر الأشياء أطاعته بسبيل أن للإنسان حين سلب قدره على الحركة أو حين يصيبه هذا المرض والعياذ بالله يريد أن يحرك أصبعاً من أصابعه فلا يستطيع .

والحق سبحانه وتعالى قبل أن يستدعي الحليفة إلى انوحد خلقه فيه فيرأس خلقه ، وصمم له قوته ومقومات حياته وضروريتها إلى قيام الساعة ، ثم ترك للمقنن أن تعمم ، وإن تستنط من الضروريات ما يُعرف بالحياة ويثرها .

إذن أنت أيها الحليفة لله هي الأرض ليس لك إلا أن تستقبل أمر الله في (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) بطاعته ولا نقضه ، فمن كفر بعد ذلك ﴿ فمن كفر بعد ذلك فمما سمعنا منه كفره ﴾ [ماصر] كفرت يعني لم تطع افعل ولا تفعل ، والكفر يعني الستر وكفر بالله يعني ستره ، كأن الله كان ظاهراً ، فستره الكفر بكفره ، بذلك قلنا إن الكفر أو سلب عي الإيمان فلولاً وحوادث الله ما كان الكفر

وكما أن هناك كفراً بالله الذي استحلقت هناك كفر بما استحلقت فيه ، كفر بالجمعة بأن تنسى وأنها بك رابعم صيك بها ومن كفر

النعمة أن تكسل عن استنباطها واستخراجها من باطن الأرض ،
وتتركها مطمورة لا ينتفع الناس بها ، ومن كُفِرَ النعمة أصلاً ألا
تؤدي حق الله فيها ، وأن تسترها عن مستحقها المحتاح إليها

وما يعانیه العالم الآن من أزمات في نفوت ومجاعات ما هو إلا
نتيجة طبيعية لكفر النعمة ، إما بالتكاسل والقعود عن استنباطها ،
وإما نستبسطها لكن نشح بها نفوسنا ونبحر بدين أننا عشنا فترة
طويلة في الوادي الصيق ، ولم نحاول استنباط حيرات الصحراء ،
عما تنبهنا إلى ضرورة عزو لصحراء وتعميرها أصاب موسى
الاستنباط ، فزرع الترف ولم نزرع الضروريات فتحد السوق عندما
ملينا بالبرتقال والصور والعب والكتالوب والفراولة الخ وبحر
(شحت) رعيب العيش ، وستجدي غيرنا ضروريات حياتنا

إذن الحراء هنا من حسن العمل ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ (٣٩) [عاصم]
أي يُجدي به ، فالذي كفر بالمعص له جرائه وحزاه العذب في
الآخرة ، ولذي كفر بالنعمة له حراؤه ، وجراؤه أن يموت جوعاً وأن
يسأل لغيره ، وإن دل لغيره فمن بعد أمراً ولا بهياً ، ولن يهتم بدين
ولا بمنهج .

ورحم الله أجداسا الدين قانوا (إلى نعمته من ماسه كلمته من راسه)

ثم يقول سبحانه مُنِيباً عاقبة الكفر ﴿ ولا يريد الكافرين كُفْرَهُمْ عند
ربهم إلا مَقْتاً ولا يريد الكافرين كُفْرَهُمْ إِلَّا حَسَاراً ﴾ (٣٩) [عاصم] نعم الكفر يزيد
صاحبه مَقْتاً وكراهية من الله عز وجل لأنك كفرت بمن ، كفرت بالله
ربك وحالقت ورزقت ووهبت النعم وكل كفر شيء من هذا
يسوجب لك كراهية ونُعْصاً من الله ، وهذا البعض يريد بالاستمرار
في الكفر والنصميم عليه ، ثم بعد هذا كله يزيد الكفر صاحبه

﴿ حَسْبَا ﴾ (٣٩) ﴿ فاطر ﴾ وأيُّ حسارة بعد الكفر بالله ، الحسارة هنا كبيرة لأنها هلاك وخسران لخيري الدنيا والآخرة
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي أَسْمَوتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا وَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ نَبِّئْهُمْ إِنَّ يَوْمَ الظُّلُمَاتِ يَعْصِمُ عَنْ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ۚ الْآعْرُوزَ ۚ ﴾ (٤٠)

الخطاب في (قل) لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤٠) ﴿ فاطر ﴾ يعنى أحبرونى عنهم ، وليست محرد استعهم عن الرؤية كما لو قلت لك أرايت فلاناً أمس ، تفور نعم ولا ، أما هنا فلمرد الإحمار عن الحال وطلب منهم هم أن يخبروا عن حال شركاتهم الذين عسدهم من دون الله ، وجعلهم هم أنفسهم حكماً في هذه المسألة

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ (٤١) ﴿ فاطر ﴾ يعنى أحبرونى إن كانوا هم انفرادوا بالخلق ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ (٤٢) ﴿ فاطر ﴾ يعنى شاركوا في الخلق وكانت أيديهم يخلقون معى ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا وَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ (٤٣) ﴿ فاطر ﴾ كتاباً يبيح لهم الشرك ويكون حجة لهم في شركهم

والحق سبحانه وتعالى يشرح لنا هذه القصية في موضع آخر ، فيقول سبحانه ﴿ نَا شَهِدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ بَعْضُهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّحِدُ الْمُصَلِّينَ عَصِدًا ﴾ (٤٤) ﴿ الكهف ﴾

فالحق سبحانه لا ينفي مشاركتهم له سبحانه في الخلق فحسب ،
إنما ينفي محرد مشاهدتهم لهذه المسألة ، فليس لهم علم بالخلق
ولا صلة لهم به ، ولا يستطيعون أن يحبروا كيف خلقت السموات
والأرض ، ولا كيف خلقوا هم أنفسهم .

ثم يقول سبحانه ﴿ بَلْ (٤) ﴾ [فاطر] وهي إصراف عن الكلام
السابق وإثبات لحكم بعدها ﴿ إِنْ يَعْذِبِ الْمُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا
(٤) ﴾ [فاطر] وإن هنا بمعنى ما النافية يعني ما يعذب الظالمون
بعضهم بعضاً إلا غروراً ، والغرور هو الخداع الذي يلبس الباطل
توب الحق ، ليحذب الناس إليه ، ويرخرقه لهم ليعرفهم به

ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرُكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (١) ﴾
[الافطار] يعني ما أعراك بمعصيته ، وما شجعتك على عصيان
أوامره ، وكأن الحق سبحانه يعلمنا الرد بقوة تعالى (الكريم)
فالذي عرنا بأفقه كرمه وفضله

بالمعنى بل كل هذا باطل ، فشاركواهم ما خلقوا شيئاً .
وما شاركوا في خلق شيء ، ولا أتيناهم كتاباً يكون حجة لهم ، كل
هذا خداع منهم وزحرفة ، والحقيقة أنهم يغرُّ بعضهم بعضاً ويخدع
بعضهم بعضاً بهذه الانطيل
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ إِنْ أَلَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ رَأَتْ أَنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحْرَمٍ بَعْدَهُ

إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

نعم ، الله وحده هو الذي يُمْسِكُ السموات أَنْ تقع على الأرض
ويمسك السموات والأرض أن تزولا يعني تتحرك من أماكنها ،
وتسقط وتهدم ، ولو تركها الحاقق سبحانه ما استطاع أحد أن
يمسكهما ﴿ مِنْ بَعْدِهِ (١) ﴾ [طه] أي سواد ، وهذه بمسأله لله
وحده ، ليس به فيها شريك ولا معارض ، وهى من صميم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

والحق سبحانه يمسك السموات والأرض أن تزولا ، لأنه سبحانه
خلق اسموات بخير عمد ، وبغير دعائم تحملها ﴿ خلق السموات بغير
عمد يُرونها (١) ﴾ [نجم]

وربى غير الله يستطيع أن يرفع هذه القبة الزرقاء هكذا بغير
عمد ، إن قصارى ما وصل إليه التقدم البشرى بناء كبرى مثلا يمتد
بعدة مترات بدون دعائم فى وسطه ، مع أنهم يستعصمون عن ذلك
بدعائم أقوى فى أطرافه ، بحيث تحمل الوسط وتشده ويسمونها
لكبارى المعلقة فأين هذا من رفع السماء ، والسماء كما قدا هى
كل ما غلاب فانه يمسك اسماء بها فيها من نجوم وأقمار وكواكب
ومجرات ويمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وأن تضطرب بهم

وبما تكلم العلماء فى هذه المسألة قالوا بها لحادية التى
تمسك الأشياء ، لكن إن كانت الحادية للأرض ، فلماذا لم تجذب
المجوم مثلا ، وهى بين السماء والأرض ؟

إذن المسألة قدرة إلهية ، ونظام للكون مُحكم ، يجعل لكل
مخلوق فى السموات والأرض ما يحفظ توارثه ويمسكه أن يقع

و(إن) فى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ رَأَوْا إِذْ أَنشَكُمَا (١) ﴾ [طه] يعنى
ما بمسكهم بهى بمعنى أداة البنى كما فى قوله تعالى ﴿ إِنْ
أَمَّاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ (٢) ﴾ [المجادلة]

وَتُحْتَمِ الْأَيَّةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنِّهٗ كَانَ حَٰصِمًا غُفُورًا﴾ (٢١) ﴿[فاصد] وَلَٰكُ أَنْ تُسْأَلَ مَا عِلَاقَةُ هَاتَيْنِ الصَّدَقَتَيْنِ ۚ تَعَالَى الْحَكِيمُ وَالْعَفُورُ بِمَسْأَلَتِهِ إِمْسَاكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ كَوْنِيَّة ٢

قَالُوا لِأَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ يَكْثُرُ حَوْلُهَا ابْتِدَالٌ ، وَكَثِيرًا مَا يَتَعَدَّى الْإِنْسَانُ حَدُّوهُ فِيهَا ، فَيَسْأَلُ عَمَّا لَا يَسْغِي لَهُ الْخَوْضُ فِيهِ ، وَعَنِ كَيْفِيَّةِ إِمْسَالِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ مَمْلُوءٌ فِي أَبْضَاءِ الْأَرْضِ ، وَيُرَكِّبُ الطَّائِرَةُ فِي جَوْ السَّمَاءِ ، فَلَا يَرَى شَيْئًا ، وَلَا يَرَى أَعْمَدَةً

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ لَا دُخْلَ لَنَا فِيهَا ، وَيَكْفَى أَنْ الْحَالِقُ عَرَّ وَجَلَ أَخْبَرَنَا عَنْهَا بِقَوْلِهِ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ بَرُوقُهَا﴾ ﴿[يَقُولُ] أَيْ لَا يَوْجِدُ لَهَا عُمْدًا بِالْفِعْلِ ، أَوْ لَهَا عُمْدٌ بَلْ لَا تَرُوقُهَا وَيَصْحُحُ الْمَعْنَى ، وَعَيْنِي أَنْ نَقِفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ

فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ حَلِمٌ لَا يَعْاقِبُ الْمُتَحَرِّثِينَ عَلَيْهِ ، الْحَاضِرِينَ فِي حَقِّهِ ، بَلْ إِنْ الْمَكْرِيهِ لَوْجُودُهُ سُبْحَانَهُ لَا يَعْجَلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَلَوْلَا حَنَمُهُ تَعَالَى كَانَ (دَرَبُهَا) عَلَى رُؤُوسِهِمْ

وَعِنْدَ وَرْدِهِ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ « قَالَتِ الْأَرْضُ يَا رَبِّ ائْتِنِي لِي أَنْ أَخْشَفَ بَابِي أَدَمَ ، فَقَدْ طَعِمَ خَيْرَكَ وَمَنْعَ شُكْرِكَ ، وَقَالَتِ السَّمَاءُ يَا رَبِّ ائْتِنِي لِي أَنْ أَسْقِطَ كِسْفًا عَلَى ابْنِ أَدَمَ ، فَقَدْ طَعِمَ خَيْرَكَ وَمَنْعَ شُكْرِكَ ، وَقَالَتِ الْجِبَالُ يَا رَبِّ ائْتِنِي لِي أَنْ أَسْقِطَ عَلَى ابْنِ أَدَمَ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرَكَ وَمَنْعَ شُكْرِكَ ، وَقَالَتِ الْبَحَارُ يَا رَبِّ ائْتِنِي لِي أَنْ أُغْرِقَ بَنَ أَدَمَ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرَكَ وَمَنْعَ شُكْرِكَ فَقَالَ تَعَالَى دَعُونِي وَجَلِّئِي لَوْ حَلَفْتُمُوهُمْ لَوْحَمَتُمُوهُمْ إِنْ تَبَوَّأُوا إِلَيَّ فَايَا حَبِيبِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَتَوَبَّوْا فَايَا طَبِيبِهِمْ »

(١) أَوْرَدَهُ الْفَرَاوِيُّ فِي إِهْبَاءِ عُلُومِ الدِّينِ (٩٣/٤) مِنْ قَوْلِ بَعْضِ السُّلَفِ وَلَفْظُهُ « مَا مِنْ عَمْدٍ يَعْصِي إِلَّا اسْتَأْذَنَ مَكَانَهُ مِنَ الْأَرْضِ أَنْ يَحْشَرَ بِهِ وَابْتِغَاءً مِنْ سَقْفِهِ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ يَسْقِطَ عَلَيْهِ كِسْفٌ فَيَقُولَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ كُفَا عَنِ عِبَادِي وَأَمْلَاهُ فَايَاكُمْ لَمْ تَحْلِفَاهُ وَلَوْ حَلَفْتُمَا لَرَجَسْتُمَا وَلَمْ يَكُنْ يَتَوَبَّ إِلَى مُغْفَرٍ لَهُ ، وَبَعْدَهُ يَسْتَبْدِنُ صَالِحًا فَتُغْلَبُ لَهُ حَسَنَاتُهُ

إِن لَّوَلَا حُكْمَ اللَّهِ عَذَابٌ لِّدُونِنَا مَا آمَسَّتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ ، وَلَتَهْدَمَ هَذَا الْكُونُ عَلَىٰ مَن فِيهِ .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ
جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِمَّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

قوله تعالى ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (١٢٠) [ماطر] أى اجتهدوا فى القسم
والحلف بأعظم الأيمان ﴿ نَذِيرٌ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ (١٢١) [ماطر] رسون ﴿ لَّيَكُونُنَّ
أَهْدَىٰ ﴾ (١٢٢) [ماطر] تُشد هدايه ﴿ مِمَّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ (١٢٣) [ماطر] أى : أهدى
من الأمم السابقة يعنى : سيكونون فى المقدمة

ولحق سبحانه يوضح لنا هذا المعنى فى موضع آخر فيقول
سبحانه ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴾ (٦٧) نو أن عندنا ذكر من الأولين (٨) لَكُنَّا عِبَادَ
اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (١٦٩) [الصفات]

وهذا كله قولهم بأقوالهم ، ويعلم الله أنهم كانوا بكنه سبحانه
يرخى بهم السنان ، ولا يكشف هذا الكذب فيقول لهم دعكم من
الأولين ، وما هو الذكر لدى طلستم وقلتم إنكم ستكونون به أهدى
الناس ، والمراد هنا رسالة محمد ﷺ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (١٢٣) [ماطر] يعنى إعرافاً
وتباعداً عن الحق وعن الهداية لماذا ؟ لأن الذكر الذى جاءهم جاء
على يد محمد ولو جاء على يد رجل عظيم كما يقولون لقسوه
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُرٌّ هَذَا الْفُرَادِ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٢) [الاحراق] فيرو .

الله عليهم ﴿هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَسْبُ قِسْمٍ بَيْنَهُمْ مَعْبُشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعَهَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ (٢٤) ﴿[الرحرف]

عجيب منهم أن يريدوا قسمة رحمة الله على هواهم واحتيار رسول الله كما يحبون ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (٢٤) ﴿[الانعام]

كيف والله قد قسم بينهم أسط أمور حياتهم في الدنيا ، فجعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً

لكن هذا القول منهم دليل على أن القرآن عندهم لا غبار عليه ، وأبهم لا يُكذِّبون به مع أنهم قالوا عنه إنه سحر ، ونه كهانه ، وأن شعر ، ومع هذا يعترفون بأن القرآن لا غبار عليه . لكن أفته أنه نزل على محمد بالذات

ثم يبين الحق سبحانه علّة نفورهم ، فيقول

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَدْبِيلًا وَلَنْ تَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (١٣) ﴿

نعم ، استكبروا على الحق ، فلم يعقلوه ، لماذا ؟ لأن هذا الحق جاء لينزلهم من عالي السيادة إلى لعبودية المقترحة المستطرفة بين كل الخلق . وهم ألعو السيادة وتشق عليهم المساواة ، وأر يكونوا هم وعبيدهم كاسنن المشط

وكان الحق سبحانه يرد عليهم يا من تستكبرون عن قبول الحق فلكم من السيادة ، أم كان يليق بكم أن (تخرجوا) على

عرضكم ، وتسالوا أنفسكم : من أين لكم هذه السادة ؟

بأنه ، لو أن الله تعالى مكرَّ أمره من هدم الكعبة في حادثة الفيل ، ونصرف لدس إسي كعبة أخرى في صنعاء ، أكبت لكم سادة ؟ أكابت لكم مهابة أو سكر بين انس " إذن كان عيكم أن تعملوا عقوبكم وأن تتأملوا هذه المهابة من ابن ، وهذه الأرقق التي تساق إليكم من أين ؟ لقد كنتم تحرمون على الناس أن يطوفوا بالبيت إلا وهم عرايا ليشتروا منكم الثياب

واقرأوا قول الله ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَصَفِّ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

لماذا فعل الله هذا بأصحاب الفيل ؟ يحيب الحق سبحانه في السورة بعده ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

يعنى ما فعلت هذا بأصحاب الفيل ، لا من أجل قريش ، واستعفاء سيادتها ، وفوقير القوات ولأمر لها لكنهم مع هذا كله استكبروا على منهجى وصادموا رسولى ، وعاندوه وكادوا له

﴿ اسْكُبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ (٤٣) ﴾ [مصر] أى مرسول الله وبمن من معه ليدنؤهم عن دينهم ، ولو علموا حديثه استكبارهم لهداهم هذا الاستكبار إلى الإيمان بمن جعلهم كبراء

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة ﴿ وَلَا يَحْيُوا مَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَمْرِهِ (٤٦) ﴾ [مصر] فقد مكروا برسول الله وكادوا له وتآمروا عليه وأذوا المؤمنين به وعدبوه ، لكن جعل الله كيدهم فى جورهم ، كما

قال سبحانه في موضع آخر ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ (٤٠) ﴿الْأَنْفَالِ﴾ أي - يسحتون ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠) ﴿الْأَنْفَالِ﴾

لقد احتالوا للقضاء على دعوة الإسلام بكل لوار الاحتيال ، فم
يُفْجَهِوا حتى دبروا لقتله ﷺ ، فخيب الله سعيهم ، وخرج رسول الله
من بينهم وهم تمام وهو يحثو التراب على رؤوسهم ، ثم بما يئسوا
من القضاء عليه بالحيلة لحنوا إلى الحن واستعانوا بهم ليسحروا
رسول الله ، لكن نجاه الله منهم ، ثم حاولوا دس السم في طعامه ﷺ
وكان الله تعالى يقول بهم وفروا جهودكم ، فلن تُظْفَنُوا نور الله
ولن تصدروا محمداً عن دعوته ، لا بالاستهزاء والسحرية ، ولا بالإساءة
والمكر والتبذير ، ولا حتى بالسحر

ومعنى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١٢٢) ﴿مِطْرٍ﴾ يعني ينزل
بهم ويحيط بهم ، ويقلب عليهم

ثم يقول سبحانه ﴿فَهَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٤٣) ﴿مِطْرٍ﴾
يعنى فما يظنُّون إلا سنن ، لأولين هي الرسل السابقين ، والسنة
هي الطريقة والعادة المتبعة والموحودة ، فهل وجدوا في الرسل
السابقين رمى الأمم السابقة أن الله أرسل رسولا ثم حذله أو تحلى
عنه ، ولم يهلك أعداءه ولمكذبين به ؟ إن نصرة الرسل سنة متبعة ،
كما قال سبحانه ﴿وَإِنْ جَدَدَا لَهُمُ الْقَابُوسُ﴾ (٧٤) ﴿الصَّانِعِ﴾

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
تَحْوِيلًا﴾ (٤٣) ﴿بَادٍ﴾ لماذا لا تتبدل سنة الله ولا تتحول ؟ لأن الله تعالى
أولا ليس عنده بدء ومعنى البدء أن تفعل شيئا ثم يعن لك أن تفعل

أحسن منه ، وأيضاً لأنه سبحانه إله واحد لا ثاني له ، ولا شريك له ، فلا أحد يستدرك عليه ، أو يُغير فعله .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَوَلَمْ نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

الاستفهام في ﴿أَوَلَمْ نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا...﴾ (٤٤) [ماصر]
استفهام يفيد التعجب ، يعني كيف يكون منهم هذا ﴿أَوَلَمْ نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٤٤) [ماصر] أى من المكذبين الذين أحدهم الله ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (٤٤) [ماصر]

كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿وَبِكُمْ لَتَمْرُؤُنَّ عَلَيْهِمْ مُضِحِينَ﴾ (٣٧) وبِالْبَلِيلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) [الصفات]

نعم ، كانوا في حركة حياتهم وفي أسفارهم يمدون على قُرى عاد وثمود وقوم نوط وقوم صباح الخ وكانوا يرون آثارهم وما حاق بهم من الدمار وانحراب بعد أن كذبوا رسلهم ، وكانوا أصحاب حضارات وعمارات وقصور لا مثيل لها

كما قرأ سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (٦) إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد (٨) وسمود الذين حابوا الصخر بالواد (٩) وفرعون ذي الأوتاد (١٠) الذين طغوا في البلاد (١١) فأكثروا فيها الفساد (١٢) فصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَإِنَّمْرُضَادٍ (١٤) [العجر]

والعجيب أن أصحاب هذه الحصارات التي حامت سمعته لآفاق
ثم يستطيعوا أن يضعوا حضاراتهم ما يصونها من الاندثار

ولت ملحظ في قوله سبحانه ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿١٤١﴾ [ماطر]

فمنذ عهد قريب كنا معتقد أن السير في الأرض يعنى على
الأرض لأننا نسير عليها لا فيها إلى أن اكتشف أن الأرض فيها
الاقوات ، وسيد الاقوات الهواء ، بدليل أنك تنصر على الماء لعدة
أيام ، وتنصر أكثر منها على الطعام ، كذلك لا تنصر على الهواء إلا
بمقدار شهيق أو زفير ، لو حبس عنك لعارقت الحياة

وعرفنا أن هواء الأرض من لأرض ، لذلك يدور معها ويرتبط بها
إن من بحر بهذا المعنى لا نسير على الأرض إنما نسير فيها ، حتى
الذى يحلق بالطائرة في طبقات الجو العليا أيضاً يسير في الأرض ،
لأن لهواء من الأرض ، وهو أصل قوامها نفساً وقوتاً

ولنتأكد لك أن الهواء سيد الاقوات ، إجر هذه التجربة ، خذ
إصيصاً أو برميلاً مثلاً وضع فيه تربة زراعية بوزن معين ،
وازرع فيه شجرة مثمرة كالموز مثلاً ، وبعد فترة زرع القمح التى
أحدثها من اشجرة وزر ما نقص من التربة ، وسوف تجد أن التربة
نقصت بمقدار خمسة بالمائة ، أما نسبة الحمسة والتسعين فعن
الهواء .

فكان الهواء هو المغذى الاساسى للنبات ، لذلك نقول إنه
الأصل فى القوت على خلاف ما كنا معتقده من أن التربة هي
الأصل فى القوت ، لذلك يشير القرآن إلى هذه المسألة ، فيقول

سورة فصل

٥٤١

سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (٦٠) ﴿ [سائدة] فذكر الفوعة قبل استحبة

الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية ﴿ أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ ﴾ (٦١) ﴿ [ما لم] يريد من الكفار أن ينظروا إلى مواقع الحياة ، لا إلى كلامها ، ولا إلى كلامهم ، بل واقع الحياة المشاهدة ، فعلى ﴿ أُولَئِكَ يَسِيرُوا ﴾ (٦٢) ﴿ [ما لم] لأنهم ساروا بالفعل ، لذلك لا يأمرهم هنا بالسير ، بل يقرر واقعاً حدث بالفعل ، لأنهم كانوا أمة لها تجارة في اصف إلى الشمال ، وفي الشتاء إلى الجنوب

وفي هذه الأسفار رأوا الكثير من آثار من سبقهم فهل رأوا هي السابقين رسولاً هُزم من المكذبيين به ؟ لقد هزم الله المكذبين والكافرين ، وكتب النصر للمؤمنين الصادقين ، وهؤلاء الدين أحدهم الله كانوا أشد منهم قوة لكنها قوة البشر مهما بلغت من التقدم ماداً تفعل أمام قوة الله ، فلا تنصر إلى قوة الرسول ، لكن انظر إلى قوة من أرسه ، ومن تكف بحفظه ونصرته

إلى هذه معركة ليست بين خلق وخلق ، إنما بين خلق معادين لحاقق سبحانه ، فهل تُعصرون الله ؟ لذلك يهيئ الحق سبحانه أن

(٦٠) بعض الذين لم يفهموا القرآن أو الدين لا يريدون أن يفهموا يطعنون في القرآن بأنه يتناقض مع نفسه من جهة يرمي أهل الكتاب من اليهود والمصريين بالكفر ، ومن جهة أخرى بضاليتهم أن يفهموا التوراة والإنجيل ويطعنهم بالرجوع إليهما كما في هذه الآية إسمائيل بن ماري الذي أنزل القرآن هو الذي أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى وإسلام يعترف بالإيمان قبله وهناك تواصل ، فلماذا يلقون عند حد التوراة والإنجيل ويتجاهلون أن الله أنزل كتاباً يصدق ما بين أيديهم من كتبهم وهو مهيم عليها حاكم على ما قبله ، فلو أقاموا التوراة التي برزت على موسى ، والإنجيل الذي برز على عيسى لا م احتراعهم وأصافهم لأدى بهم إلى الإيمان بما أنزل الله عليهم من القرآن فإن كتبهم سابقة والأمر باتباعه حتماً لا محالة

يَكُونُوا مَعْصَرِينَ ، وَيَنْفَىٰ مِنْ يَكُونُوا مَعْصَرِينَ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ
مَعْصَرًا إِنَّ أُعْجِرَهُ وَلَوْ مَرَّةً يَعْصَىٰ أُنَىٰ نَمَا نَعْرَهُ إِنَّمَا مُعْجَزٌ فِيهَا
مُشَارِكُهُ وَمُفَاعَلُهُ ، كَانَ الْإِعْجَارُ كَانَ بَيْنَهُمَا سَجَالٌ وَفِيهِ أَحَدٌ وَرَدَّ

فَكَانَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ يُعْنَىٰ لَهُمْ وَيَمْهَلُهُمْ ، فَيَجْعَلُ لَهُمُ الْعِلْمَ هِيَ
بَعْضُ الْحَوَالِاتِ لَيْسَتْ تَعْدُ كُلُّ أَنْوَاعِ الْحَيْلِ وَيَسْتَنْفِدُ كُلُّ قَوَائِمِ ، إِنَّ
مَهْمَا كَانَتْ قَوَاتِكُمْ ، وَمَهْمَا اسْتَحْتَمْتُمْ وَتَفَوَّيْتُمْ بِحَضَارَاتٍ أُخْرَىٰ فَلَنْ
تُعْجِرُوا اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا تُعْجِرُهُ شَيْءٌ ، وَلَيْسَ لَهُ سَبْحَانَهُ
شَرِيكَ أَوْ مُقَابِلٌ يَسَاعِدُكُمْ ، فَهُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ يَسَاعِدُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ
وَيَصْرِفُهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَصْبِرُكُمْ وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ أَهْلَكَ الْمُكْتَبِينَ
مِنْكُمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ، وَابْدَىٰ يَقْدِرُ عَلَى الْأَشَدِّ أَقْدَرُ مِنْ بَابِ
أَوَّلَىٰ عَلَى الْأَصْغَفِ

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حِينَ يَرِيدُ أَنْ يُؤَكِّدَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنَ الْمُمْكِنِ
أَنْ بَاتَىٰ بِهِ هِيَ صُورَةُ الْحَبْرِ ، فَيَقُولُ لَقَدْ سَارُوا فِي الْأَرْضِ ،
وَرَأَوْا كَذَا وَكَذَا ، لَكِنْ عَمِلَ مِنَ الْحَبْرِ هَذَا إِلَى الْأَسْتَفْهَامِ ، يَعْنَىٰ
اسْأَلُوهُمْ أَسَارُوا أَمْ لَمْ يَسِيرُوا ؟

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ لَا يَسْأَلُ هَذَا السُّؤَالَ إِلَّا وَهَرٌ وَثِقٌ أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ
سَرَّنَا ، وَهَذَا يُؤَكِّدُ الْكَلَامَ ، لِأَنَّهُ إِقْرَارٌ مِنَ الْمُحَاطَبِ بِنَفْسِهِ ، كَمَا أَنَّ
الْأَسْتَفْهَامَ بِالْفِي هِيَ تَقْدِيرُ الْمُحَاطَبِ مِنَ الْأَسْتَفْهَامِ بِالْإِشَارَةِ

وَمَسْأَلَةُ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ أَحَدَتْ حَقًّا وَاسِعًا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ،
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَىٰ يَرِيدُ مِنَ الْبَاسِ أَنْ يَبْطُرُوا إِلَى الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ وَأَنْ
يَتَأَمَّرُوا فِي التَّكْوِينِ لِيَقْفُوا عَلَى أَسْرَارِهِ وَعَنِ الدَّلَائِلِ الْعَدْرَةِ فِيهِ ، لَدُنْكَ
يَأْمُرُ بِالْحَقِّ سَبْحَانَهُ مَرَّةً يَقُولُهُ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
(٦٩) ﴾ [اسم ومرة] ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا (١) ﴾ [الاعلام]

فما الفرق بين التعبيرين ؟

قالوا السَّيِّرُ في الأرض يكون إما للنظر والاعتبار وإما للاستثمار ، فقوله تعالى ﴿ فَانظُرُوا ﴾ (٢٠) [المر] للسَّيْرِ المراد منه الاعتبار والتأمل في آيات الله وفي هندسة الكون العجيبة التي تدُّنا على قدرة الخالق سبحانه .

أما قوله ﴿ ثُمَّ انظُرُوا ﴾ (٢١) [الاعم] فهي للسَّيْرِ الذي يُراد منه العمل والاستثمار وطلب الرزق محرم إن سبَّت في أبحاث الأرض صلًا للرزق والاستثمار لا تنس ولا تغفل عن الاعتبار وعن التأمل ، ولا يحرم نفسك من النظر في الآيات وفي مُلك الله الواسع خاصة إذا اختلفت السننات

فلبينة الصحراوية ابدوية كندية انحار مثلاً تسير فيها لا تكاد ترى فيها أثراً للور الأخضر ، وفي ندونيسيا مثلاً ذهباً إلى أماكن تكسوها الحضرة ، بحيث لا ترى بقعة من الأرض حافية من النبات ، وفي كل من هذين البيتين حيراتها ومُسرَّها عن الأخرى بذلك قالوا في المثل (إلى يعيش يا ما يشوف وإلى يعيش يشوف أكثر)

ثم يقول سبحانه - ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (٢٤) [عاطر]

سبق أن تكلمت في معنى يُعْجِزُهُ ، الآية هنا لا تنفي أن شيئاً في السموات أو في الأرض يُعْجِزُ الحق سبحانه ، إنما تنفي مجرد أن يكون هذا أو يتصور ، فهذا أمر لا يتصور ولا يكون أصلاً

وقوله ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٢٤) [عاطر] من هنا تنصُّ على العموم بمعنى

من مدابة ما يقدر به شيء كما تقول ما عندي من ، فيجوز أن يكون لديك مال ، لكن قيل لا يُعَدُّ به ، فإن قلت ما عندي من مال فقد نفيت وجود كل ما يقار له مال ، مهم كان قليلاً ولو قرشاً واحداً

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾ [مسر] يُبَيِّنُ علة أنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، فإنه تعالى عليم بعظم محيط لا يعزب عنه شيء ، فإن نحو شيئاً علمه الله وعلم مكانه ، ثم هو سبحانه قدير ، عالم بقدرته وهذين هما عُصْرَا الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ ، تعلم الشيء وتقدر أن تردّه .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَرُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَّةً وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَبْكُ اللَّهُ كَأَن بَعْدَ إِدْبَارِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [٤٥]

الحق سبحانه وتعالى رحيم يُؤالِي نعمه حتى على الكافرين به ، والعاصين لأوامره ، ولو أن الله تعالى احذمهم بطمهم - وطمهم كثير ما ترك أحداً منهم ، فلماذا يعاملنا الله هذه المعاملة ؟ ولماذا يمهّلنا هذا الإمهال ؟ قالوا : لأنه تعالى ربنا وحقيقنا ، ويعلم أن الإنسان ضعيف أمام شهوات نفسه ، صعيّف أمام هواه وأمام شيطانه ، لذلك سبق حلمه غصنه ، وسبق عفوّه مؤاخذته ، وقال سبحانه ﴿وَيَقُولُ عَنِّي كَبِيرٌ﴾ [٣]

ورود في الأثر أن الحق سبحانه يحاصصنا بقوله تعالى «

لم تذسوا لخلقكم بذنوبكم ، فيستعفرون فأغفر لهم « ولا فكيف يُوصف الحق سبحانه بانه تواب عفار ، فالحق سبحانه يريد أن يثبت نفسه سبحانه كل صفات كمال ، وأولها الوجود الواحد ، ثم الحياة ، وكل الصفات تابعة لهاتين الصفتين

وهذه الصفات لله تعالى يمكن أن تقسم إلى قسمين قسم له مقابل وهي صفات الفعل من لله تعالى ، مثل احيى يقابلها ائمميت ، والمعر يقابلها امدل ، وقسم ليس له مقابل وهي صفات الذات مثل لحي العزيز القهار الحليم ، فهي صفات لا نقص لها

والحق سبحانه لا يؤاخذ الناس بما كسبوا ، أي من التعدي والظلم ، لأن الله خلق الإنسان ، وخلق له شهوات وعرائر ، وكل أمور اندين جاءت لتعلى هذه الشهوات . وتسمى بهذه العرائر لا لتحوها ، جاءت تهذيبها لا لتفرض عليها ، وإلا لو أن الحق سبحانه أراد ألا تحدث هذه التعديات وهذا الظلم ما جعل العرائر أصلاً .

فمثلاً غريزة الجنس خلقها الله بعمارة الكون ، ويريد الله من الإنسان أن يُعلى من هذه الغريزة بحيث يكون في الحلال وبحت مطلة الشرع . وسبق أن بينا الفرق في هذه المسألة حين تم في اسور وتحت مطلة شرع الله ومعنى كلمات الله ، وكيف نخرج بها ونعلبها ونفخر بها ، أما لو تمت في الحفاء بعيداً عما شرع الله فحاول كتمانها ، والتخلص من ثمرتها إن كان لها ثمرة ، وإن ظهر للناس كانت وصمة عار لا تُحصى

لذلك جاء في الحديث أن رجلاً من الصحابة كان شديد الغيرة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٩ ٢) وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٩) كتاب التوبة والعنه

والذي نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء قوم يذنبون ، ليستعفرون الله

يفغفر لهم »

على بناته ، فلم تقدم رجب لخطبة واحدة منهم ذهب ليخبر رسول الله فتنسّم رسول الله وقال له « جدد الحلال ألف لعيرة »

يعنى الأمر لذي كنف تغار منه ولا ثقّله الآن تفرح به وتدعو الناس إليه لمايا « لأنه جاء من طريق الحلال الذى شرعه الله ، وكلمة الحق هي التي أمرت لعواطف رجعت المهيّج المثير مُسْعِداً لا غصاضة فيه

كذلك عريرة حسب الاستطلاع موجودة في الإنسان ليتأمل انكون من حوله ويبحث عن أسرار الله فيه ، وما جعلها الله للتلصص على الناس ، وتنسج عوراتهم وأعرصهم كذلك الأكل والشرب عريزة جعلها الله لأنها مَعُوم من مَقُومَات الحياة ، وينبغي أن تكون في هذه الحدود حدود استبقاء الحياة ، لا أن تتحوّل إلى تَهْم وشَراهة ، وتصل إلى حدّ التُخمة

والعريرة جعلها الله في الإنسان لحكمة ، فالولد مثلاً يتحمس أبوه مشقة بربيته والإنفاق عليه ، ونظر الولد عالة على أبيه طيبة حمس عشرة سنه ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالعملية الجنسية وجعل فيها لذة لجماع لزهد كثيرون في الإحباب ، كدك الأم تحمل مشقة الحمل والولادة والرضاعة إلخ ، حتى أنها لنقسم في الولاده أنها لا تحمل مرة أخرى لكن عندما يذهب ألم الوضع ، ويكبر الولد تشتاق إلى غيره وهكذا

(١) ذكر أبو هلال العسكري في « الصباغين » فصل الاسماعرة والمجار أنه ﷺ رأى علياً مع قاطمه في بيت قرد عليهما لبايا وقال « جدد الحلال ألف القيرة » وذكر المبداس في « مجمع الأمثال » ان هذا كان فيه رُقُب ماطما إلى على وقال هذا حديث يروى عن الحاج ابن مهال يرسمه وأظهر أيضاً أبو منصور الثعالبي في « الإعجاز والإيجاز » فصل استعاراته ﷺ « واس جمدون في » التذكرة العمومية ما جاء في العلوم والشياب »

وحين تتأمل مسألة الغريزة تجد أن الخالق سبحانه جعل في الإنسان الغريزة وبقبضها ، فتراه في موقف رحباً وهي موقف آخر عصياً ، أو عريزاً هي موقف ، دليلاً في موقف آخر . وهاتان الغريزتان لا تتحتمس في الإنسان في وقت واحد ، فالطرف الإيماني يحكم عليه مرة بأن يكون عزيزاً ، ومرة بأن يكون ذليلاً

واقراً إن شئت قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَأْتُوا اللَّهَ بِغُلُوبٍ يَحْبُوا وَيَهِيمُونَ أَدْلُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٨) [المائدة]
وقوله سبحانه ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٤٩) [الفتح]

إن الخاسر عز وحس جعل فيك الغرائز المتناقضة ، لا يكتف شيئا منها ، لكن تستعصم كل غريزة منها في موقعها المناسب ومعنى ﴿ بِوَاحِدٍ ﴾ (٤٥) [فاطر] يعنى يعاقب ويجازي ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ (٤٦) [فاطر] نفوا كسب واكتسب ، كلمته كسب تدل على وجود تحارة فيها ربح ومكسب زيادة على رأس المال وهي تدل على المكسب الذي يأتي طبيعياً ، أما اكتسب ففيها مفاعلة ، وهي على وزن افعل ، فعنها افتعال وتكلف .

لذلك يستعمل القرآن كسب في الخير واكتسب في الشر ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٢٨٦) [البقرة] لأن فعل الخير يأتي منك طبيعياً ، لا تكلف فيه ولا افتعال على خلاف الشر ، فيحتاج إلى محاولات وإلى حيل واحباط ونصص الخ

لذلك قبحا إن الطاعة لا تكلف الإنسان شيئاً ، أما المعصية فهي التي تكلف الكثير ، لأن الطاعة تأتي منك طبيعية ، أما المعصية

فتحتج إلى حيل واحتياط وافتعال

فإن قلت فما بال قوله تعالى في السيئة ﴿بلى من كسب سيئة
وأحاطت به خطيئته فأرسلنا أصحاب النار﴾ (٨) [البقرة]

يقول استنعم القرآن كسب مع السيئة لأنه يتحدث عن الذين
أسرفوا على أنفسهم ، وبلغوا في المعصية حتى أحبوها وعشقوها
بل ويتحدثون بها ويحاورون ، وحتى أن المعصية تأتي منهم
صبيعية كأنها طاعة ، ويفعلونها بلا افتعال ولا احتياط ، فهي في
حقهم كسب لا اكتساب ، وبعرضون بها كأنها مكسب فلا يؤثرون
أنفسهم ، ولا يلومونها ، ولا يندمون على معصيتهم .

والآية هنا بنفس هذا المعنى ﴿وَلَوْ يُزَاحِمُ الْإِنْسَانُ بِهِ
كَسْبًا﴾ (٤٥) [انظر] يعني عشقوا المعصية والظلم وهرحوا به كأنه
مكسب ثم يأتي جواب الشرط ﴿مَا تَرْكُ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ .
(٤٥)﴾ [انظر] معنى الدابة كل ما يدب على الأرض أي يمشي
عليها الهويًا ، لكن عشت الكلمة عنى ما ترك وحمل الأثقال
لذلك قال لعري لأحر لقد أعبسي شئ ودب نعي في شباك
وفي شيوخك ، وأنت تدب وتمشي الهويًا

لكن ، ما نسب الدواب تتحمل عاقبه ظلم الإنسان ؟ قالو لعلاق
هذا أن الدابة مخلوقة مُذَلَّة لخدمة الإنسان ورحته ، فمعنى هلاك
الدواب أن تمتنع راحة الإنسان ، وأن يمتنع المطر وتحدث لأرض
وعندها لا يجد الإنسان قوته لا من لحوم الدواب ولا من نبات
الأرض ، وفي هذا إلهان للإنسان الذي يرى وسائل حياته وأسياب
راحته تُسلب منه دون أن يفعل شيئاً ، ولا يفكر على شيء

وحسين متبج آيات القرآن نجد أنه تكلم عن هذا المعنى في
موصفين

الأول: في سورة النحل ﴿وَلَوْ يَؤُوحِدُ اللّهُ النّاسَ بظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا
مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١) ﴿[النحل]

والآخر: ما في فاطر ﴿وَلَوْ يَؤُوحِدُ اللّهُ النّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَنِ
ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ
بَصِيرًا﴾ (٤٥) ﴿[فاطر]

قد يرى البعض في الآيتين تكراراً ، وحاشا له أن يكون في كلامه
تكرار، فبأن تأملنا لوجدنا بينهما خلافاً ، يجعل لكل منهما معناها
الحاص فالأولى تتكلم عن ظلم الناس ، والآخرى عما اكتسبوه من
السيئات عامة وكل من اللغطين يعطيك لفظة جديدة لأننى قد أظلم ،
يكن أندم على ظلمى ، ولا أفرح به ، ولا أتمادى فيه ، أما إن صار عادةً
بى حتى عشقته ، فهو اكسأب وافعل بالمعنى الذى ذكرنا

الأولى تقول ﴿ما ترك على ظهرها﴾ (٤٥) ﴿[نصر] والآخرى ﴿ما ترك
عليها﴾ (٦١) ﴿[النحل] كذلك في تدويل الآيتين ، ففي الأولى يتحدث الحق
سيئاته عن الزمن والأجل الذى لا يتقدم ولا يتأخر وفي الآخرى
يتحدث عن الحراء ، وأن لله تعالى بصير بأعمال عباده ، لا يحصى
عليه منهم شيء إذن فالآيتان متكاملتان ، ليس فيهما تكرار أندأ

وصمير العاث في ﴿ما ترك على ظهرها﴾ (٤٥) ﴿[فاطر] و﴿ما ترك
عليها﴾ (٦١) ﴿[النحل] هذا الصمير متصل بالآية قبلها ﴿... وما كان الله
يُعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ (١٤١) ﴿[نصر] فالصمير يعود

على أقرب مذكور ، وهو الأرض ، ويفهم هذا المرجع أيضاً بالقربة العقلية ، لأن المعنى منصرف إليها

وهذه الآية لها معنا قصة وبحث صغار في كتاب الشيخ حسن رحمه الله وكان الشيخ يكلف العريف أن يُصحح لنا الألواح ، وفي هذا اليوم جلس الشيخ حسن يصحح لما بنفسه لكن في هذا اليوم لم أكنُ صححت اللوح (وطعنت حائض) وابتعدت الفكة ولمقرعة (تشتغل) لكن الشيخ قل لي - اسمع أنا سأعلمك كيف تقرا هذه الآية دون أن تخلصها بآية النحل ، لا تجمع الظواهر ولا السيبين معنى إن قلت (بظلمهم) فلا تقر (على ظهريها) وإن قلت (بما كسبوا) فلا تقر (لا يسأحرون ساعة) وهكذا كان شيخنا رحمه الله يعايش القرآن ويتعامل معه ، وصدق الله العظيم ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (٢٧)

وكان لي معه أيضاً - رحمة الله عليه - قصة أخرى ، ما زلت أذكرها في سورة الشورى ، وجلس الشيخ يُصحح لنا اللوح وكنا هربا ولم يصحح ، فلما جئنا أمام الشيخ قرأت (حم عسق) وقد مرت بنا حم وطه وغيرهما لكن لم يمر بنا مثل (عسق) فعزتها كما هي عسق فضربني الشيخ فقرأت أيضاً عسق فضربني ، وفي المرة الثالثة عرف أدنى لم أصحح اللوح على العريف ، فقال قل عين سين قاف ، فطلت ملازمة لي لا أنساها حتى الآن ، رحمه الله ورضي عنهم أجمعين

والمراد بالاحل في ﴿ فإذا جاء أحلهم ﴾ (٢٨) [ماخر] أي القيامة والعداب ، أو جاء أجل إنائهم بعداب يستأصلهم ، وعرفنا أن عذاب الاستئصال مثل الصيحة والرجفة والحسف الخ لا يدر إلا على

ناس من هداة القوم ، بحيث لم يسعدْ هناك أمل في هدايتهم ، كما جاء في قصة سيدنا نوح عليه السلام لما قال ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴾ [٢٠] إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَظْلُوا عَبْدَكَ وَلَا يلدُوا إِلَّا فاحر كهارا (٢٧) ﴿ [نوح]

لكن إن كان هناك أمل في أن يؤمن بعض القوم فلا يتذر بهم مثل هذا العذاب

أو يراد بالأجل هنا أجل الأمة ، كما قال سبحانه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [يوسف] فكل الأجمال ثلاثة أحسن للدنيا ومهايته قيام الساعة ، وأجل للشخص الواحد بانتهاء عمره ، وأجل للأمة كلها حين يأتيها عذاب عام يقضى عليهم جميعاً مرة واحدة

أو لكل أمة أجل تنتصر فيه ، وتغلب مع وجود المعاندين والكافرين ، كما حدث لسيدنا رسول الله ﷺ لما انتصر المسلمون في بدر ، فقد كان لأمة الظلم والكفر جل انتهى بالإسلام وقوة المسلمين ، مع أن الأمر كان مصحفاً من نور ، بحيث يغلب اليأس على الأمر

حتى أن سيدنا عمر - رضي الله عنه - يقول لما بدلت ﴿ سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ [٢٠] ﴿ [القمر] قال عمر أي جمع هذا ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا »

فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون ، قال صدق الله ﴿ سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ [٢١] ﴿ [القمر] فقد اشتدت شوكة الإسلام ، وقوى

(١) أورده ابن كثير في تفسيره وعراه لابن أبي حاتم (١٦٦/٤) عن عكرمة قال : لما بدلت ﴿ سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ [٢٠] ﴿ [القمر] قال عمر أي جمع يهزم أي أي جمع يهبط قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله شب في الدرع وهو يقول : سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ، فعرفت تأويلها يومئذ »

المسلمون ، وأدنت سولة الكفر بالزوال ، انتهى أجل الأمة الكافرة
نظامية ، وبدأ أهل الأمة المؤمنة .

بذلك حين ساءل قوله تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ﴾ (١) ولا
الظلمات ولا النور (٢) ولا الظل ولا الحرور (٣) وما يستوى الأحياء ولا
الأموات .. (٤) ﴿

[مطر]

بعد أربعة مقدمات ، الأولان منها مصدقان لحاله ﷺ مع أمته
قبل انتشار الإسلام في فترة علية الحاهلية على سيدنا رسول الله
وآتباعه في مكة ، فالأعمى أي الجاهل بالحكم والبصير العالم به
والظلمات يعنى الصلال والكفر ، والنور هو الإيمان ، لأنهم كانوا
عمياً فأراد الله أن يُبصرهم ، وكانوا في ظلمات الجهل والضلال
فأخرجهم الله منها إلى نور الإيمان

أما المتقالات الأحياء فيطبقان حاله ﷺ مع أمته بعد أن أرسى
الإسلام دعائمه ، وتمكّن من نفوس المؤمنين ﴿ ولا الظل ولا الحرور ﴾ (١)
وما يستوى الأحياء ولا الأموات (٢) ﴿ [مطر] فتراه مدّ بصفه الإيجاب فمع
يقول الحرور ولا الظل كما قلنا ﴿ الأعمى والبصير ﴾ (٣) ﴿ [مطر] لماذا ؟
لأن الحديث هنا عن أمة البصر وامة الإيمان ، فاسبب أن يبدأ التقابل
بصفة الخير التي تنسب هذه الأمة الجديدة

وفي هذا المعنى إشارة لطيفة إلى انتهاء أهل الحاهلية وظلماتها
وعماها ، وإيدان بندية أهل حديد لامة الإيمان الوليدة التي ستبصر
بواحة الإيمان بعد أن أحياهم الله بالإيمان وكانوا مواتاً بالكفر ، كما
قلنا سبحانه في آية أخرى ﴿ أو من كان منّا فأحييّه وجعلناه نورا يمشي به
في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . (١٢٢) ﴿

[الأنعام]

وسبق أن بينا الفرق بين ميت وميت ، الميت بالتشديد هو من يُؤول أمره إلى الموت وإن كان حياً ، ومن ذلك خطاب الحق سبحانه لرسوله ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر] يعنى سيؤول أمرك إلى الموت . أما ميت بالسكون فهو الذى مات بالفعل .

إذن نستطيع أن نقول ﴿فَإِذَا جَاءَ أَحْلَهُمُ﴾ [طهر] أى تنصرة الإيمان على الكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَصَادَهُمْ﴾ [طهر] كلمة عباد وعيد جمع لعد . ومع أنهما جمع لفرق واحد إلا أن معابهما مختلف ، لأن الإنسان العبد ملك سيده ، وما دام منك فهو مطيع لأوامره ، والإنسان المؤمن له اختيار ، فإله تعالى يخطئه وهو يصيح أن يعصى ، فى حين أن العبد لا يعصى سيده إن كان من البشر .

نعم قد يخاف أمر الله ، لكنه لا يخالف أمر سيده ، كقوله قالوا لأن الله تعالى هو الحليم الغفار ، أما لسيد من البشر فلا يحلو من جبروت ، أو طغيان ، أو استبداد وتسلط .

وفرق بين طاعة العبد وهو مختار أن يعصى وطاعته وهو منهور على الطاعة ، وسبق أن مثلنا لهذه المسألة عبيد سعيد وسعد ، سعيد شذ إلى سيده بسلسله لا يستطيع العكاز منها ، وسعد أطلق حراً لا يقيد شئ ، وحين ينادى السيد على أحدهما يأتيه ، فأيهما أطوع ؟ لا شك أن سعداً أطوع من سعيد ، لأنه يأتى سيده وهو قادر محبب الأمانى ، أما سعيد فلا يملك إلا أن يحيد ، لأنه لو عصى لجذبه السيد من السلسله .

كذلك الحق سبحانه خلق الخلق محتررين ، وورع لهم هذه القعدة ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ﴾ [الكهف] من شاء أطاع ، ومن شاء عصى ، وهذا تصرف العبيد مع سيدهم ، فإن قال العبد

يا رب أنت خلقتني ورزقتني وجعلت لي الحواشي ، وحفظتني محقراً
وأنا عند من عبيد ، لذلك أتنازل عن احتياري لاحتياك وعن
مرادى بمراك ، لقد اخترت هذا العبد أن يكون مقهوراً لرب مسحوراً
كما سُخِّرَت السماء والأرض .

وهؤلاء هم العباد ، وهم الصفوة من الخلق الذين اثروا مراد الله
على مراد أنفسهم ، بذلك تتحدث عنهم الحق سبحانه وبعطت صورة
لهم ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان] يعنى
متواضعين غير متكبرين ، وعلام التكبر ﴿ إِنَّكَ لَن تَعْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تُلْغِيَ
الْجِبَالَ طَوَلًا ﴾ [الإسراء]

﴿ وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٧) والذين يمشون لربهم سجداً وقياماً
(٦٨) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً (٦٩) إنها
ساعة مستقر ومقاماً (٧٠) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْرُوا وكاد بين ذلك
قواماً (٧١) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون نفساً أتى حرم الله إلا
بالحق ولا يرتدون ومن يفعل ذلك تلقى آثاماً (٧٢) [الفرقان]

هذه صفات ثمان ترسم لنا صورة كاملة لمن استحقوا أن يكونوا
عباد الله ، لذلك يحاطبهم ربهم في موضع آخر ﴿ قُلْ يَعِبَادِ اللَّهِ
اسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْرِ الدُّوْبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر]

ومن رحمة الله بعباده أن لحسنة تمحو السيئة ، كما يقال

(١) انعمام العذاب الدائم والهلاك الملازم [القاموس القويم بقرآن الكريم ٥٧، ٢] وقال
الرجاج هو أشد العذاب وأيضاً هو ما لا يُستطاع أن يُتفحص منه [لسان العرب
مادة نحر]

سبحانه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرِثَا^(١) مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهَا

بِرِّ وَأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا تَقْصُرَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مَحْوِ السَّيِّئَةِ ، إِنَّمَا تُدَلُّ السَّيِّئَةُ بَعْدَ التَّوْبَةِ حَسَنَةً ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَمِنْ وَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧)﴾ [الفرقان]

وَحَوْرٍ مَعْنَى (عِبَاد) وَ (عَبِيد) الَّذِي أَوْضَحْنَاهُ سَمِعْنَا مِنْ يَعْبُورُ وَيَقُولُ فِي الْقُرْآنِ مَا يَبَاقُضُ هَذَا الْمَعْنَى وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَوْقِفِ الْقِيَمَةِ يَحَاطِبُ الْكِبَرَاءَ وَالسَّادَةَ الَّذِينَ أَصْلَحُوا النَّاسَ وَرَبُّوْ لَهُمُ الْكِبَرُ ﴿أَأَنْتُمْ أَصْلَحْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ أَصْلَحُوا النَّسِيلَ (٧)﴾ [الفرقان]

وَنَقُولُ لَيْسَ بَيْنَ الْآيَاتِ تَعَارُضٌ كَمَا يَقُولُونَ ، لِأَنَّ الْحَدِيثَ هَذَا عَنْ الْآخِرَةِ ، وَلَيْسَ فِي الْآخِرَةِ اخْتِيَارٌ مَلَا فَرْقٌ بَيْنَ (عِبَاد) وَ (عِبْد) فِي الْآخِرَةِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)﴾ [الزمر] تَكَرَّرَ هَذَا صِفَةُ الْبَصَرِ ، لِأَنَّهَا أَقْوَى وَسَائِلُ الْعَمِّ وَالْإِدْرَاكِ ، فَلِلْعَلْمِ وَسَائِلُ مُنْعَدَّةِ تَكَرَّرَ أَحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ جَرَّحَكُمْ مِنْ بُطُونِ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَحَسَّ لَكُمْ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ لَعَنَكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النمل]

بِالسَّمْعِ أَوَّلُ وَسَائِلِ الْإِدْرَاكِ وَهُوَ أَوَّلُ حَارِجَةٍ تَتَنَبَّهُ وَتُؤَدِّي مَهْمَتَهَا فِي الْمَوْلُودِ ، بِسَلْبِ نَبْذِ تَصَوُّعٍ مَثَلًا أَصْبَحَتْ أَمَامَ عَيْنِهِ ، مَلَا تَطْرُقُ ، أَمَّا إِنْ صَرَخَتْ فِي أَدْنَى سَرَعٍ وَيَسْتَحْيِبُ لِلصَّوْتِ ، وَالسَّمْعُ كَذَلِكَ هُوَ الْحَاسَّةُ لَيْسَ لَا تَتَعَطَّلُ أَثْنَاءَ السَّرْعِ ، لِأَنَّ بِهَا يَتِمُّ الِاسْتِدْعَاءُ ،

(١) الرَّثَاةُ : الْخِطَابَةُ مِنَ الْبَلَاءِ وَجَمْعُهَا رِثَاةٌ قَالَ مُعَاوِيَةُ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرِثَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهَا تَابَ الْحَسَنَاتِ يَدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ دُكِّرَ لِلدُّكْرِ (١) ﴿[هود] أَيَّ أَوْقَاتًا وَسَاعَاتٍ مِنْ سَبِيلِ قِيلَ فِي أَوَّلِهِ وَقِيلَ فِي أَوَّلِ وَقْتِهِ [القاموس المصوب ١/٢٨٨]

والسمع هو الوسيلة الأولى في العلم و المعنويات ، وبه يستقبل الإنسان منهج الله

أما البصر وإن جاء في المرتبة الثانية إلا أنه أكرر من السمع وأقوى ، لأنك قد تسمع عن الشيء ، لكن لا تلتفت إليه فإن تحول من السمع إلى البصر فقد وصل إلى قمة الإدراك الذي لا شك فيه لذلك يقولون ليس مع لغير أبي والشيء الذي تسمع عنه قد يكون كاذباً ، أما الشيء الذي تنصره فإنه لا يكون إلا حقاً

لذلك ، فالحق - سبحانه وتعالى - حين يريد أن يؤكد له معلومة ، يقول سبحانه ﴿الْمُر (٢٦)﴾ [زمر] لأن لدى تراه العين هو الأكيد وأبو جعفر لما قال لمقاتل عطني يا مقاتل ، قار به أعطك بما سمعت ، أم بما رأيت ، بالله أجيئوا اسم بماذا ، قال عطني بما رأيت ، نعم لأنك قد تسمع كذباً ، أما إن رأيت بأعين فهو الحق



سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢

(يس) يصح أن تكون حروفاً مُقْطَعَةً مثل (لم) و (صه) ،
وبصح أن تكون حروفاً مُقْطَعَةً صادفتُ اسماً ، لذلك من أسمائه ﷺ
يس وطله ، ولا مابع أن يكون الاسم على حرفين ، بل على حرف
وحد مثل (ن) في قوله تعالى ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ ﴾ (١٠) [انقل] ،
وقد جُعِلَ علماً على سيدنا دى النور عليه أسلام ، كذلك (و) صح

-
- (١) سورة يس هي السورة رقم (٣٦) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٨٢ آية ،
برئت بعد سورة النحل ، وقبل سورة الفرقان ، فهي السورة رقم ٤٠ في ترتيب الدروس
وقد حكى القرطبي في تفسيره (٥٦٢٥/٨) الإجماع على أنها سورة مكينة ولكنه قال
« إلا أن فرقة قالت إن قوله تعالى ﴿ وَنُكْتِبُ مَا نُنَادِيهِمْ ﴾ (١٦) [يس] ذلت في
بني سبئة من الانصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ويسبقوا إلى جوار مسجد الرسول
ﷺ ، وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٥٦٦/٣) هذه الرواية عن أبي سعيد الخدري ولكنه
قال « فيه غرابة من حيث ذكر نون هذه الآية ، والسورة بكاملها مكينة ، فافهم أعلم
(٢) الدرس الحوت وروى النون لقب يوسف بن مثنى عليه السلام سجد الله ذا النون لأنه
حبسه في جوف الحوت الذي التقمه [لسان العرب - مادة نون] أما (ن) التي في
سورة القلم فقد ورد فيها لقول منها أنه الحوت وسبب أنه الدواة ينظر حكاية هذه
الاقوال في تفسير ابن كثير (٤٠٠/٤ ، ٤٠١/٤) ، ولكن قال الأزهري (ن والقلم)
لا يجوز فيه غير الهجاء ، إلا نرى أن كتاب المصحف كتبوه ن ، ولو أراد به الدواة
أو الحوت لكتب نون [لسان العرب - مادة نون]

علماً على الجبل لمعروف إن هذه حروف مُقَطَّعة يمكن أن تُنْقَر
إلى العَلَمِيَّة ، ويُسمَّى بها^(١)

وكثيراً ما تحدثنا عن الحروف المقطعة في أوائل السور ، وكلم
هز بها حروف مُقَطَّعة لا تُدَّ أنْ نتحدث عما تحتمله من المعاني
والذي يثبت في الدُّمْن ن الحرف له سم ومُسمًى اسم الحرف
لا يعرفه إلا المتعلم ، أما مُسمًى الحرف فيعرفه المسمع ويعرفه
الأمي ، الأمي مثلاً يعرف الفعل (أكل) ويقول أكلت لكن
لا يستطيع أن يتهجى حروفه ، لأنه لا يعرف إلا مُسمًى الحروف
أما المتعلم فيعرف اسم الحرف فقول ألف فتحة ، وكاف فتحة
ولام فتحة فكيف إن عرف محمد ﷺ أسماء هذه الحروف ونطق
بها وهو الأمي لذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، لجواب أنه
عَلِمَ وعَرَف من ربه عز وجل .

والقرآن جاء معجزة يتحدَّى القوم فيم بيعوا فيه والعرب كانوا
أهل فصاحة وبيان ، ريكفي أنهم كانوا يقيمون المعارض ولأسواق
للکلمة ، كما نعيم نحن الآن المعارض للصناعات المتميزة ، ومعروف
عند العرب سوق عكاظ وسوق المزد والمجنة .. الخ

وقد بلغ من اهتمامهم بالكلمة والأسلوب أن يعلقوا انقصائد

(١) ورد في تأويل قوله تعالى ﴿يٰس ١﴾ [يس] عدة أقوال -
هو اسم من أسماء محمد ﷺ قاله سعيد بن جبير ورواه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢٠﴾ [يس] بعدها

- معناه يا سيد البشر قال أبو بكر القرظي
معناه يا إنسان أراد محمداً ﷺ قاله ابن عباس
وهناك قول آخر ذكره القرطبي في تفسيره (٥٦٢٨ هـ) بالإضافة إلى ما سبق ونقله عن
الإمام مالك أن يس اسم من أسماء الله ، حتى أنه كان يكره التسمي باسم يس قال
بن العربي الذي يجوز التسمي به هو (يسين) بهذا التهجي والله أعلم

الشهيرة عندهم على الكعبة ، وسُمِّيت هذه اعصابت « المعلقات » ،
وهي أشهر ما عُرِفَ من الشعر الجاهلي
وَكَوْنُ القرن بتحداهم هذه شهادة لهم بالقوى ، فالصغير
لا يُتحدى بل القوى كما نرى الآن مثلاً في تحطيم الرقم انقياسي
في محال من المجالات .

وتحدّى القرآن للعرب هي العصاحة والبلاغة مثل تحدّى سيدنا
موسى للسحرة وتحدّى سيدنا عيسى للأطباء ، إذن هذه سنة
متبعة في جميع الأمم ينحداها الحق سبحانه بما تنفخوا فيه كذلك
القرآن الكريم جاء بلغة العرب وحروفهم وكلماتهم التي ينطقون بها ،
ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله ، ماذا مع أن مادة الكلام واحدة ؟
قالوا لأن المتكلم بالقرآن هو الحق سبحانه

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثل - والله المثل الأعلى - قلنا
بو أردت اختيار مجموعة من عمار النسيج أيهم أمهر لا يصح أن
تعطى أحدهم مثلاً حريراً ، وآخر قطناً ، وآخر صوفاً ، لأن المادة
الحام مختلفة ، إنما تعطى الجميع مادة واحدة ثم تنظر في نسيج
كل منهم ، كذلك القرآن ولغة العرب ، لمادة واحدة لكن المتكلم هنا
العرب ، والمتكلم هنا الحق سبحانه

وحين تتأمل حروف العربية تحذف ثمانية وعشرين حرفاً ،
والحروف المقصّعة في القرآن أربعة عشر ، فهي (س) نصف الحروف
العربية . والسفخر الرازي^(١) - رحمه الله - جدول مذهش ينظم هذه

(١) هو محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازي قرشي المصنّف ، أصله من طبرستان
ومولده في الرازي (٥٢٢ هـ) (طهران الآن) وإليه نسبت « إمام مفسر » أوجد رماته في
المعقول والمنقول وعلوم الأوائل . يقال له « ابن حطّيب الرازي » أقصد الناس على كتبه في
جانبه بتدريسونه . كان يحسن الفارسية . من تصانيفه : «فاتيح العيب » « محصر افكار
المتقدمين والمبشرين » توفي عام ٦٠٦ هـ عن ٦٢ عاماً [الأعلام للزركلي ٢١٢/٦]

أحرف ويوضح بها وضعت هكذا لحكمة ، ووُضعت بقدر وحساب ، هذه الحروف الأربعة عشر تقسم كما يلي

محموع حروف اللغة ثمانية وعشرون حرفاً التسعة الأولى بداية من الألف إلى ادال لم تأخذ الحروف المقطعة منها إلا حرفين الألف والحاء ، وركب منها سبعة أحرف أما التسعة الأخيرة ، وتبدأ من الفاء عقد أحدث منها لحروف المقطعة سبعة أحرف هي بقاء و لكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وركب منها انباء والواو ، فهي إذن على عكس التسعة الأولى ،

أما الحروف العشرة في الوسط والتي تبدأ من اراء وتنتهي بالغين قلها نسق آخر ، حيث أخذت الحروف المقطعة منها الأحرف غير المنقوطة ، وهي الراء والسين والصاد والطاء والغين ، وتركب منها الزاي والشين والصاد والطاء والغين

كذلك حين نأمل مثلاً حروف الحلق نجد الخاء في المجموعة الأولى لم تذكر في الحروف المقطعة وتكررت الغيم في المجموعة الأخيرة

وهكذا يرى أن هذه الحروف لم تُوضَع هكذا عشوائاً أو كما اتفق، إنما وُضعت بقدر ونظام له حكمة ووراء أسرار ، وُضعت بهدسة مقصودة ألدات فهي مثل سائر المفاتيح ، والله سبحانه وتعالى يفتح بها لمن يشاء ، ومن حكمته تعالى أنه لم يعط كل أسرار هذه الحروف لحين من الأجيال ، إنما ورع عطاءها على مرّ الأرمس بحيث لا يستقبل حيل من الاحمال كلام الله بلا عطاء ، وليضل انقرأ دوراً يضيء جذبات الدنيا إلى قيام الساعة ، لذلك يقول سبحانه ﴿سِرِّهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ﴾ (٥٣) [فصل]

هذه السنين لدالة على الاستقبال نطق بها سيدت رسول الله ﷺ وقال ﴿سُرِيهِمْ﴾ [قصت] وظهرت في عهده أسرار ، ويطق بها من بعده من الأجيال المتعقبه وظهرت بها أسرار وسنظل نطق بها ونسحلي ب أسرارها إلى قيام الساعة ، وإلى أن تظهر الآية لكبرى وهي القيامة إذن فعطاء القرآن عطاء مستمر لا ينقطع أبداً

لذلك لم تناقشنا مع بعض المستشرقين في سار فرانسيسكو حول موضوع المخترعين والمكتشفين الذين خدموا البشرية وأسعدوها باختراعاتهم واكتشافاتهم قار أحدهم عجبا للمسلمين ، لماذا لا يدخل هؤلاء المكتشفون الذين أسعدوا البشرية الجنة ؟ فأوضحنا له أنهم نعم خدموا البشرية ، لكن لم يكر الله في بالهم حين اكتشفوا ما اكتشفوا ، بل كان في بالهم الشهرة والمجد والدكر بين الناس ، وقد نالوا ما يريدون فحَدَّثنا دكرهم وأقمنا لهم اسمائهم الخ فيطبق عليهم الحديث « عمل ليقل وقد قيل ،

إس هؤلاء اصحاء الذين خدموا لبشرية وأسعدوها وهم غير مؤمنين بالله ما هم إلا حدم سحرهم الله لخدمة البشر ، فهم كالشمس والقمر وغيرهما ، سحرهما الله للإنسان لغائده ولمنفعته ما هم إلا حدم من جنود الله يخدمون هذا الحرف في ﴿سُرِيهِمْ﴾ [قصت] لبطل يعطى على مر الأزمان ، وفي كل المستقبل

هؤلاء العلماء غير المؤمنين بالله منكم كمثل خادم عندك قلت له احمل هذا الحجر مثلاً ، فقال لك إنه ثقيل على لا أقوى على حمله ، فإن قلت له اسع عن بمن يحمله معك ربما قال لك لا أحد ، لكن إن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٤) ، وأحمد في مسنده (٣٧٢/٢) ، والبيهقي في سننه

(٦ ٢٢ ، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

قُلْتُ لَهُ أَحْمَلُهُ رَسُولٌ تَجِدُ تَحْتَهُ كَنْزًا هُوَ لَكَ فَإِنَّهُ سَيَحْمَلُهُ وَحْدَهُ ،
فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَحْمَلُهُ إِحْرَامًا لِأَمْرِكَ ؟ أَمْ حَمَلُهُ طَمَعًا فِي الْكَثْرِ ؟

كَذَلِكَ لَمَّا تَقَدَّمَ الْعُلُومُ أَكْثَشَفُوا أَنَّ الْخَمْرَ تَصْرُّ بِالْكَدِّ ، فَأَقْبَعَ
كَثِيرُونَ عَنْ شَرِبِهَا مُحَافَظَةً صَرَرَهَا ، وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْعِلَّةَ ، أَمَّا إِيْمُؤْمِنُ
فَعَقَلَ عَنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ، يَقْلَعُ عَنْهَا لِأَنَّ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
نَهَاهُ عَنْ شَرِبِهَا فَيَنْتَهِي ثِقَةً بِهِ فِي حِكْمَةِ رَبِّهِ ، وَاحْتِرَامًا لِأَمْرِهِ ،
وَلَوْ لَمْ يَعْرِفِ الْعِلَّةَ ،

وَلِأَنَّ سُورَةَ يُونُسَ ، ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا قَلَبَ الْقُرْآنَ ، فَيُحِبُّ أَنْ
يَسْتَهْلَ الْإِسْتِعَادَةَ وَالتَّسْمِيَةَ قَبْلَهَا ، كَمَا اسْتَهْلَكْنَاهَا فِي السُّورِ قَبْلَهَا ،
فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ الَّذِي أَمَرَ الْقُرْآنَ مَعْمُورَةً وَكُتَابَ هِدَايَةٍ عَلَى سَيِّدِنَا
رَسُولِ اللَّهِ لِيُصَحِّحَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَرَكَةَ حَيَاتِهِمْ قَالَ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [البقره]

وَقَدْ سَابَقًا إِنْ عِلَّةَ هَذَا الْأَمْرِ مِنَ الْأَعْلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ حَيِيمًا
عَصَى رَبَّهُ فِي السَّجُودِ لِآدَمَ ، وَحَدَّثَ الْخَوَارِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ قَالَ
﴿لَا تُغْوِيهِمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] بِعَنْيَ حَتَّى لَا يَتَمَيِّزَ آدَمَ وَبَنُوهُ عَنْيَ فِي
الْمَعْصِيَةِ ﴿إِلَّا عِبَادَتُهُمْ الْمُحْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] فَقَوْلُهُ ﴿لَا تُغْوِيهِمْ
أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] أَيْ فِي أَنْ يَسْلُكُوا طَرِيقًا غَيْرَ الطَّرِيقِ الَّذِي رَسَمَهُ
اللَّهُ لَهُمْ ، وَالطَّرِيقُ الَّذِي رَسَمَهُ اللَّهُ لَهُمْ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي
قَالَ فِيهِ ﴿لَا تُقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١١)﴾ [الأعراف]

نَعَمْ ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَأْتِي الْخَمَارَةَ وَلَا أَسْكَرَ الْقَمَارِ وَالْمَعْصِيَةِ ،
إِنَّمَا يَتَعَرَّضُ لِأَهْلِ الطَّاعَاتِ لِيُفْسِدَ عَلَيْهِمْ طَاعَتَهُمْ ، الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ

(١) عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : يَسَّ قَلْبُ الْقُرْآنِ لَا يَقْرُؤُهَا رَجُلٌ بَرَّهَ اللَّهَ
مَلَكَهُ وَتَعَالَى وَالنَّارُ الْآخِرَةُ إِلَّا غَفَرَ لَهُ ، وَاقْرَؤُهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ ، أَجْرُهُ أَهْمٌ فِي مَسْجِدِهِ

هنا هو منهج الله الذي وضعه لإسعاد البشرية فإليس بدن أن
يبتظر إلى أن تنفذ منهج الله في حركه لجوارح طاعة ومعصية يأتي
بلاسس اندي تأخذ عنه تلك الجوارح منهج لحركة ، فإذا قرأت
القرآن جاء يفسد عليك القراءة

لذلك يُعلمك رب عز وحر الاستعادة ، أولاً لتقطع على
الشيطان هذا السبيل ، لأنه لن ينطرك حتى يقرأ ، وحتى تأتي بثمرة
هذه القراءة في حركة الحياة ، بل يأتي إلى القرآن نفسه ويفسده
عليك من لداية ، فإن أردت أن تنتصر عليه فاستعد بالله منه .

وحين تستعيز بالله فإنك تلجأ إلى ركن قوى ودرع واق
لا ينفذ إليك منه شيء من وسوسة الشيطان وهمره ونغمه لئلا
كان الشيطان واعياً حين قال ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٢) [ص]
فهم الذين يحتمون به في حمى ربهم وخالفهم .

أم فوله تعالى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فالحو سبحانه خلق
لإنسان وحله سيد هذا الكور ، وسحر له كل شيء ، ومما سحر
به سحر أعبائه لإرادته ، فسحر مثلاً لسانه لإرادته ، فإن كن
مؤمناً في الله واحد وإن كن غير ذلك قال الله ثالث ثلاثة ،
كذلك سحر به العين تنظر إلى ما أحل وإلى ما حرم كذلك الرجل ،
فكل حوارحك سحرها لله بك إن أردت منها طاعة أطعت ، وإن أردت
منها معصية عصت ، فالإرادة هي التي تملئ ما يريد ، والحوارح
لا تملك إلا أن تنفذ طاعة أو معصية لأنها مسخرة

وسبق أن مكنا لذلك بالفائد الأعلى للحش حين يرسل مثلاً القائد
الأدنى على رأس كتية هي مهمة ما ، فعلى الكتيبة أن تطيع مر هذا
لقائد المباشر طاعة عمياء حتى لو كانت هذه الأوامر هي غير

صالحهم ، وليس لهم أن يعترضوا عليه حتى إذا ما عادوا إلى القائد لأعلى اشتكوا له ما كان من قئدهم المباشر ، كذلك طاعة الجوارح لإرادة الإنسان في الدنيا .

أما في الآخرة فسوف تُسلَب منه هذه القيادة بحوارجه ، وسوف يشهد هذه الحوارح على صاحبها أمام الحق الأعلى سبحانه في الآخرة لا سلطان لأحد إلا الله

﴿ لَمِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٦٦)

[عشر]

وقال سبحانه ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٠)

[الحود]

وقال ﴿ وَقَالُوا بَحُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا هَآلُوا أَطَقْنَا اللَّهُ أَلْدَى أَطَقَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ (٧١)

[فصلت]

فإذا كنت تريد عملاً من الأعمال ، هذا العمل يتطلب منك أولاً طاقة عقلية فكرية تحطم له ، ثم يتطلب قوة في الحوارح تتفجر ، من الذي خلق لك العقل المفكر ، ومن الذي أمدَّ حورجك بالقوة والطاقة العاعلة ، أهى تأتمر لك وتفعل مطوبك بقوة دابيه فيك ، أم بتقدير الله لها ؟

إن عليك أن تُقبل على كل فعل ، فكراً وتحصيلاً وتنفيذاً وعملاً بقولك بسم الله ، وحين تقولها فكأنك تقول لحوارح أنا لا أطلب منك يقوتى ، ولكن من بطى قود بسم الله ، فبسم الله أفعل لا بى

بدليل أن الله تعالى إن أراد سلب الإنسان ذاتية الحركة ودنية الصاقه والفكر فتشَلَّ الحوارح ويُشَلَّ التفكير ، من أقبل على كل أعمالك بسم الله الذى يعينك عليها

ثم أنت في الأعمال تحتاج إلى حكمة ، وإلى قدرة ، وإلى علم
الحق . فمن الجامع بكل هذه الصفات ؟ إنه الله . إذن فقرأ باسم الله
الجامع لصفات الكمال كله الممّا خلقه بها ، فهو سبحانه العالم الذي
يمدك بالعلم ، الفاعل الذي يمدك بالقدرة الحكيم الذي يمدك
بالحكمة ، العزيز الذي يمدك بالعزة ، العفو الذي يمدك بالقهر . له

السمي اسم القاضي بقول عندما يجلس لحكم باسم الشعب
يعنى هو لا يحكم بذاته ، إنما يحكم بقوة الشعب . كذلك المومن
يقول بسم الله عند كل عمل يعنى أيتها الجوارح ، أطيعي من ياطق
طاعتك الله .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بقوله ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١) .
[الباحة] لأن الحق سبحانه خلق الخلق محذرين فكان منهم المؤمن
والكافر والطائع والعاصي ، وربهم عقل الإنسان عن منهج الله
مصدرت منه صفات بل وكنائز ، فكيف يقبل على عمله بسم الله ؟
وكيف يستعين به سبحانه وقد عصاه ؟

لذلك يقول له ربه عز وجل لا تسبح أن تقول بسم الله . لأنني
رحمن رحيم ، اعقر بك وأبحاور عما كان منك ، ولن أحتلي عك ،
إذن تشجع ولا تترك الاستعانة باسمي مهما كان منك من ذنوب ،
واعتمد في ذاك على أنني رحمن رحيم

وفد روى أن الأصمعي سمع رجلاً يقول - وهو يصرف

(١) الأصمعي هو عبد الملك بن قُريب الباهلي أبو سعيد ، راويه العرب وأحد شُبه النعم باللغة
والشعر والبيان . ضبطه إلى جده أصمعي ، ولد بالمصره عام ١٢٢ هـ . كان كثير الخطوات
في البوادي . أمبارك كثيرة جداً ، كسب أكثر العلوم لفقة وعلمهم بالشمس ، له « الأصداد »
« خلق الإنسان » ، « الإبل » توفي بالمصره عام ٢١٦ هـ . عن ٩٤ عاماً [الاعلام للوركل]

بإكعبية اللهم إني عاصيك وأسبحي أن أطلب منك ، لكن أطلب ممن وليس في الكون إلا أنت ، فقال له الأصمعي يا هذا ، إن ربك قد أجابك لحسن مسألتك له .

والحق سبحانه وتعالى حين يُعَدُّ نعمه على عباده بقور ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا (٣٠) ﴾ [إبراهيم] نعم ، لأن عبد الشيء مظنة إحصائه ، ومع تقنُّم العلوم وتخصُّص جامعات ومعاهد للإحصاء لم يُقبل أحد على عدِّ نعم الله لأنها لا تُعدُّ ، بل النعمة الواحدة مطمور فيها ما لا يُحصى من النعم ؛ لذلك لم يقل سبحانه وإن تعدوا نعم الله ، بل نعمة الله فالنعمة الواحدة مستور فيها ما لا تُدرِك من النعم

ونلاحظ من هذه الآية أنها وردت في موضعين ، لكن لكل منهما تذييل واحدة ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ نَطُومٌ كَهَآءَ (٣١) ﴾ [إبراهيم] و الأخرى ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ اللَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) ﴾ [الحجر]

وكان الحق سبحانه يقول لنا أنت أيها الإنسان المضعف عليه مع ما تُقَابِل به نعم الله من الطم وكفران النعمة ، فربك المضعف سبحانه يقابل ظلمك وكفرك لنعمه باستدامة النعم ، لأنه عفور ورحيم وللعلماء أقوال في (يس) قاسوا الياء للنداء و (س) من أسماؤه ﷺ ، لأن عادة العرب أن تحذف بعض حروف الكلمة ، وتبقى على الحرف المميز قوى الجرس ، فمثلاً كلمة إسسا ، السير أقوى حرف فيها ، لذلك ورد قول النبي ﷺ « كفى بالسيف ش » والمراد شاهداً

(١) عن سلمة بن المصحب قال قيل لأبي سنان سعد بن عبيدة ، حين برزت آية الحدود وكان رجلاً عيوراً أرايت لو أنك وجدت مع امرأتك رجلاً أبي عبي ، كنت تصبع ؟ قال كنت صاربه بالسيف أنظر حتى أجىء بأربعة ، إلى ما ذاك قد قضى حاجته وذهب أو أقول أرايت كذا وكذا فتصربوني الحد ولا تقبل لي شهادة أبداً قال فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال « كفى بالسيف شهيداً » أخرجه ابن حبان في سننه (٦ ٢٦) وأبو داود في سننه (٤١١٧) وتصح الحديث « ثم قال لا ، لا ، أخاف أن يتدفع فيهما السكرا والغيران »

ومن ذلك قول الشاعر

أفاطمُ مهلاً بعضُ هـَا التَّدُلُّ وإنْ كنتُ قدْ أزمَعْتُ صرْمِي فأَجْمَلِي^(١)

والمراد فاطمة

ونحن في حديثنا اليرمي نحتصر بعض الحروف ، فحين ننادي مثلاً يا 'حمد ، بعضنا لا ينطق الدال وخاصة في لهجة الدماطة إس حذف بعض الحروف وإبقاء بعضها مما له جرس قوي أمر وارد في لغة العرب

وقال آخرون س اسمه ﷺ (يس) وحذفت ياء النداء واخطأ لمحمد ﷺ

الحق سبحانه وتعني عَم الإنسان الأسماء كلها ، يعني عَم الكلمة المطلوبة له في الخطاب ، وبعد ذلك ساعة يتكلم الإنسان ويتحاطب يتواضع ويصصح على أسماء أخرى ، فالإنسان مثلاً إذا عرف (التليزيون) ويتعارف على هذا الاسم فهل علم الله آدم اسم (التليزيون) لا بما اصطحب عليه الإنسان بما علمه الله

بالمعنى ﴿ وَعَلَّمَ دَمِ الْأَسْمَاءِ كُلَّهَا ﴾ (٢٦) ﴿ استقره ﴾ أى الصالحة لتخاطبه الآن في البيئة البدائية ، وعليه هو أن يُنمى لغته فيضع لهذا الشيء اسم كذا ، وهذا اسم كذا ،

ونحن نعرف أن الحروف قسمان القسم الأول حروف مَنى يعني مهمتها بناء الكلمة ، دون أن يكون لها معنى غير ذلك ، كما نقول مثلاً كتب ، فالكاف والتاء والياء حروف بُنى منها هذه الكلمة

(١) هو من قصيدة لأمراء القيس من بحر الطويل عدد أبياتها ٧٧ بيتاً ، وهي معلقة الشهيرة التي أوتها نفا نند من ذكرى صبيب ومزل والصرم الطم والمطيمه ومعنى الست يا فاطمة دعى بعض دلالك ، وإن كنت وطئت نفسك على فراقى فأجملنى في الهجرى

دور أن تعطى معنى آخر يادُهُ على معنى هذا الفعل الذى كَوْنَتْهُ الحروف

القسم الثانى حروف معنى ، وهى أن يكون للحرف معنى يدر عليه بداته كما نقول كَتَبْتُ فهذه لثناء الأخيرة بحمل معنى آخر غير معنى الكتابة ، لأنها تدل على الفاعل المتكلم فإن جاءت مفتوحة دَلَّتْ على الفاعل المخاطب وإن جاءت مكسورة دَلَّتْ على المؤنث وهكذا وَقُلْنَا إن اسم الحرف قد يصادف علماً على شيء ، فالسين مثلاً اسم نهر معروف ، والعين حرف معجم لكن سُمِّيَ به أشياء كثيرة لعين البصرة ، وعين لماء ، والعين بمعنى الحاسوس واعين للنفس من المال من الذهب أو الفضة

وقوله سبحانه ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ (١٢) [يس] هذه ألوه نسعى واو القسم مما دخلت عليه كاليمين ، لكن هل المصائب التى يريد بها المتكلم من المخاطب تأتى بالقسم أم بالدليل ؟ تأتى بالدليل ، وقد يأتى اليمين فيه ابدالة على الغرض المراد فمثلاً يقول بك صاحبت يا أحمى أنت لم تُقَدِّرْنى ، لاسى مررت بأرمه فلم تقف بحانئى فتقول له وحياة الشيت الذى كتبتك لك يوم كذا ، وحياة الهدية التى أخذتها يوم كذا ، فتحلف له بالدليل على صدقك

كذلك ها الحق تبارك وتعالى يقول لىه ﷺ أنت مرس وأنا أحلف بالقرآن لأنه دليل على أنك رسول صادق

كلمة قرآن مصدر لقرأ نقول قرأت قرأه وقرأنا ، ولا تد أن الربعة هى المعنى ندل على الريادة هى المعنى ، فقلنا قرأنا ليعرق بين قراءة القرآن وقراءة غيره ، وهى أيضاً تدل على أنه كتاب مقروء ، ومرة أخرى يسميه اكتاب لأنه مكتوب فانقرآن إذن مقروء من الصدور ، مكتوب فى اسطور

ومرة أخرى بسميه الذُكْر ، لأنه يُدْكَر بعهد الفطره الاولى الى

فإن الله فيها ﴿وَإِذْ أَحَدُ رُكَّ مِ بِي اَدَمِ مِ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَاشْهَدَهُمْ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ
هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) ﴿[الاعراف]

وهذا للتذكير بالعهد الأول يُعَدُّ رحمة من الله بنا ومن رحمة
الله بنا أن تُذَكَّرَ بِإِذَا سَيِّئًا أَوْ عَظِيمًا ، عَمِدَ أَنْ خَلَقَ آدَمَ وَإِلَى لَان ،
الحق تبارك وتعالى - يُذَكِّرُ عِبَادَهُ ، فَكَمَا نُقِّرُ الْوَالِدَ وَبِهِ حَرَكَةُ
الْحَيَاةِ يُلَقِّنُهُ أَوَّلًا حَرَكَةَ هَذَا الدِّينِ ، وَلَا يَدَّ أَنْ يَسْتَمِرَّ هَذَا التَّلَفُّينَ وَهَذَا
التَّذْكِيرَ ، وَنُتَّ بِتَوَالِي مِنْ حَيْرٍ إِلَى حَيْرٍ لَّأَنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ فِيهِ عَمَلٌ
وَفِيهِ نِسْيَانٌ ، وَتَحْدِثُ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ .

لذلك الدين قالوا ﴿إِنَّا وَحَدَّثْنَا أَبَاءَنَا عَنِ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ
(٢٢)﴾ [الرحمة] كَانِيُونَ فِي هَذَا اِقْوَلْ لَّأَنَّ آدَمَ وَأُمَّتَهُ فِي الْبَدَايَةِ كَانُوا
عَلَى مَنَى ، فَلَمَّا ذَا لَمْ تَتَّبِعُوهُمْ ، إِذَنْ أَنْتُمْ اتَّبَعْتُمْ الْآيَاءَ الضَّالِّينَ
لَا الْمُهْتَدِينَ

كذلك حين تتأمل مسألة جمع لقراءتِ أحد أن الذين جمعوا القرآن
كانه يُنَحَرُّونَ عَلَى الْآيَةِ قَبْلَ سَجْدَتِهَا أَنْ تَكُونَ مَكْتُوبَةً أَوَّلًا فِي
قُرْطَاسٍ أَوْ عَلَى الرِّقَاعِ وَالْعِظَامِ بَتَّى سُحِّلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ أَوَّلًا ، ثُمَّ
يَشْهَدُ عَلَى صِحَّتِهَا اثْنَانِ مِنْ اِقْرَاءِ ، لَمَّا ذَا ؟

قالوا : لَإِنَّ الْقُرْطَاسَ لَا هَوَىَّ بِهِ ، فَيُغَيِّرُ مَا كُتِبَ فِيهِ ، أَمَّا
الْإِنْسَانُ الْحَافِظُ فَهُوَ عُزْضَةٌ لِلْخَطَا وَالنِّسْيَانِ وَالْعَقْلُ ، هَلَا يَدَّ أَنْ
يَكُونَ مَعَهُ آخَرُ مُذَكَّرِهِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى﴾ (٢٨٦) ﴿[البقرة]

والقرآن وصفه الله بالحكمة ، وَهُوَ وَضَعَ الشَّرْءَ فِي مَوْضِعِهِ
الْحَقِّ لِیُؤَدِّيَ مَهْمَتَهُ ، وَكُلُّ الْمَعَانِي الدِّينِيَّةِ مَأْخُودَةٌ مِنْ مُحَسِّنَاتِ قَبْلِ
الدِّينِ ، فَهَمَلًا الْفَرَسَ يَرْكَبُهُ الْإِنْسَانُ لِنُوصِلَهُ إِلَى مَرَادَاتِهِ ، فَإِنْ كَانَ

مراكب من ركوب الفرس المبررة بين الحقول سار بك سيراً طيئاً
كسائر الحظور مثلاً وإن أردت به قطع المسافة حرى بك كالربيع
لذلك جعلوا للحصار لحاماً يُوضع في حفكه ليكبج سرعته ،
ويحكم فيه ، هذا اللحام يُسمى بالحكمة ، وعندها الحكمة التي تكبح
حمام الأهواء كي لا تشتد وتضع المسائل في موضعها ، فالإنسان
له هوى يميل به ، ويصرف بحركته عن الحادة ، فيأتي القرآن بالحق
الواضح الذي يقوم هذا الميل ويُصلحه ، والقرآن في الحقيقة حكيم ،
لأنه محكم من الحكيم الأعلى سبحانه إدر فالقرآن كلام من
الحكيم ، وهو بالنسبة للإنسان كالحكمة للفرس

وحكمة القرآن احتصر بأشياء ، فتناول القرآن لا يكون كتناور
غيره من الكتب ، فالكتاب العادي أتناوله في أي وقت وعلى أي حال
كنت جنباً أو مُحدثاً أم القرآن فلا يمسه إلا طاهر^(٧٧) لأنك مع
القرآن تُقبل على مقدس له خصوصية ، فباياد أن تتناوله وأنت غير
طاهر ، كما قال الحق سبحانه^(٧٨) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ
(٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

(١) حكمه اللجام ما أحاط بصنكى الدابة ، فهي تأخذ بفهم الدابة والحكمة حسيده في النجم
تكون على أنف الفرس وحكمة يصفه عن مخالفته راكبه وفي الحديث : « ما من آدمي إلا
في رأسه حكمة » وفي رواية : في رأس كل عبد حكمة إذا هم بسنة ، عن شاء الله تعالى
ي يقنعه بها قنعه [لسان العرب - مادة حكم]

(٢) اتفق الأئمة ولم يخالف أحد من الصحابة نبي ذلك على حرمة من المصحف وحمله
بالنسية للجيب أما المحدث حدثاً أصغر فقد ذهب ابن عباس والشعبي والمصالح ويريد من
على وابن حزم وغيرهم إلى أنه يجوز لمصنف حديثاً أصغر من المصحف ، وأما القردة به
بدون من قبلي جائزه اتفاقاً [قاله الشيخ سيد سابق في فقه السنة ٤٢/١ وما بعدهما]

(٣) في هذه الآية قولان
الأول : المطهرون هنا هم الملائكة قاله ابن عباس وأبو سعيد ومجاهد وسعيد بن
جبير وغيرهم فعلى هذا القول فالآية لا تخص قراءة القرآن على وضوء أو غير وضوء
الثاني : أن المطهرون من الجناية والحدث والمراد بالقرآن هنا هو المصحف وقد أخرج
الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : « لا يمسن القرآن إلا طاهر »

فالحق سبحانه جعل لك هذه الضوابط انفسية تعرف أنك مُقبل على كتاب له تميز عن سائر الكتب الأخرى .

كذلك للقرآن خصوصية في حروبه ، فالحروف هي التي تُكوّن الكلمات ، فهي عبارة عن ببرات صوتية ، لكل منها منطقة في أعضاء الكلام ، فمثلاً حروف بحرج من الجوف والصدر هي

هَمْزٌ فَهَاءٌ ثُمَّ عَيْنٌ حَاءٌ مُهْمَلَتَانِ ثُمَّ غَيْنٌ فَاءٌ

هنا خرجنا من منطقة الجوف نحدد الحروف اللسانية التي تُنطق من اللسان بداية من (يغلوغه) ثم وسطه ثم طرفه فالقاف مثلاً بحرج من أقصى اللسان ، والشين واجيم من وسطه واصاد وللام والراء من طرفه ، كذلك هناك حروف تصرّح من الشفّة ، كالفاء من باطن الشفّة السفلى ، ولباء من باطن الشفتين معاً ، كذلك الواو يشترط في نطقها لشفتان

ولكى نقرأ القرآن قراءة صحيحة لا بُدَّ أنْ نترجم بهذه امصحاح الصوتية على خلاف قراءة أى كتاب آخر ، فلا يُشترط له هذا الشرط بدت بقول إن كمال القرآن لا يتعدى ما دام له طريقة معينة وبعمة مصبوبة ، فلا بُدَّ أن تُراعى .

فمثلاً لو أنت تتكلم في خطبة عادية تقول أيها اسادة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، لقد استدعاني فلان لالتقى به في مكان كذا لو نطق هذا الكلام بنغمة القرآن وطريقته كان شيئاً غير مقبول (بايح) أمّا إن كان هذا النغم في القرآن ، فإنه يأتي حميلاً متنسقاً .

إن كمال القرآن لا يُتعدى حتى في نطقه ، لأن هذا شيء مُختص به وحده دون غيره من الكلام ، فإن عُدَّت خصائص القرآن إلى غيره من الكلام جاء سخيفاً مردوداً لا يُقبل .

أذكر ونحس صغر أنهم كانوا يصحوننا بقراءة كتب الادب مثل

كتب المصنوعى مثل « العبرات » أو « انطرات » لتعلم الأسلوب الحميدى فى كتابة الاشياء ، وبالفعل كان أسلوبها يتحسن ويدرسى بقراءة كتب الأدب ، ونكتسب منها تعبيرات جديدة ، فإن جئت إلى حافظ القرآن الذى جوده على لقراءات العشر أو الأربعة عشر وقرأت له كلمة أو مقالا ، فإنك تجد أسلوبه لا يتأثر باقراء لمادا ؟ لأن كمال أسلوب القرآن لا يتعدى

أذن نفهم ر حكمة القرآن جاءت من هذه الخصوصية فى حروفه حكمة ، وفى كلماته حكمة ، وفى نطقه ، وترتيبه ، وفى أسلوبه الذى لا يمارى ولا ينقل إلى غيره
ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

هذا هو جواب القسم ، الحق سبحانه يرد على كفار مكة ، ويقسم لهم إنك يا محمد لمن المرسلين ، والمتكلم حين يرى المحاطب خالى الذهن عن الأمر الذى يتحدث فيه يلقى به الكلام سريعا بدون تأكيد فإن كان شاكا فى الكلام أو منكرا له أكد المتكلم كلامه بمؤكد يناسب الشك أو الإنكار ،

لذلك الحق سبحانه يؤكد هنا كلامه بأكثر من مؤكد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) [يسر] فاستخدم التأكيد بل واللام ، وقبل ذلك القسم : لأن الكفار منكرون لرسالته ﷺ ، وعلى قدر الإنكار يكون تأكيد الكلام

وتأمل فى ذلك قوله تعالى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ (١١) [يسر] وكانت النتيجة لإنكار ﴿قَالُوا مَا

أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلُ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْدُبُونَ (٥) ﴿[س]

لسدائك يؤكدون كلامهم بأكثر من مؤكد ﴿فَالْوَا رَبَّنَا يَعْلَمُ بِمَا يُلْكُمُ

لَمْ يُسَلِّوْا (١٦)﴾ ﴿[يس]

وقلت إن هذه الآية جاءت دليلاً وبرهاناً في صورة اليمين ، كان
الله يقول الذي يقرأ القرآن لا بُدَّ أَنْ يَزْمِنَ بَأْتِكَ يَا مُحَمَّدُ مُرْسَلٌ مِنْ
الله ، لماذا ، لأنهم أمة كلام وتسوق ، وما وُحِدَتْ مة من الأمم حتى
المعاصرة تقيم معارض للكلمة ما لعرب في حاشيتهم فقد أقاموا
للکلمة أسواقاً ومعارض يتنارى فيها الخطباء والشعراء كل عام في
المربد وعكاظ ودي المحنة^(١) وعبرها .

وفد بلغ همامهم بالكلمة ان يعلقوا أروع قصصهم على أسس
الكعبه وما دام العرب أمة كلام ، إن كان عليهم ان يستقبلوا
القرآن بهذه الملكة ، أولاً بحفى عليهم إعجازه بكنهم كذبوه وقالوا
سحر وعلوا شعر وقالوا افتراء فلما أعتهم الحبر ودم نبأوا
من ذلك شيئاً قالوا ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيسِ عَظِيمٍ
(٣)﴾ ﴿[الرحمن] يعني القرآن لا غبار عليه إلا أنه نزل على محمد ،
هذه آفته عندهم ، لأن ملكتهم البلاغة لا تصح أن تقف أمام القرآن
أو تكذبه

لذلك كنوا حتى وهم على كفرهم يحبون سماع القرآن ، يتحفى
الواحد منهم ، ويذهب يتسمع القرآن من رسول الله ليلاً وربما

(١) قال أبو بكر الأردى فيما ذكره العمرونى في كتابه : الأرمه والامكة ، يلب أسواق
العرب ، أسواق العرب الكثره كانت في الجاهلية ثلاث عشرة سوقاً ، فاولها قريظا
سوى دومة الجندل ، ثم صغار ، ثم دبا ، ثم قنصر ، ثم رابية حصرموت ، ثم دوا
المجار ، ثم بطة حبير ، ثم المشفر ، ثم حجر بالعامه ، ثم مبي ، ثم عكاظ ، ثم عدى ،
ثم صنعاء .

تقاير لاثنر منهم عند حجات رسول الله ، فسأل أحدهم الآخر
ماذا أتى بك إسي هنا يا فلان ، فلا يملك إلا أن يقول جئت لزيارة
حالتى المريضة ، والآخر يقول جئت لكدا وكذا ، يكن هيهات محله
يُغنى عن مقاله^(١)

لذلك تأمل قول الشاعر فى هذه المسألة

انظروهم وقد تسئل كلُّ بعدما أفضى مجلس السُّر
اختلاساً يَسعى لحجرة طه لسماع التنزيل فى الأسحار
اعذروهم حسنه فلما تراءوا عللواها بفساد الأعذار
بذلك كان الواحد منهم حينئذ يسمع القرآن من رسول الله ويعود
إسي قومه ، فيقولون لقد رجع فلان بغير أبوجه الذى ذهب به

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

لصراط هو الطريق وله معنى آخر يوم القيامة ، هو اصراط
المضروب على من جهنم يمرُّ عليه النار والقاجر ، والمؤمن والكافر ،
ويختلف المارُّ عليه باختلاف عمله فى الدنيا ، فواحد يمرُّ عليه كالبرق

(١) ذكر أبى هشام فى السيرة النبوية (٣٢٧/١) طبعة دار التراث أن أبى سفيان بن حرب ،
وأبى جهل والأحس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من
الليل فى بيته فأتوا كل رجل منهم ممسكاً يستمع فيه ، وكل لا يعلم مكان صاحبه ،
فعدوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فلأومرا ، وقال
بعضهم لبعض لا تعودوا ، فنزل رآكم بعض سفهاتكم لا وقعت فى نفسه شيئاً ، ثم
اصروا (وتكرر هذا ثلاث ليال متوالية) حتى إذا كانت ليلة الثالثة قال بعضهم لبعض
لا نرجع حتى نتعاهد ألا نعود ، فعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، وفى القصة قول عترة جمع
هناك من رأيهم عند سمعوه

الحافظ ، مع أنه أخذ من السيف وأدق من الشعرة ، وآخر يمر عليه
كأسرع حود ، وآخر يمر عليه حنواً ، وآخر يقع في جهنم .
والعياد بآله

وحين تمر على الصراط لن يكون معك عصا تحفظ بها توازنك
كلاعب السيرك مثلاً ، لأن الذي يزن حركتك على الصراط هو القرآن
الذي استمسكت به في الدنيا ، فكأن المؤمن حين يمر على الصراط
لا يكون بوزنه من تحته إنما من أعلى ، من جهة القرآن ، فهو أشبه
بالكارى لمعلقة التي لا يحملها شيء من تحتها ، لكنها مشدودة من
أعلى بما يمسكها ويحفظ توازنها . كذلك حال المؤمن على الصراط

والصراط في معناه العام هو الطريق المستقيم الذي يوصلك
للغاية من أقرب مسافة وأيسرها . لكن عبارة القرآن ﴿عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ (١) [يس] فيها إشارة إلى أن الصراط به مهمة ، هي أن
يُوصلك إلى الغاية المرادة ، فالصراط في خدمتك .

ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿عَلَى هُدًى﴾ (٢) [البقرة] البعض يفهم
أن الهداية تقتضي التكليف وتقييد الحركة ، وأن في الهداية مشقة
وعناء ، لكن لفظ الآية يعني خلاف ذلك ، فمعنى ﴿عَلَى هُدًى﴾ (٣)
[البقرة] أنك تعتلي الهدى ، وكأنه عطية لك تُوصلك بغيتك المحيية ،
فهو يحملك ، لا تحمله أنت

ووصف الصراط بأنه مستقيم لا بما تعلمنا في الهندسة أن انحط

(١) أخرج أحمد عن عاصمه قال : قال رسول الله ﷺ « لجهنم حسر أدق من الشعرة وحده
من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالعريف وكاليرق
وكالريح وكاجاويد الحين والركاب ، والملائكة يقولون رب سلم رب سلم ، فنادى مُسَلِّمٌ
ومحذِرٌ مُسَلِّمٌ . ومكّر في النار على وجهه » أخرجه أحمد في مسنده [١١٠/٦] وأوردته
الهيثمى في مجمع الزوائد [٣٥٩/١٠] وذكر « في ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق »

المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فحير تريد مثلاً الانتقال من مكان إلى مكان ، فـ (من) للابتداء ، و (إلى) للعاية التي تريدها ، وما مُت لا يعينك إلا الددية والعبية فالتبشير يفتضى أن تسلك أقرب الطرق وأقصرها وهو الخط لمستقيم ، لأن كل التواء في الطريق أو منعطف يكون في خط السير مُثُلًا من صلعين، ويكون الطريق المستقيم هو الصلح الثالث

ومعلوم أن مجموع أى صلعين في المثلث أطول من الثالث ، إذن يطول عليك الطريق ، لذلك يُحَدِّثُنَا لقول من الصراط المستقيم ، وعن سواء السبيل يعنى الجهة اليمين تساوى الجهة اليسار ،

نكى ، لماذا كان طريق المؤمنين صراطاً مستقيماً ؟ لأن الله تعالى هو لدى شرعه فى منهج حلقه ولأنه مُرْسَلٌ من الله

﴿ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾

وساعة نسمع كلمة ﴿ تنزيل ﴾ [سر] فاعلم أنه من جهة العلو ، وإن كان المرسل فى باطن الأرض ، لأنه فى واقع الأمر جاء من الأعلى كما فى قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٢٥) [الحديد] فالحديد لا ينظر إلا أن مقره فى الأرض ، لكن انظر إلى علو حلقه لذلك أعطاه الله صفتين صفة ديبوية ، وأخرى بيبية

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٢٥) [الحديد] فالناس الشديد لأعداء الله ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَبْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (٢٥) [الحديد] عهد للأجرة وفيه صانع للناس أى فى الدنيا ، لذلك تجده المعدن الشائع الانتفاع به ، والاكثر قوة وصلابة .

وقوه تعالى ﴿العزير الرحيم﴾ [يس] ذكر سبحانه هنا صفة العزة وصفة الرحمة ، لأن التفرير من أعلى منهج يقيد حركة الإنسان بفعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وأنت محتار تطيع أو تعصى فالحق الذي شرع لك هذا المنهج يريد لك الخير لأنه سبحانه لا يعود عليه شيء من طاعتك ولا بصره معصيتك .

أدب . أنت المقصود من هذه المسألة ، لأن الله تعالى عزير عن خلقه ، ورحيم بهم ، فإذا نظرت إلى العاصي لمحالف لمنهج لله ، فإله عزير قادر على الانتقام ، لا يقدر أحد أن يأخذ من فضله تعالى ، وإذا نظرت إلى المطيع ، فإله رحيم ، وعلة الإنزال

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمُ آبَاؤُهُمْ فَبُهِتُوا﴾

الإدارة التحريف من معطى مهلك ، وبشرط أن يكون الإدارة قد وقع الشيء ليؤدي الإدارة مهمته في أن يردع الإنسان عنه فلا يقع في أسباب الهلاك ، ويستطيع أن يحتبط لنفسه ، وأن ينحو بها

(١) قر هذه الآية امر بغير جداء محب الانسداد إلى من بعض المشككين في القرآن فربما وحديثاً يقولون كيف يقول القرآن هنا ﴿ما أنذر آبائهم﴾ [يس] أي أن العرب لم يبدروا من قبل ، وهذا ما صرح به ابن كثير في تفسيره ، كيف يقول القرآن هنا عد ، وفي آية أخرى يقول ﴿وادكر في الكتاب إسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا﴾ [مريم] ليس إسماعيل من العرب؟

يقول نعم إسماعيل رسول ونبى كما نص القرآن ، بل في آيات أخرى كثيرة صرح القرآن بأنه أوحى إلى إسماعيل كيف قال تعالى ﴿واوحيا إلى إبراهيم وإسماعيل وسحاق ويعقوب﴾ [النسب] بل نزل عليه مثل ما نزل على إبراهيم ، كما صرحنا الآية ﴿قل إنما بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل﴾ [آل عمران] وهذا يؤكد أن (ما) هنا هي الآية اسم موصوف ، لا نافية والنعني على هذا فتندر قوماً الذي أنذر آبائهم أي (مثل الذي) أو (بالذي) لذلك قال لهم عاقلون أي أنهم عاقلوا وسواك كار عليه إبراهيم وإسماعيل ، فاشركوا مع الله رب البيت الذي بعث قواعده إبراهيم وإسماعيل ، وكانوا يقدرون بأن الله هو الخالق البارئ ولكن عاقلهم في الشرك ورفضهم أن يخرج من بين هذين رسول والله تعالى أعلى وأعلم [عادس أبو المعطى

ومعنى ﴿ مَا أُنذِرُ بَأْوَهُمْ ﴾ [يسر] ساعة تسمع (ما) تطير أنهم نذرية كذلك قال المفسرون قالوا لأنهم كانوا أي لأبناء أهل غفلة ، وعلى هرة من الرسل فلم يكن لهم رسول ينذرهم فإن قلنا - إن رسول الله ﷺ أرسل نذيراً للناس كافة بمن فيهم من اليهود والنصارى قالوا لا ليس نبياً ، فقد جاءنا نذير من قبله ، جاءنا موسى وجاءنا عيسى ،

وحيث هذا الإشكال أن نقول نعم موسى عليه السلام أنذر قومه ، وعيسى عليه السلام أنذر قومه ، لكن مرّت عنهم جميعاً فتراب اختلجوا فيها وضلوا ولم يأت لهم نذير يردهم عن ضلالهم ، من جاءكم النذير ، لكنكم لم تستمعوا عى نذيره ، وما هو محمد ﷺ جاءكم نذيراً جسيماً

أو أن (ما) هي بمعنى اسم موصول أي لتندبر قوماً بأنذير نذير به آذوهم ، كيف أنذر آذوهم من قبلهم يعني لست بدعاً من الرسل .

وقوله ﴿ فَهُمْ عَابِلُونَ ﴾ [يسر] الغفلة أن يوحد شيء كان يحاطرك ، ثم لم يتعلّق قلبك به حتى يدحى في مربة السنان ، فلا تذكره إلا حين يأتي من يبهك إليه ويذكرن به ، والسياس ليس وظيفه القلب إما وظيفه العقل والذاكرة ، فلو أن القلب متعلّق بالشئ ، فكما طرأ عليه غفلة تعلّق القلب بها بعدما ، فنظّل في الذاكرة لا تعقّب عنها

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

الحق سبحانه وتعالى سطر ألا كل ما يكون من مستغلى أي دعوته دينيه المؤمنين بها والكافرين ، لكنه سبحانه ترك للناس

الاحبار ، وكونه يعلى يسجل ما سيحدث من الناس ، ثم تأتي
لحدث منهم وفق ما سجل ، هذا يعنى أن ما قاله قديماً حق
ولقرآن يقول مرة ﴿حَقُّ الْقَوْلِ﴾ (١) [يسر] ، ومرة ﴿سَقَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾
[مرد] ومرة ﴿رَفَعَ الْقَوْلُ﴾ (٢) [السل]

وكلها تدل على أن ما سبق في علم الله من الإخبار عن محتر
اختار الهدى أو الصلار مسجل عنده تعالى ، وهو حق كما أخبر الله
به ، وبو كان العدد غير مختار قلنا إن الله قهره على ما أراد ،
بكنه مختار .

ولحق سبحانه به طلاقة القدرة وطلاقة العلم ، فلعلمه تعالى بما
سيكون سجر وكتب ، وقد أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن
أى لهب ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) [المسد] فقد كان توسع
أى لهب حين سمع هذه الآية أن يطق بكلمة الإيمان ولو بفاقاً ، وله
اد أن بهم القرآن ور يُكذِّبه ، لكنه لم يفعل وطر على كفره حتى
صدق فيه إخبار الله مع أنه مختار

كذلك في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾
(٢) [المجادلة] وعجيب منهم بعد أن فضحهم القرآن ، وأجبرهم بما
يدور في نفوسهم لا يؤمنوا به ، ولأ يسألوا أنفسهم من الذى أخبر
محمدًا بما عى نفوسه ولو لم يكن منهم هذا القول فى أنفسهم
بالفعل لوأجهاوا محمدًا ، ولقالوا لم يحدث ما هذا .

لذلك الدين أنكروا رسالة محمد ﷺ مع إخباره بمعينات لا تقع
عليها عقوب البشر أنكروا رسالته ، ولكنهم أرادوا أن يُنبتوا به فوق
الرسالة أنه إله بحر بالشىء قبل حدوثه فهو ﷺ يقول لهم أنا
رسول وهم يريدونه إلهاً

لقول السابق وقع على هؤلاء ، لأنهم لا يؤمنون ، ولأنهم يكذبون
وعائدون ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [س] لذلك
يقولون ، إن للملائكة تعصاً ، قانوا ، وما تعجب للملائكة ؟ قالوا
ساعة تقع في كون الله حركةً يجدر خبرها عندهم في الكتاب ،
فيقولون ما أعلم دينا وأقوده ، يعني ما نخبر الله به ، وقع كما
أخبر تماماً ، مع أن العباد لهم حرية الاختيار

ولما حاول الفلاسفة عرض هذه المسألة ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [س] قالوا الحق سبحانه وبما حين ترك
الأمر للمكلف بالاحياء ، لأن الإنسان نفسه فيه أن يكون مختاراً لم
يلزمه الله شيء على خلاف السموات والأرض والحسن ، فقد
رفضت هذا الاختيار واحتارت أن تكون مُسَخَّرَةٌ لله ، مقهورة
لإرادته سبحانه

يقول تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلَهَا وَاسْتَعْصَمَ مِنْهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب]
س الحق سبحانه حين جبر الجميع قامت السموات والأرض
والجبال أما الإنسان فقد اعتز بعقله وذكائه وبصرفه في الأمور
فقبل الاختيار ، يحكم الله عليه بأنه ظالم وجهول ، ظالم لأنه ظلم
نفسه بتحمل الأمانة ، وجهول لأنه ضمن وقت التحمل ولم يصمم
وقت الأداء ، فاعقل هو الذي يخطر إلى وقت أداء الأمانة ، لا إلى
وقت تحملها

فلو جاءك صديق يُودع لديك مبلغاً من المال كاسنة حين الصحة
إليه فمن السهل عليك أن تقبل هذا المبلغ وفي بيتك أدأوه عندما
يطلبه صاحبه ، لكنك لا تضمن أن تتغير ظروفك فتحتاج إليه
أو تتغير دمتك ، أو غير ذلك مما يطرق على الإنسان

إِنَّ قَاجِلَ الْاِنْسَانِ هَآءِ اَنَّهُ اَعْفَلَ وَفَتِ الْاَدَاءُ ، وَظَلَّمَهُ لِنَفْسِهِ اَنَّهُ
حَرَّ عَلَيْهِمَا مَا لَا تُقَدِّرُ عَلَيْهِ لَأَن شَهَوَاتِ نَفْسِهِ لَا تَدَّ اَن تُلْجَ عَلَيْهِ ،
وَلَا تَدَّ اَن تُوَقَّعَهُ فِي الْمَخَالِفَةِ .

فَانُوا اِنَّ اَعْمَالَكُمْ كُلَّهُ مُحْكُومٌ بِأَمْرَيْنِ بِمَشْهُودٍ وَعَاجِبٍ ، وَمِنْ
عَاجِبِ الْأَمْرِ اَن الْمَشْهُودَ هُوَ لَدَيْنِ عَلَى الْغَيْبِ ، يَعْنِي خُذْ مَا تَرَاهُ
دَلِيلًا عَلَى مَا لَا تَرَاهُ لَدَيْكَ حِينَ تَرَى اَن تَرَى فِي النَّاسِ الْإِيمَانَ
بِأَنَّهُ تَعَمَّتْ نَصَارَهُمْ إِلَى مَلَكُوتِ لِسَمَٰوَاتٍ وَالْأَرْضِ ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ
وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن
كُنْتُمْ يَٰهٗ تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾﴾

[فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنك تَرَى الْأَرْضَ حَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِن
الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾﴾

[فصلت]

وَمَعْدُ أَن تَتَمَلَّعَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ وَأَمَاتَهُ فِي كَوْنِهِ فَتَتَزَمَّنَ بِهِ يُعْطِيكَ
قَصَايَا أُخْرَى لَا يَتَسَّعُ لَهَا عَقْلُكَ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّهُ سَحَابُهُ يَرِيدُ لِلْإِيمَانِ
بِهِ عَصَصِيرِينَ اَن يُؤْمِنَ بِالْمَشْهُودِ وَأَن يَسْمَعَ إِذَا أَمَتِ بِالْمَشْهُودِ عَلَى
وَحُودِ حَقٍّ ، وَهُوَ الْحَقُّ وَاجِبُ الْوُجُودِ فَتَسْمَعُ مِنْهُ سَحَابُهُ ، فَإِنَّ
أَحْرَكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَتَسَّعْ لَهُ عَقْلُكَ لِتَاقِبَلَهُ مِنْ بَاطِنِ الْإِيمَانِ بِهِ .

فَلِأَنَّهُ قَالَ لِي اِنَّ الصِّرَاطَ مِثْلًا أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ
فَلَا تُتَكَّرُ ، وَإِن كَانَ عَقْلُكَ لَا يَتَسَّعُ لِإِدْرَاكِهَا ، لِأَن اَلَّذِي قَالَهَا اللَّهُ
الْمُشْرِعَ فَأَنْتَ أَخَذْتَ مِنَ الْمَشْهُودِ دَلِيلَ الْغَيْبِ وَهُوَ اللَّهُ ، وَأَخَذْتَ مِنْ
دَلِيلِ الْغَيْبِ وَهُوَ اللَّهُ إِيْمَانُكَ بِأَشْيَاءٍ لَا يَعْقِلُهَا عَقْلُكَ ، فَكَأَنَّ الْمَشْهُودَ
وَالْعَبْدَ عَلَيْهِمَا مَدَارُ الْإِيمَانِ وَعَبْرَةُ

فَمَطْلُوبَاتُ الْقَدِيرِينَ إِمَّا مَطْلُوبَاتٌ مِنْ انْقِبَابٍ أَوْ مَطْلُوبَاتٌ مِنْ

الحوارج ، أو مطنوبات من اللسان قالقلب مطلوب منه العقيدة بأن يؤمن بواحد الوجود وأنه واحد ، وأن يؤمن بأنه لا بُدَّ أن يستلغى منهج حياتي ، لأنه هو الذي خلقني وأذن صناعته ، والصانع هو الذي يحدد قانون الصيانة لما صنع رقابون الصيانة لا يكون إلا بالسلاخ

والحق سبحانه لا يكلم الخلق واحداً واحداً إنما يصطفى لهذه المهمة مهمة السلاخ عنه سبحانه من يشاء من الملائكة ومن البشر قالمصطفى من الملائكة نزل المصطفى من البشر ، والمصطفى من البشر يبلغ مقية اناس ، لذلك رُئِيَ اسْمِي ﷺ الأمة الإسلامية هي ثلاث وعشرين سنة ولو أن كل واحد انتصر أن يكلمه الله مباشرة لاستغرقت تربية الأمة أكثر من ذلك بكثير

إذن البلاغ عن الله ضرورة من ضرورات وجود الله ، وإلا إذا كان الله موجوداً فأنت لا تعرف أنه سبحانه واحد أو أن له شريكاً ، أنت نفسك لا تعرف هذه المسألة ، لا يُدَّعى من رسول يخبرك عن الله ، عن اسمه ، وعن صفاته ، وعن مراده منك

لذلك الذين يعبدون الشمس أو القمر أو الشجر أو الحجر أبلغ رد عليهم أن يقول لهم أولاً ما هي العبادة ؟ العبادة طاعة العائد لمعبوده في أمره ونهيه فيقول ماذا عالت بكم الشمس ؟ نعم أمرتكم ؟ وعن أي شيء نهتكم ؟ ماذا أعدت بمن عيدها ؟ وماذا أعدت لمن عصاه ؟ إذن هذه آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، فهي إذن باطلة مردودة

وسبق أن أوضح هذه المسألة بمثل قلنا لو أن طارفاً طرق عينا السب لا بُدَّ بنا جميعاً سبلتقى في فكره وحده ، هي أن طارفاً بالندب يريد الدخول ، إنه لا أحد منا يعرف من هو ؟ ولا لماذا

أتى ؟ ولا من أين ، أهو يشير أم نذير ؟ هذه أمور لا بد أننا
سنختلف فيها .

ذَنْ عَيَا أَنْ يَقِفَ عِنْدَ الْحَدِّ الَّتِي تَتَّقُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنْ طَارِقاً
بِالْبَابِ وَبَرَكَ لَهُدِ الصَّارِقِ أَنْ يُعَيَّرَ هُوَ عَنْ نَفْسِهِ فَيَقُولَ مَنْ
أَنْتَ ؟ فَيَقُولَ أَنَا هَلَانِ حُثَّتْ لَكَدَا وَكَذَا كَذَلِكَ لِحَقِّ سُبْحَانِهِ يَكْفِي
أَنْ تُسْتَقْبَلَ مِنْ صُنْعِ الْكُورِ الْعَجِيبِ أَنْ لَهُ صَابِعاً عَالِماً قَادِراً حَكِماً ،
لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، بَرٌّ مَنْ هُوَ ؟ وَمَا مَرَادُهُ مِنْكَ ؟ هَذِهِ مَهْمَةٌ
الرَّسُولِ الْمُبَلَّغِ عَنِ اللَّهِ .

لذلك فَإِنْ خِيتَ الْفَلَسَفَةُ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْعُوا عِنْدَ تَعَقُّلِ وَاحِبِ الْوُحُودِ
سُبْحَانِهِ ، بَلْ أَرَادُوا أَنْ يَنْصُورُوا وَاجِبِ الْوُحُودِ ، هَذَا هُوَ خَطْوُهُمْ ،
وَلَوْ وَفَّرُوا عِنْدَ التَّعَقُّلِ لَكَانَ كَافِياً ، ثُمَّ يَقُولُ لِمَنْ تَعَقَّلْتَهُ مَنْ أَنْتَ ؟
وَمَاذَا تَرَى مِنِّي ؟ مَاذَا تُعَذِّبُ لِي إِنْ أَطَعْتُكَ ؟ وَمَاذَا تَفْعَلُ بِي إِنْ
عَصَيْتُكَ ؟ وَعِنْدَمَا يَرْسِلُ بِكَ رَسُولاً بِحَدِّكَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ

هَذَا هُوَ مَطْلُوبُ السُّدُبِ الْقَلْبِيِّ ، وَهُوَ الْإِعْقَادُ بِوُحُودِ إِلَهٍ وَاحِدٍ
الْوُحُودِ وَاحِدٌ أَحَدٌ ، وَأَنَّهُ يَرْسِلُ الرَّسُولَ لِيُبَلِّغَ عَنْهُ ، وَهَذَا الرَّسُولُ
صَادِقٌ فِي الْبَلَاغِ مُؤَيَّدٌ بِمَعْجَرَةٍ ، هَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَقْلِيَّةٌ وَاصِحَةٌ

وَبَعْدَ أَنْ آمَنَتْ بِهَذِهِ الْعَقْلِيَّةِ الْوَاضِحَةِ الْمَشْهُورَةِ بِخَيْرِنَ بِأَشْيَاءَ
عَبَسَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا كَالْإِحْدَارِ مَثَلاً عَنْ لَحْظَةٍ وَصَفَانِهَا ، وَأَنَّكَ
سَتَنْتَمِعُ فِيهَا وَتَأْكُلُ دُونَ أَنْ تَتَقَرَّطَ . إِلَخَ هَذِهِ كُلُّهَا مَسَائِلُ يَقِفُ
التَّعَقُّلُ أَمَامَهَا ، لَكِنْ مَنْ أَحْبَبَكَ بِهَا ؟ اللَّهُ أَسَى صَدَقَ قِيمَ شَاهِدٍ ،
وَسَبَقَ أَنْ آمَنَتْ بِهِ وَوُثِّقَتْ بِكَلَامِهِ

ثم تأتي سور مطويات الحوارح فإليه الذي آمنت به لا بُدَّ أَنْ

تكون على اتصال دائم به سبحانه . لذلك شرع لك الصلوات الخمس ، وفيها دوام الولاء لله

لكن لماذا جعلها خمس صلوات ؟ قلوا : كانت خمسين لتستوعب كل الرمز يعنى خمسين تُوزَع على أربع وعشرين ساعة ، بمعدل صلاة كل نصف ساعة ، ومن رحمه الله بنا أن جعلها خمساً فى العمل ، وخمسين فى الأجر ، ومع ذلك يملّ الناس منها

وَنُذَكِّرُ أَنَا وَحَسَّ فِي الْحَرَمِ ، كُنَّا نَصِي الظَّهْرَ مَثَلًا ، وَسَرَعْنَا مَا يُؤْذَنُ لِلْعَصْرِ ، فَلَا نَمُكِّنُ مِنَ الْحُلُوسِ فِي الْحَرَمِ وَالنَّأْمِلُ سِوَهُ ، وَالْمَكْتَةُ الْمَشْهُورَةُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ اشْيَخَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يُذَكِّرُ وَاحِدًا مِمَّا بِالصَّلَاةِ (قَوْمِ يَا وَادِ صَلِّ) فَقَالَ لَهُ يَا شَيْخَ أَحْمَدَ (احْبَا جَابِيَن نَحْجُ ، مَشْ جَابِيَن صَلِّ)

إِذْ يَقُولُ حُجِّلَتْ الصَّلَاةُ حَمْسًا لِسَنَوَعِبِ كُلِّ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ، وَلِتَحَقِّقَ اسْتِمَامَةَ الْوَلَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى ثُمَّ آتَتْ فِي لُصْلَاةٍ نَفْسَهَا تَحْدِ هَذِهِ رَكْعَتَيْنِ ، وَهَذِهِ ثَلَاثًا وَهَذِهِ أَرْبَعًا دُونَ نِ يَعْنِي عَقْلُ الْحِكْمَةِ مِنْ لَعْدَدِ هُنَا ، وَيَكْفَى أَنْ نَقُولَ هُنَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي شَرَعَهَا كَذَلِكَ وَتَقِفْ

ثُمَّ آتَتْ لَا يَعِيشُ فِي الْمَحْجَمِ بِمُفْرَدَتِ ، بَلْ مَعَ آبَائِهِ ، مِنْهُمْ الضَّعِيفُ ، وَمِنْهُمْ الْفَقِيرُ وَالْمَحْتَجُّ ، وَهَؤُلَاءِ لَا نَدُّ أَنْ يَعِيشُوا كَمَا تَعِيشُ أَنْتَ فَعَلَيْكَ أَنْ تُعِيَهُمْ بِالزَّكَاةِ أَوْ الصَّدَقَةِ ،

ثُمَّ شَرَعَ لَكَ بِصِيَامٍ ، وَهُوَ عِبَادَةُ تَعَوُّدِكَ إِلَّا تَعَصَى اللَّهَ وَتُعْصِدِ عَنِ الْمَحَافَةِ حَتَّى تَصِيرَ الْاسْتِمَامَةُ عِبَادَةً مُنَاصِلَةً هَيْتَ ، وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَسْتَدِيمَ فِي التَّكَالُفِ حَرَارَةَ الْعِبَادَةِ ، لَا إِلْفَ الْعَادَةِ ، لِذَلِكَ يَأْتِي بِإِلَى مَا أَحَلَّهُ لَكَ فِي شَعْبَانَ ، وَيَمْنَعُكَ عَنْكَ فِي رَمَضَانَ

كذلك في اللسان الدائر ايداً بطق بالكلمات ، هناك في العسر أن كلام
تفهمه وكلام يقف أمامه عقلك ، فقرأت السور مثلاً كلها مما تقف
فنه العقول ، ولناقي مما تتفتح فيه العقول وتفهمه ، لأن هناك مرقاً
بين من يقبل على شيء لتعقله ، ومن يقبل على الشيء بدون عقل ،
ولكن لأن الأمر أمر به

وسيق أن صريها مثلاً قلنا هب أن سيداً في بيته وعنده عمل ،
فقال لواحد منهم انقل هذا الحجر من مكانه إلى مكان آخر فقل
لا أقدر وحدي ، وسوف استعين برمي لي ، فقال إن حصه ملاً هو
لك عندها سيكافح وحده لنقل الحجر ، إن نقله للعلة أم للأمر ؟
للعلة ، والإيمان لا يكون كذلك الإيمان لا يكون لعلة ، إنما انصياعاً
للأمر .

فالمعنى . ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ (٧) [يس] يعني وحب وثب وجاء كما
سجلناه عليهم ، وقوله ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ (٧) [يس] يعني ليس عليهم
جميعاً ، وهذا كما قلنا سابقاً لاحتياض للواقع ، وهو دليل على أن منهم
مؤمنين ، وبو رحلاً واحداً وهذا الاحتياط من انقراض سميته
« صيانة الاحتمال »

وقوله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) [يس] إحصاء يدل على حيثيات
هذا الإحصاء

ثم يقول سبحانه

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَىٰ
الْآذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ (٨)

يعطينا الحق سبحانه في هذه الآية تصويراً لحال هؤلاء الكافرين المعرّضين عن اتباع الحق يقول ﴿يُأْجَعْنَ فِي أَغْصَانِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْيَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ [نسر] الأغلال مفرد لها غل ، وهو الحديده ، نقي تمسك اليد وتشدها تحت اسدقر ، وحين تشد اليد تحت الذقر ترتفع ابراس إلى أعلى وبالتالي يرتفع مستوى اسطر إلى أعلى فلا يكاد يرى الإنسان طريقه ، ولا يهتدي إلى موضع قدمه

وهذه الصورة واضحة أيضاً في معنى كلمة ﴿مُقْمَحُونَ﴾ [نسر] انقمح مأخوذ من إس قمح ، وقماح الإس أيها حين تذهب لشرب الماء تعرف منه ، ثم ترفع رءوسها إلى أعلى .

قال بعضهم إن هذه صورة رسمها الحق سبحانه لمن علّ يده عن الصدقة وعن الإنفاق ، كذلك تُعلّ يده إلى عنقه يوم القيامة بحيث يؤثر هذا العلّ في مساره الذي ينّي عليه حركة حياته ، ولحق سبحانه يوارى دائماً بين ما فعله المستحقون لجراء والجراء ، فالجراء من جنس العمر .

ومثال ذلك قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة] هذا هو العمر ، وما الجزاء ﴿فَنُفِثَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [البقرة] يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كُفِرْتُمْ أَنْفُسُكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُرُونَ﴾ [البقرة]

هذه مواضع ثلاثة من الإنسان الصب ، والحنوب ، والظهور جاء بهد الترتيب بتطابق تماماً ما فعله صاحب المال الذي كثر ماله وصلّ به على الفقير ، فقد كان الفقير يأتيه فيسوي عنه جبهته ويعطيه جسّه ثم

(١) قال الجوهري : قمح البعير قموحاً وقامح إذا رفع رأسه عن الحوص ، وامتنع عن الشر . فهو يدير قامح [لسان العرب - مادة قمح]

يدير له ظهره ويصرف عنه ، فجاء عذابهم على مقدار ما فعلوه

ثم نقول الحق سبحانه

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكْناً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾

﴿ فَأَعْمَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٩)

هل معنى هذا أن الله تعالى يساعدهم ، ويعينهم على الكفر ؟
قالوا نعم لأن عبدى حير أناديه فيتأبى على فى تدائى ، ولا يقبل
على عبوديته لى أعينه على كفره لأننى رب غنى عنه ، فإن أحب
الكفر وعشقه ولم بعد هناك أمل فى هدايته أحسم على قلبه ، فلا
يسخله إيمان ، ولا يخرج منه الكفر لأنك من تجنى عليك وصد عتك
فأعنه على ذلك ، ولا تذكره بنفسك ،

إذن ما كفر أحد غصباً عن الله ، إنما كفر بما أودع الله فيه من
احتسار ولأنه سبحانه رب وهم خالق العباد ، فسلطه سبحانه أن
يعيبهم كلاً على ما يريد فالذى أراد الإيمان وأحب أعانه على
الإيمان ، وسدى أراد الكفر وعشقه أيضاً أعانه عليه وساعده

لذلك حتم الله على قلوب الكافرين ، وهذا يقول ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ ﴾ (٩) [يس] يعنى أمامهم ﴿ سَدّاً ﴾ (٩) [يس] حاجراً ومانعاً ﴿ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ سَدّاً ﴾ (٩) [يس]

هذا مانع مادي خارج عن تكوين الإنسان ﴿ فَأَعْمَيْنَاهُمْ ﴾ (٩) [يس]
يعنى جعلنا على أبصارهم عشاوة وغطاء فهم مصدودون عن
أحوال الأشياء أولاً فى دواتهم أعشىنا أبصارهم فلا يروون
ولا يهتدون ، لأنهم بدوهم لم يذكروا عهد الفطرة لأولى التى فطر
الله الناس عليها

ما الحارج عنهم ففي المبهج الذي لم يلتفتوا إليه ، لا فيم
أمامهم ، ولا فيم وراءهم لأن هناك سدا يصنعهم فلو تدكروا ما
ينتظرهم لارتدعوا عن غيهم ، ولو تأملوا ما نزل بمن سلفهم من
الكذابين ، وما حاق بهم من عذاب الله لرجعوا

لكن جع الله من أمامهم سداً ، فلا يعرفون ما ينتظرهم ، ومن
حلفهم سداً فلا يندرون ما حاق بأسلافهم فمن قال الله قسهم
﴿ فكلوا احداً بذنبه فمنهم من أرسل عليه حاصراً منهم من أحدثه الصيحة ومنهم من
حسباً به الأرض ومنهم من أغرقنا ﴾ (٤٤) [العنكبوت]

فمن قلت الحق سبحانه جعل سداً يمنعهم من الجهة الامامية ،
وسداً يمنعهم من الجهة الخلفية فصاروا على جنب الى
اليمين أو الى اليسار ؟ قالوا : لو ساروا وتوجهوا الى اليسار مثلاً
لصار اليسار بالنسبة لهم أمام واليمين صار خلفاً فهم إذن
مُحاصرون بالمواقع بحيث لا أمل لهم في الرجوع إلى مبهج الحق ،
وإلى الصواب

وتصح أن يكون المعنى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً
(٤٥) ﴾ [س] أي سداً يمنعهم من التأمّن والنظر في الأدلة العينية
المنصوبة أمامهم ليؤمنوا ﴿ ومن خلفهم سداً ﴾ (٤٥) [س] يمنعهم ، فلم

(١) هذه أربعة أصناف من العدم

﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ (٤٤) [العنكبوت] هم قوم عاد ، والحاصب ريح شديدة
البرد تأتي سدده البواب جد يحصن عليهم حصينة الأرض حصاف ، ماله
يؤذيهم من حدة الصيحة ﴿ ﴾ [العنكبوت] هم قوم ثمود ، جاءهم صيحة وصرخة
أحدثت منهم الأصوات والحركات
﴿ ومنهم من جعلنا به الأرض ﴾ (٤٥) [العنكبوت] هو قارون حصف الله به وندره الأرض
﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ [العنكبوت] هو فرعون وورثه هارون وجنودهما أغرقوا عن
أحرفهم في صيحة واحدة

سُورَةُ الْيُسُفٰ

١٢٥٩١

يَتَّبِعُوا إِلَى الْعَصْرَةِ الْإِيمَانِيَةِ الْمُوَدَّعَةِ نَبِيَّهُمْ

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهِ

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

السَّوَاءِيَّةُ هَذَا بِالنَّسَبِ لَهُمْ لَا بِالنَّسَبِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ مَجَرُّ الْبِلَاقِ وَمَادَامَ بُلَّعَهُمْ فَفَدَّ اسْبَهَتْ مَهْمَتُهُ فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَهُ أَطْعَمْتُمْ وَلَا تَحَرَّنَ ، فَإِنْدَارَكَ وَعَدَمَهُ عِنْدَهُمْ سَيِّئًا ، إِنَّمَا بِإِنْدَارِكَ أَقْبِمْتَ عَلَيْهِمُ الْحَقَّ ، لِأَنَّهُمْ أَقْسَمُوا فِي مَوْضِعٍ سَبَاقٍ ﴿وَقَسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُجِئَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا رَأَوْهُ إِلَّا بُعْرٌ ﴿١٢٦﴾﴾ [وَض]

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهِ

﴿إِنَّمَا شَرُّهُمْ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ۖ
فَلْيَشْرَهُ مَغْفِرَةً وَأَخْرَجَ كَرِيمًا﴾

(١) أورد ابن كثير في تفسيره هذه الآية (٣٠٦٤) عن محمد بن كعب القرظي ، أن أبا جيل قال لعبد بن قيس وهم حموس إلى محمداً يريدكم أنكم بن نابتوه كنتم ملوكاً فبدأ بهم بعثتم بعد موتكم وكان لكم جنات خبز من جنات الأرض ، وأنكم إن خالفتوه كان لكم من دبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم من تعدون بها وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يد حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أنفسهم ، ربهم فجعل يدها على رؤوسهم ويقرا (يس والقدر الحكيم) حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغبحهم فهم لا يصرون﴾ (١٢٦) [ع] ويطبق رسول الله ﷺ حاجته وما رواه رصدها على يده حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر مجيئاً قال : وقد خرج عليكم عيب يفي بكم من رجل [لا وضع على رأسه يوماً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم يلمس ما على رأسه من التراب ، وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور (١٠٣٧) وعنه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الدلائل

يعنى إبدارك يا محمد يجدى مع من يذكر الله ويحفظه ، ويؤمن به ، ويؤمن بقدرته تعالى على البعث وعلى الحساب هذا الذى ينفع بالإبدار ويستفيد منه على خلاف المكذب للأصل ، كيف يستفيد من الإنذار ؟ ومعنى ﴿ اتَّبِعِ الذِّكْرَ ﴾ [س] أى القرآن

والخشية ، خوف ، لكن بمعناه فأنت تخاف الله وتهابه ، وكذلك ترحسود ، أما الخوف من غير الله فخوف بكركه ، لأنه خوف من حمرة ، لذلك جاءت بعد لخشية صفة ارحمه ﴿ وحشى ارحم ﴾ [س] فأنت تخاف من ائصف باعطف وبحثان ، وهذا أسمى أن يحبك فيمن تخاف منه ويعطفك إليه ، فتكون حشيتك له ممزوجة بالهيئة والوقار وبالرحاء فيه ، لذلك قل سبحانه ﴿ وحشى ارحم ﴾ [س] حتى لا تنفر من الذى تخافه

وهذه الخشية تكون من المؤمن ﴿ بالعيب ﴾ [س] يعنى ، ساعة يكون عائداً عن الناس مفرداً ، فإنه يحشى الله ، ولا يحشى الناس ، ولا يحتاج إلى رقيب ، لأن رقابة البشر للبشر لا تحدى ، لأنك ستجعل عليه رقيباً من جنسه ، وما جاز على المراقب يجوز على المراقب من تدليس وغيره ، حتى حين تجعل على المراقب تعنيشاً معاحداً لا تأمن التدليس ،

وسبق أن صرنا مثلاً لرحس المرور ، فالواحد ما قل أن يُسمح له بقيادة سيارة لا بد أن يمر بشروط قاسية تضمن أولاً سلامه اسيارة التى يقودها ، ثم تمكنه هو من القيادة ولا بد أن يحتار الاحساس بالآزمة لذلك ، ومع هذا كله منا من يتحرم ، ومنا من لا يلتزم بالعوائد المرورية لذلك جعل رجل المرور ليراقب وينظم حركة المرور فى الشوارع وعنه من يراقبه

لكن لما وجدوا أن رجل المرور يمكن أن يُدلس ، فيأخذ الرخصة من مخالف ويتغافل عن آخر استحدثوا آلات للمراقبة مثل برادارات، لتكون أكثر دقة ، لكن هذه الآلات من يُشعلها ؟ مشر يحوز عليهم ما يجوز على غيرهم .

إذن حيز يكور العرقب من جنس المراقب ، فعملية المراقبة لا تفيد ، ولو حسبنا على كل ما رقبياً لاحتجنا إلى جيوش من الحراس

إذن ، ماذا نفعل لنحكم هذا العالم كله ؟

محمد ﷺ جاء ورسالته ميراث الرسالة الكاملة فرسالته غير محدودة بزمان ولا مكان ، فالزمان والمكان هما اللذان يحصران الأحداث ، فهما ظروفا للحدث . فإذا لم يكن حدث موحوداً فلا زمان ولا مكان ، لذلك لا يصح أن يُقاس بالنسبة لله تعالى أين ولا متى ، لأن أين ومتى مخلوقتان لله

وإذا كان الزمن والمكان يشتركان في الصرفية للحدث إلا أن لمكان طرف قارٍ يعنى ثابت ، والزمان طرف متغير ، فهذا وقته لصبح ، وهذا الظهر ويقول : هذا قبل كذا ، وهذا بعد كذا

رسول الله جاء برسالة عامة في الزمان وفي المكان إلى أن تقوم الساعة ، وجاء بمنهج بصيغة الإنسان في العالم كله مع اختلاف بنيانه وطبائعه ، وفي الأرمية باختلاف عصورها فكيف تتحقق هذه نصيابه وهذه المراقبة ؟ ما دام محمد ﷺ قد جاء بمنهج لحكم به العالم كله زماناً ومكاناً ، فلا يصح أن يجعل على كل فرد منه رقيباً من جسسه ، ولا حتى من الملائكة إنما عليه أن يرمى في نفوس الناس خشية الله ، وأن يزرع في قلوبهم المهبة منه سبحانه بالغيب

وهذا هو الرقيب الحفيظ والرقيب الملازم الذي لا يفت عنك ، ولا يفارقك لحظة .

بذلك المرأة التي زوجها الرجل وأغراها بأنهم في صلاة لا يراها أحد عقل لها ما يصنع صبي ، وما يرانا غير الكواكب ، فقالت له يا أبله ، وأين مكوك لكوكب ، هذه هي خشية الرحمن بالغيب .

وروي أن المعتضد وهو أحد ملوك دولة بني بويه أيام الخلافة العباسية ، وكان مشهوراً بالذكاء والعدل ، وحدث أن جاء رجل إلى سوق بغداد لبيع عقداً نفيساً ليحج بثمنه ، فلم يجد في السوق مشترىً بمقاسة العقد ، ومرّ الرجل بشيخ وقور عليه علامات الصلاح فقال هذا رحل أمين أودع عنده هذا العقد أمانة حتى أعود من الحج ، فلما عاد من الحج سأل الشيخ عن العقد الذي بركه عنده ، فأكره الشيخ ، وخأت كل محاولاته لاستعادة العقد

سمعه أحد المرأة فقال يا هذا انه رجل محادع كذاب ، اذهب إلى المعتضد ، وسوف يعيد لك العقد بذكائه وحيلته ذهب الرجل إلى المعتضد وقص عليه لقصة عقل له اذهب في العبد واحلس بجوار هذا الرجل ، وسوف مرّ عليك في موكبى فلا تقم لي وار كُلمتك قوة وأنت جالس ، ودعني اتصرف في هذه المسألة .

وفي الغد مرّ المعتضد في موكبى المهيّب ، وحوله الحاشية

(١) نيس المعتضد ، واسم هو عميد الدولة واسمه فاجسرو أبو شجاع أحد المتعصبين على الملك في عهد الدولة العباسية ، ولد ٢٢٤ هـ . تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، كان شجاعاً ، وكان كثير العمران عظيم الهبة ، توفي بسفاد عام ٢٧٧ هـ عن ٥٢ عاماً [الاعلام للزركلي ٥ ١٥٦]

و (لهيلمان) والصولجان فطر إلى صاحب العقد وقال يا فلان
مد متى وأنت ها ، وكيف لا تحببني بوحيت لأقاربك وأؤدى لك
حقت

سمع الشيخ هذا الكلام فطر أن الرجل من معارف الملك ومن
أتباعه هارتعد وندى صاحب العقد وقال له أرحوك لا تذكرنى
أمام الملك بحكاية العقد هذه ، وقام إلى العقد فردّه إلى صاحبه ،
ذهب أرجس بالعقد إلى المعتصد فتبسم ، وقال له انتظرنى فى الغد
أمام دكان هذا الشيخ

وبالفعل جاء المعتصد ، لكنه هذه المرة كان بصحبته المشقة ،
فأمر بتصيبها أمام دكان هذا المحادع وأمر به فشققوه ثم قال
هذا جراء من كس إيمانه بين الناس مشهداً ، وليس يمانه بالعب
يعنى بعيداً عن أعين الناس^(١)

لذلك جعل الله المنافقين فى ادرك الأسفل من النار ، وكبوا أول
الناس سعيًا لنصلاه وكانوا أصحاب الصف الأول حلف رسول الله ،
ومع ذلك كان هذا جراءهم لمانا ، لأن المنافق مناقص مع نفسه ،
فلسانه خلاف قلبه

ومن معسى الغيب فى قوله تعالى ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنُ الْعَلِيمُ ﴾
[يس] أى الغيب الذى أحسب الله به من أن هناك آخرة ومعنى وحشراً
وحساباً .

(١) الصولجان الفرد المعوج فارسى معرب [لسان العرب مادة صلج] وهو رمز السلطة
وتجاه

(٢) ذكر هذه القصة الإسم ابن الحوزى فى كتابه الأذكيى الباب الحادى عشر ، وقد حدث
هذا فى بغداد ، وقد كان التاجر الذى ذكر الوديمة الى عبده عطاراً ، أما الآخر فقد كان
من أهل حراسين وكان جراء العطار أن العقد علق فى رسته وصلب على باب الدكان

وهذه الحشية لله تكون بالعيب يعنى لإيمان بالغيب ، والله تعالى يؤمن به سبحانه وهو غيب ، والغيب كما قلنا ما غاب عنك ولا يوجد في الكون طريق يوصلك إليه ولا مقدمات ، فمن يعرف مثلاً في حركتا آرين الهندسة أو النظرية الفرض والمعطيات والمطلوب ، فالمعطيات والمقدمات تُرصد للغاية والمطلوب

لذلك تحد أن عدم الغيب يفسم إلى قسمين . غيب استأثر الله به لا يُظهر عليه أحداً إلا من أرى من رسول ، ولم يجعل لهذا النوع من العيب مقدمات تُوصل إليه وتدل عليه . وهناك عيب به مقدمات سأل عليه ، فمن استخدمت هذه المقدمات توصلت بها اليوم لى ما كان غيباً بالأمس . ويعنى عليك أن تستدل بالعيب الذى صدر مشهداً لك على أن تصدق بالعيب الذى لم تترك غيبه ، ولا سبيل لك إليه . يعنى أن يجعلك ما ترى على أن تؤمن بما لم رة

وقلنا إن هذا النوع من العيب وهو لعيب الذى له مقدمات تُوصل إليه ، له ميلاد يظهر فيه فإن صادف هذا الميلاد بحثاً من البشر ، وكان البحث سبباً فى ظهوره ، وإلا أظهره الله مصادفة ، كما جاءت أغلب الاكتشافات التى تحدم البشرية الآن مصادفة . لأن ميلاد الغيب جاء وبجئت عنه لم يحى

والمؤمن هو الذى يرد إيمانه بالعيب حين يستدل بما ظهر له على ما لم يظهر ، ومن العلماء والمفكرين من الدس من يفسر لك العيب الذى لم يأت اوجه شىء موجود بالفعل . ومن ذلك ما روى أن الروم أرسلت إلى أمير المؤمنين أن يرسل إليهم عالماً بفقههم فى أمور الدين ، فأرسل إليهم شعثى فجعلوا يسألونه فيما يحكى عليهم

() ذكر ابن خلدون فى ، المذكورة الحدوث أن الرجل هو جاد بر يرد الفرسى وقد تلقى بشكاسة ورميان وسألوه هذه الأسئلة ، وذكر صلاح الدين الصفدى فى ، التوامى بانواعيات ، أن الرجل هو الحلبي بن أحمد القراهيدى وسأله رهب فى صومعة . وكذلك القاصى التوحى فى ، بشوار المحاضرة . والله أعلم

من الدين ، وكان مما عرضوه عليه أن الإنسان حين يُنعم في الجنة يأكل ولا يتعوط ، فكيف يكون ذلك ؟ فرد الشعبي بما عنده من الإشرقات بتوبة لى يفتح الله بها على من يشاء . وقال بهم رأيتم بصير على بطن أمه ، إنه يتغذى وينمو دون أن يتعوط ، ولو تعوط في مشيخته لاحترق ، كذلك الإنسان في أحواله يأكل ولا يتعوط ، لأنه يتغذى بصهي لله به ، والله يعطيه بقدر بحيث لا يبقى شيء يتعوطه لإنسان ، أما نحن فآكل سطين لأنفسنا ، ولا نأكل بقدر الحاجة ، لذلك نتعوط

قلوا له زعمتم أنكم تأخذون من الجنة ما تشاءون دون أن ينقص منها شيء ، فكيف ذلك ؟ قال لأن الشيء ينقص بالأحد منه حين لا يكون له مدد من الغير ، فبئ كان له مدد لا ينقص ، والمدد في الجنة من الله ، فكيف يتأتى النقصان ؟

شيء حر لو حثت لى المصباح فأخذت منه شعلة بن آلاف الشعلات أينقص من ضوء المصباح شيء ؟

وهكذا رد الشعبي ، وأعجب به القوم . وكسبوا له كتاباً يوصيه لى أمير المؤمنين وكأنهم حسدوا أمير المؤمنين أن تكون مثل هذه العقلية وهذه الموهبة في خدمته ، وكان في الكتاب عجبت لقوم فيهم مثل الشعبي ، كيف يؤلون غيره ؟

فلما ذهب الشعبي وسلمه الكتاب قرأه أمير المؤمنين ، وقال للشعبي أتدرى ما في الكتاب ؟ قال لا يا أمير المؤمنين قال اقرأ ، فقرأ الشعبي العبارة عحست بقرم فيهم مثل الشعبي كيف يؤلون غيره ؟ فقال نعم يا أمير المؤمنين لأنه لم يرك ، ولو رآك لغير رأيه .

والمبامل في مسألة الإسار نجد لرسول الله ﷺ إنذارين عام
للعالمين جميعاً وهو إنذار بلاغ من الله لجميع المؤمنين والكافر
وهو الذي قال الله فيه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [عاطر]
فاندين يؤمنون بالله ينتفعون بالإنذار ويستفدون بالمشارة ، والذين
لا يؤمنون لا ينتفعون من ذلك بشيء

والإنذار الآخر إنذار خاص بمن حشى الرحمن بالعيب ، وهو
إنذار القبور ، وينفع به من حشى الرحمن بالعيب فالذين
لا يحشون ربهم سبق أن أنذروا بكن إنذار بلاغ فلم يستفدوا به
لذلك لم يشملهم الإنذار الخاص

وقوله سبحانه ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [س] قلنا إن
الشارة إخبار بأخير قبل أوانه ليحفزك إلى أسباب الخير ويطمعك
فيها رتلحظ ما أن المغفرة سبقت لأجر عاذاً قلوا لأن الحق
سبحانه وتعالى قبل أن يُعطيل النعمة يصرف عنك العذاب أولاً
لأن التحلية كما قسا تسبق التحلية ، ثم إن المغفرة دائماً هي جزاء
الإيمان بالله ، أما الآخر جزاء العمر بمنهج الله لذلك قال سبحانه
﴿إِنِ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ لِمَن يَشْرِكُ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [الأنعام] فمن
بأن الله آمن العذاب وضمن المغفرة ، فإن أورد الأجر فعليه بالعمل
لصالح .

ووصف الآخر بعينه بأنه كريم مع أن الكريم هو المعطي
سبحانه ، فالمعنى أن كرم المعطي نعدى إلى العطية ، فصارت العطية
كريمة ، وكأنها تتلطف على صاحبها ، كما تتلطف الرحمن إلى العطاء .
لذلك قلنا إن النعمة التي نعلم الله بها على خلقه تعشق صاحبها
وتسعى إليه وتكره من يحسد عليها ، أن يحقد عليه بسببها

لذلك لا تذهب إلى هذا الحاسد الحاقدا ، ولا يئنه منها خير أحد

وكان المُنعم سبحانه يقول ما رُميت قد كرهت النعمة عند عيرل ،
فلن تنال منها شيئاً ، لأنك تُخطئ الله في عطائه ، وتعرض عى
قصائه ، فكيف تأتيك نعمته ، لكن إن أحببت النعمة عند عيرت نألك
ويطرق هى نألك

وهذه لمسألة لها شواهد كثيرة من حياتنا ، أذكر منها أن رجلاً
من بلدنا ميت غمر جاءنى بشكو قسوة عمه العى عنه ، وأنه رعم
عياه بحيل عيه ويستعم الأعراب ويتركه هو بدون عمل ، وعير
بك مما نكره فى شكواه وكان معى فى هذه الجلسة أهلى ، ففألت
له يا ابنى أنت نأثماً شسم عمك وتحوض فى حقه ، قال نعم لأنه
لا يسأل عى

فقلت له سألك سؤالاً وأسئلتك ألا تكذب ، فلما رأى أسى
سأخلفه عى المصحف تراجع ، ففئت له أحب النعمة عند عمت ؟
قال لا ، كيف أحها ، وأنا لا أبال منها شيئاً ، قلت بو أحسبت
النعمة عند عمك ، وبميت له الحبر ولعريد لجأءتك النعمة تطرق
بأبك ، قال - إذن أرجوك يا مولانا تكلم عى وتوصيه عى

ويبدو أن الرجل حاول فعلاً إصلاح نفسه ، فأصلح الله ما بيه
وبين عمه ، وبعد صلاة الفجر جاءنى يطرق الباب ، فلما دخل قال
وهو يبكى يا مولانا أحكى بك حكاية أعرب من الحبران قلت
ما هى ؟ قال قيل لفر ساعة جاء من يطرق عى الباب بشدة ،
فقممت ففتحت الباب ، فإذا به عى يعاتبنى ويقول كيف تتركى
للأعراب يهينون مالى وانت (داير) عى حراً شعرك خد المفاتيح ،
ومن الصباح تفتح المحلات ، وتياشر بنفسك مصالحى
فقلت له . نعم ، لأنك أحببت النعمة عند عمك وغيرت ما فى

ففسك باحببه [يس] من أراد أن تكون نعم الناس كلها عنده .
فليحب النعمة عند غيره .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ۚ
وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٢)

قوله تعالى في الآية السابقة ﴿ فليشروه بمعفرة وأخر كريم (١) ﴾ [يس] لها موضع هنا ، فالمعفرة والأخر الكريم في الآخرة فناسب أن يحدث الحق سبحانه عن مشهود من مشهدها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ (١٢)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ (١٢) [يس] هذان صميوران للمتكلم على سبيل التعظيم ، وبنا هي نحن كما لو قلت زيد ريس ، فمادام أصافت نحن بعد بنا ، القاعدة في صناعة اللفظ أن تميز الشيء بأنى حين يكون هناك اشتراك فإن لم يكن اشتراك فلا يأتي التمييز كما لو قلت لمن يطرق على بابك من أنت ، يقول محمد ، وأنت تعرف محمدين كثيرين فتقول أى محمدين أنت ؟ فيقول محمد أحمد وأيضاً أنت تعرف كثيرين بهذا الاسم ، فتقول محمد أحمد من ؟ فيقول محمد أحمد محمود وعندها يحصل التمييز لوجود الاشتراك في الأولى ، وفي الثانية .

فكر الحق سبحانه لما قال ﴿ إِنَّا ﴾ (١٢) [يس] وليس هناك غيره قال ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ (١٢) [يس] يعنى : كانه قال إِنَّا يعنى ، لا أحد سواى ، فليس في هذه المسألة اشتراك .

وسبق أن أوضحنا أن كلام الله تعالى عن نفسه قد يأتي بصيغة الجمع كما في ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر]

وقال ﴿إِنَّا نَحْنُ بَرُّكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر] وتلاحظ أن الصمير قد للعظم وهكذا في كل الآيات التي يحدث عن فعل من أفعاله تعالى ، أو عن قصر من أفعاله ، ذلك لأن كل فعل من أفعاله تعالى يحتاج لى عدة صفات يحتاج إلى علم ، وإلى حكمة ، وإلى قدرة الح وكل هذه الصفات كاملة في (نحن) الدالة على العظمة المتكاملة في الأسماء الحسنى لله تعالى

أما حين نكلم سبحانه عن الذات الواحدة ، فنأتى بصمير المتكلم المفرد كما في ﴿إِنِّى أَمَّا اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ (٢٠) [طه] ولم يقر مثلاً إِنَّا نحن لله لأن إنا ونحن تدل على الجمع ، والكلام هنا عن الوجدانية ، فلا بد أن يأتي بصيغة المفرد .

لذلك يؤكد الحق سبحانه هذه الوجدانية بعدة وسائل للتوكيد في قوله سبحانه ﴿إِنِّى أَمَّا اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ (٢٠) [طه] فلم يقر سبحانه فاعبدنا وأقم الصلاة لذكرنا ، إنما ﴿فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ (٢٠) [طه] لأن العبادة تكون لله وحده

ثم إن عملية النعت وإحياء الموتى قد وحده لا يشاركه فيها أحد . وقال سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتِىَ﴾ (٢١) [يس] قبل ﴿وَنُكْتِبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ﴾ (٢٢) [يس] مع أن الكتانة تسبق عملية الإحياء . الكتابة كاتب في الدنيا ، والإحياء في الآخرة ، فمادامه أولاً عليك أن تلاحظ أن هذا الكلام ليس كلامك ، إنما كلام الله ، فلا بد أن تعمل عطفك بتفهم عن الله مراده ، لأن أسلوب الحق سبحانه ونعالي - يحمل من انكمالات ما يناسب كماله سبحانه ، وكلامك أنت يحمل ما يناسب كمالك

بذلك سبق أن قلنا إن القرآن به تميزات عن كل الكتب . وأن تناوله غير تداول أي كتاب فلا بد أن يُقرأ على طهارة ، وعلى وصوء ، ولا بد أن يُراعى في قراءته محارج الحروف وقواعد التلاوة وأدائها .

وفاتنا أن نقول إنه تميرٌ تميراً آخر . فكما سمير في تطقه تمير في كتابته ، فمثلاً كلمة اسم نُكتب بالألف كما في ﴿ تَبْسُوكَ اسْمُ رَبِّكَ دَى الْحَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٧٨) [الرحمن] وكما في ﴿ سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (٨٧) [الأعلى] ، لكن في البسملة في أوائل سور القرآن كُتبت بدون الألف هكذا بسم الله الرحمن الرحيم . لذلك نقول عن القرآن نكتبه بالإملاء ١١٩ لا لأن كتابته توقيف .

إذن ما الحكمة من تقديم ﴿ إِنَّا نَحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (٦٧) ﴿ [يس] على ﴿ وَكُتِبَ مَا قَدُمُوا ﴾ (٦٧) ﴿ [يس] ، قالوا لأنه ما فائدة الكتابة ؟ الكتابة للأعمال لحصر الحسنات لنثيب عليها ، ولحصر السيئات لنعاقب عليها ، فإننا لم يَكُنْ هناك إحياء للموتى وحساب وحزاء ، فما فائدة الكتابة ؟ لذلك هُدم الإحياء على كتابة الأعمال ، كما أن الإحياء أعظم من الكتابة فنباسب أن يتقدم عليها

ومعنى ﴿ مَا قَدُمُوا ﴾ (١٢) ﴿ [يس] أي من الأعمال ، والعمل قد يكون عملاً مثمراً مستمراً بعد موت صاحبه كالصدقة الجارية ، فلو حفر إنسان ثوراً مثلاً يشرب منه الناس ويموت يظل الثور يسقي الناس ، أو ترك عملاً نافعا ، هذا كله أثر من آثار العمل الذي كُتِبَ أولاً وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وَأَنَارُهُمْ ﴾ (١٤) ﴿ [يس]

ومن آثار الإنسار ما سُمِّه للناس وتركه يتبع من بعده ، سواء أكان حسنة أم سيئة ، فكله مكتوب مُسجَل في كتاب لا يثرث صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأحصى آثارها من بعد صاحبها ، فلو كتب إنسان مثلاً وصية ظالمة حرمت صاحب الحق من حقه والوارث من ميراثه تحمل كل الأثر المترتبة على هذا الظلم ، لأنه لم يحرم الوارث المباشر فحسب ، إنما حرم أيضاً دريته التي كانت ستستفيد من هذا الميراث ، لذلك يظل عليه وزرها إلى يوم القيامة

كذلك من سرق لباس قاتلنا حشراً ، فعليه وزر «قاتلوا الجائر الذي حكم هو به ، ثم على من يحكم بهد القاتل من بعده ، ومثل مسألة القطع العام مثلاً ، يقطع العام أقامه من أقامه ، ثم ظلت آثاره تنهب في الناس إلى أن ضج منه الجميع وطالب الحكام أنفسهم بتعديله

هذه القصيدة تشرح لنا حديث سيدنا رسول الله - ﷺ من سن سنة حسنة وله أجرها وأجر من عمل بها ، إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ^(١) »

أرأسم الرجل العجور يزرع النخلة وربما لا يتنعم بثمرها لكن يتنعم به من بعده ، فهذه هي آثاره من بعده يكتبها الله له ويحسبها لحسابه .

وقال بعض العلماء في معنى ﴿وَكُتِبَ مَا قَدَّمُوا لِآثَارِهِمْ﴾ [يس] أي يكتب ما قدموا من النية التي تسبق العمل ، ثم يكتب العمل نفسه وهو آثار هذه النية ، فحين تعقد نية الخير هي عمل ما تأخذ آخر النية ، فإذا ما عملت العمل تأخذ أجر العمل

وهذا يفسر لنا الحديث الشريف « من هم بحسنة فلم يعملها

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦١، ٤ - ٢٦٢) ، ومسلم في صحيحه (١٠١٧) ، وابن

ماجة في سننه (٢٧) ، والترمذي في سننه (٢٦٧٥) من حديث جرير بن عبد الله البجلي

قال الترمذي حديث حسن صحيح

كُنْتُ لَهُ حَسَنَةً ، وَمَنْ هُمْ بِهَا فَعَمَلُهَا كُنْتُ لَهُ عَشْرًا » وهذا يرشدنا إلى أهمية عقد البية قبل الشروع في العمل ليثاب عليها الإنسان ، فالمؤمن لا يأتي العمل هكذا عشوائياً

وقوله تعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس] هناك فرق بين الكتابة وإحصاء الكتابة أن تكتب الشيء ، لكن لا تصمم المكتوب إلى بعضها ، فتحتاج إلى من يحصيها ويعدّها ، فالحق سبحانه يسجل عبداً لأعمال كتابية أولاً ، ثم إحصاءً وبعدها ، والإحصاء والعد أيضاً في كتاب مسجل فيه كل شيء ﴿ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس] والإمام هو ما نُؤمّن به ، والمراد هنا اللوح المحفوظ لدى تأخذ منه املائكة مهمتها في إدارة الكون

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ رُسُلُهَا إِلَيْهِمْ فَنَافَكُوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ فَعَزَّزْنَا بِتِلْكَ قُلُوبَهُمْ
إِذْ رُسُلُهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ كَذَّبُوا كَذْبًا ظَاهِرًا ﴿١٤﴾ ﴾

- (١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢) كتاب الإيمان (حديث ٢٦) من حديث أبي هريرة وأخرجه البخاري في صحيحه بلفظ آخر (٦٤٩١) عن ابن عباس
- (٢) قال ابن كثير في تفسيره ٣ (٥٦٩) : جاء عن كثير من السلف أن هذه القرية هي بطركية وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلًا من عند المسيح عيسى بن مريم ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفي ذلك نظر من وجوه
- أحدها : صاهر القصة يندر على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح ولو كان هؤلاء من العنبريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا بهم ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [يس]
- الثاني : أن من أنطاكية آمنوا برسول للمسيح إليهم وكانوا أول مدينة أمنت بالمسيح ، وهذا كائن : عند النصارى إحدى المذاهب الأربعة اللاتي سيهن يتشاركة ، وهنّ القدس وأنطاكية ، والإسكندرية ، ورومها فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة أمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصبغة واحدة أحصتهم ،

أولاً لاحظ أن هذه الآية هي التي ستفسر لك مسأله أن يس قلب القرآن .

قوله تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم ﴾ [يس] يعرف أن لضرب هو إيقاع جسم على جسم بقوه بحيث يؤثر الجسم الضارب في المضروب ويؤلمه ، لذلك لا بد أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، وإلا كان المضروب مثل الضارب أو أقوى منه ، فالحركة حيث لا جدوى منها

ومن ذلك قول الراجعي رحمه الله مخاطباً مَنْ يَهْزَأُ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ
أَيَا هَارِثًا مِنْ صُنُوفِ الْقَدْرِ بِنَفْسِكَ تَعْتَسِفُ لَا بِالْقَدْرِ
وَيَا ضَرْبًا مَنَحْرَةً بِأَعْصَا صَرَبْتَ الْعَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الْحَجَرَ^(١)

وفي مادة ضرب يقولون ضرب الشيء من صربه يعني من شبيهه وشكله ، فإن وقف ثار في مسألة ما ، انكر لهما مثلاً مطابقاً لهما وقرن لهما هذه مثل هذه وأكرم مثل في القرآن صربه الله تعالى بيان تنويره سبحانه للكون لا لنوره ، كما نحن المعص ، هو قوله سبحانه

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا فِيهِ مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الزُّجَاةِ كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ رِيحُهَا يُصِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (٣٥) [سور]

(١) هو مصطفى صادق عبد الرزاق الراجعي عالم بالأدب شعر ، من كبار الكتاب ، أصله من طرابلس الشام ، مولده في بهتيم بمصر والد أمه عام ١٨٨٩ م . وموفي بفظ عام ١٩٣٧ م عن ٥٩ عاماً ، له رسائل في الأدب والسماسة ، بيران شعره في ثلاثة أجزاء ، وله كتاب « رحي القلم » و « المعركة » هي الرد على طه حسين

(٢) لم أقف على هذه القصيدة لراجعي ولكن له قصيدة من بحر التسيط عدد أبياتها عشرون بيتاً ، أوبى يا فاجع القوم ماذا ينفع الحذر

هذا مثل لتدبر الله للمصنوع ، وليس مثلاً لنور الله تعالى لأن نور الله كمال لا يُحصى وما نحيا به من نور الدنيا إنما هو من متعلقات بوره سبحانه ، بدليل أنه في يوم القيامة لا تكون هناك شمس سمر ☪ لا قمر بضوء ، إنما ☪ وأشرقَت الأرضُ بنورها (١٠٠) ☪ [البرق]

وقال ☪ لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٠١) ☪ [الإنسان]

ذلك لأننا نعيش في الدنيا بالأسباب مخلوقة لله تعالى أما في الآخرة فنعيش بالمسبب مباشرة ، في الدنيا أعطاك الله عقلاً يفكر ، وجوارح تعمل وأرضاً تعبت ، ومساء يروى هذه أسباب به يعيش عليها الإنسان وربما طرأ أنه أصيب في الدنيا ، وربما غُثر بها أعطاه الله ، لذلك يحجر الله هذه الأسباب بحلف بعض الأحيان ونعزُّ غلباً لنبفتنا إليه سبحانه ويقول لنا لا تغثروا بالأسباب وتعملوا عن المسبب

لذلك حين تتخلف الأسباب فيصيب الناس جدياً وقدحاً قد يطول حتى يُشرف الناس واسواقاً على الهلاك يشرع له صلاة الاستسقاء فتهرع الناس إلى الله معهم دوائهم وبسائرهم وأطفالهم ، حتى أنهم يغيرون هذامهم وملابسهم ، يجأرون إلى الله طالبين منه السُّقيا

فكان الله تعالى حلف أسبابه ليُدْكَرَ بها سبحانه ، ويُعلمنا أن المسألة ليست (ميكانيكا) ، المسألة أسبب ورائها مسبب قدر أن يُوقفها ، حتى جوارح الإنسان سخرها الله لإرادته ، حتى ربما يغتر بها الإنسان وبطن أنها ملكه ورهق إشارته ، والحقيقة نه هبه من الله إن شاء تركها وإن شاء سلبها ، بفصل السيار الكهربى بين الحاركة والعقل فتشعل الحاركة ولا تتحرك ، سريد أن يرفع يده فلا يستطيع

الآن نرى مثلاً أمريكا تُوزَّعُ المعونات على دول العالم ، وهي أكثر الدول تقدماً وازدهاراً ، وفجأة يأتيها مثلاً فيضانات يصر فيها الماء على أسطح المنازل ، كذلك اليابان مثلاً تُعَدُّ بك زلازل طبيعتها ، وهم يعرفون ذلك ويقولون : لماذا مهطل الزلازل ، لذلك يتخذون كل التدابير اللازمة والاحتياطات ، ومع ذلك يأتيهم زلزال كبير مدمر كما حدث في (سسماليد) ، فلم تُحَسَّ معه كل هذه الاحتياطات والاستعدادات

إذن : الحق سبحانه يخلف هذه المسائل حتى لا نغترَّ بالأسباب ونسبى المسبب سبحانه ، وصديق الله حين قال ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) [علق]

والحق سبحانه وتعالى يُعَلِّمنا كيف ندعوه ونلجأ إليه وحده حين نعرَّ علينا الأسباب ، فيقول سبحانه ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا بَصُرُوا .. ﴾ (١٣) [الأنعام] وكأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعَلِّمنا كيف نُحِبُّه عينا حين يقول اللهم افرج عنا ما نحن فيه

وضربَ المثل أسلوب من أساليب العربية لتوضيح المسائل والإقناع بها وأكرم مثل ضرب الحق سبحانه لتنويره كما قلنا : لأن نور الله لا مثيل له قوله ﴿ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ (٢٥) [النور أى تنويره ﴿ كَمِثْلُ شُعَاكَةٍ ﴾ (٢٥) [النور] كثيرون يظنون أن المشكاة هي المصباح لكن المشكاة هي (الطائفة) الموحودة في الحائط ، وهي عبارة عن نافذة مفتوحة من جهة واحدة يُسمونها الكوة ، وهي موحودة في بيوت الفلاحين المسية بالطوب الأبيض ، وهذه الكوة تعمل على تحميم الضوء بحيث لا يتدد هنا وهناك .

هذه لمشكاة ﴿ فِيهَا مَصْبَاحُ الْمَصْبُوحِ فِي رُحَاةِ الرَّجَاةِ كَأَنهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾ [اسراء] وَلَئِنْ تَتَأَمَّلْ كَمْ مِئْرَةً فِي هَذَا النُّورِ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْ مَشْكَاةٍ تَجْمَعُ الصُّوَاءُ ثُمَّ مَصْبِيحٌ ، هَذَا لِمَصْبِيحٍ فِي رِجَالِهِ تَنْفِي ضَوْءِهِ وَتَصْفِيَّتِهِ ، مَحَبَّتٌ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ سَحَابٌ ، لِأَنَّ الزَّحَاخَةَ تَسْمَحُ بِالْهَوَاءِ عَلَى قَدَرِ حَاجَةِ الْمَصْبِيحِ ، وَهَذِهِ الرِّجَالَةُ لَيْسَتْ رِجَالَةً عَادِيَةً إِنَّمَا رِجَالَةٌ مِثْلُ الْكَوْكَبِ الدَّرِي يَعْنِي مُضِيئُهُ بِنَفْسِهَا ، مِنَ الدَّرَةِ

نَمُ إِنَّ هَذَا الْمَصْبِيحَ يُوقَدُ بِزَيْتٍ مِنْ أَرْقَى أَنْوَاعِ الزَّيْتِ هُوَ زَيْتُ الزَّيْتُونَةِ ، هَذِهِ الزَّيْتُونَةُ لَا هِيَ شَرْقِيَّةٌ فَتَكُونُ حَارَةً وَلَا هِيَ غَرْبِيَّةٌ فَتَكُونُ بَارِدَةً ، فَهِيَ مُعْتَدِلَةٌ الْمَرَاجِ نَقِيَّةٌ ، حَتَّى أَنْ زَيْتَهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ

هُوَ إِنْ مِنْ صِفَاتِهِ يَكَادُ يَضِيءُ بِذَاتِهِ ، لِذَلِكَ يَخْتَمُ الْمَثَلُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ ﴿٣٥﴾ [اسراء] كَذَلِكَ يُنَوِّرُ اللَّهُ هَذَا الْكُورَ الْوَاسِعَ كَمَا يُنَوِّرُ هَذَا الْمَصْبِيحَ هَذِهِ الْكُوَّةُ الصَّغِيرَةُ

لَكِنْ ، لِمَاذَا بَضْرِبَ لَدُنَّ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ هَذَا الْمَثَلُ ؟ هَابُو لِأَنَّ لِحَقِّ سُبْحَانَهُ حِينَذَا خَلَقَ لِلْإِنْسَانِ ، وَجَعَلَ لَهُ حَرَكَةً فِي الْحَيَاةِ حَتَاتُ هَذِهِ الْحَرَكَةُ إِلَى نُورٍ حَسِّيٍّ يَهْدِي حَرَكَتَهُ الْحَسِّيَّةَ ، وَإِلَى نُورٍ مَعْنَوِيٍّ يَهْدِي حَرَكَتَهُ الْمَعْنَوِيَّةَ ، فَالنُّورُ الْحَسِّيُّ بِأَحَدِهِ مِنَ الشَّمْسِ نَهَارًا ، وَمِنَ الْقَمَرِ لَيْلًا ، فَمِنْ عَرُ عَلَيْنَا النُّورَ اصْطَبَعْنَاهُ ، كُلُّ عَلَى قَدَرِ إِمْكَانِهِ ، فَوَاحِدٌ يَسِيرُ طَرِيقَهُ بِشَمْعَةٍ ، وَآخَرُ بِلَمْعَةٍ (نَمْرَةٍ خَمْسَةِ) ، وَآخَرُ بِالنُّيُونِ وَالْعُلُورِ سِتِّ مِثْلًا ، فَبِذَلِكَ مَا أَشْرَقَتْ الشَّمْسُ وَحَاءَ نَوْرِ اللَّهِ اسْتَغْنَى النَّاسُ عَنْ أَنْوَارِهِمُ الصَّنَاعِيَّةِ ، وَأَطْفَعُوا مَصَابِيحَهُمْ وَتَسَدُّوا جَمِيعًا عَلَى نَوْرِ اللَّهِ ، إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَكَلَّمْنَا فِي الْآخِذِ بِنَوْرِ اللَّهِ سَوَاءً

فَمَا دَامَ نَوْرُ اللَّهِ قَدْ ظَهَرَ فَلَا نَوْرَ لِأَحَدٍ مَعَ نَوْرِ اللَّهِ ، كَذَلِكَ فِي

المعنويات وكان الله تعالى يريد أن يقول لنا إذا جاءكم حكم الله فلا حكم لأحد مع حكم الله ، وهذا هو نور القيم الذي جاءنا في القرآن الكريم ، لذلك قاز سبحانه ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢٥) [النور]

ولكلُّ مثل مضروب يُضرب فيه ، ومناسبة يُقال فيها ، فلما رأى أحدهم شاعراً بطيل في مدح ممدوحه قال لا بُدَّ أنه بحيل فاحتاح إلى كل هد المدح ليُحنِّثه على مادحه فيعطيه ، وقال في ذلك " وإذا مَرَّوْا مَدْحَ امْرَأٍ لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَطَالَ هَجَاءَهُ لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ نَعْدُ الْمُسْتَعْفَى عِنْدَ الْوُرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ " لأن نَعْدَ الماء في النثر يسدعي طول الحبل ، وهو الرشاء لدى يربط به الدار

ومن أمثال القرآن لتوصيح مسألة الشرك بالله ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رِجَالًا أَهْلَ شُرَكَاءَ مُتَشَاكِسُونَ وَرِجَالًا سَلَمًا لِرُحُلِهِمْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (٢٦) [نمر]

يعنى حين يتمحرون من دعوتهم إلى التوحيد ، وحين يحتلفون في هذه المسألة ، أصرب لهم هذا المثل وطوقهم به يعنى كيف تتعجبون من عبادة الله وحده لا شريك له ، وهي حينتكم العملية مثل ذلك فهل يستوى عندكم عبد يتنارعه أكثر من سيد وعبد لمسيد واحد ؟ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (٢٦) [الزمر]

(١) هو ابن الرومي على بن العباس بن جريج أو جورجيس ، رومي الأصل ، ولد ببغداد عام ٢٢١ هـ وبشابه ، مات فيها مسموماً قال الحريري لا أعلم أنه مدح أحداً من رثس أو مرؤوس إلا وعاد إليه هجاء وكان سبباً لوفاته

(٢) هذا البيت من قصيدة لاس الرومي من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، أوبها كل امرئ مدح امرأة لمراله بمثال فيه فقد رار هجاءه

كذلك أنتم في عبادتكم غير الله كيف تذهبون إلى عبادة آلهة
متعددة ، وتتركون الإله الواحد الحق ، إذن يسوق الحق سبحانه
لنكفار هذا المثل لجلى لهم عصيه وقعت فيها عقوبهم

والمثل في أدب العرسي نه مورد ومصرّب مورد المثل هو
الحادثة التي قيل فيها المثل ومصرّب المثل هي الحادثة المشابهة
للمورد الأصلي فكأن المورد الأصلي للمثل يؤدي إلى حقيقة معينة
يسعى أن يحافظ عليها ويكررها في الموقف المشابه ، فمثلاً حين
ترى تلميذاً يهمل دروسه طوال انعام ، ويأتي قس الامتحان ليذاكر ،
لك في هذا الموقف أن تقول (قبل انراء تملأ الكاش)^(١) فهذا مثل
مُصْرَبٌ لمن لا يستعد للأمر قبل وقوعه

فإن تحدّك رجل مثلاً وادعى أنه أقوى منك لك أن تقول له
(إن كنت ربحاً فقد لاقيت إعصاراً)^(٢)

والمثل يُقار كما جاء دور أن نعيد في لفظه شيئاً ، فلو أُرست
مثلاً رسولاً ليأتي لك بالأخبار تقول له حين يعود (ما وراءك
يا عصام)^(٣) كذلك إن كانوا مثني أو جمعاً ، فالمثل يلزم صيغة

(١) هو مثل مصرّب في الاستعداد لنواب من خلوها ، ذكره أبو هلال العسكري في جمهرة
الأمثال ، وكذا الميداني في جميع الأمثال ، وابن عبد ربه في العقد الفريد (كتاب الجومرة
في الأمثال)

(٢) أي لاقيت من هو أشد منك ذكره أبو منصور الثعالبي في كتابه « التمثيل
والمحاضرة » وكذا الومحشري في « المستقصى في أمثال العرب »

(٣) قال أبو عبد من أمثاله من الاستحسان قولهم ما وراءك يا عصام ، يقال إن المنك
هو النبعة النبطية قاله لعصام بن شهير الجرسى صاحب القعمان وكان مريضاً ، فقال
النبعة عصاماً عن الثعالب ذكره أبو عبيد بن سلام في « الأمثال » وقد أورد أبو هلال
العسكري في كتاب « جمهرة الأمثال » أن عصاماً امرأة وقد كتبت رسالة من الحارث بن
عمرو الكندي إلى بنت عمرو الكندي فقما رجعت إليه قال لها ما وراءك يا عصام ،
فوصفها له

يريدون تعذيب هؤلاء المرسلين ^{١٢} يسرع بيقف الموقف الحق مع المرسل
صد أهن القرعة هذا هو المثل .

ومعنى ﴿إِذَا جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس] أى مُرْسَلُونَ من الله
فما يرسل عيسى لهما إلا من بطر إرسال الله ﴿إِذَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا ثَالِثًا﴾ [يس] ١٤ قَوَّبَهُمَا بِهِ ، والمراد قَوَّبْنَا بِحَقِّ
الَّذِي يَحْمِلَانِهِ ، فإرسال الثالث ليس تأييداً لهما بذاتهما ، إنما تأييد
للحق ، بدليل أنه سبحانه لم يَقْرُءْ عَزَّزْنَا هُـبَ وهذه من دقة الآراء
القرآنى وبلاغته ، فلو جاء الحق على لسان غيرهما سنزيدهُ أيضاً
إلى الاعتبار هـا ليس للأشخاص ، إنما لنحق الذى جاءوا به

وهذه المسألة لها نظير فى قصة سيدنا موسى عليه السلام فى
قوله تعالى ﴿سَيُشَدُّ عَصْدُكَ بِأَحْيَا﴾ [قصص] ٢٥ فكأن هرون عليه
السلام جاء بعيراً لموسى نفسه لا للحق لدى إرساله كما فى
القصة السابقة ، لأن هناك فرقاً بين الحالتين فموسى عليه السلام
هو الذى طلب من ربه أَنْ يَشُدَّ عَصْدَهُ ، واختار لذلك أحياه هرون ،
فموسى المختار للرسالة يَقْرُءُ على نفسه ، ويطلب المساعدة والتأييد
بأحياه ، فكانه عليه السلام يحب الحق ، ويريد نُصْرَتَهُ ، ولو جاءت
هذه النُصْرَةُ من غيره

سبق أن قلنا إن لكلام سفرة بين المتكلم والمحاسب المتكلم
ينقل حواضر نفسه ومرداته إلى المحاطب ، فإذا كان المخاطب خالى
الدَّهْنِ عن الأمر ، يرسل إليه الكلام مُرْسَلاً دون تأكيد ، فإذا لم يَكُنْ
خالى لدهن عن الموضوع وعنده شك أو إنكار أو تكذيب فلا بُدَّ أن
تؤكد له كلامك بمؤكد يناسب استقباله للأمر ، هـبْ كان شاكاً أكدت
له الكلام بمؤكد واحد ، وإن كان مُكْراً جئْتُ له بأكثر من مُؤَكَّد ،
كما فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ [يس]

فَلَا تَدَّ أَنْ الرُّسُولِينَ أَوَّلِينَ قَالَا لَقَوْمٌ نَحْنُ مُرْسَلُونَ إِلَيْكُمْ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَكُنْ كَذَّابٌ الْقَوْمُ ، فَلَمَّا جَاءَ الثَّالِثُ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ
يُردَادَ الْكَلَامَ تَاكِيدًا فَقَالُوا ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ (١٤) [يس] فَانْكُرُوا
الْكَلَامَ هَذَا بِأَكْثَرٍ مِنْ مُؤَكَّدٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَذَّبُوا أَيْضًا

﴿ قَالُوا مَا أَتَيْنَا إِلَّا نَشْرَ مِثْلِنَا وَمَا أَرْسَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ
شَيْءٍ إِنْ أَتَيْنَا إِلَّا تَكْدِيرُونَ ﴾ (١٥) قَالُوا أَرَبِمَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٦)

فلما كذبوا وأنكروا للمرة الثانية كان لا بد من تأكيد الكلام على
هذا النحو ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦) [يس] وكل كلمة من هذه العبارة
فهي تأكيد ، أولاً بـ ، ثم أسلوب القصر في تقديم الجار والمحرور
إليكم ، ثم لام التوكيد في (لمرسلون) ، إذن على قدر الإمكان
يكون التأكيد ، وهؤلاء ينكرون الرسالة من عدة وجوه أولاً ﴿ قَالُوا مَا
أَسْمُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ (١٥) [يس] ، ثم ﴿ وَمَا نزلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١٦) [يس] ،
ثم ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٥) [يس]

وقبلهم ﴿ مَا أَسْمُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ (١٥) [يس] يعترضون أن بشرية
الرسول قد دحضت في الرسالة ، لكن كيف تتحقق الرسالة إذا لم يكن
الرسول من البشر ؟

الحق سبحانه يناقشهم هذه المسألة في موضع آخر فيقول
سبحانه ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا ابْعَثْ اللَّهُ بَشَرًا
رَسُولًا ﴾ (٢٠) قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٩٥)

هذا أول رؤا عليهم ، فالذين يمشون على لأرض بشر ليسوا

ملائكة

وفى موضع آخر يجرى الحق الحلق ، عيقون وحتى لو جاء
الرسول ملكا لا ند أن يبرى على صورة البشر ﴿ ولو جعلناه مكاء جعلناه
رجلا ﴾ (١) ﴿ [الانعام] وإلا كيف ترونه ؟ وكيف تطلقون منه على صورته
الملائكة

[س] لا ند أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم لتصح
الأسوة فيه ، وكيف تتحقق الأسوة في الرسول الملك وهو
لا معصى الله أصلاً ، والرسول مطالب أن يبلغ منهج الله ، وأن يطبقه
بنفسه لذلك قال سبحانه ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ (٢) ﴿
[الأحزاب] يعنى يصدق هو المصباح الذى جاء به هل رُئى لغيره للناس

وقولهم ﴿ وما نزل الرُّحْمٰى من شىء ﴾ (٣) ﴿ [س] دل على عدائهم
فى الأداء ، فعجيب منهم أن يعترفوا لله تعالى بصفة الرحمة وهم
لا يؤمنون به ومن مقتضيات هذه الرحمة أن يرسل إليهم رسولا
يدلهم على الخير ويدفعهم عن الشر ، إن يعرفون بالحسنة إلى
تدبيرهم ثم يزدون على ذلك فيتهمون الرسل بالكذب ﴿ إنا أنتم لا
تكذبون ﴾ (٤) ﴿ [س]

وعندها يؤكد الرسل رسالتهم فيقولون ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم
لمرسلون ﴾ (٥) ﴿ [س] مكمة ﴿ ربنا يعلم ﴾ (٦) ﴿ [س] حلت محر القسم
لأنهم يشهدون الله على صدق رسالتهم واقسم عبد العرب لإثبات
قضية مختلف عليها ، وما دام قال الرسل ﴿ ربنا يعلم ﴾ (٧) ﴿ [س]
فالامر إما أن يكون صحيحاً ، أو غير صحيح فإن كان غير صحيح
فقد كذبوا على الله

وقد اجمع العرب على ان الكذبة لفاحرة تُوجب حراب الديار .
 هكذا يعتقدون - وفي حديث النبي ﷺ ما يدل على ان الكذب
 يجعل الديار بلاقع ، ولما سئل ﷺ ايسرقة المؤمن ؟ قال نعم
 ايزني المؤمن ؟ قال - نعم . ايكد اسؤم ؟ قال لا
 فالكذب مذموم مهينٌ منه ، حتى عند غير المؤمنين بدين : لذلك
 رأينا كفار مكة لا ينطقون بكلمة التوحيد لا إله إلا الله ولو كانوا
 يعلمون أنها كلمة نقل ليس لها مدلول لقلوبها ، لكنهم يعلمون
 مدلولها ومعناها ، يعلمون أنها تعني ان العبادة لا تكون إلا لله وأن
 الأمر وانتهى وأسيادة لا تكون إلا لله . الح لذلك تأثراً فلم يقولوها
 لأنهم لا يريدون مدلولها

هؤلاء الكفار في تكذيبهم للرسول يعتقدون أنهم بذلك يغارون الله
 يستقون من الرسول الذين يكذبون عليه سبحانه فيفخرون

﴿ قُلْ إِنَّا نُنْذِرُ بَأْسَكُمْ لَئِن تَمَتَّنْهُمْ نَكُنْ لَهُمْ مَكْرًا فَاحْشَكُمُ
 وَلَئِن مِّنْكُمْ مِّنَ الْعَادِلِينَ ﴾

كأنهم يقولون للرسول ما دُمتُم كذبتُم على الله وقتلتُم ﷺ وما يعلم .
 (٦) [بس] في أمور بطركم فيها كاذبين ، فقد تطبَّرت بكم يعني

١ بلاقع جمع بلقع وهي الارض القعر التي لا شيء بها . وفي مخرج السهني في السنن الكبرى
 كتاب الايمان - باب اليمين العموس حديث رقم (١٩٦٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله
 عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ليس شيء أطيب الله فيه أعجل ثوباً من صلح الرحم ، وليس
 شيء أعجل عقاباً من المعنى وقطيعة الرحم » واليمين الناحية ندع الديار بلاقع .
 ٢ أورده بهذا اللفظ المنقح الهندي في مسند الكسري (٣١٥) على فميش مسند احمد من
 حديث عبد الله بن جراد وعزاه لابي عمارة . وأورد أيضاً ان أبا الدرداء سأل رسول الله ﷺ
 يا رسول الله ، من يكذب المؤمن ؟ قال لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . إننا حدثك كذب
 وعنه الحطاب البغدادي في المنقح

تشاء منا والتطير من لطيرة . وكانت عادة معروفة عند العرب . فكانوا حين يريد الواحد منهم عمل شيء ، يأبى إلى طمر فمجره ويطلقه ، فبرى إلى أين يطير فرب طار إلى اليمين مضى ما ينوي عليه وإن طار إلى اليسار أسك وتشاءم ، وقد حرم الإسلام هذه العادة ونهى عنها

وقوبهم ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ [يس] أى عما تقولونه من أنكم مُرسَلون بمهج ﴿ لرجمكم ولعذبكم ما عذاب أليم ﴾ [يس] فجمعوا عليهم الرحم والعذاب لأليم ، والرجم تغير العذاب ، الرحم رمى بالحجارة حتى الموت ، فهو بهاء العذاب ، لأن التعذيب إيلا م حى ، فمن مات لا يستطيع أن يُعذب ، لذلك قالت العرب لا بصير الشاة سلحها بعد دبحها

لذلك لما ادعى أحد القصة أن القرآن لبس فيه نص على الرجم فلما لهم صحيح ، يسر فى القرآن آية تنص على الرجم لكن أيهما أقوى فى التقين الكلام أم الفعل ؟ أيهما يُعدُّ حجة ؟ لا شك أن الفعل أقوى حجة لأن الكلام يمكن أن يؤوّل ، أما الفعل فلا يأوّل فيه ، وقد فعل الرسول ﷺ الرجم فى ماعز والعامدية

إنّ الاحتجاج منا ليس بالنص القولى ، إنما بالفعل من رسول الله الذى قوّصه الله فى أن يشرع ، وأمرنا بطاعة أوامره ، فقال سبحانه ﴿ وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [احضر] وأحق سبحانه لا يسأمرنا هذا الأمر إلا إذا كان قد ترك لرسول الله أمورا يشرعها

ومنه من مبراته ﷺ على غيره من ارسل ، فكل رسول ما عليه إلا أن يُنفع الحكم كما جاءه من الله ، أما سيدنا رسول الله فأمر أن



يُنْعَمُ عَنْ اللَّهِ وَتَرَكَ لَهُ بَعْضَ الْأُمُورِ ، وَفَوَّضَ أَنْ يَشْرَعَ فِيهَا
بِذَلِكَ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَانْتَهُوا ﴾ (٧) [الحشر]

بِذَلِكَ حِينَ نَسْتَقْرِئُ آيَاتِ الطَّاعَةِ تَحْدِثُ الْقُرْآنَ يَقُولُ مَرَّةً -
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (٨٦) [المائدة]

وَيَقُولُ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ (١٣٢) [آل عمران]
وَيَقُولُ ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (٥٩) [النساء]

فَتَكَرَّرَ لِفِعْلٍ (أَطِيعُوا) يَعْنِي أَنَّ الْجِهَةَ مُفَكَّةٌ ، فَلَهُ تَعَالَى أَمْرٌ
وَلِرَسُولِهِ أَمْرٌ ، يَعْنِي أَطِيعُوا اللَّهَ فِي اسْتِقْبَالِ الْإِحْمَامِ أَعْمَامٍ ،
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي تَفْصِيلِ مَا أَحْجَلُ ، فَفِي رُكَاةٍ مَثَلًا حَاءَ الْأَمْرِ
أَعْمَامٍ بِأَدَاءِ الرُّكَاةِ ، لَكِنْ لَمْ يَحْدُدِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَهُ بَصَابًا ، هَذَا
النَّصَابُ بَيْنَهُ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ إِذَنْ اللَّهُ فِيهَا أَمْرٌ ، وَلِلرَّسُولِ أَمْرٌ

أَمَّا إِنْ جَاءَ الْأَمْرُ (وَأَطِيعُوا) وَاحِدًا وَعُطِفَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ ،
وَلَمْ تَكُنْ الطَّاعَةُ مَعَ الْمَطَاعِ ، فَاعْنَمَ أَبُ الْأَمْرِ وَاحِدٌ قَالَهُ اللَّهُ وَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ، فَطَاعَةُ الْمَطَاعِ الثَّانِي مِنْ بَاطِنِ طَاعَةِ الْمَطَاعِ الْأَوَّلِ ، كَمَا
فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٢٩)
[النساء] فَلَمْ يَقُلْ وَأَطِيعُوا أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، لِأَنَّ صَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْ
بَاطِنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَبِئْسَ لَهُمْ طَاعَةُ مُسْتَقْلِلَةٍ مُنْقَضَةٍ ،
بَلْ طَاعَتُهُمْ فِي ظُلِّ صَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ

إِذَنْ - الْإِسْتِدْلَالُ بِأَفْعَلٍ أَقْوَى مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ بِأَعْوَلٍ ، فَإِنْ قَدْ قَاتَلَ
نَرِيدُ أَنْ نَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نَقُولُ نَعَمْ ، هَبَاكْ كَلَامَ بِالْصَّ
وَكَلَامَ بِاللَّارِمِ ، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ حِينَ تَكَلَّمَ عَنِ الْإِمَاءِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ
قَالَ ﴿ فَصَلِّهِمْ نَصَفًا مَا عَلَى الْمُخَصَّصَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (٦٥) [النساء]

والعذاب كما قلنا إيلا م حى أما الرحم فهو إنهاء للحياة ، وإنهاء للعذاب ، لذلك بين الحق سبحانه أن النصف للعذاب ، وهذا يُخرج الرحم ، لأن الرحم لا يُنصف إذن فالنصف ليس على الإطلاق وكونه يخص هذا العذاب فهذا يعنى أن عليهن الرحم أصلاً كاملاً ، لا يُنصف

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام وإلهده ﴿لَأُعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَأَذِيبَنَّ﴾ [سج] إذن العذاب غير لذبح وغير القتل

وقولهم ﴿لَرَجُمَنَّكُمْ﴾ [سج] الرحم قد تطلق على اقنوس ، ورجمكم بالفعول ، وقد يكون الرحم على حقيقته بشدة حتى الموت ، أو بهوادة ، فتراد منه الإيلام

﴿فَالْوَاطِئُ رُكْمٌ مَّعَكُمْ أَبْنٌ ذُكَّرْتُمْ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

معنى ﴿طائركم﴾ [سج] يعنى تشاؤمكم ﴿مَعَكُمْ﴾ [سج] أى ملارم لكم ، والمراد هنا الكفر والهمرة الأولى هى ﴿أَبْنٌ﴾ [سج] للاستفهام و (بَنٌ) أداة شرط وحوابها محذوف تقديره أئن نُكَّرْتُمْ بالله ومنهج خالقكم ، وبما يُسعدكم فى دياركم تكون النتيجة أنكم تهديرون المدكر لكم بالرحم وبالعذاب الاليم بدل أن تدركوا به وتعبوه وتتعبوا ما جاءكم به ،

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [سج] يعنى مستجاوزون للحد ، لأن الأمر بيننا وبينكم لم يخرج عن كونه صاطرة كلامية بم تعد فيها حدود البلاع بأنا مُرسلون إليكم ، فكانت النتيجة أن قاطن المباطرة

الكلامية بهذا الفعل القاسى امسرف استجاوز للحد ، حيث جمعتم
علينا الرجم والعذاب الاليم

فى هذه الاثناء ، ماذا حدث ؟

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾ اتَّبِعُوا مَنْ
لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٥﴾ وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ الَّذِي
فَطَرَنِي وَالْيَوْمَ تُرْجَعُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ اتَّبِعُوا
الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤) [يس] يدل على أن المرسلين الأولين اللذين كذبتهما انقوم
كان بهما أنصار مؤمنين بهما مُصدقون لدعوتهما ، فلما جاء الثالث
وايضاً كذبه القوم أحدث هؤلاء المؤمنين حمية الحق ، وكان منهم هذا
الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لتبصرة الحق وإعلاء
كلمته ، وقالوا : اسمه حبيب النجار

ونلاحظ فى هذه الآية أولاً قوله سبحانه ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ (٤)

(١) قال القرطبي هو حبيب بن مري وكان نجاراً وقبل إسكناً وفيه قصار (صاعاً)
وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان يبحث الأصنام ، قال
وهب كان حبيب مسجوداً ومبذوله عند أقصى باب من أبواب المدينة وكان يعكف على
عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، فلهم يرحمونه ويكشفون ضرره فلما استجابوا به ،
فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال من من آية ؟ قالوا نعم ندعو ربنا الفادر
ليخرجك عنك يا بك فقال إن هذا لعجب لى ، أئعو هذه الالهة سبعين سنة تخرج عن
السم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير ،
وهذه لا تنفع شيئاً ولا نضر ، فأنس ودعوا ربهم فكشفت الله ما به ، كان لم يكن به يأس
تفسير القرطبي (٨ ٥٦٥٢)

[يس] أنه لم يكن قريباً من مكان هذه المناظرة الكلامية ، وأنه تحمّل المشاق في سبيل نصرتة للحق ، وهذا دليل على قوة الطاقة الإيمانية عند هذا الرجل ، ودليل أيضاً على أن الرسولين السابقين قد بلغا دعوبهما أقصى المددنة

ثم وصفه بأنه (رَحُورٌ) ولم يقرّ فلان ، فذكر الصفة الضرورية في تكوينه أنه رجل .

وهما الرجل هي التي تحدد مقدار رجولته ، فرجل يريد الحياة لنفسه فقط والكل يخدمه يرى كل شيء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد ، هذا رجل وطنه نفسه وذاته ، ورجل وصه أمه وعيانه يُعذّي إليهم مفعته ، ورجل وطنه أمته ، ورجل وطنه العالم كله مثل سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو فلسفة الرجل

إذن همم الرجال هي التي تحدد أوطانهم ومنازلهم ، وأعلى هذه العنبر رجل وصنه العالم كله ، لأن الخلق كلهم عيال الله فمن يحب الخير لهم ويثر عليهم ما ينفعهم فقد استأنسه الله على رزق العباد

ومثلنا ليس ذلك فها هب أن لك أولاداً ، واحداً منهم يأخذ مصروفه فينفقه على ملذاته ورغباته وغيا لا يفيد ، والآخر يشتري بمصروفه حلوى ويورعها على حوته الصغار ، فأيهما نُؤثره بعد ذلك ، وأيهما نرسله ، كذلك اليد المناولة عن الله لخلق الله ، وكان الله يقول له أنت مأمون على نعمتي مأمون على خلقى ومن ذلك قول الشاعر

رَأَى امْرُؤٌ لَا نَسْفَرَ دِرَاهِمِي عَلَى الْكُفِّ إِلَّا عَابَرَاتِ سَبِيلٍ
وقوله ﴿يَسْمَعُ﴾ [س] بمعنى أن مجيئته لم يكن عادياً إنما

مسرعا يجرى ﴿قَالَ يَقُومُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢﴾ [يس] وقوله ﴿يَقُومُ﴾ ﴿٢﴾ [يس] بداء لحسين اسدي ، كأنه يقول يا أهلي ، يا عشيرتي يا أبنائي نذكر ما بيده وبينهم من صلوات المودة والرحمة

وقوله ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧﴾ [يس] يدل على تأييده لهم ، وهو هنا يذكر الحثية الأولى لهذا الاتباع هي أنهم مرسون ، ثم يذكر لهم حثية أخرى فنقول ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرَ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [يس] يعنى ، لم يطلبوا منكم أجرا على دعوتهم

وكلمة ﴿مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ ﴿٢٠﴾ [يس] لا تقول إلا إذا كان العمل الذي قام به يحتاج إلى أجر ، والرسول ما جاء إلا لينفع المرسل إليهم ، فهو مطلقا يحتاج إلى أجر ، لكن من يستطيع أن يوفيه أجره ؟ لا أحد يوفيه جره إلا الله ، لأن نفع الرسول يتعدى نفع الدنيا إلى نفع الآخرة ، فمن من البشر يعطى الرسول ما يستحقه ؟

لذلك رأينا الرسل جميعا يقولون هذه الكلمة ﴿إِنْ أُخْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿٧٢﴾ [يونس] يعنى أنتم أيها القوم لا تملكون مقدار جرى ولا تقدرور على تقسيمه ، إنما يعطى أخرى الذى أعز من أجله كل رسل الله قبلوا هذه الكلمة إلا رسولين ، هما سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر ، ولا يليق أن يطلب منه أجرا على دعوته ياه إلى الحق ، كذلك سيدنا موسى أور ما دعا فرعون الذى ربّه فى بيته ، وبه فخر عليه ، فكيف يطلب منه أجرا ؟

وقوله سبحانه ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [يس] حثية ثالثة لاتابعهم ،

فهم مُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلِ مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ، والله لا يرسل إلا من يهدي إلى صراط مستقيم يرص إلى سمحانه هؤلاء المرسلون مهتدون في أنفسهم ، وبتألي هادون لغيرهم ، فهو إذن يذكر الأمر وعلمته ، هؤلاء الرسل لا يسألون أجراً ، ولا يدعون إلى ضلال ، بل إلى هدى

ثم يتفحص هذا الرجل إلى نفسه ، فيقول بالقوم أنا لا أملك أمراً أنا عنه بنحوه ، ولو كتب سَأَعِشْكُمْ عن أعش نفسي * وما لي لا أعبد الذي فطرني (٢٢) ﴿ [سر] أي خلقتني من العدم ، فهو أولى بالعبادة ، هو الذي صنعني أوجدني من عدم ، وأمكنتني من عدم ، ولا زال يؤاني على نعمه ، إذن ما يمنعني أن أعبده وهو أولى بالعبادة ، ولو لم تكن عبادتي له إلا لأكافئه على نعمه دون نظر إلى ثواب لكافئ عبادته ووجبة

وهذا ليس كلام رسول ، إنما كلام رجل مؤمن متطوع بأمر الإيمان نفسه ، فأرد أن يركي إيمانه ، وأن يعزى هدايته إلى غيره من باب قوله ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

الحق سبحانه حيي الخلق أولاً ، ثم أرسل الرسل بالهدى لهديتهم ، أرسل بدورهم بلغوا الأصحاب ومن بلغه شيء تحمله كما تحمله الرسول ، لذلك قال سيد رسول الله ﷺ « بصرت الله أمراً سمع مفاسي هوعاها ، ثم أدھا إلى من لم يسمعها فرب مئاع أوغى من سامع »^(١)

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١٢) ومسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك يلفظ « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحد حتى يحب لجاره » أو قال لأخيه « ما يحب لنفسه »

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٧/١) ، والترمذي في سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن مسعود في سننه (٢٢٢) والحميدي (١، ٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

إِسْ مسئولية الدعوة يتحملها أولاً الرسل ثم المؤمنون بهم
الذين بلغتهم الدعوة وهذا التحمّل ليس تفصيلاً ، إنما تكليف من
الله بذلك فقال سبحانه ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ رَئِيسَ رِسَالَتِهِمْ لِيُشْهِدَ اللَّهُ لِرِئْسِ الْأُمَمِ أَن مَّا جَاءَكُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سفره] فكما شهد الرسول أنه بلغكم هو جب عليكم
أن تشهدوا على الناس أنكم بلغتموهم لأن المؤمنين بالرسالة امتداد
للسور

ذلك ، ربما هذا الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة
يسعى لإعلاء كلمة الحق وتأييد الرسل لم يكن رسولاً ولم يكلفه أحد
بهد إنما تطوّع به لأن طاقة الإيمان عنده دفعت إلى هذا الموقف
ثم نراه يُصنّق المسألة على نفسه أولاً ، فيقول ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ
الَّذِي فَطَرَنِي﴾ (٢٢) ﴿إِس﴾ وهذا لطيف في عرض الدعوة وُحَرى أن
تُقل

وقوله ﴿وَمَا لِي﴾ (٢٦) ﴿إِس﴾ كأنه يتعجب من أمر نفسه نو أنه
لم يؤمن بالذي فطره ، واستعجب من النفس أصدق أنواع التعجير ،
كأنه لا يمارى ولا يداهن ويقول ما في نفسه ، كما يمار سيد
سليم - عليه السلام ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَى﴾ (٢) ﴿لَمَر﴾

فالجواب ليس عند الغير بل عنده هو ، كأنه يقول لا بُد أن
يكون الهدى موجداً لكني لا أراه فاقاعدة أنه يستعمل الكل والكل
موجوب ، فالعجب عندي أنا ما لي لا أراه ، ثم يعيد الأمر ﴿إِنَّمَا كَانَ
مِنَ الْعَاسِينَ﴾ (٢) ﴿إِسمل﴾ يعني إما أن يكون المانع من عندي أنا ، أو
من عنده ، كأنه يشكك في الأول ، ثم يدقق الأمر فيجده من عنده

فَقُولْ ﴿وَمَا لِي لَا عِندَ اٰدَىٰ فَطْرِي وَاِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ [يس] كَأَن
أَمَرَ الْفِطْرَةَ وَالْخَلْقَ يَقْتَضِي أَن نَّعْبُدَ اٰدَىٰ فَطَرَ ، وَالْحُرُوحَ عَنْ هَذَا أَمْرٌ
يَسْتَدْعِي الْعَجَبَ

دلل في سورة البقرة الحق سبحانه بلقيث في محاطة الكافرين
﴿كَيْفَ نَكْفُرُ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ اٰمَرَاتًا فَاَحْيَاكُمْ﴾ ﴿٢٠﴾ [البقرة] يعني كيف يكون
ذلك منكم ، إِنَّ كُفْرَكُمْ بِاللّٰهِ اَدَىٰ خَلْقِكُمْ وَرَفْعِكُمْ أَمْرٌ لَا يَحُورُ بِاِمْتِطَاقِ
الْعَقْلِ ، فَاحْبِرُونَا اِذْ اِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي كُفَرْتُمْ بِهَا

وَلَفْطُ الْخَلْقِ الْعَجِيبِ عَلَى عِبَرٍ مِّثَالِ سَابِقٍ ، ذَلِكَ يَقُولُ
سَبَّحَانَهُ عَنِ نَفْسِهِ ﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ ﴿٧﴾ [البقرة] يعني خلق
السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق لاحتداه في لَخْلُقِ

أَوْ نَالِ الْمَعْنَى ﴿اٰدَىٰ فَطْرِي﴾ ﴿٢٦﴾ [يس] أَيْ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ
إِيمَانِ فَطْرَةٍ ، اِدَىٰ فَاِيمَانُهُ بِاللّٰهِ ، مَا اِيمَانُ شُكْرٍ لِمَنْ خَلَقَهُ وَأَوْحَدَهُ
عَنِ غَيْرِ مِثَالِ سَابِقٍ ، أَوْ يَمَانُ الْفِطْرَةِ الْاُولَى الَّتِي فَطَرَ اِنَّهُ الْاَدَسُ
عَلَيْهَا ، وَاسْتِجَابَ هُوَ لَهَا فِي ثَابِتِهِ مِنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ

وَحِينَ تَتَأَمَّلُ مَهْمَةً هَذَا اَلْحَرَجُ بَحْدُ أَنَّهُ أَشْبَهَ بِاَلْعَبْلِ دَلِيسُهُ بِسَفَى
أَعْصَاءِ اَلْحِسْمِ ، أَيْ مِنْ حَيْثُ تَكْوِينِ مَرَاثِلِ الْإِيمَانِ ، كَيْفَ اَلْحِسْمِ
عِبَارَةٌ عَنْ حَوَارِجٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، لِكُلِّ حَارِجَةٍ مَهْمَةٌ وَوِظِيفَةٌ ، وَحَيَاةُ الْجِسْمِ
تَتَطَلَّبُ مَقُومَاتِ اَلْحَيَاةِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْهَوَاءِ ، فَتَأْكُلُ الْإِنْسَانُ
مِنْ فَتَاحِ الْاَرْضِ ، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا

رَبْعُ عَمَلِيَةِ التَّنَافُوسِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعْمٍ لَّهُ فِي أَسْنَانِ تَقْطَعُ ،
وَأَصْرَاسٍ تَطْحَنُ ، وَلَعَابٍ يَسَاعِدُ فِي عَمَلَةِ التَّلْعِ ، وَعَصَارَاتِ
هَاصِمَةٍ اَلْحَ يَتِمُّثَلُ الْغَدَاءُ فِي الْحِسْمِ إِلَى دَمٍ يَسْقِيهِ الْقَلْبَ فَيَأْخُذُ

منه حاجته أولاً ليقوّي نفسه على صُحِّ لدم إلى باقى الأعضاء ليؤدى كلَّ عضوٍ مهمته

كذلك ، كان هذا الرجل من حيث قوه إيمانه ، فبعد أن آمن واستقر الإيمان في قلبه أراد أن يُعدّي إيمانه إلى قومه ، وأن يُشيعَ عنهم من الهداية التي تشرب بها قلبه ، إذن فهو يمثل قلب لرسالات ، لذلك جاء في الحديث الشريف أن « يس قلب القرآن » وهذه المسألة لم تات إلا هي يس ، لذلك كانت هي قلب القرآن ، لأنها جاءت بتأخر مرحلة من مراحل الرسالات لتطوعية التي تخدم الرساله الواجبة

وما دام أن رسول الله ﷺ قد أحضر أن يس قلب القرآن ، فعلى المؤمن أن يقبل كل ما جاء في فضلها مما صُحِّ عن رسول الله ، وليس من الضروري أن نقف على علة كل شيء ، لأن الإيمان كما قلنا عيب ومشهد ، والمؤمن يسأحد من صدق ما شاهد دليلاً على صدق ما غاب عنه

إذن نأخذ هذه الأحاديث على بعين والرأس ، حتى إن فرأت يس ، فلم تحد ما أخبرت به الأحاديث ، فيكفيك أنك تقرأ كلام الله ، وإن نعدم الحسير على أى حال ، لذت رأينا بعضهم يصحح الأحاديث التي تحت على قراءة القرآن

وقد ورد في حديث أنى أن المريض الذى تقرأ عنده يس تاتيه صفوف الملائكة على قدر كل حرف منها عشرة آلاف ملك ،

(١) لفرجه أحمد بن مسنده (٥ ٢٦) من حديث سمعت من يسار أن رسول الله ﷺ قال « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له وقرأوها على موتكم »



لا يفرقوه حتى يموت ، ثم يشهدون تنفسيله ، ويشهدون تشييعه ،
والصلاة عليه ودفنه^(١)

ومى رواية أخرى من قُرِئت عنده يس وهو مريض ، أو قرأها
هو لنفسه بأنه حسريل عليه السلام بكاس فيه ماء فيشربه شربة
لا يضما بعدها ، ولا يحتاج إلى أحواص الأنبياء^(٢)

مدا كله وغيره على العين والرأس ، نحقق معناه عندها ، أو
لم يتحقق

وقوه سبحانه ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ (٢٦)﴾ [يس] معنى لا تطوا أنكم
تفسون من الله ، لأنكم فى قبضته ، وأنتم فى البدء كنتم معه
بإقراركم ، وكذلك تكون النهاية إليه والمرجع ، فإن لم تُقدروا نعمة
الإيجاد فقدرُوا نعمة العود

ونلاحظ فى هذه الآية أن الرجل المؤمن يتكلم عن نفسه بصيغة
المفرد ﴿وما لى لا أعيد الذى فطرنى (٢٤)﴾ [يس] ثم يعدل عن الأفراد إلى
خطاب الجماعة والقوم المكذبين ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ (٢٦)﴾ [يس] ولم يقل
وإليه أرجع ، لماذا ؟

قالوا لأن الساعة التى هى أصل العبادة إنما تأتى على مراحل
ثلاث

(١) قد وجدنا أحاديث فى بعض سور يسن ليس من بينها ما ذكره فقد أخرج الترمذى
والدارمى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله
ﷺ « إن لكل شىء قللاً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ من كتب الله له مقرءته فقرأه
القرآن عشر مرات « أوردته السيوطى فى الدر المنثور (٣٧/٧)

(٢) ما وجدته قريباً من هذا ما أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قلابة موقوفاً عليه
من قرأ يس عشر مره ، ومن قرأها عند طعام خاف قلبه كلامه ومن قرأها عند ميت هوئ
عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها ولدها يسر عليها ، ومن قرأها فكانت قرأ القرآن
أحدى عشرة مرة « قال البيهقى هكذا نقل إلينا عن أبى قلابة وهو من كثر التابعين ، ولا
يلو ذلك إن صح عنه إلا بجلاء

الأولى ، أَنْ تطيع مَنْ تحدّ منه بمودحاً كمايأُ يستحق أن يُصاع .
ويستحق أن يُحمد لكماله ، وإنْ لم يعدْ عليك منه شيء ، كما تنظر
مثلاً إلى قصيدة رائعة معبرة فتعجب بمقائدها وتثنى عليه . أنت
لا تعود عليك شيء منها لكك تُقدّر الشاعر لذاته

الثانية : أن تطيع إساناً وتُقدّره لمنفعة تعود عليك منه ، وكثيراً
ما نرى الناس يخدمون رجلاً جبناً لا يستحق أن يخدم ، وما حذمه
الناس إلا طمعاً فيما عنده .

والمرحلة الثالثة : أن تصيع شخصاً أو تحترمه لمجرد الخوف
منه واتقاء شره .

وقد حقق الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى المرحلتين
الأولى والثانية في قوله ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يسر] فأما
أعبده لأنه بكماله يستحق أن يُعبد ، وأعبده بنعمه المتوالية ، أما
المرحلة الثالثة فجعلها لهؤلاء المكذّبين من قومه ، فقال ﴿وَلِيهِ
نُرجعون﴾ [يسر]

يعنى تنبهوا يا قوم إذا لم تقدروا على الله صفات الكمال التي
بُحِبَّ لأجلها ، ولم تقدروا على الله بنعمه المتوالية عليكم ، فاعلموا أن
العودة إليه والمرجع والمصير بين يديه ، وهو سبحانه قوياً عليكم ،
لا يفلت من قبضته أحد .

ثم يؤكد هذا الرجل المؤمن على مسألة عبادة الله وحده فيريد

﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ
لَّا تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ [٢٣] إِنِّي إِذَا
لَمْ يَصْنَعْ مُبِيبٌ ﴿٢٤﴾ إِنِّي أَكُفِّرُكُمْ فَاسْمَعُوا﴾ [٢٥]

الاستفهام بي ﴿أَتُحَدُّ﴾ [س] يحمل معنى النعجب والإكثار فهو بتعجب ويكرر كيف يتحد من دون الله آلهة ، والله هو الذي خلقه ، وحين تتأمل معنى افعل (أتحد) تحد أن الشيء لمُتَّخِذ ليس أصلاً بمعنى اتحد آلهة أنها ليست آلهة في الحقيقة وأنها لا تستحق أن تكون آلهة ، لكنك عمدت إليها فجعلتها آلهة ، ومثله اتخذ الولد في قوله تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [٩] ﴿المؤمنون﴾

فالمعنى أن الله تعالى ليس له ولد في حقيقة الأمر ، وإن قلتم اتحد الله ولداً ، فهذا يعنى أنه أنى سبحانه إلى ولد فسماه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وكما تقول أنت اتحدت ولداً يعنى أتيت إلى ولد لم تنجبه فتبينته

إذن ما نامت هذه آلهة مخدة فالمعنى أنها لس لها وجود أصلاً ، وكان الرجل يُصَحِّحُ للفوم فكرتهم عن العبادة وقوله سبحانه ﴿إِذْ يُرَدُّ الرِّحْمَىٰ نَضْرَ﴾ [س] هذه العبارة فيها لفظة لطيفة تسعى تأملها ، لأن صفة الرحمه في الرحمن تتناقض مع الصبر ، فكيف جمع اسياق بينهما ؟

نقول إذا قسرت ما يجرى عليك به قدر الله على أنه صرُّ لك فسعَّلَ أنه من رحمى ، فلا بد أن يكون لمحربه عسيك وهو الرحمن حكمه فيما أجرى ، لذلك نقول أحمدك ربى على كُلِّ قصائك وجميع قدرك ، حمد الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك

فكأن الحق سبحانه يقول بك سمه أنه ليس كل ما تراه بقوانينك أنت ضاراً لك ، هو كذلك ، لأن مجريه عليك رحمى ففى طبأت هذا الصبر بفع كثير كما يقدم الأب الحنون ولده للطبيب فيُحَرِّى له جراحة مؤلمة ، أو يقطع جزءاً منه ليُصلح باقى الجسم ، فهذا ضرر

فى الظاهر ، وفى الحقيقة رحمة به .

لذلك سبق أن قلنا ، إذا دخل عليك ولدك يسيل دمه ، فلا تستقبل هذا لا بالرضا ، ولا بالسخط ، إلا بعد أن تسأل عن الفعل ، فإن كان عبداً سخطت عليه وإن كان محبباً قبلت ما حدث بأرضاً وقت بلود ، لا بد أن عمك مثلاً رآك تخطئ فعاقبك .

كذلك لا تحكم على أقدار الله التى يحريها عليك إلا من مطلق أنها من رحمى أرحم بك من الوالدة مولدها ، وأنت خلقه وصنعتة . وما رأيت أحداً من حمقى البشر يعمد إلى صنعة فحطمها إنما يعتنى بها ، ويعمل فيها يد التجميد والتريير ، كما ترى النجار مثلاً يمسك بـ (الفارة) وينحت فى الحشب أقول إنه يصر بصنعة ؟ لا بل يصلحها ويزيها

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى « يا ابن آدم ، أنا لك محب ، فسحقى عليك كُرُّ لى محباً »^(١) بعد هذا التدود من الخالق للخلق يجرى عليهم ما يصرهم ؟

وفى حياتنا العمسة كثيراً ما ترى شواهد بهذه المسألة ، فكثيراً ما يفوتك القطار أو لا توبيس مثلاً . فتأخذ اميعاد اتالى وفى الصريق تحد القطار أو لا توبيس حدث له حادثة فتصحح أب فكرتك الأولى ، وتحوّل عضبك لفوات القصر إلى شكر الله الذى نجّك وكنت تظن غير ذلك . إن ابطر إلى من أخرى عليك الأقدار ولا تنصر إلى المنفعة ، بسطحه ، لأن الله تعالى حكمة فيما تجرّه ، تعلمها أنت أو لا تعلمها .

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالي فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال « فى بعض

الكتب عدى أنا وحقك لك صعب فيجنى عليك كى نى محباً »

يُصَا كَثِيرًا مَا يُخَفَّقُ أَحَدُ أُنَائِتِنَا مَثَلًا فِي الْإِمْتِحَانِ وَقَدْ ذَكَرَ
وَجَسَدُهُ وَحَصَلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِ عَرَضَ لَهُ عَرَضٌ مِنْ مَرَضٍ
أَوْ عَيْرَةٍ فَلَمْ يُؤَفِّقْ النَّظَرَةَ السَّطْحِيَّةَ لِلْأُمُورِ تَقُولُ إِنَّهَا شَرٌّ
وَحَسْرَةٌ تَدْعُو إِلَى السَّخَطِ وَالْعِيَادِ بِاللهِ لَكِنَّ النَّظَرَةَ الْمُتَمَتِّتَةَ الْمُتَمَلِّمَةَ
تُرِي اللهُ تَعَالَى حِكْمَةَ فِي هَذَا الْإِخْفَاقِ

عَلَّامٌ الْعَوَاقِبِ هِيَ مِثْلُ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ يَقُولُ بُولَدُهُ يَا يَسَى ، أَحْمَدُ
اللَّهُ هَأُنْتَ دَائِمُ الْبَجَاحِ وَلَعَلَّكَ إِنْ نَصَبْتَ هَذَا الْعِمَامَ لَا تَسْلَمُ مِنْ عِيُونَ
الْحَاسِدِينَ ، وَهَذِهِ فُرْصَةٌ لَكَ لِتُرِيدَ مِنْ مَجْمُوعِكَ لَتَدْخُلَ الْكَلِيَّةَ الَّتِي
تُرِيدُهَا .. الْحِكْمَةِ

وَهَكَذَا يُوثِقُ الْوَالِدُ عِلَاقَةَ وَلَدِهِ بِاللهِ ، وَيُزِيدُ مِنْ إِيْمَانِهِ وَرِصَالِهِ
مَرْبِيهِ وَيُبْعِدُهُ عَنِ السَّخَطِ وَعَنِ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ يَنْبَغِي
عَلَى الْآبَاءِ الْإِهْتِمَامَ بِهَا .

إِنَّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي تَرِيدُ الْوَقُوفَ عِنْدَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الرَّحِمَ
إِنْ كَانَتْ تَتَأَمَّى عِنْدَكَ فَعَنْ الضَّرَرِ ، فَهَذَا عِنْدَكَ أَنْتَ ، إِنَّمَا عِنْدَ مُجَرِّبِهَا
لَا تَتَأَمَّى لِأَنَّهَا مِنْ لِرَحْمَتِيَّةِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَا تَغْنَى عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا ﴾ [س] بِعَنْ شَفَاعَةِ
هَذِهِ الْآلِهَةِ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ شَفَاعَةٌ لَا تُحْدِثُ ، لِأَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللهِ
وَأَبْدَادُ اللهِ ، فَكَيْفَ تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُمْ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ ؟

وَشَرْطُ فِي إِشْفَاعَةٍ أَنْ يَكُونَ الشَّافِعُ مُحِبًّا عِنْدَ الْمَشْفُوعِ عِنْدَهُ .
فَهَذِهِ الْآلِهَةُ عَلَى فَرَضٍ أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ شَفَاعَةٌ ، فَهِيَ عَيْرٌ مَقْبُولَةٌ عِنْدَ اللهِ
تَعَالَى ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ فِي دَانِهَا مَعْذُورَةٌ حَيْثُ لَا ذَنْبَ لَهَا ، فَهِيَ
مَا أَدْعَتْ نَهَا آلِهَةً ، إِنَّمَا أَدْعَى الْبَشَرَ ذَلِكَ .

ونفساً مجزياً عنها ، فإن أعدت الضمير على المحزى عنها ، فالمحزى عنه لا يشفع نفسه ، إنما يعرض العدل أولاً ، ويطلب تفويم الصبر ليدفع عذيقته ، فإن لم يقبل منه العدل سحب عمن يشفع له إذن فالمعنى : لا يُقبل من ذاتها عدل ، ولا تنعها شفاعاة الغير .

فإن أعدت الضمير على النفس الحازية - أى - الشافعة - فإن الشافع يتقدم ليشفع أولاً فإن لم تُقبل شفاعته فإنه يعرض العدل ، ويحمل افقة

إلى هذه الأنهة - على قرص أن لها شفاعاة فسهى شفاعاة مردودة غير مقبولة ، وهم أيضاً لا يستطيعون انقاذ من بلجا إيههم من قبصة الحق سبحانه بهم لا يصلحون للشفاعة ، ولا للإيقان ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ صَعَفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله ﴿إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾ [يس] يعنى إن فعت ذلك ، وذهبت إلى عبادة هذه الآلهة أكون فى ضلال ﴿مُبِينٍ (٢٤)﴾ [يس] بئر واضح وقوله ﴿لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾ [يس] كان الضلال يحاصره ويحيط به من كل ناحية ، بحيث لا يستطيع أن ينجو منه

ثم يقول هذا الرجل المؤمن ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥)﴾ [يس] هذا الخطاب يصح أن يؤجه إلى الرسل الذين جاء الرجل ليسانداهم فى دعوتهم ويناصرهم فنظر إليهم وقال ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾ [يس] ومعنى ﴿فاسمعون (٢٥)﴾ [يس] أى اسمعوا منى ما أناصركم به ، واشهدوا لى بأئنى متطوع بهذه المساندة الإيمانية ، ثم يكلفنى أحد بها

وَيَصْبِحُ أَنْ يُكُونَ هَذَا الْحَطَابُ مُوَحَّهًا إِلَى الْقَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ، فَهُوَ
يَقُولُ لَهُمْ ﴿إِنِّي أَمْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (٢٥) [يس] يَعْنِي اللَّهُ رَبُّكُمْ رَعْمًا عَنْكُمْ ،
وَأَنْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ بِهِ سَبَّحَانَهُ وَأَنَا احْتَرَمْتُ رَبِّيوتَهُ لَكُمْ ، وَأَمْتُ بِهَا
لَاخِرَ هِيَ عَظْمَةُ هَذِهِ الرَّبُّوتِيَّةِ ﴿فَاسْمَعُونَ﴾ (٢٥) [يس] أَيْ اسْمَعُوا مِنِّي
هَذَا الْبَلَاءُ لَاكُونَ قَدْ أُدِيتُ مَا وَحِبُّ عَلَى نَحْوِكُمْ ، وَأَمْلَفْتُمْ وَلَمْ
أُخَدِّعْكُمْ أَوْ أَغْشَكُمْ^(١)

ثم يقول الحق سبحانه

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْمُونَ﴾ (٢٦)
﴿يَا عَقْرَلِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٧)

بدء الفعل (قيل) للمجهول يفيد اليعمم ، فمن الذي قال له ادخل
الجنة ، ومتى قال ؟ في القرآن آية نقرأها تجيب عن ذلك ، اقرأ قوله
تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَرَدَّدُ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَعْلَمُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢) [قصص]

فالرحم الذي وقف هذا الموقف الإيماني مسرعاً ، وجاء من أقصى
المدينة يسعى ليساند الرسل في أمر لم يُكَلَّفَ به ، وبأتى بلقوم
المكذبين بحجج وبراهين ثم يأت بها الرسل أنفسهم جدير بأن تتبرل
عليه الملائكة ، وأن تيشمره بالجنة أو أن الحق سبحانه حكى عنه
ما يقوله بعد أن يموت ويدخل الجنة ، وهذا إكبار من الله له ،

(١) أما القول الأول أنه خطاب للرسل ، فهو قول ابن مسعود ذكره القرطبي في تفسيره
(٨/ ٥٦٥٤) ، وبذلك السبيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٢) ، أما القول الثاني أنه خطاب
بقومه ، فقد نقله القرطبي في تفسيره عن كعب الأحبار ، وهو بن سبه فالأية مجوز
فيها الماويلاب

ومن مؤهلات هذا الرجل لدخول الجنة أنه لم ينظر إلى حط نفسه من السيئ ، إنما نظر أيضاً إلى حط إخوانه ، فحتى بعد أن نُشِرَ بالجنة ، أو بعد أن دخلها لم ينشغل بتعظيمها عن قومها ، إنما قال ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس] بمعنى ما أنا فيه من النعم ، وما انتهى إليه أمر الإيمان والطاعة ، ليعملوا مثلي ولينالوا ما ملأت .
 .نهم لو علموا تهافتوا على الإيمان وأقبلوا على الطاعة أكثر من تهافتهم على الكفر والمعصية

وقوله ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ بِكَؤُودٍ مِنْ الْجَنَّةِ فِيهَا شَجَرٌ تَقُومُ عَلَيْهِ فَاكُلْ مِنْهُ شَاءَ مَا يَشَاءُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [يس] لاحظ أن المعصية سبقت المكرمه ، وهذه المسألة يسمونها التخليه واستحليه ، وسبق أن مثلنا لها بالثوب حين تريد أن تكويه مثلاً أتذهب به إلى (لمكوحى) بما عليه من وسع ، لا بما تنطفئه أولاً ، ثم نريه بالكى

كذلك الحق سبحانه ونعائى والله المثل الأعلى قبل أن يدخل عبده الجنة يُبْقِيهِ أولاً من الذنوب ويظهره مما علق به وهذه هي التخليه ثم يُكْرِمُهُ بِالْجَنَّةِ ، وهذه هي التحليه وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [ال عمران] فالحق سبحانه يمسح علينا أولاً بأن يُزَحِّحَنَا عَنِ النَّارِ بِمَغْفَرَةِ الذنوب ثم يُكْرِمُنَا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ كَرَامَةً مِنْهُ وَفَضْلاً
 ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا أَنزَلْنَاهُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ مِنْ نَعْدِهِ مِنْ خُتَمِ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [٢٨] إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فِى ذَاهُمْ حَكِيمُونَ ﴿٢٩﴾

فهم من سياق هاتين الآيتين أن انقوم المكذبين قتلوا هذا الرجل
المنطوع ، أو أنه مات بطبيعة الحال ، ومنتظر أن الله تعالى
يجازيهم على تكذيبهم للرسالة الثلاثة أولاً ، ثم تكذيبهم للرجل الذي
حاء من أقصى المدينة يسعى لنصحهم ، فماذا فعل الله بهم ؟

يقول سبحانه : إن أمر هؤلاء المكذبين أهون من أن نُنزل عليهم
جنداً من السماء تهلكهم ومجرد صيحة واحدة كافية لهلاكهم ،
فالمعنى ﴿ وما أرسلنا على قومك من بعده ﴾ (٢٨) ﴿ [يس] أي من بعد
لصيحة والعطاة والبراهين التي تطوع بها ﴿ من جند من السماء وما
كنا مُرسلين ﴾ (٢٨) ﴿ [يس] يعنى لم نُزل وما كان ينبغي لنا أن نُنزل
عليهم جنداً من السماء ؛ لأن الأمر أهون من ذلك .

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ (٢٩) ﴿ [يس] أي ما كانت إلا صيحة
واحدة ﴿ فإداهم حامدون ﴾ (٣٠) ﴿ [يس] كلمة ﴿ حامدون ﴾ (٣٠) ﴿ [يس] تدل
على أنهم كانوا متحمسين للكفر بهم في أوار وغضب واشتعال على
رسل الله أولاً ، ثم على الرجل المنطوع ثانياً ، فهم في ذلك أشبه
بأنار المتأججة ، فأحدهما الله

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك كلمة بصرح أن يقولها كل
مؤمن يرى مصارع المعاصرين وبهية الكافرين الذين أدركهم الموت
قبل أن يتداركوا أنفسهم بالإيمان ، يقول

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٥٦٨/٢) : قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب
ووهب أنه لما قال ذلك وسوا عليه وثقة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له حد يجمع به
وقال قتادة : جطوا برجموه بالمجارة وهو يقول اللهم اهد قومي فربهم لا يظلمون ، هم
يرأوا به حتى أقصوه وهو يقول كذلك . أما القرطبي في تفسيره (٥٦٥٤/٧) فقد ذكر
عدة أقوال منها قول من سمعوه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصته (أي أسأوه)
من دبره ، وألقى في بئر الراس ، هم أصحاب الراس

﴿يَنْحَسِرُهُ عَلَىٰ أَعْيَادٍ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

هذه كلمة تحسّر كثيراً ما بقولها تحسّراً على فوات الخير ممن
نحب له الخير ، ومعنى ﴿يَنْحَسِرُهُ﴾ [يس] هذا بداء كأنك تناديها
تقول يا حسرة تعالى فهذا أولك ، والتحسّر هنا على العبد الذين
كذبوا رسل الله واستهزأوا بهم ، وهذا أمر يحب أن يحسّر عليه كل
مؤمن ، لأن الله تعالى خفك وخلق لك قبل أن يستدعيك بلوجود

خلق لك مقومات حياتك المادية ، وصن مبادئ ما قدر لك في
الأرض من أقوات ومن ضروريات وكماليات ، فهو يُعَقِّرُ أن يُعْطَى كل
هذا للبني ويترك الروح بلا عطاء ، وهي أهم من البدن ؟

لا بُدَّ أن يكون بلروح عطاء وغذاء وقسم بل ر القيم هي
مطبوع الله من عبده ، لأنك ستكون عبداً لله مطيعاً لأوامره منتهياً
عن نواهيه ، وهذا هو المنهج الذي كُلِّفَ به في اسعمل كذا ، ولا تفعل
كذا

لذلك نجد أن عطاء امده ومقومات حياة البشر مكفولة للجميع
للمؤمن وللکافر ، للطائع وللعاصي ، لأن الله تعالى هو الذي استدعى
لكل إلى الوجود ، لذلك تكفل بأرراقهم ، كما تستدعي انت مثلاً صبياً
إلى بيتك ، فبهيء له مطعمه ومشربه ومقامه عندك ، وكل لباس
أخذوا هذا العطاء

أما عطاء القيم والروح فبعضهم أخذه وبعضهم تركه ، لأن
عطاء المادة سمح له بشهوة نفسه ، أما القيم ففُتِدَتْ هذه الشهوة

وَأَمْسَكْتَهَا عَنْ أَشْيَاءَ ، نَفْسَهُ تَرِيدُهَا ، فَلَمَّا صَدَّتْهُ الْقِيمُ عَنْ شَهَوَاتِ
النَّفْسِ بَرَكْتُهَا وَنَمَلَّصْتُ مِنْهَا

هَذَا الْمَنْهَجُ الْقَنَمِيُّ جَاءَ مِنْ مُحِبٍّ لَكَ حَرِيصٍ عَلَى مَصْلَحَتِكَ كَمَا
ذَكَرْنَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ (عِبْدِي ، أَنَا لَكَ مُحِبٌّ ،
فَبِحَقِّي عَلَيْكَ كَرُّ لِي مُحِبًّا) مَا أَتَ لِمَنْتَمِعَ بِهَذَا الْمَنْهَجِ ، لِأَنَّ اللَّهَ نَعَايَ
حَلَفَتْ بِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَارِ فِيهِ سَحَابُهُ ، فَصَدَّتْكَ لَا تَرُدُّهُ كَمَا لَا
أَنْ مَعْصِيَتِكَ لَهُ لَا تُنْقِصُهُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ ، وَلَا تَضُرُّهُ بِشَيْءٍ

بِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْغَنَى وَالْفَقِيرَ ، وَكَانَ قَادِرًا سَبْحَانَهُ عَلَى
أَنْ يَحْلُلَ جَمِيعًا أَغْنِيَاءَ لَا يَحْتَاجُ أَحَدٌ مِمَّا إِلَى أَحَدٍ ، وَالْفَقِيرَ لَوْ تَمَلَّ
الْحِكْمَةُ فِي مَقَرِّهِ لَحَمْدُ اللَّهِ وَلَعَلَّمَ أَنَّهُ بِفَقْرِهِ شَرْطٌ فِي إِيمَانِ الْعَبْدِ ،
وَلَيْسَ الْعَنَى شَرْطًا فِي إِيمَانِ الْفَقِيرِ ، فَانْعَى يَحْتَاجُنِي قَبْلَ أَنْ أُحْتَاجَهُ
أَنَا ، انْعَبْ يَسْعَى وَيَتَعَبُ وَيَكَاذِبُ أَسْبَابَ الرِّزْقِ وَالتَّجَارَةِ وَالْمَكْسَبِ
وَالْخُسَارَةِ ، ثُمَّ يَأْتِي إِلَى بَيْتِي لِيُعْطِيَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ وَأَنَا مُسْتَرِيحٌ
الْبَالُ

الْغَنَى قُرْصٌ عَلَيْهِ الْحَجُّ ، وَرَبُّ نَصْرٍ فِيهِ يُعَاقَبُ ، وَإِنْ حُجَّ فَهُوَ
بَيْنَ قَوْلٍ أَوْ رَدٍّ ، فَإِنْ لَمْ يُقْبَلْ حَجُّهُ ظَلَّتْ الْفَرِيضَةُ عَلَيْهِ وَفُرْقٌ بَيْنَ
مَنْ قُرِضَ عَلَيْهِ الرُّكْنُ ، وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يُفْرَضْ عَلَيْهِ أَصْلًا .

إِنْ أَنْصَابُ يَرَى أَنَّ الْفَقِيرَ أَحْظَ مِنَ الْعَنَى ، وَغَيْرُ الْمُسْتَطِيعِ
أَحْظَ مِنَ الْمُسْتَطِيعِ

وَقَدْ كُنَّا مَعَ بَعْضِ الْإِخْوَانِ فَأَرَدْنَا أَنْ نَصَلِّيَ الْمَغْرِبَ فِي مَسْجِدِ
سَيِّدِنَا الْحُسَيْنِ ، فَلَمَّا قُمْنَا لِلصَّلَاةِ ، اسْتَوْفَقْنَا عَمَ الْحَاجِّ سَيِّدِ جَلَالِ
وَقَالَ ابْتَطَرُوا دَفِيقَتَيْنِ ، لِأَنِّي أُرْسِلْتُ الْوَلَدَ سَلِيمَانًا (بِفِكَ) لِي

عشرة حبيبات ، فقال أحد الحاضرين معى جنيهاً حديدة هات
العشرة جنيهاً أفكها لك ، فقال الحاج سيد لا ، لأن الرجل الذى
أبوى أن أعطي لا يأخذ إلا الجنيه اكسير بتاع رمان ، ويرقص هذه
العملة الجديدة

فقلت فى نفسى سحار الله هذا الرجل المجدوب الذى يفعد
على باب سيدنا الحسين وصفته كذا وكذا يُسحر أكبر رجل اقتصادى
فى مصر عم سيد حلال ومعاه الوريث أحمد طعيمة ليوغروا له
النفود التى تعجبه .

وانعجب أن من هؤلاء من كان يحس على باب سيدنا الحسين
يضع رجلاً على رجل ، ويبر عليه موكب الوزير والورراء فلا يستيه
إيهم ، ولا هو يلقى بالأ إلى الموكب والحراس والدنيا من حوله ،
عمادا يعنى هذا ؟ يعنى نه مشغول بما هو أعظم من هذا كله وأن
الله قد تحلّى عليه بما أفقده الوعي بالدنيا وبما حوله

ذلك رأى أحد منهم موكباً لأحد الورراء فقار للأخر والله نحن
فى لذة ، نو علم بها هؤلاء لحاربونا عليها بالسيف ، أليس هؤلاء
سادة ؟ أليسوا أعرّة ؟

إن كل مؤمن يرى مصير المكذّبين ومصارع الكافرين فى هذه
انقصه وفى أشباهها لا ند أن يقول هذه الكلمة ﴿سُورَةُ عَلَى الْعَبَادِ
(٣)﴾ [س] لماذا ؟ لأن من تصم الإيمان أن يتحسر المؤمن على من لم
يدق طعم القضية ولذة الطعة ، فهو مسكين يستحق من يشفق عليه
ويتحسر على حاله . والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بر وبحب
الخير للإنسانية كلها

ثم يقول الحق سبحانه

﴿الْمُتَبَرِّوْنَ كَمَا أَهْنَكَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ
لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يعنى كما ان يكفى هؤلاء المكذبين ان ينظروا مصير مَنْ كَذَّبَ
فسهم ، وما حاق بهم من العذاب وأنهم بعد أنْ هَبَّكُمُ اللهُ لم يرجع
منهم احد وكلمة ﴿يُرَوْنَ﴾ (٢١) [يس] من العبر رأى وهى نأى
بصرية أو علمية ، تقول رأيت المشهد ، فهذه رؤية بصرية
وتقول رأيت هذا الرأى يعنى علمته ، والرؤية البصرية تقصر
معلوماتك على ما اتصلت به جارحتك ، أما العلمية فتعطي ما اتصلت به
جارحتك وجوارح الآخرين ، فالرؤية العلمية إنس أوسع من البصرية

لذلك قال تعالى مخاطباً بنيه ﴿وَأَنْتُمْ تَرَكَيْتُمْ فَعَلَ رَبِّكَ بِأَصْحَابِ
الْفِيلِ ﴿١﴾﴾

ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلِدَ فى عام الفيل ، وربما بعد هذه
الحادثة ، إذن - لم يَدَ منها شيئاً رؤية بصرية ، ومع ذلك حاطه ربه
بقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَرَكَيْتُمْ﴾ [يس] يعنى ألم تعلم ، سواء كان قومه قصّوا عليه
القصة ، أو أن الله تعالى أحضره بها .

والرؤية البصرية للأحداث أوثق وسدّل الإدراك لأنه كما يقولون
ليس مع لعين أين ، لكن لصدا عدل السباق عن ألم تعلم إلى ألم تر ،
قالوا هى هذا إشاره من الحق سبحانه لسيه يقول له إن إحصارى
لك بقضية علمية أوثق من رؤيتك بعينك

وقوله تعالى ﴿الْمُتَبَرِّوْنَ﴾ (٢١) [يس] تعنى أن من هؤلاء انقوم منْ

رأى بالفعل مصارع المكذّبين ومزّ على ديارهم وهي خاوية على
عروشها في أسفارهم ورحلات تجارتهم في الشتاء والصيف ومعنى
﴿كَمْ﴾ (٣) [س] نفيد الكثرة وأنه أمر فوق الحصر كما تقول لمن
سكر حميتك كم أحسنت إليك وكانك تقول له ، أب أرتضى حكمك
وأستأمنك أب على أجواب ، وبذلك تحول الإخبار منك إلى إقرار منه
هو

ومعنى ﴿مَنْ تَقَرَّرُ﴾ (٤) [يس] القرون جمع قرن وهو فترة
من الزمن قدروها بمائة عام ، والقرن أيضاً يعنى الجماعة أو لقوم
يجمعهم الشيء الواحد مهما طالت فترته كالتدين ابواحد ، أو حكم ملك
من الملوك الح فمثلاً نقول قوم نوح وقد أخذوا من الزمن
مساحه ألف عام أو يزيد

وقوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٥) [يس] يعنصر أكثر من معنى
حسب عود اصمير في (أنهم) وفي (إليهم) هالآة بسجدة عن
قرون أهلكك من قبر وبخاصب مكذّبين معاصرين ، فإن عاد ضمير
العائنين في (أنهم) إلى القرون التي أهلكت فالمعنى أنهم
لا يرجعون ، ولم نر أحداً منهم رجع بعد هلاكه ، وإن عاد الصمير
على المخاطبين الموجودين فالمعنى أنكم أيها المخاطبون ،
لا ترجعون في سسكم إلى هؤلاء الذين أهلكهم الله ، لأن الله تعالى
ستأصلهم بحيث لم يُبقَ منهم أحداً ولا سلاً

والآية في محلها تعنى أن هلاك الكافرين وللمكذّبين ليس بدعاً ،
بل هو سنة متّعه على مرّ الزمان ، فالقرآن يفصّل عننا ما مرّ بعاد
وثمود وفرعون ﴿أَلَمْ يَرَكُنْ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (٦) إرم ذات العماد (٧) التي
لم يخلق مثلها في البلاد (٨) وثمود الذين جاؤا الصحر بالود (٩) وفرعون ذي

الأوتاد () اندي طعوا في البلاد () فأكثروا فيها الفساد (٦) ﴿ [القصر]

والله تعالى أبقى الآثار لتدلنا على صدق ما أحذرت به سبحانه ، وما نحن نرى أمريكا مثلاً ، وهي سيدة الحصار الحديثة ، وصاحبة لأسلحة في الابتكار والاختراع وعرو لقضاء ، ومع ذلك يأتون إلى مصر ليشاهدوا آثار انقراعة التي سبت قبر الميلاء بآلاف السنين ، ويتعجبون رغم تقدمهم العلمي من كيفية بناء الأهرامات مثلاً

هذه السنة - سنة إهلاك الكافرين - يرى لها شواهد في عصرنا لحديث ، قروسيا التي نتحرت وقتلت نفسها نفسها ، انظر ماذا فعلت في الشيشان ، هذه الدولة الإسلامية الصغيرة في حين قصرت نحن عن نصرتهم ، أو ان نصرتنا لهم لم تكف على قدر جبروت المعتدين ، لذلك تدخلت السماء ورد الله على أعداء دينه ، وثار منهم في زلزال ساحليل

وقوله تعالى في الآية بعدها . ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُخْصَرُونَ ﴾ [يس] جاءت هذه الآية بعد قوله سبحانه ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس] لتوضح ان عدم الرجعة أي في الدب وإلا لو لم يكن لهم رجعة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فالموت راحة بالنسبة لهؤلاء المكذبن كما قال الفخر الرازي رحمه الله إنما المراد لا يرجعون في الدنيا أم في الآخرة فلا بُد من الرجوع للحساب عن كل كبيرة وصغيرة

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن أبو عبد الله فخر الدين الرازي ، ولد ٥٤٤ هـ في الري (طهران) إمام مفسر ، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأصول ، رحل إلى حوزة وراء النهر وحرماسان ، توفي عام ٦٠٦ هـ عن ٥٢ عاماً بهرة من كنهه ومفاتيح الغيب ، في تفسير القرآن ، و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » [الأعلام للزكي ٦ ٢١٢]

قوله سبحانه (وَإِنْ) إِنْ هنا بمعنى ما لنافية و (لَمَّا) بمعنى إلا ، فالمعنى وما كُلُّ إِلَّا جميع لدينا مُحْضَرُونَ وقد عرفنا من دراستنا لقواعد النحو أن كل وجميع من ألفاظ التوكيد المعنوي للجمع ومثلهما أنصع واكتع وأتبع ، تقول جاء القوم أحصعون أو أنصعون أو أتبعون ، وجاء القوم كلهم ونلاحظ أن الآية جمعت بين لفظي التوكيد كل وجميع ، فلماذا ؟

قالوا الجمع بينهما ضروري هنا ، لأن لكل منهما مدلولاً ، لا تؤديه الأخرى ، فالكلية تفيد الشمول للأفراد في الرجوع ، فكلهم يعني كل فرد منهم ، ولا يُشترط أن يكونوا مجتمعين سوياً إنما يأتي كُلُّ بمفرده ليرى انذلة ولصغار على المسرفين وعلى الكافرين الذين جعلوا من أنفسهم آلهة مطاعة أما جميع فعلى بابور مجتمعين

ومعنى ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ [٢٢] ﴿[سر] من الفعل حضر ، وقرئ بين حضر وأحضر ، حضر أى طواعية بنفسه وبرغبته أما أحضر أى أجبر على الحضور ، وأكره رغم أنه ،

● ● ●

بعد أن ذكر الحق سبحانه مسأله البعث هي ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا حَمِيعٌ ﴾ لدينا مُحْضَرُونَ [٢٢] ﴿[يس] أراد سبحانه أن يذكر دليلاً على صدق هذه القضية ، لأن البعث من المسائل التي ينكرها كثيرون وصدق الفائل

رَغِمَ الْمُحَمَّمُ وَالْمَلِيئُ كَلَاهِبٌ لَا تُحْشَرُ الْأَحْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا

(١) هو أبو العلاء المعري ، أحمد بن محمد الله ، التنوخي ، ولد عام ٣٦٢ هـ بمحرة البحص وتوفي بها عام ٤٤٩ هـ عن ٨٦ عاماً شاعر وفيلسوف ، أصيب بالجنون صغيراً فعفى في السنة الرابعة من عمره ، نال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب وكان يجرم إلام الحيوان ، له رسالة المفردات ، ، ، ، بروم ما لا يلزم ، وغيرهما

إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسَبُ بَخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا
وكمما يقول لك الناصح إِنْ ذهبت في الطريق الفلاني فاحذر
وحدِّ الاحتياط ، لأن فيه دُنياً وساعاً وقطاع طرق ، فمباداً عليك إِنْ
أحبب الحبيطة ، ولم تجد شيئاً مما خوفت منه ؟ كذلك اعتقادي
في المعث إِنْ لم يُفسد لا يضرني ، واعتقدكم إِنْ لم يضركم
لا يُبديكم

وأقوى شبهة في مسألة بُعث لأحساد عبد الفلاسفة أنهم قابوا
فَبَ أن إساناً مات ودُفن وتحلَّل حسده وررعت على قبره شجره
تعدت من بقياه ، ثم أثمرت وأكل من ثمارها إنسان آخر ، فوصلت
إليه عناصر من الأول ، فحين يكون المعث كيف يُبعث هذه العناصر
للأول ، أم للأخر ؟

وصاحب هذه الشبهة فهم أن العناصر حين تتكون لها ذاتية في
التكوين ، ولم يفهم أن لها حسية في المعميم ، كيف ؟ يقول هب
أن إساناً صابه مرض أنقص وزنه عشرين كيلو مثلاً ، ثم هدى الله
الطبيب إلى علته ووصف له الدواء شفى من مرضه وتعدى حتى عاد
إلى وزنه الأول ، أين ذهبت عناصره التي نقصت منه ؟ وهل هي
نفس العناصر التي عادت إليه بعد أن شفى ؟

إذن المسألة ليست خصوصية عناصر ، بل كمية عناصر ،
والعظمة في أن نحصى كمية عناصر كل إنسان فلو جمعت كمية
العناصر الموجودة عندى (أكون) محمد الشعراوي لأن عناصر
البشر جميعاً واحدة هي ستة عشر عنصراً المعروفة ، والتي تبدأ

(١) البتار من قصيدة لأبي العلاء المعري من بحر الكامل ، عدد أبياتها سبعة أبيات وقى
وبها ، قل ، بدلاً من ، ومع ، انظر ديوانه والموسوعة الشعرية

كما ذكرنا بالأكسوجين ثم الكربون ، ثم النتروجين ، ثم الهيدروجين . لح لكن يختلف الأشخاص باختلاف كميات هذه العناصر عند كل منا ، فأنت عندك كذا أكسوجين ، وكذا كربون وكذا نتروجين ، وأنا أعلى منك في الأكسجين ، وأقل منك في للكربون ، وهكذا .

و بحق سبحانه نُعلمنا أن امسألة ليست بـبسة عناصر ، وخصوصية عناصر ، إنما قيمة عناصر فيقول سبحانه في سورة (ق) ﴿قَدْ عَلِمَ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَ كِتَابٍ حَفِيظٍ﴾ [٢٠] يعني يحفظ هذه الكميات ويحصنها بمقاديرها فإذا أراد سبحانه البعث جمع نسيه كذا ونسيه كذا تعطى فلانا ونسيه كذا إلى نسيه كذا تعطى فلانا وهكذا ، ولم يقف الأمر عند علم هذه النسب ، بل حفظها الله وسجلها في كتاب حفيظ

وفي موضع آخر ، يردُّ الحق سبحانه على منكري البعث يقول لهم لماذا تكابرون في البعث وهو إعادة لشيء كان موحسواً بالفعل وتفرقت عناصره ، والأعجب من ذلك أن نشأته من غير موحود ، إذن ، فالبعث أهون من لإعادة ﴿وهو الذي يبدأ الحلى ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [إبراهيم] هذا إن حاربتكم في فهمكم للأمور ، واتبعنا قوانينكم في التفكير

وسبق أن أوضحنا أن العناصر التي خلقها الله في الكون هي هي ، لم يرد شيئاً ولم تنقص شيئاً ، فالماء مثلاً هو نفس الماء منذ خلق الله الأرض ، لكنه يدور في دورة معروفة ، فالإنسان مثلاً يشرب طوال حياته كذا طر من الماء فهل يحفظ بها ، لا بل تخرج منه في صورة بول وخلافة ، حتى بعد أن يموت يتبخر ما فيه من

مائية ، وامتصها الارض لتبدأ دورة جديدة للماء وهكذا تدور
الإنسان تدور هذه الدورة

وهنا يسوق الحق سبحانه بهؤلاء المنكرين هذا الدليل

﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتُهَا وَأَخْرَجْتُ مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ
وَأَعْنَبٍ وَفَخْرًا فِيهَا مِنْ لَعِينُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وهذا دليل مُشاهد براه الجميع ولا يستطيع أحد إنكاره ، فحين
نرى الأرض الميتة الحرداء القاحلة فإذا ما جاء المصرا اخضرت
ودبت فيها الحياة واهتزت وورمت ، وعلى الإنسان أن يأخذ مما يُشاهد
دليلاً على صدق ما عاب عن مشاهدته

وقوله تعالى ﴿رَبِّهِ لَهُمْ (٣٣)﴾ [سر] الآية الشيء العجيب في بابه
كما يقول فلان أنه في انكرم أو أنه في الحُسْن . وهذه الآية بهم
يعنى للكافرين فحسب لأن المؤمن لا يحتاج إلى هذه الأدلة
المؤمن قار ﴿أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٢)﴾ [مصلح]

وطلب الدليل على الشيء أول دليل على وجوده ، وما أتعبت
نفسى في لبحث عن الدليل إلا لأتقى مقتنع بوجود الشيء فطلب
الدليل هو غير الدليل والمؤمن لا يطلب لدليل إلا ليحادل به من
لا يؤمن لبلغته إى آيات الله

وهذه الآية بما أن تأخذها على أنها كومة سل على قدرة الإله
أنوجود سبحانه وإما أن تأخذها دليلاً على أننا إذ أنزلنا المصرا على

الأرض المبتة تهتز وتثبت من كل زوج بهيج

والمتمامل في الأرض يجد أنها آية في ذاتها ، ونعمة من أعظم نعم الله علينا ، حتى وإن كانت صخيراً لا تثبت فيكفي أنها مفراً فوعها يستقر ولدها ماوى ، وما ذلك إن مسح الله لونا من الحياة حين تهتز بالنبات وتتحول إلى اللون الأخضر البديع .

وأحياء الأرض على مراتب ، فلما أن يكون الإحياء بنباتات لا تغنى في لقوب مثل العشب والحشائش والجيل ، ويكفي أن هذا النوع يكسر وجه الأرض حملاً ونصراً ويلد الرمى ويسه على وجه الأرض فلا تبعثره الرياح في أعينها ، فهي إذن مظهر من مظهر حياة الأرض . ونعمة من نعم الله ، والمرتبة الأخرى أن تثبت الأرض النبات الذى يقتات به ، وهو قسما الحبوب التى تمثل الصنوبريات وهي من مفومات حياتك ، وهي أصل القوة وأهمها القمح

وقد أشار الحق سبحانه إلى أهميتها فقال سبحانه ﴿ وَأَنْجِبُ دُوَّ الْمُصَفِّ ﴾ [الرحمن] ليلفت أنظارنا إلى أهمية القشرة التى كنا إلى وقت قريب لا نهتم بها ، ونضعها علواً للموشى وبأكل الدقيق الفاحر أو (أعلامه) ، وكان هذا طعام الصفوة والأغنياء إلى أن تنبذ إلى أهمية الردة ، فأصبحنا نفضلها على لدميق الفاحر بدليل أن الخبز المكون من الردة لأن أعلى من الخبز الأبيض ، ثم رأينا الذين أسرفوا على أنفسهم في أكل الحر الأبيض الفاحر لا يأكلون إلا الردة ، وبأمر الطبيب

ذلك روى أن سيدنا سليمان عليه السلام ، وقد أعطاه الله ملكاً

لا يسعى لأحد من بعده كان لا يأكل لا نجشكار أى الدقيق
الخشن ' أما الدقيق (العلامة) للخدم

ثم الفواكه وتعد من الترفيات التى تنفكه بها

لذلك يقول سبحانه . ﴿رَأَيْتُمْ لَهُمُ الْأَرْضَ الْمَيَّةَ أَحْيَاهَا .﴾ (٣٢) [يس]
هذه هى المنة الأولى ، ثم ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) [يس]
وهذه هى الصروريات

ثم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .﴾ (٣٤) [يس]
وحصر النخيل والأعناب لأن السج والعب أهم افواكه ، وأقربها
من صروريات القوت فهما قوت بلعص ، وفاكهة بلعص ، لذلك
قال شوقي رحمه الله عن الطلح

طعام الفقير وحلوى العبد ورأى المسافر ولمعترب^{١٥}

ونقف هنا عند عظمه الأداء القرأى لأن الكلام كلام رب ،
وعينا نحن نعطى وجوه اعظمه فيه وقد لاحظ العلماء حرهم الله
عنا خيراً أن القرآن لم يتكلم عن الفاكهة قال ﴿مِنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾
(٣٤) [يس] فذكر اشجرة هى النخيل ، وذكر ثمرة فى الأعناب ، ولم
يذكر ثمرة النخيل وهى التمر ، ولم يذكر شجرة العنب وهى الكرّم

ولما بحث العلماء هذه المسألة وجدوا أن القرآن ذكر النخيل

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب لابن منظور (الحُसार والحُسارة) يقال الخسارة
العشائر من الشعير ما لا يُدَّ به (يتخذ الردة أى العشرة) والعشائر أيضاً الردىء
من كل شيء [لسان العرب - مادة - حشر]

(٢) بيت من قصيدة لاجمى شوقي أمير الشعراء ، من بحر المقاريب ، عبد ابياتى ٢٦ بيتاً
وله

أرى شجراً فى السماء احتجب وشق العنان بصراى عجب

لأنها شجرة كثيرة الفوائد ، مستمرة إعطاء ، لا يقتصر نفعها على ثمرها ، بل كل ما فيها نافع مفيد ، ويكفي أن تعرف أن الخلطة لا يرمى منها شيء أبداً ، ولكل جزء فيها استعمال ومهمة الصالح والجرى والخوص ، حتى السيف يحشون به أفخم أنواع الصالونات ، أما شجرة العنب فبعد أن تأخذ ثمرها لا يبقى فيها إلا مجموعة من العبدان الملتوبة التي لا تغنى شيئاً

ثم يقول سبحانه ﴿ وَفَحَرَبْنَا قُبُورَ الْعِيُونِ ﴾ [يس] لأن الأرض المبررعة التي تعطى هذا إعطاء إما أن تُروى بالأنهار أو بالمطر فإذا لم يتوفر لها هذان المصدران تُروى بعيون وهي أمياه الجوفية التي تتسرب من ماء امطر في باطن الأرض ، كما قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أُنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَابِغٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر]

وهذه العيون مطهر من مسطهر فطرة الله ، فمنها ما بحث عنه ونحفره ، ومنها ما بساب بنفسه طبيعياً بفطرة الله وكان ذلك عو وحس يُلمس إلى عساه . فإن كنت في أرض غير مطهرة ولست في واد نحري فيه الأنهار فاطمئن ، ففي باطن الأرض عيون تتفجر بالماء العذب الصالح للشرب وتسقى الأرض وقد تبهنا مؤحداً إلى ضرورة رراعة الصحراء واستصلاحها وأعدنا على ذلك ما فيها من انار ومياه جوفية ، ما علينا إلا أن نبحث عنها ،

ثم نسين الحق سبحانه لعلنا في تحجير العيون ، فيقول سبحانه ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس] قوله تعالى ﴿ مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ [يس] قالوا من ثمره أي الحبوب والبلح والعنب وغيرها ، أو من ثمر تحجير العيون قال البعض ينبغي أن ننسب الثمرة إلى الأصل ، فيكون المعنى من ثمر القدرة في كُنْ ويس

المراد الثمرة القريبة .

فكان الحق سبحانه يريد أن يجعلك من القسمة بالأسباب ويلفتك
إلى المسبب الأعلى الأول ، لذلك أمرنا حين يعزُّ أماء ولا تسعفا
لأسباب أن تلجأ إلى المسبب سبحانه بصلاة الاستسقاء لأن
المسبب سبحانه هو المرجع النهائي لهذه تمسأله ، وأنت حين
تستسقى لا تستسقى بنفسك إنما بأضعف منك ، وإن كنت عاصياً
كفوراً تستسقى بمن لم يرتكب معصية

لذلك أمرنا أن نأخذ معنا في صلاة الاستسقاء النساء والأطفال
والمواشي وكأننا نبوسل إلى الله بضعفهم وظهارتهم من المعاصي ،
وكاننا نقول لربنا يا رب إن كنا قد عصيان ولا يستحق السقيا
فاسقياً لأجل هؤلاء

بل وأمرنا في الاستسقاء أن نخرج إليه ونحن محالون للأردية
مغيرون لسمتها ، إظهاراً للذلة والانكسار لله سبحانه وتعالى^(١)

ولأن ، بعد ما حدث من تطور في استخدام اماء حتى صرنا
نستسقى في حرايات ومواسير نعت أنصته بين واهب الماء والمسمع
به ، فحين تنقطع المياه لا تحصر على تلك صلاة الاستسقاء ، ولا
تتذكر واهب الماء ، إنما تفكر في سبب انقطاع المياه فتسأل عن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٢٦) وابن ماجه (١٢٦٨) والبيهقي في مسنده من حديث
ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم يستسقى فصرى بين ركعتين بلا
أدب ولا إقام ، ثم خطب ودعا الله وحول وجهه نحو الجنة رافعاً يديه ثم قى رداءه
فجاء الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن قال بن حجر في فتح البدر (٢/٤٩٩)
: اختلف في حكمة هذا التحويل فحرم المذهب منه لمعاورين التحويل الحال عما هي عنه
وتعقده ابن العربي بأن من شرط العال أن لا يقصد إلهه دار وإنما يتحويلاً أمره بيه
ويجزيه فيل له حو . رداًك بتحول خالك .

المواسير وعن الموتور الذي ذن الأسباب نفسها أبعدتاً عن
المسيب سبحانه

وقوله سبحانه ﴿ وما عسى أن يدهم ﴾ (٢٥) ﴿ يس ﴾ استدراك يراعى دور
الإنسان وعمله ، فمن الثمار ما يُؤكل مباشرة مثل الخوخ والبرتقال
واختيار ، ومن الثمار ما يحتاج إلى علاج وإعداد ليؤكل ، كما نعمل
مثلاً في (الكوسة) وغيرها مما يحتاج إلى إعداد فكأن الحق سبحانه
يُقَدِّر لك دورك ، ويعطيك حقتك ، ويذكر لك عملك مهما كان يسيراً

وهذه المسألة جاءت بوضوح في قوله سبحانه ﴿ فرأيتم ما
يُحَرِّثُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ أنتم بررعونه أم نحن الزارعون ﴾ (٢٥) ﴿ الواقعة ﴾ فربك عز وجل
يُقَدِّر عملك في حرث الأرض وإعدادها للزراعة وهذا دورك فيها
أما مسألة الإبيات فهي لله وحده ، لا دخل لك فيها .

كذلك احترم ربك عملك في إيجادك شيئاً كان معدوماً وسفك
حائلاً ، لا لك أوجدت معدوماً ، وإن كان هذا الذي أوجدته من موجود
معلوم ، فقال سبحانه ﴿ فتبارك الله حيُّ العالقين ﴾ (١) ﴿ المؤمنون ﴾

هكذا كان ربك قد احترم خفقت لشيء كان معدوماً ، فيسعى عليك
أن يحترم أحسنيته في الخلق ، فأنت حابق ربك أحسن الحالفين ،
أنت تستطيع أن تعالج الرمل مثلاً ، وتصنع منه كوباً ، هذا نوع من
الخلق لكن بطل الكوب كما هو ، ويشت على الحالة التي أوجد عليها ،
فلا يعطى أنت الكوب صفة الحياة ، أما خلق الله فيعطيه الله صفة
الحياة ، فيموت ويكبر ويتناسل الخ

وقوله سبحانه ﴿ أفلا بشكروا ﴾ (٢) ﴿ يس ﴾ جاء بعد ذكر هذه
النعمة السدقة والتي تستوجب شكر الله عليها لكن لم يأت هذا أمر

بالشكر ومع يأت بأسلوب حبرى ، إنما حياء هكذا ﴿ أفلا يشكروا ﴾ (٣٨) [يس] بصيغة الاستفهام ، وكأن الله تعالى يقول لنا أحيوا أنفسكم فقد استأمتكم على الجواب ، وقد علم سبحانه أن الجواب لا يمكن أن يكون إلا الإقرار بالشكر على النعمة

ثم يقول سبحانه

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ لَهَا مَتَاتِئُ
الْأَرْضِ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦)

كلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ (٣٦) [يس] تعنى التنزيه المطلق لواحد الوجود الأعلى عن أن تحكمه قوانين الموحود نفسه ، لذلك نُقِلَ في كل أمر عجيب كم في قصة الإسراء والمعراج فقد استهل القرآن سورة الإسراء بقوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء] فالإسراء سيدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم الصعود به إلى اسماء السابعة في جزء في الليل بعدُ أمراً عجيباً ، ويبقى الأُنْقِيسُ هذا العمل على قوت حزن ، بل على قوة الفاعل ، لأن الفعل يجب أن يُقَارَنَ بقوة فاعله قوةً وضعفاً

وسبق أن قلنا لتصبح هذه المسألة إني لو قلتُ صعباً ناسي لصغير قمة افرست مثلاً ، أنقول لي كيف صعد ولداك الصغير قمة افرست ؟

فالحق سبحانه في قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء] يقول لنا لا تنعجبوا من هذه المسألة ، لأن محمداً لم يَقُلْ سريراً ، إنما قال أسرى بي أنا الذي أسريت به وأنا مُرَّةً عن الرمان ،

ومُنْزَه عن المكان وعن لقوة ، وإنَّا كن كل فعل يُقاس زَمْنُه بقوة
 فدعاه فَمَسَّ الزَّمَنَ على الفاعل الأعلى سبحانه ، وعنده ستجد لا زمن
 وقبْدَ إِيَّاكَ حينَ يذهب إلى الإسكندرية مثلاً ماشياً سبعة عده
 أيامَ أما بالسيارة فتستغرق عدة ساعات ، وبالطائرة عدة دقائق
 وباصاروخ ثواني ، إذن ، كلما زادت القوة قلَّ الزمن ، وعلى هذا
 قس الإسراء والمعراج .

لذلك تجد أن هذه الكلمة ﴿سَبَّحَانَكَ﴾ [الإسراء] لا تُقال ولم تُقل
 من قبل إلا لله تعالى ، مع كثرة الجبارة في الأرض ، ومع وجود من
 ادعى الألوهية ، ومَرَّ قال أب ربحم الأعلى ومع ذلك لم تُقل إلا لله
 لذلك نقول في ذكر الله سبحانه ولا تُقال إلا لك ، لماذا ؟ لأنها
 تعنى التنزيه المطلق ، وهو لا يكون إلا لله .

وكلمة (سبحان) مصدر يعنى : لله سبحانه أى تنزيه قبل أن
 يوجد مَنْ يَنْزِهُهُ ، فهو مُنْزَه في ذاته قبل أن يوجد من يقول سبحانه
 الله ، كما أنه تعالى خالق قس أن يخلق ، وراق قبل أن يرق أحد
 فصفة موجودة فيه سبحانه قبل أن يوجد لها متعلق ، كما نقول
 فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة رائعة ، أم هو شاعر قبل
 أن يقولها ؟ نعم هو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا صفة
 الشعر عنده ما قامها .

إن صفات كمال كلها موجودة لله تعالى قس أن يوجد لها
 متعلق لأن هذه الصفات هي التي أوجدت متعلقها .

وكما ذكر القرآن كلمة المصدر (سبحان) ذكر المشرق منها من
 الماضي ، فقال سبحانه

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر]

ونذكر المضارع في قوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [جمعه]

إس الحق سبحانه مُسَبِّحٌ قس أن يخلق الخلق ، ثم لما خلق الخلق سبَّحت له كلُّ المخلوقات وما زالت تُسَبِّحُ وستظل تُسَبِّحُ ، فما دام الكون كله مُسَبِّحاً فلا تخرج أنت عن هذه المنظومة . وسبِّح معها : ﴿سَبِّحْ سَمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى]

والتنزيه المطلق للحق سبحانه له مقامات ثلاثة

الأول : أن تُنَزِّهَ ذاته سبحانه عن كل لذوات

الثاني أن تُنَزِّهَ صفاته سبحانه عن كل الصفات هأت توصف بالغيري ، لكن غناك ليس كغنى الحق سبحانه ، أنت موجود والله موجود ، فهو وجودك كوجوده سبحانه ؟ ، الج

ثم الثالث أن تُنَزِّهَ فعله سبحانه أن يشبه لأفعال ، فإذا قيل الله فعل كذا إياك أن تقيس فعله تعالى بفعلك ، لذل قلنا في ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الْعَرَبِيَّ﴾ [الإسراء] قسها على قوة الفاعل سبحانه ، لا على قوتك أنت

الحق سبحانه حيما يأتي شيء يعلمه المخاطبون الأولون لا يخلق خرائ قضه ، إما يترك لنا رصيذا احتياطياً لكل ما يحد بعد ذلك نتيجة التطور والتراوج في قوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِنْ مَّاءٍ مَّيِّتٍ لِلْأَرْضِ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس] ، فقوله تعالى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٦]

فهو غير معلوم للمخاطبين أولاً ، لكن سيُعلم فيما بعد ، وأبرز آيات القرآن التي أشارت إلى هذه المسألة قوله سبحانه ﴿وَلَنُحِيطَ

وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتُرَكَّبُهَا وَزِينَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ [النحل]

لقد فوله تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [النحل] رصداً احتياطياً لم استحدث بعد ذلك من وسائل النقل والمواصلات ، كالسيارات والمصائد والصواريخ .. الخ .

فإن قس فلما أتت هذه الأشياء المستحددة على سبيل الإجمال ، بقول لأن العقل لم يَكُنْ مستعداً لأن يفكرها ساعه الخطاب ، وهو لم ير شيئاً من هذا ، لكن حين يوجد شيء يراه صراحة فقد سبحانه على سبيل الإجمال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [النحل] لأن كل يوم سيأتى بنا تحديد ومعجبات لم نرها من قبل ، وآخر ما شاهدناه من ذلك الصواريخ ، ومن ذلك لعلنا نرى عن قريب ما هو أعجب منها ، وعندها سيدخل كل هذه الأشياء تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [النحل]

كذلك هنا في قوله تعالى ﴿وَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ [يس] فسبحن بعلم الأزواج في ﴿مِمَّا تَبِتَ الْأَرْضُ﴾ ﴿٣٦﴾ [يس] وشاهدناها مثلاً في تلقيح الحمل ، غيره من الممروعات ، نعرف منها الذكر والأنثى في الدحين وهي لحصير مثلاً ، لكن هناك ممروعات أخرى لا نعرف فيها الذكر من أنثى ، وهذه لأنواع تلقيحها الرياح بغيره ، الله كما قال سبحانه ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ نَوَاحٍ﴾ ﴿٣٦﴾ [الحجر]

وهي بعض الممروعات جعل لخالق سبحانه الذكورة والأنوثة في لعود الواحد ، وغالب الطر أنها في الممروعات الضرورية للاقوات كالدرة والقمح ، فليس فيهما عود ذكر وآخر أنثى ، إنما في العود لواحد كعود الدرة مثلاً بعد في أعلى العود سنبله تحمل حبات لقاح الذكورة وتحتها كور الدرة أدى تخرج منه شعيرات تمثل الأنوثة

ويتلقى حبات القحاح التي تبعثرها الرياح من أعلى

بذلك إذا لم نخرج هذه الشعيرات وتبرز من الكور (يدكر) كما
يقول الفلاحون يعنى لا نخرج كورا ولا تكون بداخله حبات
انذرة . لماذا ؟ لأنه لم يتلق حبات الذكورة

لذلك من اعجابك أنك تجد حبات انذرة فى أسفل الكور أكبر مما
يلها إلى عى ، والنسيج ، لأن كل شعيرة من الشعيرات متصلة بحبة
من حبات الكور ، وتمثل هذه الشعيرة القناة التي تنقل القحاح إلى
الحبه . لكن الشعيرات انى نمر إلى أسفل الكور نخرج منه قصيرة
متفرقة ، مما يتيح لها أن تتلقى أكثر كمية من القحاح على خلاف
لشعيرات لأعلى ، فيها تكون طوية متراكمة بعضها على بعض ،
بذلك لا نحذ كفايتها من القحاح ، فتكون حباتها أقل حجماً ، إلى أن
نصغر فى أعلى الكور وتلاشى .

وبحق حميداً شاهد صدق قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ نَوَاحٍ﴾ (٢٠)
[الحجر] حين ينظر مثلاً إلى الحال وهى جرداء قاحلة ، فإذا نزل
عليها المطر اخضرت ، فمن نذر فيها هذه النذور ؟

ولحق سبحانه وتعالى فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِمَّا
نَبَتِ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣١) [يس] بما يحتملنا على
متداد النعمة وامتناد المعنى عند عبدالبراهيم بنقى النوع ويتكاثر ،
والروحانية موجودة فى كل شيء ، وكلمة زوج لا تعنى اثنين كما يظن
العض ، إنما الزوج يعنى الشيء الواحد بكن مع مثله ، فحين
لا نقول لحدء مثلاً زوج يعنى ليمين والشمال إنما نقول زوجين ،
ومثلها كلمة توائم ، فكل واحد منهما يقال له توائم وهما توائم

والروحانية موجودة فى كل شيء فى الوجود كما قبل سبحانه

فى آيه أخرى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُوحِينَ﴾ (٤٩) ﴿[الدريات]

ون نصرت إلى هذا الوجود كله بعين العلم الفاحصة ، بمجرة المدققة لوحدت كل شيء فى الوجود روجين لاستدامة الصنف . بعض هذه الأشياء بدرى مسألة الروحنة فيها ، بعضها لا بدرى به ، وما دام الروجان يحتمان لتكاثر فلا بُدَّ من تلقيح أحدهما بالآخر ، مما أدى يذلَّ على ميعاد هذا التكاثر .

قالوا الشيء الذى لا دخل للإنسان فيه فانه يعم ميعاده ، ويجعلها تتكاثر كلُّ بما يناسبه ، لكن المشكلة عندك أنت أيها الإنسان ، ولو كانت عندك مقاييس دقيقه فى الدات لعلمت أن هناك تغيرات كيمائية فى جسمك تحتاج منك إلى بقاء ملاحظة هذه التغيرات هى التى يذلَّ على ميعاد التكاثر .

والآن احبرعوا ساعة يصعبها المرأه بعد الحيض ، وبلاحظ منها درجة حرارتها ، فإذا ارتفعت عن ٣٧° فهذا يعنى وجود تغير كيموى فى الجسم يدل على نزول البويضة ، لذلك ترى كثيرين من الارواح تتأخر عندهم عمليه الإنجاب ، لأن المرأة ليست لديها دقة الملاحظة التى تعرف منها وقت التبويض الذى يؤدى إلى الإنجاب .

وذكر الحق سبحانه لروحية فى ﴿مِمَّا نَبَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) [سر] ولم يذكر الحيون ، لماذا ؟ لأنه سبحانه ذكر الأعلى وهو الإنسان الحيوان الناطق ، فالآخر صفته وتابع له

ومعنى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) [سر] أن فى لكون أشياء كثيرة

لا نعلم وجه لزوجية فيها ، وقد نعلمها مستقلاً مع تقدم العلوم التجريبية ، كما حدث مثلاً في الكهرباء ، وعرفنا أنها سالب وموجب ، ولا يستبعد بالكهرباء إلا بذ التقى السالب بالموجب أما إن التقى سالبٌ بسالبٍ أو موجبٌ بموجبٍ ، فالنتيجة تكون عكسية ، والسالب والموجب هنا نوع من أنواع الزوجية ، كذلك الحال في الدرة وغيرها مما اكتشفه العلم الحديث .

[إس] فكلمة ﴿وَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [إس] لها منلولات وقعبٌ ، أحبر الله عنها قبل أن نكتشفها لنعلم أن العيب ابدى بحسبنا الله به يأتي كمقدمة لعيب آخر سنعرفه في المستقبل وكان الحق سبحانه يلفت أبطارنا كما صدق الوقع ما أخبرت به من العيب ، فصدقوا ما أخبرتكم به من غيبٍ لاخرة

بعد أن تكلم بحق سبحانه عن المكان وهو الأرض تكلم عن الرمان ، لأن الإنسان يعيش بالأحداث والحدث يحدث إلى رمان وإلى مكان ، فبعد أن حدثنا الحق سبحانه عن الأرض وما عليها وهي المكان ، يحدثنا عن الرمان فقال سبحانه

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ لَئِلَّا نَسْلَخَ مِنْهُ النَّارَ

فَأَذَاهُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧)

قوله تعالى ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [س] يعنى حصة بهم ، وليست آية لكل ، لأن النبي ﷺ آمن بفطرته ، ولم مكر بحاجة إلى دليل ليؤمن كذلك المؤمن لا يحدث عن الدليل إلا يرد به على من ينكر ﴿وَاللَّيْلِ﴾ (٣٧) [س] هو قسيم النهار ، فالיום يتكون من ليل

وبهر، وليس من الدقة في المقدمات أن نقول اليوم والليل ، لأن
اليوم يشتمل الليل والمهر ، فكلاهما يوم لكن البعض يضر إلى قوله
بعالى ﴿سَمِعَ لَيْلًا وَتَمَامِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (٧) [الحاشية] فأطلق اليوم مقابل
الليل بدل النهار

والليل ظلمة ، وفيها اسكور يشبه النوم الذي تنامه بالليل ،
والنوم يشبه النوم ، والليل يقابل النهار لكن لا يعابده ولا يصاده
كما يطن العصر فالليل يقابل النهار ، وبينهما تكامل ، لأن لكل
منهما مهمة في الحياة ، الليل جُعل لنهداً من حركة النهار ويستريح
لنستأنف بهاراً جديداً نشط ، واسهر جُعل للعمل والسعي يستعمل
فيه راحة الليل

ذَن هُمَا متعاصدان لا متعاندان وكل شيء له مقابل ، إثبات أن
تأخذه على أنه صدق ، بل انظر إلى أنه شيء ضروري لا بد أن يكون

بذلك الحق سبحانه يلقينا في ارمز إلى هذه المسألة ، فيقول
﴿قُلْ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ سَمْعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ سَكُونٍ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) [العصر]

إذن لكل منهما مهمة ولا يغني أحدهما عن الآخر ومن دقة
الاداء القرآني أن يقول سبحانه في الليل ﴿أَفْلا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) [العصر]
وفي النهار ﴿أَفْلا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) [القصص] لأن الليل ظلمة وأداة

(١) الأيام الحسوم القُبَاع [١] نسمع الشيء فلم يقطع أوجه عن أحمره قاله الفراء وبقه
الأمرى من تهدير اللغة مادة حسم وقال الجليل بن أحمد في كتابه العين
حسوما أي شؤماً عليهم وبحساً ،

الاستدعاء فيه الأدب ، أما النهار فضياء فيبصر فيه

من لا يصح أن يجعل من كل متقابلين متضادين ، فالتكامل غير التضاد ، كذلك أراد الله تعالى أن يحل هذه المسألة مشكلة لا ترال لعصور تتصرع فيها إلى الآن مشكلة انتقايين بين المذكورة والأنوثة ، أو لرجل والمرأة والآن سمع من ينادي بأن المرأة مثل الرجل ، كيف ولكل منهما مهمة نوعية ، إيهما متكاملان مثل تكامل الليل والنهار

وقد أشار الحق سبحانه إلى هذا التكامل في قوله سبحانه ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَی (٢) رَمَا حَقَّ الذَّكْرُ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (٤)﴾ [البقره]

ومعنى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (٤)﴾ [البقره] يعنى مختلف ، وبكل مهمة يؤديها هي الحياة ، فالذين ينادون الآن بالمساواة بين الرجل والمرأة إنما يظلمون المرأة ، لأنهم يريدون للمرأة أن تقوم بدور الرجل في حركة الحياة ، وبعد ذلك يتركون المرأة تقوم هي بالخصوصية التي لا يؤديها إلا هي ، من هي أحدث من مهمة الرجل ، ولم يأخذ الرجل من مهمتها إلا الحق سبحانه مخلق المتقابلات لتتكامل لا لتعارض ، وتتساند لا تتعاند ، فهي مسألة موروثة بحساب

وقوله سبحانه ﴿سَلِّحُوا مِنْهُ النَّهَارَ (٣٥)﴾ [البقره] السليح كُشِّطَ الحديد عن الشاة ، فها لعلاقة بين هذه المسألة وصوء الليل والنهار ، قالوا الأصل في الشيء الظلمة ، ولا نطهر الظلمة إلا بمسير طارئ ، فالليل ظلمة ، ثم يأتي صوء النهار فيستر هذه الظلمة فكان انبهار حينما يأتي يستر الظلمة كما يستر جلد انشاة بحمها ، فإذا ما أراد

الحق سبحانه أن يأتي الظلام يطغى الضوء ، كما فسلح جس الشاة
عن لحمها

إسن قابليل يأتي على طبيعته لأنه الأصل ؛ لذلك قال سبحانه
﴿وَأَيُّ لَّهُمَّ اللَّيْلُ سَلَحٌ مِّنَ النَّهَارِ فَإِذَا هُم مَّظْلُومُونَ﴾ [يس] فإظلام عدم
نور ، أما النور فإنحصاد ، نحاج إلى آلة جديدة ، فهو تركت الليل
بحاه لطلّ مظلماً ، ولولا آلة الضوء لظلّ ليلاً ، إسن بلضوء آلة أم
انظلام فليس له آلة حينما تعمر يأتي الظلام أو قلّ انظلام أمره
عدمى أما الضوء فأمره وحوى ، فإذا قيل تسبح منه النهار فقد
شبه الضوء الذى يغطى الظلام بانجلد انذى يغطى بحم الشاة

والمعنى مذهب يهود العلاف الصوفى الذى يستر الليل ، فيحلّ
الظلام أى يظهر على طبيعته ومن تلقاء نفسه ، لذلك جاء الآراء
الفرأى فإذا ادالة على المباحاه ﴿فَإِذَا هُم مَّظْلُومُونَ﴾ [يس] فكان
المسألة تلقائية لا تحتاج إلى ترتيب

ثم يقور سبحانه

﴿وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا أَذِيكَ تَقْدِيرٌ

الْعَرِيرِ الْعَلِيمِ﴾

الشمس هي آلة الضوء لدى سلحه عن الليل ومعنى ﴿تَحْرِي﴾
لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴿٢٨﴾ [يس] أى شىء ولغاية تستقر عندها ، والمعنى
حركة الشمس حدد أن لها مطعاً عاماً هو الشرق ، وهذا المطع العام
يقسم إلى مطالع بعد أيام السنة إسن مطالع الشمس محتلفة ،
لذلك رأيت فضاء المصريين على معندهم يدركون هذه الحقيقة الكونية
ويحسبونها سنة ويجعلون فى المعبد ٢٦٥ طاق تشرق الشمس



كل يوم من واحدة منها بالترتيب ، إلى أن تصا إلى آخرها في آخر السنة.

وقد عرف الإنسان أن للشمس مجموعة من الكواكب تدور حولها ، وسميها المجموعة الشمسية ، وهي تتكوّن من سبعة كواكب عطارد و الزهرة و الأرض و المريخ و المشترى و زحل و يورنوس ، وقد أعرت هذه السبعة بعض العلماء مثل الشيخ المراغى والشيخ محمد عبده أن يقولوا إنها السموات السبع ، لكن في سنة ١٩٣٠ اكتشف العلماء كوكبا آخر هو بلوتو ، وبعدها بعشرين سنة اكتشفوا كوكبا آخر هو نبتون ، فصاروا تسعة كواكب في المجموعة الشمسية ، كلها في السماء الدنيا ، ولا صلة بينها وبين اسموات السبع ، لكن حاول اشعخان تقريب المسائل الدينية للعالم

هذه الكواكب في المجموعة الشمسية بكل كوكب منها دورة حول نفسه ، ودورة حول الشمس من دورته حول نفسه بشأ اليوم ، ومن دورته حول الشمس بشأ العام ، والدورتان تختلفان في السرعة فإذا كانت دورة الكوكب حول نفسه أسرع من دورته حول الشمس كان يومه أطول من عامه

ذلك من لأشياء الملفزة التي تُقال في الجغرافيا ما يوم أطول من عام ، يوم الزهرة أطول من عامها لأنهم بما حسبوا حركة الزهرة بالسنة ليوم الأرض وحسبوا أن عام الزهرة ٢٢٥ يوما من أيام الأرض ، ويومها ٢٤٤ من أيام الأرض ، ذلك لأن سرعتها حول نفسها أكثر من سرعتها في دورتها حول الشمس

فمعي ۞ والشمس تجري لمشرقها (٢٨) ﴿يس﴾ أي الشمس بمجموعتها وما يدور حولها من كواكب تجري إلى نجم يسميه

علماء الفلك (لفيحاء) والعرب نسميه (النسر) لوامع ، والشمس تجري بمجموعتها بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية ، الشمس لها حركة الكوكب التي تدور حولها بها حركة ، وهذه أشبه ما تكون بينسان يركب مركباً ، فكيف بحسب حركته وسرعته ؟

إن كان هو ساكناً فسرعته تساوي سرعة المركب ، وإذا كان يسير في نفس اتجاه المركب ، فسرعته تساوي سرعته في ذاته (ذات) سرعة المركب فإن كان يسير في عكس اتجاه المركب فسرعته تساوي سرعة المركب (نقص) سرعته هو

ومعنى ﴿لَمُستَقِرَّ لَهَا﴾ (٣٨) يس [المستقر إما أن يكون بهانه العدم ، ثم تبدأ عاماً جديداً ، وتشرق من أول مطالع لها أو أن المستقر آخر عمرها ونهايتها حيث تنفض وتكور وتنتهي

لكن ، ما الذي يحرك هذه المجموعة الشمسية ؟ وكيف تجري بهذه السرعة ؟ ونحن نعلم أن الحركة تحتاج إلى طاقة تمدها ، فما الطاقة التي تحرك هذه المجموعة بهذه الصورة وهذا الاستمرار ؟ قالوا إنها تحرك ، لأن الله خلقها على هيئة الحركة والحريان لذلك تحرك لا يوقفها شيء ، وستنضم حرة إلى أن يشاء الله ، فلا يلزمها إذن طاقة تحركها ومثال ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ رَأَيْتَ أَنَّ أَمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (١٤) [مطهر]

وهي علم الحركة قانون اسمه قانون العطائه ، وهو أن كل متحرك يظل على حركته ، إلى أن يُوقفه ، وكل ساكن يظل على سكونه إلى أن تُحركه ، وهذا القانون فسر لنا حركة الاقمار الصناعية ومراكب الفضاء التي تظل متحركة لفترات طويلة

ونتساءل ما الفترة التي تحركها صواريخ هذه المدة ؟ إنها

تتحرك لأنها وصفت هي مجانباً على هيئة الحركة فتظل متحركة لا يُوقعها شيء لأنها فوق محال لحدسية إنس كل الذي اجساعته هذه الآلات من الطاقة هي طاقة الصاروخ الذي بحمها ، إلى أن يعبر من مجال الحدسية الأرضية أما هي فتظل دائرة بلا طاقة وبلا وقود

ثم يُدْكرنا الحق سبحانه بعضه في هذه الحركة ، فيقول ﴿ ذلك ﴾ (٣٦) [يس] أي ما سبق من حركة الليل والنهار وحريان الشمس ﴿ تفسير العرير العليم ﴾ (٣٨) [يس] يعني كل هذا الجريان وكل هذه الحركة إنما هي بتقدير الله ، وكلمة ﴿ العرير ﴾ (٣٨) [يس] هنا مداسه بتماماً ، فالمعنى أنه تعالى العرير الذي لا تغلبه القوانين لأنه سبحانه خلق القوانين ،

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (٣٩)

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الشمس وهي آله الضوء تكلم عن القمر لأن له مهمة يؤديها حين تغيب الشمس وكان القمر اسعار من لشمس بعض صوته بيبير بالليل للذين لا يعملون إلا ليلاً كالعسس والحراس ورجال الأمن وعمال المحابر وغيرهم ، فالقمر كما تعلمون لا يصيء نفسه إنما يعكس بعض ضوء الشمس ، فبأتى صرؤه هادئاً ، لذت بسموه الضوء الحليم ، حيث يأتيها لا شعاع له ، ولا حرارة فيه

(١) العسس : جمع عسس وهو يمشي طاب بالليل لحراسة الناس [الريددي في تاج العروس مادة عسس]

ذلك حين يُعدُّ لنا لحق سبحانه بعض لائه ونعمه ، يقول
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَاسُكُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَبَعُوكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۚ ۝٣٤ ﴾ [الدوم]

فإذا كان النوم مقصوداً على الليل ، فماذا كان يفعل هؤلاء الذين
تقتضى طبيعة عملهم أن يعملوا بالليل ، ويرتاحون ويامون بالنهار ،
فهذه الآية مطهر من مظاهر دقة الأداء القرآنى ، فإن كان الليل هو
الأصل فى النوم والراحة لجمهرة الناس فلا مانع من النوم بالنهار
للفئة القائمة على أمر النائمين بالليل .

ومعنى ﴿ قَدْرَبَاهُ مَنَارِلَ ۝٣٥ ﴾ [يس] يعنى قدربا سيرد فى منارل
ومسافات ، هذه المنارل بشاهدها كل شهر فى حركة القمر التربيع
الاول ، ولتربيع الثانى ثم البدر

والقمر أسرع فى حركته من الشمس ، لأنه يقطع فلكه فى شهر ،
بينما تقطع الشمس فلكها فى سنة

وتأمل دقة الأداء القرآنى المبنى على انهندسة العليا فى قوه
سبحانه ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٦ ﴾ [يس] هذه صورته بوصفيتها
لمنارل لقمر محدودة من البيئة العربية فالعرجون هو عذق لبنة
لدى يحمل الثمار ، ويسميه (السُّمَاطَة) وهى مكونة من عدة
شماريح رفيعة ، لكن قاعدتها عند اتصالها بصغ اسحة عريضة
ومعطحة ، هذا عذق ينس ويصمر كلما تقادم ويعوج و (يتقفع)
كلما حقت منه المائية وهذه الصورة توضح تماماً حركة القمر حيث
يصمر وينففع إلى أن يتلاشى آخر الشهر .

وإد كان القسرا قد شبه القمر بالعرجون القديم ، فإن العرب
تشبسه بفلامنة الظفر ، كما جاء فى قول شاعرهم الذى راح يرقب

صوء القمر حتى يغيب فيتسلل إلى محبته

وعاب ضوء قمر كنت أرقبه مثل القلابة قد قُدت من الطُّقُر^(١)

ومن بحكمة أن نُشبهه اقمر العالى الذى لا يدركه بشيء دان
سركه ، وأن نقول لث هذا مثل هذا لتتصح الصورة

ثم يقول سبحانه جامعاً بين الشمس والقمر ، وبين الليل والنهار

﴿لَا الشَّمْسُ يَسَعِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

لا يقال فلا لا يدرك فلاناً إلا إذا كان سابقه ، كذلك الشمس
لا تدرك القمر ، لأنه كما قلنا سابقها وأسرع منها ، لأنه يقطع دورته
فى شهر ، وتقطع الشمس دورتها فى سنة

كذلك ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس] اللين والنهار هم الزمن
ابداشوء عن حركة الشمس والقمر ، فالنهار ابن اشمس ، والليل ابن
القمر ، وفى هذه الآية نفيان نفي لأن تدرك الشمس القمر فصلاً
عن أن تسبقه ، ونفي لأن يسبق الليل النهار ، فإذا كانت الشمس
لا تدرك القمر ، فليس معنى هذا أن يسبق الليل ابن القمر النهار ابن
الشمس

إذن إيانك أن تقول إن الليل يسبق النهار ، لأن هذه آيات كونية

(١) بكوه ابن عبد السمعم الحسيري فى كتابه ، الروض المعطار فى خبر الاقطار ، فى القديرات

فى وصف دير عجدون ، وجره لابن المعتز من قصيدة أولها

سقى الجريفة داب الظل ونفجر ردير عذون هلال من القمر

ونعقه « وعار ضوء هلال » ونيس « وعاب ضوء قمر » والبيت من بحر البسيط

أرادت الخالق سبحانه والحق سبحانه حينئذ يتكلم هي قضية
قد توقف فيها العقول بأنى لها بالمرمرة بحيث يستطيع العاقل
المفكر لدى بقر الأساليب ويُدققها أن يصل إلى مطلوب الله فيها أم
من حرم هذا الاستعداد فيمر عليها مروراً عابراً لا يصل منه إلى
شيء .

ونقول في هذه لمسألة الكونية صحيح القمر يسبق الشمس .
لكن الليل لا يسبق النهار ، وبأمر هذا العلاج بالأساليب والحو
سبحانه إذا قال ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [سر] فإنه سبحانه لا يقول
ذلك إلا إذا كان هناك معتقد بأن الليل يسبق النهار ، فأراد سبحانه
أن يُصحح لهم هذا الاعتقاد ، فنفى أن يسبق الليل النهار ﴿وَاللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [سر] وهذا يعنى أن عندى قصته هي ولا النهار
يسبق الليل

إذن المحصلة لا الليل يسبق النهار ، ولا النهار يسبق الليل .
فالقضية التى أثبتوه أراد الله فيها ، والقضية التى نفوها تركها على
حالتها

لكن كيف يتأتى لهم هذا العهم ؟ قالوا ظنوا أن الليل يسبق
النهار ، لأن ليوم يثبت بالليل لا بالنهار ، ففى صدام رمضار مثلاً
يثبت مدايه اليوم من الليل فلما كان ذلك ظنوا أن الليل يسبق
النهار ، إذن عندهم قضية مقطوع بها ، هي أن النهار لا يسبق
الليل ، وهذه لم يتعرض بها القرآن وبركها كما هي ، أم لقضية
المخالفة للآلة الكونية مصححها لهم ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [سر]

إذن بحر أمام لغير بقول الليل لا يسبق النهار والنهار
لا يسبق الليل ، كيف ؟ قالوا لو أن الله تعالى خلق الأرض

مسطوحة مواجهة للشمس لكان انهار أولاً ، ثم تعيب الشمس فيحلُ الليل أم لو كانت الأرض غير مواجهة لشمس لكان الليل أولاً بعده النهار لكن الحقيقة أن الله تعالى خلق الأرض على هيئة كروية بحيث لا أسبقية ليل على نهار ، ولا لنهار على ليل لأنهما وُحداً معاً في لحظة واحدة ، لأن الأرض مَكْوَرَة ، فما واجه منها الشمس كان نهاراً ، وما غابت عنه الشمس كان ليلاً .

لذلك حُلَّتْ لنا هذه الآنة مشكلة طال الجدل حولها هي كروية الأرض

وقوله سبحانه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١٠) [س] يسبحون من السبح، وهو قَطْع المسافة على ماء لين ، فهي حركة فيها استيائية ليسب على أرض تدب عليها الأقدام وهذا مثال لحركة الأملاك وهذه الحركة السبحية يكون كل جزء منها مُورَعاً على جزء من الزمن وهذه لحركة ليس تدب المقاييس التي تدركها بها ، إنما يعرفها من حملة الزمن مع جملة الحركة فمثلاً لو ولد لك موبود وجست ترقبه وتلاحظ نموه ، فإليك لا تلاحظ هذا النمو ، لا يكرر الولد في غير أبيه أبداً ، لماذا ؟

لأن نموه لا يأتي قفزة واحدة يمكن ملاحظتها ، إنما يُورَع النمو على الزمن ، لكن إذا غُيِبَتْ عن ولدك عدة شهور أو سنوات فربك تلاحظ نموه حين تعود وتراه ، لأنك تلاحظ مجموع النمو طوال فترة غيابك عنه

فمعنى ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١١) [س] يعني يسبحون سيرا استيائياً متتابعاً مُورَعاً على الزمن

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَا حَمَّادٌ زَيْتُهُمْ فِي الْمَلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَاءُ نَغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدُّونَ ﴿٤٣﴾ لَا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ﴾ [يس] هي آية لنا ولهم لنا على سبيل الاستدلال يستدل لهم بها بمقتنعهم ، ولهم هم أي تدعوهم إلى الإيمان بالله ، لذلك لما سئل الإمام على رضي الله عنه أعرفت رداً بمحمد ، أم عرفت محمداً برك ، فقال عرفت ربي برسي ، وجاء محمد قبلتني مراد ربي مني

ومعنى ﴿الْفُلُّ﴾ السفن ﴿لَمَشْحُونٍ﴾ المملوء والمراد سفينة سيد نوح - عليه السلام - وقد أوحى الله إليه أن يصنع السفينة ودله على كيفية صناعتها ، كما قال سبحانه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا ..﴾ (٢٧) [المؤمنون]

فالسفن هي أحد ماها من آيات الله ، ولو لم يوح الله إلى نوح أن يصنع السفينة ، كيف كنا نتقل في الماء ، وهو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية فهذه آية أراها الله تعالى على يد سيدنا نوح ، ليعلم الناس جميعاً صداقة السفن ، ثم بلعقول بعد ذلك أن تطورها وترقى بصناعتها كما نرى الآن السفن العملاقة على أحدث ما يكون ، حيث استبدل الإنسان قلع المركب بآلات البحار والكهرباء وحل الحديد والمعادن محل الخشب والمسامير ، الخ .

ومع هذا التطور ، وبعد الاستعناء عن قوة الريح في تسيير

السفن تظلّ اسفن تسير بسم الله وبقدرته ، حتى إن استخدمت
ابحار أو كهراء لأن الريح لا يعنى لهواء الذى بُسّر السفن
فحسب ، إنما الريح تعنى اقوة أيّا كنت ، لذلك يقول سبحانه ﴿ولا
تدعوا فتهملوا وتذهب ريحكم﴾ (٤٦) [الأنفال]

ويقول سبحانه ﴿إذ يشأ يسكن الريح فيظلل رواحداً على ظهره ..
(٤٧)﴾ [الشورى]

ويستوقفنا فى هذه الآية قوله تعالى ﴿حملنا ذريتهم فى العنكب
المشحون﴾ (٤٨) [يس] والآية تتحدث عن العرب الذين نزل القرآن مُحاطين
لهم ، ولدين حملوا فى السفينة هم أبؤهم لا ذريتهم فكيف ذلك ؟
قال القرآن ﴿حملنا ذريتهم﴾ (٤٩) [يس] والمراد آباؤهم ، لأن
الذرية تُطلق أيضاً على الأب ، لأن اندراى منه ، أو لأن الآباء الذين
نحووا فى السفينة هم الأصل الأصل للموجودين الذين يحاط بهم
القرآن ، وكانوا هم مضمورين فى آياتهم

لذلك سبق أن قلنا إن كل واحد منا إلى أن تقوم الساعة فيه
حرىء حتى من أبيه آدم لم يطرأ عليه الموت ، ولو تدبعت الآء
وسلسلت هذه السلسلة لقلت إثنى من ميكروب حتى جاء من أبى
وأبى من ميكروب حتى جاء من أبيه ، وهكذا إلى آدم عليه السلام
ولو كان هذا الميكروب ميتاً ما جئت .

إذن ففى كل مثارة تكوسية من أبيه آدم لم يطرأ عليها
تغيير ، وهذه لدرة هى التى تحمل الفطرة الإيمانية فى كل إنسان

ووصف الحق سبحانه العنكب بأنه مشحون يعنى مملوء لأن
سيدنا نوحاً لم يأخذ فيها المؤمنين لينجيه من لغرق فحسب ، إنما

يُوقَرُ بِهِمُ سَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا تَكَيْفُ بِعَيْشِ النَّاسِ عَلَى
أَرْضٍ لَا يَوْجَدُ فِيهَا غَيْرُهُمْ ، لَا نَبَاتٌ وَلَا حَيَوَانٌ وَلَا طَيْرٌ ؟
لِذَلِكَ قَالَ سَبِّحْهُ مَخَاطِبًا نَبِيَّهُ نُوحًا ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
اثنَيْنِ ۚ ۝ (٤٠) ﴾ [هـ]

وَقَوْلُهُ سَبِّحْهُ ۚ ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ (٤٠) ﴿ [يس] ﴾ فَمِنْ
بَعْدِ السَّفِينَةِ أَخَذَهَا الدَّسُّ نَمُودَجًا ، وَصَنَعُوا مِثْلَهُ ، وَصَوَّرُوا فِي
صَاعَتِهِ فَأَنْشَأُوا السُّفُنَ وَالْمَرَاقِبَ وَالزَّوَارِقَ وَغَيْرَهَا مِمَّا يُرَكَّبُ فِي
الْبَحْرِ أَوْ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يُرَكَّبُ فِي الْبَرَارِيِّ وَالصَّحَرَاءِ ،
وَمِنْ ذَلِكَ يُسَمُّونَ الْجَمَلَ مِثْلًا سَفِينَةَ الصَّحَرَاءِ

ثُمَّ يَحْدَرُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ أَنْ يَغْتَرَّ بِهَذِهِ الْمَرَاقِبِ ، لِأَنَّهَا وَسَائِلُ
لِلنَّجَاةِ لِأَنَّهُ سَبَّحَهُ إِنْ أَرَادَ الْهَلَاكَ أَهْلَكَ ، وَكَمْ رَأَيْنَا سَفِينًا عَمَلًا
تَوَرَّبَ لَهَا كُلُّ سُلِّ الْأَمَانِ وَالسَّلَامَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ انْتَلَعَتْهَا الْأَمْوَاجُ بِمَرٍّ
عَبَّهَا .

وَصَدَقَ اللَّهُ ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُعْذَرُونَ ﴾ (٤٣) ﴿ [يس] ﴾
فَبَيَّنَّ حِينَ تُرْزَقُ بِمِعْمَةٍ تَقْلُصُكَ مِنْ مَعْطَبٍ أَنْ تَعْرِكَ الْمِعْمَةَ فَتَحْسِبَ
فِيهَا الْأَمْنَ وَالنَّجَاةَ لِأَنَّكَ بِنَاقَلَتٍ مِنْ قِصَّةِ اللَّهِ وَلَا بِمَعْدَكَ أَحَدٌ ،
وَلَا بِنَحْيِكَ شَيْءٌ إِنْ أَرَادَ بِكَ الْهَلَاكَ ، وَهَلْ تَرَى بِبَيْدِكَ شَيْئًا يُنْجِيكَ
حِينَ تَهْبُ عَاصِفَةٌ أَوْ يَغْلُو الْوَجُّ فَوْقَ سَفِينَتِكَ كَالْجِبَالِ ؟ إِنْ
أَلَاكَ وَوَسَائِلَكَ لَا تُنْجِيكَ مِنْ قُدْرِي

وَمَعْنَى ﴿ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ ﴾ (٤٣) ﴿ [يس] ﴾ الصَّرِيحُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّحُ
وَيَتَسَبَّحُ بِهِ لِنَقْدِكَ وَيَأْخُذُ بِكَ ، وَيُخْرِجُكَ مِنَ الْمَأْزِقِ الَّذِي أَنْتَ
فِيهِ وَمِنْ رَوَائِعِ الْعَقَائِدِ الَّتِي اسْتَشْفَاهَا أَهْلُ الْإِشْرَاقِ وَالتَّنْوِيرِ أَنْ

قالوا الإنسان يصرح ويستنجد بمن هو أقرب منه كإبيه ، أو أمه ، أو خادمه ، أو حاربه الخ فإذا لم يجد يقول يا الله ، لذلك نسمع بعضهم يقول عند السارق يا هو^١ والمراد يا هو يعني يا الله ؛ لأنه لا يوجد غيره ينفذ ويعيث .

ومن المواضع التي وردت فيها مادة صرح قوله تعالى حكاية عن الشيطان ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيَّ ﴾ (٢٢) [إبراهيم] والمُصْرِح هو الذي يُزيل الصراخ يعني يسعفك ، ويزيل عنك الشدة

وقوله تعالى ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴾ (١٤) [يس] يعني امتنع المصريح ، وامتنع عنهم أيضاً العنقذ الذي يتطوع فينقذهم وهذا قطع للأمل في النجاة ، فمن أراد الله الإهلاك فلا سبيل للنجاة أبداً ، إلا بإذنه تعالى ورحمته .

تلك يقول في الآية بعدما ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ (١٠) [يس] رحمة تنجي من الفرق ، ومعنى ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١١) [يس] أن هذه النجاة ليست صكاً بالسلامة الدائمة والبقاء المستمر إنما هذه النجاة متاع إلى حين ، إلى أن يحل الأجل ويذكرك الصوت ، ما أنت إذن سلمت من الحمام إلى الحمام الذي لا بد منه .

وأشبهه بذلك قول الفخر الرازي

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا اسْتَرْحَنَّا لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةً كُلَّ حِينٍ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا يُعْثِنُنَا وَنُسَالِ بَعْدَهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

وكلمة الحين تعني الفترة من الزمن بحسب ما تُقاس به ، فمثلاً في ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (٧) [الروم] الحين يعني

(١) هذا اليبس للإمام علي بن أبي طالب من بحر الوافر باختلاف بسيط فبدل (استرحنا) (تركنا) ، ذكرهما المبرد في كتابه « الفاعل في اللغة والأدب » في باب غسر الشعر

يوم ودية ، وفى قوله تعالى ﴿ تَوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حَبْسٍ ﴾ (٢٥) ﴿ [براميم]
الحسين هنا يعنى سنة ، وفى ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حَبِشٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ
يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (١) [الإنسان] يعنى : مقدر مُحدد من الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ
وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٥)

تعلمون أن (إذا) أداة الشرط التى تفيد التحقيق أما (إن)
فتفيد الشك ، ومعنى ﴿ لَهُمْ ﴾ أى للكافرين ، وجاء الفعل ﴿ قِيلَ ﴾
هكذا مبنيًا للمجهول ليفيد العموم . فكأن كل مؤمن عليه أن يقول .
وإن ينصح ، وأن يأخذ بيد غيره إلى طريق الله

والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لعباده المؤمنين يا عبادى ،
يا مَنْ آمَنتم بى ، وصدَّقتم برسلى ، لا تظلو أئى أرضى عنكم طالما
آمَنتم بى وصدَّقتم رسلى لكنى أحب ألا تدحروا وسعًا لتتقوا خلقى
من غضى عليهم ، حين يُصروُن على الكفر ويقيمون عليه

وهذا نوع من الرحاء فى المؤمنين أن يأخذوا بيد لكفار ، وأن
يبنذوهم من دواعى غضب الله عليهم ، وهذا المعنى داخل تحت قول
سيدنا رسول الله ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب
لنفسه »^(١)

(١) حديثٌ متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢) وكنا مسلم فى صحيحه (٤٥)
كتاب الإيمان عن أنس بن مالك لفظ : «والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب
لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

ومعنى ﴿مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ ﴿٤٥﴾ [يس] أى ما هو أمامكم وما ينتظركم من السعث والحشر والسؤال والحساب ثم النار ﴿وما حكمكم﴾ ﴿٤٤﴾ [يس] يعنى ما سيقمكم من العبر بالمكذّبين قبلكم ، وكف كانت عاقبتهم ونهاية كفرهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [يس] رحاء أن يرحمكم الله

إذن يبين أن يكون في نال المؤمن أن يمهّد السبيل لرحمة الكافر ، وأن يحاول وسّعه أن ينقذه ، وأن يعطف عليه ، لا أن يسلك معه مسلك الدد والحصومة التي لا تجدى

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ يَةٍ مِنْ يَةٍ فَنُكَرُوا بَرَّيْنَهُمَا﴾

إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

هذا هو الدد واعداد بعينه ، فالآيات أمامهم وأصحة ، وهم يعرضون عنها وينصرفون عن تدبرها ، ذلك لأن الدين يكفرون بالله ويكذبون رسله ، ويتأبؤون على منهج الله لئلا جاء لصينته خفيفته في الأرض ، هؤلاء مستفيدون من لفساد ومستفيدون من الإعراض عن منهج الله ، فطبعي أن يروا في كل رسول وفي كل مصلح أنه جاء ليقطع أرزاقهم ، ويفسد عليهم حياتهم ، فيصاومونه ويقعون في وجهه

وهذه الآية يفسرها قول الله في موضع آخر ﴿وَحَدِّثْهُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ واستيقنتها بنفهم ظلما وعلواً ﴿١٥﴾ [النمل]

فإن قُنت ما دُمت حريصين على أن يرحم الله هؤلاء الكافرين فلماذا لا تُلحون عليهم بالآيات الحديدية إلى أن يؤمنوا فيرحمهم الله ، نفور مهما جئناهم بالآيات وسوف ينتهي إلى هذه النتيجة التي قررها القرآن ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ [يس]

﴿وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ اَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا
لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَنْفِطِعْ مِنْ لَّدُنْكَ اللّٰهُ اَطَعْمُهُ اِنْ اَنْتُمْ اِلَآئِى
صَلٰى مُّبِيْنٍ ﴿٤٧﴾﴾

هذا لون آخر من عنادهم وقلوبهم للحقائق ، فإذا قال لهم الباصح
﴿اَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ﴾ ﴿٤٧﴾ [يس] يعنى مما استخافكم فيه لا مما
عندكم ، وملكه لكم يكون ابرد ﴿اَنْطَعْمُ مِنْ لَّدُنْكَ اللّٰهُ اَطَعْمُهُ﴾ ﴿٤٧﴾ [يس]
هكذا يقلب الكافر حقائق الامور ويتجحون بالباطل

﴿اَنْطَعْمُ مِنْ لَّدُنْكَ اللّٰهُ اَطَعْمُهُ﴾ ﴿٤٧﴾ [يس] يعنى لسنا بخلاء بل نحسب
أن نفق ، وان نتفد مرادات الله فى خلقه ، والله يريد أن يسنع الرزق
عن هؤلاء ، فكيف نرزقهم نحن ، إنما لو أنفقنا عليهم لكذ معاديين
مخالفين لمراد الله ، ولو شاء الله لأطعمهم .

ولم ينفقوا بعنادهم عند هذا الحد ، إنما يتعادون فيتهمون
المؤمنين بالصلال المبين ﴿اِنْ اَنْتُمْ﴾ ﴿٤٧﴾ [يس] معنى ما انتم ﴿اِلَآئِى
صَلٰى مُّبِيْنٍ﴾ ﴿٤٧﴾ [يس] سبحانه الله ، لماذا ؟ لأنكم تعارضون مراد الله
وتطعمون من حرمة الله وتحيرون عليه .

نعم ، الحق سبحانه رب الجميع ، ويرزق الجميع ، ويطعمها
وسقينا ، بكنه سبحانه يريد أن يشهد عطف عباده على عباده لتسير
حركتهم فى الحياة بلا غر ، وبلا حقد ، بالفقير حين يبال من حير
العنى لا يحقد عليه ولا يحسده ، بل يتمنى دوام النعمة عنده ، ثم إن
الغنى والمقر عرص ينتقل ويذول ، والواقع يشهد بذلك

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)
 مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

قولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ (٤٨) [يس] أى الوعد بالآخرة وكلمة (الوعد) تدل على البشارة بالخير ، على خلاف الوعيد وهو إنذار بالشر ، فعحيب منهم أن يذكروا الوعد وهو فى صالحهم ، وحظهم فى الوعد لا فى الوعيد .

وهذا الاستعظام منهم على سبيل الإنكار ، فليس هناك آخرة ولا حساب ولا جزاء ، والعاقل منهم الذى يعترف بالآخرة يقول كما قال صاحب الجنة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّ لَأَجِدَنَّ حِجْرًا مِّنْهَا مُتَقَلِّبًا﴾ (٤٦) [الكهف]

ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) [يس] فى قولكم بأن هناك معثاً وحساباً ، وواضح ما فى إنكارهم للقيامة من تحدُّ وعناد واستعجال له يقولون أين هى القيامة اتى تتكلم عنها ، انت بها الآن إن كنت صادقاً ، ويظل الواحد منهم فى هذا الجدل إلى أن تفاجئه القيامة .

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) [يس] يعنى ربما تفاجئه القيامة وهو فى جداله هذا ، وما المانع والأمر لا يكلفها إلا مجرد صيحة واحدة تأخذهم وتقضى عليهم جميعاً

وهذا إنذار لأهل الغفلة الذين عفلوا عن البعث والحشر والحساب ، وشغلتهم الدنيا فى تجارتهم وهى زراعتهم ومشاكل حياتهم ، حتى

أصاعوا الحياة في أخذ وردّ وجدال وحصام إلى أن فاجأتهم لقيامة
لذلك بقول اشاعر إناك ن تجادل في شيء كان في يدك فأحذه
منك غيرك

نفسى التى تملك الاشياء ذهبة فكيف آسى على شيء بها دها
ومعنى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس] معنى تفاحثهم وهم في
جدالهم وحصامهم ، ومعنى ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ [يس] أى يحتصمون ،
فقبت التاء صاراً ، وأدعت في الصاد للدلالة على المبالغة والأخذ
يدل على الشدة ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾ [القمر]

وقوله ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِيَّةً﴾ [يس] يعنى تفاحثهم الصيحة
والقيامة ، بحيث لا يمكن أحد أن يوصى أحداً ، والوصية معروفة
وهي أن يوصى الإنسان أهله وأولاده بما هو مهم في حياتهم ، لذلك
رأينا سيدنا رسول الله في حجة الوداع لما أحسن بذو الأجر أوصى
المسلمين في خطبته الجامعة للابن الذين وأسسهم كذلك من قبل على
أخيه واستشعر بهبته عليه أن يوصى من يحرص عليه بالأشياء
المهمة

بذن فهم في هذا الموقف لا يسعفهم الوقت لكي يوصى بعضهم
بعضاً ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس] حتى ولا هذه يستطيعونها
والقيامة إذن لا يسبغى أن يستبطئها أحد ، لأنها تأتي بعبء ، لذلك
أحلف الله ، وأسنأثر سبحانه وحده يعلمها بطل الإنسان على ذكر
لها ، يتغرها في كل وقت والقيامة بالنسبة للإنسان لا تعنى
بالضرورة الآخرة ، إنما محرو أن يموت بعد قامت القيامة في حقه
فالموت لم يعد له عمل ، ولا توبة ، ولا استبراك لشيء

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾
 ﴿٥١﴾ قَالُوا إِنَّا بَنَاءٌ مِّنْ عِصْيَانٍ مَّرْقَدِينَ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ
 وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَحَّاحَةٌ
 وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله سبحانه ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ (٥١) [سر] أى البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل وهذه هى نفخة البعث وتسبقها نفخة الصَّعْق التى تُميتهم وتحصدهم ، لذلك يقول سبحانه ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٦٨)

فإِنْ قُلْتُ النّفخة واحدة فكيف تميت الأولى وتحىي الثانية ؟
 بقول النفخة فى الصُّور ما هى إلا علامة فقط لحدث أمّا الفاعل على الحقيقة فهو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يميت فى الأولى ، ويحيى فى الثانية

ومعنى ﴿ الْأَجْدَاثِ ﴾ (٥١) [سر] القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ (٥١) [سر] يعنى يُسرعون وأصل كلمة ﴿ يَنْسِلُونَ ﴾ (٥١) [سر] من نسل الخيوط يعصها عن بعض ، نقور الثوب (يسل) يعنى تخرج بعض الخيوط من أماكنها من اللّحمة أو السُّدة ، لذت نقور (كفف) الحياطة يعنى امتنع هذا (المنسج) بأن تمسك الحبرط يعصها إلى بعض فلا تنفلت

فإذا ما خرجوا من الأجداث ورأوا الحقيقة التى طالما كذبوها

قالوا ﴿يَسْئَلُنَا مِنْ بَعَثَانِ مَرْقَدًا﴾ (٥٦) [يس] هم الذين يقولون ويدعون
على أنفسهم بالويل والثبور ، لا أحد يقول بهم ويلكم إنما يقولونها
هم لأنفسهم . وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم

والمعنى يا ويلنا حصر بهذا أوانك ، لأن الأمر فوق
ما نحتمل ، ولا نستطيع دفعه ، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه
يعود على نفسه بالويل ، بل قد يضربها ويعذبها

وعجيب منهم أن يقولوا الآن ﴿مَنْ بَعَثَانِ مَرْقَدًا﴾ (٥٦) [يس]
فيعترفون بأن الموت كان مجرد مرقد ، والمرقد لا بُدَّ بعده من
يقظة عندها يردُّ عليهم ﴿هَذَا﴾ أى ما تروونه من أمور القيامة
﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٦) [سر] ويجوز أن يكون اسم
الإشارة ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ﴿مَرْقَدًا﴾ فى ﴿مَنْ بَعَثَانِ مَرْقَدًا﴾
هَذَا (٥٦) [يس]

الحق - سبحانه وتعالى - أحسن أنه جامع الناس ليوم لا ريب
فيه ، وأن من أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة إلى بعثون
عنها ، فإن الله مُدَّخِرٌ لَهُ عَذَابًا مِنْ نَوْعٍ أَشَدَّ ، لأن الذين قاموا بالدعوة
إلى الله أول الأمر واصطهدوا وأوذوا ، منهم من مات فى الاصطهاد
قبل أن يرى انتصار الإسلام وعلية المسلمين ، وقيل أن يرى استقام
الله من أعدائه ، فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن يرى الله هؤلاء
المؤمنين عاصية الكافرين وما نزل بهم من العذاب

والوعد هنا رغم أنه إنذار بالشر الذى ينتظرهم ، إلا أنه فى حقهم
يُسَمَّى وَعْدًا لا وعيداً ، لماذا ؟ لأن التحذير من الشر قبل لوقوع فيه
نعمة كبرى ، كما فى قوله تعالى فى سورة الرحمن ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شَوَاطِلٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (٢٥) فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٣٦) [الرحمن]

فجعل النار والشواط من آلاء الله ، لأنه يُخَوِّفُهُمْ بها ، ويحذِّرُهُمْ منها ، ولم يفاجئهم بها وهم أصحاء ، ويسمعون ويبصرون ، ويقدرُونَ على الرجوع إلى الله والتوبة إليه ، بهم في وقت المهلة والتدارك ، وكما نُحذِّرُ ولدك من الرسوب إنْ هو أهمل دروسه وتتوعدّه ، إذنْ فالوعيد هنا عينُ النعمة ، لذلك سُمِّيَ وعداً لا وعيداً ومعنى ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٦)﴾ [يس] أى : قى البلاء عن الله ﴿إِنْ كَانَتْ (٥٧)﴾ [يس] أى : ما كانت النفخة ﴿الْأَصْحَةُ وَاحِدَةً (٥٨)﴾ [يس] لا تتكرر ، لأن الذي يُكرر الفعل البشّر ، ومعنى تكراره أن الفعل الأول لم يَكُنْ كافياً ولم يَفِ بِالْعَرْضِ منه ، أمّا هنا فالفاعل الله عز وجل .

﴿إِنْ كَانَتْ (٥٨)﴾ [يس] لا أصحّة واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا مُحَضَّرُونَ (٥٩)﴾ [يس] إذا هنا فجائية ، فبمجرد الصيحة أحضروا جميعاً رغماً عنهم ، ويدور اختبارهم ، ومُحَضَّرُ اسم مفعول من أحضر يعنى أجبر على الحضور والمثول بين يدي الله لحساب

وفى الآية السابقة ﴿وَإِذْ كُلُّ لُحْمٍ حَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٦٢)﴾ [يس] فزادت (كل) الدالة على شمول الأفراد ، إنما قد يكون شمول الأفراد بناءً مجموعة تلو الأخرى ، لكن هنا يأتون مجموعين ليبرى التابع متبوعه والضال من أضله الخ ، لذلك يسمونها الفاصحة

﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَبْخَرُونَ

﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾

كان الحق سبحانه يُطمئن أهل الإيمان والعمل الصالح ، يعنى

لا تحافوا من هول القيامة ، لأننا لا نظلم أحداً ، والجراء عديدا من جنس العص ﴿ وَلَا تُخْرَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٤) [يس] فهذه الآية طمأنينة لمن عمل صالحاً ، وتخويف لمن عمل سيئاً

واليوم هنا أى يوم القيامة ، والموارين فيه سد الحق سبحانه ، يعنى أن كنتم فى الدنيا يظلم القوى الضعيف ، ولا تفسدون اموارين بالفساد ، فاميزان يوم القيامة ميزان عادل ، لا يظلم لأى اذى سيقم هذا الميزان هو الحق سبحانه ﴿ لَمَسَ الْمُتَكَبِّرُونَ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٥٥) [عافر]

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن جزاء أصحاب الجنة ، فيقول

﴿ إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ (٥٦) ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴾ (٥٦) ﴿ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَهُمْ مَبْدُؤُونَ ﴾ (٥٧) ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (٥٨) ﴿

قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ (٥٥) [يس] الصاحب هو المصطفى والمحار من حبسك لصاحبه ولا تفارقه ، فكأن الجنة أخرجت مخارج العقلاء الذين يُصاحبون ويُصاحبون ذلك لأن الجنة كانت فى دلهم وفى أذهانهم بهم متعلقون بها وهى شغلهم الشاغل ، فلهم صحة بالجنة ، ولجنة صحبة بهم ، فكلما أقدموا على خير تذكرو الجنة فرعبوا فيه ، وكلما أقدموا على شر تذكرو البار فانصرفوا عنه أو أن الصاحب هو المالك للشيء ، فكأن الجنة ملك لهم سكرها وحازوا مفاتيحها بما قدموا من العمل الصالح

ومعنى ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ هُمْ فِي شُغُلٍ ﴾ (٥٥) [يس] أى

نعدم يشعلهم عن أى شىء آخر أو فى شغل عن معارفهم وأقاربهم
ابدين محلوا النار والعياد بالله ، كما قال سبحانه ﴿وَحُشُوا يَوْمًا لَا
يَجْرَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ حَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (٣٣) [نفسا] فهم فى
نعيم يشعلهم عن كل هؤلاء ، فكيفهم لا يعرفونهم .

﴿فَاكْهَرُوا﴾ يقال فأكفه فأكفه وفكه يعنى متلذذ ومُنْغَم . ومنها
الفاكهة ، هى ليست من الضروريات إنما من النعكة والتلذذ
وقوله سبحانه ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْنَابِ مُتَكِنُونَ
(٣٤)﴾ [يس] أذكر أنتى لما قرأت هذه الآية على الإخوان صرب واحد
منهم على صدره وكان شيخاً وقوراً ضرب على صدره بعنف
وابفعال ، وقال (يا حرسى ، يعنى فلاة هتجبلنى تانى) لأنه رأى
فى زوجته ما يُفْقره منها ، فتعجب أنها ستصاحبه حتى فى الآخرة
وفى الجنة فقلنا له يا شيخ بك تكره فى زوجتك أشياء لكن لها
مع الله أعمال طيبة ، نجعلها أملاً للجنة ، فعملها الطيب مع الله يلغى
عملها السيئ معك

وربما كنت أنت حاد المرح ، أو صماعاً وعيبك رائحة لأن الله
تعالى قال فى الحياة الزوجية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢١) [الروم]

فالحياة الزوجية فى بدايتها سكن ، حيث يسكن كل منهما إلى
الآخر ويرتاح فى حصه ، ثم إننا نغُيِّرُ الأوضاع وزَفَقْدُ أحدهما فى
الآخر أو ظهر منه ما نُفْقر كسبت المودة ، فبدأ ما أصابهما أكبر
والحمر فليرحم كل منهما عجز الآخر ، بما جعله الله بينهما من صفة
الرحمة ، فالحياة الزوجية فى هذه الحالة معيشة تراحم قبل كل
شىء

ثم إن هذه الزوجة التي تنقم منها بعض الصفات ، وتنفر من تصرفاتها بن تأتي لي لأخرة على هذه الصورة التي تكرهها ، إنما ستأتي على صورة جديدة كما قال سبحانه ﴿وَأَرْوَّاجُ مُطَهَّرَةً ۝٥٥﴾ [ال عمران] فإنه سيظهرها مما كنت تأخذ عليها

ومعنى ﴿فِي ظِلَالٍ ۝٥٦﴾ [يس] أي لا شمس هناك ، ولا حرٌّ يؤذيهم ، والظل معروف أله المكفرون في الدنيا ، وإليه يفتنون في حرِّ الشمس ، فهو أمر مألوف لهم ، أما في الآخرة فهي ظلال يُمتنعون فيها ، أو في ظل الله كما ورد في الحديث الشريف : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..^(١)

والأرائك جمع أريكة ، وهي السرير الذي له حَجَلَةٌ^(٢) (النعوسية) أو : هي الوسادة التي يُكأ عليها .

ومعنى ﴿مُتَكِنُونَ ۝٥٦﴾ [يس] الاتكاء حالة وهيئة للإنسان ، فهو إما قائم ، أو قاعد ، أو متكئ ، والاتكاء أمتنع هذه الحالات ، لأن القائم قائم لعمل ، والقاعد يقعد لهمُ بفكرٍ فيه ، فلا هو قادر على القيام للعمل ، ولا هو قادر على الاتكاء للراحة ، فقوله سبحانه ﴿مُتَكِنُونَ ۝٥٦﴾ [يس] يعنى : تمام الراحة لهم

ثم يقول سبحانه ﴿لَهُمْ فِيهَا ۝٥٧﴾ [يس] أي في الجنة ﴿فَاكِهِةٌ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، صغر حديث ، سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله الإمام العبادي ، وشاب شبا في عباده الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأحرقها حتى لا تعلم بمهية ما تنفق شاك . ورجل ذكر الله خائياً ففاضت عيناه .

(٢) الحجلة في اللغة مثل القبة رحيلة فعرس بيت يدعى بالشباب والأموة والسُتور ويكون له أُرْدَارٌ كبير [لسان العرب : مادة حجل]

(٥٧) ﴿[يس] الفاكهة من لفسفك والتلذذ ، وعرفنا أن الطعام يأكله الإنسان إما للاقتيات وهو الضروريات ، وإما فاكهة للتلذذ والتنعم ، وهنا يذكر الحق سبحانه الفاكهة فحسب ، لأننا لا نأكل في الجنة إلا تفكها وتنعم ، لا عن حاجة أو جوع

﴿ولهم ما يدعون﴾ (٥٧) ﴿[يس] أي ما يدعون به وما يخطر ببالهم ، محدوده بين أيديهم وقال بعضهم (مَا يَدْعُونَ) يعنى لا يدحر الله لهم دعوة ، لأنه سبحانه يعطيهم قبل أن يدعوا

وبعد ذلك يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن معنى كان يريده لحقفه في الدنيا نتيجة للسير على مهبه وصراطه المستقيم ، فعقول سبحانه ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) ﴿[يس] فثمرة الإسلام أن يُسَلِّمُوا زمامهم جميعاً إلى يد خالقهم وأن يكونوا إخواناً عابدين لمعبود واحد ، وأن يعيشوا معاً في أمن واطمئنان وسلام

إذن فالأمن والسلام هما الغاية من منهج الله ، وهما تمام النعمة ، وإلا فلو نعم الإنسان بكل ألوان النعيم وفقد نعمة الأمن والسلام تنقصت عليه كل النعم ، وما هنىء بعيش ولا تمتع بلدة ، لذلك امتن الله تعالى على قريش فقال ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٥٩) ﴿[قريش]

السلام يكون منك حين تقبل على آخر فتقول السلام عليكم يعنى أنا مقبل عليك بسلام ، فيرد عليك وعليكم السلام ، والمعنى

(١) أورد القرطبي في تفسير هذه الكلمة عدة أقوال (٥٦٨٢/٨)

- من دعا بشيء أعطيه فمعنى يدعون يتمنون قاله أبو عبيدة

- من ادعى منهم شيئاً فهو له

- يدعون يتمنون قاله يحيى بن سلام

- يسألون قاله أبو عباس

ثم قال القرطبي : والمعنى متقارب

لَا أَنْتَ تَوَدُّهَا ، وَلَا يَحِرُّ يَوْدِيكَ ، وَكُلُّ يَعْطَى مِنَ السَّلَامِ عَلَى قَسْدَرِ
إِمْكَانَتِهِ فَإِذَا كُنَ السَّلَامُ مِنَ اللَّهِ ، فَهُوَ السَّلَامُ الْمَطْلُوقُ ، السَّلَامُ الَّذِي
يَحْمِيكَ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِكَ ، فَلَا يَنْفُذُ إِلَيْكَ شَيْءٌ يَضُرُّكَ .

وَمَعْنَى ﴿سَلَامٌ قَوْلًا﴾ (٥٨) [يَس] يَعْنِي اللَّهُ تَعَالَى هُوَ قَائِلُهُ لَيْسَ
مُنَاوِلُهُ عَنْ طَرِيقِ الْمَلَائِكَةِ مَثَلًا فَيَقُولُ لَهُمْ سَلِّمُوا عَلَى هَذَا ، فَالْمَعْنَى
سَلَامٌ حَسَابُهُ كَوْنُهُ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ وَلَيْسَ بِلَاغًا عَنْ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
وَاحْتِرَافًا لِقَطْعِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي أَنَّ الْمَرْبِيَّ يَحِبُّ الْمَرْبِيَّ ، فَمَا بَالُكَ
إِذَا رَصِفْتَ الرُّبُوبِيَّةَ بِالرَّحْمَةِ ﴿مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٩) [يَس]

وَبَعْدَ أَنْ حَدَّثَنَا الْحَقَّ سَبْحَانَهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنَ
النَّعِيمِ يُحَدِّثُنَا عَنِ الْمَحْرَمِينَ

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَتْيَا الْمُحْرَمُونَ﴾ (٦٠)

مَعْنَى ﴿وَمَأَرَوْا﴾ (٦٠) [يَس] أَيْ تَمَيَّرُوا أَتْيَا الْمُحْرَمُونَ عَنْ
الْمُؤْمِنِينَ ، وَاحْجَرُوا بَعِيدًا عَنْهُمْ ، بِحَمْعِهِ فِي حَسَابِ وَاحِدٍ لَتَرَوْا
دُخُولَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةِ وَتَظَلُّوا أَنْتُمْ فِي الْمَوْقِفِ بَتَرْدَادِ حَسْرَتِكُمْ

وَقَدْ قَدِصَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ نَعَايَ أَنْ يُمَيِّزَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بِمَعْنَى
أَنْ يُعْرِفَ كُلُّ مَنْهُمْ ، وَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ الْحَدِيثِيَّةِ ، فَلَمَّا مَنَعَ الْمُسْلِمُونَ
مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ وَهُمْ عَلَى مَشَارِعِهَا حَزَنَ الْمُسْلِمُونَ حُزْنًا شَدِيدًا ،
حَتَّى كُنَّ الصَّحَابَةُ مِثْلَ عَمْرِ بْنِ لُحْطَابٍ الَّذِي قَالُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ
بَقِلَ لِلنَّعَةِ فِي بَيْتِنَا^(١) ؟

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٣٢٥/٤) مِنْ حَدِيثِ الْمُسَوِّدِ فِي مَخْرَمَةِ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي
حَدِيثِ الْحَدِيثِيَّةِ الطَّوِيلِ ، وَهِيَ أَنَّ عَمَرَ بْنَ لُحْطَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا جَرَى صَلَاحُ الْحَدِيثِيَّةِ
وَالْقَامَ الْأَمْرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْكُتَابُ رَضِيَ لَسَاتِي أَيْ بَكَرَ فَقَالَ يَا أَمَّا بَكْرُ أَوْ يَسُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟
أَوْ لَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟ أَوْ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ بَلَى قَالَ فَعَلَامَ يَعْطَى النَّعَةُ فِي
بَيْتِنَا ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا عَمْرُ الرَّحْمَةُ غَرَّرَهُ حَبْثُكَ كَانَ ، الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ

وكاد المسلمون يخالفون أمر رسول الله حتى قار لزوجته السيدة أم سلمة « هلك الناس يا أم سلمة ، امرتهم فدم يطيعوا ، فقالت يا رسول الله ، إنهم مكرومون ذلك لأنهم منعوا من دخول الحرم وهم على مقربة منه ، وهذا أمر صعب على نفوسهم ، ثم أشارت على رسول الله وقالت يا رسول الله امض إلى ما أمرك الله به فاصبر ، ولا تكلم أحداً فيهم لو رأوك عزمت الصاعوا ، وفعلأ أخذ رسول الله ﷺ بمشورة السيدة أم سلمة ، وانتهت المشكلة^(١)

وفسر أن يعودوا إلى المدينة بين الله لهم وجه الحكمة في ذلك والعلة من صلاح الحديبية . ولما دأب قبل رسول الله شروطها اعلت أن بين كفار مكة مؤمنين يكتُمون إيمانهم ، ولا يعرفهم أحد ، فلو دحر المسلمون مكة في هذا الوقت لحدثت مصادمات بين الجابين ، وعندها سيؤذي هؤلاء المؤمنون الذين يكتُمون إيمانهم ، ولا يستطيعون الجهر به ، وسيؤخذ العاقل مع الناصر

لذلك قال سبحانه في هذه القصة من سورة الفتح ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُمُ أَنْ يُبْتَاعَ بِهِمْ وَلَوْ بِرِجَالٍ مُّؤْمِنِينَ وَسَاءَ لِمُؤْمِنَاتٍ كُنَّ تَعْلَمُوهُنَّ أَنْ تَطْنُوهُنَّ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِيمٌ لِّدُخُلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَسَاءٍ لَوْ تَوَلَّوْا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥/٤) عن المسور بن مخرمه ومروان بن الحكم ، رغبة أن رسول الله ﷺ قال : يا أيها الناس ابحروا واحفظوا فما قدم أحد ، ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فخرج ﷺ فدخل على أم سلمة فقال يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كلن فابحروا وحق هو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى منيه فصره ثم جلس فقام الناس يبحرون ويحفظون حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق ، قرأت سورة الفتح

ومعنى ﴿لَوْ تَرَبُّلُوا﴾ [الفتح] (١٥) يعني لو تميز المؤمنون عن الكافرين
 أو يكون المعنى ﴿وَأَمَّا أَرَأَى الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس] امتازوا
 بعلامات تمييزكم وتلازمكم دائماً ، بحيث لا يكون حطكم أمامنا الآن
 فحسب ، إنما نكون لكم سمات تُعرفون بها ، وهذه العلامة هي علامة
 العصب وسواد اوجه والعياد بالله ومن ذلك قوله تعالى في
 المؤمنين ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ (٢٧٣) [البقرة]

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا
 الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) وَأَنْ أَعْبُدُونِي
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

كان سائلاً سال وهل يستحق الكفار كل هذا العذب وهذا
 العصب من الله تعالى ؟ فيجيب الحق سبحانه نعم . يستحقون ،
 لأن الله نبههم وحذرهم فلم يستجيبوا ، ذلك في قوله تعالى ﴿لَمْ
 أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَسَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يأخذكم على عرّة ، إنما نبهكم وبين لكم
 مدخل الشيطان وحبائله وحيله ، لأن الشيطان من خيسته رمى بكل
 مداخله مع المؤمنين أمام الله فحذرنا الله منها ، وبين لنا عداوته
 لنا وعداوته العسيفة مع آدم عليه السلام منذ أن أمر بالسجود قائم

ولم يَبْتِه أمره عند عدم السجود ، إنما أغوى آدم ، وأراد أن
 ينتقم منه ومن ذريته من بعده ، بل وأقسم على ذلك أمام خالقه
 سبحانه ، فقال بجبروت الإغواء كما حكى القرآن ﴿فَبِعَرَّتِكَ لَأُعَوِّبَهُمْ
 أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) [مر] لكنه تذكر عبوديته الحق للرب الأعلى يقال

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَصَّصِينَ﴾ (٨٦) [ص]

فهؤلاء لا مدخل لى إليهم ، واسمعى أن الحصومة ليست بينى
وميتك ، إنما بينى وبين بنى آدم . وحين أقسم إبليس ، أقسم قسماً
يؤكد قدرته على ما يهدد به ، فمثلاً سحرة فرعون حين تقسموا
قالوا ﴿بِعُرَةِ فرعون إِنَّا لَخَنَّ الثَّالِثُونَ﴾ (١٤) [الشعراء]

أما إبليس فيعرف جيداً كيف يقسم ، فقال ﴿فِعَزَّتْكَ﴾ (٨٧) [ص]
يعنى باستغنائك عن خلقك ، مَنْ شَاءَ فليؤم ، وَمَنْ شَاءَ فليكفر ،
هذا هو ابواب الذى سادخل منه إليهم ، أما من تريده أنت يارب ، فلا
أستطيع أن أفترب منه .

ومعنى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ (٩٠) [يسر] يعنى آمركم كما هى قوله
تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَاسِي وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (١٦٥) [طه]

يقول تعالى : أَلَمْ آمركم يا بنى آدم أن تحذرو مكاييد الشيطان ،
وأن تتنبهوا إلى مداخله إليكم وشبأكه وخططه ، ألم يقل هو نفسه .
﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَتِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (٩١) [الاعراف] . ذن كان ينبغى ما دُئتم
أخذتم لمصلّ الواقى أن تكون بديكم المناعه اللازمة لمواجهه هذا
العدو . حاصه وقد أسفر عن وجهه ، وأوضح خططه فهو لكم على
الصراط المستقيم . ومداخله من سبل الطاعة لا من سبل المعصية ،
الشيطان لا يأتى أهل الفحور ورؤاد الخمارات ، إنما يأتى أهل
لطاغات ليفسدها عليهم

وصدق الشاعر الذى قال عَمْرُو أسرف على نفسه فى المعاصى

وَكُنْتُ امْرَأً مِنْ جَنْدِ إِبْلِيسَ فَأَرْتَقِي

بِئِى الْحَالُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جَنْدِي

ومعنى ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (٦)﴾ [يس] عبادته طاعة بزعاته ووسوسته والعلة فى ذلك ﴿إِنَّكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَنَا﴾ [يس] يعنى عدو بين العداوة ، محيط بأساليب الكيد لأعدائه

وبعد أن نهانا ربنا تَبَرُّك وتعالى عن عبادة الشيطان يُوجِّهنا إلى العبادة الحقَّة ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦)﴾ [يس] حين تتأمل هاديين الآيتين تجد أن العلة فى النهى عن عبادة الشيطان ﴿إِنَّكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)﴾ [يس] كالقياس فى الآية بعده وإن اعبدونى لأنى حببيكم كما جاء فى الحديث القدسى « يا ابن آدم ، أما لك مُحِبٌّ ، فيحققى عليك كُنْ لى محباً »^(١)

لكن الحق سبحانه لم يُعَلِّل عبادته سبحانه بالمحبة ، إنما اعبدونى لأنى أدعوكم إلى الصراط المستقيم انفع لكم المنظم لحبايتكم اعبدونى لهذا ، أما مسألة المحبة فهى موجوده وأن أحبكم ، فسواء كنتُ أحبك أو لا أحبك كان يسعى عليك اتباع هذا الصراط المستقيم لأنك المستفيد منه

ولأهل المعرفة وقعة عندما قرأوا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾

١ هذا البيت ذكرته الموسوعة الشنبريه عن شعر شاعرين اولهما القمى لردى (توفى عام ٣١٧ هـ ٩٣٩ م) واسمه نصر بن احمد ، بصري انتقل إلى بغداد حين ورد كثيرة طريقه ومن البيت عنده قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها ٤٦

وكنيت متى من جند إبليس فارتقى
بى الأمر حتى صار إبليس من جندى
وفد أحد الأمير الصنعلى (توفى ١١٨٢ هـ - ١٧٦٨ م) عند البيت فقال
وكنيت امراً من جند إبليس فارضى
بى لدفن حتى صار إبليس من جندى
وفد من بحر الطويل عن قصيدة عدد أبياتها ٦٥ بيتاً

٢ أورده الإمام ابو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » ، ٤/ ٣٩٦ ، قاله . من مصر الكتب (مقصد الإلهية) عبدى أنا وحقك لك محب ، فيحققى عليك كن لى محباً .

[لِفَاتِحَةٍ] ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [١١] ﴿[يس]﴾ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾
فَاتَّبِعُوهُ (٥٣) ﴿[الأنعام]

قَابُوا الصراط المستقيم هو الطريق العدل الذى لا اعوجاج فيه ،
وبمثل أقرب لطرق وأنصر مسافة بين نقطتين ، وساعة تسمع كلمة
الطريق تعرف أن له بداية ونهاية من إلى ، وهذا إشارة لطيفة
ينبغي أن يتنبه لها المؤمن ، هي أن الدنيا بالنسبة لك ما هي إلا
طريق أنت تسير فيه ، له بداية وله نهاية ، هي - إذن - ليست دار
قرار وإقامة ، إنما دار عبور ومرور .

والإنسان حينما يقدم فى مكان ولا يجد به راحته يتركه إلى مكان
آخر ، ولو استقام له المكان الأول ما تركه ، لذلك يقول تعالى ﴿إِنَّ
الَّذِينَ تَوْفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَاعِفِينَ فِي
الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [٩٧] ﴿[الأنعام]

وهذه الهجرة أيضاً تحتاج لى طريق أهاجر فيه من إلى فكأن
احق سبحانه بقولك أنت فى الدنيا عابر سبيل إلى عاة أعظم
وأشرف ، فاسلك إليها أقرب الطرق الموصلة إليها ، وإذا كنت قد
عابنت بنفسك (من) فى الدنيا التى تعيشها ، فإن الله تعالى قد أخبرك
عن (إلى) التى تسير إليها

أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب المخلوقة لله ، والممدودة إليك
فى الارض لئى تعيش عليها ، والماء لئى تشربه ، والهواء الذى
تنفسه ، ولعقر الذى يفكر به الح لكر رلك الذى مد لك هذه
الأسباب ، يخاف عليك الغرور بالاسباب ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ
فَاسٍ﴾ [٥١] ﴿[العلق]

لذلك نحمل هذه الأسباب تتحلف فى بعض الأحيان ، كى تتعلق أنت
بامسبب سبحانه ، وتظر على ذكر له سبحانه ، فتدعوه وتلجأ إليه

ومن الناس من يحب الله دعاءهم ، ويحب أن يسمع أصواتهم ،
فيبتليهم ليدعوه فيسمعهم ، وآخرون يكره الله نداءهم ، فيامر الملائكة
أن تقصى حوائجهم ، حتى لا يسمع لهم صوتاً
ثم يحكى لنا الحق سبحانه تاريخ الشيطان مع بنى آدم ، هذا
التاريخ الذى كان علينا أن نتذكره دائماً

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا
أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

الجبل هم القوم الأشداء الأقوياء وحين ترى مادة (جبل)
واعلم أنها تدل على القوة والشدة والثبات والفحامة ، ومن ذلك سُميَ
الجبل لثباته ونقول فلان جبل على كذا يعنى صفة أصيلة فيه .
ثابتة فى شخصيته تبين هذه الأشياء جامع اشتقاقى واحد ، لذلك
نسبته الرجل العاقل بالجبل ، لأنه ثابت لا تهزه الأحداث
ومن ذلك قول الشاعر يرثى أحد الخلفاء وقد رأى الناس
يحملونه إلى قبره ^(١)

● رَضَوَى عَلَى أَيْدَى الرُّجَالِ يَسِيرُ ^(٢)

وَرَضَوَى جِبِلٌّ مَعْرُوفٌ ^(٣)

(١) من الشعراء هو المتنبى أحمد بن الحسين أبو الطيب (ولد بالكرمة ٣٢ هـ وتوفي ٢٥٤ هـ)
جد مفكر الأدب العربى ابنى النبوة ، ثم رجع عن دعواه قتله قاطع طريق اسمه
فانك بن ابي جهل الاسدى

(٢) وتنام البيت كما ذكر فى الموسوعة الشعرية

ما كنت آمل قبل ذلك أن أرى رَضَوَى عَلَى أَيْدَى الرُّجَالِ تَسِيرُ
ومر من نصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل

(٣) رَضَوَى جبل مبيع بين مكة والمدينة ويسمى جبل جهينة بالقرب من يثرب



ومعنى ﴿وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [س] يعنى لستم أول من أضله إبليس ، فقد أضل قبلكم قوماً كثيرين كانوا أقوى منكم ، ولعب بهم حتى جعل منهم أداة للضلال ، فلم يقف عند حد ضلالهم هم ، إنما ضلُّوا وأضلُّوا ، حتى صاروا جُنْدًا من جُنْدِهِ كما قلنا

ويكى فى عظمة الحصارات القديمة أن الحضارة الحديثة حصاره القرن العشرين قرن الاختراعات والاكتشافات والتقدم العلمى الهائل - تنف مبهورة أمام حضارة قديمة مثل حصاره الفراعنة مثلاً ، بل وتقف عاجزة عن فهمها ، والوصول إلى أسرارها ، وكان على رأس هذه الحضارة فرعون .

فماذا فعل به الشيطان ، أغواه وأضلَّه ، حتى قال لقومه ﴿ رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ [السرعات] وحكى عنه القرآن فقال ﴿ فَاسْتَحَفُّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف]

ففرعون وأمثاله من الأقوياء ما استطاعوا أن يواجهوا الشيطان ، وما استطاعوا النجاة من مكائده ، لأنه دخل إليهم من مدخل شهوات النفس ، ثم صعب عليهم الطاعات ، فمالوا إلى المعاصى وانصرفوا عن الطاعات .

ثم يؤنب الحق سبحانه هؤلاء العاصيين ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [س] يعنى أين كانت عقولكم حين استقم وراءه ، بعد أن حذرناكم منه وبيَّنا لكم مداخله ، وحين يردك حالك إلى العقل ، ويأمرك بإعماله فاعلم أن نتيجة إعمال العقل موافقة لمراده سبحانه منك ، فإن أعملت عقلك فى كَوْنِ الله وأمانه ، لاند أن تصل إلى نتيجة مرادة الله تعالى ، كذلك أنت لا تأمر محاطبك بأن يعمل عقله فى شيء ، إلا إذا

كنت واثقاً أن نتيجة هذا العمل في صالحك ووفق هوال ، ولو كنت تعرف أن النتيجة على خلاف ما تريد ما أعطيتك الفرصة لإعمال عقله
ومثلنا لذلك بالدع الذي يبيع سلعة جيدة فإنه يدعوك إلى فحصها وتأملها والتأكد من جودتها ، فبائع الأصواف مثلاً يعرض عليك الثوب ، ويبين لك جودته ، ويشعل اثقاب ، ويحرق لك حيطاً من خيوط السبيج ، إنه لا يعرض ذلك إلا وهو واثق من جوده بصاعته وأنت لا بد مقتنع بها ، حريص على شرائها ، أما العاشر فيحاول إقناعك بكلام بطري معطمه كذب وتدليس ويحاول أن يصرف ذهنك وفكرك في الشيء ، لأن النتيجة لن تكون في صالحه .

كذلك الحق - سبحانه وتعالى يقول قلتم تكونوا تعقلون ﴿٥٦﴾

[س]

يعنى لو عقلتم لتوصلتم إلى الحق وإلى لصراط المستقيم

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا
أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

هنا أيضاً اعتبر التحويف من جهنم وعداً لا وعيداً ، وسبق أن عرفنا أن الوعد في الحير والوعيد في الشر ، ومن ذلك قول الشاعر
يَا نَهْرُ يَا مُنْجَزُ إِعْدَادِهِ وَمُخْلِفُ الْمَأْمُولِ مِنْ وَعْدِهِ (١)

(١) هو أبو العلاء المعري شاعر وبليغ معروف ولد برصفي ١٤٩ هـ في معرة نبحار
عمى في السنة الرابعة من عمره ، قال السمعاني وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب
ولم يأكل اللحم ٤٥ سنة

(٢) البيت من قصيدة لأبي العلاء المعري من بحر السريخ عدد أبياتها ٤١ بيتاً

وَقُلْ سَمَّىٰ دَلَّ وَعَدًا ، لَأَن التَّحْدِيدَ مِنَ الشَّرِّ قَلِيلٌ لَوْفَوْعٌ فِيهِ
يُعَدُّ خَيْرًا ، لَأَنَّكَ تَسْتَطِيعُ تَدَارُكُ الْأَمْرِ ، وَتَصْحِيحُ الْخَطَا .

وَقَوْلُهُ سَبِّحَانَهُ ﴿اصْلَوْهَا (٦)﴾ [يس] ادخلوها ، وَاَصْطَلُّوا سَارَهَا
وَاحْتَرَقُوا مَلْظَمَاتَهَا ، ﴿الْيَوْمَ (٦٩)﴾ [يس] أَي يَوْمَ انْجِرَاءِ الْيَوْمِ الْقَائِمِ
الَّذِي نَحْنُ فِيهِ ، أَمَّا مَا قَبْلَهُ فَقَدْ مَضَى وَمَضَتْ مَعَهُ اللَّذَاتُ الَّتِي حَاءَتْ
بِكُمْ إِلَى الدَّرِّ ، دَهَبَ الْبَنَاتُ وَبَقِيَ تَبِعَتُهَا ، وَلَمْ يَعُْدْ أَمَامَكُمْ إِلَّا النَّارُ
تَحْتَرِقُونَ فِيهَا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾ [يس] يَعْنِي هَذِهِ النَّارُ لَيْسَتْ
ظُلْمًا إِنَّمَا حِزَاءُ كُفْرِكُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وَهَذَا تَفَرُّعٌ بِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا
لِلْحَقِّ سَبِّحَانَهُ بِنِعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ عَرَفُوا اللَّهَ هَذِهِ النِّعْمَةُ مَا كَفَرُوا بِهَا

لَدُنْكَ حِينَ تُحْسِنُ إِلَى إِبْسَارٍ ، فَيَقْبِلُ إِحْسَانَكَ نَالِإِسَاءَةٍ يَخْضُ أَنْ
يَقَابِلَكَ ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَمَّرَ مِنْكَ أَيُّ عِقَابٍ ، إِلَّا أَنْ يَوَاحِشَهُ أَمْتُ ،
لَمَادَا ؟ لَأَنَّ حَيَاءَ الْمَسْئَةِ مِنَ الْمَحْسَنِ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ ، فَكَانَ اللَّهُ
يُعَايِي يَقُولُ لَهُؤُلَاءِ الْكُفْرَةُ بِنِعْمَةِ اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ
فَكَفَرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ ، وَلَوْ أَنَّ عِنْدَكُمْ إِحْسَانًا لَكَانَ تَذْكِيرُكُمْ بِكُفْرِكُمْ أَشَدُّ
عَلَيْكُمْ مِنْ هَذِهِ النَّارِ الَّتِي تَصْلَوْنَهَا

ثُمَّ يَقُولُ سَبِّحَانَهُ وَاصِفًا صَالِحَهُمْ وَابْعِيدَ بِلَا اللَّهِ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى
أَفْوَاهِهِمْ وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠)﴾ [يس]

قَوْلُهُ ﴿الْيَوْمَ (٥٠)﴾ [يس] أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْجِرَاءِ ﴿نَخْتِمُ عَلَى
أَفْوَاهِهِمْ (٥٠)﴾ [يس]

نَصَرَبَ عَلَيْهَا فَلَا يَسْتَصِغِرُونَ الْكَلَامَ ، فَالْأَفْوَاهُ مَبْطُ الْكَلَامِ وَقَبْلُ
أَنْ يَخْتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فِي الْآخِرَةِ خَتَمٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا ،
بِالْأَمْسِ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يَدْخُلُهَا إِيْمَانٌ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا كُفْرٌ ،
وَالْيَوْمَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَلْفَوَاهِ وَمَعَهُمُ الْكَلَامُ ، حَتَّى لَا يَعْتَذِرُوا
وَلَا يَسْتَغْفِرُونَ

فالمقام هنا مقام حساب لا عمل ، فلا جدوى من الاستغفار ، ولا فائدة من الاعتذار ، بل انتهى أوان الكلام والمنطق ، ولم يعد للسان دور ، اليوم تُفْلَقُ الأفواه وتُقَيَّدُ الألسنة تنطق الجوارح .

وتأمل بعدها ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس] القياس كان يقتضى أن يقول الحق سبحانه ﴿ الْيَوْمَ نَحْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [يس]

ومثلها ونُطَقُ أَيْدِيهِمْ وَتُشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ، لكن السياق القرآنى هنا مختلف ، فبعد أن يَحْتَمُ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ تطوعاً لا أمراً ، وتشهد أَرْجُلُهُمْ تطوعاً لا أمراً ، فلم نقل للأيدى تكلمى ، ولم نقل للأرجل : اشهدى

وإنما تطوعت هذه الجوارح دلشهادة ، مع أنها هى نفس الجوارح التى بُوْشِرَتْ بِهَا المعاصى والذنوب فى الدنيا ، ومع ذلك تشهد لا على نفسها ، إنما على النفس الواعية التى أخضع الله لها الجوارح ، وأمرها أن تسير وفق مرادها ، ودهن إشارتها فى الدنيا

أما ونحن الآن فى الآخرة ، وقد تحررت الجوارح من تسعيتها للنفس الواعية ، وأصبح الملك كله والتفويض كله لله تعالى ، فالآن تتكلم الجوارح بما تريد ، ونشهد بما كان أمام الرب الأعلى سبحانه

وسبق أن مكَّنتنا هذه المسألة بالكيفية من الجيش يرسلها القائد الأعلى وعلى الكيفية أن تطيع أوامر قائدها المباشر ، ولو كانت الأوامر خاطئة ، إلى أن تعود إلى الأعلى ، فتشكر له ما كان من القائد المباشر ، هكذا الجوارح يوم القيامة .

فإن قلت فلماذا أسند التكلم للأيدى ، والشهادة للأرجل ؟ بقول

لأن جمهرة الأعمال عادة تُسند إلى الأيدي ، حتى لو كان لمشى
وسيلة لعمل ، وطالما أن الأيدي تتكلم ، فكانها أصبحت مدعية تحتاج
إلى شاهد فتشهد الأرجل

أما مسألة كيف تنطق الأيدي ، فالدى انطق اللسان وهو قطعة
من لحم ودم قادر على أن يُنطق ببقى الأعضاء الأيدي أو غيرها .
وما دام الفعل لله تعالى فلا داعى للسؤال عن الكيفية ، ثم إن الأيدي
بها من الأعصاب أكثر مما بأعضاء الكلام

وقوله تعالى ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس] ولم يقل بما كانوا
يعملون ، لأن ههنا فرقاً بين إنسان يُقبل على المعصية لكنه لا يفرح
بها ، بل يندم عليها ويعاقب نفسه على ارتكابها ، وآخر يعبر ارتكاب
المعصية مكسباً فيفرح بها ، ويتحدث عنها ويتباهى بارتكابها

ومن حيث التحقيق اللغوى لمادة (كسب) فإن هذا الفعل يأتي
مجرداً (كسب) ، ويدل على الربح فى البيع والشراء ، وعلى العمل
يأتى من الإنسان طبيعياً ، لا تكلف فيه ولا افتعال ، وغالباً
ما يُستخدم فى الخير .

ويأتى هذا الفعل مزيداً بالهمزة والناء (اكتسب) ، ويدل على
الافتعال والتكلف ، ويُستخدم هذه الصيغة فى الإثم ، وأوصفاً هذه
المسألة فقلت إن الإنسان حين يفعل الخير يأتى الفعل منه طبيعياً
تلقائياً ، أما الشر فيتلصص له ويحتمل ، ذلك لأن الخير هين ليس
سهل مقبول ، أما الإثم فشاق محجل .

أنت حين تحلس مثلاً بين أهلك ترى روجتك أو بناتك أو عممتك
أو خالتك الخ وفيهن الجميلات والحسان ، وأنت تنظر إليهن جميعاً

دون تكلف ودون حجل ، لأنه أمر طبيعي ، أما مع غير المحارم ومع من يحرم عليك النمر إليهن ، فإنك سرق النظرة وتحال لها حتى لا ينكشف أمرك ، ولا يطلع أحد على نقبصتك .

فإذا جاءت كسب محض اكتسب ، فاعلم أن صاحب المعصية ومرتكب الإثم قد تعود عليه ولفه . حتى أنه يفعل كأمور طبيعية فلا يفتيه ولا يستحي منه ، بل يجاهر به فعذ الإكتساب في حقه كسباً ، كما في هذه الآية

﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥٥)

[يس]

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا

الْبَصَرَ أَفَآذِنُ يُبْصِرُونَ ﴾ (٦٦)

يعنى كما ختمنا على أفواههم ومنعناهم الكلام لو شئنا لطمسنا أعينهم يعنى أغلقناها وسوأسناها ، بحيث لا يظهر لها أثر في وجوههم ، وإذا طمسنا على أعينهم فقدوا البصر ، فكيف يبصرون وهم يسابقون إلى الصراط ؟

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا

أَسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٧)

١ الممسوس والطمس عند أهل اللغة ، لا معنى الذى يمس فى عنيه شئ . وفى هذه الآية تأويل أحدهما : أن هذا من الدنيا قال ابن عباس المعنى لأعينهم من الهدى ، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق ثانياً أى أعينهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . قال القرطبي وقد احتجنا الطريق ثالثها : أن هذا فى الآخرة . وقد روى هذا عن عبد الله بن سلام . وعنى هذا يكون الصراط فى الآية يكون هو صراط يوم القيامة . راجع تفسير القرطبي (٥٦٨٧/٨)

الحق سبحانه قد أعذر بأنه أنذر ، وأعذر لأنه قال لهم لا تعدوا
الشیطان وبنین عداوته ، وقال اعبدونی واسلکوا صراطی المستقیم
إدس ليس لهم عذر حين كفروا بالله وأطاعوا الشیطان وعبدوه .
لكنهم قد يعتذرون من ناحية أخرى فيقولون یارب أنت أضیتنا ولو
عشنا لاهتدینا وعشنا إلى الصراط المستقیم ، فیرد الله علیهم ﴿أولم
نعمرکم ما یتدکر فیہ من تدکر ..﴾ (٤٧) [المطهر]

یعنی قد عمرناکم عمراً طویلاً یكفی للتذکر والعودة فلم
تعودوا ، ثم إن التعمیر یورث الضعف والوهن وعدم القدرة ، فأتت
فی أول الحیة عندک فنوة وقوه وبشاط بدنی ودهنی ، لكن مع التکر
تضعف البنية ، وتقل أنقرة العضلية والعقلية ، ويعود الإنسان إلى
الضعف الذي بدأ به وهو طفل صغیر ، وكما قال تعالى ﴿لکی لا
یعلم بعد علم شیئاً ..﴾ (٧) [النحل]

فإذا كنتم لم تعودوا وم ترعوا فی فترة القوة وسلامة العقل
والتفکیر أتعودون فی فترة الهرم والضعف ولنسیان ؟

لذلك یقول هنا الحق سبحانه ﴿ومن نُعمرة﴾ (٦٨) ﴿یسر﴾ بطیل عمره
وتمد له فیه ﴿سکمه فی الحق﴾ (٦٨) ﴿یسر﴾ الابتکاس العودة إلى
الوراء ، والرجوع إلى ما كنت علیه أولاً ، فطول العمر یعود بالإنسان
إلى مرحلة لطفولة الأولى ، فهو نکسة فی حقه حیر یصیر شیخاً هرمًا
لا یستطیع الحراک ولا الکلام ، وتاحد ذاكرته فی الضعف فینسى
ویخرف ، فهو كالطفل تماماً یحتاج من یحمله ویطعمه ویزیل عنه
الأتی الخ ، فهل فی هذه الحال عودة ؟ وهل ینفع معها تفکر وتدبر ؟
﴿أفلا یعقلون﴾ (٦٨) ﴿یسر﴾ یعنی أين عقولکم فی هذه المسألة .
والحق سبحانه یسرقها بأسلوب الاستفهام ، ولا یأتی بها على سبیل

فلو كان معه سبحانه إله آخر أو آلهة أخرى ماين هم ؟ لماذا لم يطالبوا بحقهم في هذه المسألة ؟ أو أنهم سكنوا عنها أو لم يذكروا بها ؟ وعلى أي حال من هذه الأحوال لا يصلحون لأن يكونوا آلهة ، لذلك يناقش القرآن هذه المسألة بكلام منطقي

﴿قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَشْعُرُونَ إِلَى دِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء]

إنّ فالتوحيد هو الأساس الأصيل للدين ، نكر لا عرف بالعقر مطلوب لإله مهي ، لا بُدَّ أن يُبعث لى رسول يحاطبى بمصوب ربي مهي ، إدر لا بُدَّ من رسول وهذا هو المقصد لثاني للدين وخطاب الحق للخلق طاقة كمال مطلق والبشر نفس مطلق لابد لا بُدَّ في هذا الخطاب من واسطة تستطيع لتلقّى عن هذا الكمار المطلق ، ويستطيع التبلغ إلى الأقل كمالاً ، وهكذا تتدرج المسألة ، فإله تعالى يخاطب الملائكة ، والملائكة تحاطب الرسل ، والرسل يحاطبون الناس

ملا بُدَّ من (الرسالة) وهي المقصد لثاني للدين ، والرسول هو الواسطة بين الخالق والخلق والرسول ليس مُلْعاً فحسب إنما مُبْلَغٌ وأُسْوَةٌ سلوك وتطبيق ، كما قال سبحانه ﴿لَقَدْ كَان لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب] ولو كان الرسول ملكاً لما تحققت به الاسوة ، ولا يمكن أن أحمل على مطلوب الرسول إلا إذا كان الرسول من حسنى

لذلك يقول تعالى موضحاً هذه العصاة ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمَرُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا ابْعَثْ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء] فيأتي الرد (قُلْ) أى رداً عليهم ﴿لَوْ كَان لى الْأَرْضِ مِائَتَةٌ مِائَتَةٌ مِثْلُكُمْ لَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء]

إذن كيف نُمرل ملكاً لشراً ؟ بو مزل الملكُ عى طبعه البورانية
ما رآه البشر ، ولابدُّ أن يأتِيهم فى صورة بشرية ولضلَّت الشبهة
قدِّمة ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسا عليهم ما يلبسون ﴾ (٥) [الانعام]
فلا بد - إذن - من وسائط هى أشبه ما تكون بـ (الترانس) فى
عالم الكهرباء ، وهو أداة تأخذ من القوى وتعطى للضعيف دون أن
تُحرقه .

العنصر الثالث للدين هو الحشر . لأن الرسالة جاءت لتُحمل
المنهج افعل كذا ولا تفعل كذا . هذا المنهج من لدن من سوسير
عليه قيفعل ما أمر به وينتهى عما نُهى عنه ، ومنهم من سينصرف
عنه بل ويخالفه ، إذن لابدُّ من مردُّ يُثاب فيه المطيع ، ويُعاقب فيه
المخالف ، هذا المردُّ هو الحشر .

فالحق سبحانه تكلم عن التوحيد فى قوله ﴿ أَلَمْ نُعْهِدْ إِلَيْكُمْ إِذْ بَنَى
آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٦) وأن اعبدوا هذا صراطٌ مُستقيم
(٦١) ﴿ [يس] وتكلم عن الحشر فى قوله سبحانه ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ ﴾ (٦٢) اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٣) ﴿ [يس]

والآن يتكلم عن العنصر الثابى وهو الرسالة فنقول عن رسوله
ﷺ ﴿ رَمَّا عَلِمْنَاهُ لَشَعْرًا مَّا يَبْغَى لَهُ ﴾ (٦٤) ﴿ [يس] أى نحن لا المجتمع
ولا البيئه التى يعيش فيها ، لذلك كانت الامية فى رسول الله شرفاً ،
لأنه لو لم يكن أمياً لكانت ثقافته من الخلق

أمّا أميته فتعنى أنه أخذ ثقافته وعلمه من الله . لذلك كان من
شرفه ﷺ أن يكون أمياً ، ومن شرف أمته أن تكون أمية ، لأنها
لو كانت أمة متعلمة لقلل إن ما حدث فى الجزيرة العربية ما هو إلا
قفرة حصارية ، كما قالوا لَمَّا بَصُرْنَا اللَّهَ فِي حَرْبِ رَمَضَانَ وَرَأَيْنَا

بأعينا تأييد الله لذ ، ومع ذلك قالوا نَصْرُ حضاري
فالحق سبحانه يقرر هذه الحقيقة ﴿وما علمناه الشعر﴾ [يس]
لَكُنَّا علماء غير الشعر ، فرسول الله مُعَلِّم نعم ، لكن مُعَلِّم مَنْ مَنْ ؟
من ربه ، لم يأخذ شيئاً من البشر ،

وقد يُطَنُّ أن الله لم يُعَلِّمه الشعر ، لأن الشعر يحتاج إلى ثقافة
لغوية وعلم بالأوزان والقوامي ، ولا يَدُّ له من الحسن المرهف والأذن
الموسيقية إلى آخر هذه الأدوات التي يحتاجها الشاعر وربما لم تتوفر
هذه الأدوات برسول الله كما أنها لم تتوفر لكثيرين غيره

فيرد الله تعالى هذا الضن ، ويقول ﴿وما ينبئني له﴾ [يس]
يعنى لم نُعَلِّمه الشعر لنقص في إمكانياته ، فلو أراد أن يقول شعراً
نَقَلَ الشعر على أحسن ما يُقال ، لكن لا ينبئني له ذلك ، لأن مهمة
الرسول خلاف مهمة الشاعر ، فأغلب الشعر في الكذب وفي الشر ،
فإذا دخل في الخير ضَعُف ولان ، ذلك لأن طبيعة الشعر أن يطلق
ويُحَلِّق في الخيال ، وإن يقول لشاعر ما يحلو له يأ كانت غايته ،
لذلك قالوا : أعذب الشعر أكذبه

وكثيراً ما نرى الشعراء أصحاب القيم والأخلاق يصعب عليهم
لجمع بين مطلوب الإيمان منهم ، وما تدعوهم إليه ملكة الشعر
عندهم ، فلا يمكن إلا أن يحصرُوا أنفسهم في شعر القيم والأخلاق
والفصائل ، ويبتعدوا عن شعر الهجاء والغزل

والشاعر المهجري الذي عُرف عنه التقوى والصلاح ، فحاول أن
يجمع بين هذه التقوى والموهبة الشعرية لديه ، فقال

مَوْلَايَ إِنِّي قَدْ عَصَيْتُكَ عَامِداً لأراك أحمل ما تكون غفورا
وَلَقَدْ خَشِيتُ مِنَ الدُّبُوبِ كَسَارَهَا ضَعُفًا بَعْقُونَ أَنْ يَكُونَ صَغِيرَا

فأجاد في الأولى ، ولم يوفو في الثانية .

وسيدنا حسـ بن ثابت ، كان شاعراً محيداً في الحافلة ، فلما
أسمع عدوا له لأن شعرك يا أبا الحسام فقال الشعر نكد يقوى
في الشر عبادا دخل في احير صعف ولان

فقرله تعالى ﴿ وما يعي له ﴾ (٦٥) [سر] دفع عن رسول الله الاتهام
بأن طبيعته بسست شاعرية ، أو أنه غير مرهف لحسن ، وأن أذنه غير
موسمفة ، إلى حر هذا الهاء ، وكف سثهم بها من علمه الله ،
ويأشورت أذنه لوحى ٢

أما القول بأن رسول الله ﷺ قد أنشد الشعر ، نعم أشهد رسول
الله الشعر لكن لم ينشده مستقيماً ، بل حالف فيه حتى لا يطل
النيب على استقامة وزنه ، فلما أب ر

سئدي لك الأيام ما كنت جاهلاً وبأتيت بالأخبار من لم ترود
قال

سئدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيت من لم ترود بالأخبار
وورد أنه ﷺ قال (١) « أصدق كلمة قلها لبيد

(١) ذكر ابن فنيمة الدمشقي في « الشعر والشعراء » عدد القوية من قول الأصمعي ثم ذكر
حسان بن ثابت فقال هذا حسان بن ثابت فحل من محول الجافية ، فلف جاء الإسلام
سقط شعره

(٢) عن عائشة قبل بها هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت كان يتمثل بشعر
بر رواحة ويتمثل ويقول « ويأتيت بالأخبار من لم ترود » أخرجه الترمذي في سننه
(٢٨٤٨) ، وأحمد في مسنده (١٥٦/٦)

(٣) كان رسول الله يتمثل بهذا البيت ولا يقدم وزنه ، وهو بيت بخرصة بن العبد ، وقال
أبو عبيد بن سلام في كتاب « الأمثال » روى في حديث مرموع أنه ﷺ تمثل به فقال
« ويأتيت من لم ترود بالأخبار »

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٦١٤٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٥٦) كتاب الشعر
(روايت ٢ ٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا حَلَّا اللَّهُ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ رَائِلٌ لَا مَحَالَةَ
والصواب

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا حَلَّا اللَّهُ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ
إذن كان سيدنا رسول الله بكسر وري النبت ، حتى لا يقل إنه
أنشد الشعر ، مع أن الله تعالى قال ﴿وَمَا عَلَّمَاهُ الشُّعْرَ﴾ (٦٩) [يسر] لكن
لم يَنْهَ رسول الله عن إنشاده فكان رسول الله يحتاط للأمر ، فيقول
ولا أنشده أيضاً ، ليكون بعيداً عنه كلية

هذا عن الإنشاد ، أما عن قوله الشعر بنفسه ، فيرى البعض أنه
ﷺ قال شعراً مثل قوله في غزوة حنين^(١)

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

نعم جاء هذا القول من رسول الله موافقاً لوزن شعرى يسمونه
الرجز ، فهو قول صادق ورنأ شعرياً وقرق بين نظم الكلام وإحضاره
للورر والقامية ، وبين كلام يصادف ورنأ دون قصد ، وإلا ففي القرن
نفسه آيات صادف وزناً شعرياً ، فهل نقول إنها شعر ؟ وقرأ مثلاً

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۖ﴾ (٩٢) [آل عمران]

﴿فَدَلَّكَ الْوَدَىٰ لَمَتَّىٰ فِيهِ﴾ (٩٣) [يوسف]

﴿نَبِيُّ عَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٤) [الحجر]

هذه وغيرها آيات صادفت وزناً شعرياً ، لكنها لا تُسَمَّى شعراً
لأن الشعر قول موزون مُقَفَّى قصداً

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبصيرى في صحيحه (١٢١٧) من
حيث البراء بن عازب ، وذلك أن رجلاً سأله أن يروى عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال البراء
ولكن رسول الله لم يهر ، وكان هواري يومئذ رحاة ، وأنا لم أجمعنا عليهم لتكشعوا ، فأكذب
على الغمام فاستقبلوا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله على بطة البيضاء ، وبن أب سفيان
بن السارث أحد بنجامها وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

الحق سبحانه حكى عن رسوله أن الكفار اتهموه فقالوا ساحر وشاعر وقالوا كاهن ، لكن القرآن رد عليهم في مسألة الشعر ، ونفى أن يقول الرسول شعراً ﴿رَمَا عَلَّمَاهُ الشَّعْرَ﴾ [يس] ولم ينف عنه السحر ولا الكهانة ، لماذا ؟

قالوا لأن مهمة رسول الله نلاع القرآن عن الله ، والقرآن من حسن الأساليب الرقبة ، وأقرب شيء إليه اشعر لذلك نفاه القرآن ، أما السحر فطلاسم وكلام لا معنى له ، فلم يقل وما علماه السحر

ولو أن هذه الكلمة مدلولاً نكار الرد عليها سهلاً ، فإننا كان محمد ساحراً سحر المؤمنين به ، فلما نأى به يسحركم أنتم أيضاً ، إذن تكديبكم له وكفركم به أدل شيء على أنه ليس ساحراً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر .

وفى قولهم كاهن رد عليهم ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ [سجدة] لأن قول الكاهن كلام مسجوع سجعاً بارزاً ، والقرآن خلاف هذا كله ، ثم إنكم أهل فصاحة وبيان ، وأنتم أعلم الناس بالأساليب والتمييز بينها فهل يحى عليكم أن تفرقوا بين القرآن وغيره من الكلام وأنتم أمة كلام ، ويجعون للكلمة أسواقاً ومعارض ؟

ثم يُبَيِّن الحق سبحانه العلة في عدم قول الرسول للشعر ، فيقول سبحانه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس] إن هنا بمعنى ما النافية يعنى ما هذا القرآن إلا تذكير لمن يعقر وقرآن مبين أى بين واضح يُتْلَى وقد يكون له نغم الذ فى أدن الورع من الشعر لندب بعض الناس يسمع القرآن فتأخذه نشوة وإعجاب ، ولو سألته محده لا يعرف ما يحدث له ، لماذا ؟

قالوا . لأن الذى يتكلم الله ، والذى يسمع خلق الله ، والله تعالى

يتكلم بالكلام الذي يؤثر ويستميل المخلوق لله الذي ما يزال على فطرته
التي فطر الله عليها ، فإن خرج عن هذه العطرة لم يؤثر فيه القرآن
هذا التأثير ، ذلك لأن القرآن واحد أما العصرة المستفحلة فتختلف

والحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة في قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْنَا حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا بُدِّي أَوْ يَأْتُوا أَعْلَمَ مَاذَا قَالُوا﴾ [مائدة: ٥٠] ﴿مِمَّا قَامَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿قُلْ هُوَ (٤٤)﴾ [مائدة: ٥٠] أي اقرأ القرآن ﴿بُدِّي أَمْوَالِي هَذِي وَشِعْءٍ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آيَاتِهِمْ وَقُرْآنِهِمْ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (٤٤) [فصلت]

ذلك لأن ما من الشيء غير قبله . وسبق أن مرَّك ذلك بكون
النشأ الساهر يفتح فيه لسرد ، وفي الشتاء يفتح في يديك لتدفئتها ،
فاليفحة واحدة لكن المستعمل لها مختلف ، كذلك حال الناس في
تلقي القرآن ، فمن تلقى كلام الله بقطرة سليمة فهم ويتأثر به ، ومن
تلقى كلام الله وهو مشغول عنه أغلق عليه ، فلم يفهم عن الله
ولم يتأثر بكلامه

لذلك يرى بعض الناس من غير العرب لا يطقو بكلمة عربية .
لكنه ساعة يسمع أو يقرأ كلام الله تحذ له بفعل مواجيد ، وتدمع
عياه ، لماذا ؟ لابد أن شيئاً في تكوينه تأثر بهذا الأسلوب

وإذا كان الحق سبحانه أوحى إلى الجمد فننفع لكلامه ، وأوحى إلى الحيوان ففهم عنه ، ومن باب أن ألقى يكلم الإنسان العاقل بكلام بصادق صيغته ويؤثر فيه ، فيتأثر ويتفعل

ثم يقول سبحانه معبياً مهمة هذا الذكر وهذا القرآن المبين ﴿يُسْمِعُ مَن كَانَ حَيًّا﴾ (٧) ﴿يَسْمَعُ﴾ سمعهم أحياء وخطبك لهم دليل على أنهم أحياء ، يكنى أحياء الحياة المادية التي ينتهي بالموت ، أما

هناك حياة أخرى بالعقل والفكر وبالقيم الروحية ، وهذه لا يظهر أثرها إلا بعد الموت .

والناس جميعاً يشتركون في الحياة المادية ، لذلك يُسمى العصر الذى يدخل على الحياة المادية لتأخذ طابع الحياة الروحانية (الروح) فالروح روح من أمره سبحانه ، وبعد أن يعطيه الروح التى تحيا بها المادة يعطيه الروح التى تحيا بها الفهم ، وحياه لقيم قلداً ، بها ترتقى من تعطيل قيمة فى الآخرة ، وقد تعطيك فى الدنيا راحة البال واستقامة واستقراراً ، لكن تطل الحياة الحقيقية فى الآخرة

فإذا شاء الله أعطى لإنسان حياة موصولة كما أعطى سيدنا يحيى ، فلما دعا سيدنا زكريا ربه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهِنَ الْعَظْمِ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (١) وبى خف لموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من يدك ولها (٢) برئى ويرث من آل يعقوب واحمله رب رصياً ﴿ ٦ ﴾ [مريم]

فأحبه الله ﴿ يَرْكُوبُهُ ﴾ بشرك بعلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴿ ٧ ﴾ [مريم]

إذن بشره الله بعلام ، وسماه اسماً يدل على أنه سيعطيه حياة موصولة ، فحين تسمى ولدك دكى مثلاً تفوؤلاً أن يكون دككاً ، أو ببيل تفاوؤلاً أن يكون سيلاً ، لكن أنطق أنت أن تحقق رغبتك هذه

بدك قال الشاعر

وَسَمِيَّتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ لِرَدِّ قَضَاءِ اللَّهِ فِيهِ سَمْعِيلُ

نعم ، أنت سميت ، لكنك لا تهب الحياة ، واهب أحياء هو الله ، فإذا سُمى الله يحيى فلا ند أن يحيا حياة موصولة ، لذلك مات سيدنا

يحيى شهيداً ، لتتصر حياته الدنيا بحياة الآخرة . وليحقق فيه ما
أراد الله

ومعنى ﴿وَبِحَقِّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس] أى يستحق لهم
العذاب ؛ لأنهم لم يتتبعوا بالإيمان .

ثم يتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن بعض آياته فى الكون

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيَا أُنْعَمَاءَ لَهُمُ
مَّا كُونُ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَهُمْ فِيهَا مِنَافِعُ وَمِنْهَا يَشَارِبُونَ ﴿٧٣﴾﴾

هنا نقلهم الحق سبحانه إلى مجال المادة التى لا يستطيعون
إنكارها ، وقلنا إن الرؤية فى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [يس] يصبح أن تكون
رؤية بصرية أو رؤية علمية ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيَا أُنْعَمَاءَ﴾
[يس] قوله ﴿مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيَا﴾ [يس] يفتى المشاركة يعنى
هذه صعدتنا وخلقنا لم يشاركنا فيه احد . ولم يعاوننا فيه احد بل
هو خلق الله وحده

وكلمه ﴿أُنْعَمَاءَ﴾ [يس] هى الأنعام التى ذكرت فى سورة
الأنعام ﴿ثَمَانِيَةَ أَرْوَاحٍ مِنَ الصَّانِئِينَ وَمِنَ الْمَعْرِائِينَ قُلْ الدُّكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمْ
الْأُنثَيَيْنِ أَمْ اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ بَنُو نُوحي يعلمون كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَمِنَ
الْإِبِلِ النَّسِ وَمِنَ الْبَقَرِ النَّسِ قُلْ الدُّكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
لِيُضِلَّ النَّاسَ بِعِزِّ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام]

وهى البقر والإبل والغنم والماعز . وسميت أنعاماً لأنها النعمة

البارزة في أشياء متعددة ، منتقع بها في حياتنا ، فنأخذ منها الصوف والوبر والحلود والأناس ، ونحمل عليها الأثقال ، وهذه كلها نعم واضحة في البيئة العربية

ثم نحلّق الأنعم في ذاته نعمة ، وقوة سبحانه ﴿فَهُمْ لَهَا بِالْكَوْنِ (٧١)﴾ [يس] نعمة أخرى ، لأن هناك حيوانات أخرى متوحشة لا تمكن إلا بالصيد والقوة ، وهي قليلة البع إذا ما قُورنت بالمستأنسة التي ينتفع بها الإنسان ، فيسرقها ويركبها ويحلبها

ثم نعمة التدليل ﴿وَدَلَّلَهَا لَهُمْ (٧٢)﴾ [يس] وإلا فإذا خلقها الله ولم ندلّلها ما استطاع الإنسان تدليلها ، ولا الاستفادة منها ، فالجمل مثلاً رعم ضخامة حجمه وقوته ، إلا أن الطفل يسوقه ويبيحه ويركبه ، كيف ؟ لأن الله ذكّه وسخّره ، أما الثعلبان فجمع صغر حجمه إلا أننا نحابه ونهوب منه ، لأن الله لم يدلّله لنا ، بل لبرعوث في الفراش يشاعرك وبفلوك ، وليس لك سلطان عليه

إذن فخلق هذه الأنعم في ذاته نعمة ، وتملكها نعمة ، وتذليلها نعمة ، وهذه النعم للمؤمن والكافر على اسواء ، لأنها من عطاء الربوبية إذن كان عليهم أن يحترموا هذه ، وأن يسألوا أنفسهم كيف تكفر بالله وهو يوالى علينا كل هذه النعم ، وبیت الأمر يقف عند كفرهم هم ، إنما يتعدى ذلك حين يمنعون الرسل من نشر دعوتهم

وقوله سبحانه ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ (٧٢)﴾ [يس] أى ما يُركب من الدواب وركوب مثل قولنا شاة حلّوب يعنى تُحلب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٣)﴾ [يس] أى من لبنها وهي حية ، واللبين نأكل منه الحس والربدة الخ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَافِعٌ وَمَشَارِبٌ (٧٣)﴾ [يس] مشارب جمع مشرب والمراد القرية التي كانوا يشربون بها ، وتُصنع من جلود

هذه الحيوانات أو يُراد بالمشارب ما يُشرب من ألبانها ، واللبن وإن
كس نُشرب من الأسنى إلا أن الذكر سب فيه ، فلو لا أنها حملت
ما كن منها اللبن

ثم نُحتم هذه النعم بقوله سبحانه ﴿ أَفَلَا يُشْكُرُونَ ﴾ [يس] هـ
بأسلوب الاستفهام ليجيبوا هم ، فإله لا يقول لهم اشكروني على
هذه النعم إنما يقررهم هذه نستوجب اشكر أم لا ؟ ثم لو شكرتم
فسوف نتعرضون لعصاء آخر وزيادة
﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [ز]

[إبراهيم]

إن كن يحب عليهم أن يشكروا الله على نعمه وأن تدعوهم
هذه لنعم إلى الإيمان بهذا إله المعصم الذي يُوالى عليهم نعمه ظاهرة
وباطنة ، ولد لا والإنسان حينما يكون موطأ يتفاسى آخره كل شهر
من صاحب العمل لأشد أن يُحييه كل يوم ويدور إليه عالمهم بكل
هذه النعم أفلا يستحق أن يُعبد وأن يُشكر ؟

وبيت الأمر يسهي بهم عدم الشكر ، إنما يحكى القرآن
عهم فيقول

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَنَهُمُ الْمُتَصَرُّونَ ﴾ [٧٤]
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُودٌ مُخَضَّرُونَ ﴾ [٧٥]

عجيب أن يحكى القرآن عنهم هذا بعد أن شرح الله بهم آياته التي
تثبت وجوده الأعلى ووحدانيته الكبرى فهي الاقوى حول الإنسان
آيات وهي نفسه آيات فمن اصرف عن الاولى أو عفر عنها ،
فكيف يفعل عن الأخرى ، وهي في نفسه وذاته انتى لا تفارقه

لَٰذٰلِكَ قَالُوهٖ سَٰبِقَةٌ ۖ لِّأُولَٰئِكَ نَـَّصَرْنَا ۖ لَٰكِن كَانُوا عَن صَبَٰرٍ ۚ
 اِنَّهُ الْحَقُّ ۙ (٥٣) ﴿٥٣﴾

[غصصت]

ومع ذلك ﴿وَانْجِدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾ [يس: ٢٤] أي عبدوها من دُونِ الله ، لماذا ؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [يس: ٢٥] [يس] صحيح أن الإنسان يتحدّ إلهاً أعلى منه ليصره في شدته ، لكن إذا كان هذا الإله الذي ترجع إليه في الشدة هو الذي يرجع إليك ويحتاجك ، لتصلحه إن كُسرت الریح ، أو أظلمت به العوارض ، فإن وقع تعبه ، وإن كُسرت دراعه أصلحتها ، وإن جاء أسير حرقه ، وألقى به في الوحل ، إذن ، كيف يتخذ هذا إلهاً ؟

وتعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما حطم الأصنام سألته قومه
 أنت فعلت هذا بالهتـا إبراهيم (٦٢) قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم (٦٣)
 كانوا يظنون ﴿٦٣﴾ {الأنبياء}

وهكذا أوقفهم لدى الله إبراهيم على كلمة الحق التي لا يستطيعون
إنكارها. وهي أنهم حمادات صفاء لا تنطوي ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا
إنكم تهم لظالمون﴾. ﴿[الأنبياء] لكن سرعان ما تنهوا إلى خطورة هذا
الاعتراف فعادوا إلى ما كانوا عليه من المكابرة والعباد﴾. ﴿ثم تكسوا
على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء يطقون﴾ ﴿[الأنبياء]﴾. ﴿عندها رأى إبراهيم
أن يجب عليهم بهذه الحقيقة التي يحاولون الابعات منها﴾. ﴿قال أفتتعبدون
من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يصركم﴾ ﴿[٦٦] أفلكم ولما تعبدون من دون الله
أفلا تقولون﴾ ﴿[٦٧]﴾ [الأنبياء]

لذلك يرد الله عليهم ﴿٢٠﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محصورون
 ﴿٢١﴾ يس قسهم لا يصرون عانديهم إنما العادون هم الذين
 يصرونهم ، ويوم القيامة سيجمعهم الله معاً ، لا يحشر العاد بدون
 المعصون لنكر المراحة فلو حُشر المعاد وحده لانتظر معبوده

ينصره ويدافع عنه ، إنما يُحْشَرُ الجميع معاً ، كما قال سبحانه ﴿ مَا
لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴾ (٢٥) بل هم اليوم مُسْلِمُونَ ﴿ ٧٦ ﴾ [الصافات]
وقال سبحانه ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاحَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٦) ﴿
[الصافات] أى أحضروهم معهم فى النار ، العابد والمعبود ، والمعنى
أن هذه الأصنام ستكون وهوداً للنار التى تُعَذِّبُ بها العابدون
وبعد ذلك يعود السياق إلى رسول الله ، الذى يكافرون فيه ريعاندونه

﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ
مَا يُسْرُونَ ﴾ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿ ٧٦ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسَلِّي رُسُلَهُ ﷺ وَيُطَيِّبُ خَاطِرَهُ ،
ولسلسلة لا تكون ، لا من مُسْرٍ لِمُسْلَى ، المُسْلَى هو الذى أرسل
المُسْلَى ، فلا بد أن يحامله حتى فى الشدة وسنة الله فى الرسل
جميعاً أن الله ما أرسل رسولاً وخذله أبداً ، وما كانت الشدة فى
رحلة وموكب الرسالات إلا تصفية لنفوس لمؤمنين وتمحيصاً لهم ،
وتصحيحاً للعقيدة ، حتى لا يبقى إلا المؤمن الحق الذى يتحمل
مسئولية الرسالة والدفاع عنها

لذلك يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ﴿ ٧٦ ﴾ [س]
لا تحزن يا محمد ، والحزن أسف النفس على عدم تحقيق ما يتمنى
الإنسان وطُورُهُ ما يفسد ، فإن حزن رسول الله وانقبضت نفسه ،
فمن نُسَلِّيهِ ؟ ومن يُحَقِّقُ عنه ؟ يُسَكِّيه الذى أرسله لأنه سبحانه
يحصى عليهم كل شيء ، ويعلم ما يُسْرُونَ وما يعبدون
﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ [س]

لكن ، ما الذى أسرَّهُ هؤلاء ؟

الذين واجهوا رسول الله كانوا قسمين قسم واحبه بشحاعة
 ما أعلن بلسانه ما فى قلبه من أنه لا يؤمن به ، وهؤلاء هم الكفرة .
 القسم آمن بلسانه وكتّم الكفر فى قلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ،
 ومعنى ﴿ مَا يُسْرُونَ ﴾ [يس] أى من النفاق ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس]
 من الكفر أو ﴿ مَا يُسْرُونَ ﴾ [يس] من الإيمان الحقيقى بك ، وأنت
 رسول وأمين وصديق ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس] من الكفر ، بدليل قوله
 تعالى ﴿ وَجحدوا بها واستيقظها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [النمل]

بدليل أنهم لم يكذبوا القرآن ، ولم يعترضوا عليه ، إنما عتراضهم
 أن يزل على محمد بآيات ، لذلك قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿ لَوْلَا
 نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لَفُتَّحَ ﴾ [الزخرف]

وبدليل أنهم كانوا يأتمنون رسول الله على ودائعهم وأماناتهم ،
 هذا كله دليل على إيمانهم برسول الله ، لكنهم مع ذلك أعلنوا كلمة
 الكفر خوفاً على السلطة الزمنية والمنزلة والسيادة والجبروت ، وقد
 جاء الدين الحديد ليسلب منهم هذا كله ، ويوقف تسلطهم على
 الضعفاء وعلى الفقراء

دن لا تد أن يصدموا رسول الله وأن يقفوا فى وجه دعوته ،
 بكل قواهم رغم إيمانهم بصدقه فى قرارة أنفسهم ، لذلك كانوا فى
 المدينة يستعدون لتتصيب ملك منهم^(١) فلما دخلها رسول الله واجتمع
 الناس عليه انفضت مملكتهم ، وزالت قبر أن تولد ، ذهبت السلطة الربمية
 ابنى كبرت للكفار كما ذهبت لسلطة من أيدي اليهود ، وكانوا أهل العلم
 وأهل ائمال وأهل القتال ، ذهب كل هذا يوم عكت كلمة الإسلام

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢ ٢٦٦) أن قوم ابن أسى قد نظموا به الحرر
 ليتوحوه ثم يهلكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فامتلا قلبه حقداً
 وعداوه ، ودخل فى الإسلام كلهم منافقاً حاقداً

أو يُرَادُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ حَصِيلَهُ
أَمْرَيْنِ شَيْءٌ أَوْ حَاجَةٌ تَحْتَمِرُ فِي النَّفْسِ تُعَدُّ سِرًّا وَعَقِيدَةً تَدْفَعُهُ إِلَى
الْعَمَلِ فَبِئْسَ تَرْجُمَتْ إِلَى عَمَلٍ وَبِئْسَ لِلْوُجُودِ صَارَتْ عَلَانِيَةً ، وَعَلَيْهِ
يَكُونُ الْمَعْنَى نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ مِنْ عَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَمَا يَعْمَلُونَ
مِنْ فِعْلٍ الْقَبَائِحِ .

يَكُنْ أَبْيَنُ اللَّهِ بِعِلْمِ الشَّيْءِ دُونَ فَائِذَةٍ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْعَمَلِ "
المسألة لا تنتهي بمجرد العلم ، بما لا بُدَّ أَنْ يَتَوَسَّبَ عَلَى هَذَا لِعِلْمِ
جَزَاءٍ يَمَاقِبُ الْكَافِرَ الْعَاصِيَ ، وَيُثِيبُ الْمُؤْمِنَ الْمَطِيعَ ، إِنَّهُمْ : تَنْجَبُوا
أَمْرَكُمْ وَاحْذَرُوا مَا يَنْتَرِبُ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ مِنْ آثَرٍ ، لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ لَيْسَ
(مَنْطُزِيَّةً) عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ

لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَى ﴿وَلَا يَخْرُجُ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
حَمِيدًا (٧٦)﴾ [يُوسُفَ] الْبَعْضُ فَهَمَّ أَنْ كَلِمَةً ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ حَمِيدًا (٧٦)﴾
[يُوسُفَ] هِيَ قَوْلُ الْكَافِرِينَ ، يَكُنْ كَيْفَ يَقُولُهَا الْكَافِرُ ، لِيَنْتَهَبُوا إِذَا
قَالُوا اللَّهُ تَدْبِيلًا لِقَوْلِهِ ﴿وَلَا يَخْرُجُ قَوْلُهُمْ (٧٦)﴾ [يُوسُفَ] بِمَادَا " لِأَنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا

بَعْدَ أَنْ نَكَلِّمَ أَنْحَقَ سَبْحَانَهُ عَنْ آيَاتِهِ فِي الْأَفَاقِ فِي الْأَرْضِ وَفِي
الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَلِغُلُّكَ وَالِدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ يَنْكَلِمُ سَبْحَانَهُ عَنْ آيَاتِهِ فِي
النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَإِذَا كَانَتْ الْآيَاتُ فِي الْأَفَاقِ مِنْ حَوْلِهِمْ لَمْ تَلْقَهُمْ
إِلَى اللَّهِ ، فَهَذِهِ هِيَ آيَاتُهُ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمُ الَّتِي لَا تَفَارِقُهُمْ

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْقَةٍ

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

قوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْاِنْسَانُ﴾ [يس] بمعنى يعلم لأن الإنسان لم ير عملية الخلق في نفسه ، فإن قلت فمن الذي أعلمه ؟ ومن الذي عرفه أن الله هو الخالق ؟ قالوا عرف الإنسان هذه الحقيقة ، لأن في لكون كمالاً لم يدعه أحد من الخلق ثم فوجئت الدنيا برسول الله صلى الله عليه وآله حين بان الله تعالى هو الخالق ، ولم يعارض أحد هذه إن دعوى ليس لها معارض ولا مناهض ، مع أن لإنسان كثيراً ما يدعى ما ليس له لكن هذه الدعوى بالذات لا يستطيع أحد أن يدعيها بنفسه

والقعدة أن الدعوى تثبت لصاحبها ما لم يقم لها معارض ، وإلا لو أن هذه الدعوى لم تسلم للخالق عز وجل ، فأين الخالق ؟ لماذا لم يعرضها ، ولماذا لم يطالب بحقه في الخلق ؟ إما أنه حين عن المواجهه ، أو أنه لم يدر بهذه الدعوى ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً

ونحفظ على سياق هذه الآيات أن الحق سبحانه قال في الآيات السابقة ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ دَعَا الْاِنْسَانُ إِلَى الْاِسْلَامِ﴾ [يس] وهذا قال ﴿وَلَمْ يَرِ الْاِنْسَانُ﴾ [يس] مخاطب الإنسان ، ولم يخاطب الجماعة قالوا لأن هذه الآية نزلت في أبي بن حلف حين أمسك بعظم أبي ، وراح يفتته أمام رسول الله ويقول أبرع من ربك يحيى هذا مرة أخرى ؟ قال « نعم يحيى ، ويدخلك

(١) وردت روايات عنه في سند مروي هذه الآية وما بعده

مرث في أبي بن حلف وهو قول مجاهد ومكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة

مرث في العاص بن وائل وهو قول لابن عباس

مرث في عبد الله بن أبي بن سلول وهو قول لابن عباس قال ابن كثير في تفسيره

(٥٨١، ٢) في القور الأخير « قد منكر ، لأن السورة مكية ويعبد الله بن أبي بن سلول

إنما كان بالمدينة وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن حلف

أو العاص بن وائل أو قيس ، فهي عامة في كل من أنكر البحث ،

النار» ، أو يُراد بالإنسان مطلق الإنسان ، فهي لكل مُكذَّب بالبعث ممن هم على شاكلة أُنَى* .

وقوله سبحانه ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ (٧٧) [بمعنى] العلم التجريبي لم يصل إلى شيء في مسائله الخلق هذه إلا مؤخرًا ، يحاور على استحياء كشف بعض أسرار خلق الإنسان مما لم نكن نعرف عنها شيئًا من قبل ، والنطفة هي الجوهر والميكروب أو الجرثومة الفعالة التي تسبب الإخصاب حين تصل إلى البويضة ، وهذه النطفة تسبح في سائل هو المني وتعيش فيه ، بذلك قال تعالى في آية أخرى ﴿لَمْ يَكُنْ نُّطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ﴾ (٣٧) [القيامة]

وقد أثبت العلم التجريبي الحديث أن النطفة هي المسترلة عن تحديد الذكورة أو الأنوثة ، والبويضة ما هي إلا وعاء فقط إذن لا دخل للمرأة في هذه المسألة ، بدليل قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُّطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ﴾ (٣٧) ثم كان علقه فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) [القيامة] أي من النطفة ، وقلنا إن من العجيب أن المرأة العربية قديماً فعلت إلى هذه الحقيقة التي لم يتوصل إليها العلم إلا حديثاً .

أما حديث النبي ﷺ في هذه المسألة : «إذا غلب ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا غلب ماء المرأة نزع الولد إلى أمه»^(١) فهموا من هذا الحديث أن تحديد لذكورة أو الأنوثة يتوقف على الماء الذي سبق ، لكن حين نتأمل اللفظ نفسه ، فكلمة (غلب) تدل على

(١) هذا الحديث جواب من رسول الله ﷺ على سؤال من عبد الله بن سلام : ما جال الولد يدرع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال ﷺ : «أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل يدرع الولد» . فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٣٨) من حديث أنس . وعبد مسلم في صحيحه (٣١١) كتاب الحيض من حديث أم سليم : «إن ماء الرجل غلب أبهى» . وهذه المرأة وقيق أصغر ، فمن أبيهما غلا أو سبق يكون منه الشبه .

العجة والسباق ، والسباق لا يكون إلا لعناصر تخرج من نقطة واحدة ، وتطلق في اتجاه واحد ، إس فهم غير متقابلين ، فمعنى يغلب يعنى يسبق

وقلنا إنهم الآن تنهوا إلى أن البوصلة حين خرج من لمرة تحدث تغييراً كيميائياً في تكوين المرأة يُسبب ارتفاعاً في درجة الحرية وتعيراً في المزاج وفي نضجات القلب ذلك اخترعوا ساعة تقيس هذه التغييرات ، وتعرف بها المرأة موعد نزول البوصلة

والنطفة ميكروب متناه في الصغر ، لا يرى إلا بالمجهر ، ورحم الله العقاد الذي قال كلمة موجرة بصور هذا الصغر ، فقال إن اتصال العالم كله - يعنى النطفة - كونهم - يمكن أن توصل في نصف كُستبان الخياطة فسحان الحالق الذي يخرج من هذه النطفة المتناهية لصغر إنساناً كاملاً ، ويُنشئ منها العظام لصلبة والعضلات نصف الصلابة والرَّجْوَة ، وأشأ منها العصاريف والأعصاب والدم السائل والمخ ، الح

هذا في الجسم المادى ، والأعجب منه ما يحتويه هذا الجسم من العقل الذى يفهم ، واللسان الذى يتنطق ويتذوق ، ولعين التى ترى ، واليد التى تنحش ، والأنف الذى يشم ، والأنامل التى تلمس ، ولرجل الذى يسعى .

هذه كلها من النطفة ، هذا الميكروب الذى لا يرى بالعين المجردة ، هذه النطفة التى عبر عنها القرآن بالماء المهيى ، مهين لأن

(١) هو عباس محمود العقاد ، إمام فى الأدب ، من المكثرين كتابه وتصنيفاً أصله من دميطة ، انتقل لسلالة إلى المطبعة الكبرى وكان أحدهم يعمل في ، عقاده ، الحرير ، فحرف بالعقاد أمه كوردية ولد عام (١٨٨٩ م) فى أسرار ، توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤م عن ٧٦ عاماً ودُفن بأسوار [الأعلام للزركلى ٢/٢٦٦]

لإنسان يتولاه ويخرج من محرى البول ، ويُلقى في دوراب الميه مع لقادورات . وإن أصاب مالهك لا تُدَّ أن تُعسل . ومن هذا الماء لمهين يُخلق الأنسا . بل ويصر إلى أعلى مراتب الطعيبان واحجروت ، كيف ؟

قالوا لأن الإنسان به صفات حسنة في ذاته ومواهب يحب أن يطهرها ، فإن كان مع أحده أعجبه شكله الحمير أو ماله أو دكاؤه الخ ، فيحاول أن يُبَيِّن هذه المواهب لهم ، فإذا عودى كبت له مواهب أخرى في أعدائه . ومع العدو يُجسد الإنسان كل مواهبه ليتصر على عدوه ، هذه مواهب في العضب وفي الحصومة ولحدال لذلك قال أحدهم .

وكم من نعمة لله في حمدتها يُجمَعها في مواهب ثلاث

أولاهما لنفسى وثانيتهما لأحبابى وأصحابى وثالثتهما لخصمى

هذا كله معنى ﴿ فإذا هو خصيم مُبين ﴾ (٧٦) [س] يعنى بعد أن خلق الإنسان من هذه النطفة ومن هذا الماء المهير فوحد بأنه * خصيم (٧٧) [س] يعنى عدو لدود ﴿ مُبين ﴾ (٧٦) [س] يعنى يبين عن مواهب العداء عنده إبانة واصحة ، والإنسان لا يكون مُبياً لغيره إلا ما كان الشيء في نفسه هو لأن فاقد الشيء لا يعصه ، فالمدرس الفاشل هو الذى لا يستطيع أن يقر المعلومه لتلاميذه ، لأن المعلومه غير واصحه عنده . ولو كانت المعلومه واضحه في ذهنه لاستطاع أن ينقلها بى أسوب

إذن المعنى ﴿ مُبين ﴾ (٧٧) [س] بحسن الإبانة عما في نفسه ، لذلك تقول أنت لك لأنها كانت عندي وأعلمتك لأنها عشت عدي ، وأهمتك لأنى فهمت ، فهما إذن موهبتان والإنسان يرقى مواهبه ويجسد كل صفاته في الحصومة لا يدحر شيئاً منها ، ففي الحصومة

يُوصِّحُ بِنَا بَطْلَانَ الشُّرْكِ ، وَالْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْحِيدِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ
﴿ وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٩) ﴿

نعم ، لا يستوى عبد يتنازعه عدة أسياد ، وعبد ملك لسيد
واحد ، كذلك لا يستوى التوحيد والشرك

مقوله تعالى ﴿ وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ (٧٨) ﴿ [يس] أى أى من خلق ،
والمثل الذى ضربه أن أخذ عظمًا قد بلى ، وراح يُفْتَتَهُ أمام رسول الله
وهو يقول أترعم يا محمد أن ربك سيحيى هذا ، بعد أن صار إلى
ما ترى ؟ وإن كانت الآيات نزلت فى أبى ، إلا أنها لا تقتصر عليه ،
إما تشمل كل مُكذِّب بالبعث ، مُنكر بهذه القضية

ومعنى ﴿ رَسَى حَقَّهُ ﴾ (٧٨) ﴿ [يس] يعنى لى تدكر خلقه هو ، وتأمل
فى ذات نفسه وجد الدليل على ما يُكذِّب به ، لأن الله خلقك من
العدم ، فصار لك وجود ، فإذا مت بقيت منك هذه البقيا التى تُعْتَنُّها
مستورة فى الأرض ، ومعلوم بحسب ما تفهمه العقول أن الإيجاد من
موجود أهون من الإِسْحَاد من العدم ﴿ وَهُوَ السَّيُّ يَدَأُ لِحُلُقٍ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (٦٧) ﴿

الحق سبحانه فى هذه الآية يخاطبنا على قدر عقولنا ووفق
مطلقنا ، وإلا فلا يُقال فى حقه تعالى شَيْنٌ وأهون ولا سهل
وأسهل ، هذا يُقال فى حق إنشراح فحسب

وقوله ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) ﴿ [يس] حسنا ألقى هذا

السؤال على الكافرين المكذبين بالسمت يقولون لا أحد يستطيع أن يحيى الموتى ، لماذا ؟ لأنه يقيس المسألة على عمر القدرة في البشر ، لا على طلاقة القدرة في الحالى سبحانه .

والعجيب أن الله تعالى يثبت للإنسان صفة الخلق ، فيقول ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٤٦) [المزمر] والإنسان يفكر ويكذب بقدرة الله في الخلق ، فإذا كان ربك لم يضرّ عليك بأنك خالق فلا تصرّ عليه بأنه أحسن الخالقين .

وقلنا إذا وجدت صفة لله تعالى ووصف بها البشر فلا تدّ أب تأخذها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (١١) [الشورى] فله تعالى وجه لا كالأوجه ، وله سبحانه يد لكن ليست كالأيدي .. وهكذا ، لأن الله تعالى واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله الله موجود وأنت موجود ، لكن وجودك ليس كوجوده ، الله غنى وأنت غنى ، لكن عنائك ليس كغنى الله ، غنى الله ذاتي لا يفصل عنه سبحانه ، أما عناك فهو هوب .

الله خالق وأنت خالق ، لكن فرق بين خلقك وخلق الله . خلقك من موجود وخلق الله من عدم ، خلقك جامد لا حياة فيه ، وخلق الله في حياة فينمو ويتعدى ويتكاثر . لح فأنت خالق ، لكن ربك سبحانه أحسن الخالقين

إذن لله تعالى صفات الكمال المطلق ، يفيض منها على خلقه فيعطيه من صفاته تعالى ، لكن تظل له سبحانه طلاقة القدرة ومعنى ﴿ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) [يس] قديمه باليه تتفتت

ثم يرد الحق سبحانه على هذا المكذب وأمثاله ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٧١) [يس] وسمى ﴿ أَنْشَأَهَا ﴾ يعني من العدم ، ولأن

يَشْتُلُهَا مِنْ مَوْجُودٍ أَوْيَ وَقَوْهٖ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٧٥] ﴿[يس]﴾ مَنِ ارْتَدَّ عَلَيَّ هَٰذَا الْمَكْذُوبُ يُوحَىٰ ذَٰلِكَ هُنَاكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ وَإِحْيَاءُ آخِرِ عِبَرِ الْأَوَّلِ ﴿وَهُوَ يَكُلُّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٦] ﴿[يس]﴾ أَيْ بِإِلْحَاقِ الْأَوَّلِ وَبِإِلْحَاقِ الثَّانِي ، فَالْعِلْمُ بِإِلْحَاقِ الْأَوَّلِ أَنَّ يَعْطِيهِ صِفَاتٍ وَمَوَاقِفَ فِي بَاتِنِهِ ، وَأَنَّ يَسْتَعْمِرُهُ فِي الْأَرْضِ ، وَأَنَّ يَجْعَلَ لَهُ مِنْهَا عِظَمَ حَيَاتِهِ فِيهَا .

وَبِهَذِهِ الْمَنْهَجِ أَرْشَدَهُ إِلَىٰ سَبِيلِ الْخَيْرِ ، وَحَذَّرَهُ مِنْ سَبِيلِ الشَّرِّ ، وَأَوْصَحَ لَهُ الْحَرَاءَ عَلَىٰ هَٰذَا هَٰذَا ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِإِلْحَاقِ الْآخِرِ فِي الْآخِرَةِ . أَيْ يَعْلَمُ كَيْفَ يَحَارِبُهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ إِيَّاهُ مَعْنَى ﴿وَهُوَ يَكُلُّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٦] ﴿[يس]﴾ يَعْنِي عَلِيمٌ كَيْفَ يُكَلِّفُهُ ، وَعَلِيمٌ كَيْفَ يَحَارِبُهُ ، وَعَلَىٰ قَدْرِ التَّكْلِيفِ يَكُونُ الْحَرَاءُ .

الْفَلَّاسِفَةُ الْمُسْلِمُونَ أَحْبَبُوا أَنْ يُوَصِّحُوا لَنَا هَٰذَا الْمَعْنَى ، فَقَالُوا حَسْبُكَ ، يَا اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ مِنَ الْعَدَمِ وَقَبْلَ أَنْ تُوَحِّدَ السَّمَاءَ أَوْ الْأَرْضَ قَارِ احْرَحِي يَا سَمَاءُ كَوْنِي سَمَاءً فَكَانَتْ ، وَهَكَذَا الْأَرْضُ إِيَّاهُ قَادِرِيَّتُهُ سَبْحَانَهُ هِيَ الَّتِي فَعَلَتْ ، وَمَقْدُورِيَّةُ الْأَشْيَاءِ هِيَ الَّتِي أَنْفَعَلَتْ ، فَمَا الَّذِي انْتَهَىٰ مِنْ هَذَيْنِ الْعَبْصَرَيْنِ « إِبْهَامًا بِاقْتِسَارٍ مَوْجُودَتَانِ قَادِرِيَّةُ الْفَاعِلِ سَبْحَانَهُ ، وَمَقْدُورِيَّةُ الْأَشْيَاءِ .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾

﴿فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ تَوَفَّدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

لِحَقِّ سَبْحَانِهِ يَسُوقُ لَهُمْ دَلِيلًا آخَرَ عَلَىٰ طَلَاقَةِ قُدْرَتِهِ فَإِنْ كُنْتُمْ تُكْفُرُونَ بِمَا سَعَتْ ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ الْمَادِيَةِ الَّتِي تَشَاهِدُ بِهَا ، وَالَّذِي يُحْيِي الْعِظَامَ الَّتِي رَمَتْ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا تَوْفِدُونَهَا فَيَسْتَعْلِلُ لِعُودِ الْأَخْضَرِ ، وَالْخُضْرَةُ دَلِيلُ إِنْصَافِهِ



والمائية ، فكيف تأتي النار من الماء ، هذه آية يرونها فى البيئات العربية كل يوم ، ومعوم أن الحطب هو أول وقود عرفه الإنسان وستخدمه بسلام لأنه أصفى وقود وهو صحى لا يلوث البيئه ، ولا يصير بها ، ولك أن تقارن بين وقود الحطب ووقود البترول مثلاً ، لتعرف الفرق

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا آمُرُهُ
إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

هذا ترقى فى الدليل ، فمعد أن نذكر سبحانه آية جعل اشجر
الأحصر داراً ، سوى الدليل الأقوى ، وهو خلق السموات والأرض
السموات دليل من العلو الثابت الذى لا يتغير ، والأرض دليل ملامس
بنا ، نشاهده وباشره وحديثة هذه الآية جاءت فى آية أخرى
حيث قال الحق سبحانه ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [عمر]

بل قللت علل لد أن خلق السموات والأرض مع أنها لا بحس
ولا تتكلم ولا تعلم الحج أكبر من خلق الناس ، نقول نعم خلق
السموات والأرض أكبر من خلق الناس لأنها منذ خلقها الله على
حالتها لم تغير ، وستظل إلى قيام الساعة ، أما أنت أنها الإنسان
تموت ، تموت وأنت طفل بل وأنت حين فى بطن أمك ، تموت
وأنت شاب وأنت شيخ هرم ، ونصارى ما يمكن أن تصل إليه
لو عمره فى الدنيا مائة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام ، فأب عمرك

من عمر الشمس ، أو القمر أو الأرض ؟ وهل رأيت خادماً أطول عمراً
من مخدومه ؟

إننا نتوارد على هذا السؤال أفراداً وأممًا ودولاً ، تذهب جميعها
وتقنن وتبقى السماء والأرض كما هي شامخة عظيمة ، لا يطرأ عليها
تغيير ، ولا تخرج عن قانون السحير في شيء أبداً ، ومنذ أن خلق
الله هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه ، ولا تخلف عن مواعده ،
أو اصدع عن أداء مهمته

هذا حال لجمادات في السموات والأرض ، فما حالكم أنتم أيها
العقلاء ؟ لو تحدثنا في المادة فهي تنفد وأنتم تصوتون ، وفي
المعنى والقيم تتساند هذه الجمادات ، وأنتم راندون وتختلفون
وتتصارعون ، فأياكم إذن أحسن خلقاً وأكبر ؟

لذلك يجب الحق سبحانه على هذا الاستعظام المنفرد ﴿أوليس
الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ (٨١) ﴿[يس]

فيقول (يلى) أى نعم قادر ﴿وهو الخلاق العليم﴾ (٨) ﴿[يس] وخلق
صيفة مبالغ من حائق ، ليؤكد هذه القضية لكل مكذب بها وهو
سبحانه ﴿العليم﴾ (٨١) ﴿[يس] أى بمن خلق

ثم يقول سبحانه ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾
(٨٢) ﴿[يس] هنا إشارة لطيفة من الحق سبحانه لكل مكذب بالبعث ،
كان الله يقول لهم يا من تكذبون بقدرة الله على بعث لعظام التي
رمت ، أنظنوا أن الله يخلق معالج كما تخفون أنتم ، الله الحائق
لا يخلق معالج وإنما يخلق بكلمة (كن) ، بل يخلق سبحانه بمجرد
مرأه ، فإن أراد شيئاً كان ، دون أن يقول ، ودون أن يأمر ،
وما كلمة (كن) إلا لتقريب المسألة إلى أذهاننا

وسبق أن أوضحنا هذه العملية بمثال ، والله لمثل الأعلى ، فلما كيف تذكر أيها الإنسان قدرة الله وقد فاض عليك بمثلها هي ذات نفسك ، فأنت مثلاً حينما تريد أن تقوم من مجلسك ماذا تفعل ؟ هل أمرت العضلات أن تتحرك ، بل هي تعرف أصلاً ما هي العضلات التي تقيمك ، وما الأعصاب التي تتحكم في هذه العملية ؟

إنك تقوم بمجرد إرادتك للقيام وليس لك دخل فيها ، بدليل أن الطفل الصغير الذي لا يعرف عن تكوين جسمه شيئاً يقوم إذا أراد القيام ، فإذا كنت أنت أيها الإنسان تتفعل لك لأشياء دون أن تقول بها انفعلي ، فهل يلقى بك أن تكذب بهذا في حق ربك وحالقتك ؟

فإن قلت فلماذا لا أمر أعضائي وأقول لها اعلمي كذا وكذا ؟ بقول الحق سبحانه يقول للشيء كن لانه سبحانه يعلم أن الأشياء ستأتمر بأمره ، ولن تخرج عن مراده ، إنما هل أنت واثق أنها ستأتمر بأمرك إن أمرتها ؟ إنك لا تثق بهذه المسألة بدليل أن الله تعالى حين يسلب الإنسان هذه القدرة تحرج أعضاؤه عن طاعته ، فيريد أن يقوم فلا يستطيع تشر الأعضاء فلا تتحرك

إذن بقول إذا كان المخلوق مجرد إرادته تسيطر على حواره ، فهو نستبعد أن تكون إرادة الخالق لأعلى تسيطر على هذا الكون المخلوق له سبحانه ؟

وكلمة (كن) يقولها الله ليقرّب لنا فهم المسألة ، ويقولها لأن الأشياء لا يحلف أبداً عن طاعته والانفعال لأمره ، إنما أنت بر قلتها فلن يسمعك أحد ، لذلك قال سبحانه موضحاً استجابة الأرض لأمره سبحانه ﴿وَأَدَّتْ لَرَبِّهَا وَحَقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق] أي حق لها أن تسمع وأن تطيع

ومعنى ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ﴾ (٨٦) ﴿[يس] آي : للشئ الذي لم يوجد بعد ، كيف إذن يحاط به وهو ما يزال غيباً ، قالوا : الخالق سبحانه خلق كل الأشياء رزاً في عالم اسمه ، عالم المئات ، فالأشياء موجودة بالفعل ، لكن تنتصر الأمر بالطهور والخروج إلى عالم الوجود ، لذلك قال أحد العارفين أمور يُبدىها ولا يبتدئها

﴿فَسَبِّحْ لِلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٧)

عرفنا في الآية السابقة أن الحق سبحانه إنا قال كُنْ انضمت له الأشياء وأصاعت أما إن قابها الإنسان على يستجيب له شيء وقدنا إنا ورد الله تعالى وُصِفَ يُوصَفُ به البشر ، فعلى أن يأخذه في إصار ﴿يس كمثله شيء﴾ (١٠) ﴿[التوري] ذر صبيعي أن تحتم هذه الآيات والسورة كلها بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٨٤) ﴿[سر] يعنى سريها له عن أن يُشبهه أحد ، لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله

وكلمه ﴿مَلَكُوتُ﴾ (٨٣) ﴿[يس] من ملك ، وهذه المادة الميم واللام والكاف تُستخدم على معانٍ أربعة الأول يقول مالك وهو كل مر ملك شيئاً ولو كان بسراً ، فلو كان لا يملك إلا الثوب الذي يلبسه يُسمى مالك الثاني يقول ملك وهو الذي يملك من صف أي يملك أن يتصرف فيه وفي إدارة حركته ، الثالث كلمة الملك وهي أن يترقى الملك في أمور ظاهرة يعرفها الناس ، الرابع كلمة لملكوت ويراد بها الملك المستور غير الظاهر ، وهو أقوى وأعم من الملك

وقد يكون الشيء من عالم الملكوت ثم بصير إلى عالم الملك مثل الأشياء التي كانت غيباً واكتشفها الإنسان وانتكرها فصارت

مشهوده . وهناك أشياء تظل دائماً هي عالم المكوت لا تعرف شيئاً
عنه إلا في الآخرة ، وهذا النوع هو الذي يُكذِّبون به ، ومن ذلك
قوله نعى في شأن سيدنا إبراهيم ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٧٥)

[الانعام]

نعم ، يُطلع الله على عوالم الملكوت ، لأنه لما أطلع على علم
المُلك وابتلاه نجح في الاستلاء بتفوق . نجح في كل مراحل حياته
نجح وهو شبح كبير في مسأله ذبح ولده إسماعيل ، نجح لما أُلقى
في النار ، لذلك صار أهلاً لأن يُطلع الله على أسرار الكون ، وعلى
عالم الملكوت ، كما لو أن في أولادك ولداً صالحاً ترى فيه محاصيل
النجابة فتصطفيه بشيء تفصله به عن باقي الأولاد ، كذلك من
يحسن العبودية لله تعالى يحسن الله له العطاء

ومن ذلك ما قصه علينا القرآن في سورة الكهف من قصة لعدد
الصالح ابدى رافقه نبي الله موسى وتعلَّم منه ، ولدى قال الله فيه
﴿ هُوَ جَاءَ عِندَنا اِتِّبَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنا وَعَلَّمَناهُ مِمَّا نَشَاءُ عَلَماً ﴾ (١٠) ﴿ [الكهف]
هذا العبد الصالح لم يُكْرُ بهداً ولم يدرل عليه الوحي ، ومع ذلك
تعلَّم منه النبي ، لماذا ؟ لأنه أخذ ما جاء به الرسول وطبقه على
نفسه ، فب علم الله منه أنه مأمون على مباحث الله وعلى أسرار راده
وأعطاه من علمه اللدني ، وكشف له من أسرار الملكوت .

ألا ترى أن سيدنا موسى - عليه السلام - غضب منه حينما
حرق اسفينة ، ونعمد أن يعصها ، وهي لمساكين فقراء ، هد هو
عالم المُلك ابدى أطلع عليه العبد الصالح ، أما علمه بعالم الملكوت
على قوته ﴿ وَكَانَ وِراءَهُمْ مِنْكَ بِأُحْدُ كُلِّ سَعِيَةٍ عَصَا ﴾ (١٣) ﴿ [الكهف] فأطلع
الله العبد الصالح على بعض عوالم الملكوت ، كما أطلع إبراهيم عنه

السلام على ملكوت السماء .

وكلمة (ملكوت) تحمل معنى المبالغة ، مثل رحمت و جبروت و رهبوت ، فهي إسن للمبالغة في الملك لكن نلاحظ عند علماء القراءات أن أحدهم بقراً ﴿ مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الذينة] فيقول (ملك يوم الدين) بدون صيغة المبالغة قالوا لأن الكلام عن يوم الدين وفي هذا اليوم الملك كله لله وليس لأحد ملك ، ولا حتى الثوب الذي يرتديه

ومن ذلك أيضاً قولنا في الأذان الله أكبر فذكر لصفة (أكبر) دون مبالغة ، ولم يذكر الاسم (الكبير) ، فكيف يداني ذلك في شعار الصلاة التي هي عماد الدين ، ويأتي بالصفة دون الاسم ؟ قالوا لأن الأذان يأخذ الناس من أعمالهم للاستحانة لعناء ربهم ، والعمر له اختياره في الإسلام ، لأنه مهمة الإنسان في الحياة ، وبه يتوصل إلى طاعة الله ، لذلك نُفِّدَ الدين ولا يحتقره

ومعنى (الله أكبر) أن العمل كبير ومهم ، لكن الله أكبر وبداء ربك أهم ، أما كبير فهي اسم من أسماء الله ومعنى كبير أن ما دونه صغير ، لذلك أتى في الأذان بالوصف لا بالاسم

بقوله تعالى ﴿ لَسِبَّ الْحَادُّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يس] أي ما تراه وما لا تراه من الملك ، وما حصى عنك ، ثم توصلت إليه بالعلم واكتشفته ، والذي لا تراه من الملك إلى أن يخبر الله به أحد عبادَه ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الأعراس] من رسول ﴿ [الجن] ﴾

واستحقاق أن المعينات والأسرار المطمورة في الكون لا يكتشفها الإنسان إنما تُكشَفُ له ، وقلنا إن كل سر في الكون أراد الله أن

يُظْهِرُهُ لَهُ عَمْرٌ وَمِيلَادٌ ، فَإِنْ صَادَفَ مِيلَادُهُ بِحُكِّكَ ظَهَرَ عَلَى يَدَيْكَ ،
وَالْأَصْهَرُ أَنَّكَ مَصَادِفَةٌ فِي مَوْعِدِهِ إِذَا لَمْ تَحِثْ عَنْهُ ، لَدَيْكَ
يَقُولُونَ إِنَّ سَبْعَةَ وَتِسْعِينَ بِأَلْفَةٍ مِنْ مَكْتَشَفَاتِ الْحَيَاةِ ظَهَرَتْ لَنَا
مَصَادِفَةٌ .

وَيَقُولُ سَمَحَاتُ فِي آيَةِ الْكَرْسِيِّ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (٢٥٥) [البقرة] فَإِنْ صَادَفَ لَا يَحِيطُ إِلَّا
بِعِلْمِ الشَّيْءِ الْمُسْتَعْرِضِ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ ، وَلَا يَحِيطُ بِهَذَا الْمُسْتَعْرِضِ إِلَّا بِعِلْمِهِ
تَعَالَى وَإِدْنِهِ ، حِينَ يَأْتِي بِمِيلَادِ الشَّيْءِ وَظُهُورِهِ .

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ ﴿وَالَّذِينَ تَرْجِعُونَ﴾ (٨٢) [س] أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
فَكُونُوا عَلَى ذِكْرِ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ فَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِنِعْمَةِ الْخَلْقِ تَرَهَّبَهُ
نِعْمَةُ الْإِعَادَةِ وَالْمَرْجِعِ ، فَانْتُمْ مَا خُلِقْتُمْ عَيْنًا ، وَلَنْ تُتْرَكُوا سُدًى

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات (١)

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ فَالَّذِينَ جَرَّتْ رَحَىٰ ۚ
فَلَنَلِيَنَّ دَكْرًا ۚ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝

هذا الأسلوب يُسمَّى أسلوب القسم ، الله تعالى هو المُقسَمُ يُقسم على ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات] وقد أخطر الرسول ﷺ بمراده تعالى في القسم فإنه يريد منا أن أقسمنا ألا نُقسم إلا به سبحانه ، لكن بالاستقراء رأينا أن لحق سبحانه بقسم بحلق من خلقه ، فيقسم بالملائكة ويُقسم بالحيوان ، ويُقسم بالجيال ، ويُقسم بالعجرات الخ قالوا لأن الله تعالى يقسم بما يشاء على من يشاء أم أنت فلا تقسم إلا بالله ، لأن القسم تعظيم لمقسم به ، وينبغي ألا يكون

(١) سورة الصافات هي السورة (٣٧) في ترتيب المصحف الشريف - عدد آياتها ١٨٢ - وهي سورة مكية في قول الجميع ، كما قاله القرطبي في تفسيره (٥٦٩٩/٨) ، وقد ذكر السيوطي في الإنشاد (٢٧/١) نقلاً عن ابن الضريس في « فضائل القرآن » أن سورة المافات برأت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان ، وعلى هذا فتكون سورة الصافات رقم (٥٥) في ترتيب نزول القرآن الكريم

مُعْطَمًا عِنْدَ الْمُؤْمِنِ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ (وَحْدَةَ عَلَانٍ
وَرَأْسَ عَلَانٍ) فَمَنْ كُنْتَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ كَيْتَ حَاءٍ فِي الْحَدِيثِ
الشَّرِيفِ « مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ »

فما ظهر ما يكون ظاهره قسمًا بغير الله ، فاعلم أنه لا يُقسمُ
قسمًا ، وخصوصًا إِنْ حَاءٍ مِنْ عَالَمٍ أَوْ يَقِينِي كَأَنْ يَقُولَ (وَحْيَاةِ
أَبُوكَ يَا عَلَانُ تَعْمَلُ كَذَا وَكَذَا) ، هَذَا لَيْسَ قِسْمًا إِنَّمَا هُوَ مَسْأَلَةُ
الْقِسْمِ إِنْ تُقَسِّمُ عَلَى شَيْءٍ ، حَدِّثْ أَوْ لَمْ يَحْدِثْ إِنَّمَا طَلَبُ الشَّيْءِ
سَمَى مَسْأَلَةً ، كَذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ تَعَالَى ﴿ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ
﴿ [النساء] أَيْ : وَبِالْأَرْحَامِ فِي قِرَاءَةِ مَنْ جَرَّ الْأَرْحَامَ

وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَقْسِمُ بِمَا يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَأَنْتَ لَا تَقْسِمُ إِلَّا
بِاللَّهِ ، لِأَنَّ الشَّيْءَ هُوَ يَكُونُ نَاهِيًا فِي بَطْنٍ ، وَبِكَيْفِهِ عِنْدَ حَالَتِهِ عَظِيمٍ
وَلَهُ مَهْمَةٌ تَعْمَلُ أَنْتَ عَنْهَا ، وَحِينَ يَحْلِفُ اللَّهُ بِهِ بِمَا يُلْفِتُ بَطْنُكَ إِلَى
أَهْمِيَّتِهِ وَدَوْرِهِ فَمَثَلًا لِمَا فَخَّرَ الْوَحْيَ عَنْ سَعْدِ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
لَمْ يَلْفِتْ الْكَفَّارَ إِلَى الْحِكْمَةِ مِنْ ذَلِكَ .

وَالْحِكْمَةُ أَوْ الْوَحْيُ كَانَ يَثْقُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، حَتَّى سَمِعَ مِنْهُ
الْحَبَدُ ، وَحَتَّى أَنْ حَبِيْبَهُ لِيَتَقَصَّدَ عَرَفًا ، وَإِنْ يَرَى الْوَحْيَ عَنْهُ وَهُوَ
عَلَى دَانَةٍ فَإِنَّهَا تَنْزُّ وَتَنْجُو بِهِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْوَحْيَ ثَقِيلٌ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٦ ٦٦) كتاب الأيمان رواية (٢) عن عبد الله بن عمر عن
رسول الله ﷺ أنه أترك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله
، ألا إن الله عرجس بهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفًا فلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْنَعِ
٢ قالت عائشة رضي الله عنها لقد رأيته ﷺ يرون عليه الرحي في اليوم الشديد البرد
مقصم عنه وإن حبيبه لينقصد عرفًا أي أن عرقه كثير في يوم شديد البرد [أخرجه
البخاري في صحيحه (٢) كتاب بدء الوحي]

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٩٢) موصولاً من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ لا يستوي القاعدون من الصوميين والمجاهدون في سبيل الله ﷻ
وفحده على قحدي ، فثقلت عليّ حتى جفت أن أرضنّ محدي

كما قال سبحانه ﴿إِنَّا سَلَقْنِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (٥) [العرمل]

فجاءت فترة انقطاع الوحي رحمةً برسول الله ، وتسريةً عنه ، وتحفيظاً من معانيه ثم ليشفاق هو إلى الوحي معاونه من جديد ، لم يلتفت الكفار إلى ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاء^(١) يعني تركه وهجره وجعاه ، وراضح ما في هذا القول من تدقّص ، فعند الإيمان يُكذّبون بمحمد ورب محمد ، وعند الشقوة يقولون : إن رب محمد قلاء ويعترفون أن له ربا^(٢)

لذلك أراد الحق سبحانه أن يوضح لهم هذه المسألة ، وأن يُظهر عباءهم بهذا المقسم الذي جاء مناسباً للموقف ، يحمل إشارة لطيفة إلى العلاقة بين المقسم به ، والمقسم عليه فقال سبحانه ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) [الصحر]

وامعنى لك يا محمد أهدب بالوحي ، وكان لا بُدَّ أن يسرع بشيأى نفسك إله وتطله وحين ترتاح سُبْحَفْ ذلك من معاناتك فى استقباله ، وسوف تذوق حلاوته من جديد ، ويكون عليك أيسر وأسهل ، وأتى الحق سبحانه بهذا القسم بشيء موحود مُشاهد لا يختلف عليه اثنان .

فهم يعرفون ﴿الضُّحَىٰ﴾ (١) [الضحى] حين تشرق الشمس ، وتنير لكور ، ويعرفون ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ (٢) [الضحى] بمعنى سكر وهذا والإشارة هنا فى أن الضحى إذا جاء ثم تلاه الليل بسكونه ، هل يعنى هذا أن الضحى لن يعود مرة أخرى ؟

(١) لورد ابن كثير فى تفسيره (٥٢٦/٤) أن جندب بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه فسر الله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) [الضحى]

لا . من سيأتي المصحى من جديد بعد أن تكون قد ارتفعت من
نعب السهر والسعى فيه واستعدت نشاطك ليوم جديد ، ومعنى
﴿وَلَا جَزَاءُ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)﴾ [المصحى] أى أن عودة الوحي ثانية
ستكون أحلى من الأولى . وأخف وأيسر .

إذن : الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، ليُعلمنا أن
هذه الأشياء عظيمة عند خالقها ، لكن غفينا نحن عن وجه العظمة
فيها ، ويُقسم بما يشاء من مخلوقاته يُقرب لنا بواسطة المعلوم شيئاً
مجهولاً

هذا يقول تعالى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (٥)﴾ [الصافات] الواو تسمى واو
القسم مثل التاء والياء نقول والله وبلىه وتالله . وقد يستغنى عن
حروف القسم ، ويستند عليه باللام في جواب القسم ، كما في
﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [يس] وأنت لا تقسم على الشيء بداية ،
ولأننا تقسم إن أنكر المخاطب لتؤكد له الخبر ، ويأتي القسم والتأكيد
على قدر الإنكار .

فيما قال الحق سبحانه مثلاً ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦)﴾ [القيامة]
أو ﴿لَا أَقْسَمُ بِهِذَا الْبَلَدِ (٧)﴾ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٨) وَالْأَمْرُ مَا رَدُّ (٩)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (١٠) [الد] وفى ﴿لَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ الْحُومِ
(٧٥) وَنَهْ لِقَسَمٍ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة]

ومع هذه الآيات قَسَمَ بدليل أن له جواباً ، لكن لماذا نَفَاهُ القرآن ،
فقل (لا أقسم) قالوا لأن بقى القسم هنا أشد من القسم امشيت .
لأن القسم إنما جاء بتأكيد المقسم عليه . ومعنى (لا أقسم) أن هذا
أمر واضح لا يحتاج إلى قَسَم ، القَسَم يأتى لتأكيد أمر مكر أو مشكوك
فيه ، أما هذا الأمر فواضح بَيِّن ، ومع ذلك سأقسم لك

ومعنى ﴿والصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ فالراجمات (جرا) (٢) فالنَّالِيَاتِ ذُكُّرًا (٣) ﴿[صافا-] قالوا الصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ هي الملائكة تُصَفُّ والصَّفُّ نسجم مجموعة بحيث لا يشذ فيها فرد عن فرد ، فالصَّفُّ لا يعنى مجرد الجمع ، إنما الجمع فى انسجام وانصباط ، لذلك النبى ﷺ كان فى استعراض الحنود فى المعركة يسوى الصعوف فلما رأى رجلاً شذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه فى بطنه ليستقيم فى مكانه من الصف وكان الرجل محمداً لرسول الله ، فقال أوجعتنى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ « هذه بطنى اقتصر منها » فأقبل الرجل يُقبل رسول الله ويقول يا رسول الله لقد أخطأت أن استشهد ، فأحسنت أن يكون آخر عهدى بالحياة أن يمس جسدى حسدك الشريف والصف دليل الانظام والالتزام والاستعداد لتلقى الأوامر ، وهكذا تُصَفُّ الملائكة فى انتظار الأوامر يقوم كل منهم بمهمته وبوره

وإذا استعرضت مادة (ص ف ف) فى القرآن الكريم تجدونها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿فاحمقوا كيدكم ثم اتشرا صفاً﴾ (١٤) [طه] يعنى مجتمعين متحدين ، وقال ﴿رجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ (٢٧) [الفجر]

وقال ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صاففاب يقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ (١٩) [الملك]

صحيح ، ترى الطائر فى اسماء ناسطاً أحببته هكذا لا يحركها ومع ذلك لا يقع ، كذلك تراه يقبض أجنته وبطن أيضاً ثابتاً فى مكانه ، فما الذى مسكه لا يقع ؟ أمسكه الرحمن وكان فى إمساك الطير الذى نراه رتبته دليلاً على صدق الحق فى

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ رَأَيْتَا مِنْ أَمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ يَدِهِ (١١)﴾ [فطر]

إنَّ إمساك الطير نموذج لإمساك السماء ، إلا أنَّ هذا إمساك مؤقت ، وذاك إمساك دائم

ويقول عن الملائكة عموماً ﴿وَإِنَّ لِنَحْنُ الصَّافَّاتِ (١٢)﴾ [صافات]
يعني نقف في انضباط منتظرين الأوامر والصف هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحد على أحد ، ويدل على الرهبة ممَّن أنت أمامه مصغوراً

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في نعيم الجنة ﴿وَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ (٥)﴾ [الفاشية]

بعض العلماء يرى أنَّ الصافات لها معنى أوسع ، ويراد بها مجال نشر الدعوة والإعلام بها ، والدفاع عنها ، وحماية الاختيار في الإسلام وفي القتال ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيِّنَاتٌ مَرْصُوفُونَ (١٣)﴾ [الصد] معنى ﴿في سبيله (١٤)﴾ [الصد] أي من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود في ساحة القتال ، وينبغي أن يكون هؤلاء وهؤلاء صفّاً واحداً كأنه النيار المرصوص ، لذلك قال تعالى ﴿فَلَوْلَا نُرٌّ مِنْ كُلِّ فَرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (١٦٦)﴾ [آتوبة]

(١) المعرفة الوسادة الصغيرة يُسجد إليها ويُكاف عليها وجعلها مارق [القاموس
تقويم ٢ ٢٨٨]

فالمعالم لا يقاتل ، لأن مهمته حمل الدعوة ، والمقاتل يموت في سبيلها ويضحى بحياته من أجلها ، وهذه التضحية هي التي تثبت صدق الدعوة لأن الدعوة لو لم تكن صادقة في نفس صاحبها لما صحى من أجلها ، ثم تضحيته بروحه دليل على ثقته أنه ذاهب إلى خير مما هو فيه

ومعرفون قصة الصحابي الذي سمع كلام رسول الله عن أجر الشهيد ، وكان في فمه ثمرة يعضها ، فقال لرسول الله أوليس بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلوني ؟ قال بلى قال فالتفت للثمرة واستنطقا أن يعضها وأسرع إلى ساحة القتال^(١)

إن القتال في سبيل الله ، إما باللسان وإما بالسنان ، ولا بد أن يعلم أن المقدس الذي يحمل لسيف لا يحمله بذكره غير المؤمن على الإيمان ، لأنه لا إكراه في الدين ، إنما يحمله ليحمي حريته واختياره هو لهذا الدين ، بدليل أن الإسلام فتح بلاداً كثيرة وظلت على دينها

والصف الواحد ليس فقط للمقاتلين في ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملي الدعوة ، فيحب على هؤلاء العلماء أن يكونوا في دعواهم صفاً واحداً لا يشقه خلاف ، وما كان في كلام الله مُحْكَمًا التزموا به وما كان مَقْشَافاً لا يُكْفَرُ بعضهم بعضاً بسببه .

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد أرايت إن قُتِلت قاتباً أم ؟ قال في الجنة قال قاتباً في يده ، ثم قاتل حتى قُتِلَ أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦ ٤٧) وقال ابن حجر لم أقف على اسم الرجل ورغم أن يشكوا أنه عمير بن الحمام واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه ذكر عمير بن الحمام ولكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر ، فالذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين ، والله أعلم

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۖ﴾ [الصافات] قالوا هذه هي مهمة الملائكة أن ترحل الشياطين الذين يسترقون السمع ، كما قال تعالى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَعْبُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمِعْ أَلاَّ يُعَذِّبْ لَهُ شَهَابًا مِنْهُمَا﴾ [الحج]

وكانت لشياطين قير رسالة محمد ﷺ تصعد في السماء ، ويسمّع لأخبار ، ويُمكِّنهم الله من بعض لأخبار والأوامر فيسمعونها ويُلْقُونَهَا إِلَى وَلِيَّائِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ ، فيريدون عليها أشياء باطلة ، ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، فلم كانت بعثة النبي ﷺ مَنَعُوا مِنْ اسْتِرْفَاقِ السَّمْعِ وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الشَّهْبَ تَنْقِضُ عَلَيْهِمْ فَتَحْرِقُهُمْ

فإِنْ قُلْتَ كَيْفَ ، وَبِحَسْبِ زَكِيٍّ لِنَجْوَمٍ عَلَى كَثْرَتِهَا ، هِيَ هِيَ لَا تَنْقُصُ ، نقول لأن لنجوم منها نجوم في السماء للزينة ومنها نجوم للرجم ، بدليل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا السَّمَاءُ الذَّيْبُ برِيقِ الْكَوَاكِبِ﴾ [حفظاً من كل شيطان مارد] (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَمَلِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصٍ (٩) [الصافات]

أما ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصافات] قالوا هي المبررات الوحى على الرسل ، لأنهم يتلوه عليهم ، بعد أن نزلوا به من عند الله

آخِرُونَ فَهَمُوا ﴿وَالصَّالَاتِ﴾ (١) [الصافات] على معنى آخر يتفرع عنه معنى أخرى لسراحت زجراً والتأنيت زكراً ، قالوا معنى ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ (٦) [الصافات] أى المؤمنين يُصَفُّونَ لِلصَّلَاةِ ، لأنها عماد لدين ورمز للاجتماع والوحدة ، ومن تمامها أن تكون في صفوف مستوية .

بذلك قال النبي ﷺ « سَوُّوا صفوفكم فإن تسوية الصفوف

من إقامة الصلاة^١ ، وقال ، ن الله لا ينظر إلى الصَّفِّ الأعوج^٢ ،
والصفوف في الصلاة دليل على الانصباط ، وأنه لا يشد أحد عن
الآخر ، ودليل على الخضوع والوقوف في أسب بين يدي الله ، إذن
فكما نُصَفُ الملائكة نُصَفُورُ أُنتم ، ولكلُّ صلاته وعبادته

فإذا ما سويها الصفوف واستمعنا فيها لله تعالى ندخل في
الصلاة ونقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهذا زجر
للشيطان ، لذلك قال ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ فالراجزات رجراً ﴿٢﴾ [الصافات]
ومعنى ﴿فَالثَّانِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات] أي ما يتلو بعد ذلك من كلام
الله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] مائة يوم
الدين ﴿٣﴾ [الافتحة]

هذا هو لقسم ، فما الْمُقْسَمُ عليه انقسم عليه قوله سبحانه ﴿إِنْ
إِنَّهَمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات] وهذه العبارة مع أنها جواب لقسم ، إلا أن الله
تعالى أكدها أولاً بـ (إِنْ) ثم أكدها باللام في (لَوَاحِدٌ) ، وذلك لأنها تمثل
أساس الدين وحوهر لعقيدة ، فالإله الحق واحد هو المهيمن على هذا
كله ، وقلنا إن واحد غير أحد واحد يعني ليس له شأن مثله ، أما أحد
في معنى أنه غير مركب من أجزاء في تكوينه ، فهو سبحانه في ذاته أحد

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾

(١) حجة البخاري في صحيحه (٧٢٢) وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٢) كتاب الصلاة -
باب تسوية الصفوف (٢٨) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه
(٢) مما ورد في هذا المعنى ما أخرجه أحمد بن حنبل (٩٧/٢) وأبو داود في سنن
(١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ، أنيتموا
الصفوف ، وحادوا بين المناكب ، وسدوا الفلل ، وليتوا بأيديهم إيمانكم ، ولا تدروا ترجعن
لشيطان .

وفي آية أخرى قال ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [١٦] ﴿صه﴾ وهذا الذي تحت الثرى هو الذي يحتاج منا إلى بحث لنصل إليه ونكتشفه ونُخرجه كما قلنا من عالم الملكوت إلى عالم الملك .

فما قال ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [٥] ﴿الصافات﴾ وفي موضع آخر قال ﴿يَرْبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [٤] ﴿الصَّافَّاتِ﴾ [إسن] الحق سبحانه يُنْفِي لالمحبة لا لتقاط ، لدهنى من الألفاظ موصفاً ، فما دام هناك مشارق إس لابد أن يقابلها مغارب ، لأن الشمس لا تشرق على قوم إلا وتغرب عن آخرين ، إسن - عرفناها باللروم .

وحين نستعرض هاتين الكلمتين في كتاب الله نجد أنهما تأتيان مرة بصيغة المفرد ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [٩] ﴿المزمل﴾ ، وتأتى بصيغة المثنى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [١٧] ﴿الرحمن﴾ ، وتأتى بصيغة الجمع ﴿يَرْبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [٤] ﴿الصَّافَّاتِ﴾ [الصَّافَّاتِ]

ذلك لأن ، خاطب الإنسان الواحد في المكان الواحد قال المشرق والمغرب ، لأن لكل مكان مشرقاً ومغرباً ، فإن تعددت الأماكن تعددت المشرق والمغرب فنحن مثلاً في القطر الواحد نلاحظ أن مغرب القاهرة غير مغرب الإسكندرية فإذا نظرنا إلى كل الأمكنة في الكرة الأرضية علمنا أن المشرق والمغرب لا تتناهى ، فعلى كل نصف ثابته مشرق ومغرب .

لذلك قلنا من حكمة الخالق سبحانه في دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس أنها تُوزع مقومات الحياة في الكون كله ، فلو ظلت الشمس مواجهة لمكان واحد لاحترق ، ولو طلّت عابئة عن مكان تتجمد ونتيجة هذه الحركة يظل الحق سبحانه معبوداً في كل

أو أن نكل عبادك ، كما سبق أن أوضحنا أنه في اللحظة الواحدة يُصلى
الصبح عند قُوم ، والظهر عند آخرين ، والعصر عند آخرين ،
والعرب والعشاء ، وهكذا على مدار اليوم واليلة .

ما قوله تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (١٧) [الرحمن] قالوا
المشرق والمغرب ، أو مشرق الصيف ومشرق
الشتاء

ثم يقول سبحانه

﴿ إِنَّا نَزَّاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةَ الْكَوَاكِبِ ۖ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ لَا يَسْمَعُونَ إِلَىٰ آلَاءِ الْآلِئِ وَلَا يَذْقُونَ
مِنْ كُلِّ حَانِبٍ ۚ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۙ ﴾ (١٨)

نعم ، حين نظر إلى أسماء ليلاً نحتها مَزْدَانَةٌ بالنجوم تتلأ ،
وفي هذه النجوم عجائب وأسرار عرفها العربى الأُمى ، فعرف السحيم
وعرف اسمه ومكانه وحركته ، وهدى به فى سيره فى الصحراء ،
كما قال سبحانه ﴿ رَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٦) [النحل]

وحين تتأمل هذه النجوم فى السماء ترى أن الله تعالى أراد أن
يرحمك من حرارة الشمس ، ونفى لنا آثار الصوء بهتدى به ليلاً ،
لأن هذه النجوم إنما تستمد ضوءها من ضوء الشمس

ثم للكواكب مهمة أخرى ﴿ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ ﴾ (١٧) [الصافات]

(١) عن ابن عباس قال : الشمس مطلع فى الشتاء ومغرب فى الشتاء ، ومطلع فى الصيف
ومغرب فى الصيف غير مطلعها فى الشتاء وغير مغربها فى الشتاء . أورده السيوطى فى
الدر المنثور (٧/٦٩٥) وعزاه بسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر
وابن أبي حاتم

يعنى تحفظا هذه الكواكب من الشياطين لأنها تنقصر على الشياطين فتحرقها ، وهذا النوع يسمونه النيارك ، ما زينة الكواكب مساقمة لأنها لا تدخل لها بهذه المسألة ، أم الدحوم المحصصة للشيطان المارد ، فلا بد أن تتناقص

ومعنى (المارد) أى : المتمرد على منهج ربه ، لأنه وارث لإبليس يقف من ذريته نفس الموقوف الذى وقفه إبليس من آدم ، فإن قلب الله تعالى يريد أن يسود منهجه الكون ، يسود السلام والأمن والطمأنينة فلماذا إن يطلق الشيطان المارد ؟ يقول ليؤصل الإيمان في نفس المؤمنة مع وجود المخائف ، ولا فما العيزة إذا كان الجميع مومنين طائعين ، إذن لا بد أن نصي أهل لإيمان وأن نمحصهم لنعلم أهل الثبات ، لأنهم س يحملون دعوة بطل مدؤف إلى أن تقوم الساعة ، فهذه لا يحملها إلا أولو العزم

وقوله ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدَّرُونَ مِنْ كُلِّ حَاسِبٍ (٤) ﴾ [الصافات] جاءت هذه الآيات بعد أن أقسم الله بالزاجرات رجرا ، وقلنا من معانيها أن الملائكة برحر الشدصين عن استراق السمع في الملأ الأعلى حيث كانوا يحطون بعض الجرثيات ويلفونها إلى أوليائهم من الكهنة فيضيف هؤلاء إليها كثيرا من الكذب ليضلوا به الحق

وقد كثر هذا الاستراق قبل بعثة النبي ﷺ ، فلما نعت ﷺ منعهم الله من استراق السمع ، وسلط عليهم أمشهب تزجرهم وتنقص عليهم ، كما حكى القرآن ، ﴿ وَأَنَا كَذُفَعْدُ مِنْهَا مَقَاعِدُ تُنْمَعُ فَسْ يَسْمَعُ لَأَنْ يَجْذُلَهُ شَهَابًا مَّضْدًا (٩) ﴾ [نجر] ذلك تكريما لرسالة محمد أن يدنس عليها تدخل الشياطين بشيء يفسد على الناس عقائدهم فقال ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ رَجْرًا (٢) ﴾ [الصافات]

ومن عجائب الرُّجُر أنه يأتي على معنيين فمعنى رَجُرْتُ
إنساناً يعني نهيتُهُ عن عمل شيء ، أما رَجُرْتُ الدابة يعني أحلتها
على العسير ، ومن ذلك قول الشاعر
فَبِئْسَ وَجِحا لِقَيْنِ نُوْعَدَ بَيْنَنَا فَبَهْدًا لَهُ عُسْشٌ وَدَلِيتُ فِي عُسْشٍ
فَلَمَّا أَلَحْتُ لِلْوَصَارِ صَبَاتِي رَجَرْتُ حَوَادِي أَنْ يَطِيرَ وَلَا يَمْشِي
وفي المعنى الآخر ، قال الشاعر :

لَسْمٌ يُنْسَمِقُ فَيَد مَسَا لِلْمَوْدَةِ مَطْرَحًا
إِنِّي رَجَرْتُكَ عَنْ حَنَا فَرَجَرْتَنِي أَنْ أَصْحَا

فالرُّجُر يأتي بمعنيين مقصدين

ومعنى ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٨) [الصفات] فرق بين سمع وتسمع سمع
يعني دون قصد منه ، إنما تسمع يعني حواس وتكلف أن يسمع
بصرف لئلا يسمع شيئاً أو لم يسمع

والمعنى أن هؤلاء الشياطين مُعَيَّنُوا بعد بعثته ﷺ من تسمع
الأحبار في الملا الأعلى ، هم يحاولون ، لكن نحرهم أملائكة
وتنقض عليهم الشُّهَبُ

﴿وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٨) [الصفات] والقذف لِرُحْم بحيث تكون
الصرجة دافذة ﴿مُدْحُورًا﴾ (١٠) [الصفات] يعني مدمومين مطرودين ،
والمدحور هو المطرود بإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصٍ﴾ (٩) [الصفات] يعني
دائم لا يتغير ، ومنه قوله تعالى ﴿وَهُ الْذِينَ رَاصِبًا﴾ (٥٤) [البحر]
يعني دائماً فالذين هو هو واحد مع كل الرسل ، ووصف العذاب

(١) الصبابة الشوق والعشق قال ابن الأعرابي صب الرجل إذا عشق [لسان العرب -
مادة صيب]

(٢) الحنا قبيح الكلام والحنا المحش في القول [اللسان - مادة حنا]

هذا بأنه دائم لأنه حينئذ منه وبين إتمام مهمته في استراق السمع والنقطة الأخبار من الملاء الأعلى

﴿إِلَّا مَنْ خُطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ﴾ (١)

المعنى أن بعض هؤلاء لمرءة سيستطعون حطف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها وتوصيلها إلى أوليائهم والخطف نوع من حيازة الملكية بدون وجه حق ، فكلُّ منّا حيازة ومكنة ، ولا نُحرجه عن ملكته إلا مَنْ بأحدها منه اعتداء وظلماً ، ولهذا الاعتداء والظلم وسائل متعددة منها الخطف وهو أن يؤخذ منك الشيء خطفًا يعنى بسرعة ، لكن على مرأى منك ولا تستطيع منعه ، لأن الشيء بعيد عن متناول يدك ، كالورد الصغير يحطف شيئاً من البائع ويجرى به .

فإن كان صاحب الشيء قريباً واستطاع الإمساك به فمنازعه المعتدى وتعلب عليه وأخذه فهو غصب ، فإن أخذ الشيء دون علم صاحبه فهو سرقة أما إن كان مؤتمناً على المال وأخذ منه فهو اختلاس هذه كلها وسائل لحيازة أموال الغير دون وجه حق

كذلك يحطف الشيطان بعض لأخبار ويحاول الفرار بها ، لكن هيهات له ذلك ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ﴾ [الصافات] يعنى كوكب يقصر عليه ، ومعنى ﴿ثَائِبٌ﴾ [الصافات] يعنى نافع يحترق الأجواء ، حتى يصل إلى هدفه في أسرع وقت^(١) .

فإن قللت علماً لا يمنع بداية من استراق السمع ، قلوا فرق بين أن يمنع من الشيء أصلاً وبين أن يعاقبه ثم لا يبعد به ولا

() عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الحى يحيى ميسروا فإذا سرق السمع قرأ من بالشهاب قال لئلا يله كان كذا وكذا أورده السيوطى فى الدر المنثور (٨٠/٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر

يستفيد منه ، إن الله يُمكنه من بعض الأحبار بالفعل فسمعها ، لكن
تُعالجه الزاجرات والشُّهب من كل ناحية فتكون حسرته أعظم .
حسرة أنه تعب وتحمل المشاق في استراق السمع والحطف ،
وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع

فَسَيَقُومُهُمْ أَهْلُ أَسَدُ خَلْقًا مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ

مَسْطُوحَاتُ الْأَرْبَعِ

قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْتِهِمْ﴾ [١٦] [انصاف] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ يعنى سألهم ، واستفتى طلب الفتوى ، لان الألف والسين والتاء تدل على الطلب ، والفتوى من الفتوة ، فحين يكون الإنسان بصدد شيء ، يريد أن يعقده ، ولا يعرف فيه طريق الحق والصواب يذهب إلى من هو أعلم منه يستفتيه يعنى يطلب منه الفتوى أو الفتوة ، واقرة الدافعة له على العمل ، فكانه كان ضعيفا وأرد أن يقوى برأى غيره

فَكَانَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَبَعَالَى - اسْمًا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولُوا ، وَأَنْ يَحْشُوا
 لَهُمْ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاتَّقِ مَنْ أَنْ اشْخُصُوا لَنْ يَجِدُوا إِلَّا قَوْلَهُ الْحَقُّ
 يَطْغُونَ بِهَا ، لِذَلِكَ لَمْ يَأْتِ سُبْحَانَهُ بِالْمَرَادِ إِحْصَارًا ، إِنْ أَتَى بِهِ إِقْرَارًا
 مِنْهُمْ وَشَهَادَةً ، لِأَنَّ الْحَبْرَ يَحْضُرُ الصَّبْقَ أَوْ الْكُذْبَ ، أَمَّا الْإِقْرَارُ فَلَا
 يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْكَارَهُ ، لِذَلِكَ قَالُوا ، الْإِقْرَارُ سَعْدُ الْأَمَلِ

ومضمون اسوآن ﴿لَا سَكَنَ لَهُمْ أَهْمٌ أَشَدُّ حَقًّا أَمْ شَرُّ حَقًّا﴾ (١١) ﴿[الصفات] ٩﴾
يعنى أهم وأعظم وأشدَّ حَقًّا من لسماء والأرض ، ثم لم يأت
بالحواس لوضوحه . ولن يكون إلا أن خلق السماء والأرض أشدَّ

من خلقهم وأعصم . لذلك قال سبحانه في موضع آخر ﴿يَخْلُقُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَسَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [مائدة]
فإن أردت أن تدلل على هذه المسألة فتأمل خُلقك وخلق السموات
والأرض ، فالسما والارض مع ألهما بخدماك ، إلا ألهما أطول عمراً
ملك وأقى ، فهما منذ خلقهما الله باقيان لم يزولا أما الإنسان
فيموت وهو طف ، ويموت وهو شاب ويموت وهو شيخ يموت
ويترك التركة باسمة تتوارثها الاجدل .

إن هما أشد وأقوى لانهما مخلوقان حلقة دائمة ، وأقوى من
باحية ألهما محكومان باختيارهما حين قالنا ﴿أَتَيْتَا طَائِعِينَ﴾ [مصدق]
فاحتارا أن تكونا مُسَخَّرَتَيْنِ قال تعالى ﴿إِنَّ عَرِضًا الْأَمَانَةَ عَلَى
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ
ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب]

وقلنا إن هناك فرقاً بين قدره النفس على تحمل الأمانة وقدرها
على الأداء ، فقد تتحمل الأمانة وتنوى أداءها ، لكن لا تصعن نفسك
عند الأداء ، فربما تغيّرت الظروف ، أو طرأ عليك ما يحول بينك وبين
أدائها ، لذلك امتنعت السموات والأرض عن حمل الأمانة وخرجت
عن مرادها لمراد ربها ، فكانت مُسْحَرَةً . دن هي أيضاً مُحِيرَةٌ إلا
أنها احنارت بكلمة واحدة مسححة على الرمز كله ، أما الإنسان
فاحصار أن يكون مختاراً ينفذ أو لا ينفذ

ثم إن لسماء والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات وكواكب
وأجرام وأفلاك تسير وفق نظام دقيق مُحْكَم ، لا يشذ ولا يتخلف أبداً :
﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ بِسَجْدَانٍ (٦)﴾ [الرحمن]

وقال ﴿ لَا اِسْمُ يَمِينٍ لَهَا اَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اَلَيْسَ سَابِقُ اَسْهَارٍ وَكُلٌّ فِي فَلَكَ يَسْجُونَ ﴾ (٤٠) ﴿

[يس]

أما الإنسان فيتخبط في الحياة ، ويخالف منهج ربه ، ويحرف عن الطريق الذي رُسم له ، دن أيهما أعظم ختفاً وأشد تكويناً ، وأصح أداء ؟ لا يسع هؤلاء الكفار رغم كفرهم إلا أن يقولوا السماوات والأرض أشد وأعظم من خلق الإنسان

ومثال ذلك حين سألهم الله ﴿ وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُوا اللَّهُ ﴾ (٨٧) ﴿ [الحرف] ﴿ وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقُولُوا اللَّهُ ﴾ (٣٨) ﴿ [المر] لأن هذه كلها حقائق لا تُنكر ، حتى من الكفار

ثم يسوق لهم الحق سبحانه دليلاً على صدق هذه المسألة . فيقول ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّأَرْبِ ۝ ﴾ [صافات] يعني هذا أصلهم ، فأيهم من خلق السموات والأرض ؟ ومعنى ﴿ لَّأَرْبِ ۝ ﴾ [الصافات] يعني طين متماسك بعضه ببعض ، فهو وسط بين السيولة والصلابة ، يعني أشبه ما يكون بطين الصلصال الذي نوره على لتلاميذ في المدارس والطين تراب وضع عليه الماء فإن زاد الماء صار لطين لبناً يسيل من يدك ، وإن قل الماء جف وتصلب

لذلك وقف المستشرقون عند مراحل التكوين الإنساني يعترضون من أي شيء خلق الإنسان ، ولقرآن قال ﴿ مَنْ طِينٍ ﴾ (٣) ﴿ [المؤمن] و ﴿ مَنْ تُرَابٍ ﴾ (٥) ﴿ [الحج] و ﴿ مَنْ حَمِئَتُونَ ﴾ (٣٢) ﴿ [الحجر] و ﴿ مَنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (١٤) ﴿ [الرحمن] وقد عاب عنهم أن هذه مراحل

للشيء الواحد كما قلنا ، فالماء يُوضع على التراب فيصير صينا
ولو تُرب هذا الطير إلى أن يعطر أو يتعفن يصير حمأ مستورا ،
فإن ترك حتى يجف يصير صلصلا

الحق سبحانه يُحدثنا هنا من الخلق الأول للإنسان ﴿فَاسْنَفَهُمْ أَهْمُ
أَشَدُّ حُلُقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنْ خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَأَرْبِ (٦)﴾ [نصلمات] لأن آدم عليه
السلام حُقق من لطير ثم خلقت بعده حواء ، ولقرآن قصص عليهما
قصة خلق آدم ، لكن اكتفى في خلق حواء بقوله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا
رَوْحَهَا (٦)﴾ [النساء]

قالوا ﴿مِنْهَا﴾ يعنى من جنس تكوينها ، فيصح أن تكون
حواء قد خلقت مثل آدم من الطير ، أو حُفَّتْ من صلح من أصلاعه
وفى كلتا الحالتين تعود إلى أصل الطير والله تعالى يخلق ما يشاء
وسوى أن بيانا لطلاقة قدره في عملية خلق الإنسان ، وأنها استوعبت
كل الصور العنصرية لهذه العملية ، والله سبحانه يخلق من لا أب
ولا أم ، ويخلق من أب بلا أم ، ويخلق من أم بلا أب ، وقد يجتمع
الأب والأم ولا يحدث بينهما إنجاب .

يقول الحق سبحانه : ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِبْرًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَرُ (٦)
أَوْ يَرْوَحُهُمْ ذَكَرًا وَإِبْرًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا (٧)﴾ [الشورى]

إن حُقق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من الطير
وَحَقَّقَتْ من جسده روحه ثم جاءت انذرية من آدم بعد أن غارق

(١) الحما والحما الطين الأسود والمسمون المصبوب في قالب إنسانى أو مصور
بصورة إنسان أو طير كاللخار صالح للتصوير والصلل [القاموس الغريب ١/٢٢١]

الطبيعة وصدر إنساناً فمدح وإنْ حنن من سبل إنسان ، إلا أنه يعود
في أصله إلى الطين ، فإنْ قُلْتُ أين الصينيّة ، وقد نشكّل شكلاً آخر
غير الطين ، بدليل أنه إذا اسبحم بالماء لا يدوب كما يدوب الطين
وتنفكك جزئياته

يقول لا بُدَّ أن يرد الإنسان الأصل أو العرع إلى الأصل الأول
وهو الطين لأن الإنسان يتوالد ويتكاثر بواسطة الحيوان لمنوى في
الذكر والبوصه في الأنثى ، فمن أين يأتي هذا وهذه ؟ من الدم ،
والدم نتيجة الغذاء ، والعداء مصدره الأرض والطين إذن مسؤول
لا محالة إسم الطين لكن من الطين ميرة بواسطة ، ومرة بدون
واسطة

واحق سبحانه نبها إلى هذه المسألة في قوله تعالى ﴿سُرِّبَهُمْ
آيَاتُنَا فِي الْأَلْقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ﴾ [قصص]

فنحن لم نشاهد عملية الخلق ، إنما أخبرنا الله بها ، فعلمنا أن
الإنسان خلق من الطين الذي مرَّ بهذه المراحل حتى نفخ الله فيه
الروح ، ونبأ فيه لحياة ، هذا كله لم نشاهده ، لكن شاهدنا الموت
الذي ينقض الحياة ، وعلينا نحن أن نأخذ مما نشاهده دليلاً على
صدق الغيب الذي أخبرنا الله به ولم نشاهده .

ونحن تعلم أن نقص الشيء يأتي على عكس بقاءه ، فالذي يهدم
عمارة مثلاً من عدة أدوار يبدأ بالدور الأخير كذلك يأتي لموت
عكس الحياة ، فأول شيء ، نخرج الروح ومعلوم أن نفخ الروح في
الإنسان هي آخر مرحلة في مراحل الخلق ، فإذا ما فارتق الروح
الجسد عاد إلى أصله ، حيث يرمّ الجسد وتمتص لأرض ما فيه من

الماء ، ثم يتحلل الباقي ويعود إلى التراب الذي جاء منه

ثم آخر ، هو أن الإنسان الذي خلق من الطين وقوامه الغذاء الذي يخرج من الطين ، لما حلل العلماء جسم الإنسان وجدوه مكوناً من ١٦ عنصراً أولها الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الحديد ، وهي نفس العناصر المكونة للثمرة البرتغالية الحبة التي تعطينا القوة ، إذن يكون هذا دليلاً على صدق الحق - تبارك وتعالى - في قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّأَرْبَ (١٦) ﴾ [الصافات]

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِنَّا لَنَدْكُرُوا لَآيِدْكُرُونَ (١٣) ﴾

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاهُ لَفِي سَكْرَةٍ (١٤) ﴾

معنى (نَلُ) إضراب عن الكلام السابق وسدانة لكلام جديد
(عَجِبْتَ) بالفتح أى يا محمد والعجب هو استغراب وقوع شيء على خلاف نظائره ، ومن ذلك قوله تعالى فى العقائد ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمَوَانًا فَاِحْكَمْ (٧٨) ﴾ [البقرة]

يعنى كيف يحدث منكم انكار بعد أن فعلنا بكم ذلك ؟ هذا شيء مُسْتَفْرَب ، ومسألة عجيبة يعنى جاءت على خلاف ما يُستطر منكم

نكر من أى شيء عجب البى ﴿ عَجِبَ مِنْ إِنْكَارِهِمْ وَمِنْ كُفْرِهِمْ ، مع وضوح الأدلة الدامغة على صدق قضية الإيمان وقد سبقنا لهم لدليل تلو الدليل ومع ذلك كذبوا ، لذلك قال تعالى مُحَاطِباً نَبِيهِ ﷺ فى موضع آخر ﴿ وَإِن تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ (٥٠) ﴾ [الرعد]

يعنى وافق الله محمداً على أن يعجب والمعنى إن يعجب
يا محمد فقولهم عجب لكن عجب عند من^١ يجوز عجب عند رسول
الله ، ويجوز عجب عند الله تعالى ، إذن هل يعجب الله تعالى كم
تعجب ؟ قالوا نعم ، بدليل أن في هذه الآية قراءة بالصم (بل
عجبت)^(٢) بقاء المتكلم سبحانه ، وبدليل ما ورد في الحديث
الشريف « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة »^(٣)

لماذا ؟ لأنه خرج عن طبيعة تكوين الإنسانى ، أو قدر على
نفسه وتحكم فيها بحيث لم يفعل ما يفعله الشباب ، فهذا شيء
مستغرب منه ، ومعنى تعجب الحق سبحانه من هذا أنه يستغرب منه
هذا العمل ليجازيه جزاءً مستغراً كذلك

وسبق أن قلنا إذا وجدت صفة مشتركة بيننا وبين الحق
سبحانه ، فعليت أن بأحدهم في إصار ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (١) [اشورى]
ومن ذلك قوله تعالى ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (١٢٢) [النساء]
وقوله ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٥) [الأنفال]

لذلك إياك أن تقول الله خادع أو الله ماكر ، لأن هداك فرقاً بين

(١) قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبي ﷺ ، وفي قراءة شريح
وأبكر قراءة الضم وقال إن الله لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم وقراء
الكوفيون إلا عاصم بضم التاء ، واختارها أبو عبيد والقراء وهي مروية عن علي وابن
سعود قال لفراء الرقع أحب إلي ، لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس ، والعجب إن
أُسند إلى الله عز وجل ليس بمعنى من الله كمعناه من العباد [تفسير القرطبي ٥٧٠٨/٨]
بتصرف

(٢) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يعجب من الشاب يبيت له
صبوة » أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩/٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢٥ / ١)
ودكره الهيثمي في مجمع الروايات (٢٧٠/١٠) وعراه لأحمد وأبي يعنى والطبراني وقال
إسناده حسن

أسماء الله تعالى وأفعال وصف الله بها نفسه سبحانه فالمكر مثلاً من أفعال البشر يُراد به خداع الخصم والتخيل عليه لتستطيع أنت أن تنفذ إلى غرضك منه وهذا المكر يقابله مكر مثله يشاكله أو أمكر منه

والمكر مأخوذ من قولهم شحروه ممكورة ، وهي شجرة ذات عيذان ملفوفة بعضها على بعض ، بحيث لا تستطيع أن تميزها ، ولا أن ترد كل فرع عنها إلى أصله ، كذلك المكر فيه لفٌ وحيل لتستر سيئاتك عن خصمك ، هذا في مكر البشر بعضهم ببعض ، بكر إن مكر الله بك فلن ينجيك من مكره شيء ، لذلك قال سبحانه ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [٥٤] [آل عمران]

وقوله تعالى ﴿ وَيَسْحَرُونَ ﴾ [١٢] [الصافات] لسخرية هي الاستهزاء من الشيء ، والمعنى أنك تعجب يا محمد من نكرانهم وتكذيبهم مع وضوح الأدلة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ [١٢] [الصافات] يعنى بآيات أخرى وبراهين ترشدكم ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ [١٣] [الصافات] أى يُعرضون عنها ، ولا يلتفتون إليها ، ويصرون على الإنكار ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ [١٤] [الصافات] أى دليلاً جديداً ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ [١٤] [الصافات] أى يدالعون فى السخرية

ففى الآية قبل لسابقه قال ﴿ وَيَسْحَرُونَ ﴾ [١٢] [الصافات] وهذا ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ [١٤] [الصافات] هذا دليل على أن من هؤلاء المكذبين أساساً ترقى قلوبهم لآيات الله وللادلة الإيمانية وحين ترقى قلوبهم تخف لديهم نزوة الكيد لمحمد ، فيكتفون بالكذب دون السخرية ،

لأن الإباء يأبى على برحاث ، فواحد يأبى أن يفعل ما تأمره به ،
وآخر يأبى أن يفعل ويسخر منك .

فهؤلاء الذين يسحرون لا يكتفون بالسخرية عن رسول الله ،
﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات] يعنى يطلبون ممن لا يسحر أن يسخر ،
يعنى يستسخرون غيرهم ، إذن هناك فرق بين يسحرون
ويستسخرون ، حتى لا نقول كما يقول بعض المستشرقين هذا
تكرار لى كلام الله

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّسِينٌ﴾

معنى ﴿إِنْ هَذَا﴾ [الصافات] ما هذا إلا سحر ﴿مُسِينٌ﴾
﴿[الصافات] يعنى واضح ، والسحر كما قلنا تخيير شيء غير
واقع ، فيُخِيلُ إليك أنه واقع ، فالسحر لا يغير حقيقة الشيء إنما
يسحر الناظر إليه كما قال تعالى فى سحرة فرعون ﴿سَحَرُوا
أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [١١٦]

وقال ﴿يُحِيلُ إِلَهُهُمُ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [١١٦]

إذن ، أبى السحر من دعوة محمد ﷺ ، ومن قضية الإيمان التى
يدعو الناس إليها ، والرد على هذه القرية سهل وواضح إذا كانت
عند محمد القدرة على أن يسحر الناس فيؤمنوا بدعوته ، وسحر
هؤلاء الذين آمنوا فلم يسحروكم أنتم ، إذن هذا اتهام باطل
لا معنى له

ثم يعودون مرة أخرى إلى مسألة البعث ، ليسألوا عنها سؤال
إنكار واستبعاد ، وهي أصل من أصول الدين لا يستقيم الإيمان إلا
بها

﴿أَوَدَأْمِنَّا وَكُنَّا رَبَّابًا وَعَصْمًا أَيْ نَأْمَنُوتُونَ ﴿١٦﴾ أَوْءَابَاؤُنَا
الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

عجيب منهم إنكار البعث بعد ما سقناه إليهم من أدله ، حتى ن
أنكروا أدلنا وكذبوا بها ألم يسمعو من الأمم السابقة والرسالة
التي منضت أن البعث حق ؟ إن هـ العباد والاستكبار عن قبول
الحق .

لذلك ، فالقرآن الكريم يصرب لهم مثلاً ودليلاً على صدق الإخبار
بالبعث ويسوق هذه لقصة من الأمم السابقة في سورة البقرة ﴿أَوْ
كَأَلَدَىٰ مَرٍ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ لَيْ يُخَيِّبُنَا هَٰذِهِ إِلَهُ بَعْدَ مَرْتِنَا
فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ
عَامٍ فَنَظَرُ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَّسِفْ رَانظُرُ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَجَعَلَكَ يَةً لِلنَّاسِ
رَانظُرُ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نَشْرُهَا ۚ ثُمَّ يَكْسُوهَُا لَحْمًا فَلَمَّا نَبَّشَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة]

هذه قصه واقعية ، لأن أنقرآن حكاهما لنا عن الأمم السابقة ،
يتكون دليلاً على قدرة الله على نبث الموتى وهي قصة رجل باحث

(١) داخرون أدلاء صاعرون متفادون لأمر الله تعالى [القاموس القويم ٢٢٢/١]

(٢) سمه الطعام بسفه تغير بعد مُطَيَّر من عليه [القاموس القويم ٢٢٢/١]

(٣) أشبر الشيء رفقه وأبرره راقابه أي تربع المظلم بعضها فوق بعض حتى يتكون
هيكل عظمي كامل ثم يكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان [القاموس القويم

عن الحقيقه ، جعله الله مثالا ونموذجاً لنفسه أولاً ، ولمن جاء بعده ، فلما مرَّ على القرية وهي على هذا الحال من الخراب استبعد أن تحيا بأهلها مرة أخرى ، فإمانه الله بربه كيف يحيى الموتى .

وَصَدَّقَ الرَّجُلُ فِي قَوْلِهِ ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (البقرة: ٢٥٩) ﴿وَصَدَّقَ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ ﴿بَلْ لَبِثْنَا مِائَةَ عَامٍ﴾ (البقرة: ٢٥٩) كَيْفَ لَا عِظَامُ الْحِمَارِ أَنْتَ تَحُولُ إِلَى تَرَابٍ دَلَّتْ عَلَى الْمِائَةِ عَامٍ ، وَطَعَامُهُ الَّذِي لَمْ يَسْعِيرْ ذُلًّا عَلَى يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ ، وَهَذَا لَيْسَ عَجِيبًا ، مَا دَامَ أَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِقَايُضِ الْبَاسِطِ ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الضَّمَدَيْنِ ، هَيَّجَمُ لَزَمَ فِي حَقِّ قَوْمٍ ، وَيَبْسِطُهُ فِي حَقِّ آخَرِينَ .

ألم يأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب بعصاه البحر ،
 فصار الماء كلُّ فرق كالطود العظيم ، وأمره أن يضرب بعصاه الحجر ،
 فانجست^(١) منه اثنتا عشرة عينا ؟ إذن : هي طلاقة القدرة .

وعصيبٌ منهم أيضاً أن يسألوا عن الآاء مع أن قضية لعن
واحدة ، فقولهم ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات] دليل على تحطُّبهم ،
أو ربما فهموا أن الذي سيموت حديثاً (طائفة) يعنى هو الذى
سَيُبعث . أما القدم فبَعَثَه غير ممكن

وَيُرَدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (قُلْ) يَعْنِي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ مَقْلَةٌ هَبْ (نَعَمْ)
يَعْنِي سَتُبْعَثُونَ ، وَاللَّيْلِي يَقُولُهَا قَوْلَةُ الْوَائِقِ ، لِأَنَّ مَأْمُورَ بِهَا مِنْ
قِبَلِ اللَّهِ الْعَادِرِ عَلَى أَنْ يَصْعَثَ الْحَقُّ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ (١٨) ﴿
[الصَّافَاتِ] يَعْنِي سَتُبْعَثُونَ حَالُ كَوْنِكُمْ﴾ [دَاخِرُونَ (١٨)] [الصَّافَاتِ]

(١) انجست بضرمت ومنت في قلوب [الناس العرب] هابه بجسي [

يعنى صاعرين أدلاء حاضعين جراء اللدد والعباد والاستكبار على
قبول الحق فى الدنيا ، كما قال تعالى فى موضع آخر ﴿ يَرْهَمُ الْيَوْمَ
مُسْتَلْمُونَ ﴾ (٢٦) [الصافات]

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ رَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْطُرون ﴾ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا
يَوْمُ الدِّينِ ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴾ (٢١)

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ [الصافات] أى مسألة انبعث ﴿ رَجْرَةٌ
وَاحِدَةٌ ﴾ [الصافات] صيحة واحدة أو نفخة واحدة كافية لأن
تُخرجهم من قصورهم ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنْطُرون ﴾ [الصافات] لا أننا سذهب
إلى كل واحد منهم ونوقظه (اصحى يا فلان) إذن السعث الذى
تكذبون به أمره يسير علينا ، ولا يكلفنا شيئاً

والصيحة فى راتها لا تبعث الموتى ، إنما هى مجرد إنذار
للعلن بأن يباشرو مهمته ، فهى مثل الحرس الذى يبدأ به العمل ،
فبعد الرجرة ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنْطُرون ﴾ [الصافات] هكذا مباشرة ، لأن إذا
هذا تدل على المفاجأة ، فالأمر لن يستغرق وقتاً ، وأول ما يقومون
من القصور ينتطرون أى هنا وهناك ، لأنهم سيرون أمراً عجبياً
لا عهد لهم به ، وسيُفاجئهم ما كانوا يكذبون به فى الدنيا

لذلك حكى القرآن عنهم فى آية أخرى ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ (١٦)
[السجدة] وهى أول آية فى القرآن يتقدم فيها البصر على السمع ،
لأنهم أول ما يفاجئهم يفاجئهم منظرٌ جديد لم يرووه من قبل
فيضطرون إليه

(١) قال الحسن البصري هى النفخة الثابتة وسعيت الصيحة رجرة لأن مقصودها
الرجز أى يجر بها كحجر الإبل والخيول عند السوق ، [تفسير اللارطى ٥٧٦/٨]

فَإِذَا مَا عَايَنُوا هَذَا الْمَنْظَرَ ، قَالُوا ﴿يَوَيْلًا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٠)
 هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ (١١) ﴿[الصافات]﴾ هُم الدِّينَ يَقُولُونَ
 وَهُم الَّذِينَ يَدْعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْوَيْلِ وَاشْتَبُورَ ، لَا يَقُولُهَا حَزَنٌ
 وَرَيْلَكُمْ ، بَلْ يَقُولُونَهَا هُم ﴿يَوَيْلًا﴾ (١٢) ﴿[الصافات]﴾ يَعْنِي أَحْصَرُ ، هَذَا
 أَوَّلُهُ ، لِأَنَّهُمْ الْآنَ تَكشَّفَتْ لَهُمُ الْحَقَائِقُ وَبَانَ كَدُّهُمْ وَفَسَادُ تَفْكِيرِهِمْ
 وَمَا كَانُوا فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ اللَّسَادِ وَاعْتَادَ وَأَوَّلُ مَا يَنْتَبِهُ لِلْإِنْسَانِ
 مَسَادُ تَفْكِيرِهِ وَسُوءُ عَمَلِهِ أَوَّلُ مَا يَلُومُ يَلُومُ نَفْسَهُ فَيَدْعُو عَلَيْهَا

وَقَوْلُهُمْ ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٣) ﴿[الصافات]﴾ يَعْنِي يَوْمُ الْجَزَاءِ عَلَى
 الْأَعْمَالِ ، هَذَا الْجَزَاءُ الَّذِي لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا ، هُم يَحْتَرِفُونَ
 بِهِ ، أَوْ ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٤) ﴿[الصافات]﴾ يَعْنِي هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي
 يَنْفَعُ فِيهِ الدِّينَ ، كَمَا تَقُولُ لَوْلَاكَ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى الْامْتِحَانِ هَذَا يَوْمُ
 لِمَذَاكِرَةٍ ، يَعْنِي : الْيَوْمُ الَّذِي لَا تَنْفَعُكَ فِيهِ إِلَّا مَذَاكِرَتُكَ

ثُمَّ يَقُولُونَ ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ (١٥) ﴿[الصافات]﴾ ثُمَّ يَعْتَرِفُونَ ﴿الَّذِي
 كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (١٦) ﴿[الصافات]﴾ وَالْفَصْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَصْمَةِ .
 وَالْخَصْمَةُ هِيَ كَانَتْ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمُ الْمَكْذِبِينَ لَهُمُ وَالْمَعَادِينَ ،
 وَمِثْلُ هَذِهِ الْخَصْمَةِ لَا يُنْهِيهَا اجْدَلُ ، لِأَنَّ الْمَكْذِبِينَ بَدِيهِمْ لَدَدُ
 وَعَدَدُ ، وَقَدْ لَا يُنْهِيهَا لِسَيْفٍ حَتَّى يَمُوتَ الظَّالِمُ دُونَ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْهُ

[ذَنْ : لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْقِصَاصِ وَالْفَصْلِ فِي هَذِهِ الْخَصْمَاتِ ،
 لِذَلِكَ قَالُوا أَحَدُهُمْ وَاقِعٌ لَا يَمُوتُ ظُلُومٌ حَتَّى يَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ . فَقَالَ
 الْآخَرُ كَيْفَ وَقَالَ ظَلَمَ كَثِيرًا وَلَمْ يَرْفَعْ فِيهِ شَيْئًا ؟ قَالَ اللَّهُ إِنْ
 وَرَاءَ هَذِهِ الْأَدَارِ دَارًا أُخْرَى يُجَازَى فِيهَا الْمُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءُ
 بِإِسَاءَتِهِ

نَعَمْ لَا بُدَّ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ ، وَإِلَّا لَكَانَ الظَّالِمُ أَحْظَ مِنَ الْمَطْلُومِ

﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَأَهْذَوْهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ الْحَنِيمِ ﴿٢٣﴾ وَخَفَوْهُمْ أَهْمَ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

أَيُّ اجْمَعُوا كُلَّ مَوْلَاءٍ مَعًا فِي النَّارِ ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) [الصافات] إِنَّ الْمَحْشُورَ ثَلَاثَةٌ الَّذِينَ ظَلَمُوا حَرَاءَ ظَلَمَهُمْ ، وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْنَا الزَّوْجَ يَعْنِي الْمَقْرَدَ وَمَعَهُ مِثْلُهُ فَلَا تَقْرُلْ عَلَى الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ زَوْجٌ ، بِمَا رُوِيَ أَنَّ الرَّجُلَ يُسَمَّى (زَوْج) وَالْمَرْأَةُ تُسَمَّى (زَوْج) ، لَا أَنَّ الزَّوْجَ يَعْنِي الْاِثْنَيْنِ كَمَا يَظُنُّ الْبَعْضُ ، وَمِثْلُهَا كَلِمَةُ تَوَامٌ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُسَمَّى تَوَامًا ، وَهِيَ مَعًا تَوَامَانِ ، لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّادِقَاتِ وَمِنَ الْمَعْرِاتِ قُلْ أَتَذَكَّرِينَ حَرَمٌ أَمْ لَاثْنَيْنِ ۚ ۞ ﴾ (٢٤) [الأنعام] وَقَالَ ﴿ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۚ ﴾ (٢٤) [الأنعام]

قُلُوا أَنَّ الزَّوْجَ يُطْلَقُ عَلَى الْاِثْنَيْنِ لِقَالِ أَرْبَعَةَ أَزْوَاجٍ

وَمَعْنَى كَلِمَةِ ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (٢٢) [الصافات] أَيُّ أَزْوَاجَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، كَالزَّوْجَةِ الَّتِي تَعِينُ رَوْحَهَا عَلَى الظُّلْمِ ، كَامْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ ، الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّهَا ﴿ تَبَّتْ يُدَا أَبَى لَهَبٍ رَبَّتْ ۙ ۞ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

(١) الزَّوْجُ هُوَ بِمَعْنَى السَّكَلِ أَوْ النِّصْفِ يَكُونُ لَهُ نَضِيرٌ أَوْ نَقِصٌ كَالرَّطَفِ وَالنَّاسِ وَالْمَذَكَّرِ وَالْأُنْثَى [القاموس القويم ١/ ٢٩١] وَقَدْ أُورِدَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ [٥٧١٢/٨] عِدَّةٌ مَعَانٍ لِكَلِمَةِ أَزْوَاجٍ فِي الْآيَةِ

« يَحْشُرُ الْكَافِرَ مَعَ الْكَافِرِ » قَالَهُ قَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ

« يَحْشُرُ الْإِرَائِيَّ مَعَ الرَّامِيِّ ، وَشَارِبَ الْخَمْرِ مَعَ شَارِبِ الْخَمْرِ ، وَصَاحِبَ السَّرِقَةِ مَعَ صَاحِبِ السَّرِقَةِ » قَالَهُ عَمْرٌ بْنُ الْحَطَّابِ

« يَحْشُرُ مَعَهُمْ تَسْلُؤَهُمُ الْمَرَاغِقَاتِ عَلَى الْكُفْرِ » قَالَ سِجَّادٌ وَالْحَسَنُ

يَحْشُرُ مَعَهُمْ قَرَابَتَهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بَنِي حَوْهٍ »

وَحُلَاسَةُ الْقَوْلِ فِي مَعْنَى (أَزْوَاجَهُمْ) أَشْبَاهُهُمْ وَأَمْثَالُهُمْ

(٢) سِيعَلَىٰ بَارَأَ ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ
مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴿

[المسد]

أو يُراد بأزواجهم أشكالهم ونظائرهم وقرباءهم الذين أضلّوهم
وأعووهم ﴿ وما كانوا يعبدون (٢٢) من دُونِ اللَّهِ . (٢٣) ﴾ [الصافات] أى
الأصنام التى عبدوها من دُونِ اللَّهِ تُحْشَرُ معهم فى النار ، لبرؤا
آلهتهم التى عبدوها وتعلقوا بها تسبقهم إلى النار ، فينقطع أملهم فى
النجاة وينار لفساد تفكيرهم ، حيث عبدوا أصناماً لا تضر ولا تنفع ،
وهذا توبيخ بهم ، لئلا يمتد هذا التوبيخ بعف فى قوله تعالى
﴿ هُدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَكِيمِ (٢٤) ﴾ [الصافات] وهل القذف فى النار
هُدًى ؟ والمعنى دُلُّوهم على طريق جهنم ، يعنى سخرية منهم
وبهكماء بهم

ثم يقول سبحانه ﴿ وَقَوْمَهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] أى
احسبواهم للسؤال وللحساب ، وهذا السؤال سيكون عريداً ليس
جماعياً ، فكل واحد منهم سيُسأل وسيُنَاقَش ، قالوا فى السؤال
تكتبت النفس للنفس قبل أن يُبَكِّتَهُمَ اللَّهُ الذى كفرنا به ، يعنى ساعة
نعابون البعث وموقف الحساب يُكُونُ أنفسهم ، ويندمون ساعة
لا ينفع الدم

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْخِمُونَ (٢٦) ﴾

وهذا الاستفهام أيضاً على سبيل السخرية والتهكم ، يعنى
ما لكم الآن لا ينصروا بعضكم بعضاً وكنتم تنصرون فى الدنيا ،

(١) للجيد العنق . المسد الحبل من الألف أو الخوص أو الشعر أو الزبر . وهو الحبل
المضفور المحكم الغتل ، قد لوى لياً شديداً { لسان العرب - مادة - مسد }

الأتباع ينصرون السادة ، والسادة يُجندون لاتباع ، وما أشبههم في هذا لموقف بالممثل القائل وفق شر طقه أو قوباً (اتم المنعوس على حايب الرجا) .

ذلك يقول تعالى بعدها ﴿ يَلْهُمَّ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (٢٧) [الصافات] أى خاضعين مقادين أذلاء مهائين . ونحن نقول رفع الراية البيضاء يعنى لم يعد لديه شىء من القوة يدافع بها عن نفسه ، ولا حجة ولا منطق . إنه الآن قاعد في ذلة وصغار . ينتظر أمر الله فيه

﴿ وَأَقْلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنْ كُنْتُمْ نَاوِسَاعِي الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَنْ تَكُونُوا مُؤْمِسِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِينَ ﴿٣٠﴾

تأمل هذه لمواحهة بين التابع والمتنوع بعد أن ظهرت خيبة الجميع وتكشفت الحقائق التي ظاهما انكروها في الدسا وكتبوا بها . انهم الآن يلقى كل منهم بالمسؤولية على الآخر ، ويتساءلون فيما بينهم ﴿ قَالُوا ﴾ (٢٨) [الصافات] أى الاتباع ﴿ كُنْتُمْ نَاوِسَاعِي الْيَمِينِ ﴾ (٢٨) [الصافات] اليمين يعنى من جهة اليمين ، واليمين منه اليمين واليمين واليمين جهة الخير ، لذلك أمرنا النبي ﷺ بالتيمر في كل شىء ، فبها نُسلم ، وبها ناكل وبشرى ، وبساول الأشياء ويكتب لابسها مُشرقة مُكرمة ، حتى العرب قديماً كانوا يتفاءلون بجهة اليمين لو طار الطير باحية اليمين

(١) أخرج القهسرى في صحيحه (١٦٨ ١٧٦ ٥٢٨٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قالت كان النبي ﷺ يعجبه التيمر في عمله وبرجله وظهره في شأن كله

واليمين أيضاً من معانيها أنها مصدر لقوة في الفعل ، وغالبية الناس يستخدمون اليمين وهي عندهم الأقوى ، وقد سألنا مرة عن الدين يعملون بالشمال هل نهأهم عن ذلك ؟ يقول العمل باليمين أو اليسار ليس مجرد تعود ، إنما هو تكوين طبيعي في الحسم ففي الحسم مركز يتحكم في توزيع القوة ، فبعض الناس يميل مركز القوة عندهم ناحية اليمين فتكون يمينه أقوى من شماله ، وبعضهم العكس ، وبعضهم يتساوى عنده مركز القوة ، فيعمل باليمين ويعمل باليسار بنفس القوة ، وهذا يُسمونه (الاضبط) ^١ مثل سيدنا عمر رضى الله عنه .

ومن معاني اليمين أيضاً الحلف والقسم وهذه المعنى كلها وردة في معنى هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات] يعني من جهة الخير والحق لتصرفوا عنه ، أو من ناحية البطش والقوة لتجبرونا على الفعل ، أو بالحلف يعنى تحلفون لنا أن هذا هو لطريق الصحيح ، لا طريق غيره

ويرد المتنوعون على لتاسعين ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات] معنى ما أخرجناكم من الإيمان إلى الكفر بل كنتم بطبيعة الحال غير مؤمنين ، وبمجرد أن أشرنا إليكم سررتم خلفنا وتابعتمونا ﴿وَمَا كَانُوا عَلَيْكُمْ مُسْطَافِينَ﴾ [الصافات] والسلطان إم سلطان قوة يقهركم على الفعل ، وإم سلطان حجة يقنعكم بالكفر ، فليس لنا عليكم لا سلطان قوة وقهر ، ولا سلطان حجة وإدع

﴿بَلْ كُنْتُمْ﴾ [الصافات] بطبيعتهم ﴿فَرَمَ طَائِفٍ﴾ [الصافات] أى متجاوزين للحد في الكفر وفي الضلال وهذه تعصية إيسر بقولها

(١) الاضبط هو الذى يفعل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه قاله أبو عبيد وهو الذى يقال له أعسر يسر [لسان العرب مادة ضبط]

لَاتَّبَاعِهِ فِي الْآخِرَةِ حِينَ يَتَبَرَأُ مِنْهُمْ وَيُلْقَى عَلَيْهِمْ مَسْئُولِيَةُ كُفْرِهِمْ ،
كَمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ
لُحَقٍّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانُوا لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي
فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَسَاءُ بِقَوْمٍ ﴿٢١﴾ فَاعْوَيْتَكُمْ
يَا كَاغِبُونَ ﴿٢٢﴾ فَإِنَّهُمْ بِوَيْدِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٣﴾
إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُحْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

معنى ﴿ فَحَقَّ (٢١) ﴾ [الصافات] أى وقع ووجب ﴿ عَلَيْنَا (٢١) ﴾ [الصافات] أى جميعاً التابع والمتبوع الجميع وجب له العذاب ،
والحق هو اشيء اثبات الذى لا يتغير وهذا المعنى ورد فى القرآن
بأساليب ثلاثه ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (٤) ﴾ [هود] ، و ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ (٧) ﴾ [يس] ، و ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [الزلزال]

فقد سبق منا أَنْ أَخْبَرْنَا بِحُدُوثِ الشَّيْءِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَ بِالْفِعْلِ
مَا أَخْبَرْنَا بِهِ وَحَقُّهُ نَوْعٌ يَعْنَى بِقُوَّةٍ وَبِشِدَّةٍ وَقَالُوا إِنْ كَلِمَةٌ
﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [الزلزال] لَمْ تُسْتَخْدَمْ إِلَّا فِي الشَّرِّ ، مَا عَادَ مَرَّةً وَاحِدَةً
اسْتُخْدِمَتْ فِي الْخَيْرِ ، وَهِيَ قُوَّةٌ بَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ نَمْ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ قَهْدًا وَلَوْ أَجْرَةً عَلَى اللَّهِ . ﴿٢٥﴾ ﴾ [اسماء]

وَأَمَّا قَوْلُهُ سَبَحَانَهُ ﴿ إِنَّا لَنَدْفَعُونَ (٢١) ﴾ [الصافات] وَلَمْ يَقُولُوا
مُعَذِّبُونَ أَوْ مُصَرِّقُونَ ، لِأَنَّ الْعَذَابَ أَوْ الْإِحْرَاقَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَهَى فِي
وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، أَمَّا الْإِيقَاقَةُ فَهِيَ دَائِمَةٌ وَمُسْتَمِرَّةٌ ، وَهَذَا الْمَعْنَى

واصبح في هولاء تعالى ﴿كَلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (٥٦) [النساء]

وقد اكتشفنا مؤخراً أن الجلد هو مركز الإحساس لا ألم ، بل إنك حين تأخذ حقنة مثلاً تشعر بالألم بمجرد أن تنفذ الإبرة من منطقة الجلد وبعد ذلك لا تشعر بالألم ، هذه الحقيقة قررنا الحق سبحانه في قوله ﴿كَلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ (٥٦) [النساء] لماذا ؟ ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (٥٦) [النساء] فدابة العذاب في نفس الحد .

وقوبهم ﴿مَاعُوبَتَاكُمْ﴾ (٣٦) [الصافات] أي ، لكساكم على طريق الغواية والضللال ، والغوى هو الذي ضلَّ طريق الخير والحق ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ (٣٦) [الصافات] والمعنى إِنْ كُنَّا نحن صالين غاوين ، فلماذا تترككم لهداية وللايمان ، لا بُدَّ أَنْ تَشْرَبُوا معنا من نفس الكأس ، وهذا منطق أستاذهم إبليس ، قلب عصي وطرد من رحمة الله أقسم أَنْ يُضِلَّ معه ذرية آدم ، ليكونوا مثله في الضلال .

ثم ينهى الحق سبحانه هذه المواجهة بين أهل الساطن ، ويقرر هذه الحقيقة ﴿لَإِنَّهُمْ يَرْمُونَ﴾ (٣٣) [الصافات] أي يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مَشْرُكُونَ﴾ (٣٣) [الصافات] وهذه سعتنا في أهل الضلال ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَعْمَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٤) [الصافات] والمحرّم هو الذي يُكذَّبُ بفضيلة الإيمان الأولى ، وهي التوحيد ، يدك يصفهم الحق سبحانه في الآية بعدها

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥)
وَيَقُولُونَ آيَا لَنَا بِكُودِ الْهَيْمَنِ الشَّاعِرِ الْمُخَنُونِ ﴿٣٦﴾ نَلْجَأُ
بِالْحَقِّ وَبِصَدَقِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

قوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ﴾ [٣٥] [الصافات] أي الكفار الذين وصفوا بالإجرام ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٣٥] [الصافات] أي يستكبرون عن قبولها والصدق بها ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا﴾ [٣٦] [الصافات] يعني مدصرفون عن عبادتها ﴿لَشَاعِرٍ مُّجْرُونٍ﴾ [٣٦] [الصافات] أي من أجله ، ومن أجل دعوته

وعجيب من لعرب وهم أمة كلام يُقدِّرون الكلمة ويتذوقونها ، ويحطون لها أسواقاً ومعارض ، ويكرِّمون لشعر والشعراء ، لدرجة أنهم علّقوا أصوار فصائدهم على أستار الكعبة عجيب من قوم هذا حالهم أن يقولوا ﴿آلِهَتُنَا﴾ [٣٦] [الصافات] وهم يعلمون تماماً معنى الآلهة ومعنى العبادة ، فالإله يعني المعبود فبأي حقّ عُدَّتْ الأصنام ؟ فعاد أمرتكم ؟ وعن أي شيء بهنكم ؟ ما المبهج الذي حاءتكم به ؟

نعم هم يعلمون أنها جمادات ، لا تصور ولا تنفع لكن عبدوها بقطره الدُّبْنِ في الإنسان ، فالإنسان بطبيعته مُتدبِّس يحب أن يستند إلى قوة أعلى منه يلجأ إليها عند الشدة ، قوة تعينه على التحلُّد والتفسير للأحداث ، وقد وحدوا في هذه الآلهة أبها آلهة بلا تكاليف وبلا منطيات ، فعبدوها من دون الله

ثم عجيبٌ منهم وهم أمة كلام ألا يفرقوا بين كلام الله في القرآن وبين الشعر ، وهم أعم الناس به وبأورائه وقواعبه ، فأي الشعر من كلام الله في القرآن ؟ ثم عجيبٌ منهم أن يتهموا رسولَ الله بالجور ، وهم علمُ الدرس به وبأخلاقه وصغاته وسيرته فيهم قتل بعثته ، وما أُنعدُ الجبور عن الذي جمع محاسن الصفات وكريم الأخلق "

الحيون أن يصرف المحبور بحوارحه بصرفاً لا يمرُّ على العجز المحبور لا يحصل بين الأشياء ، ولا يعرف لصاراً من الباع

لمحبون ليس له خلق ، لذلك يردُّ الحق عليهم ويدفع عن رسوله اتهاماتهم . فنقول ﴿ تَوَالَّقُوا مَا يَسْطُرُونَ (١) مَا آتَتْ بِرَبِّكَ بِمَحْنٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَحْرًا عِزًّا مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

لذلك يقول تعالى هذا (بل) وهي للإضراب عن الكلام السابق ، يعنى دعك من هذا الهراء ﴿ بل جاء بالحق (٣٧) ﴾ [الصافات] بالشئ الثابت الذى لا يغير ﴿ وصدق المرسلين (٣٧) ﴾ [الصافات] صدق من سبقوه من الرسل فى منهج الله

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُخْرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ﴾

فى الآيات السابقة قار سبحانه حكاية عن الظالمين قول المتبوعين لاتباعهم ﴿ فحق علينا نوباً بما لَدَائِقُولِهِ (٣٨) ﴾ [الصافات] وهذا يؤكد هذا المعنى ، إلا أنه يُصرِّح ههنا بنوع الإذاعة ﴿ لَدَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) ﴾ [الصافات] وهذا العذاب الاليم ليس ظمأ ولا تعدياً ، إنما جزاء ما قدَّمتم ﴿ وَمَا تُخْرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ﴾ [الصافات]

وبعد الحديث عن أهل الكفر واللد وأهل الإحرام والعناد ، وبيان مصيرهم ، وما ينتظرهم من الجزاء يتبع الحق سبحانه هذا بالحديث عن أهل الإيمان الذين أخلصوا العبادة لله ، والجمع بين المتقابلين أسلوب من أساليب القرآن ، كما فى قوله سبحانه ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٤٢) وَإِنَّ الشَّجَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٤٣) ﴾ [الأنعام] ومضدُّها تكمين الأشياء ، ولشئ بعد

(١) حديث المروى من (دائقون) حديثاً واضحاً بما بعدها القرطبي فى تفسيره

ذكر مقابله يتبين حسنه ، كما قال الشاعر ' واصفا محبوبته

مالوحة مثل الصبح مبيض
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد^(٢)

لذلك يذكر الحق سبحانه ما أعدّه للمؤمنين المخلصين ، بعدما
ذكره من جراء الظالمين المكذبين ، لينشئ الحسرة في نفوسهم ،
فتكون عذابا جديدا يضاف إلى عذابهم في النار

يقول تعالى

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٥١﴾
فَوَكَّاهُمْ وَهُمْ لَا يَكْرَهُونَ ﴿٤٢﴾ فِي حَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّتَابِلِينَ ﴿٤٤﴾
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءُ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾
لَا فِيهَا عِوَالٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُرْقَوْنَ ﴿٤٧﴾

(١) هو أبو الشيمس الخراعي ، مجدي بن علي بن عبدالله ، شاعر سريخ المصنوع رفيع الالفاظ
ولد (١٢٠ هـ) ، من أهل الكوفة ، غلبه على الشهرة معصنواه صديق الغوى وأبو نواس
هو ابن عم دعبل الخراعي ، غلب على بحر عصره قتله خادم لعقبه في الرقة (تومس
١٩٦ هـ) [الموسوعة الشعرية]

(٢) انبيسان من قصيدة لأبي الشيمس الخراعي من بحر أحد الكامل عدد أبياتها ٦٦ بيتا
ولكن لفظ البيت (مبلج) وليس (مبيض)

(٣) مبما ورد في هذا ما ذكره ابن القيم في كتابه ، حياى الأرواح إلى بلاد الأقراح ،
(ص ٢٤٥) وعمره لاين أبى الدنيا من حديث أنس ر رسول الله ﷺ قال « إذا دخل أهل
الجنة الجنة قيثاق الإحواى بعضهم إلى بعض قال قيسير سريز هذا إلى سريز هذا ،
وسريز هذا إلى سريز هذا ، حتى يجتمعا جميعا ، فيقول أحدهما لصاحبه ، تعلم متى حضر
الله بنا ؟ فيقول صاحبه يوم كنا فى مرضع كذا وكذا فدعونا لله معمر لنا

(٤) قال الزجاج (بكأس من معين) أى - من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه
الأرض ، والمعين الماء الجارى الظاهر [القرطبي في تفسيره ٥٧١٧/٨]

(٥) أورد نسيوطى فى الدر المنثور (٨٧ ، ٧) عز قناتة (لا فيها عول ولا هم عنها يرقون
قال لا تذهب عقولهم ، ولا تصدح رؤوسهم ، ولا توجع بطونهم عزاء لعيد الزقاق وابن -

سبق الحديث عن حزاء الكافرين ، وهذا استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [٤٤] [الصافات] فهم مُسْتَثْنَوْنَ بعينون من هذا المصير ، وكلمة ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ [٤٤] [الصافات] جمع مخلص بالفتح ، فهي اسم مفعول يعنى الذين احلصهم الله واصطفاهم لطاعته وعبادته ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [٤٥] [الصافات] أى فى الآخرة لأن رزق الدنيا ليس معلوماً لأنك تكذب وتتعب فى الدنيا ، وقد تحرم ثمرة هذا الكذب ، فالزراعة قد يمور ، والتجارة قد تحسر .

إنّ لنا رزق فى الدنيا ، لكنه غير معلوم ، أما فى الآخرة فمرزقك معلوم مُحَصَّن لك لا يتخلف أبداً ، ولا تحول دونه الأسباب ، لأنك تعيش فى الآخرة - كما قلنا - مع المسبب سبحانه . وسبق أن عرفنا الرزق وقلنا إنه كل ما ينتفع به ، حتى ما يؤخذ من الحرام يعدّ رزقاً ، لذلك قال تعالى ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَلَّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [١٢٢] [البقرة]

ثم ينتقل السياق إلى تفصيل ما أجمل فى كلمة (رزق) وأهم رزق ينتفع به المرء هو القوت الضرورى الذى به قوام حياته ، ثم لتفك بما يُرفّه هذه الحياة ، لكن الحق سبحانه هنا لم يذكر الضروريات ، إنما ذكر الترف الرائد على الضروريات ﴿فَوَاكِهِمْ وَهُمْ مَكْرُومٌ﴾ [٤٦] [الصافات] مع أنه فى مواضع أخرى ذكر الضروريات ، ثم أتبعها بالفاكهة والترفيات مثل قوله سبحانه ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ

« أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم

وعن ابن عباس قال هو الحمر اربع حصال السكر والصداع والقرى والبور فمره الله حمر الجنة عنها لا فيها عور ، لا يعور عقولهم من السكر (ولا هم عنها يبرلون) لا يفتشون عنها كما يفتى صاحب حمر الدنيا عنها والقرى مستكره بحراه السيوطى فى الدر المنثور (٨٨ / ٧) لابن أبى حاتم وابن مريويه

وما عملته أيديهم ألا يشكروا ﴿٣٥﴾ [س]

إذن لماذا اقتصر الكلام هنا على انفاكهة وحسب ، قالوا لأن الكلام هنا عن الآخرة ، والأكل في الآخرة لا يكون عن حسنة إلى الطعام ، بما يكون منعمة وتفكها بالأكل أو يكون المراد أن الله تعالى ما دام قد ضمن لك التفكه ، فمن باب أولى ضمن لك القوت الضروري .

وسمى ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ [الصافات] أي أنهم لا يرمى لهم الأكل لياكلوا ، كما يرمى لحشيش البهائم مثلاً ، لا بقصد بذلك إكرامهم ، إنما يساق لهم هذا الرزق ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ في جنات لنعيم ﴿[الصافات] لأنه رزق المحب لأحبابه .

وقوله تعالى ﴿على سرر متقابلين﴾ [الصافات] يعنى لا يكلفهم مشقة الدراور ، فالسرر التي يجلسون عليها متقابلة ، بحيث إن أردت أن تروى أخاك لك تجده أمامك ، دون أن تتقل إليه ، فهذه مسأله مضعوة .

﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى سيم سبحانه الذين يصفون بهذه الكأس ﴿يطوف عليهم وديان مكدرون﴾ بالكواب وآباريق وكأس من معين ﴿[الصافات]

لكأس يرد بها الخمر أو الفدح الذي يوضع فيه الحمر ﴿من معين﴾ [الصافات] يعنى من شيء تراه بعينيك أو من عيون تجرى كما تجرى عيون الماء ثم يصف هذه الخمر بأنها (بيضاء) والبيضاء هي أصفى أنواع الحمر عند العرب

﴿لذة لشاربين﴾ [الصافات] ولم يقل بديدة إنما (لذة) أي

هي في ذاتها لذّة ، وكأنّ اللذة تجسدت في هذه الكأس . كما تقول
فلان عادل . فإن أردت المبالغة في هذا الوصف قلّت فلان عدلٌ

ووصف الخمر في الآخرة بأنها ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات] ^(٤٤)
يُفَرِّقُ بينها وبين حَمَرِ الدنيا ، لأنّ خمر الدنيا كما نراها يشربونها
في الأقاليم لا تُشرب لذّة . لأنه يضع إقليل منها في الكأس ، ثم
يصبّها في فمه صبا . وسداولها على مَضْضٍ لكرهه طعمها

لكن طالما أن خمر الدنيا لا لذّة في معاطيها فلم يشربوها ،
يشربونها للآثر الذي يبعث منها من اختلال العقل الذي يُعدُّ حارساً
على الحركة ، وهم يريدون الانطلاق والحرية من هذا الحارس ، لذلك
فاجوز أنواع الحمر عندهم والعباد بالله ، هذه التي تُغيّبه عن وعيه ،
وتفعل به كذا وكذا

أما خمر الآخرة فلا يجمعها بهذه إلا اسمها فحسب ، خمر الآخرة
لذّة تشربها حين تنسويها ، وتأخذها رشفة رشفة على مهل
لتذوّق حلاوتها ، ثم هي لا تذهب بالعقل ولا تغتاه ﴿لَا لَهَا عَوْرٌ﴾
[الصافات] ^(٤٥) أي . لا تعتال العقول ، ولا تذهب بها .

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُرْغَوْنَ﴾ [الصافات] يقول ارباب الحوص يعني
أفرغه من العاء بالتدريج إلى نهايته ويرف الدم يعني سأل من
الجسم واحدة واحدة ، إلى أن يموت الإنسان

ومن أنواع الخمر ما يُسبّب نزفاً لما في السطن ، بحيث يفرغ
شاربها كل ما في بطنه ، ويُخرج كلّ ما في حوّه أما حمر الآخرة
فلا تُسبّب هذا النرف

أو يكون المعنى ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُرْفَوْنَ﴾ [الصافات] ^(٤٦) أي

لَا تُسْتَرْعَىٰ عُقُوبُهُمْ ، وَلَا يَسْكُرُونَ بِسِسْبِهَا ، كَمَا تُسْكِرُ حُمُرُ الدِّيَا

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَبُ الطَّرْفِ عَيْنٌ﴾

كَأَنَّهُنَّ بَيَضٌ مَّكُونٌ ﴿٤٨﴾

هذا وصف لبهاء اجنة فهُنَّ ﴿قاصرات الطرف﴾ (٤٨) ﴿[الصفات]﴾
يعنى تغصن بصرها فلا تنظر إلى غير زوجها ، وقلنا إن أعلى
ما يملكه لإنسان يمكن أن يهبه لغيره ، فانت تُعير صاحبك سيارتك
مثلاً أو بيتك أو ثوبك .. الخ

ما لمرأه فهى اشئ الوحيد الذى لا تقبل محرد أسطرة إليها ،
لما لها من خصوصية ومردلة كذلك تحب من زوجها ألا تمتد غيبها
إلى غيرك ، وهذه من صفات أهل الجنة فهُنَّ ﴿قاصرات لطف﴾ ..
(٤٨) ﴿[صفات]﴾ تقصر نظرها على زوجها ، وهن كما فى آة أخرى
﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبَيْمِ (٧٢)﴾ [الرحمن] يعنى مأسورات محفوظات
لأرواحهن

فالحق سبحانه يحفظ حسن المرأة ، ويحرص على التكوين
الضعيف فى المجتمع ، لياتى السُّرُّ شريفاً طاهراً ، وهذه المعاييس
التي للمؤمننة فى الدنيا هى كذلك فى الآخرة ، فكأن الحق سبحانه
يُطمئن الأرواح على هذه الخصوصية ، ويؤكد أن الروجة فيها
لا يشاركه فيها أحد ، ولو حتى بالنظرة ،

(١) عن ابن عباس قال (لا يسكرون) لا يسكرون ومجامد لا تدعب عقوبهم (أخرجه
هناد وعبد بن حميد وأبو حاتم) وعن سعيد بن جبير لا مكروه فيها ولا أدنى
(أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم) أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر
الستور (٨٨/٧)

ومعنى ﴿عَيْنٌ (١٨)﴾ [المصافات] عين جمع عَيْنَاء ، يعنى واسعة العينين مع حُسْنِهِمْ ، وهذه من علامات الملاحاة والحُسْنِ في المرأة عند العرب ، لذلك من المقاييس لنى وصعومها للجمال أن لعين تكون واسعة والفم ضيق ، بحيث إذا قيسَتْ عينيها بفمها ، كانت عينيها أوسع

ومعنى (عندهم) يعنى فى حوزتهم لأنها من مَدَاع الجنة فمن انتهى منهم شيئاً وحده وإلا ترفع عنها ، لكن هى موجودة عندهم .

ثم بصفهم سبحانه بقوله ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (١٩)﴾ [المصافات] كلمة ﴿بَهْرٌ (١٩)﴾ [المصافات] جمع بيضة . والمراد بيضة النعام^(١) ، لأنها أكر وأجمل فى اللون ويقولون من يحمى الجمال فى قسبلته يحمى بيضها . ذلك وصف البيض هنا بأنه ﴿مَكْنُونٌ (١٩)﴾ [المصافات] مُصَانٌ مستور بم تُمَدُّ إليه يَدٌ

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥)﴾ قَالَ قَائِلٌ
مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتَىكَ لَمْرَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
أَيُّ دَامِنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَيْ تَالْمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾

سبق أن استمعنا إلى حوار دار بين الكافرين المجرمين فى النار وهنا يحكى لنا الحق سبحانه هذا الحوار بين أهل الجنة يتساءلون عن أهل الظلم ، وأهل الضلال والغواية وأهل التكذيب ، أين هم الآن ؟ وما مصيرهم ؟

(١) قال الحسن وابن زيد شتهى بيض النعام شَكَّهَا النعامة بالزيش من الريح والفسار هلوبها أبيض فى صغرة وهو أحسن ألوان النساء نقله القرطبي فى تفسيره (٨، ٥٧١١) وذكره السيوطى فى التلخيص (٧، ٨٩) وعراه لابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم

﴿ قَالِ قَاتِلْهُمْ ۖ ﴾ [الصافات] من أمر أجرة ﴿ إني كاد لي فري ۖ ﴾
 (٥١) ﴿ [الصافات] أي صاحب في الدنيا ﴾ يقول أنك لمن المصدقين
 (٥٢) ﴿ [الصافات] أي بالبعث ﴾ ألد متا وكما تراها وعظاما أنا لعديون
 (٥٣) ﴿ [الصافات] يعني محاسنهم وهذا السؤال منه على سبيل
 التوبيخ والإنكار لقضية البعث والحساب

﴿ قَالِ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴾ ﴿ فَاطَّلِعْ فَِرَاءَهُ فِي سَوَاءٍ ۖ ﴾
 الْجَحِيمِ ﴿ قَالِ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لِتُزَيَّنَ ۖ ﴾ ﴿ وَلَوْ لَا
 نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

القرآن يُصوِّر لك هذا الموقف كأنك تراه ، ويحكى كأنك تسمعه ،
 فيصفا أهل الجنة مشغولون في تساؤلهم عن أهل اضلال ممن كانوا
 يعرفونهم في الدنيا ، إذ نظر أحدهم فاطلع على أهل النار ، فرأى
 صاحبه الذي حاول أن يُصلِّه ، صاحبه المكذب بالبعث وبالحساب

مقال لجلسائه - انظروا هذا فلان في النار

﴿ فَاطَّلِعْ فَِرَاءَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات] أي في وسطها فلا
 أمل به في النجاة منها ، عندها تذكر المؤمن بعمه الله التي شملته
 وأبقته من هاوية الضلال ، التي كاد أن يُوقعه فيها صاحبه ، فقال
 مخاطباً هذا الفريق ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لِتُزَيَّنَ ۖ ﴾ [الصافات] أي تهلكي
 معك ﴿ وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي ۖ ﴾ [الصافات] أي نذركتني وأبقذتني

(١) سواء الشيء وسواء وسواء وسطه [سان العرب مادة سوا] وقال ابن مسعود
 أي في وسط النار والحسك (الشوك) حواله [بقية القرطبي من تفسيره

﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٥٧) [الصافات] أى الذين تحضرهم الملائكة للعداب ، وهما ترداد فرحة المؤمنين بإيمانهم ، ويرداد شكرهم لله واعتدائهم بفضله ، ولا يُنقص عليهم هذه الفرحة إلا الحوف من الموت وفترات هذا النعيم ، فيقولون

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَمِيَّاتٍ﴾ (٥٨) ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٥٩) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقُوَى الْعَظِيمُ﴾ (٦٠) ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (٦١)

فهم إنهم يحامون فواب هذا النعيم ، فيتساءلون ﴿أفما نحن بمميتين﴾ (٥٨) إلا موت الأولى (٥٩) [الصافات] يعنى أننا سنموت مرة أخرى وما نحن بمُعذَّبين (٥٩) [الصافات] أى بعد ما نحن فيه من نعيم ليس هناك شيء آخر نحاسب ونُعذَّب عليه ، كأن أميته أن يظل على هذه الحال من التمتع ، فلا يقوته لا موت ولا تتغير الحال من نعيم إلى العذاب

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مِثْلُ الدَّاهِيَةِ﴾ (٦٢) [الصافات] أى ما نحن فيه من المعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول ، ولا يأتى بعده حساب آخر ولا عذاب ﴿لَهُوَ الْقُوَى الْعَظِيمُ﴾ (٦١) [الصافات] ولا شك أن هذه غاية يسبى أن يعمل لها كل عامل ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (٦١) [الصافات]

فكان الحق سبحانه يحكى لنا هذا الموقف من الآخرة ليبيِّن لنا أثر الإيمان وعاقبة العمل الصالح ، ويستحضر لنا ما يحدث في اليوم الآخر ،

(١) المحضرين المرحبين على الحضور يحضرهم الملائكة للعداب [التماموس تقوم منه حصر] وقال الماوردي أحصر لا تستعمل مجازاً ، لا أى الشر مقلد القرطبي في تفسيره [١٧٢٢/٨]

لنأخذ من تلك العبرة ولعظة ، فكلُّ عمل يُؤدِّي إلى هذه العاقبة سهلٌ هينٌ ، مهما تحمَّلنا فيه من مشاقٍّ ومتاعبٍ ، وهو مكسبٌ لا حسرة فيه

﴿ أَدْلِكَ حَيْرُ نُزُلَا أَمْ شَجَرَةُ الرُّقُومِ ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً
لِّلظَّالِمِينَ ﴿ ٦٣ ﴾ إِنَّا شَجَرَةً تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿ ٦٤ ﴾
طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿ ٦٥ ﴾

الآيات هنا تراوح بين ذكر الجنة وما فيها من النعيم وذكر النار وما فيها من العذاب ، فتعود مرة أخرى إلى جهنم وعذابها ووَصَفَ ما فيها ﴿ أدلك (٦٢) ﴾ [الصافات] أى ما سبق ذكره من نعيم الجنة ﴿ حيرُ (٦٣) ﴾ [الصافات] أفضل ، فهي بمعنى أفعل التفضيل ﴿ نُزُلَا ﴾ (٦٤) [الصافات] أى منزلاً وضيعةً .

فاسْئُلْ ما يُتَدُّ بلضيف الطيرى من مسكن ، فيه مقومات الحياة من مأكَل وعشرب وحلافة ، لذلك يسمون القيدى (نُزُل) ، ولعنادق مع ما فيها الآن من سبل اراحة هي ما عده البشر للبشر ، فما أدراك بما أعدّه ربُّ البشر ؟ لا تُدُّ ن تكون الصياغة على قدر إمكانات المصنّف

() شجرة الرقوم مشتقة من الرقوم وهو البقم على جهنم يكرهها ونسبها وخلاف فيها
مل هي من شجر البقا التي يعرفها العرب أم لا ؟ على قولين
أحدهما أنها مصروفة من شجر الدب ومن قال بهذا احتملوا فيها ، فقال بطرب إنها شجرة مرة تكون نقيامة من أحيث الشجر وقال غيره بل هو كل نبات مثل
الثاني أنها لا تعرف في شجر الدنيا فلما نزلت هذه الآية في شجرة الرقوم قال كثر تزيش ما يعرف هذه الشجرة فقدم عليهم رجل من إفريقية فسأله فقال هو عند الربد والسر [مظه الغرابي في تفسيره ٥٧٢١/٨]
(٢) طلعتها ثمرها ، سُمِّيَ طلعا لطلوعه

﴿ أَمْ شَجَرَةُ الرُّقُومِ ﴾ [الصافات] (٦٢) وطبعي أن نساء ما هي
يا رب شجرة الرُّقُوم ؟ فيصفها الله لنا ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ (٦٣)
[الصافات] فتنه بمعنى محنة وعذاب ﴿ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾
(٦٤) [الصافات] أي : في وسطها

وهذا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة ، فلا سأل عن كيفية نمو
شجرة في وسط لنار ، لأن الفاعل هو الله عز وجل إذن خُذْهَا
في إطار تنزيه الحق عن قوانين الخلق

ومعنى ﴿ طَلَعَهَا ﴾ (٦٥) [الصافات] أي ثمرها ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾
(٦٦) [الصافات] بكن نحن لم نر رؤوس الشياطين ، لذلك وقف بعض
المستشرقين الذين يحاولون الاستدراك على كلام الله ، وقف يقول

كيف يُشَبِّه الله في هذه الآية مجهولاً بمجهول ، فنحن لم نر
شجرة الرقوم ، ولم نر رؤوس الشياطين ، والتشبيه بأى لوصيح
لمشبه بذكر لمشبه به ، فما فائدة أن تُشَبِّه مجهولاً بمجهول ؟

نقول مع الإنسان فيه جزء للحافظة ، و جزء للذاكرة ، و جزء للتخيل
يُسمى مُخَيِّلَة ، فالإنسان يرى الأشياء ، فتسجلها الحافظة في حاشية
الشعور ثم الذاكرة تستدعي به هذه الأشياء ، أما المخيلة فتأخذ من واقع
الأشياء وتكون صوراً جديدة مُخَيِّلَة ، لا أصراً لها في الواقع

هنا أنت مع هذا التشبيه ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات]
(٦٥) مع أنك لم تر رؤوس أشياطين إلا أن حيالك سبرسم لها صورة
على أشبع ما يكون ، وعندها سيتصح لك الفارق بين التُّرُل الذي أعدَّه
الله للمؤمنين في الجنة وهذه الشجرة التي ثمارها كرؤوس الشياطين ،
بالجمع بين هاتين الصورتين مقصود ، فكل ربك عز وجل أراد أن
يسوق لك العظة في وقت احراء المشهود ، لا في وقت التكذيب

وشجرة الرقوم شجرة خبيثة ، مُنْتَنَةِ الرائحة ، مُرَّة الطَّعْم ، موجودة في منطقة تهامة ، جعلها الله مثلاً للشجرة التي قُتِلَ في أصل الجحيم قالوا هذا بمثابة تقرُّيع للمعذِّبين بهذه الشجرة ، لأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث وبالحياة بعد الموت ، فجعل الله لهم هذه الشجرة تدبُّر في وسط جهنم وفيها طعامهم ، فلا طعم لهم غير ثمرها

والشجرة تعني الحضرة والمائيه ، ومعلوم أن المائيه تنافي النار ، وفي هذا إشارة إلى طلاقة القدرة التي كُتِبوا بها في الدنيا إن كَوْن هذه الشجرة في أصل الجحيم ، وهم يعيشون على ثمرها ويحياحون إليها وهي شاخصة أمامهم ، هذا كله تقرُّيع لهم على ما كُتِبوا به .

وهذه المسألة تُدَكِّرنا بسندنا إبراهيم عليه اسلام حين أُلْقِيَ في النار ، فجعلها الله عليه يَرْدًا وسلاماً ، وعطَّلَ بقدرته تعالى قسورَ الإحراق

الحق سبحانه يريد أن يُبَيِّنَ صورة هذه الشجرة ، مع أن العرب يعرفون شجرة بهذا الاسم ، ويعرفون حَبْثُها ونَتْنَ ريحها ومرارة طعمها ، ويعرفون مَظْلَعُها السسط ، لكن أحداً لم ير الطَّعْم الذي يُشبهه رهوس الشياطين

إس المراد تيشيعه وإعطاء الفرصه للتحيُّل أن يذهب في تصوُّر بشاعته كل مذهب فصلَّع كل شيء يكون جميلاً ، بل هو أجمل ما في الشجرة ، أما هذه فمُظْلَعُها كأنه رهوس الشياطين ، ولذا أن يتصور ما فيه من القُبْح والدُمَامَة والشكل العنقر

ومعلوم أن العرب كانت تعتقد أن الشيطان أقبح صورة ، ويقال له

الملائك أحسن وأكمل صوره ، ومن ذلك قول النُسُوة لما رأين يوسف عليه السلام ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف] إن رأى القرآن في هذا التشبيه معتقدات العرب وجاء بصورة مبهولة نعم لكن سيتصورها كل واحد بمقاييس القبح عنده ، ولو أتى بمثل محدّد معروف في القُبُح ، لكن على لَوْن واحد وربما كان قبيحاً في نظر شخص وغير قبيح في نظر الآخر ، لكن الحق سبحانه يريد منظرًا مُقْبِحًا عند الكل ومن مدّ يتصور الشيطان جعلاً ؟

لذلك قلنا إذا حثنا برسامي الكاريكاتير في العالم ، وقلنا لهم ارسموا لنا صورة تخيلية للشيطان ، فسوف يرسم كل منهم صورة للقبح في نظره ، وإن تجد فيها صورة مثل لأخرى إن شاء تشبيهه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين ، يُشيعُ معاني القبح جميعاً في النفوس ، وهذه الصورة كهيلة بأن تُفَرِّمَ من هذه الشجرة وأصل الطُّلُع هو الكم^(١) الذي يحوي أول ثمرة للشجرة ، ويقال للكور الذي يحوي ثمرة النخل وما يشبهها فإذا خرجت منه الشعاريخ ، وبادت استدارته وتكوينه يسمى (بلح) طالما كان أحصر اللون والبلحة لها ثلاثة أوصاف

الأول حجمها ، فهذا أخذت حجمها الطبيعي والنهائي يبدو دون نور ، فنتلون إما حمراء أو صفراء ، وفي هذه المرحلة يقولون (البلح عَقْرُ) ويسمون (زهو)

(١) الكم والكم غلاف الثمر والحب قدس أن يظهر وهو وعاء الصلح وعطاء النور وكُم الطلعة فسرهما ، ومن هنا قيل للقلنسوة كُمّة لأنها تغطي الرأس ، ومن هذا كُمّ القمص لأنهاما يغطيان اليدين [لسان العرب - مادة كم]

الثاني إذا استقر اللون وكملت حمرة أو صفرة يُسمونه (بُسْر)

الوصف لثالث بعد اللحم واللون يأتي الفوام لين أو ناس بحسب البيئة ، فمن كانت حارة جافة ، فإنها تؤثر على لبسْر وتُجفِّفه ، فيتحول إلى تمر ، وإن كانت البيئة باردة رطبة صرَّ البُسْر رطباً

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَعَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْحَمِيمِ ﴿٦٨﴾

معنى ستضطرمم الضرورة وتُلجئهم بهذا المثل المكدر المكدر لهم ، حيث لا طعامَ بهم غيرها ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا ﴾ [الصفات] وإن يأكلوا على قدر الضرورة ، بل ﴿ لَمَّا كُونُ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ [الصفات] وعندما يملأون منها بطونهم تزداد النارُ فيها ، فيريدون شرباً يطفيء هذه النار ، فيكون شرابهم الحميم ، والعياء بالله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ (٦٧) [الصفة] الشَّوْبُ هو الشيء المخلوط المعروف ، والحميم هو الماء الذي يبلغ عاية الحرارة وفي موضع آخر سمَّاه القرآن (الغسلين) هذا شرابهم والعياء بالله ، هذا ما أكلوا وشربوا عادوا للحميم مرة أخرى ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْحَمِيمِ ﴾ (٦٨) [الصفات]

ثم يُبين الحق سبحانه علَّة ذلك ، وسبب هذا المصير المؤلم ،

(١) الشَّوْبُ الخلط بالشَّوْبِ في الأمة الخلط والعزاج [لسان العرب مادة شوب] قال السديّ شَابَ (خلط) لهم الحميم يفتساق أعينهم وصديد من قيعهم ودمائهم وفيل يُسرج لهم الرقوم بالحميم ليجمع بهم بين مزاولة الرقوم وحرارة الحميم ، تخلطاً لعنايتهم وتجديداً ليلائهم [القرطبي في تفسيره ٥٧٢٦/٨ ٥٧٢٧]

(٢) قال بعضي ﴿ وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ (٢٠) [الصفة] والغسلين هو صديد نهر النار [التفسير الميسر]

وانه ليس ظلماً لهم . إنما جزاء ما فعلوا :

﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ أَبَاءَ هُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾
فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعنى وجدوا آباءهم على ضلال ﴿فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ﴾ [٧٠] [الصافات]
يعنى يتبعون طريقهم ويفقدونهم . ومعنى ﴿يُهْرَعُونَ﴾ [٧٠] [الصافات]
أى يُرْعَوْنَ ويسرعون كأن شيئاً يحملهم على الإسراع . لأن هذا
الفعل (يُهْرَعُونَ) مبنى للمجهول أى لما لم يُسم فاعله كم
نقوس . زُكُم فلان فالفاعل غير معروف

ولو كان الإسراع فى اتباع الآباء منهم لقار يهرعون بالفتح . إما
يهرعون كأن شيئاً يدفعهم إلى تقليد الآباء . ليبين لك سبحانه أن
الشر أعدى . لأنه لا تكليف للنفس فيه ولا حجر للشهوة . لأن
يجرى الإنسان إليه ويسرع فى طلبه .

أما الهدى ولعنهم فلا يسرع إليه لأنه يُصِيقُ عليه مجال
الشهوات . ويُفِيدُ حركته فى إظهار ما شرع الله . إذن هم يُقْلَدُونَ
الآباء وهم يعرفون أنهم ضالون لينفصلوا من قيد التكليف الشرعية .

لذلك لما أحد الله تعالى علينا العهد ونحن فى عالم الدر . قال
سبحانه ﴿وَإِذْ أَحَدُ رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴿١٧٢﴾ أَوْ
تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فَسْتُهَنِّكُوا بِهِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف]

وقد حكى القرن اعتراضهم باتباع الآباء فى أكثر من موضع من

كُتِبَ اللَّهُ ، فَقَالَ سَجَّاتُهُ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ فَأَبَوْا بِرُشْبَعٍ مَا
الْمِثْلَ عَلَيْهِ أَمَّا بَا (١٧) ﴾ [البقرة] وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ ﴿ أَرَأَيْتُمْ كَذِبَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا
وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فَكَانَ الْحَقُّ سَجَّاتِهِ يَقُولُ لَهُمْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذَا الْإِدْعَاءِ
وَلَوْ كَانَتْ الْقِصَّةُ عَامَةً ، فَلَمَّا لَمْ تَنْتَعِزُوا أَنْتُمْ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
وَقَدْ جَاءَ بِمَنْهَجٍ وَسَارَ عَلَيْهِ ، فَلَوْ اتَّبَعَهُ لَقَامُوا لِقَائِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ
وَهَكَذَا ، وَلَا سَتَمَرُ مِنْهَجُ اللَّهِ إِنَّمَا حَكَمْتُمْ الشَّهَوَاتُ وَسَيَّطَرَتْ عَلَيْكُمْ
الرَّعَايَاتُ ، فَاحْرَحْتُمْ عَنْ مَنْهَجِ رَبِّكُمْ وَخَالَفْتُمْ ثُمَّ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ
عَاقِلٌ يَعْنِي هَذَا لِصَلَالٍ ، وَيَتَأَنَّفُ أَنْ يَتَّبِعَهُ ، وَيُبْحَثُ عَنْ هَدًى ؟

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قُلُوبُهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُنْذِرِينَ ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٢) ﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (٧٣) ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قُلُوبُهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) ﴾ [الصافات] يَعْنِي
لَيْسَ هَؤُلَاءِ سَعَاءً فِي الصَّلَالِ لَقَدْ ضَلَّ قُلُوبُهُمْ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ
سَبَقُوهُمْ ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ قَلِيلًا آمَنُوا ، وَالْكَثَرَةُ ضَلُّوا ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُنْذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] يَعْنِي لَمْ تَتْرَكْهُمْ عَلَى غَفْلَتِهِمْ ، بَلْ أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَنْذِرُهُمْ وَتَحْذَرُهُمْ .

وَقُلْنَا : إِنَّ فِي ذَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مَنَاعَاتَ ذَاتِيَّةَ تَعْصِمُ
صَاحِبَهَا مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَمِنَ الزَّلَالِ ، حَتَّى يَوْكَانَ مُتَقَرِّبًا عَنِ النَّاسِ ،
فَإِنْ صَعُفَتْ عِنْدَهُ هَذِهِ الْمَنَاعَةُ فَخَالَفَ مَنْهَجَ اللَّهِ بَلُوْمَهُ النَّفْسَ لِلرَّأْمَةِ
الْأَوَّابَةِ فَتَوَلَّاهُ حَتَّى يَتَوَبَّ وَيَرْجِعَ ، فَإِنْ أَلْفَ الْمَعْصِيَةِ وَصَعُفَتْ عِنْدَهُ

النفوس النوامة . ولم يعد له رادع من ذات نفسه ردعه المجتمع الامر بالمعروف الناهي عن المنكر ، المجتمع الناصح الذي يقيم بين افراده قوله تعالى ﴿ وَبَوَّضُوا بِالْحَقِّ وَبَوَّضُوا بِالصِّرَاطِ (٣) ﴾ [العنبر]

وفرق بين : وصَّوْا وتواصَّوْا ، تواصَّوْا يعنى : يُوصى بعضكم بعضاً ، ففيها تفاعل بين افراد المجتمع ، لان المجتمع حتى المؤمن امتين متفاوت الناس فيه من حيث الاستقامة وتطبيق المذهب ، ولا بُدَّ ان يُؤخذ في المجتمع من يضعف فيشذ ، أو تصيبه غفلة ، فيحد من برده ، ويحد من ذكره حتى يعود إلى الجادة

فلما فقد الرادع من المجتمع ، وعمَّ الفساد المجتمع قلما تدخلت السماء برسول جديد ومنهج جديد ،

بحر يعرف ان الرسول يأتي بشيراً ونذيراً لكن الحق سبحانه هذ حصَّ الإنذار ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُدْرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] لماذا ؟ قالوا لان رء المفسدة مُقدِّم على جنب المصلحة ، وقنا لتوضيح هذه المسألة لو ان شخصاً يرمى بك تفاحة مثلاً ، وأخر يرميك بحجر لا شك أنك ستدفع الحجر عن نفسك أولاً

وقوله ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُدْرِينَ (٧٣) ﴾ [الصافات] يعنى : تأمل نتيجة الإنذار فمرس الله أنذروا الجميع ، لكن هل انتفع الجميع بالإنذار ؟ لا بل منهم من انتفع به ، ومنهم من أعرض عنه لذلك جاء الحق سبحانه بعدها بهذا الاستثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾ [الصافات] أى الدين أحصاهم واصطفاهم لعبادته وطاعته ، وهم الذين انتفعوا بالإنذار

وبعد ان تكلم الحق سبحانه عن موكب الرسل اجمالاً ، فقال ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُدْرِينَ (٧٣) ﴾ [الصافات] أراد سبحانه ان يتكلم عنهم

ببعض التفصيل ، فقال سبحانه -

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنَعْمَ الْمُجِيسُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧)
﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩)
﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١)
﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٨٢)

مكن ، لما إذا بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ؟ قالوا : لأن دعوته كانت أشبه بدعوة سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وُصِّيَ بِهِ نُوْحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وُصِّيَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٣) [الشورى]

الحق سبحانه وصَّى نوحاً ، ووصَّى غيره من الرسل ممن هم أعلى منه ومع ذلك عطفهم عليه ، وجعله في المقدمة قايلاً : لأن لنوح خصوصية هي في البيئة التي كان فيها ، وفيمن آمن به ، فكان المؤمنون به هم الذين نَحَوْا في السفينة ، وهم وحدهم الموجودون في العالم كله في ذلك الوقت ، فكان له عمومية رسالة بخصوص الموصوع ، ورسول الله ﷺ به عمومية رساله ، لكن في عموم الموصوع .

قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ (٧٥) [الصافات] كلمة (نَادَانَا) تدل على أنه عليه لسلام استفد كل وسائله في دعوة قومه ولم تفلح ، بدليل أنه قال في موضع آخر كما حكى القرآن ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي

على الأرض من الكافرين دياراً ﴿٤٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ بَصُلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاحِرًا كِهَارًا ﴿٤٧﴾ [نوح] وما دعا نوحٌ على قومه هذه الدعوة إلا بعد يأسٍ منهم ، وبعد أن وجد أن أسسائه الإيمانية المحيطة به من أتباعه غير كافية ، فلمنٌ ملحاً إدسٌ يلجأُ الله ، لأنه وحده القادر على أن يُخلصه منهم ، فبيديه يا ربُّ أنت بعثتني فلا تتخلَّ عني ، وهذه ظاهرة فطرية لكل مستنجد مستغيث ، فأنت حين يطرأ لك خطر ، لا تستطيع دفعه بقوتك وحيلتك تستنجد بأقرب الناس إليك ، فإن لم تجد تستنجد باليعيب ، فربُّ عزَّ اعزَّ يقول كما قلنا سابقاً - (يا هوه) يعنى : يا ربِّ ليس غيرك يُغيثني

ثم يأتي جواب هذا النداء ﴿لَنَنعِمَ الْمُحْسِنُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ [الصافات] لأنه عليه السلام كان نعم الداعي ، فلا بُدَّ أن يقابل بنعم المحسِنين . ولم يقلْ فلنعم المحيِبُ ، لأن الحق يحبيه بحنوده في الأرض مثل اهواء والماء والملائكة ﴿وَمَا يَعْلَمُ حُدُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿٣٦﴾ [المدثر] ونتيجة هذه الإجابة ﴿وَجِئْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ [الصافات]

وهذا وقف المستشرقون يقولون كيف وقد أهلك الله وبه ، أليس من أمه ؟ لكن في موضع آخر نص القرآن علينا عصاة نوح عليه السلام وولده الذي شذَّ عنه ، لفرق مع المفرقين ولم تُلجج توسُّلات نوح ﴿رَبِّ إِنِّي أَنبِئُ مِنْ أَهْلِ وَإِنْ وَعْدُكَ لَحَقٌّ رَأَيْتَ أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ [هود]

وهذا اللبس ناتج من أن الناس أغفلوا أن بنوة الأنبياء ليست بنوة النسب ، إنما بنوة الإيمان بالله ، لذلك ربُّ الله على نوح ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ﴿٤٦﴾ [هود]

فالأهلية هنا أهلية عقيدة وإيمان بالله ، لا أهلية دم ونسب ، لذلك

إذا نظرت في هذه الآية تجد الحق سبحانه لم ينفِ الدات ، إنما نفى فعل الدات ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ..﴾ (١٦) [هود]

لذلك قال أنفى ﷺ « لا بأسى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأعمالكم وأحسابكم »^(١)

وكلمه ﴿مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) [الصافات] امراء الفرق والكرب هو المكروه الذى لا تستصيع دفعه عن نفسك ، ولا يدفعه عنك مَنْ حولك حين تسعيتُ بهم ، فإن كان لك فيه حيلة للنجاة فلا بُسْمَى كُرباً ، ووصف الكرب هنا بأنه عظيم ، لأنه جاء بحيث لا يملك أحدٌ دفعه ، فالماء ينهمر من السماء ، وتتفجر به الأرض ، ويغطي قمم الجبال ، فآين المقر إدن ؟

ومعلوم أن الماء قوام حياة كل حيٍّ ، ومن أحلَّ نعم الله علينا ، لكن إن أراد سبحانه جعل الماء بقمة وعذاباً وقد رأينا فى قصة سيدنا موسى عليه السلام كيف نحى الله موسى بأماء ، وأهلك فرعون بنفس الماء

وهو له تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧) [الصافات] أى الذين كانوا معه فى السهينة وهم المؤمنون بدعوته ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) [الصافات] أى فى الناس جميعاً من بعده يثبثون عليه^(٢) ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) [الصافات]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « يا قاطمة أنتدى نفسك من النار فإسئ لا أمنت لكم من الله شيئاً عير أن لكم رحماً سألها ببلالها ، أخرجته مسلم فى صحيحه (٢٠٤) كتاب الإيمان

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٨ ٥٧٢٩) عند تفسير هذه الآية : « أى تركنا عليه ثناء حسناً فى كل أمة ، فإنه مبعوث إلى الجميع ، حتى إن فى المجوس من يقول إنه ألفريدوس ، روى معناه عن مجاهد وغيره »

فالباس جميعاً عليهم حين يسمعون سيرة هذا النبي الذي تحمل
في سبيل دعوتك العشاق ، ومكث في دعوة قومه هذا العمر الطويل ،
الذي خالف أعمار الناس أن يُسلموا عليه ، ويبقى حين نسمع ذكره
أن نُسلم عليه ، فنقول عليه السلام ﴿ سلام على نوح ﴾ (٧٤) ﴿ [الصافات]
أي عمله لسلامة والسلام ﴿ إنا كذلك نجزي المحسن ﴾ (٧٥) ﴿ [الصافات]
يعني هذه سنة الله متبعة في أنبيائه ، أن ينصرهم ويبقى بهم الذكر
لحسن من بعدهم ﴿ إنه من عبادا المؤمنين ﴾ (٨١) ﴿ [الصافات]
وقوله ﴿ ثم أعرفنا الآخرين ﴾ (٨٢) ﴿ [الصافات] يعني الكافرين
وكلمة (الآخرين) إهمال لهم ، واحتقار لشأنهم

﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّيَّابِرْهِيمَ ﴾ (٨٣) ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴾ (٨٤) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٨٥) ﴿ أَفَكَا
ءَ إِلَهِةَ دُونَ اللَّهِ يَرِيدُونَ ﴾ (٨٦) ﴿ فَمَا طُغِيَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٧) ﴿

قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّيَّابِرْهِيمَ ﴾ (٨٣) ﴿ [الصافات] أي أن
إبراهيم عليه السلام - كان من شيعة سيدنا نوح يعني من
أتباعه الذين تابعوه ، وساروا على منهجه والشريعة هم الذين
يُشايعون الإنسان على فكره فيؤمنون به ، بل ويحاولون أن يحملوا
دعوته إلى الناس معه ، وأن يتحملوا الأذى في سبيل ذلك ، ومن هنا
سُميت لشبهة المذهب المعروف الذين شايعوا الإمام علياً رضي الله
عنه ، وتعلمون طبعاً الفرق بين الشيعة والشيوعية

لكن لماذا بدأ الحق سبحانه بها موكب الرسل بنوح عليه
السلام - ثم تبعه بإبراهيم - عليه السلام ؟

يقول سبحانه ﴿إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات] هذه هي العلة ، لأن سلامة القلب هي الأساس في الدين وفي العقيدة . لأن فطرة الله التي فطر لناس عليها ابتداءً مبنية كلها على هيئة الصلاح والسلامة ، فإن طرأ على هذه الفطرة فسادٌ فمن الإنسان

لذلك مدح سيدنا إبراهيم بسلامة القلب ﴿إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات] وهو القلب الذي فطر عليه أولاً صل كما هو ثم يتغير فعاش به ، وجاء به ربه في الدنيا ، لذلك يصفر به في الآخرة ﴿يَوْمَ لَا يَمْنَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) [الشعراء]

فالسلامة الأولى التي فطره الله عليها استند حبها باستصحاب منهج الله وسلم في الدنيا ، فلقى الله بقلب سليم . الآخرة . وهكذا وصف الله نبيه إبراهيم على أحسن ما يكون الوصف .

وتأم كلمة ﴿إِذْ جَاء رَبَّهُ﴾ (٨٩) [الصافات] فهي توحى بأن سيدنا إبراهيم لم ينتظر إلى أن يأتي له رسولٌ يدعوه ، إنما أقبل على الله بنفسه ، وحاء بفكره يبحث وتأم في ملكوت السموات والأرض إلى أن اهتدى إلى الله .

لذلك لما أراد الله تعالى أن يُعرف نبيه إبراهيم ، وأن يُقدمه لمعشر الإيمان قال هذه البرقية الموجرة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانًا لِلَّهِ خَفِيفًا﴾ (٩٢) [الاحزاب]

تعلمون أن الحق سبحانه خلق لموهب وورعها على اناس ، فكل من له موهبة هي شيء ما ، ذلك لينظر الناس مترابطين تربط حاجة ، فتحتاج لي وأحتاج لك ، أم سيدنا إبراهيم فقد جمع وحاز كل

امواهب التي فى أمة كاملة . فالمعنى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [البحر]
يعنى : حاز مواهب أمة .

لذلك ستحق : عليه السلام أن يُرَبِّه الله ملكوت السموات
والأرض ، فأساس جميعا يكتفون بعالم الملك ، أما هو فقد تجاوز هذا
العالم إلى عالم الملكوت ، لماذا ؟ لأنه جرد نفسه عن شبهة السعي
بأحد غير الله ، بدليل أنه لما ألقى فى النار وجاءه الملك يعرض عليه
المساعدة (ألك حاجة) ؟ فيقول سيدنا إبراهيم بما لديه من رصد
الإيمان واليقين بالله (أما إليك فلا) يقولها فى هذا الوقت
العصيب ، وهذا الكرب المكم

وقوله سبحانه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات]
وهذه مُعَدَّة من سلامة القلب ، لأنه أصب شيئاً وسعد به ، فأراد أن
ينقله إلى غيره وأولهم الأقارب فهم أولى الناس بأن تُعَدَّى لهم
خيرك ، ذلك أو ما دعا إبراهيم دعا أباد وقومه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات]

وكلمة (لأبيه) وردت فى القرآن عشر مرات واحدة فقط منها
لسيدنا يوسف - عليه السلام - فى قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ
يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاحِدِينَ﴾ [يوسف]
والتسع الدقيات لسيدنا إبراهيم بداية من سورة الانعام إلى
سورة الممتحنة ، من هذه التسع موضع واحد جمع فيه بين الاسم
العَلَم والوصف ، فقال ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَأَيْتَ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَكَ
وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام]

ومى الثمان الناسات جاءت كلمة (لآنيه) بدون ذكر آزر ، فكان كلمة آزر جاءت فى هذا الموضع لتُشعرنا بشيء ، هو أنك إذا جمعت بين الوصف والعلم ، فلا نُدُّ أن يكون الوصف مشتركاً مع غير العلم ، وضرينا بذلك مثلاً قلب ، إذا أردت أن تسأل عن شخص وقابلك ولده فى استارع تقول به ، أبوك موجود ؟

لأن هذا السؤال لا ينصرف إلا إلى أبيه الحقيقى ، فإن قلب أبوك محمد موجود ؟ فإنك لا شك تقصد عمه ، لأنك ميّرته باسمه لإزالة الاشتراك فى الأبوة

بذن زر لم يكن لأب الحقيقى لسيدنا إبراهيم ، إنما هو عمه ، ولا عرابة فى ذلك ، فالقرآن يسمّى العم أبا فى قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِسِمْهَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة]

ومعنى أن إسماعيل أخو إسحاق ، ومع ذلك دخله فى حملة الآباء بالنسبة لسيدنا يعقوب ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام

وسيدنا إبراهيم فى معرض دعوته لآبيه وقومه يسألهم هذا السؤال ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٠) [الشعراء] وفى موضع آخر ﴿ مَا دَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٨٥) [الصافات] و ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَشْرَكْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (٦٢) [الأنبياء]

وهذا ﴿ مَا دَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٨٥) أنفكاً آلهة دُون الله تُرِيدُونَ (٨٦) [الصافات] وهذه كلها استفهام إنكارى ، وقلنا : إن الاستفهام أقوى من الإخبار ؛ لأن الإخبار يمكن أن يُكذَّب ، أمّا الاستفهام فيجعل الخصم يُقرّ بالقضية ، ولا يستطيع أن يكذبها

والإفك هو أقبح أنواع الكذب ، لأن الإفك فى الكذب على مراحل ،

كيف ؟ قاموا ينتظر في الموضوع الذي يكون فيه الكذب ، فإن كان في الحقيقة العليا في الدات الإلهية ، فهو أقبح الكذب كمن يدعى الله شريكاً

فإن كس الكذب على البشر فهو بحسب من تكذب في حقه ، فمثلاً الدين انهموا السيدة عائشة وخاضوا في عرصها سمأه الله إفاً شداغته وعظم مدولة من قبل في حقه هذا الكذب ، فقال سبحانه ﴿إِنَّ الدِّينَ جَاءَ رَايَا الْإِفاكِ عُصْبَةُ مَكُمُ﴾ [البور]

ومن معاني الإفاك قلب الشيء على وجهه ، وقلب الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَالْمُؤْتَمِكَةُ أَهْوَى﴾ [البهم]

والمعنى أتريدون آلهة إفاً وكذباً دون الله ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات] أخبرونا ماذا تظنون في الله ؟ وما الذي لا يعممكم في ألوهيته سبحانه ؟ وكيف تخدعون أنفسكم ، فتتصرفون عنه سبحانه وهو ربُّ لعالمين ، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿يَأْتِيهِ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار]

لذلك قال أحد العارفين كان لحق سبحانه لغز الناس الحواب ، عالدي عرني بالله أنه كريم والمُرقة هنا أن رجلاً رأى آخر يصلي صلاة على حجر ينقرها نقرأ ، فقال له بالله لو عليك خمسة قروش لواحد ، يصح أنك تعطيها له ممسوحه ؟ فقال الرجل والله ، لو كان كريماً سيقبلها ولا ينخر فيها

فكان الحق سبحانه يتعجب من هؤلاء الذين أشركوا به سبحانه مع وضوح الدليل على نطالان شركهم ، والشيء لا يتعجب منه إلا إذا جاء على غير ما يجب أن يكون عليه من الصئق ، لذلك قال سبحانه

هِيَ أَوَّلُ الْبَقَرَةِ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) [البقرة]

يعنى هذا أمر عجيب منكم ، ومسألة لا يقبلها العقل ،

ثم بدأ سيدنا إبراهيم عليه السلام يُحَقِّقُ قَوْلَ رَبِّهِ ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكًا مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (٧٥) [الأنعام] وسبق أن فرَّقنا بين الملك والملكوت ، يقول سبحانه

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨)

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (٩٠) قَرَّاعٌ إِلَىٰ آلِهِ هَاهُنَا
فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ (٩٢) قَرَّاعٌ عَلَيْهِمْ صَرْبًا
بِالْيَمِينِ ﴿فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ رِعْقُونَ﴾ (٩٤) قَالَ اتَّعِدُّونَ مَا تُنَبِّحُونَ
﴿وَاللَّهُ حَقِّقُكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) [الصافات]
هذه أولى خطوات إبراهيم إلى عالم الملكوت ، والنظرة هنا ليست هي
النظرة الخاطفة العابرة ، إنما نظرة التأمل الفاحصة المتأنية ، فهي بمعنى
رَأَى بِتَمَعٍّ واستنطاق ، ومن ذلك قولنا هذه مسألة فيها نظر بمعنى
تأمل ونأر ، والنجوم مفردة نجم ، وهو كل مصيء في السماء [ضياء
ذاتية] ، لا أن يعكس ضوء الشمس ، وعليه فالشمس نجم من النجوم

فقوله تعالى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) [الصافات] دل على أنها
نظرة طويلة متأنية مستوعبة ، لأنها ستوعبت كوكباً وقمرًا وشمسًا
لذلك شرح لنا هذه النظرة في موضع آخر ، فقال سبحانه

﴿ وَكَذَلِكِ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُوْنُ مِنَ الْمَوْقِنِ ۝٧٥﴾
 فلَمَّا حَسِبَ أَنَّهُ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالِ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ لَمَّا
 رَأَى الْقَمَرَ بَارِعًا قَالِ هَٰذَا رَبِّي فَمِمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُوْسَ مِنَ الْقَوْمِ
 الصَّٰلِيْنَ ۝٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِعَةً قَالِ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَمِمَّا أَفَلَ قَالِ يَقُوْمُ
 إِلَيَّ بِرِيَءٌ مِّمَّا شَرَكُوْا ۝٧٨﴾ إِلَيَّ وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ حَيًّا
 وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ۝٧٩﴾ [الأنعام]

إِذْ كَانَتْ نَظْرَةُ إِبْرَاهِيمَ صَوِيْلَةً مَّتَابِيَةً ، لَأَنهَا اسْتَفْرَقَتْ طِيَّةَ
 مَطْلَعِ الْكَوْكَبِ وَغِيَابَهُ ، ثُمَّ مَطْلَعِ الْقَمَرِ وَغِيَابَهُ ، ثُمَّ مَطْلَعِ الشَّمْسِ
 وَغِيَابَهَا ، فَلَمَّا رَأَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرَاتِي لَا تَصْلُحُ لِأَنْ
 يَكُوْنَ كَلِمَةً تُعَدُّ ، قَالِ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٦﴾ [الصافات] الْبَعْضُ يَعُدُّهَا كَلِمَةً
 مِنْ كَلِمَاتِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالِ لِقَوْمِهِ إِنِّي مَرِيضٌ

إِذْ أَحَدُوا اسْتُفْمَ عَلَى أَنَّهُ سَقْمٌ الْإِبْدَانُ ، وَالْمَرْدُ هُنَا سَقْمٌ
 الْقَلْبِ ، وَشُعْلُهُ بِمَا لَا يَسْتَصِيحُ الْإِنْسَانُ تَحْمُلُهُ مِنْ إِنْكَارِ الْقَوْمِ لِمَسْأَلَةِ
 الْإِلَٰهِيَّةِ ، فَهَذِهِ قَضِيَّةٌ تَتَعَبُهُ وَتُؤَرِّقُهُ .

وَهَذَا هُوَ السُّفْمُ الَّذِي أَرَادَهُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ﴿فَقَالِ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٦﴾
 [الصافات] أَيْ مُجْهَدٌ فِكْرِيًّا مِنْ إِنْكَارِ النَّاسِ بِقِصَّةِ الْإِلَٰهِيَّةِ ، إِذْ
 إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ لِيَرَى دَلِيلًا يَقْتَنِعُ هُوَ
 بِهِ ، إِنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ دَلِيلٍ مَادِيٍّ هُوَ الْكُوْنُ يَنْقُلُهُ لِلنَّاسِ .

لَكِنْ مَا الَّذِي أَحْوَجَهُ أَنْ يَقْرَأَ لِلْقَوْمِ إِنِّي سَقِيمٌ ؟ قَالُوا لِأَنَّهُمْ
 كَانُوا فِي يَوْمٍ عَمِيدٍ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَقَالِ إِنِّي سَقِيمٌ لِكَيْ لَا يَخْرُجَ

١٠. فَهَمْ تَصَوَّرُوا مِنْ قَوْلِهِ بِهِمْ (إِنِّي سَقِيمٌ) أَيْ إِنِّي مَطْعُونٌ أَيْ مُصَابٌ بِالْجَدْعِ بِأَنَّ ذَلِكَ
 قَالِ تَعَالَى بَعْدَهَا ﴿فَتَوَرَّأَ عَنْهُ الْمُدْرِكُونَ ۝٨٧﴾ [الصافات] أَحَدُجَ ، بَيْنَ أَيْسَى حَذَنَمَ عَنْ سَعِيدٍ فِي
 قَوْلِهِ (إِنِّي سَقِيمٌ) قَالِ طَعْنٌ ، وَكَانُوا يَفَرُّونَ مِنَ الْمَطْعُونِ [الدر المنثور للسيوطي]

معهم ، وليتفرغ هو لما عزم عليه من تحصيم الأصنام ، يقول تعالى ﴿ قَتَلُوا عَنْهُ مَبْرِينَ (٩١) ﴾ [الصافات] أى انصرفوا وتركوه
﴿ فَرَاغَ إِلَى الْهَنَمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩٢) ﴾ [الصافات] معنى راع ذهب
حُفِيَّة ، بحيث لا يراه أحد ، أو تسلل كمن يريد الانصراف من مجلس
دون أن يشعروا به ، فيمشى خطوتين ثم يقف ، ثم يمشى ، ثم
يتوارى خلف شيء وهكذا حتى يخرج ، وهذا المعنى نقوله بالعامية
ملان زوُغ أو زاخ .

وسيدنا إبراهيم فعل ذلك وتسلل إلى آلهتهم ليحطمها ، لكن قبل
أن يحطمها استهزأ بها ﴿ فَقَالَ (٩٠) ﴾ [الصافات] أى للآلهة ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ
(٩١) ﴾ [الصافات] علم يُجيبوا ، مقال ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْفِقُونَ (٩٢) ﴾ [الصافات]
قالها سخريّة واستهزاء بهم

بعد ذلك مال عليهم ضرباً ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) ﴾ [الصافات]
وقلنا إن اليمين جهة القوة كما فى قوله سبحانه ﴿ قَالُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ
تَأْتُونَ عَنِ الْيَمِينِ (٩٤) ﴾ [الصافات] أى من جهة القوة والفهر والمعنى
أن سيدنا إبراهيم أخذ يحطمها بقوة ويكسرها ، حتى أحدث اكسير
صوتاً عالياً سمعه القوم ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ (٩٥) ﴾ [الصافات] أى
مسرعين .

فلما رأهم ﴿ قَالَ أَنْعِدُونَ مَا أَنْعَدُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (٩٦) ﴾ [الصافات] الاستفهام هنا لتعجب وللاستنكار ، يقول لهم كيف
تعبدون إلهاً من صنْع أيديكم تحتونه من الصخور ، فأنتم أعلم
الناس به ، رتوته يقع ، فتقيمونه فى مكانه . وينكسر فتصلحونه ،
ويجرفه السيل ويمرغه فى الوحل فتتشلونّه .
إذن كيف يُعبد مثل هذا الإله ، وكيف تنصرفون إلى عبادته .

وتتركون عبادة الله الإله الحق الذي خلقكم ، وخلق ما تعملون ٢
وطبعاً ليس لديهم جواب لهذا السؤال ، وليس لديهم ردُّ على
إبراهيم إلا ردُّ القوة والصش ، فلا حجة لديهم ، ولا منطق يدافعون
به عن آلهتهم .

﴿قَالُوا اتَّبُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ هَيْثُ مَا نَزَلُوا فِي الْجَحِيمِ﴾ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

تعلمون قصة النار التي أوقدوها ، ثم ألقوا بنبي الله إبراهيم في
وسطها ، هد هو الكيد الذي أرادوه بإبراهيم ، وما كسب الله تعالى
ليبيح نبياً ثم يسلمه فردُّ الله كيدهم عليهم ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥)
وأكيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ [الطَّارِق]

ومعنى ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨) [الصافات] أى فى هذا المقام
وهى هذا الموقف الذى معبره بإبراهيم ، فليسوا الأسفلين لأنهم كفار ،
إنما (أسفلين) لأنهم تعالوا على إبراهيم وتمكروا به وقدروا على
إلقائه فى النار فعلاً وهى مشتعلة ، وطلبوا ساعتها بهم هم يفعلون

لكن سرعان ما تكشف حقيقة الموقف ، وظهرت الآية الكرى
لدى إرادتها الله تعالى ، فلو أراد الله لنجاة إبراهيم ، فلم يتمكنوا من
الإمساك به ، ولو أراد سبحانه لامطرت السماء على النار فاطفأتها ،
لكن أراد الله أن يبطل حجتهم ، فلو هرب إبراهيم من أيديهم لقالوا
لو لم يهرب لأحرقناه ، ولو أمطرت السماء لقالوا : ظاهرة طبيعية
لا دخل لنا بها .

لكن ما هو إبراهيم ، وما هى النار تشتعل ، ومع ذلك يجو
إبراهيم بعد أن جاء نداء الحق وكلمة الحق الخلق ﴿قُلْنَا يَنْصَارُ كُوفَى بِرَدَا

وسلاماً على إبراهيم ﴿٦٩﴾ [الأنبياء]

الخطاب من الله تعالى ، والأمر لسار على طبيعتها ، وودات مواصفاتها
﴿كُوسِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [٦٩] ﴿[الأنبياء] لَا هِيَ سَاكٌ ، إِمَّا ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾﴾ [٦٩]
[الأنبياء] مهذه خصوصية لهذه النار بالذات فهي في طاهرها مشتعلة ،
وفي حقيقتها ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [٦٩] ﴿[الأنبياء] عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ، فَهِيَ مِثْلُ شَجَرَةٍ
الزقوم ، تبدو لهم شجرةً حضراءً ، وهي نار بحرقهم

وهكذا جعلهم الله في هذا المقام ﴿الْأَسْمِينَ﴾ [٦٨] ﴿[الصافات] أَيْ
فِي الْكَيْدِ الَّذِي دَبَّرُوهُ ، فَهُمْ يَكِيدُونَ وَاللَّهُ يَكِيدُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَخِّرَ
الْكَيْدَ مِنْ خِلَالِ فَاعِلِهِ .

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [٩٩] ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ

الصَّالِحِينَ﴾ [١٠٠] ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [١٠١]

لَمْ يَجِدْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ لِسْلَامٌ فائدة من دعوته لقومه ،
قال : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [٩٩] [الصافات] والمعنى ذاهب لنصرة
دبته ولا هربة موجود معه ، رَفَى كُلَّ مَكَارٍ ، أَوْ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي
أَيَّ - إِلَىٰ مَكَانٍ آخَرَ ، حَيْثُ أَجِدُ مَنْ يَسْمَعُنِي وَيَسْتَجِيبُ لِدَعْوَتِي ،
وَمَا دُمْتُ ذَاهِبًا إِلَىٰ رَبِّي ﴿سَيِّدِينَ﴾ [٩٩] [الصافات] أَيْ يَهْدِينِي الْمَقَامَ
الطَّيِّبَ الْمُنَاسِبَ لِدَعْوَتِي .

ثُمَّ يَدْعُرْ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٠٠] [الصافات]
أَيْ هَبْ لِي ذُرِّيَّةً صَاحِبَةً مُؤْمِنَةً ، وَبِئْسَ اللَّهُ حَيْثُ يَتَمَنَّى الذَّرِيَّةَ
لَا يَتَمَسَّهَا لَتَكُونَ ذَكُورِي أَوْ عَزْوَةٌ أَوْ امْتِدَادٌ يَنْقَلُ إِلَيْهِ لَمُوتٍ ،
فَالْأَنْبِيَاءُ يَرِيدُونَ الْوَيْدَ لِيَحْمِلَ رِسَالَتَهُمْ ، وَلِيَكُونَ نَمُودَجًا إِيْمَانِيًا يَرِثُهُ
مِنْ دَعْوَتِهِ ، لَدُنْكَ قَالَ فِي قِصَّةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا ﴿يَرْثِي وَيُورِثُ مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [١٦] [مريم]

فَكَانَ سَيِّدًا إِبْرَاهِيمَ عَزُّ عَلَيْهِ أَلَّا يَتَسَعَ عَمْرُهُ لِيَكُونَ جَنَدِيًّا مِنْ
جُنُودِ مَنْهَجِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، فَقَالَ يَا رَبِّ قَدْ عَيْنِي نَأَى أَرَى وَلَدًا
يَحْمِلُ مَسْئُولِيَةِ السُّبُوتِ مِنْ بَعْدِي

وَقَالَ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٠) [الصافات] وَلَمْ يَقُلْ رَبِّ هَبْ
لِي الصَّالِحِينَ ، فَأَرَادَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ هُوَ صَالِحٌ مِنْ صَمْنِ صَلَاحٍ
غَيْرِهِ ، فَهُوَ يَرِيدُ الصَّلَاحَ لَذُرِّيَّتِهِ وَبِالْآخَرِينَ ، لِذَلِكَ أَحَابَهُ رَبُّهُ
﴿ فَبَشِّرْهُ بِأَهْلًا حَلِيمًا ﴾ [الصافات] اِحْلِيمٌ هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَفْرِهُ
غَضَبًا ، وَيَتَحَمَّلُ الْأُمُورَ عَلَى مَقْدَارِ مَا تَطْيِبُ بِهِ أَحْلَاقَهُ ، وَمِنْ الْحِلْمِ
تَرْكُ الْمَرَاءِ وَاللَّجَاجِ ، وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقِّ

لِذَلِكَ جَاءَ فِي حَدِيثِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « أَنْ زَعِيمٌ^(١) بَنِيَتْ فِي
رَبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمَرَاءَ ، وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا .. »^(٢)

فَهَذَا فِي حَاشِيَةِ الْجَنَّةِ ، وَهَذَا فِي صَمِيمِ الْجَنَّةِ ، لِمَا ذُكِرَ ، لِأَنَّهُ
يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ رَبًّا قَيُّومًا لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا يَوْمٌ ، سَوْفَ يَحْكُمُ بَيْنَ
الْجَمِيعِ ، وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي كُلُّ الْخِلَافَاتِ ، فَيَقْتَصِرُ لِلْمَظْلُومِ مِنْ ظَالِمِهِ
وَالذُّنُوبِ يَمِيلُونَ دَائِمًا إِلَى كَبِيرٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، وَنَقُولُ فِي الْعَامِيَةِ (إِلَى
بِهِ أَبْ مَحْمَلُشْ هَمْ) هَذَا مَا لَكَ بِمَنْ لَهُ رَبٌّ . لِذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِنَا
أَنْ يَقُولَ يَا عِبَادِي بَايَعُوا مَلَأَ جَفَافَكُمْ ، لَتَصْبَحُوا نَشِيطِينَ
لِأَعْمَالِكُمْ وَلَا تَحْمِلُوا هَمَّ شَيْءٍ ، لِأَنَّ رَبَّكُمْ لَا يَتَامُ

١- زَعِيمٌ كَفَيْلٌ قَالَ تَعَالَى عَلَى نَسَارِ يَوْسُفَ إِخْوَتَهُ ﴿ وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ رَأَى بِهِ
رُوعَهُ ﴾ (٧٦) [يوسف] أَيْ كَفَيْلٌ ضَامِنٌ [الْقَامُوسُ الْقَدِيمُ ٢٨٧/١]

(٢) أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي صَفْتِهِ (٤٨٠٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَسَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ « أَنَا زَعِيمٌ سَبَّ فِي رَمْسِ الْجَنَّةِ مَنْ تَرَكَ الْمَرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا وَبِغِيَّةٍ فِي
وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكِبْرَ وَإِنْ كَانَ مُزَاحًا وَبَنِيَتْ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ حُلُقَهُ »
رَبْضُ الْجَنَّةِ مَا حَوْلَهَا خَارِجًا عَنْهَا شَيْئًا بِالْإِتْقَانِ النَّاسُ تَكُونُ حَوْلَ الْمَدِينِ وَتَحْتَ الْقَلَاعِ
وَبَيْنَ وَسُطُهَا [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ رَبْضٍ]

وقوله سبحانه ﴿بَشَرْنَاهُ بِالْغَلَامِ حَلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٦] البشري
بالشيء تكون قبر وجوده ، عوصفه الله بأنه سيكون حلماً وهو
ما يزل غلاماً يعني سيجمع الوصفين معاً ، لأن الحلم عادة
ما يتكرر لدى الرجل الواعي الذي يستطيع تقدير الأمور فالميزة هنا
أن يتصف الغلام بالحلم في صغره ،

وفعلًا ظهر حلم هذا الغلام في أول اختبار يتعرض له حين قال
له أبوه ﴿يَسَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٦] ما أزل ماذا قال الغلام ، وأبوه يريد أن يذبحه ﴿قال يأت
أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات: ١٦] هذا هو
الحلم ، يتحلى منه وهو غلام .

﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ﴾
يَسَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ
يَتَأْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٧﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَسَاءَ بَرَاهِيمُ ﴿١٨﴾ قَدْ
صَدَقْتَ الرَّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوٌ
الْبَاطِلُ الْغَيْبُ ﴿٢٠﴾ وَنَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

(١) من هو الذبيح ؟ هل هو إسماعيل ثم إسحاق ؟ قضية اختلف فيها الناس ، وذكر فيها
للقرطبي في تفسيره (٥٢٣٩ ، ٨) (٥٧٤١) ثلاثة أقوال ثالثهما قول الزجاج الله أعلم
أيهما الذبيح وقد كان أميل إلى أنه إسحاق ، أما ابن كثير في تفسيره (١٦ / ٤ - ١٩)
فقد ساق أدلة الجميع وهدأ أدله القائلين بأنه إسحاق وحرم بأن الصواب وسميحه أنه
إسماعيل ، حتى يفسد الفرقة من أن إسماعيل أكبر من إسحاق بـ ١٢ سنة ، وأن إبراهيم
أمر بذب وحده الكرم ورد الأقوال المسموعة إلى الصحابة فلنطلب تفصيل هذه المسألة
في كتابها [عاب أبو المصالح]

(٢) تله للجبين كنه عن وجهه ، [القاموس القويم]

هذا لم يتعرض السياق بحسن السيدة هاجر ولا ولادتها
لإسماعيل ، إنما انتقل مباشرة من ابيشارة به إلى مرحلة سوجه
السَّعْيُ مع أبيه ، فقال سبحانه بعدها ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ ۚ (١) ﴾
[الصافات] ذلك لأن الحق سبحانه هو الذي يتكلم ، وهو الذي يحكى

ومن لبلاغة أن تُترك ما يُعلم من السياق ، وهذه سمة من سمات
الأسلوب القرآنى فعلى قصة سيدنا سليمان عليه السلام
والهدد ، قال تعالى ﴿ أَذْهَبَ بِكُنَازِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ عَلَيْهِمْ فَانظُرْ
مَاذَا يُرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [سمل] . ثم يختصر السياق كثيراً من الأحداث
ويقول ﴿ فَالْتِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ بِئِى أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ (٢٩) ﴾ [سمل] ولم
يتعرض لرحلة الهدد ، ولا لكيفية توصيل الخطاب إلى الملكة

كذلك هنا ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ (٣٠) ﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ (٣١) ﴾
[الصافات] فلو غلب السَّعْيُ دل على أن الإشارة تحققت ، وولد الغلام ،
وبلغ مع أبيه السعى وقرق بين (بلغ السعى) عموماً ، وبلغ مع أبيه
السعى ، لأن الغلام لا يُكَلَّفُ بالعمل إلا على قدر طاقته فى الحركة ،
وعلى قدر عافيته وتحملته ، وإسماعيل فى هذا الوقت بلغ السعى مع
أبيه فحسب لأنه لم يُكَلَّفْ أبوه الحنون إلا بما يقدر عليه من المصالح
والأمور الحياتية ، سيفعل الغلام ما يقدر عليه ، ويترك ما لا يقدر عنه
لأبيه ، ولو كان مع شخص آخر فربما كُلفه بما لا يستطيع

فلما بلغ الغلام هذا المبلغ ﴿ قَالَ يَنْبَغِي لِى رِى فِى الْمَنَامِ أَنِى أَذْهَبُ
(٣٢) ﴾ [الصافات] والمعنى رى فى المنام أنه مطلوب منى أن
أذهب لا أن الذبح ثم فى المنام ، وانتهت المسألة بدليل رد
إسماعيل ﴿ قَالَ يَنْبَغِي لِعَمَلٍ مَا نَزَمُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (٣٣) ﴾
[الصافات]

وَأَمَلْ هَذَا الْحَلَمَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، وَعَظْمَةِ الرَّدِّ فِي هَذَا الْإِمْتِحَانِ الصَّعْبِ ﴿قَالَ يَا بَنِي إِفْجَلٍ مَا تَأْمُرُونَ﴾ (١١) [الصافات] وَلَمْ يَقُلْ : أَفْعَلْ مَا تَرِيدُ ؛ لِأَنَّ طَاعَتَهُ لَأَبِيهِ هُنَا مِنْ حَاطِنِ طَاعَتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَاسْتِثْنَالِهِ لِأَمْرِ رَبِّهِ ، فَهُوَ يَدْرِكُ تَمَامًا أَنَّ أَبَاهُ مُتَلَوِّ الْأَمْرِ مِنَ اللَّهِ ، وَإِنْ جَاءَ هَذَا الْأَمْرُ فِي شَكْلِ رُؤْيَا ، إِذِنْ هُوَ يَعْلَمُ رَغْمَ صِغَرِهِ أَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحَى حَقٌّ

وَسَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ يَبَادِي وَلَدَهُ ﴿يَنْبِئُ﴾ (١٢) [الصافات] هَكَذَا بِالتَّصْغِيرِ لِأَنَّ بَنِي تَصْغِيرِ ابْنٍ فَلَمْ يَقُلْ يَا ابْنِي ، فَقَدْ أَوْثَقَهُ الْحَنَانُ الْأَبَوِي ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ هَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ وَهُوَ مَشْحُونٌ بِعَاطِفَةِ الْحُبِّ لَوْلَدِهِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ مَا يَزَالُ صَغِيرًا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ حَنَانَ الْوَالِدِ يَكُونُ عَلَى قَدْرِ حَاجَةِ لَوْلَدِهِ لِذَلِكَ الْمَرْأَةُ الْعَرَبِيَّةُ لَمَّا سُئِلَتْ أَيَّ بَيْتِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ فَقَالَتْ الْمَرِيضُ حَتَّى يَشْفَى وَالْغَائِبُ حَتَّى يَعُودَ وَالصَّغِيرُ حَتَّى يَكْبُرَ (١)

فَقَوْلُهُ ﴿يَنْبِئُ﴾ (١٢) [الصافات] يَعْنِي أَمَا لَا أَعْمَلُكَ مَعَامَلَةً ابْنًا ، بَلْ مَعَامَلَةً الصَّغِيرِ الْمَحْتَاجِ إِلَى الْحَذَرِ الْأَبَوِيِّ ، فَتَحْذَرُ أَوْ تَمَرُّ بِمَصْحُوبَةٍ بِهَذِهِ الْعَاطِفَةِ الْأَبَوِيَّةِ الْقَلْبِيَّةِ

وَقَوْلُهُ ﴿فَانْظُرْ﴾ (١٣) [الصافات] يَعْنِي فَكَّرْ ، وَتَدَبَّرْ ﴿مَاذَا تَرَى﴾ (١٤) [الصافات] أَيْ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا ، فَكَانَ الصَّغِيرُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُطْلُوبٌ مِنْهُ أَمْرٌ بَرَكَ بِأَبِيكَ ، وَبَرَكَ رَبُّكَ بِبَيْتِكَ ﴿قَالَ يَا بَنِي إِفْجَلٍ مَا تَأْمُرُونَ﴾ (١٥) [الصافات] فَقَوْلُهُ ﴿إِعْمَلْ﴾ بِرَّ بِأَبِيهِ وَقَوْلُهُ ﴿مَا تَأْمُرُونَ﴾ بِرَّ بِرَبِّهِ

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي (الْعَقْدِ الْفَرِيدِ) ، وَالْعَبِيدُ فِي (الْكَامِلِ) ، وَالرَّمَحْمُوسِيُّ فِي (الْمُسْتَقْصَى فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ) [وَالْعَبِيدَانِ فِي (مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ)] ، مِنْ كَلَامِ هُوْدَةَ بْنِ عَلِيٍّ الْحَنْفِيِّ لِكُتَيْبِ بْنِ الْأَغَاثِ لِأَبِي الْعَرَجِ الْأَصْفَهَانِيِّ ، وَالرَّافِعِ الْأَصْبَهَانِيِّ فِي (مَحَاضِرَاتِ الْأَدَمَاءِ) أَنَّهُ لَخِيْلٌ فِي سِلْعَةِ الثَّقَفَى

ثم يؤكد سيدنا إسماعيل رغم صغره فهمه لهذه لقصة ، وإدراكه لهذا الابتلاء ، فيقول ﴿سَجَدْنِي إِذْ سَأَلَ اللَّهَ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٢)﴾ [الصافات] أى على هذا البلاء ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا (٣)﴾ [الصافات] يعنى هما معا استسما لأمر الله ، وأذعنّا بحكمه ، وسلّم كرّصهما رمام حركته فى السفل برّنه ، فإبراهيم هم بالذبح ، وإسماعيل انقاد وقال لآله ﴿سَجَدْنِي إِذْ سَأَلَ اللَّهَ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٢)﴾ [الصافات]

والابتلاء هى حقّ سيدنا إبراهيم عليه السلام ابتلاءً مرگب هذه المرة ، فقد انكلى هى شبهه حين ألقى فى النار ، ونجى فى لابتلاء ، أما هذه المرة فالابتلاء وهو شيخ كبير جاءه الولد على كبر ، فهو أحب إليه من نفسه ويؤمر بقتله

وكان نوسّع إبراهيم أن يذبحه على غرة ، ودون أن يعلمه بمسألة الذبح هذه ، ولكنه أراد أن يشركه معه فى الأجر ، والأىوغر صدره من ناحيته ، وهو يذبحه دون داع .

وفوله تعالى ﴿رَبُّنَا يَلْحَظُنْ (١٣)﴾ [الصافات] يعنى اللقاء على وجهه ، أو على جنه ، قالوا كان ذلك بمشورة الولد ، حتى لا يرى أبوه وجهه ساعة يذبحه فتأخذه الشفقة به ، فلا يذبح ، وكان الولد يُعين والده ويساعده على إتمام الأمر ، وهكذا طهر الاستسلام واصحاً ، فالولد ملقى على الأرض ، والوالد فى يده السكين ، يحاول بالفعل ذبح ولده ، وأى ولد ، ولده الوحيد الذى ررق به على كبر

والابتلاء ليس بأن يموت الولد ، إنما أن يذبحه أبوه بيده ، لا شخص آخر ويذبحه بناءً على رؤيا لا أمر صريح لذلك قلنا ابتلاء مرگب ، لأن وجوه الابتلاء فيه متعددة ، قد جتاز إبراهيم وولده هذا الابتلاء بنجاح واستحق عليه السلام أن يقول الله فى حقه : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢)﴾ [النحل]

يقول لما وصل إبراهيم وولده إلى هذه الدرجة من الاستسلام لله ، ناداه الله ﴿وَبَادِيَاهُ أَنْ يَبْرَاهِيمَ (١٠٤)﴾ [الصافات] وكان الله كان معهما يرقب هذا الانقياد من عمدين صدق مع الله ، معاءهما فرج الله ﴿وَبَادِيَاهُ أَنْ يَبْرَاهِيمَ (١٠٥)﴾ قَدْ صَدَّقَ لِرُؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)﴾ [الصافات]

يعنى أرفع بك يا إبراهيم عن دبح ولدك لوحيد ، فما كان الأمر إلا بلاء مبيناً ، أى وضع قاس عليك أنت وولدك ، وهو مبين لأنه يُبين قوة عقيدة إبراهيم عليه السلام في تلقى الأمر من الله ، وإن كان صعباً وقاسياً ثم الانصياع به والطاعة ، وكذلك كان البلاء فى حق ولده الذى خضع وامتنل

وجاء الفداء ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات] ذبح بمعنى مذبح ، وهو الكرش الذى أنزله الله ، فداء لإسماعيل .

﴿وَنَرَكُمَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾

لقد استحق سيدنا إبراهيم هذه المنزلة في جميع الأمم من بعده أن يُسَلَّمَوا عليه ، كلف ذكر فيقولون ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات] فلو ذبح إبراهيم ولده لصارت سبة من بعده أن يقترب الإنسان إلى الله بدبح ولده ، لكن لما صبر سيدنا إبراهيم ، واستسَمَّ لأمر ربه حياءه الفرج من الله وعُوهُى وولده من هذا البلاء ، وعُوفاً جميعاً معه من هذه المسألة فكلمنا ذكر قلباً عليه السلام ، لأنه حمائنا من هذا الموقف الصعب .

وقوله ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾ [الصافات] كذلك يعنى كما

معلنا مع إبراهيم بحري كل مُحسن ، ولمحسن هو الذي لا يقف عند حد الواجب المطلوب منه إنما يقعداه إلى الزيادة من حسن ما فُرض عليه وكُلّف به

فالحق سبحانه فرض علينا خمس صلوات في اليوم والليلة ، فمن زاد على ذلك فهو من الإحسان

الله فرض علينا الحق المعلوم للفقير وهو الزكاة ، فمن زاد وأعطى غير المعلوم فهو من الإحسان ، وأقرأ في سورة انذاريات ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي حَبَاتٍ وَعَمِيدٍ﴾ (١٥) أخدين ما اتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴿١٦﴾ [الذاريات] يعني رائدين عما فرض الله من حسن ما فرض الله عليهم .

ثم يذكر سبحانه حيثيات هذا الإحسان ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) وبالأشعار هم يتعفرون (١٨) وفي أمولهم حق للسائل والمحروم ﴿١٩﴾ [الذاريات]

والمحسن يستحق هذا الجزاء لأن الذي يتقرب إلى الله بأكثر مما فرض الله عليه دليل على أنه عَشِقَ لتكليف والمكف وعلم أن الله كلفه بأقل مما يستحق فزد .

وَيَشْرَبُهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾
وَيَرْكَنُ عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ
وَضَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٨﴾

(١) الهجوع اليوم لئلا وقد يكون الهجوع بعير نوم ، الهجيع طائفة من النبل [لسان العرب مادة هجع]

(٢) السحر الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر ، وجميعه أسفار [نقاموس القويم ٣٥/١]

هذه العطاءات كلها نتيجة ﴿هَلُمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٣)﴾ [الصافات]
لأن لابتلاء الذي وقع بسيدنا إبراهيم كان ابتلاءً مُركباً من مراحل
ثلاث فقد الولد الذي جاء على كبر ، وأن يقتله بيده ، ثم تاج هذه
المراحل أن يُقتل ولده برؤيا سامية ، بذلك جاءه لحراء على قدر هذه
العقبات في الابتلاء ، ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٧)﴾ [الصافات]

والفداء فداء إسماعيل من الذبح فعاش إسماعيل ثم رآه الله
عطاء إسحاق ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١٦)﴾ [الصافات] فهو
أيضاً نبي وفي آية أخرى قال سبحانه ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٢٠)﴾ [هود]
ويعقوب أيضاً نبي إذن كل هذا لصير حاء ثمرة
الاستسلام لله تعالى ، الرضا بحكمه ، لذلك صدق القائل^(١)

سَلَّمَ لِرَبِّكَ حُكْمَهُ فَلِحُكْمِهِ يَقْضَى وَحَتَّى تَسْتَفِيدَ وَتَسْلَمَا
وَاذْكُرْ خَلِيلَ اللَّهِ فِي ذَبْحِ أَبِيهِ إِذْ قَالَ حَاقَّةٌ هَلُمَّا أَسْلَمَا

ثم يمتد هذا العطاء فيقول سبحانه ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ (٢١)﴾ [الصافات]

فلم نكلم أحق سبحانه عن الدرية ، قال ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ
وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ فَبِئْسَ [الصافات] (١٨)﴾ معنى الدرية فيها هذا وذاك ، الخير
والشر

هكذا عرصت لنا هذه الآيات قصة سيدنا إبراهيم على وجه
الاختصار ، حيث لم تتعرض لكل الأحداث ويسغى هذا أن يذكر
معركة الأديان في مسألة الذبيح ، فالمسلمون يعتقدون أن الذبيح
إسماعيل ، وغير المسلمين يقولون الذبيح إسحق وهذا القول
مردود من عدة وجوه

(١) عن شعر الشيخ رمي الله به

أولاً لو كان الذبيح اسحق لكانت مسألة الذبيح والفداء وما يتعلق بهما من مناسك معادها ومَراحها بأرض الشام ، حيث عاش هناك سيدنا إسحاق ، أما وهي تُفعل في أرض الحجاز حيث وُلِدَ وعاش سيدنا اسماعيل ، فهذا دليل من لواقع على أن الذبيح إسماعيل

ثانياً : ثم معنا دليل من حديث النبي ﷺ ، حيث قال « أن ابنُ الذبيحين » أي الذبيحين اللذين كان لهما فداء من الذبح ، وتعلمون أن الذبيح الأول هو عبد الله أبو اسحق وقد هداه أبوه من الذبح بمائه ذقة ، أما الذبيح الثاني فإسماعيل عليه السلام الذي فداه ربه بكبش

لأن أنكر غيرنا هذه الأدلة لأهم لا يؤمنون بها ، فعلياً أن نأتيهم بدليل من كتبهم ، لأن الإنسان لا يُصدّق إلا بما يؤمن به ، فلو حلفت للكافر باللات والعزى فإنه لا يُصدّقك ، لأنه يعلم أنك لا تؤمن باللات والعزى ، والإنسان لا يحلف إلا بما يُعظّمه ولو قلّب له والله لصدّقك .

لذلك نسوق لعبير المسلمين هذا الدليل من التوراة التي يؤمنون بها وقد ترك الله لنا في الكتب السابقة على القرآن مواضع تؤيد ما جاء به القرآن وما رآته هذه المواضع موجوده ، وكان الله أعماهم عنها لتظلّ دليلاً على الحقيقة التي لا يعترفون بها

وعندهم أن يقرأوا في الأصحاح الثالث والعشرين في سفر التكوين (وأوحى الله إلى إبراهيم أن اصعد بابك الوحيد جبل الموريه وقدمه هرباً لي) ومتى كان إسحق عليه السلام وحيداً وقد وُلِدَ إسحق وعمر إسماعيل أربعة عشر عاماً وفي الأصحاح الرابع والعشرين (وُلِدَ إسحق وعمر إسماعيل أربع عشرة سنة)

﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ

وَهَارُونَ ﴿١١٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

﴿١١٧﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٨﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ

الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٩﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢٠﴾ وَتَرَكْنَا

عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِ ﴿١٢١﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ

﴿١٢٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ بَجْزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّهُمْ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾

هذا موكب أرولى العزم من الرسل ، فبعد رُحَدَّثَنَا الْقُرْآنُ عَنْ سَيِّدِنَا
إِبْرَاهِيمَ يَحْدُثُنَا عَنْ سَيِّدِنَا مُوسَى ﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٦﴾
[الصَّافَّاتِ] مِنْ اللَّهِ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ مَنَّةً عَظِيمًا ، بَأَنْ جَعَلْنَاهُمَا رَسُولَيْنِ إِلَىٰ
بَنِي إِسْرَئِيلَ ، وَمَنَّةً بَصُرَ بَأَنْ نَصَرْنَاهُمَا عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَحُتُوذِهِ ﴿١١٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا
قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٨﴾ [الصَّافَّاتِ] وَالْمُرَادُ فِرْعَوْنَ ، وَوَصَفَهُ اللَّهُ
بِالْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، لِأَن فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ رَجُلًا مُتَسَلِّطًا عَلَىٰ لِبَاسِ كَمَلِكٍ ، إِنَّمَا
مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِمْ كِبَالُهُ ، وَقَدْ أَرَادَ لِكَيْدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَرَادَ الْكَيْدَ
لِقَوْمِهِ فِي مِصْرَ ، حَيْثُ أَخَذَ مِنْهُمْ الْخِذْلَ وَالْفَعْلَةَ وَاسْجَرَةَ

وَكَلِمَةَ فِرْعَوْنَ تُطْلَقُ عَلَىٰ مُلُوكِ مِصْرَ بِقَدَمَاءَ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
يُسَمَّى (فِرْعَوْنَ) لَكِنْ فِي سُورَةِ يُوسُفَ سُمِّيَ حَاكِمُ مِصْرَ الْعَرَبِ
وَالْمَلِكُ وَلَمْ يَقُلْ فِرْعَوْنَ ، لِمَاذَا ؟ قَالُوا لِأَنَّهُ بَعْدَ نُفُكُ حَرِّ شَدِيدٍ
عَلِمَتْ أَنَّ الْهَكَسُوسَ حِينَئِذٍ أَعْدَوْا عَلَىٰ مِصْرَ كَانُوا مُلُوكًا فِي مِصْرَ
لَا فِرَاعَةَ فَلَمَّا عَدَّ الْأَمْرَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي حُدْمَةِ
الْفِرْعَوْنَ سَبَبٌ وَقَوْمُهُمْ إِلَىٰ حَوَارِ الْمُحْتَلِبِينَ الْهَكَسُوسَ ، فَاضْطَلَبَهُمْ
الْفِرْعَوْنَ وَأَعْوَانَهُ

﴿وَعَبَا يُنْهَى﴾ [الصافات] أي
من فرعون ومن الاستعباد ، حيث خرج بهم موسى عليه السلام
فأدركه فرعون بجنوده حتى حاصروهم عند البحر ، فكان البحر من
أمامهم ، وجيش فرعون من خلفهم

وما أشبه هذا الموقف بموقف طارق من زياد في فتح الأندلس ،
حين قال لجنوده إن البحر من أمامكم ، والعدو من ورائكم

وعندها أقبر بنو إسرائيل أن فرعون مسلح بهم ويدركهم فقلوا
لموسى عليه السلام ﴿أَنَا لَمَدْرَكُونَ﴾ [الشعراء] لأن شواهد الواقع
تدل على ذلك ، فهم لا محالة مدركون بقوانين البشر ، لكن موسى
مع ربه قادرٌ آخرٌ جعل موسى عليه السلام يقول بمرء فيه
(كلا) كلا لن ندرك ، قالها بما لديه من ثقة بربه ، وبما لديه من
اتصاف لإيماني ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء] وفعلًا ،
حماه العرج لتوبه وأمره ربه أن يصرب بعصاه البحر ، وكان
ما يعلمون من العصة .

ثم يقول سبحانه ﴿وَعَصْرَانَهُم فُكَاوُوا هُم الْعَالِيْنَ﴾ [الصافات]
نعم ، رأى عليه ؟ لأن هناك مرفأ بين أن تغلب عدوك ويطل المغلوب
حيًا يورق ، وبين أن تغلبه عيبة تُبيده من الوجود ، والذي حدث في
قصة موسى وفرعون أن الله قصى على فرعون وجنوده قضاءً مُبرماً

ثم ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات] المستبين الذي بلغ
النهاية في إيمان ، والمراد بالكتاب التوراة وقد وصف الحق
سبحه ، تعالى التوراة في موضع آخر فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات] ي

المنهج القويم الموصول إلى الله من أقرب طريق ﴿وتركا عليهما في
الآخرين ﴿١٩﴾ سلام على موسى وهارون ﴿٢٠﴾﴾ [الصافات] يعني تركنا لهما
الذكر الحس فيمن يأتي من بعدهم ، فكل من يسمع قصة موسى
وهارون ومواقفهما وثباتهما على الحق يقول سلام عليهما ﴿بنا كدلت
بجزى المحسنين ﴿١٩﴾﴾ [الصافات] أي : موسى وهارون

ومعلوم أن هارون جاء يطلب من موسى لما قال لربه ﴿وأخي
هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴿٢٤﴾﴾
[التقصير] فاستجاب الله لطلب موسى وأيده بأخيه هارون ، وجعلهما
معاً رسولاً واحداً إلى بني إسرائيل .

والقدآن يُبين لنا هذه المسألة ، وأبهما كانا كرسول واحد في
قوله تعالى ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه ربة وأمراً في الحياة
الدنيا ربنا ليصلوا عن سبيلك ربنا اصمى^١ على أمرهم واشدّد على قلوبهم فلا
يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴿٨٨﴾﴾ [يوس]

فتردّ الحق سبحانه : ﴿قد أجيبتم دعوتكما ﴿٨٩﴾﴾ [يوس] ، مع أن
الداعي موسى وحده ، لكن في الجواب قال ﴿قد أجيبتم دعوتكم
﴿٨٩﴾﴾ [يوس] أي موسى وهارون لأنهما في مجال الرسالة واحد
لا يتفصل^(٢) أحدهما عن الآخر ، فدعوة موسى هي دعوة هارون

(١) اصمى على الأموال محوّلها إلى حجارة وشد على القلب الصبح والخم على قلوبهم
فلا يعلم الله عنهم بالإيمان حتى لو أردوا ذلك حتى يعبثوا العذاب الأليم ، والمقصود بهذا
الدعاء هم فرعون وملأه الممالئون له المنفقون حوله الذين يحرصونه ومشجعونه ويصرونه
لا عموم شعب مصر كما قال البعض خطأ ، فانه تعالى قال ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت
فرعون وملأه ربة وأمراً في الحياة الدنيا ربنا ليصلوا عن سبيلك ربنا اصمى على أمرهم ﴿٨٨﴾﴾ [يوس]

فالتصغير هم عائد على فرعون ومنه [عادل أبو المصطفى]

(٢) قاله أبو العالي ونحو صالح ومكرمة ومحمد بن كعب نقرظي والربيع بن أنس فيمن نقله بن
كثير في تفسيره (٢، ٢٢٩)

وقد حاول بعض العلماء أن يُقَرِّبُوا لَنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ ، فقالوا
أَحَابَ اللَّهِ مُوسَى بِقَوْلِهِ ﴿ قَدْ أَجِيتُكُمْ بِبُرْهَانٍ ﴾ [١٢٨] لَأَنَّ مُوسَى
دَعَا ، وَهَارُونَ آمَنَ عَلَى دَعَائِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ أَحَدُ الدَّاعِينَ
ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
(١٢٩) ﴾ [الصافات] ثُمَّ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ إِلَى نَبِيِّ آخَرَ ، هُوَ سَيِّدُ الْيَاسِ

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٣٠] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿ ١٣١ ﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿ ١٣٢ ﴾
اللَّهُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٣٣ ﴾

كَلِمَةُ (إِلْيَاس) تُكْتَبُ هَكَذَا بِالسِّينِ ، وَالْبَعْضُ لَا يَكْتُبُونَ لِسِينٍ ،
إِنَّمَا يَكْتُبُونَ اسْمَهَا فَيَقُولُونَ (إِلْيَاسِينَ) فَهَذَا عَلَّمَ عَلَى هَذَا النِّسْبِ
لِكَرِيمٍ يَقُولُ إِلْيَاسُ أَوْ إِلْيَاسِينَ اسْمٌ لِمَسْمُومٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ غَيْرُ الْيَسَعِ
عَلَيْهِمْ جَمِيعًا السَّلَامُ

وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَوْضِيحُ أَنَّ سَيِّدَنَا إِلْيَاسَ حَاءُ بَقِصِيَّةٍ عَقْدِيَّةٍ ،
لَا سَنُحِجُّ تَكْلِيْفِي ، جَاءَ لِيُصَحِّحَ الْقِيَمَةَ الْعَقْدِيَّةَ فِي الْإِيمَانِ بِوَاجِبِ
الْوَحْدَانِيَّةِ الْوَاحِدِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُدْعَى وَحْدَهُ ، وَمَوْكِبِ الرِّسَالَاتِ
مَنْ لَدُنْ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا جَاءَ لِيُصَحِّحَ صِلَةَ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ

لِذَلِكَ أَثْبَتَ لَهُ أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّارِقُ وَأَنَّهُ لَعَلِمُ الْعَادِرِ الْحَكِيمِ
الْعَزِيزِ الْخَ ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَكَ وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ سَتَتَلَفَى أَوَامِرَهُ بَرَضًا ،
وَتُفَسِّرُ عَلَيْهَا بِاطْمِئْنَانٍ وَإِنْ لَمْ تُكُنْ عَابِدَتَهُ لَهُ حِزْءٌ مَا قَدَّمَ لَكَ مِنْ

(١) قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ رِيْدٍ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ أَبِيهِ هُوَ اسْمُ صَنِيعٍ كَسَّ يَجْعَلُهُ أَهْلُ مَدِيْنَةِ يَمَامَةَ
يَسْتَدْعِيهِ عَرَبِيٌّ يَمَشُقُ [تَفْسِيرُهُ ابْنُ كَثِيرٍ ٢٠ / ٤]

النعم التي هيأها بك قبل أن توجد ولا تكن عبادتك له خوفاً من عقابه حين تعود إليه

معنى ﴿أَلَا تَنْقُودُ﴾ (٢٠) [الصافات] ألا للحث وللحض على التقوى أو للعرض كما تقول هو لك من كذا ، وقوله ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا﴾ (١٢٥) [الصافات] أي : تعبدون صنماً اسمه بَعْلًا ﴿وَتَذَرُونَ﴾ (١٢٥) [الصافات] تتركون ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (١٢٥) [الصافات]

الحق سبحانه حين يصف نفسه بأنه تعالى (أحسن الخالقين) يعني أنه سبحانه لا يصنُّ على عبده بصفه الخلق ، فالإنسان الذي يعمل عقله في الكون ، ويحترع شيئاً نامعاً لمحتمعه يُسميه الله خالفاً ، لأنه أبداع شيئاً حديداً لم يكن موجوداً .

فهو خالق والله أحسن الخالقين ، لأن الله يخلق من عدم محض ، أما أنت فتحقق من موجود ، خلق الله فيه حياة ونمواً وحركة ، الخ ، وخلقْت حامداً ثابت عند شيء معين ، وقد سبق أن بسا الفرق بين الاثنين .

وبمل هذا الحق سبحانه يذكّر عليهم أن يعبدوا صنماً ، ويتركوا عبادة الله لكن لم يقل وتذرون الله ، إنما ﴿وتذرون أحسن الخالقين﴾ (٢٠) [الصافات] فذكر الوصف المشوق الدال على أحقيته تعالى في العبادة ، وكأنهم سألوا ، ومن أحسن الخالقين ؟ فقال سبحانه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ (٢٠) [الصافات] فإنا أحسن الخالقين ، وأب ربكم وأب رب آبائكم الأولين المسحق للعبادة .

فماذا كان الجواب ؟

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم مُّخْضَرُونَ ﴾ (١٢٧) ﴿ أَلْعِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٢٨)
 وَتَرْكَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿ ١٢٩ ﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ١٣٠ ﴾ إِنَّا كَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١٣١ ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٣٢ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ (١٢٧) [الصافات] كشأر كل الأقوم إلى
 جاءه الرسل ليحرقوهم من الظلمات إلى النور ، ولا بُدَّ أنْ يُكْذِبَ
 الرسل يُكْذِبُهُمْ أَهْلُ الْمَسَادِ وَالْمُتَنَفِّعُونَ مِنَ الْمَسَادِ يُكْذِبُهُمْ سَادَةُ
 الْقَوْمِ وَكِبَرَاؤُهُمْ ، لِتُظْلَ لَهُمْ سِيَادَتُهُمْ وَحَيَرَوْتُهُمْ وَاسْتَعْبَادُهُمْ لِنُضْعْفَاءِ
 ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم مُّخْضَرُونَ ﴾ (١٢٧) [الصافات] أى عَدْنَا لِلْحَسَنِ
 تُحْضِرُهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، وَالْمَعْنَى : لَا تَظْمُوا أَنْكُمْ تُفْلِتُونَ مِنْ أَيْدِينَا ،
 لِأَنَّ لَكُمْ مَعَادًا وَرَجْعَةً كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
 وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥)

وقوله ﴿ أَلْعِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٢٨) [الصافات] أى الذين اصطفاهم
 لَطَعَتِهِ وَأَخْلَصَهُمْ لِعِبَادَتِهِ ، ثُمَّ تُخْتَمُ هَذِهِ الْقِصَّةُ لِمَوْجِرَةِ لِهَذَا النِّبْيِ الْكَرِيمِ
 بِمَا حُتِبَ بِهِ سَابِقَتِهَا ﴿ وَتَرْكَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ١٣٠ ﴾ إِنَّا
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١٣١ ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٣٢ ﴾ [الصافات]

وفهم من هذه الخاتمة أن الإحسان فرغ الإنسان ، معنى ما كان
 مُحْسِنًا إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا أَوَّلًا .

هكذا نخص لنا القرآن قصة هذا النبي ، وبين أنه جاء بقصيه
 عقديه لا قصيه تكليفية ، جاء ليُصَحِّحَ لِلْقَوْمِ الْأَسَاسَ وَالْقَاعِدَةَ الَّتِي
 تُبْنَىٰ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ ، وَهَذِهِ مَهْمَةٌ أُرْسِلَ مِنْ لَدُنْ دَمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ
 حَلَّى اللَّهُ آدَمَ أَمَّا الْبَشَرُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَمَعْنَى خَلِيفَةٍ فِي الْأَرْضِ

أَنْ يَزَاوِلَ فِي الْأَرْضِ مَهْمَةً عَنِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَبَعَالَى

ولكى يزاوِل هذه المهمة أَمَدَهُ الله بصفات من صفاته وهذه الصفات موهوبة ممدودة ليست ذاتية في الحديفة ، لئلا يسلبها الخالق في أى وقت والله تعالى هو واجب الوجود الأعلى ، وهو المتصف بهذه الصفات بذاته ، فإله قادر ويعطيك من قدرته قدرة ، وحكيم ويهبك من حكمته حكمة تراوِل بها الأشياء ، والله قهار ويعطيك قهارية تزجر بها مَنْ كان تحت تصرفك لتستقيم أمورهم ، ويعطيك رحمانية تحنو بها على الضعيف والمحتاج

إذن فمن صفات الحق واجب الوجود الأعلى أنه يعطينا من وجوده وجوداً ، من وجودات متعددة متعدد الأفراد ومتوالية الأمثال ، لكي يعطى سبحانه من لوجود الداتى وجوداً عرضياً فإن نظرت إلى الآفات التي تصيب الناس في حواسهم أو في حوارهم تجدوها مرادة لله تعالى خلقاً أو توجّهاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان كما أخبر عنه خالقه ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ (١) أن رآه استعنى (٧) ﴿ [اعلوا]

وصبرنا لذلك مثلاً بالولد مع أبيه ، فلو أن الأب يعطى ولده المصروف كل شهر تجد الولد لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر ، إنما لو أعطاه يوماً بيوم لتعرض له الولد كل يوم وتمحك فيه ، وأظهر نفسه ليأخذ مصروبه الذي يعوّر عليه ، فتره مثلاً يصر على أبيه في الصباح ويقول يا أبى أنا رايع امدرسة ، فالحاجة هي التي ألجأته لمودة أبيه

إذن يجب أن تُفسر فلسفة الحاحات التي تُعوّر النتيجة ، وهذه الحاحات هي التي تلحّك إلى ربك ، والواقع يؤيد ذلك وكثيراً ما يرى الإنسان لا يلحاً لربه ولا يصلح ما بينه وبين خالقه إلا إذا احتلّ عنده شيء ، وعزّت عليه أسبابه ، فلا يجد إلا ربه فيقول يا رب ، يا الله ،

إذن بقول الحاصل يهبُ الخليفة من صفاته ، لكن تنض هذه الصفات امرهوية عرضية غير دائمة ؛ لذلك يموت الإنسان حيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شاباً وكهلاً وشيخاً ، وهذه القضية تُفسَّر لنا الحديث الشريف

« خلق الله آدمَ على صورته ، طوله ستون ذراعاً »^(١)

والهاء يجوز أن تعود على الله تعالى فيكون المعنى خلق الله آدمَ على صورته تعالى ، لا على حقيقته ، وفرق بين الصورة والحقيقة الصورة هي التي تؤخذ لك لقطة على هيئة معينة ، ثم تتجمد على هذه الهيئة ، إذن هذا الحلق لا يعنى أن آدم أحد شبيهاً من صفات الله على الحقيقة ، لا إنما على الصورة ، لأن الحقيقة لها دوام ، والصفات في آدم لا دوام لها .

ويجوز أن تعود الهاء على دم ، فيكون المعنى خلق الله آدمَ على صورته أي على صورة آدم لأن الله تعالى لم يخلق آدم جسيماً ، ثم وُلد ثم صار طفلاً فشاباً ، لا بل خلفه أول الأمر هكذا على هذه الهيئة المعروفة للإنسان الكامل الاعضاء والجوارح . إذن يجوز الوجهان

وفرَّق بين من يخلق ، ومن يخلق من يخلق ، ولنوضح هذه المسألة قلنا إن الطفل الصغير لا يقدر مثلاً على نقل المائدة من مكانها ، أما لرجل القوى فيستطيع أن ينقلها له ، وهو في هذه الحالة يحلُّ قوته إلى الضعيف ليفعل بنفسه ، إحد عدُّى له أثر صفته

(١) أخرجه البصري في صحيحه (كتاب الاستثنائ - حديث ٤٨٧٢) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٤١) قال النووي في شرحه لهذا الحديث « هذه الرواية ظاهرة في أن الصمير في صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض ، توفى عليها وهي طوبى ستون ذراعاً ولم يتبدل أطواراً كبيرة ، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير »

فحمل عنه واشمال له وصلُّ الطفل ضعيفاً غير قادر على الحمل
 لست تفور إن وحه العظمة في خلق الله تعالى وفي عظمته أنه
 سبحانه يخلق من قدرته قدرةً ، ويهبك إياها فتقدر أنت بنفسك
 وتعمل بيدك ، فالحلُّ يقطوعون ويُعيون لصعيف ويفسور له ، لكن
 بطل ضعيفاً أما الحائق سبحانه فيعطى الضعيف قوةً فيفعل بنفسه
 لكن تنبه أن هذه الصفات موهوبة لك لا دائمة عليك ، لأنك لست
 أصيلاً في الوجود بل أنت خليفة ، ولا بدُّ لك أن تظل في حضن من
 استخلفك ، وإناك أن تشدَّ عُمرُ استخلفك ، وإلا سحب منك مقومات
 هذا الاستخلاف

وحين ترى أصحاب الانتلاءات و لعاهات هذا أعور وهذا أعرج
 إلح ما علم أن الخالق سبحانه يريد أن يلمتك إياه ويُبيِّهك إني أنك
 لست أصيلاً في الوجود إنما مُستخلفٌ وأنت شيء من أمم منك من
 استخلفك فإن تحلّى بمك فأنت لا شيء ، وأفة الإنسان هي انكور
 أن يعتبر نفسه أصيلاً ، ولو فهم دوره وحقيقة وجوده لاستقامت
 الأمور

لنصص بنظر إلى هذه العاهات عني أنها تشويه للحلُّ ولا يرى
 فيها حكمة والحقيقة أنها خُفَّتْ لحكمة مرادة لله تعالى ، وما هي إلا
 وسيلة إصباح للناس كي لا تغترَّ بالحوارج أسليمة وكى تصرَّ على
 ذكر الله الخالق ، وكما قلنا الحاجة هي التي تلجئك

وحين ترى مثلاً رجال المرور يعمدون إلى سيارته جديدة
 مُحطَّمة ويجعلونها في مكان بارز يراه الناس ليرتدع السائقون عن
 الرعونة في السرعة ، فهذه السيارة وسيلة إيضاح وبموجب جعل

كذلك لهدف ، وربما تعمّدوا إعدام لسيارة لما بترتّب على عدام
سيارة واحدة من تحاة ملايين السيارات

كذلك أنت أيها المعافى ، حين ترى أصحاب العاهات يقول الحمد
لله ابدى عافى مما ابتلاك به ^١ وتلتفت إلى نعم الله عليك التى كثيراً
ما تعمل عيب غير فئت فما دىب هذا المستلى أن يحوله الله وسيله
يضاح لغيره ^٢

يقول لو أدركت ما وجده من العوض عما فقد لتمنيت أن تكون
مثه ، لذلك تلاحظ أن أصحاب العاهات عوصهم الله بخصلة أخرى
نُعوض ما فيه من نقص ، لذلك نقول فى الأمثال كل دى عاهة جبار
وقد رأيتم فاقداً الدراعين (يلضم) الخيط فى الإبرة برجليه ، والطفل
لمكفوف يحضض القرن كله وهو ابن السادسة ، أحد الله منه البصر
وأعطاه البصيرة ، إيهما مواهب لا يستطيعها الأصحاء

وسيقول قلنا إن الأكثع لو صرنا بيدك الكعاء لعرفت أنها صرمة
صميئة ، لأنهم يد مستريحة لا تعمل ، ففيها من اقوة ما ليس
لصحيحة ، وإذا انفع كانت كل قوّته فى هذه اليد

ونحن نقول لإخواننا الذين ابتلاهم الله بفقد البصر صديق
العلم " لماذا " لأنهم حصلوا من العلم ما يعجز عنه المبصرون ، ذلك
لأن المبصر تشغله المرائى المتعددة من حوله ، أما المكفوف فلا
يشغله شيء ، فيؤرة الشعور عنده دائماً خالية جاهرة للاستقبال ثم
هو لا يستطيع أن يقرأ بنفسه ، فيشتهر فرصة أن يقرأ له ، فبصت

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٢١٢١) ، وابن ماجه فى سننه (٢٨٩٢) من حديث عبد الله بن
عمر أن رسول الله ﷺ قال : من رأى صاحب بلاء فقال الحمد لله الذى عافنى مما ابتلاك
به وقضئنى على كثير ممن خلق بفضيلاً إلا عوفى من تلك الغلاء كثرة ما كان ما عاشره

جيداً ، ويعني ما يسمع بحيث لا يحتاج إلى إعادته مرة أخرى ، لذلك قال أحدهم^(١)

عَمِيتُ جَنِيًّا وَالذُّكَاةُ مِنَ الْعَمَى فَجِئْتُ عَجِيبَ الصَّرِّ لِلْعِلْمِ مَوْتًا
وَعَابَ ضِيَاءُ الْعَيْنِ بِالْقَلْبِ رَأْفَدًا لَعَلِمَ إِنَّا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصْلًا^(٢)

إن نحن حينما نرى أصحاب العاهات أو الابتلاءات ننظر إلى كمالنا نحن ، ولا ننظر إلى ما عُوصوا به من موهب في جواب أخرى ، وسبق أن قلنا إن الذي أبدع السيمفونية العالمية المشهورة كان أصم^(٣) " وتيمورك الذي دُوح العالم وصاحب الفتوحات المعروف كان أعرج !

والمؤمن الحق حين يرى غيره ممن اتلاههم الله لا يتعالى عليهم ولا يدن عليهم بسلامة جوارحه إنما يتراضع لهم ، وهو يعلم أن هذا النقص يفعله عوض فيقول في نفسه يا ترى في أي الجوانب تتفوق على وتتميز عني ؟ وبهذه النظرة يتساوى الجميع

نقول فعلى الإنسان أن يظل دائماً على ذكر لهذه الحقيقة أنه خليفة لله في الكون ليس أصيلاً فيه ، وما أشبه هذه الخلافة بالوكالة حين تُوكَّل عيرك في شيء بعينه ، فإن اعبر نفسك وكيلاً في كل

(١) هو : بشار بن برد العقيبي ، ولد ٦٥ هجرية أصله من طحارسنن غربي مفر جبحر ، كان غريباً - نشأ في البصرة وقدم بغداد ، أترك الدولتين الأموية والعباسية - انهم بالرندفة فعات صرباً بالسيط - ردفن بالبصرة ، توفي عام ١٦٧ هـ [الموسوعة الشعرية]

(٢) البيهقي من قصيدة له ، عدد أبيته ٤ أبيات ، وهي من بحر الوافر ، ولفظ الأبيات
عَمِيتُ جَنِيًّا وَالذُّكَاةُ مِنَ الْعَمَى فَجِئْتُ عَجِيبَ الصَّرِّ لِلْعِلْمِ مَوْتًا
وَعَابَ ضِيَاءُ الْعَيْنِ بِالْقَلْبِ رَأْفَدًا لَعَلِمَ إِنَّا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصْلًا

(٣) هو بفرمن مؤلف موسيقى ألماني له العصر الأعظم في تطوير الموسيقى الكلاسيكية ، أو حفلة موسيقية لدمها عندما كان في الثامنة من عمره ، بدأ بفقد سمعه في الثلاثينات من عمره إلا أن ذلك لم يؤثر على إنتاجه الذي ارتد في تلك الفترة وبمفر بالإبداع

شيء فسدت الوكالة ، لذلك نرى العقلاء حين يُؤكّلون غيرهم يُؤكّلون على قدر الحاجة والضرورة حتى لا تُستغل الوكالة ، ويطغى الوكيل على صاحب الحق الاصيل .

وصلاح الدنيا كلها واستقامة أمور الناس قائمة على هذا المبدأ ، مبدأ الاستحلاف ، فالأصل في الإنسان أن يظلّ حليقةً محتاحاً لمن استخفه ، والعادة أن الاستعذء يُسيك ، والحاجة تُلجّك وتعطفت إلى من استخلفك .

ولما خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ، هل أسّله في الوجود ليمارس مهمته في إعمار الأرض واستنباط أسرار الله في الكون ، دون أن يُعَدّه لهذه المهمة ؟ كيف وبحر سائح مثلاً اللاعب الذي نعهده بمحرد أن يلعب فتدربه ونعلمه ونصرف عليه ونصحح له أخطاءه ، إلى أن يصل إلى المستوى المطلوب منه ، فما بالك بمهمة إعمار الأرض ؟

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - ربّ آدم عسى هذه المهمة ، فأسكنه في بستان فيه كل ما تشتهي النفس ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

وهكذا حدّد الخالق سبحانه لأدم كيفية معيشته في الجنة ، فأحلّ له أن يأكل منها كما يشاء باستثناء شجرة واحدة إذن فالحلال كثير لا يُعدّ ولا يُحصى ، أما الحرام فمحدود ، وكذلك شأن الله تعالى في الحياه ، فالأصل في الأشياء الإباحة إلا ما جاء به نصٌ يحرمه وهو محصور في أشياء بعينها .

وبأمس هذا ، الاحباط التشريعي في قوله سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ (٣٥) [البقرة] ولم يقلْ ولا تاكلَا ، فالمعنى عنه مجرد قرّبا ، لأن

قُرْبِلَ مِنَ الْمَحْرَمِ يُغْرِيكَ بِهِ حَتَّى تَقَعَ فِيهِ ؟ لَئِكَ تَحْدُ اسْلُوبَ الْقِرَانِ
فِي الْأَوَامِرِ يَقُولُ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (٢٢٩) [البقرة] أما في
النواهي فيقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ (٢٣٧) [البقرة]

لذلك لما حَرَّمَ الْإِسْلَامُ الْخَمْرَ لم يحرم شَرْبَهَا محسباً ، إنما حَرَّمَ
كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ بَيْعٍ أَوْ شِرَاءٍ أَوْ نَقْلِ أَوْ صِنَاعَةٍ ، أَوْ حَتَّى
النَّوَاجِدِ فِي مَكَانٍ هِيَ فِيهِ ، لِمَادَا ؟ لِيَسُدَّ كُلَّ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهَا
الْمُعْغِرَةِ بِهَا .

وحيث يُبَيِّنُ لَنَا الْحَقَّ سَمَحَانَهُ لِحَالَالِ وَاحْرَمِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي .
فإِذَا يَلِغَتْ أَنْظَارُنَا إِلَى قَضِيَّةٍ مَهْمَةٍ ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَنَا : إِنْ اسْتَقَمَّتْ
عَلَى صِهْجِنَا وَتَكْلِيفِ لَكَ سَتَنْظُرُ حَيَاتَكَ سَلِيمَةً بِلا عَمُورِهِ حَالَةٍ مِنْ
الْمَشَاكِلِ وَالصَّعَابِ ، فَإِنَّ نَعْدِيَّتَ هَذِهِ الْحُدُودِ نَسْتَنْظُرُ ظُهُورَ الْعَوْرَاتِ
فِي الْمَجْتَمَعِ ، سَوَاءً أَكَانَتْ عَوْرَاتٍ احْتِمَاعِيَّةٍ ، أَمْ أَحْلَاقِيَّةٍ أَمْ
اِقْتِسَادِيَّةٍ .. إلخ

وفِي قِصَّةِ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ رَمَزَ إِلَى
هَذِهِ الْعَسَالَةِ ، كَيْفَ ؟ لَمَّا اسْتَقَامَ آدَمُ عَلَى مَنَهِجِ رَبِّهِ وَالتَزَمَ بِمَا أَمَرَهُ
اللَّهُ بِهِ عَاشَ فِي الْجَنَّةِ مُعَافًى بِلا سُوءَةٍ ، فَلَمَّا خَالَفَ وَأَطَاعَ وَسُوسَةَ
الشَّيْطَانِ فَأَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا بَدَتْ سُرْعَتُهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ،
لأنه لما اسْتَقَامَ كَانَ يَأْكُلُ بِطَهْيٍ رَبِّهِ لَهُ وَهُوَ طَهْيٌ عَلَى قَدَرِ حَاجَةِ
الْجِسْمِ وَمُقَوِّمَاتِ الْحِمَاةِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ ، يَخْرُجُ فَضْلَاتٌ مِنَ
الْجِسْمِ .

ولكن لما تَدَخَّلَتِ الشَّهْوَةُ ، وَأَطَاعَ الشَّيْطَانُ أَفْسَدَ الْحَالَةَ الْغِذَائِيَّةَ
الَّتِي أَعَدَّ لَهُ فَتَكَوَّنَتْ فِي مَطْنَةِ الْعَصَلَاتِ وَأَحْسُ لَأَوَّلِ مَرَّةٍ بِشَيْءٍ
غَرِيبٍ لَمْ يَعْهَدَهُ ، وَغَوَّجِيهِ بِأَنْ حَرَقْنَا فِي بَدَنِهِ يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ قَدَرِ

كرهه الرائحة .

لذلك عرف آدم أنها عورة ينبغي أن تُستور ، فأخذ يقطع من أوراق الشجر ليستر عورته . ويدل على سوءته ، هذا قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا دَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا^(١) يَخُصِمَانِ^(٢) عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَبَادَاهُمَا مِنْهُمَا أَلَمُ أَنَّهُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلُ لَكُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ^(٣) ﴾ [الأعراف]

وقد رأينا في أثناء الحروب أن الجندي يتغذى على قرص صغير يؤدي مهمة الوجبة الغذائية ، لكن لا يترك فضلات في الجسم ، ذلك لتحفظ مؤونة التموين ، ولا يحتاج الجندي لعملية الإخراج

إن في قصة آدم ولأكل من الشجرة إشارة رمزية إلى أن أحكام الله ما دامت مُعَدَّةً يستقيم حاش البلاد والعباد ، ولا يطهر في المجتمع عورات ومسائىء ، لذلك حين ترى في المجتمع عورة ظهرت في أي ناحية علمية ، اقتصادية ، اجتماعية خلقية الخ فاعلم أن بداً من بنود منهج الله قد عَطُرَ ، فابحث عنه ، وحاول إصلاحه بنفسك أولاً ، إن كان الإصلاح في مقدورك ، لذلك قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ^(١) ﴾ [الرعد]

وآدم عليه السلام - وقع في هذه المخالفة بعد أن بين الله له ما حُرِّمَ له وما حُرِّمَ عليه ، وبين له عداوة الشيطان ، وأنها عداوة

(١) طفقاً من أفعال الشروع ، من أخوات كان وحبرف يكون دائماً فعلاً مصارعاً غير مقدر بأن كقوله تعالى ﴿ وَطَفِقَا يَخُصِمَانِ^(٢) ﴾ [الأعراف] أي : شرعا يعلنان ذلك وأما قوله تعالى ﴿ لَطْفًا مِّنْهُمَا بِسُوءِ الظَّنِّ^(٣) ﴾ [ص] فمصارع مقدر أي عطف على يسبح سبحانه [القاموس القويم ٢/١ ٤]

(٢) يَخُصِمَانِ أي يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة قيل ورق شجر التوت [القاموس القويم ١/١٩٥]

مُسْنَقَةً مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بِالسَّحُودِ فَلَمْ يَسْجُدْ ، وَمَعَ ذَلِكَ سَمِعَ آدَمَ
لَوْسُوسَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمَرَ نِعْمَةُ الْعَقْلِ ، وَأَنْ يُفَكَّرَ فِيهَا
قَالَ عَدُوهُ إِبْلِيسَ ، حِينَ قَالَ ﴿ مَا بِهَآكُمَا رُكُوعًا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٧]

يعنى : أَنْ مَنْ يَأْكُلُ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ يَحُلِدُ وَلَا يَمُوتُ ، إِذَنْ
بِمَادٍ يُمْ تَأْكُلُ أَنْتَ يَا إِبْلِيسُ مِنْهَا ، مَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، لَسْتُ الْقَاطِلَ
لِلَّهِ تَعَالَى ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُعْشَرُونَ ﴾ [٨] [لَاغَرَامَ] هُنَا إِيضًا إِلَى
وَحُوبِ التَّفَكُّرِ فِي وَسْوَاسَةِ الشَّيْطَانِ وَعَدَمِ الْحُضُوعِ لَهُ

إِذَنْ فَفَتْرَةُ وَجُودِ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ كَانَتْ فَتْرَةً التَّدْرِيبِ عَلَى الصَّيْهِجِ
الْحَلَاظِيِّ ، فَلَمَّا حَدَثَتْ مِنْهُ الْمَخَالِفَةُ وَحَصَلَ مِنْهُ - بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ
يُخْرِجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ - وَأَنْ يُنْزَلَ إِلَى حَيَاةِ الْأَرْضِ لِيَسْجُرَ فِيهَا حَرَكَةً
الْحَلِيفَةِ مُسْتَصْحِبًا لِلتَّحَرُّبِ السَّابِقَةِ

وَكَانَ اللَّهُ يَقُولُ لَهُ خُذْ مِنَ الْحَلَالِ مَا شِئْتَ ، وَابْتَعدْ عَنِ الْحَرَامِ
وَاحْذَرِ الشَّيْطَانَ فَهُوَ عَدُوُّكَ وَسَيُظِلُّ يَوْسُوسُكَ بِمُوقَعِكَ فِي
الْمَخَالِفَةِ كَمَا أَوْقَعَكَ فِي الْمَخَالِفَةِ الْأُولَى ، فَإِنَّكَ أَنْ تَسْمَعَ لَهُ لَأَنَّكَ لَوْ
سَمِعْتَ لَهُ وَهُوَ عَدُوُّكَ سَيُخْرِجُكَ مِنْ حَيَاةِ النِّعَمِ إِلَى حَيَاةِ الشَّقَاءِ ،
كَمَا أَحْرَكَكَ مِنْ حَيَاةِ الْإِلْتِمَازِ بِأَمْرِ وَالْإِلْتِمَازِ بِنَهْيٍ ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ
هَذَا عَدُوُّكَ فَلا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [٩] وَلَمْ يَقُلْ
فَتَشْقَى

وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَبِعَالِي وَصَعٍ لَنَا فِي هَذِهِ لَأَنَّهُ إِيضًا رَمِيَّةٌ مِنْ
أَوَّلِ الْخَلْقِ ، لَنَجُلْ لَنَا مُشْكَلَةٌ وَقَضِيَّةٌ مَا زَالَ الْعَالَمُ يَتَحَدَّثُ فِيهَا إِلَى
الْآنِ وَسَيُظِلُّ نَهَا قِصَّةِ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ لِلْعَمَلِ وَالْمَسَاوَاةِ بِالرَّحْلِ ،
وَأَنَّ الْمَرْأَةَ تُرِيدُ أَنْ تُثَبِّتَ ذَاتَهَا .. إِنَّهُ

وعجيبٌ أنْ تطالب المرأةُ بالمزيد من المسؤوليات ، فهي تريد أنْ تأخذ من مهمة الرجل في حين أن الرجل بن يأخذ من مهمتها شيئاً ، ولن محض عنها عهداً من أعبائها ، الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يرضع إلا أن أخذت أنت مهمة الرجل مصافاً إليها مهمتك الخاصة التي لا يقوم هو بها ، وفي هذا ظلم للمرأة .

فقوله تعالى لآدم ﴿ فَتَقَى (١٧) ﴾ [صه] دَر منذ أول الخلق على أن الشفاء والكدر والعص وتحمّل المسؤولية مهمة الرجل ، وأن المرأة سيدة في بيتها مُعززة مُكرّمة ، وهذه الصورة ظلت موروثه هي محتسباتنا بدون تصليل وبدون انطماس فحتى الآن حين يتقدم شاب بخطبة البيت يشترط عليه كبير العائلة يقول (أنت حتسقتها ولا حتشغلها) يعنى يجعلها سيدة مُصوبة في بيتها ، أم أنك ستخرجها للعمل ؟

العصر يقول كيف يعصى آدم وهو نبي ؟ فهو ذن مثل الشيطان هذا عصى وهذا عصى نقول عصى آدم وهو في فترة التدريب التي لا يؤاخذ فيها المخطيء ، بل نُصحح له دور مؤاخذة ، فالتلميذ في لمدسة يُصوب له المعلم خطأه بالون الأحمر دون أن يحاسبه عليه ، إلى أن يأتي اختبار آخر العام ، فيحاسبه على الخطأ

وآدم حين أخطأ كان في فترة التدريب ، وقد صوب الله له خطأه ، ثم إنه لم يكن نبياً في هذه الفترة ، لأن دم حُلِق ليكون أماً للبشر حميماً والبشر سيقسمون إلى قسمين قسم مُصطفى وهم الرسل ، وقسم مُصطفى عليه وهم المرسل إليهم .

إس آدم في لبداية كان يمثل القسمين ، وجاءت تجربته بمثل عصا البشر وعصمة الأنبياء ، بذلك أحصا مصوب الله له ثم تاب

فتاب الله عليه واصطفاه ، وكذلك حال البشر واقرأ ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه] هذه إشارة إلى ما سيكون من البشر ﴿ ثُمَّ اخْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه]

إذن الاختباء والعصمة جاءت بعد التجربة الأولى ، لا آدم مثل الجميع ، مثل عصيان البشر ، ومثل عصمة الأنبياء

هذا الحليفة طرأ على وجود خلق به قبل أن يوجد ، لا أن الله خلقه ، ثم نظر ماذا يريد وماذا يحتاج ثم خلقه سبحانه خلقاً يناسب قيامه بمهمته في عمارة الأرض ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود]

ولم يجعل الحق سبحانه العبادات الأصلية أي أركان الإسلام هي كل حركة الحياة ، بل جعلها هي الشحنة التي تعينك على حركة الحياة لذلك من قبل أن الإسلام هو هذه الأركان يؤديها وحسب مقول به لا لأن هذه الأركان بها يستمد القوة من الله لتتحرك في حركة الحياة ، والإسلام 'وسع' من هذه الخمس بكثير ، ندليل قوله تعالى في سورة الجمعة ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِئَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [الجمعة]

إذن بائعهم وأخذهم من شغل ومن عمل هو قمة حركة الحياة ، ألا وهو البيع ، وإن كان البيع مرتبطاً بالشراء إلا أنه أهوى بذلك خصته بالذكر ولم يقل - وذروا البيع والشراء - لماذا ؟

قالوا لأنه سبحانه خالق الطبع الإنساني ، وسعلم أن الإنسان ثقيل عند الشراء خفيف حريص عليه ، لكنه حريص على البيع ويسعى إليه ، لذلك عندما يكلفك أهل البيت شراء شيء ربما تصاحل في شراؤه و تُوَحِّلَه ، وتُسَرُّ حين يذهب فيحد المحر مغلفاً ، أما لو كنت

دائماً وإب تحوص كل الحرص على أن تبع لِمَا دَا ، لأن المشتري يفتق ولِئَانِ يأخذ ، لذلك ذكر الحق سبحانه البيع لأنه ثمرة الحركة وبعد انتهاء الصلاة قال ﷺ : **لِإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** . . ([الجمعة] إذن أخذك للصلاة من عمر ، وأعانك بعد الصلاة إلى العمل والسعي

وحين تتأمل لفظ الحديث « بنى الإسلام على خمس » ، يعني هذه الخمس هي الدعائم التي يقوم عليها الإسلام والمبنى غير المبنى عليه ، وهل لبناء الذي نسكنه مَكُونٌ من الأساس والأعمدة فحسب إذن الإسلام ليس هو الأركان الخمس إنما الإسلام أوسع من ذلك ، الأركان هي الشحنة التي يسند عليك ربك إليها ، فتأخذ من لقاءه المدد الذي يُعينك على القيام بحركة الحياة

ومثلًا ذلك (بالبطارية) حين تذهب بها إلى الشح ، فنحن لا نستفيد منها في فترة الشحن ، بما نعطيها الشحنة اللازمة لتعمل بها بعد ذلك

ومن عجب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة الإنسانية فرصةً تكليفيًا لا تُدْكَ من القيام به لا تُدْكَ لك أن تقاسي خمس مرات في اليوم واليلة ، لأنك خلقت وصنعتي ، والصانع أعلم بما يُصلح صنعته ، وتصوّر صنعه تُعرض على صنعها خمس مرات في اليوم واليلة هل يبقى فيها عطب ، هل في

(١) حديث يعق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، ومسلم في صحيحه (١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان »

الصانع إن كان من البشر ، فم بالك في الصانع إن كان هو رب البشر وحلقهم سبحانه .

الصانع من البشر يُصْلِحُ صِنْعَهُ شَيْءَ مَادِي مِثْلَ مَسْمَارٍ أَوْ مِصْبَعَةٍ عِيَارٍ مِثْلًا ، مَا الْخَالِقُ سَبْحَانَهُ فَيُصْلِحُكَ دُونَ شَيْءٍ مَادِي ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُهَنْدِسَ وَصِنْعَتَهُ شَيْءٌ مَادِي فَيُصْلِحُ بِالْمَادَةِ ، أَمَا الْخَالِقُ سَبْحَانَهُ مَغْيِبٌ ، فَحِينَ يُصْلِحُكَ مِنْ عَظْبٍ هَبِكْ يُصْبِحُكَ بِمَغْيِبٍ وَلَا تَشْعُرُ بِهِ وَلَا تَرَاهُ .

إن من يقول لا ند أن يفهم الدين على حقيقته ، وأن يفهم أن كل مناهمه ، فإذا تفوق عليك غيرك فاعلم أن تفوقه لصالحك وعائد عليك ، لأنه يتفوقه يؤدي إليك خدمة ، في حين أنه لا يستفيد منك . فإلدي يجيد عملاً لا شك أنه يتفوق نفسه ويتفوق الآخرين ، على خلاف من لا يحدد شيئاً

لذلك نقول في الفلاحين (باب النجار محلع) ، فالنجار تظهر مهارته حينما يصنع لغيره ، لأنه يتقاضى أجراً ، إنما لا يجيد الصنعة لنفسه ، إذن حين ترى المتفوق عندك ، لا تحسده ولا تحقد عليه ، بل تمن له الريادة ، وتمن له الخير ، فسوف يُصْبِحُكَ شَيْءٌ لَا مَحَالَةَ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ ، وسيعود عليك هذا التفوق في شكل خدمة يُقَدِّمُهَا لَكَ

لذلك كنا في انغلاحين ، لو مات لأحدنا بقرة أو جاموسة يحزن الجميع ، لدرجة أنك رأيت مرة جماعة يتكئون على عجل ماتت فتعجبنا ، الناس يتكئون على الميت منهم ، لكن من لحيوانات^{١٤} بعدها عرفنا أن هذا العجل هو الذي يدير الساقية ، ويحرق الأرض التي يأكل منها هؤلاء الناس ، وبالتالي خير هذه الأرض ، وكنا في الريف لا نشترى الخيار ولا

الملوخية ولا البامية وغيرها كثير ، بل كان يُهدى ولا يُباع

إذن ، الهمة المبدولة عند الخلق عائدة على كل الخلق ، فحين ترى مَنْ هو أكثر منك حياءً أو موهبة ، فتمنّ له الريادة لأن خيره لا محالة سيقبض عليك ، وحين ترى مَنْ يحيد عملاً لا تميده أنت لا تحقد عليه ، لأنك ستحتاجه ليحيد لك عملك حتى لو كنت تكرهه ، أو على خلاف معه بحرص عنه لعمل لك ، فانت تعلم مدى إحادته للعمل ، فتذهب إليه حرصاً على مصلحتك أنت ، وبذلك يتم التعادل المطلوب في المجتمع ، وتستقيم أمور الخلق استقامة مبنية على الحاجة

ولو تأملت في نفسك كما قال الله تعالى ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الاسراء] بوجدت في نفسك هذا التعادل بين الأعضاء ، فعندك مثلاً اليد اليمنى تزاوّل بها بعض الأعمال التي تناسبها ، واليد اليسرى تزاوّل بها أعمالاً أخرى تناسبها ، اليد اليمنى للأعمال الشريفة المكرّمة ، أما اليسرى فهي لما دور ذلك ، وغالباً ما تكون اليمنى أقوى من الشمال وأكثر حركة منها وأبقى في التناول .

وتأمّن مثلاً حين تريد أن تقصّ أطافرك ، فإليك نقص الشمال باليمين فيأتي لقصّ دقيقاً مُريحاً ، على خلاف قصّ اليمين بالشمال ، إذن موهبة اليمين عادت على الشمال ، وعدم موهبة الشمال عادت على اليمين ، وهذا يلفتنا إلى أنّ الكمالات في الكون كمالاتٌ مُسْتَطَرَقَةٌ مسطرق فيه ، كاستطراق الماء .

والحق سبحانه تعالى حين خلق الإنسان الطبيعة أعطى له تكوينات تناسب مهمته ، ودور هذه التكوينات الجوارح التي سميها الحواس التي تُحسّ بها الأشياء ، ويسمونها الحواس الخمس الظاهرة ، وقولهم الظاهرة احتياط لم سيجد من حواس يعرفها

الحلم ، وفعلاً اكتشف في الإنسان حواسً أخرى غير هذه الخمس كالْحَاسَّةُ الَّتِي أَعْرَفَ بِهَا الْهَوَى ، وَكَحَاسَّةِ النَّفْسِ الَّتِي أَمِيرُهَا النَّعْدُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، وَحَاسَّةِ الْعِضَلِ الَّتِي أَعْرَفَ بِهَا ثَقُلُ الْأَشْيَاءِ

وَحِينَ تَتَأَمَّلُ هَذِهِ الْحَوَاسِ الْخَمْسَ الْمَعْرُوفَةَ ، تَجِدُ أَنَّ التَّكْلِيفَ الشَّرْعِيَّ جَاءَ عَلَى مَقْتَضَى هَذَا التَّكْوِينِ فِي الْحَوَاسِ ، فَكُلُّ حَاسَّةٍ فِي الْإِنْسَانِ ، وَلِكُلِّ حَارِجَةٍ عَمَلٌ ، فَأَدَاءُ كُلِّ حَارِجَةٍ لِمَهْمَتِهَا يُسَمَّى (عَمَلٌ) ، فَالْقَلْبُ يَعْمَلُ بِالنِّيَّةِ ، وَاللِّسَانُ بِكَلَمٍ ، وَالْأَذُنُ بِسَمْعٍ ، وَالْأَيْفُ بِشَمٍّ ، وَالْيَدُ تَمَسُّ الْأَشْيَاءَ ، وَالْعَيْنُ تَرَى ، هَذَا كُلُّهُ عَمَلٌ .

وَلَا بُدَّ هَذَا أَنَّ يَفْرَقَ بَيْنَ الْعَمَلِ وَالْفِعْلِ ، وَالْفِعْلُ يَقَابِلُهُ الْقَوْلُ الَّذِي هُوَ مَهْمَةُ اللِّسَانِ ، لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى ﴿يَأْتِيهَا الدِّينُ أَمْوَالٌ لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) ﴿[الصف]

إِن فَالْقَوْلُ ، وَهُوَ مَهْمَةُ اللِّسَانِ أَخَذَ قِسْماً وَحِدهُ وَبَقِيَّةُ الْحَوَاسِ 'خَذَتْ' الْقِسْمَ الْآخَرَ ، فَالْقَوْلُ لِلِّسَانِ ، وَالْفِعْلُ لِبَقِيَّةِ الْحَوَاسِ ، لَمَّاذَا أَخَذَ اللِّسَانُ الشَّمْرَ وَبَقِيَّةُ الْحَوَاسِ الشَّطْرَ الْآخَرَ ، قَالُوا لِأَنَّ الْقَوْلَ هُوَ وَسِيلَةُ نَقْلِ مَطْلُوبٍ أَرْسَلَ مِنْهُ لِفِعْلِ ، وَنَقَلَ مَطْلُوبَاتِنَا مِنَ الْغَيْرِ لِيَفْعَلُوها ،

إِن فَكُلُّ الْأَعْمَالِ فِي خِدْمَةِ الْقَوْلِ وَمَسْجِدُ اللَّهِ لَا يَأْتِيهَا إِلَّا بِالْقَوْلِ الَّذِي يَحْمِلُ الْأَمْرَ لِلْحَوَاسِ فَتَعْمَلُ ، وَالْعَمَلُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ عَمَلًا عِضْلِيًا ، بَلْ رِمَا يَكُونُ عَمَلًا مَعْنَوِيًا ، كَعَمَلِ الْقَلْبِ وَهُوَ لِنِيَّةٍ كَمَا قُلْنَا ، وَاشْتَرَعُ هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ هَذِهِ الْحَوَاسِ ، وَيُحَدِّدُ لَهَا الْإِطَارَ الَّذِي تَعْمَلُ فِيهِ فِي ضَوْءِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ

وَمَهْمَةُ الْحَوَاسِ أَنْ تَلْتَقِطَ الْمَدْرَكَاتِ ثُمَّ تَعْرِضَهَا عَلَى الْعَقْلِ ، مُصَفِّيًا نَصْفِيَّةً حَقِيقِيَّةً ، بِأَنَّ يَقَارَنَ بَيْنَهَا ، وَيَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ تَصْلَحُ

لكذا ، وهذه لكذا ، وبعد هذه التصفية يُسَلِّمُهَا للقلب لتصير عقيدةً فيه . وكلمة عقيدة تعني الشيء المعقود الذي لا يُفَكُّ ، ولا يعرّض للنقاش مرة أخرى في العقل . فالطير الصغير مثلاً يُغْرِيه شكل النار الحميل ، فيحاول الإمساك بها . فيحرقه النار ، ويُحَسِّنُ لأول مرة بالحرارة ، فتتكوّن عنده عقيدة أو قضية عقلية أن النار تحرق ، فلا يقترب منها بعد ذلك ، ويظل طوال حياته يسير على هذه العقيدة أو هذا المبدأ ، ولا يحتاج لأن يُحَرِّبَهُ مرة أخرى .

هذه العقيدة ساعة تستقر في القلب يسخب القلب مع الدم فتسير في جميع البدن . وتتخلل كل الاعضاء فتتشرّبها ، وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « إن في الجسد مُصْعَةً ، إذا صَلَّحَتْ صَلَّحَ الجسد كله ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

وبعد أن خلق الحق سبحانه للإنسان الجوارح والحواس خلق الفرائض ، وهي أمور لازمة لك ، ثابتة في تكوينك ، ولا يمكن الاستغناء عنها ، لكن هذه الغريزة قد تُلْجِئُكَ عَيْكَ فتمُخِرُكَ عن الهدف منها . وعندها لا بُدَّ أنْ يَدْخُلَ الشرع ليُكَيِّجَ حمايتها ، وليُعَبِّدَها إلى توازنها الذي خلقها الله من أجبه .

يتدخّل الشرع ليُعَلِّيَ العريضة ويُهْدِيَهَا ، لا ليُكِنِّهَا ويقصّي عليها ، فالأكل عريضة لاستبقاء الحياة ويكفي فيه ما قال سيدنا رسول الله ﷺ : « بحسب ابن آدم بقيمات يُقَمِّنُ صُلْبَهُ »^(١)

(١) حديث متفق عليه أخرجه اليساري في صحيحه (٥٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦٤) والترمذي في سننه (٢٢٨) من حديث المقام بن سعد يكره ، ولفظه : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم بقيمات يُقَمِّنُ صُلْبَهُ » فإن كان ولا بد فاعلاً فثلاث بطنه ، وثلاث شرايه وثلاث ثقوب . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

ولا ينبغي أن تخرج عن ذلك ، وتتحول إلى شره وتخمة حب الاستطلاع غريزة جعلها الله لاستكشاف أسرارهِ في الكون ، والتأمل في مخلوقاته ، فإن خرجت عن هذا الإطار وصارت نحسًا وتتعا للعررات فقد خرجت عن مهمتها . وهذا يتدخل الشرع ليُعَيِّدها إليها قوارنها

رأعنف غرائز الإنسان الغريزة الجنسية ، خاصة في سن الشباب وهذه الغريزة جعلها الله لحفظ النوع واستبقاء النسل ، هذه هي المهمة التي من أجلها خلقت غريزة الحس ، وقد حرص الشرع على استبقاء هذه الغريزة مصحوبة بمهيج حركتها لمن خلقها لتستقيم الأمور ، لأن النسل هو الثروة الأولى التي ينبغي الحفاظ عليها ليأتي النسل شريفًا طاهرًا .

وسبق أن فرّقنا بين النسل الشرعي المحسوب على الولدين ، والنسل غير الشرعي ، وكيف أن الأول يُقاس بالقرحة وبالحنان والعطف والرعاية ، والآخر يُقاس بالكراهية وعدم الرغبة ، وربما فكرت أمه في التخلص منه ، ولو بإلقائه في الشارع

من هنا حرص الدين على بناء الأسرة بناءً سليماً فيه شرف وكبرياء وعزّة نفس في ظل كلمة الله ومنهجهِ السدي يؤمّن لك سلامة نسل ، فيأتي موثقاً به نطمئن إليه ، ومعنى به ، ورببه أحسن تربية ، وهذا هو هدف الشرع

وسبق أن تحدّثنا عن الفرق بين الحلال والحرام في هذه المسألة ، وذكرنا الحديث الشريف : « جُذِعَ الحلالُ أنفُ العيرة » .

إنّ هذه الغريزة مخلوقة في النفس البشرية لإداء مهمّة ، ولكي تبقى في إطار ما خلقت له ، لكن الحاصل أن كثيرين يخرجون

بها عن هدفها ، والعجيب أن يظلم الإنسان الحيوان في هذه المسألة ، حين يقول : هذه شهوة بهيمية ويتشدد بها .

وهذا القول يدل على عدم فهم لغريزة الحيوان ؛ لأن الحيوان يقف بالغريزة عند حدودها كما خلقها الله ؛ لذلك لم ترَ بهيمة أنثى حملت ثم مكنت فحلاً منها بعد ذلك ، كذلك الفحل يشمها ، فيعرف أنها حامل فينصرف عنها .

أهذه شهوة بهيمية على حسب ما نقصد نحن من هذه الكلمة ؟ لا ، بل هي إنسانية .. ولك أن تقارن بين هذه الغريزة عند الحيوان وعند الإنسان ، وسوف ترى العجب في خروج الإنسان بهذه الغريزة عن المراد منها .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ربط الغريزة الجنسية والنسل بالاستمتاع ، ذلك لأن للنسل مطالب وتبعات ومسئوليات ، فلو لم تكن هناك متعة تُرغب الإنسان لزهد في المسألة ، وانصرف عنها .

والحق سبحانه وتعالى يأتي للمؤمنين على منهج واحد بأمور متقابلة مثل : العزة والدلة ، فالمؤمن غير مطبوع على عزة دائمة ولا على ذلة دائمة ، إنما الموقف الذي يعيشه هو الذي يملئ عليه أن يكون عزيزاً ، أو أن يكون ذليلاً ، فالذلة والانكسار لإخوانه المؤمنين والعزة والتعالى على الكافرين الجاحدين ، كما قال تعالى في وصف سيدنا رسول الله والمؤمنين : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (٦٩) [الفتح]

إذن : فهم أشداء رحماء في وقت واحد ، وهذا دليل على أن المؤمن لا تكيفه غرائزه إلا ببعدرات خالق الغرائز .

من التكوينات أيضاً في خلق الإنسان بعد الحواس والغرائز أن الله

خلق في الإنسان العاطفة ، والعاطفة شعور لا نعرف سببه ؛ لذلك تقابل شخصاً فترتاح إليه وآخر تكرهه هكذا دون سابق تعامل ، لماذا إذن تحب هذا وتكره ذاك ؟ إنها العاطفة ؛ لذلك تحب ولدك ولو كان غيباً ؛ لأنك تحبه بعاطفتك ، وتحب ابن عدوك الذكي تحبه بعقلك .. لذلك لم يجعل الحق سبحانه العاطفة مجالاً للتكليف .

وبيّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ العاطفة في قوله لصحابته ، وفيهم سيدنا عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أمه وأبيه ونفسه »

وقفت هذه الكلمة في نفس عمر ، فقال : يا رسول الله ، أنت أحب إلي من أمي وأبي أو من ولدي ومالي ، لكن نفسي يا رسول الله ؟ فكررها رسول الله مرة أخرى ، حتى علم عمر أنها عزيمة ، ولا بد أن رسول الله يقصد حباً غير الذي يراه عمر ، إنه يقصد الحب العقلي ، عندها قال عمر : الآن يا رسول الله ، يعني : الآن أصبحت أحب إلي من أبي وأمي ، وأحب إلي من ولدي ومالي ، وأحب إلي من نفسي التي بين جنبي^(١) .

إذن : السراد في حب رسول الله الحب العقلي ، فلولاه ﷺ ما اهتدينا ولا بلغنا الهدى ، ولولاه لهلكنا ، فانت تحب محمداً ﷺ كما تحب الدواء المر ، لا تحبه بعاطفتك إنما بعقلك ؛ لذلك فهم سيدنا عمر أن الحب المطلوب شرعاً حب العقل ، وإن تحول بعد ذلك إلى

(١) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر : والله يا رسول الله ، لانت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي ، فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فانت الآن والله أحب إلي من نفسي . فقال رسول الله ﷺ : الآن يا عمر ، أخرجك أحمد في سلمه { ٢٣٦/٤ } .

عاطفة وعشق للذات ، وهذه درجة أخرى أعلى من الأولى .
والقرآن الكريم يُعلِّمنا هذا في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْقَوِيِّ ﴾ [المائدة] يعني : لا يحملنكم البغض لقوم أن تظلموهم ، وألَّا تعدلوا معهم ، إذن : البغض غير ممنوع : لأنه مسألة عاطفية . فأحب من شئت ، وبغض من شئت ، لكن إياك أن يحملك الحب أو البغض على أن تنال بأن تجامل من تحب ، وتظلم من تكره .

ولأن العواطف بهذا الشكل ، يعني : ليس لها انضباط في الذات خرجت من نطاق التكاليف الشرعية ؛ لأنك لا تعرف لصاذا مالت بك العاطفة لأن تحب أو تكره .

وحين نتأمل الحواس والغرائز والعاطفة نجد أن الحواس ظاهرة معروفة : فالعين ترى ، والأذن تسمع .. الخ . وكذلك الغرائز ظاهرة بأثرها وأسبابها ، فحين تجوع تطلب الطعام ، وحين تريد أهلك تحن إليهم . أما العاطفة فشيء خفي غير ظاهر ، لذلك يضرب لها القرآن مثلا ليس في الإنسان ولا حتى فيما دونه من الحيوان أو النبات (كما مثلا في الجماد ، وقرأ قوله تعالى في عاقبة الكافرين قوم فرعون : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ [الضحك])

ومعلوم أن البكاء مظهر عاطفي ، فهل تبكي السماء ؟ وهل تبكي الأرض ؟ نعم تبكي وتتفعل ، وكأنها تقول لهؤلاء : اذهبوا فغير مأسوف عليكم ، وإلا لما نفى الله عنها البكاء ، ولم تستبعد ذلك ؟ والسماء والأرض خلق من خلق الله خاضع للتسخير ، ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء]

إذن : لا غرابة أن يفرح الجماد حين يجد من يسبح معه وينسجم

مع الكون المسبَّح ، ولا غرابة أن يحزن ، وأن يبكي عندما يشدَّ البشر عن هذه المنظومة المسيَّحة ، وعليه يمكن القول بأن السماء والأرض لم تَبْك على هلاك قوم فرعون ، وفرحتْ لهداية آسية امرأة فرعون ، إذن : للسماء والأرض انفعال وعاطفة فهي تحب وتكره ، وتبكي وتفرح .

وهذا المعنى أوضحه لنا الإمام على رضي الله عنه ، حين قال ^(١) : إذا مات المؤمن بكى عليه مريضان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض ، أما موضعه في السماء فمصعد عمله - يبكيه لأنه حُرِّم من صعود الكلم الطيب والعمل الصالح - أما موضعه في الأرض فمُصَلَّاهُ - يعنى : المكان الذي كان يُصَلِّي فيه .

كانت هذه مقدمة ضرورية ندخل بها على قصَّة سيدنا لوط في قوله تعالى :

﴿وَلِإِن لُّوطًا

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ بَغَىٰ نَهْلَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٣﴾ إِلَّا عَجُوزًا

فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢٤﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُنَّ عَنْهُمْ

مُصْبِحِينَ ﴿١٢٦﴾ وَيَالَيْلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

كانت مهمة سيدنا لوط في دعوة قومه أشقَّ مهمة : لذلك ذُكر في القرآن سبع عشرة مرة ، بالرفع وبالجبر ، وذكر عشر مرات بالنصب ، ووجه المشقة في مهمته عليه السلام أنه جاء ليُعدِّل أعنف الغرائز في النفس البشرية ، وهي الغريزة الجنسية .

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (١٤٢/٤) أن رجلاً سأل على بن أبي طالب : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصَلَّى في الأرض ومصعد عمله من السماء .